

كلية الآداب

جامعة بنغازي

شعبة: الأدب

قسم اللغة العربية

"الشعر في إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري: أغراضه وقضاياها الفنية"

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات درجة الإجازة العالية " الماجستير " بكلية

الآداب قسم اللغة العربية بتاريخ 26 / 12 / 2011 م

إعداد الطالب :

محمد نوح يونس عبدالله

إشراف :

الأستاذ الدكتور محمد فرج دغيم

كلية الآداب / جامعة بنغازي

تاريخ المناقشة 26 / 12 / 2012 م

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي
أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27)
يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) . سورة : طه .

إهداء.....

الحمد لله القدير على ما يشاء والصلاة والسلام على خير خلق الله
إلى من أخلصا في تربيته وأحاطاني بكل الحب والحنان
والذي العزيزين

،،،،،،

إلى من توجوني بتاج الثقة والاحترام

إخوتي وأصدقائي الأعزاء

،،،،،،،،

إلى من أناروا لي درب العلم وبذلوا كل الجهد والعطاء

أساتذتي الكرام

،،،،،،،،،،

إلى كل طلاب العلم أهدي هذا العمل المتواضع

المقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا وقدوتنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

فقد كان الشعر منذ القدم إلى يومنا هذا يتبوأ الصدارة في تراث الشعوب والأمم بالرغم مما وصلت إليه الشعوب من الحداثة والتقدم، ذلك لأن الشعر وسيلة للتعبير عما يختلج من مشاعر الفرح والحزن في نفس قائله، فضلا عن أن الشعر يعد وثيقة تاريخية مهمة تكشف عن واقع الحياة السياسية والاجتماعية وكذلك الاقتصادية للزمان والمكان الذي عاصره، وهذا يفسر لنا قولهم: الشعر ديوان العرب ولقد كان الشعر الغرناطي خير وثيقة وصلتنا تعكس واقع المسلمين في إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري وشهد ازدهاراً واضحاً أسهمت في بروزه عدة عوامل كان من أهمها:

1 — ظهور بعض الإمارات الصغيرة المستقلة إبان سقوط دولة الموحدين في الأندلس في مشهد يعود بالذاكرة إلى زمن الطوائف الذي أعقب انهيار الخلافة الأموية، وكان من بين هذه الإمارات، إمارة بني الأحمر في غرناطة، وإمارة بني هود في مدينة مرسية، وإمارة بني الحكم في مدينة ميورقة، وقد أدى وجود هذه الإمارات الصغيرة إلى إحداث نوع من التنافس الذي أسهم في نشاط الحركة الأدبية، لاسيما في مجال الشعر.

2 — سقوط مدن أندلسية كبرى كانت حواضر للعلم والأدب والفن والسياسة، كقرطبة، وإشبيلية، ومرسية، ومن ثم أصبحت غرناطة وما جاورها من مدن، كمالقة و المرية تمثل مراكز الثقافة والأدب المتبقية في الأندلس منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري.

3 — رحيل عدد من الشعراء الأندلسيين من أمثال ابن رشيق المرسى، وأبي بكر ابن المرابط إلى مدن إقليم غرناطة بسبب الزحف الصليبي على المدن الأندلسية، وكان لهؤلاء الشعراء المهاجرين دور في ازدهار الشعر داخل المدن الغرناطية .

4 — اهتمام بني الأحمر مؤسسي الإمارة الغرناطية في الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الإيبيرية بالشعر، حيث كانوا من ذوي المواهب الأدبية، والثقافات العلمية، يتذوقون الشعر، ويقدرّون قائله، وكان بنو الأحمر ينحدرون من أسرة ذات أصول عربية عريقة، ترجع في نسبها إلى الأنصار الخزرجيين الأزدية، ولهذا السبب عرفوا باسمين مشهورين هما: بنو الأحمر، وبنو نصر، وقد بدا اهتمامهم بالشعر واضحاً منذ عهد محمد ابن الأحمر مؤسس الإمارة فقد ذكر عنه المؤرخ الغرناطي ابن سعيد أنه كان " يفهم الشعر، ويكثر مطالعة التاريخ " (1)، كما ذكر عنه ابن الخطيب أنه كان يعقد مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع يستقبل فيه الشعراء، وينشدونه قصائدهم، وكان يجزي لهم العطاء (2)، وكان بقية أفراد الأسرة النصرية من أمراء ورؤساء يهتمون بالشعر والعلم من، ومنهم من يقرض الشعر أيضاً، وسيأتي توضيح ذلك في مكانه من هذا البحث .

كل هذه العوامل التي مر ذكرها تعطي لاختيار الزمان والمكان أهمية خاصة غير خافية في هذه الدراسة التي آثرت أن يكون عنوانها: ((الشعر في إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري، أغراضه، وقضاياها الفنية)) .

وقبل أن أقف عند الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع لا بد لي من توضيح المقصود من كلمة (إقليم غرناطة) في عنوان هذه الدراسة .

(1) — ابن سعيد على بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تح: شوقي ضيف، ج2، ط3 مصر، دار المعارف، 1978م، ص: 109 .

(2) — ينظر: لسان الدين بن الخطيب، اللوحة البدرية في أخبار الدولة النصرية، تح: لجنة إحياء التراث العربي، ط3، بيروت —

إن لكلمة (إقليم) في اصطلاح الجغرافيين تعريفات متعددة بحسب أغراضهم ومقاصدهم ،ومن بين هذه التعريفات أن الكلمة تعني " مجموعة من المدن الصغرى على مستويات مختلفة " (1)، وهو تعريف يكاد ينطبق على المقصود بكلمة (إقليم غرناطة) (2) في هذه الدراسة ؛ إذ إن المقصود بهذه الكلمة المنطقة التي تضم القسم الجنوبي من الأندلس، وهي تمتدّ من ساحل جبل طارق حتى ألمرية، وتنبسط في الداخل حتى سلسلة جبال ألبيرة، وتضم هذه المنطقة ثلاث مدن رئيسة، هي غرناطة ، و مالقة و ألمرية ، وقد أضحت هذه المدن الثلاث منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري تمثل حدود الدولة الإسلامية الجديدة في الأندلس، وتعيّن الأراضي المتبقية للمسلمين.

• أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

إن هذا البحث يختص بدراسة الشعر التقليدي الفصيح دون سواه من الفنون الشعرية الأخرى، كالزجل أو الموشح مثلاً؛ وقد دفعني لاختيار الشعر موضوعاً للدراسة عدة أسباب يأتي في مقدمتها :

1 — تشجيع أستاذي الجليل الدكتور الفاضل محمد فرج دغيم الذي ساعدني في اختياري هذا الموضوع، وتابع عملي بالنصح والتوجيه والإرشاد ،منذ أن كان هذا العمل بذرة إلى أن استوى على سوقه.

2 — قلة الدراسات التي اهتمت بالشعر في هذه الحقبة؛ حيث لم يحظ الشعر الغرناطي بعناية الدارسين مثلما حظي به في العصور الأخرى كعصر الطوائف أو المرابطين مثلاً، ولم أجد — بحسب اطلاعي المتواضع — بحثاً استقلّ بدراسة الشعر الغرناطي في هذه الحقبة.

(1) — يوسف توي ، معجم المصطلحات الجغرافية ، دار الفكر العربي ، (د،ت) ص: 39 .

(2) — أود أن أشير هنا إلى أن كلمة (إقليم غرناطة) وردت في عدة مصادر أندلسية ،فقد وردت لدى أبي جعفر بن الزبير في كتابه : (صلة الصلة) تح عبد السلام الهراس ، وسعيد أعراب ، المغرب ، وزارة الأوقاف ، 1414هـ — 1994م ؛ وذلك خلال ترجمته لعدد من الأعلام ؛ انظر مثلاً ق 4 ترجمة رقم : 168 ، ق 4 ترجمة رقم : 175 ، ق 4 ترجمة رقم : 4 . كذلك وردت هذه الكلمة لدى ابن الخطيب: ينظر كتابه : الإحاطة في أخبار غرناطة ، تح: محمد عبد الله عنان ج 3 ، ط 4 ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، 1421هـ — 2001 ص : 481 ، وكذلك ص : 569 ، كما وردت أيضاً لدى ابن الأبار ينظر كتابه : المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تح: إبراهيم الأبياري ، ط 3 القاهرة ، دار الكتاب المصري: 1410هـ — 1989م ص 84 . وسيأتي توضيح معنى كلمة (إقليم) في اصطلاح الأندلسيين خلال التمهيد من هذه الدراسة .

وهناك دراسات كثيرة اهتمت بالشعر في عصر الموحدين؛ منها دراسة الدكتور فوزي سعد عيسى التي كان عنوانها: (الشعر الأندلسي في عصر الموحدين)، وهي دراسة لم تختص بالشعر الغرناطي، كما أنها لم تمتد إلى حقبة القرن السابع الهجري، لاسيما في عهد بني الأحمر.¹ وقد تضمنت هذه الدراسة بعض الملاحظات العامة حول شعر بعض الشعراء الغرناطيين كشعر أبي الطيب الرندي أحد الشعراء الغرناطيين، بيد أن تلك الملاحظات لا تقدم تصوراً واضحاً عن حركة الشعر الغرناطي في الحقبة المذكورة .

أما الدراسة الوحيدة — فيما أعلم — التي حملت عنواناً قد يوهم بأنه يتتبع اتجاهات الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري فهي دراسة الدكتور أيمن ميدان التي كان عنوانها: (اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة)؛، إلا أن من يقرأ هذه الدراسة يجد أن تركيز الباحث جاء منصباً على دراسة الشعر الغرناطي في القرن الثامن الهجري، حيث إن الباحث لم يعط اهتماماً واضحاً بالشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري الأمر الذي قد يوهم القارئ بأنه لا حياة تذكّر للشعر الغرناطي أو بأنه كان ضعيفاً في هذه الحقبة (2)، وقد ثبت من خلال هذه الدراسة عدم صحة هذا الافتراض؛ ذلك لأن الشواهد المتمثلة في العديد من القصائد والأشعار التي وصلتنا عن هذه الحقبة من الشعر الغرناطي استطاعت أن تدل على أن الشعر الغرناطي خلال العهد الأول من حكم بني الأحمر كان ناضجاً وقوياً، وكان يحمل لواءه شعراء غرناطيون لا يقلون موهبة وإبداعاً عن شعراء القرن الثامن الهجري .

ومهما يكن من أمر هاتين الدراستين المذكورتين سابقاً؛ فإنني قد أفدت منهما في دراستي هذه، كما أفدت من دراسات أخرى، كان من أبرزها دراسة الدكتور عبدالله الزيات التي كان عنوانها: (رثاء المدن في الشعر الأندلسي) إلى غير ذلك من الدراسات التي كان لها علاقة بدراستي هذه، وإذا حق لي أن أصف عملي في هذا البحث، فيمكن أن أصفه بأنه كالجسر الذي يربط بين ضفتي النهر، أي أنه يشكل حلقة وصل وربط بين ما قبل القرن السابع الهجري وما بعده في دراسة حركة الشعر الغرناطي.

(1) — ينظر — فوزي سعد عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ط1 الإسكندرية، دار الوفاء 2008.

(2) — ينظر — أيمن ميدان، اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة، القاهرة، دار العلوم 1995 رسالة دكتوراه غير منشورة.

3 — وهو سبب مترتب على السبب السابق ؛ بمعنى أن عدم اهتمام الدارسين بالشعر الغرناطي في هذه الحقبة جعله عرضة للاهتمام بالقصور والضعف من قبل بعض الباحثين العرب والأجانب ؛ فقد ذهب الباحث الإسباني آنخل بالنثيا إلى أن الشعر الأندلسي خلال العصر الغرناطي كان يلفظ آخر أنفاسه مثل فروع الثقافة الإسلامية في الأندلس يعيش " على أصداء الماضي " ¹ ، وصرح الدكتور محمد كمال شبانة بأن " شعراء الأندلس ، وخاصة في الفترة الأولى من حكم بني الأحمر كانوا أقل براعة وإنتاجاً ، وكان حظهم من هذه الناحية أقل بكثير من شعراء ملوك الطوائف " ² ، وقد ذهب الباحث الإسباني إميليو غارثيا غومث إلى أبعد من ذلك ؛ فقد قرر أن ثقافة الإمارة الغرناطية غلب عليها في عهدها الأول التأثير النصراني وذكر " أن المملكة النصرانية تمت خلال أعوامها الأولى في ظل تأثير قشتالي قوي " ³ ، وأطلق هذا الباحث حكماً عاماً حين صرح بأن الشعر الأندلسي فقير جداً من الناحية الذهنية التفكيرية ، معللاً ذلك بأن شعراء الأندلس تأثروا بشعراء المشرق المشهورين من الناحية الشكلية التي تتناول البراعة في النظم والتنميق ، ولكن لم تتفتق أذهانهم عن أفكار جديدة ، كما لم يبدعوا في أوزان الشعر ، وقد وصف غارثيا غومث قصائد الأندلسيين بأنها أشبه ما تكون بقصور حمراء لفظية ⁴ .

ولا يخفى على القارئ ما ينطوي عليه حكم غارثيا غومث من تعميم محف بحق الشعراء الأندلسيين ؛ فهو لم يحكم على شاعر واحد في عصر بعينه وإنما حكم على الشعراء الأندلسيين جميعاً في كل العصور ، وهذا حكم لا يمكن القبول به ألبتة .

1) — آنخل جنثال بالثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة: حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1427هـ — 2006 م ، ص167 .

2) — يُنظر :محمد كمال شبانه ، يوسف الأول ابن الأحمر ، ط1 ، القاهرة ، دار المعارف 2004 ، ص 158 ، 159 .

3) — إميليو غارثيا غومث ، مع شعراء الأندلس والمنتسبي سير ودراسات ، ترجمة: الطاهر أحمد مكّي ، ط2 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1978 م ، ص 180 .

4) — يُنظر: إميليو غارثيا غومث ، الشعر الأندلسي : بحث في تطوره وخصائصه ، ترجمة حسين مؤنس ، ط2 القاهرة ، دار المعارف 2005 ص 17 — 18 .

كل هذه الأسباب ،فضلاً عن رغبتى الجادة في خدمة الأدب العربي الأندلسي كانت وراء اختياري هذا الموضوع الذي تتمثل أهميته في الكشف عن أغراض الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري ،وتتبع أبرز قضاياها الفنية ، فضلاً عن التعريف برواد الشعر الغرناطي في العهد الأول من حكم بني الأحمر.

• منهج الدراسة وتقسيمها:

استخدمت في هذه الدراسة المنهج التكاملي الذي يستوعب معظم المناهج العلمية في الدراسات الأدبية من وصف وتحليل ومقارنة وإحصاء ،وقد اقتضت طبيعة الدراسة أن تكون في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول .

- التمهيد:أوضحت فيه الحدود الجغرافية لإقليم غرناطة ،وأهم المدن الرئيسة التي يضمها ، وقد أغنيت الهوامش في هذا التمهيد بالعديد من المعلومات والأخبار حول المدن والقرى التي تدخل في نطاق إقليم غرناطة .
- الفصل الأول : ضمّ هذا الفصل أربعة مباحث ؛خصّصت المبحث الأول للحديث عن الحياة السياسية في القرن السابع الهجري ، بيد أني لم أشأ الدخول في تفاصيل التاريخ المطولة ،أو السرد التاريخي المسهب الذي يخرج البحث عن نطاقه المخصص له؛ وإنما اكتفيت بالتركيز على أهم الأحداث التي لها علاقة بالشعر الغرناطي، ووقفت عند كل ما له ارتباط بأسرة بني الأحمر؛ ذلك لأنها كانت ترعى الأدب ،وتحتضن الأدباء في هذه الحقبة،وتتبع نسب هذه الأسرة وفروعها ، وتوقفت عند مؤسس إمارة غرناطة محمد ابن الأحمر الملقّب بالغالِب بالله ، فعرّفت بسيرته وألقابه وأبنائه الأمراء، وأشرت إلى أبرز ملامح سياسته الداخلية والخارجية ،وحاولت جهدي إمطة اللثام عن بعض الجوانب التاريخية المرتبطة بهذه الأسرة ،والتي تتطلب الوقوف عندها من قبل الدارسين المهتمين بتاريخ مملكة غرناطة،وأعلامها ،وسيجد القارئ المتخصص في الدراسات الأندلسية في هوامش هذا المبحث معلومات ،وحقائق ،ومقارنات؛ أحسب أنّها ذات قيمة في دراسة التاريخ السياسي الأول لأسرة بني الأحمر.

● **المبحث الثاني:** خصصته لدراسة الحياة الاجتماعية في إقليم غرناطة، وبدأته بالوقوف عند العناصر السكانية المكونة للمجتمع الغرناطي، ثم وقفت عند أبرز عادات الغرناطيين، لاسيما أعيادهم، ومناسباتهم الاجتماعية المعروفة آنذاك .

● **المبحث الثالث:** خصصته للتعريف بالحياة العلمية والثقافية في إقليم غرناطة على عهد بني الأحمر، فوقفت عند أبرز العلوم الغرناطية آنذاك، معرفاً بأشهر العلماء الغرناطيين في تلك العلوم، منوها بمؤلفاتهم العلمية أو الأدبية ، ولم أنس المحور الرئيسي لهذه الدراسة وهو الشعر، فقد خصصت مساحة في هذا المبحث للحديث عن حركة الشعر في ظل دولة بني الأحمر، وذلك من خلال تتبع أخبار أمراء الدولة الغرناطية التي تؤكد على تذوقهم للشعر واهتمامهم به، ورعايتهم للأدباء من خلال تقليدهم أسمى المناصب الرسمية في الدولة كالكتابة والوزارة، وتقريبهم من البلاط الغرناطي، وقد أسهم كل هذا في رواج الشعر، وازدهاره في إقليم غرناطة في هذا الحقبه من التاريخ الغرناطي .

● **المبحث الرابع:** وقفت في هذا المبحث عند أبرز شعراء إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري، معرفاً بهم وبأشعارهم بحسب ما توافر لدي من معلومات؛ وقد قادي البحث إلى ترتيب الشعراء الغرناطيين في هذا القرن إلى ثلاثة أجيال :

- شعراء الجيل الأول، وهم الذين عاشوا في النصف الأول من القرن السابع الهجري .
- شعراء الجيل الثاني، وهم الذين عاشوا معظم حياتهم في القرن السابع الهجري.
- شعراء الجيل الثالث، وهم الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن السابع الهجري وبداية القرن الثامن، من أمثال أبي حيان الغرناطي، وابن الجياب الغرناطي، وأبي الحسن عمر القيحاطي .

ونظرا لكثرة الشعراء الغرناطيين في هذا القرن؛ إذ بلغ عددهم حوالي الثلاثين شاعرا؛ فإني اكتفيت بالتعريف والترجمة لشعراء الجيل الثاني فحسب، بل إنني اقتصرت على من كان من هؤلاء الشعراء على اتصال ببني الأحمر أمراء غرناطة، أما بقية الشعراء الذين لم يدخلوا ضمن هذا الشرط فإني اكتفيت بالإحالة إلى موضع ترجمة كل شاعر منهم .

● **الفصل الثاني:** كان وقوفي في المبحث الرابع عند شعراء إقليم غرناطة بمثابة التوطئة للفصل الثاني الذي خصصته لدراسة أغراض الشعر الغرناطي في هذه الحقبة، وقد دار هذا الفصل في فلك خمسة مباحث هي :

- **المبحث الأول :** خصصته لدراسة المدح بنوعيه ؛ السياسي ، والنبوي .
- **المبحث الثاني :** خصصته لدراسة الغزل بنوعيه ؛ الأثوي ، والغلماني .
- **المبحث الثالث :** خصصته لدراسة فن الرثاء بنوعيه ؛ رثاء الأشخاص ، ورثاء المدن .
- **المبحث الرابع :** خصصته لدراسة شعر الوصف .
- **المبحث الخامس :** خصصته لدراسة شعر الحنين والغربة .

ولكي تكون الفائدة جلية وواضحة من دراسة أغراض الشعر الغرناطي ؛ فقد حرصت على أن أضع في ختام كل مبحث أبرز الملحوظات التي يحسن التنويه إليها حول كل غرض شعري .

- **الفصل الثالث :** خصصته لدراسة القضايا الفنية في الشعر الغرناطي، وقد اخترت ثلاثة جوانب مهمة هي : اللغة ، والصورة ، الموسيقى ، واشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث
- **المبحث الأول:** خصصته لدراسة اللغة ، وعرضت بشيء من البسط للروافد التي غدت لغة الشعراء الغرناطين، وركزت على ستة روافد رئيسة هي: القرآن الكريم ، والحديث الشريف، والأمثال والأقوال المأثورة ، والشعر العربي ، والأعلام والأماكن ذات الصبغة التراثية، والمفردات والمصطلحات العلمية ، وتتبع طريقة توظيف هذه الروافد الستة في الشعر الغرناطي ، وفي ختام هذا المبحث وقفت عند محورين متعلقين بلغة الشعر الغرناطي ، تناولت في المحور الأول الألفاظ المستقاة من البيئة الأندلسية، و تناولت في المحور الثاني الألفاظ التي يشيع استخدامها إلى البيئة المسيحية المجاورة.

- **المبحث الثاني :** خصصته لدراسة الصورة الفنية في الشعر الغرناطي، ووقفت في البداية عند مفهوم الصورة في الشعر لدى النقاد القدامى والمحدثين، ثم انتقلت إلى الحديث عن وسائل تشكيل الصورة في الشعر الغرناطي، وأخيراً عرضت لأبرز أنواع الصور المستخدمة في الشعر الغرناطي.
- **المبحث الثالث :** خصصته لدراسة موسيقى الشعر الغرناطي وقسمته إلى قسمين؛ درست في القسم الأول الموسيقى الخارجية، من حيث الوزن والقافية، ودرست في القسم الثاني الموسيقى الداخلية، وقد حوى هذا المبحث على العديد من الملاحظات، والإحصاءات التي أحسب أنها مهمة في دراسة موسيقى الشعر في هذه المدة.

وفي نهاية هذه الدراسة وضعت تقريراً موجزاً حوى أهم نتائج وتوصيات هذا العمل الذي كتب له أن يولد في بلدي ليبيا الحرة، وينمو بين أحضان المغرب الشقيق، وقد تواصل الجهد فيه قرابة الثلاث سنوات من البحث والتنقيب في المصادر و المراجع والمخطوطات، وتنقلت خلال هذه المدة بين العديد من المكتبات والعواصم؛ لأجل اقتناء الكتب ومقابلة الأساتذة المختصين في مجال الأندلسيات، ولم يخل عملي هذا شأن جلّ الدراسات والأبحاث من الصعاب والعقبات التي كان بعضها شاقاً واستثنائياً في طريق باحث مبتدئ مثلي، لكن مبدئي في مواصلة الجد والمثابرة والاستمرار كان دائماً قول الله تعالى: {إن رحمة الله قريب من المحسنين} ¹.

وإذا كان لكل مجتهد نصيب، وكما يقال في المثل الإسباني الشهير: "quin la sique la consique" ²؛ أي من يتبعها يحصل عليها؛ فإنه من خلال هذا الجهد المتواضع اهدت الدراسة إلى نصوص شعرية غرناطية أحسب أنها لم تكن موضع اهتمام من قبل الدراسات السابقة؛ ولأهمية هذه النصوص قمت بوضعها ضمن ملاحق هذه الدراسة.

(1) — سورة، الأعراف، الآية: 56

(2) * — سمعت هذا المثل في إحدى المحاضرات في أثناء تعلمي للغة الإسبانية في (Instituto Cervantes) بمدينة طنجة المغربية.

ولم يكن هذا كل ما اهتمت إليه الدراسة، فقد كشفت أيضاً عن شعراء غرناطيين، سواء ممن كانوا في عداد المغمورين، من أمثال أبي جعفر ابن شلبطور، وأبي عبد الله البرجي، أو ممن كانوا في عداد المجهولين من أمثال الشاعر أبي عمرو ابن المرابط الذي لم يكن يعرف عنه — قبل هذه الدراسة — سوى كنيته و لقبه فحسب، لكن هذه الدراسة اهتمت إلى التعريف بنسبه وباسمه وبأسرته وأصدقائه، ولم يعد هذا الشاعر شبه مجهول .

في ختام هذه المقدمة الموجزة لا يسعني إلا أن أقف وقفة شكر وتقدير وعرفان لكل من بسط لي يد العون والمساعدة، ولو بكلمة طيبة، بله النصيح والتوجيه في سبيل إنجاز هذا العمل .

أشكر أسرتي الكريمة، وأخص بالشكر والديّ اللذين صبرا عليّ، وأسأل الله أن يبارك لنا في عمرهما، ثم أشكر أستاذي المفضل الدكتور محمد فرج دغيم الذي صبر عليّ مدة البحث، وتكفل برعايتي نصحاً وتوجيهاً، وإرشاداً، وشجّعني على فتح نافذتين علميتين جديدتين؛ تمثلت النافذة الأولى في تعلمي الطباعة الإلكترونية، وأما الأخرى؛ فقد تمثلت في تشجيعه لي على تعلم اللغة الإسبانية، ثم أشكر الأستاذ الكريم في علمه وأخلاقه الدكتور عبد الحميد عبد الله الهرامة الذي أكرمني بعلمه وبنصحه لي مدة وجودي في المغرب الشقيق، ثم أشكر الأستاذ الباحث المغربي القدير عبد العزيز الساوري الذي استفدت من معلوماته الغزيرة، كما قدم لي العون بإعارتي العديد من المصادر والمراجع القيمة من مكتبته الخاصة، وذلل لي الصعاب في الحصول على صور من بعض المخطوطات، وأشكر أيضاً كل الأصدقاء في المكتبات الليبية، والمغربية، والمصرية التي زرتها مدة البحث، وأسأل الله أن يجزيهم عني خير الجزاء.

والشكر الموصول بالموودة للأساتذة المحترمين بقسم اللغة العربية في جامعة قاريونس، وفي كلية الآداب والعلوم بالمرج، ولا يفوتني أن أشكر الأساتذة الأفاضل الذين سيتكرومون بمناقشة هذا البحث، وستكون ملحوظاتهم وتوجيهاتهم القيمة عاملاً مهماً في إثرائه ونجاحه، راجياً أن ينال الرضا والقبول من الله عزّ

وجلّ، وأن يكون لنا ذخراً في آخرتنا { يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم }⁽¹⁾، وحسبي
أبي حاولت ، وما التوفيق إلا بالله.

(1) — سورة الشعراء، الآية: 89.

الفصل الأول
الحياة السياسية والاجتماعية
والثقافية في إقليم غرناطة

التمهيد

إقليم غرناطة : موقعاً وتضاريس :

يقع إقليم⁽¹⁾ غرناطة في الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة الأيبيرية ، في وادٍ عميق يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجلال سيرا نيفادا ، المعروفة باسم شلير ، وهو في معمور الإقليم الخامس⁽²⁾ ، تحيط به المرتفعات من الجنوب والشرق ، ويحدُّ إقليم غرناطة من جهة الجنوب نهر شنيل، وهو أحد فروع الوادي الكبير ، كما يحده شمالاً ولايات جيان وقرطبة وإشبيلية ، ومن الشرق ولاية ألمرية ، ومن الغرب ولاية قانس ، وأرض أنتقيرة⁽³⁾ .

(1) — هذا المصطلح ليس حديثاً ، بل كان معروفاً عند المؤرخين الأندلسيين ؛ فقد قسم ابن فضل الله العمري الأندلس إلى (19) إقليمياً ، وهو تقسيم خاص لجأ إليه لتيسير الوصف الجغرافي ، كذلك أورد ياقوت الحموي في كتابه (معجم البلدان) اصطلاحات جغرافية تعني تقسيمات إدارية خاصة بأهل الأندلس ، منها مصطلح (الإقليم) و ذكر أنه اصطلاح خاص بأهل الأندلس ، وأخبرنا أنهم "يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليمياً " وعنوا بذلك البلدة أو القرية وحوزها المتصل بها .

يُنظر : ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : محمود محمد المغربي ، ج 2 ، ط1 ، الإمارات العربية المتحدة ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، 1429 هـ 2008 م ، ص 37 وما بعدها ، وينظر أيضاً : ياقوت الحموي ، معجم البلدان تح : إحسان عباس ج1 ، بيروت ، دار صادر ، 1956م ص 26 . وينظر : حسين مؤنس ، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ، بيروت ، مؤسسة التراث العربي ، 1986 م ص 253 . . وينظر : الدراسة القيمة للباحث يوسف أحمد بني ياسين ، بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية ، دراسة مقارنة ط 1 ، الإمارات العربية المتحدة ، مركز زايد للتراث والتاريخ ، 1425 هـ 2004 م ص 147 .

(2) — عن تحديد هذا الإقليم ينظر : ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : محمود محمد المغربي ، ج 2 ص : 25 وما بعدها ، وينظر : بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، ج 1 ص 93— 94 . وينظر : بن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص 21 ، 22 . وينظر : سامية مصطفى محمد مسعد ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصر المرابطين والموحدين ، ط 1 ، القاهرة — مكتبة الثقافة الدينية ، 1423 هـ — 2003 م ، ص 21 .

(3) — (أنتقيرة) بفتح التاء ، وسكون الباء ، وبالإسبانية (Antaquera) : حصن بين مالقة وغرناطة . يُنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج 1 ص 259 .

وقد أصبح هذا الإقليم منذ بداية القرن السابع الهجري يشكل الحدود الجغرافية لإمارة غرناطة⁽¹⁾ التي تمتد جنوباً من ساحل جبل طارق حتى المرية على ساحل البحر الأبيض

- (1) — يحيط باسم غرناطة هالة من التفسيرات اختلفت آراء الباحثين في توجيهها : فمن ذاهب إلى أنها سُميت بذلك لكثرة الرمان الذي يزين أرضها ، ومن ذاهب إلى أن هذه التسمية ترجع إلى عهد الرومان، وأما هي مشتقة من الكلمة اللاتينية (Granata)، ومعناها الرمان ، وسُميت بذلك إما لجمالها وكثرة حدائق الرمان فيها ، وإما لأنها تقع على تلين، فتشبه بهذا الرمان المشقوقة ، ومنهم من ردها إلى أصل قوطي ، أو ردها إلى أصل بربري مشتق من اسم إحدى القبائل ، ومن ذاهب إلى أن الكلمة مزيج من كلمة (ناطة) وهو اسم قرية قديمة، وكلمة (غار) ولما أُضيف صار (غرناطة) مع العلم أن كلمة (Granada). تعني بالإسبانية الرمانة. ينظر: F.CORRIENTE , DICCIONARIO ESPANOL ARABE , MADRID , 236.p . INSTITUTO HISPANO , ARABE DE CULTURA .1970 . وينظر أيضاً: شهاب الدين أحمد التلمساني المقرئ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ج1، ط1 ، مصر، مطبعة السعادة ، 1367هـ — 1949م ، ص147، وينظر إلى هذه الآراء وتفسيراتها لدى : محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، ج7 ، ط3، القاهرة — مكتبة الأسرة ، 2001، ص22. وينظر أيضاً : ابن الخطيب ، الإحاطة ج1 ، ص91. وكذلك : فون شاك ، الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، ت : الطاهر أحمد مكّي ، القاهرة — دار المعارف ، 1980م ، ص117 .
- ويذكر ابن الخطيب : غرناطة أو إغرناطة وكلاهما اسم أعجمي ، وقد أثبت ياقوت الحموي روايتين متعارضتين حول الألف في كلمة غرناطة؛ تفيد الأولى بأن الألف أصل، والصحيح (إغرناطة) بالألف في أول الكلمة ، وأسقطها العامة كما أسقطوها من كلمة إلبيرة فقالوا : لبيرة ، وأما الرواية الثانية فتفيد بأن الكلمة غرناطة بغير الألف . ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج1 ، 3 ، مادة رقم : 179 ، 51 .
- وقد ورد هذا الاختلاف عند جلّ المؤرخين الذين تناولوا غرناطة بالتعريف ، فمنهم من أثبتتها بالألف ، كالعذري ، والإدرسيّ والحميري . ينظر: أحمد بن عمر العذري ابن الدلائي ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تح: عبد العزيز الأهواني، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية — 1965 م ص84 . وينظر: محمد بن عبد العزيز الشريف الإدرسي ، (وصف المغرب والأندلس) ، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تح : دوزي ، ودي غويه ، ج2 ، طبعة ليدن ، 1966م ، ص : 569 . وينظر : أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح: ليفي بروفنسال ، (د، ب) ، (د، ن) ، (د، ت) ، ص: 23 .
- ومنهم من أثبتتها بغير الألف، كابن حيان ، وابن غالب وابن سعيد ، والمقدسي . ينظر: أبو مروان حيان بن خلف ، المقتبس في أخبار الأندلس ، تح: عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ، دار الثقافة 1983م ص: 201، وينظر: ابن سعيد علي بن موسى ، المغرب في حلى المغرب ، تح: شوقي ضيف ، ج2 ، ص: 102 ، 103 ، وينظر : أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تح : محمد مخزوم ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي 1987 م ص: 193
- ومنهم من أثبتتها بالوجهين ، كابن الخطيب ، والمقرئ . ينظر : ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص: 21، وينظر أيضاً: المقرئ ، نفح الطيب ، ج1، ص: 147.

المتوسط ، وتبسط في الداخل حتى سفوح سلسلة جبال رُنْدَة وجبال إلبيرة ، وهضاب البشرات ، ويجدها من الشمال ولايات جيان ، وقرطبة وإشبيلية ، ومن الشرق ولاية مرسية، وشاطئ البحر الأبيض المتوسط من الجنوب ، ومن الغرب ولاية قانس ، ويخترقها من الوسط جبل شلير المسمى بجبل الثلج⁽¹⁾. كما تخترقها عدة أنهار تتفرع من الوادي الكبير ، أهمها نهر شنيل، ونهر أندرش ، ونهر حدرة ، وفي الشرق نهر المنصورة⁽²⁾.
ويضم إقليم غرناطة ثلاث مدن كبرى ، هي:

1 — مدينة غرناطة (Granada):

وهي تقع على سفح جبل شلير ، يشقها عدد من الأنهار أشهرها نهر شنيل وحادرد ، " أمّا نهر شنيل فينحدر بجنوبيها من جبل شلير أو جبل الثلج، وهو جبل في غاية الارتفاع، وبه الثلج دائما في الشتاء والصيف، ويمر هذا النهر على غربي غرناطة إلى فحصها ... وأمّا حادرد فهو ينحدر من جبل بناحية وادي آش شرق شلير ، ويمر بين بساتين ومزارع وكروم إلى أن ينتهي إلى غرناطة ، فيدخلها من باب الدفاق بشرقها ويشق المدينة نصفين"⁽³⁾.

وأما عن ضبط الكلمتين (غرناطة أو إغرناطة) فقد ذهب الدكتور كمال شبانة إلى أن المصادر العربية تذكر اسم العاصمة (غرناطة) بالفتح للغين دائما ، ، كما أنها تُنطق في الإسبانية الحديثة بالفتح ، وذكر أيضاً أن النطق بالفتح هو في معظم اللغات الأجنبية (Granada)، وذكر أن ما ذهب إليه د.حسين مؤنس حين ضبطها بضم الغين ليس صواباً .
هذا وقد ضبط صفى الدين البغدادي الكلمتين (غرناطة وإغرناطة) بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح النون وألف وطاء مهملة وهاء في الآخر .

وأرجح أن يكون ضبط الكلمة (غرناطة) بفتح الغين ،بيد أني لا أوافق ما ادعاه الدكتور محمد كمال شبانه حين ذكر أن ابن الخطيب في الإحاطة ضبط كلتا التسميتين بفتح الغين (غرناطة وإغرناطة) فهذا الكلام غير دقيق؛ ذلك أن الكلمة وردت في كل من نسخة (الإحاطة) الطبعة الرابعة ، وكذلك في (الروض المعطار) بكسر الهزرة وسكون الغين (إغرناطة)، وهذا يعني أن الخلاف في ضبط الكلمة ربما يقع حول كلمة (إغرناطة) المهموزة لا في كلمة (غرناطة) التي هي من غير همز . يُنظر : محمد كمال شبانة ، يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، ط 1 ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـ — 2004م ، ص 17— 18 ، يُنظر : صفى الدين عبد المؤمن البغدادي ، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تح : علي محمد البحايوي ، ج 2 ، القاهرة ، د.ن ، 1373هـ — 1954م ، ص 990 . ويُنظر أيضا : الجُميري ، الروض المعطار ، ص: 23. ويُنظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1، ص 91.

- (1) — حول هذه التسمية يُنظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، ج 7 ، ص 23.
- (2) — ينظر : ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص 21 وما بعدها . ويُنظر : محمد كمال شبانة ، يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة ، ص — 18.
- (3) — أبو العباس أحمد القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميرية ، ج 5 ، القاهرة — المؤسسة المصرية العامة للتأليف ،

وقد أثنى المؤرخون والشعراء على الطبيعة الغرناطية الساحرة فشبهوها بدمشق ، ومنهم من غالى فقال : "إنها وإن سميت دمشق الأندلس أحسن من دمشق ؛ لأن مدينتها مطلة على بسيطها ، متمكنة في الإقليم الرابع المعتدل ، مكشوفة للهواء من جهة الشمال ، مياها تنصب إليها من ذوب الثلج دون مخالطة البساتين والفضلات ... وقلعتها عالية شديدة الامتناع ، وبسيطها يمتد فيه البصر مسيرة يومين بين أثمار وأشجار وميادين مخضرة... لا يأخذها وصف ، ولا يُنصف في ذكرها إلا الروية " (1) ، وقد امتدحها أحد الشعراء قائلاً :

{مخلع البسيط}

غَرْنَاطَةُ مَا لَهَا نَظِيرٌ مَا مِصْرُ! مَا الشَّامُ؟ مَا الْعِرَاقُ؟
مَا هِيَ إِلَّا الْعُرُوسُ تُجَلَى وتلك من جُمْلَةِ الصَّدَاقِ (2)

ويعجب فون شك بملامح الجمال في غرناطة ، فيعبر عن هذا بقوله : "جميلة في كل العصور هذه المقاطعة ! ولا مثيل لها وبخاصة في الربيع ، عندما تذوب الثلوج على قمم الجبال ، وتدفق بالمياه غزيرة في الجداول والسواقي والأثمار ، وتحدث فيضاً من الخضرة الزاهرة ، فتبدو الزهور في كل مكان ، تتنافس في بهاء الألوان وطيب الأريج ... وصفاء الجو ، وطيب هواء سيرا نفاذا يجعلان من مجرد التنفس تحت سماء غرناطة متعة ؛ لأن الأرض لا تكاد تعرف لمثل هذا شبيهاً في أي مكان آخر .." (3) .

وأما أهم المدن التابعة لغرناطة فهي : وادي آش (4) ، وبسطة (5) ، وأشكر (6) ولوشة (7) ،

د.ت ، ص 214 – 215 .

- (1) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ، ص 102 – 103 .
- (2) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج 1 ، ص 142 .
- (3) — فون شك ، الفن العربي في إسبانيا وصقلية ، ص 113 – 114 .
- (4) — تقع شمال شرق غرناطة على مقربة من جبل شلير ، اشتهرت أرضها بالخصوبة ، ومناخها بارد جداً . يُنظر: أبو عبدالله الحِميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص 192 – 193 . ويُنظر : لسان الدين ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، تح : أحمد مختار العبادي ، القاهرة — دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، 1967م ، ص 88 – 89 .
- (5) — تقع شمال غرناطة ، وكانت مشهورة بمنتجاتها الزراعية لاسيما الزيتون ، وبمنسوجاتها الحريرية . يُنظر : الحِميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص 44 – 45 .
- (6) — يُنظر ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 87 .
- (7) — تقع غربي غرناطة على نهر شنيل ، اشتهرت ببساتينها وأثمارها ومعادنها وبخاصة الفضة ، وبها وُلد لسان

والحامة⁽¹⁾، والمنكب⁽²⁾، وشلوبانية⁽³⁾

2 — مدينة ألمرية (almeria) :

ضبطها ياقوت الحموي بفتح الميم، وكسر الراء، وتشديد الياء، هي مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط بين مالقة ومرسية، وتُعدُّ من أجمل المدن الأندلسية وكانت تتمتع بحركة تجارية نشطة⁽⁴⁾، ومن أهم مدنها: أندرش⁽⁵⁾، ودلاية⁽⁶⁾، وبرجة⁽⁷⁾، وبرشانة⁽⁸⁾، والمنصورة⁽⁹⁾، وبيرة⁽¹⁰⁾.

-
- الدين ابن الخطيب . يُنظر : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 93 — 94 .
- (1) — تقع جنوب غرب غرناطة ، اشتهرت بمماماتها الساخنة . يُنظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص 39 .
- (2) — تقع على ساحل البحر المتوسط جنوب غرناطة ، وكانت مرفأً للسفن . يُنظر : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 80 ، هامش رقم 5 .
- (3) — تقع على ساحل البحر المتوسط شرقي المنكب ، وهي من حصون غرناطة البحرية . يُنظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص 11 . ويُنظر : ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ج 2 ، ص 129 .
- (4) — يُنظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج 5 ص 119 ، 120 .
- (5) — تقع غرب المرية على نهر صغير ينبع من جبل شلير . يُنظر : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 88 . ويُنظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص 31 .
- (6) — تقع في الوسط بين وادي آش وألمرية ، ولها صيت ذائع بالحرير والمعادن . يُنظر : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 81 — 82 .
- (7) — تقع غرب المرية وتتسم بطبيعة فاتنة ومزارع فسيحة ، ويقول ابن سعيد : "كان والدي متولعاً بالفُرجة فيها لِمَا خصَّها الله به من حسن المنظر ، أخبرني أن الجنات مُحَدِّقة بها ، وهي على نهر بهيج يُعرف بوادي عذراء، وفيها الفواكه الجليلة ، وبها معدن الرصاص " ويُنسب إلى هذه المدينة عدد من الشعراء منهم الشاعر أبو عبد الله بن بكر البرجي أحد شعراء بني الأحمر في القرن السابع الهجري . ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ج 2 ، ص 228 . ويُنظر أيضاً: المقرئ ، نفع الطيب ، ج 1 ، ص 143 ، 144 .
- (8) — كانت حصناً منيعاً، تقع على نهر المنصورة. يُنظر: ابن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب، ص 36 .
- (9) — تقع شمال غرناطة إلى الشمال من ألمرية على نهر المنصورة . يُنظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 109 هامش رقم 5 .
- (10) — وهي بلدة حصينة تشرف على ساحل البحر المتوسط في شمال شرق غرناطة. يُنظر : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 109 هامش رقم 5 .

3 — مدينة مالقة⁽¹⁾ (Malaga) :

بفتح اللام والقاف كلمة أعجمية ، وهي تقع على الساحل الجنوبي الشرقي لبلاد الأندلس شرقي غرناطة ، وهي من أشهر مراسي البحر المتوسط. وأهم مدنها: بلّش مالقة⁽²⁾، وطرش⁽³⁾، وقمارش⁽⁴⁾، ورندة⁽⁵⁾، ومريلة⁽⁶⁾، و أرشدونة⁽⁷⁾، والجزيرة الخضراء⁽⁸⁾. وقد أسهب علماء الجغرافية والتاريخ ، ومؤرخو الأدب في وصف غرناطة والمدن التابعة

- (1) — مدينة ساحلية معروفة في جنوب شرقي الأندلس أسسها الفينيقيون عام 1200 ق.م ، وأعطوها اسم (Malaca) ومعناه الملح ، وذلك نسبةً إلى مستودعات الأسماك المملحة التي كانت تعمل وتحفظ فيها ، واشتهرت مالقة إلى جانب ذلك بزراعة الفواكه الممتازة لاسيما التين المالح والرمان ، كما اشتهرت بصناعة الفخّار ، وكانت قديماً تُسمّى بَريّةً ، ويقول ابن سعيد عن هذا الاسم وما تمتاز به هذه المدينة : "ويكفيها عن الإطناب ما يتضمّن شرح اسمها ؛ إذ معنى ريبّه عند النصارى : سلطنة ، فهي سلطنة البلاد". يُنظر : ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ج 1 ، ص ص 423 — 424 . ويُنظر عن مالقة : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 76 — 77 ، الهامش رقم 2 . ويُنظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص 177 — 178 . ويُنظر : المقري ، نفسح الطيب ، ج 1 ، ص 144 ، 145 . ويُنظر كذلك : Simonet : Ency of Islam : art Malaga : نقلاً عن : سامية مصطفى محمد مسعد ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة ، ص 24 وينظر : يوسف أحمد بني ياسين ، بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية ، دراسة مقارنة ص 468 .
- (2) — قال عنها ابن سعيد : " مدينة في شرقي مالقة ، ضخمة الأسواق ، الحضارة أغلبُ عليها من البادية ، وليس في قواعد مالقة مثلها في الحضارة ". يُنظر : ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ج 1 ، ص 442 .
- (3) — تقع شرقي مالقة على البحر المتوسط . يُنظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج 5 ، ص 219 .
- (4) — تقع بالقرب من مدينة غرناطة ، " وهي وافرة الماء والزرع من كروم وزيت وحبوب ". يُنظر : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 79 .
- (5) — تقع غرب مالقة ، لها شهرة بكثرة فواكهها ومياهها ، ونقل ابن سعيد وصفها عن كتاب القلائد فقال : " تطرد منها على بُعد مُرتقاهما ، ودُنوّ النجم من دُرَاها عيون لانصبأها دويّ كالرعد القاصف ، والرياح العواصف ، ثم يتكون وادٍ يلتوي بجانبها التواء الشجاع ، ويزيدها في التوعّر والامتناع ، لا يتعدّر فيها مطّلب ، ولا يتسوّر بما عدو إلاّ علقه نابٌ أو مِخلبٌ " ، وقد " وصف أهلها بالجفاء ... ". ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ج 1 ، ص 334 . ومن أشهر شعرائها : أبو الطيب الرندي .
- (6) — أو ماريلة ، وهي تقع على ساحل البحر المتوسط غربي مالقة . يُنظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 197 ، الهامش رقم 4 . وكذلك : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 75 ، الهامش رقم 4 . وأيضاً : الحميري ، الروض المعطار ، ص 180 .
- (7) — تقع شمال مالقة بالقرب من غرناطة في بطن وادٍ عميق سحيق تحيط به الجبال من كل ناحية . يُنظر : ابن الخطيب ، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ، ص 94 . وأيضاً : الحميري ، الروض المعطار ، ص 12 .
- (8) — تقع على ساحل البحر المتوسط غرب مالقة ، اتخذها المجاهدون المغاربة ملجأً ومعبراً وحصناً لهم ، اتّسمت بطبيعة ساحرة ، واشتهرت من أنهارها نهر العسل ، وبها دار صناعة الأساطيل . يُنظر : الحميري ، الروض المعطار ، ص 73 — 75 .

لها، وبسط مآثرها، وتعقب محاسنها ، فابن الخطيب أعطى هذا الجانب اهتماماً كبيراً حين راح يبسط القول في وصفها وصفاً جغرافياً ، وتاريخياً ، وأدبياً⁽¹⁾ ، مقتبساً كل عبارة أو مقولة تثني على بقعة من بقاعها أو ملمح من ملامح الجمال المتفرد فيها ، ومن الأقوال التي ساقها لوصف غرناطة قول أبي القاسم الملاحى⁽²⁾ في كتابه (تاريخ علماء ألبيرة) حيث قال : " فهى في وقتنا هذا ، قاعدة الدنيا... وحاضرة السلطان ، وقبة العدل والإحسان ، لا يعدلها في داخلها ولا خارجها بلد من البلدان ، ولا يضاهيها في اتساع عمارتها ، وطيب قرارها وطن من الأوطان ، ولا يأتي على حصر أوصاف جمالها وعد أصناف جلالها قلم البيان "⁽³⁾.

(1) — يُنظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 91 — 143 . وكذلك : ابن الخطيب، اللمحة البدرية ، ص 21 — 29.

(2) — يُنظر ترجمته لدى ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ج 2 ، ص 126.

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة ، ج 1 ، ص 93.

المبحث الأول
الحياة السياسية
في إقليم غرناطة

المبحث الأول

الحياة السياسية في إقليم غرناطة

عقب الفوضى السياسية التي عانى منها الأندلس بعد انهيار الحكم الموحد في الأندلس أوائل القرن السابع الهجري، وسقوط العديد من الثغور والمدن بأيدي النصارى، شهد إقليم غرناطة قيام دولة إسلامية فتية قدر لها أن تحمل راية الإسلام والجهاد ضد الأعداء قرابة القرنين ونصف من الزمن . هذه الدولة هي دولة بني الأحمر أو بني نصر .

وكان مؤسس هذه الدولة يدعى محمد بن يوسف ، ويعرف بابن الأحمر، وهو زعيم أندلسي استطاع أن يستحوذ على ملك الأندلس من يد زعيم أندلسي آخر يعرف بابن هود الذي سحب بساط ملك الأندلس من تحت أرجل الأمراء الموحدين بعد أن أصيب سلطاهم في الأندلس بالضعف والوهن بسبب تناحرهم على الملك.

وكان هذان الزعيمان، أعني ابن الأحمر ، وابن هود من أشهر الثوار الذين برزوا أثناء الصراع السياسي الذي شهدته الأندلس عقب انهيار سلطان الموحدين في الأندلس. لم يستطع ابن هود المحافظة على ملكه، أو توسيع نفوذه في الأندلس، بالرغم من أن الظروف كانت مهيأة لصالحه، ولم تتجاوز سنوات حكمه العشر سنوات، من سنة 625 هـ إلى 635 هـ، وكانت نهاية حياته اغتيالاً على يدي وزيره ابن الرميمي في مدينة المرية .

وكان محمد ابن الأحمر أكثر ذكاء، و حكمة، وشجاعة في مواجهة أعدائه، والمحافظة على ملكه، وبسط نفوذه في الأندلس من غريمه ابن هود⁽¹⁾، وكان من أسباب نجاح هذا الزعيم نسبه العريق الذي يعود إلى الأنصار؛ إذ منحته هذه العراقة محبة الغرناطين، وثقتهم، فسارعوا إلى خلع طاعة ابن هود، وإعلان البيعة لابن الأحمر.

وقد اشتهرت أسرة محمد ابن الأحمر باسم بني نصر نسبة إلى الأنصار، ولما ظهر مؤسس الدولة محمد بن يوسف، وذاع صيته، وكثر ذكره على الألسنة، وكان يلقب بابن الأحمر

(1) — يُنظر : عبد الرحمن محمد ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخير ، ج7 ، ط2 ، بيروت ، منشورات دار الكتاب اللبناني 1959م ، ص391 وما بعدها .

،صارت الأسرة تدعى باسمين مشهورين هما :بنو نصر، وبنو الأحمر⁽¹⁾.

— أصلهم :

يرجع نسب بني الأحمر إلى الخزرج الأزديين ؛فقد ذكر ابن الخطيب أن هذا البيت النصري اشتهر عند كثير ممن عني بأخباره أنه من ذرية سعد بن عبادة؛ سيد الخزرج، وصاحب رسول الله ﷺ، وذكر أيضا أن الناس صنفوا في اتصال نسبيهم بقيس بن سعد بن عبادة غير ما تصنيف⁽²⁾، ومما وصلنا من هذه المصنفات الغرناطية كتاب: (نزهة الأبصار في فضائل الأنصار) للقاضي أبي بكر عتيق ابن الفراء الغساني الأندلسي 635 _ 698 هـ⁽³⁾ وهو مؤلف يتتبع نسب الأنصار وفضائلهم، ويشيد بدورهم في مسيرة الدعوة الإسلامية، ويدعو من خلال النصوص إلى محبتهم، وإعطاء المنتسبين إليهم المكانة التي يستحقونها، وقد خص المؤلف محمد ابن الأحمر الغالب بالله كونه أنصاري النسب بهذا الكتاب، ويتضح هذا من مقدمة الكتاب التي قال فيها: "...وأستوهبُ من الله جلّ جلاله لوارث شرفهم اليميني، وقسيمهم في النسب الأنصاري المدني مولانا الغالب بالله المجاهد في سبيله، أمير المسلمين وناصر الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر؛ تمهيدا يمد على البسيطة ظلاله، وتأييدا يبلغه في حياة الإسلام وأهله آماله.." ⁽⁴⁾.

— فروعهم :

تنقسم أسرة بني نصر إلى فرعين كبيرين يرجعان إلى جدّ الأسرة النصرية، وهو نصر بن عقيق، الذي خلّف ولدين هما يوسف ومحمد⁽⁵⁾. وكان موطن أسرة بني نصر في أرجونة،

(1) — ينظر: عبد القادر زمامة، بنو الأحمر في غرناطة، إصدارات جامعة محمد الخامس، ع 26، السنة 13، 1396هـ —

1976م، المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط، ص102.

(2) — يُنظر: أبو الحسن البناهي، الإكليل في تفضيل النخيل، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم (198، ق)، ورقم: 50، و يُنظر: ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص33، و يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص92.

(3) — يُنظر: ترجمته لدى: أحمد ابن القاضي المكناسي، درة المجال في غرة أسماء الرجال، تح: مصطفى عبد القادر عطا، ط1 بيروت، دار الكتب العلمية، 1423 هـ 2002م ترجمة رقم: 1159، ص372.

(4) — يُنظر: أبو بكر عتيق ابن الفراء الغساني الأندلسي، نزهة الأبصار في فضائل الأنصار، تح: عبد الرزاق بن محمد مرزوق، ط1 الرياض، مكتبة أضواء السلف، 1425 هـ 2004 م ص: 94. ويلاحظ أن الاهتمام بنسب بني الأحمر لم يقف عند حد تأليف الكتب فحسب؛ بل امتد إلى الشعر أيضاً، وسيأتي توضيح هذا الأمر عند الوقوف على شعر المدح السياسي.

(5) — ينظر: أبو الحسن البناهي، الإكليل في تفضيل النخيل، ورقة: 50. و يُنظر أيضاً: ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص34

وبها وُلِدَ مؤسس دولتهم محمد بن يوسف سنة 595هـ / 1198م⁽¹⁾. فهو من أبناء الفرع الأول اليوسفي ، وإلى هذا الفرع أشار الشاعر أبو عبدالله البرجي في معرض مدحه لمحمد ابن الأحمر؛ وذلك في قوله: {السريع}

يَا آلَ نَصْرٍ يَا بَنِي يُوسُفَ يَا أَبْحَرَ الْجُودِ وَأُسْدَ الْكِفَاحِ⁽²⁾

وانقسم الفرع اليوسفي هو الآخر إلى فرعين⁽³⁾: الفرع الغالبي الذي يرجع أصله إلى محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله مؤسس الإمارة الغرناطية . وظلَّ هذا الفرع يحكم الإمارة منذ تأسيسها سنة 635هـ حتى سنة 713هـ/1313م حينئذ انتهى الدور السياسي الذي مثله هذا الفرع من أسرة يوسف بن نصر⁽⁴⁾، وانتقل الحكم إلى الفرع الثاني؛ وهو الفرع الإسماعيلي نسبةً إلى شقيق الغالب بالله إسماعيل بن يوسف المتوفى سنة 654هـ، واستمر حكم غرناطة مسلسلًا في الفرع الإسماعيلي إلى اليوم الذي طويت فيه صفحة هذه الدولة⁽⁵⁾.

وقد أشار الشاعر أبو الطيب الرندي إلى الفرع الأول الغالبي؛ وذلك في قوله: {الرملة}

غَالِبِيَّ الْمُتَمَيِّ - نَصْرِيَّهْ مَا جِدُّ الْفَرَعِ كَرِيمُ الْمُحْتَدِ⁽⁶⁾.

— مؤسس دولة غرناطة ، محمد بن الأحمر :

أولاً — شخصيته وأشهر ألقابه :

أ — شخصيته :

كان محمد بن الأحمر يتمتع بشخصية فذة جمعت بين الدهاء والبسطة والطموح والتواضع، واجتازت في طريقها إلى الحكم، والنفوذ والاستئثار بعرش غرناطة، مسالك

(1) — ينظر ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 ، ص : 93 ، 99 .

(2) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د، ورقة : 353.

(3) — ينظر : عبد القادر زمامة ، بنو الأحمر في غرناطة ، ص 103.

(4) — تعاقب على حكم غرناطة أربعة ملوك من الفرع الأول هم : محمد بن يوسف الملقب بالغالب بالله ، ثم ابنه محمد الثاني الملقب بالفقيه ، ثم حفيده محمد الثالث الملقب بالمخلوع ، ثم حفيده الثاني نصر الملقب بأبي الجيوش. يُنظر : ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص 34 وما بعدها.

(5) — يُنظر : عبد القادر زمامة ، بنو الأحمر في غرناطة ، ص 103 .

(6) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تج: محمد الخمار القنوني ، جامعة محمد الخامس (فرع فاس) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1973، 1974، .رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بإشراف الدكتور محمد بن شريفة، غير منشورة، ص 74.

شائكة، ومازق ضيقة ، وتطوّرت في تفكيرها السياسي وعلاقتها بالأصدقاء، ومواقفها من الأعداء تطورات كثيرة وغريبة، ففي الوقت الذي كان فيه ابن هود يعمل على تثبيت نفوذه في شرق الأندلس، كان ابن الأحمر يعمل على نشر نفوذه بالناحية الوسطى ، وحارب ابن هود ثم سالمه ، وبايع الملوك الحفصيين ونال مساعدتهم ، وبايع الرشيد الموحد في العدوّة المغربية ثم عدل عن ذلك كله فيما بعد (1).

واستطاع محمد ابن الأحمر أن يجابه الأحداث بشجاعة ، وأن يدخل مع ملك قشتالة في سلسلة من الاتفاقيات كلفته عدة تنازلات ومواقف محرّجة (2).

وقد ترجم ابن الخطيب لهذا الزعيم الأندلسي وقال عنه : " كان ... فظاً في طلب حقه، محمياً لقربته، وأقرانه، وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكأة في سلاحه وزينة دّبوسه ، يخصف النعل، ويلبس الخشن، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الجد في أموره " (3).

ب - ألقابه :

عُرف مؤسس دولة غرناطة بالعديد من الألقاب ، فسُمّيَ بأمير المسلمين ، وهو لقب اتّسم به بعض ملوك المغرب أيضاً ، و"كان يعرف بالشيخ" (4) لتقشفه واكتفائه باليسير. أمّا أشهر ألقابه فهو ابن الأحمر ، وقد اختلفت الروايات في تفسيره ، فمن ذاهب إلى أنه يرجع إلى نضارة وجهه ، واحمرار شعره ، ومن رادّ إياه إلى إنشائه حصن الحمراء بغرناطة ، والحقيقة أن تسمية الحصن بهذا الاسم قديمة جداً ، وهي تسمية أقدم من الدولة النصرانية؛ إذ كانت معروفة خلال القرن الرابع الهجري (5). ومن ذاهب إلى أن الاسم راجع إلى وجود شجرة في جدهم الأكبر عقيل بن نصر ، وهو أول من لُقّب بهذا اللقب وذلك

(1) — يُنظر : ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، تح : أميريسو هويثي ميراندا ، مع مساهمة : محمد بن تاويت ، ومحمد الكنّاني ، ج3 ، تطوان ، 1960م ، ص ص343، 355 ، 256. ويُنظر كذلك :

عبد القادر زمامة ، بنو الأحمر في غرناطة ، ص101.

(2) — يُنظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ج7 ، ص42.

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج2 ، ص94 . وينظر : ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص43.

(4) — محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ج7 ، ص52

(5) — يُنظر:المرجع السابق والموضع نفسه، ويُنظر أيضا : عبد القادر زمامة ، بنو الأحمر في غرناطة ، ص107.

لشقرة غلبت عليه (1).

ويذهب أبو الوليد ابن الأحمر إلى أن "الأحمر" لقب شخصي لُقّب به يوسف والد مؤسس الدولة (2).

والظاهر أن هذا الرأي الأخير هو الراجح، فقد أشار ابن عذارى إلى هذا الأمر عند حديثه عن مؤسس دولة غرناطة محمد ابن الأحمر؛ وذلك في قوله: "وما أكثر ما أثار فيه اشتهاً أبيه بالأحمر.. (3)". بل إن ابن عذارى ذهب إلى أبعد من هذا حين قال: "فاستعمله (يعني اللون الأحمر) في كل شيء، وعليه في الشهرة والعلامة اقتصر ركب عليه وكتب فيه (4)".

ويبدو أن استعمال اللون الأحمر في كل شيء ركب عليه وكتب فيه — على حد قول ابن عذارى — لم يكن في بداية ظهور ابن الأحمر؛ يؤيد هذا ما وصلنا من شعر عن هذه الحقبة من ذلك قول أبي بكر الاستبي (5) في مدح محمد ابن الأحمر الغالب بالله بمناسبة خروجه في جنازة وهو بمدينة إشبيلية راكباً على فرس أخضر لا أحمر: {الرجز}

يَا حَبْدًا ابْنَ الْأَحْمَرِ وَهُوَ أَمَامَ الْعَسْكَرِ
وَتَحْتَهُ أَخْضَرُهُ أَحْسِنَ بِهِ مِنْ أَخْضَرِ (6)

أما ثاني الألقاب التي اشتهر بها مؤسس دولة غرناطة فهو لقب الغالب بالله، وهو لقب أطلقه عليه الغرناطيون وكان يجيب من يدعوه بذلك: "ولا غالب إلا الله" (7). وقد وثق

(1) — يُنظر: أبو الحسن البُتاهي الإكليل في تفضيل النخيل، رقم: 198، ورقم: 49. ويُنظر: أحمد ثاني الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر، أبو ظبي — إصدارات الجمع الثقافي، 1425هـ — 2004م، ص179.

(2) — أبو الوليد بن الأحمر، نثر فرائد الجمال في نظم فحول الزمان تح: محمد رضوان الداية بيروت، دار الثقافة، 1967، ص215.

(3) — ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج3، ص279.

(4) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(5) — يُنظر ترجمته لدى: ابن سعيد المغربي، اختصار القدرح المعلى في التاريخ الخليلي، تح: إبراهيم الأبياري، القاهرة — وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1378هـ — 1959م، ص178 — 179.

(6) — المصدر السابق، ص179.

(7) — Enrique Sordo Al-Andalus puerta del Paraiso, Edicion Argot, 1964, P. 121.

Espana، نقلاً عن: يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية، ط1، بيروت — المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1402هـ — 1982م، ص27.

هذا اللقب الشاعر الغرناطي أبو عبدالله البرجي؛ وذلك في قوله: {الكامل}
 يَا غَالِباً بِاللَّهِ دَعْوَةَ خَادِمٍ إِشْفَاقُهُ لِخُلُوصِهِ تَوْكِيدٌ⁽¹⁾
 كذلك وُصِفَ مؤسس الدولة الغرناطية بأوصاف أخرى تدل على المدح والثناء،
 كالعادل، والمجاهد في سبيل الله، والإمام المهمام .

ثانياً — سياسة ابن الأحمر الداخلية والخارجية :

أ — السياسة الداخلية :

مد دخل محمد بن يوسف مدينة غرناطة مع مغيب شمس يوم من أيام رمضان الأخيرة سنة 635هـ (أبريل 1238 م) مرتدياً "شاشية ملفّ مضلّعة أكتافها مُخرّقة"⁽²⁾، ونودي به ملكاً، متخذاً منها عاصمةً لإمارته الوليدة؛ وجل تفكيره يدور حول كيفية توسيع ملكه والاحتفاظ بعرشه والذود عنه، ولأجل هذا اعتنق سياسة شبيهة بـ " تماسك الشجعاع ومداراة المغلوب"⁽³⁾، وراح يجعل منها واقعاً ملموساً، فوثّق علاقته بكل من المرينيين في المغرب الأقصى، وبني إشبيلية⁽⁴⁾ أصهاره بمالقة، وعمل على اتّقاء شرّ أعدائه القشتاليين،

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم : 3835 د، ورقة : 359.

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة ج2 ص : 99. شاشية: غطاء من الشاش للرأس، والشاش: شبيه بالقطن أو الكتان الناعم .

(3) — محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، ط1، بيروت — مكتبة سعد الدين، 1976م، ص13.

(4) — هي أسرة قوية تنتمي إلى طبقة من المولدين كان من أكبر زعمائها: أبو الحسن علي، الذي وقف بجانب ابن الأحمر طيلة السنوات العشر الأولى ضد خصومه، وقيل إن ابن الأحمر وعده باقتسام السلطة، غير أن ابن الأحمر لم يف بوعده، وقيل أيضاً إن ابن الأحمر عرض عليه الملك، غير أن ابن إشبيلية رفض ذلك، واكتفى بقيادة الجيش الغرناطي، وبعد وفاة زعيم بني إشبيلية ظهر أولاده وأحفاده مطالبين بحظ أوفر من الامتيازات والإقطاعات في الملك. وعلى الرغم من مصاهرة ابن الأحمر إياهم على بناته، ومنحه إياهم ولايتي مالقة ووادي آش إلا أن طموح بني إشبيلية كان أبعد من هذا، وقد ظهر استيائهم وعوامل انتفاضهم منذ تولي محمد الفقيه ولاية العهد سنة 655هـ، حيث أخذ هذا الأخير يحذ من صلاحيتهم لاسيما فيما يتعلق بقيادة الجيش التي تحولت إلى مشيخة الغزاة من قرابة بني مرين بعد عبورهم إلى الأندلس، وازداد الأمر تعقيداً بين بني الأحمر وبني إشبيلية بتزويج السلطان محمد الفقيه ابنته لابن عمه أبي سعيد فرج بن إسماعيل سنة 664هـ حيث وعده بولاية مالقة، فكان ذلك الشرارة التي أوقدت جذوة النار، وأظهر بنو إشبيلية عصيائهم واستبدادهم بولايتي مالقة ووادي آش، وتعدّدت مشكلاتهم النطاق الداخلي إلى النطاق الخارجي، فاتصلوا بالنصارى من أجل نصرتهم على بني الأحمر، كما اتصلوا أيضاً ببني مرين في المغرب، ولم ينته أمرهم إلا سنة 687هـ حين نقلهم بنو مرين إلى المغرب، ونصبوهم حكاماً على مدينة القصر الكبير، وتوارثوا حكم المدينة إلى أن انقرضوا. يُنظر: لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، تح: ليفسي بروفنسال، ج2، القاهرة — مكتبة الثقافة الدينية، 1426هـ — 2006م، من ص287 إلى ص291.

فعقد مع ملك قشتالة هدنةً يصبح بموجبها ابن الأحمر تابعاً للبلاد القشتالي⁽¹⁾. ثم أخذ يوسع حدود إمارته فاسترد مالقة، ثم ألمرية وحارب في هذه الأخيرة رئيسها أبا عبد الله الرميمي، وطرده مع أسرته غير مأسوف عليهم، وقد أنشد أبو محمد ابن الرميمي أحد أولاد رئيس المرية المطرود أبياتا تعبر عن حنينه إلى بلده، وتدل على نكبة رحيله عنها قال فيها: {الكامل}

هَلْ لِلْمَعَاهِدِ بِالْمَرِيَّةِ عَوْدَةٌ يَا حَسَنَهَا مِنْ بَلَدَةٍ وَمَعَاهِدِ
أَجْرِيَتْ خَيْلِ الْأُنْسِ فِي مِيدَانِهَا طَلَقًا مَزِيدًا وَالزَّمَانَ مُسَاعِدِي
حَتَّى إِذَا قَدَّرَ جَرَى بِفِرَاقِهَا فَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ شِمَاتَةِ حَاسِدِ⁽²⁾

بهذه السياسة؛ أعني سياسة توسيع الملك وتوطيده، بلغ ابن الأحمر غايته، فشهدت إمارته الاستقرار والهدوء طيلة عشرين عاماً قام خلالها بتنظيم شؤون الحكم الداخلية⁽³⁾، وسار في تنظيمها على نهج "ملوك عصره الذين يتبعون الحكم الوراثي"⁽⁴⁾. فعقد أول بيعة للعهد لأكبر أبنائه الأمير أبي سعيد فرج⁽⁵⁾، الذي قال عنه ابن الخطيب: "كان هذا الأمير ذكياً فاضلاً من أهل الأدب والنبيل، قام الأدب في مدته على ساق، وولاه أبوه الغالب بالله عهده، وأمّله لمكانه لو أن أن الليالي أمهلته..."⁽⁶⁾. وقد توفي هذا الأمير النصري في مقتبل عمره "ابن خمس وعشرين عاماً" سنة 652هـ أو 653هـ⁽⁷⁾.

وكان الأمير أبو فرج سعيد ذا شأن كبير⁽⁸⁾، حيث كان رئيساً لمدينة ألمرية، وكانت

(1) — ينظر: محمد عبدالله عنان، هناية الأندلس، ج 7، ص 42 — 45.

(2) — أحمد ابن القاضي المكناسي، درة الحجال، ترجمة رقم: 945، ص 312.

(3) — ينظر: يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص 27.

(4) — المبروك غنية الأسطى، حركة الجهاد المشترك على مدى قرن في ظل الصلوات بين بني الأحمر بقرطبة وبني مرين بفاس، ط 1، ليبيا، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1424هـ — 1993م، ص 46.

(5) — ينظر: أحمد عزراوي، المغرب والأندلس في القرن السابع/13م: دراسة وتحقيق لديوانيات كتاب فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب، الرباط — مطبعة ربايت، 2008م، ص 23، هامش رقم 2.

(6) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 247.

(7) — حدثت الوفاة بحسب صاحب الذخيرة السنينة سنة 652هـ، ينظر: علي ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنينة في تاريخ الدولة المرينية، ط 2، الرباط — دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م، ص: 81. أو في أواخر ذي الحجة سنة 653هـ بحسب ما ذكره ابن الخطيب. ينظر: ابن الخطيب الإحاطة، ج 4، ص 247 — 248.

(8) — ينظر: أحمد عزراوي، المغرب والأندلس في القرن السابع/13م، ص 24 — 26. يدل على هذا رسائل التعزية الواردة من مرسية في وفاة الأمير أبي سعيد.

حاضرته ،وقد دلّ على هذا النصوص الشعرية التي وصلتنا عن هذه الحقبة ،من ذلك قول شاعره أبي عبدالله البرجي :{الكامل}

بُشْرَى المَرِيَّةِ إِذْ غَدَتْ لَكَ حَضْرَةً تَسْمُو عَلَى ذَاتِ الْعِمَادِ وَتَعْتَلِي (1)

وبعد وفاة الأمير أبي سعيد جعل ابن الأحمر ولاية العهد لولده الثاني أبي الحجاج يوسف الذي قال عنه ابن الخطيب: "وكان قد ولّاه عهده بعد أخيه..."(2). وأرخ ابن عذاري لوفاة هذا الأمير فقال: "وفي سنة 654هـ كانت البلاد هادئة مهدّنة..وأما ابن الأحمر فكان في مصالحة مع الروم ،لكنه فُجِعَ في موت ولده ووليّ عهده يوسف..."(3)، وهذا يعني أن ولايته لم تدم طويلاً، لاسيما أن أخاه الأمير أبا سعيد توفي سنة 652هـ ، أو 653هـ .

وبعد وفاة هذين الأميرين جعل ابن الأحمر الغالب بالله ولاية العهد لولده الثالث أبي عبدالله محمد الملقب بـ " الفقيه " لانتحاله طلب العلم، ولاهتمامه بقراءة القرآن " (4) . وقد أرّخ ابن عذاري لهذه الولاية حيث قال: " وفي سنة 655هـ ولي الأمر أبو عبدالله محمد بن يوسف بن نصر ولاية عهده لأبي عبدالله ولده ، وكان يُسَمَّى (بالفقيه)، وكان التقديم قبله لأخيه [يعني يوسف] إلى أن توفي كما تقدم ذكره..."(5). ومما يذكر هنا أن ولاية محمد الفقيه للعهد تزامنت مع مناسبة مولد ابنه وولي عهده من بعده محمد، الملقّب

(1) — مؤلف مجهول،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د، ورقم : 364.

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج4 ، ص354.

(3) — ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ج3 ، ص414.

جعل لسان الدين بن الخطيب وفاة هذا الأمير " عام ستين وستمائة " . ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج4 ، ص354،، ويبدو أن ابن عذاري هو أكثر دقةً في تحديد سنة الوفاة وذلك لقرب عهده من تلك الأحداث حيث كان حياً سنة 712 هـ .

(4) — Enrique Sordo Al-Andalus Puerta del Paraiso, P. 123 .

تقلاً عن : يوسف شكري فرحات ، غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية ، ص32.

(5) — ابن عذاري ، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ج3 ، ص415.

وقد خالف ابن الخطيب ابن عذاري في تحديد سنة هذه الولاية فجعلها سنة 662هـ. ينظر : ابن الخطيب : اللمحة البدرية ، ص35 ، 44. والمرجح لدي هو تحديد ابن عذاري لأنه يوافق المعطيات التاريخية التي تزامنت مع هذا الحدث كمولد الأمير محمد الثالث سنة 655هـ وهو ما أكدته بعض النصوص الشعرية التي جاءت تهنئ بالمناسبتين؛ ولاية العهد، ومولد الأمير ، كقصيدة الرندي التي سيأتي ذكرها في المبحث القادم.

بالمخلوع، ثالث ملوك بني الأحمر⁽¹⁾، حيث ذكر صاحبُ الذخيرة السنية أن تاريخ ولادة هذا الأمير كانت في سنة 655هـ⁽²⁾، وهذا يعني أن مولده تزامن مع تولي أبيه العهد. وهكذا أعطى السلطان الغالب بالله صفة الملكية الوراثية لدولة بني الأحمر، إذ انتقلت فيها ولاية العهد بين أبنائه الثلاثة: فرج، ويوسف، ومحمد⁽³⁾. ثم إلى حفيديه: محمد الملقب

- (1) — تولى الملك سنة 701 هـ ، وُلِع من قِبَل أخيه نصر أبي الجيوش سنة 708 هـ، وهما ابنا محمد الفقيه الملك الثاني لغرناطة.
- (2) — ينظر: علي ابن أبي زرع الفاسي ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، ص 84.
- والذي يجعل الباحث يستنتج ذلك هو أن الأمرين فرجاً ويوسف توفيا دون أن يكون لهما عقب ، وليس هناك من أبناء الغالب بالله مَنْ له أولاد سوى محمد الثاني الملقَّب بالفقيه . ينظر : أبو الحسن البُنَاهي ، مخطوط الإكليل في تفضيل النخيل رقم : 198 ق ، ورقة : 52. و يُنظر أيضاً: ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص 35 . والإحاطة ، ج 1 ، ص 559 .
- (3) — أود أن أذكر هنا حقيقة تاريخية مهمة تتعلق بعدد أولاد محمد ابن الأحمر الغالب بالله ، فقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب في كتابه : (اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية) روايتين متعارضتين متعلقتين بعدد أولاد محمد ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة ، ذكر في إحداهما : أن عددهم أربعة ، و ذكر في الأخرى أنهم ثلاثة أولاد ، ينظر: ابن الخطيب : اللمحة البدرية : ص 35 ، 44. وكذلك تحقيق محمد مسعود جبران ، ط 1 ، بيروت ، دار المدار الإسلامي سنة 2009 م ص: 59، 69 .
- لكن ابن الخطيب ذكر في كتابه الإحاطة ، ج 2 ، ص 95 رواية واحدة تفيد بأن محمد ابن الأحمر الغالب بالله " أعقب ثلاثة من الذكور" ، هم : فرج ويوسف ومحمد ، وهي رواية تتفق مع ما ذكره أبو الحسن البناهي في كتابه الإكليل في تفضيل النخيل 198 ق ورقم : 50 من أن للغالب بالله ثلاثة أولاد هم " محمد ، فرج ، يوسف ...".
- وأرجح أن يكون العدد الصحيح لأولاد الغالب بالله هو ثلاثة أولاد ، لا أربعة، وهذا ما ذكره كل من ابن الخطيب في (الإحاطة) ج 2 ، ص 95 . والبناهي في كتابه: (الإكليل في تفضيل النخيل) ، 198 ق ورقم : 50 . ومما يعضد صحة هذا الترجيح ما جاء في بعض النصوص الشعرية الغرناطية التي وصلتنا عن هذه الحقبة ، كقصيدة أبي عبدالله البرجي التي مدح بها محمد ابن الأحمر الغالب بالله ، وذكر فيها أولاده الثلاثة أبو سعيد فرج ، ومحمد ، ويوسف، وذلك في قوله مفاخراً بأبناء الغالب بالله : {الكامل}

وَإِذَا الْمُلُوكُ تَفَاخَرُوا مَا بَيْنَهُمْ	فَبُنُوكَ بَيْنَهُمُ الْمُلُوكُ الصَّيْدُ
فَأَبُو سَعِيدٍ لِلسُّعُودِ مُصَاحِبٌ	بِوَجُودِهِ إِسْعَادُهَا مَوْجُودٌ
فَرَجٌ إِذَا تَادَيْتَهُ لَبَّى الْهُدَى	وَسَمًا لِذِكْرَاهُ الْعُلَى وَالْجُودُ
مَلِكٌ بِفَتْحِ اللّامِ إِنْ أَمَلْتَهُ	فَالْبَابُ لَا غَلَقٌ وَلَا مَسْدُودٌ
إِجْمَالُهُ بِجَمَالِهِ مُتَأَيَّدٌ	وَسَخَاؤُهُ بِعِلَائِهِ مَعْضُودٌ
وَتَقْيِيقُهُ الْمَلِكُ الْعَلِيُّ مُحَمَّدٌ	نَعَمَ الْهُمَامُ السَّيِّدُ الصَّنْدِيدُ
وَلْيُؤَسِّفَ التَّمَكِينُ وَالشَّرَفُ الَّذِي	يَرْفَى بِهِ نَحْوَ الْعُلَا وَيَزِيدُ
فَبُقُوا مُلُوكًا يَسْتَهْلُ لَدَيْهِمْ	نَصْرُ الْإِلَهِ وَقَفْحُهُ الْمَوْعُودُ

مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط، رقم: 3835 د، ورقة: 361.

فهذه الأبيات تصحح الخلط الذي وقع فيه معظم الباحثين الذين وضعوا رسماً بيانياً لشجرة عائلة ابن الأحمر الغالب بالله ، وجعلوا له أربعة أولاد. انظر هذا مثلاً لدى : محمد كمال شبانة ، يوسف بن الأحمر سلطان غرناطة ، ص : 36 ، 37 ، وهو ينقل عن (اللمحة البدرية)، و يحيل إلى المصدر:

Memorial Historico, Espanol, Aue Publico. La Real Academica, de la historia, T. X Madrid 1857, PP. 558 – 979.

بالمخلوع، ونصر الملقب بأبي الجيوش، وقد أشعل هذا النظام الوراثي فتيل الصراع على السلطة بين الأسرة النصرية وبين أصدقائها ومعاونيها وأصهارها من بني إشقيلولة. وكان ذلك من أبرز المشكلات التي واجهتها الإمارة الغرناطية منذ نشأتها الأولى كما تسبب هذا النظام الوراثي في الصراع بين أبناء الأسرة النصرية نفسها على السلطة، وكان أول ظهور لهذا الصراع بين أبناء محمد الفقيه حين خُلع محمد الثالث عن عرش غرناطة من قِبَل أخيه المسمّى نصرًا الملقّب بأبي الجيوش سنة 708هـ الذي لم يستمر في الحكم طويلاً حتى خُلع سنة 713هـ من قِبَل أبناء عمومته، وتعاقب على حكم غرناطة بعد هؤلاء الملوك الأربعة من الفرع الغالبي ثمانية عشر ملكاً من الفرع الثاني الإسماعيلي. وتعرّض عرش غرناطة في عهد هذا الفرع الأخير إلى عدة هزات كان بعضها دموياً عنيفاً؛ بسبب المنافسات والأحقاد بين أفراد الأسرة، وانتهت أحياناً بسلسلة من الانتقامات، إمّا قتلاً، وإمّا نفيًا، وإمّا سجنًا، في صفوف الأمراء وأسرههم وأعوانهم وقد سهل هذا الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة النصرية مهمة المسيحيين في التقدم إلى غرناطة، حيث انتهى أمرها نهاية مؤلمة؛ وذلك بتسليمها دون حرب من قِبَل آخر ملوك الأسرة النصرية أبي عبد الله بن علي؛ وذلك سنة 897 هـ، وغادرها والدموع تذرف من عينيه، وقالت له أمه جملتها الشهيرة: (ابلِكِ مثل النساءِ مُلكاً مضاعاً لم تحافظِ عليه مثل الرجال).⁽¹⁾

كذلك ينظر هذا أيضاً لدى محقق كتاب: أبي الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل، فكاهات الأسماء ومذهبات الأخبار والأشعار، تح: عبدالله حمّادي ط1، الكويت، 2004م، ص62.

هذا وقد اطّلت على عدة نسخ محققة من كتاب (اللمحة البدرية) لكنني لم أجد بالرغم من التناقض الواضح بين الروايتين الواردتين حول هذا الشأن في هذا الكتاب أي إشارة من المحققين إلى هذا الأمر، كما أطلعت أيضاً على بعض النسخ المخطوطة لهذا الكتاب، فوجدت أن التناقض بين الروايتين في هذا الكتاب يتكرر في جميع النسخ المخطوطة من هذا الكتاب؛ وهذا يعني أن التناقض الوارد في هذا الكتاب حول أبناء محمد ابن الأحمر الغالب بالله ربما يكون من أخطاء النسخ. ولتكمّل الفائدة من هذا التقرير؛ فإني سأعيد رسم شجرة نسب أسرة بني الأحمر من جديد بحسب ما توصلت إليه هذه الدراسة، وسأثبت هذا ضمن الملاحق.

(1) — ينظر: ابن الخطيب الإحاطة ج ص: وترجمة هذه الجملة بالإسبانية *Llora como una mujer lo que no has sabido defend como hombre* " وقد تناقلتها مصادر إسبانية كثيرة منها: Sergio Remedios: Mira de Granada, Segunda Edicion, Espana, Madrid, 2007 _ Sanchez _ la rendicion pp :4,32.

ب — السياسة الخارجية :

استطاع بنو الأحمر المحافظة على دولتهم الغرناطية ضامنين لها البقاء قرنين ونصف القرن من الزمان ، وكانت هذه النتيجة ثمرةً لسياسة التوازن التي انتهجوها في سياستهم الخارجية مع كل الأطراف المعنية ، حيث اعتمدوا تارةً على الدولة المرينية ضد المسيحيين ، وتارةً أخرى على المسيحيين ضد تدخل حلفائهم بالأمس بني مرين في شؤون دولتهم . ويُلاحظ أن الموقع الجغرافي لهذه الإمارة الإسلامية — حيث كانت توجد بين دول مسيحية وأخرى إسلامية تفوقها عدةً وعدداً متمثلةً في قشتالة وأراجون شمالاً ، ودولة بني مرين جنوباً ؛ فرض عليها عدم الالتزام بسياسة واحدة أو موقف ثابت في تعاملها مع هذه القوى الكبرى المحيطة بها ، بل كانت سياستها تتبدل ، وتتغير في حرص ، وحذر حسب الظروف الخارجية التي حولها⁽¹⁾.

ولما كان لعلاقة غرناطة بكل من المرينيين جنوباً، والقوى المسيحية — سواء أكانت قشتالية أم أراغونية أم هما معاً — شمالاً ، أثر كبيرٌ في قوتها أضعفها ، فإنه من الضروري تناول هذه العلاقة بشيء من البسط :

1 — علاقة غرناطة ببني مرين :

جاءت كل من دولة بني الأحمر و دولة بني مرين إلى الحكم عقب انهيار دولة الموحدين، وتداعي حكمها في كل من الأندلس والمغرب، وقد تعرضت كلتا الدولتين لأطماع داخلية من قبل الثوار ، وكذلك خارجية تمثلت بالنسبة لبني الأحمر في القوى النصرانية شمالاً، وبالنسبة للمرينيين في بني زيّان والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى .

هذه الظروف المتفككة من حيث النشأة وطبيعة الخطر المشترك الذي تتعرض له كلتا الدولتين ، جعلت المناخ مهيئاً للتعاون مع بني الأحمر ، وبني مرين خاصة في الميدان العسكري ، وقد آتى هذا التعاون أكله حيث حقق بنو الأحمر العديد من الانتصارات بفضل مساعدة المجاهدين المغاربة الذين كانوا يعبرون أفراداً وجماعات بدافع الجهاد في

(1) — يُنظر : أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية — دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع، 1425هـ — 2005م ، ص 346.

الأندلس، ولم يدخروا وسعاً في سبيل الحفاظ على غرناطة فتيةً قويةً، وقد ظهر الدعم المغربي منذ عام 660هـ، حين هزم ابن الأحمر غزوة نصرانية على أراضيه بمعاونة المتطوعين المجاهدين⁽¹⁾.

وفي سنة 662هـ جاز أول جيش إلى الأندلس من بني مرين⁽²⁾، واستطاعت غرناطة استرداد مدينة شريش بدعم من بني مرين، وهناك خبر ذكره الياضي صاحب كتاب: (مرآة الجنان وعبرة اليقظان ..) يفيد بأن ابن الأحمر حقق انتصاراً عظيماً على القشتاليين عام 663هـ حيث ذكر أنه في العام المذكور " كانت الملحمة العظيمة بالأندلس حيث التقى فيها ملك الفرنج، وأبو عبدالله ابن الأحمر سلطان المسلمين، ثم انهزم الملاعين، وأسر ملكهم، ثم أفلت، وحشد وجيش ونازل غرناطة، فخرج إليهم ابن الأحمر، وكسرهم أيضاً، وأسر منهم عشرة آلاف، وقتل المسلمون منهم فوق الأربعين ألفاً، وجمعوا كوماً هائلاً من رؤوس الفرنج، وأذن عليه المسلمون، واستعادوا عدة مداين من الفرنج " ⁽³⁾.

وقبل وفاة ابن الأحمر بقليل بعث إلى المرينيين يستنجد بهم لنصرة المسلمين على أعدائهم القشتاليين، لكنه لم يعيش ليرى نتيجة هذه الدعوة؛ إذ توفي في العام نفسه سنة 671هـ⁽⁴⁾. وكان قد أوصى ابنه محمداً الثاني الملقب بالفقيه بالحرص على مخالفة بني مرين، وتمثلت هذه الوصية في صورة براءة كتبها بخط يده قبيل وفاته يستنصر فيها ببني مرين قال فيها: "يا بُنيَّ إذا متُّ ابعتْ بهذه البراءة إلى ملك العدو أمير المسلمين يعقوب وادعُهُ للجواز والجهاد، فإنه ناصر هذه البلاد .." ⁽⁵⁾.

وعمل محمد الفقيه بوصية أبيه، واستنجد بالمرينيين عدة مرّات، وكان السلطان أبو يوسف يعقوب المريني الملقب بالمنصور، يلبّي نداء الحرب والجهاد في الأندلس، فعبّر إلى الأندلس أربع مرات، وحقّق العديد من الانتصارات الباهرة، منها الانتصار الذي حققه

(1) — يُنظر: محمد عبدالله عنان، هناية الأندلس، ج 7، ص 47 — 48.

(2) — يُنظر: علي ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السننية، ص 98.

(3) — أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي الياضي اليميني، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ووضع

حواشيه: خليل المنصور، ج 4، ط 1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1997 م ص: 122.

(4) — يُنظر: محمد عبدالله عنان، هناية الأندلس، ج 7، ص 48.

(5) — علي ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السننية، ص: 142.

سنة 674هـ حينما غزا بلاد النصارى ، وهزمهم هزيمة نكراء ، وقتل منهم جمعاً كثيراً كان على رأسهم القائد القشتالي المسمّى دُثنه⁽¹⁾.

وقد أُنعت هذه الهزيمة نفوس الأندلسيين ، وراح يراودهم الأمل في استرداد ما ضاع من البلاد ، بيد أنّ محمداً الفقيه تأثر بهواجس سيطرة بني مرين على الأندلس ، ووطنّ بهم الظنون ، وتذكر ما حصل للمعتمد بن عباد حين استدعى يوسف بن تاشفين للجهاد في الأندلس ، ثم استحوز هذا الأخير على حكم الأندلس ، وطرده ابن عباد من الأندلس⁽²⁾. زد على ما تقدم تزلّف بني إشبيلية من بني مرين وتعاطف هؤلاء الأخيرين معهم ما جعل ابن الأحمر يتوجس خيفة من بني مرين ، ويدفع به إلى التقرّب من النصارى ، وإلى تقليب الأوضاع على المرينيين في المغرب .

كل هذه المعطيات جعلت أبا يوسف يعقوب يفكر في العودة إلى المغرب بعد عبوره الأول ، وعلى إثر غزوته المذكورة؛ وذلك لإخماد ما ثار بين أرجائه من ثورات ، وفي تلك الأثناء استغلّ النصارى خلو الساحة الغرناطية من الجيوش المرينية فعادوا إلى التحرش بالإمارة الغرناطية ، ومضايقتها ، بيد أنّ محمداً الفقيه سارع في الاستنجاد والاعتذار إلى بني مرين ، وبعث إليهم في شهر ذي القعدة سنة 674هـ⁽³⁾ رسالة تضمّنت قصيدة من إنشاء كاتب الدولة النصرية أبي عمرو بن المرابط يستصرخ فيها بني مرين لإنقاذ الأندلس من هجمات النصارى ، قال فيها : {الكامل}

أَبْنِي مَرِينٍ أَنْتُمْ جِيرَانُنَا وَأَحَقُّ مَنْ فِي صَرْخَةٍ بِهِمْ ابْتَدِي

(1) — يُنظر : ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخير ، ج7 ، ص:398.

(2) — يُنظر : أعمال الأعلام ، تح : ليفي بروفنسال ، ج2 ، ص: 241 وما بعدها ، وينظر أيضاً: المقري ، نفع الطبيب ، ، تح : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ج6 ، ص:104.

(3) — يُنظر : علي ابن أبي زرع الفاسي ، الذخيرة السنية ، ص163. أود أن أشير هنا إلى أن ابن خلدون خالف صاحب (الذخيرة السنية) ، في تحديد تاريخ إنشاد هذه القصيدة؛ إذ ذكر أنّ هذه القصيدة كتبها ابن الأحمر إلى ملك بني مرين سنة 674 هـ "بعد واقعة دننه واعتزاه الرجوع إلى المغرب ، فخاطبه بها ليلة الإقالة بالجزيرة" ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخير ، ج7 ، ص : 409. ومن المعروف أن رجوع أبي يوسف المريني إلى المغرب كان في شهر رجب من السنة المذكورة في حين ذكر صاحب الذخيرة السنية أن القصيدة أنشدت في شهر ذي القعدة ، فالمدّة التي بين التاريخين المذكورين هي خمسة أشهر ، وهي مدّة ليست بالقصيرة ؛ فأبي التاريخين هو الأقرب إلى الصواب ؟ سأعود لاحقاً للإجابة على هذا السؤال ، ومناقشته؛ وذلك خلال الترجمة لشاعر بني الأحمر أبي عمرو ابن المرابط.

فَالْجَارُ كَانَ بِهِ يُوصَى الْمُصْطَفَى جَبْرِيلُ حَقًّا فِي الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ⁽¹⁾
ولبى السلطان المريني النداء، وعبر البحر للجهاد وردّ كيد النصارى ، وهكذا فإن
العلاقة بين بني نصر وبني مرين لم تكن خالية من المشكلات الجانبية ، إلا أن الصورة
العامية هي استرداد الأندلس لعهد من الثبات والقوة ، فقدته منذ زمن بعيد⁽²⁾ .
وقد ظلّ المغرب عوناً دائماً لغرناطة تقوى بقوته ، وتضعف بضعفه ، وظلّت العلاقة مع
بني مرين تحكمها رغبة بني الأحمر الحميمة في الحفاظ على ملكهم قوياً مستقلاً ، فإذا ما
استشعروا وقع أقدام النصارى في طريقهم لمهاجرتهم راحوا يستصرخون ببني مرين
، مفسحين الميدان واسعاً أمامهم ، مادين إياهم بكل ما يحتاجون من نفوس وعتاد ، وإذا ما
راودتهم هواجس الهيمنة المرينية على إمارتهم الغرناطية راحوا يتنكّرون لكل ما قدّموه لهم
مناصرين أعداء الأمس ، وهذه السياسة الماهرة الماكرة التي سلكتها غرناطة مع جيرانها ،
مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدةً تزيد على القرنين ونصف من الزمان ؛ وذلك لأنها
عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين الدول المجاورة لها لحماية مصالحها ، وقد
أشاد المؤرخون الأوروبيون بهذه الدبلوماسية الغرناطية ، ووصفوها بصفة تدلُّ على المرونة
والذكاء ؛ فشبهوها بسياسة اللعب بالثلاث ورقات " Juego de tres Barajas " ⁽³⁾

ب _ علاقة غرناطة بمملكة قشتالة :

أُسمت علاقة غرناطة بمملكة قشتالة بوجه عام : بالصراع الدائم والتراعات المتكررة ،
وكان يتخلل فترات الصراع أوالتزاع هدوء نسبيّ تفرضه معاهدة أو اتفاق يُبرم بينهما
انشغالاً بطارئ داخلي أو استعداداً لجولة تالية ، فقد كان ابن الأحمر الغالب بالله يضطرم
عزماً وإقداماً لمحاربة النصارى ، واستخلاص تراث الوطن من أيديهم⁽⁴⁾ . بيد أنه كان في
الوقت نفسه يدرك أن دولته مازالت في طور التكوين فلا قدرة لها على منازلة عدو قوي ،

(1) — ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج 7 ، ص : 412 .

(2) — ينظر : محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص 23 .

(3) — Sanchez Albornoz : La Espana Musulmana , Buens Aires 1946, PP. 392 ,

= 398 نقلاً عن : أحمد مختار العبّادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 344 .

(4) — يُنظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ج 7 ، ص 42 .

يهدد أمنها في كل حين ، وبالرغم من هذه المعادلة غير المتكافئة في ميزان القوى فإن هذا الزعيم الأندلسي حاول أن يخوض الحرب ضد النصارى في العديد من المعارك ، واستطاع أن يحقق بعض الانتصارات⁽¹⁾. بيد أن صموده لم يستمر طويلاً أمام الزحف الصليبي الذي كان في أوج قوته ساعة قيام الإمارة الغرناطية ، فاضطر إلى المهادنة والمصالحة آتقاً لشراً عدوّه ، واستشرافاً لمستقبل أفضل⁽²⁾. وعقد هدنة طويلة الأجل مع ملك قشتالة فرناندو الثالث سنة 643هـ تمتد إلى عشرين عاماً ، يتنازل ابن الأحمر بمقتضاها عن عدد من الحصون ، كأرجونة وجيان ، ويعلن ولاءه للبلاد القشتالي ، وأن يؤدي جزية سنوية ومعاونة للقشتاليين — كلما استدعت الضرورة — ضد خصومهم.

وبناءً على هذا الاتفاق ، وربما نكايه في أهل إشبيلية⁽³⁾ الذين لم يكونوا مواليين لابن الأحمر ساند هذا الأخير الملك القشتالي في حصار إشبيلية والاستيلاء عليها ، وذلك عام 646هـ⁽⁴⁾.

وبعد انتهاء هذه الهدنة اضطرّ ابن الأحمر إلى عقد صلح جديد مع القشتالة سنة

(1) — ينظر : المرجع السابق ، ص 42 وما بعدها.

(2) — مما يدل على أن ابن الأحمر كان مضطراً ، وأنه كان مُرغماً على قبول ذلك الوضع ، وأنه كان غيوراً على دينه: التجاؤه كلما ضاق به الحال إلى المتصوفة لطلب النصح منهم ، وراحياً منهم الدعاء إلى الله لتفريج كرب المسلمين بالأندلس ، وكان غالباً ما يلجأ في هذا الشأن إلى المتصوف الشيخ أبي مروان اليحانسي بوادي آش بادياً تخوّفه على جند المسلمين من عساكر النصارى ، وعيناه تذرّفان بالدموع من شدة تأثره على بني قومه ، وكان هذا الشيخ كثيراً ما يطمئنه ويخفف من كربيه.

يُنظر : أحمد بن إبراهيم القشتالي ، تحفة المغرب ببلاد المغرب ، تح: فرناندو دي لاجرانجا ، إسبانيا ، مدريد ، 1974م ، ص 69.

(3) — يُنظر : ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخير ، ج 7 ، ص 392 .

(4) — يُنظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ج 7 ، ص 44 — 45.

ومما هو جدير بالذكر أن النصوص الشعرية الغرناطية التي قيلت في هذه المدة تشير إلى دور مهم للأمير أبي سعيد فرج بن الغالب بالله في إبرام

هذا الصلح مع القشتاليين ، وهذا ما يدلّ عليه قول أبي عبدالله بن بكر البرجي في مدح هذا الأمير : {السريع}

يَا فَسْرَاجَ الْعُمَرَاتِ يَا مَنْ لَهُ	بِيضُ الْأَيَادِي وَالْمَعَانِي الْفِسَاحِ
خَاطَرَتْ بِالْمَجْدِ وَلَمْ تَدْرِغْ	إِلَّا تَقَى اللَّهَ وَنِعَمَ السَّلَاحِ
وَرُمْتَ أَمْرًا فِيهِ حِفْظُ السُّورَى	فَلَاحَ فِيمَا رُمْتَ وَجْهَ الْفَلَاحِ
فَاهْنَأُ نَوَابَ اللَّهِ وَانْعَمَ فَمَا	سَأَلْتَهُ عَمَّ جَمِيعِ النَّوَاخِ
فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنْكَ بُشْرَى كَمَا	فِي كُلِّ صَدْرٍ فَرْحَةٌ وَأَنْشِيرَاحِ

مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم: د 3835 ، ورقة : 353 — 354 .

665هـ⁽¹⁾.

وإذا كان محمد ابن الأحمر الغالب بالله قد لجأ إلى عقد الصلح مع ملك قشتالة اتقاءً لقوته، وحفاظاً على إمارته الناشئة، فإن ابنه محمد الثاني الملقب بالفقيه لجأ إلى الصلح مع ملك قشتالة اتقاءً للهيمنة المرينية؛ إذ عقد صلحاً مع ملك قشتالة عام 691هـ واتفقا على انتزاع ثغر طريف من أيدي المرينيين ثم تسليمه فيما بعد لابن الأحمر لقاء تنازل هذا الأخير على عدد من الحصون، لكنّ النصارى عهدوهم لا ميثاقاً شرف يضبطها، فحين تمّ لملك قشتالة انتزاع ثغر طريف وطالبه ابن الأحمر بتنفيذ ما اتفقا عليه، نقض عهده، مبقياً إياه تحت سيطرته، وفي هذه اللحظة أدرك محمد الفقيه أنه فقد جزءاً غالباً من إمارته، وفقد أيضاً إخوانه من بني مرين دوغماً فائدة، فعاد يخطب ودّ بني مرين مرة أخرى، وعبر البحر بنفسه لتجديد العهد مع إخوانه المرينيين سنة 692هـ/1292م، واستمر في حكمه أعواماً أخرى ثابتاً على العهد مقيماً على صداقة بني مرين⁽²⁾ إلى وفاته سنة 701هـ.

يمكن القول إن عهد السلطان محمد الفقيه اتسم بوجه عام بالجهاد المشترك مع المرينيين ضد النصارى، وقد أكدت المؤلفات الغرناطية التي ألفت في هذه الحقبة الدور الجهادي للأسرة النصرية ضد النصارى، ومن هذه المؤلفات كتاب: (سبيل الرشاد في فضل الجهاد)، وكتاب (تعيين الأوان والمكان للنصر الموعود به في آخر الزمان مستقراً من صحيح السنة ومحكم القرآن)، وهما من تأليف المؤرخ الغرناطي أبي جعفر بن الزبير⁽³⁾ سنة 695هـ حين بدت بارقة نصر تلوح في الأفق، و من المؤرخين الذين تحدثوا عن هذه البارقة لسان الدين ابن الخطيب وذلك في معرض حديثه عن جهاد محمد الفقيه ثاني الملوك النصرين؛ حيث ذكر أنه في شهر محرم من عام خمسة وتسعين وستمائة حين هلك طاغية الروم شانجه ابن اذفونش (ملك قشتالة) عاجل الكفار، "فحشد أهل الأندلس، واستنفر المسلمين، وتحرك في جيش يجر الشوك والشجر، ونازل مدينة قيجاطة ففتحها الله

(1) — ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج3، ص470.

(2) — يُنظر: محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس، ج7، ص109، ص110.

(3) — يعد الكتاب الأول مفقوداً إلى الآن، أما الكتاب الثاني فقد حققه الدكتور محمد بن شريفة، ونشرت دار الغرب الإسلامي

طبعته الأولى، سنة 1993 م والثانية سنة 2008 م.

على يديه، وتملك بسببها جملة من الحصون الراجعة إليها، وكان الفتح بذلك عظيماً، وأسكن بها جيشاً من المسلمين، وطائفة من الحامية فَأَشْرَقَتِ الْعُدُوُّ بِرَيْقِهِ" (1)

وهذا الفتح العظيم الذي ذكره ابن الخطيب هو نفسه الذي تحدث عنه ابن الزبير في كتابه (تعيين الأوان) المذكور سابقا حيث قال في مقدمته: " إن من هذا الإنعام الجسيم على يد من شهد له أثره، وتعاضدت أثره، وطاب سعيه، وخبره سيدنا ومولانا المنصور أمير المسلمين وناصر الدين أبي عبدالله ابن سيدنا ومولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل الله والغالب بالله أبي عبدالله محمد بن يوسف بن نصر أيد الله أمرهم. وأعز نصرهم. وأبقى أيامهم على المسلمين. ووالاهم بالنصر الجسيم. والفتح المبين. " (2)

ويبدو أن الانتصارات التي حققها السلطان محمد الفقيه في هذه الحقبة بعثت آمالاً عريضة في نفوس الأندلسيين وقد تمثلت هذه الانتصارات في فتح مدينة (قيجاطة) 695 هـ، ثم فتح مدينة (القبداق) عام 699 هـ التي ذكر ابن الخطيب في فتحها أن السلطان محمد الفقيه "باشر العمل في خندقها بيده" (3) أضف إلى هذا انتشار الدعوات المتكررة للجهاد في الأندلس؛ كل ذلك جعل الأندلسيين يشعرون بالتفاؤل، وبأن هذه الانتصارات هي بداية لحركة استعادة ما ضاع من الأندلس.

ولم ينعكس هذا التفاؤل فيما أُلّف من كتب فحسب؛ بل ظهر صداه أيضاً في الشعر الغرناطي الذي قيل في التهنية بهذه الانتصارات.

من ذلك قول ابن الجياب الغرناطي (745_673 هـ) (4) ضمن قصيدة قالها بمناسبة

الانتصار بفتح مدينة قيحاطة عام 695 هـ وجاء في أولها: {الطويل}

عَدُوُّكَ مَقْهُورٌ وَحِزْبُكَ غَالِبٌ وَأَمْرُكَ مَنصُورٌ وَسَهْمُكَ صَائِبٌ

وشخصك مهما لاح للخلق أذعنت لهيبته عجم الورى والأعارب (5)

(1) — ابن الخطيب، اللمحة البدرية ص 54 .

(2) — أبو جعفر بن الزبير، تعيين الأوان والمكان للنصر الموعود به آخر الزمان مستقراً من صحيح السنة ومحكم القرآن، تح: محمد بن شريفة ط2، تونس، دار الغرب الإسلامي، 2008 م ص 46، 47 .

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 561.

(4) — ينظر ترجمته لدى ابن القاضي، درة الحجال، ترجمة رقم: 1255. ص: 398.

(5) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص 562، والقصيدة غير موجودة في ديوان ابن الجياب؛ وذلك لسقوط معظم شعره الذي علسي

وقوله في قصيدة أخرى في تهنئة محمد الفقيه بأحد فتوحاته: {الخفيف}
 نَلُّ مِنَ اللَّهِ (كَلًّا) ⁽¹⁾ مَا أَنْتَ آمِلٌ وَأَمْحُ آثَارَ كُلِّ شِرْكٍَ وَبَاطِلٍ

وَتَقَلَّبُ فِي خَيْرٍ عِزًّا وَنَصْرًا وَتَرَقَّبُ أَسْنَى الْفُتُوحِ الْجَلَالِ ⁽²⁾
 ومن الشعر الذي يدل على هذا التفاؤل قصيدة أبي بكر ابن المرابط ⁽³⁾ التي قال فيها
 مادحا ومتفائلا: {الكامل}

الْفَتْحُ فِي رَايَاتِكُمْ مَعْقُودٌ وَالنَّصْرُ مِنْ أَجْنَادِكُمْ مَعْدُودٌ
 وَجَنَاحُ جَبْرِيلَ عَلَيْكُمْ خَافِقٌ يَضْفُو عَلَيْكُمْ ظِلُّهُ الْمَدُودُ
 فَأَنْهَضُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بَعَزْمَةٍ تَضْحَى لَهَا شَمُّ الْجِبَالِ تَمِيدُ
 سِرٌّ فِي ضَمَانِ اللَّهِ مُكْتَنَفًا بِمَا نَصَرْتُ بِهِ يَوْمَ الْقَلْبِ الصَّيْدِ ⁽⁴⁾

ج — علاقة غرناطة بمملكة أراغون :

ثمة دوافع ساعدت على إنشاء هذه العلاقة وتعميقها ، فبنو الأحمر في بحثٍ دائم عن حليف
 أيًّا كانت هويته ، التحالف مع الأراغونيين يجنبهم شر القتال في أكثر من جهة ، وهو
 يعينهم على حلفاء الأمس النصارى أو المرينيين ، كذلك الشأن بالنسبة للأراغونيين ، حيث
 وجدوا في تحالفهم مع بني الأحمر فرصة لإصلاح أمر الحكم في بلادهم ، وإخماد الثورات
 الداخلية ، زد على هذا أن بني الأحمر يكونون حاجزاً بين الأراغونيين وبين الجيوش المغربية
 المندفعة رغبةً في الجهاد ، وتحالفهم مع بني الأحمر من جهة أخرى يقلص الدور القشتالي
 الآخذ في التوسع .

وقد ظهرت بوادر هذه العلاقة بوضوح في أواخر عهد محمد الثاني الملقب بالفقيه ، حين

روي الباء وهي أيضا غير واردة ضمن الأشعار التي جمعها علي النقراط في كتابه : ابن الجياب حياته وشعره . .

(1) — هذه الكلمة ساقطة في الأصل ولا يستقيم الوزن إلا بها .

(2) — ابن الجياب ، ديوانه ، مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور ، د ، 2678 ، ورقة : 168 . والقصيد غير واردة ضمن شعر ابن

الجباب الذي نشره الباحث علي النقراط في كتابه : ابن الجياب حياته وشعره .

(3) — وينظر ترجمته لدى ابن الزبير ، ، صلة الصلة ق 5 ص : 265 . وستأتي ترجمته في هذه الدراسة أنظر ص : 79 .

(4) — ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : محمد عبد القادر خريسات وآخرين ، ج ، 17 ، ق ، 2 (شعراء
 المغرب والأندلس) ، ط 1 ، الإمارات العربية المتحدة ، مركز زايد للتراث والتاريخ 2007م ص 179 .

عقد معاهدة مع الأراغونيين ضد قشتالة ، وتنصّ بنود المعاهدة الجديدة على " عقد صلح ثابت وصحبة صادقة ، وأن يتعهد كل من الفريقين بعدم الإضرار بالآخر أو التعرض له ، وأن تكون أراغون معادية لأعداء غرناطة ، وأن يفتح كل من الفريقين بلده لمن يقصده من تجّار البلد الآخر مؤمّنين في أنفسهم وأموالهم ، وأن يتعهد ملك غرناطة بمعاونة أراغون ضد قشتالة ، وألاً يعقد معها صلحاً إلاّ بموافقة حليفه ، ويتعهد الطرف الآخر بمثل ما تقدّم " (1) ، إلى غير ذلك من الشروط التي تحفظ أمن البلدين ومصالحهما ، وقد وقّعت هذه المعاهدة أواخر ربيع الثاني سنة 701هـ ، بيد أنه لم يمضِ على توقيعها بضعة أشهر حتى توفي السلطان محمد الفقيه في شعبان سنة 701هـ .

وبعد أن حكم محمد الفقيه أكثر من ثلاثين عاماً انتقل الحكم إلى ولديه محمد الملقب بالملخوع ، ثم إلى ابنه نصر الملقب بأبي الجيوش ، إلا أن حكم الفرع الغالبي لم يدم طويلاً بعد محمد الفقيه ، فما إن جاءت سنة 713 هـ حتى انتقل الحكم إلى الفرع الإسماعيلي من الأسرة النصرية

وقبل أن أغادر هذا المبحث لابد لي من أن أشير هنا إلى أن مُلْكَ بني الأحمر ازداد على عهد محمد الفقيه توطيداً واستقراراً على الرغم من توالي الأحداث والخطوب .. (2) ، وكذلك ازداد على عهده عدد المهاجرين الأندلسيين إلى إقليم غرناطة ؛ بسبب سقوط الكثير من المدن الأندلسية ، إما سلماً أو حرباً في أيدي النصارى ، وعمل محمد الفقيه على استقطاب العلماء والأدباء وإغرائهم بكافة الامتيازات ، وقد صار هؤلاء المهاجرون منذ هذا القرن يمثلون عنصراً مهماً من عناصر السكان داخل المجتمع الغرناطي ، وبرزت العديد من الأسر الأندلسية التي قدمت من المدن المجاورة ، كأسرة بني الحكيم القادمة من إشبيلية ، وأسرة بني المرابط القادمة من مدينة أوريولة Orihuela ، وتقلد بعض أفراد هاتين الأسرتين — كما سيأتي لاحقاً — أسمى المناصب داخل البلاط النصري .

وسأنتقل الآن إلى المبحث الثاني لأعرف بالعناصر السكانية وطابع الحياة الاجتماعية في إقليم غرناطة على عهد بني الأحمر .

(1) — محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ج7 ، ص110 — 111 .

(2) — ينظر : المرجع السابق والموضع السابق .

المبحث الثاني
الحياة الاجتماعية
في إقليم غرناطة

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية في إقليم غرناطة

1 — عناصر السكان في إقليم غرناطة :

ثمة عوامل كثيرة تضافرت لتجعل من المجتمع الغرناطي نسيجاً متنوعاً ، كان من أهمها التوافد الكبير للأندلسيين على هذا الإقليم ، فضمّ في تركيبته السكانية عناصر متعددة من العرب ، والبربر ، والمولدين ، والمستعربين ، واليهود . وأصبح مجتمعا مكوّنا من عناصر مسلمة ، وأخرى غير مسلمة ، وانحصرت العناصر المسلمة في العرب ، والبربر ، والمولدين ، فالعرب هم الذين تحدّروا إلى الأندلس ، و جاؤوها بطوائفهم الكثيرة ، وقبائلهم المختلفة ، ومواليهم الذين ينتمون إلى شتى الجنسيات في المشرق ، والبربر هم الذين نزلوا بالأندلس مع الفاتحين ، أضف إلى ذلك أن غرناطة كانت في عهد المرابطين عاصمةً للبربر، وامتزج هؤلاء جميعاً بالسكان الأصليين للجزيرة الأندلسية ، وما يجاورها ، من قوط وإسبان، و صقالبة ، وغيرها من شعوب الفرنجة ، ونشأ من هذا الاختلاط أجيال جديدة⁽¹⁾. أُطلق عليها اسم المولدين الذين أصبحوا "بمضي الزمن عنصراً مهماً من سكان الأندلس المسلمين"⁽²⁾.

وأدّى امتزاج هذه العناصر الثلاثة؛ العرب ، والبربر، والمولدين إلى خلق شخصية أندلسية جديدة اجتمعت فيها " الشهامة العربية ، والفتوة البربرية ، والهذوء اللاتيني ، والتأمل اليوناني "⁽³⁾. وانضمّ إلى هذه العناصر المسلمة الثلاثة المسلمون الذين " فرّوا من الغزو المسيحي في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي "⁽⁴⁾، حيث توافدت على

(1) — ينظر: جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، القاهرة — دار المعارف ، 1980م ، ص33.

(2) — حكمة على الأوسي ، فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة ، بغداد — مكتبة النهضة ، 1971م ص 29. نقلاً عن : أحمد ثاني الدوسري ، الحياة الاجتماعية في عصر بني الأحمر ، ص74.

(3) — ليفي بروفنسال ، محاضرات في الأدب الأندلسي ، ترجمة : الطاهر أحمد مكي ، القاهرة — دار المعارف ، 1979م ، ص72.

(4) — Rachel Arie : L' Espagne Musulmane au temps des Nasrides Paris : 1973. —

P. 301 نقلاً عن : أحمد ثاني الدوسري ، الحياة الاجتماعية في عصر بني الأحمر ، ص67.

غرناطة والمناطق التابعة لها العديد من جموع المسلمين المهاجرين من المدن التي سقطت في أيدي الإسبان في أثناء الغزو الصليبي لها، وكانت هذه الجموع "تضم كثيراً من العناصر التي صقلتها حضارة أرقى، وأصبحت تمثل أمثناً ما بقي من القيم العنصرية والحضارية للأندلس القديمة"⁽¹⁾. وبسبب ازدياد عدد الوافدين من تلك المناطق صار من الصعوبة بمكان تحديد عدد السكان الغرناطين تحديداً دقيقاً، بيد أن ابن الخطيب ذكر خلال حديثه عن عناصر المجتمع الغرناطي أن "أنسابهم عربية"⁽²⁾، وذكر أيضاً أن منهم الفهري، والأموي، والأزدي، والقيسي، والكناني، والخزرجي، والقحطاني، والحميري، والمخزومي، والغساني، والشميري، والعبسي.... إلى غيرها من الأصول العرقية التي راح ابن الخطيب يعددها ويرى فيها دليلاً على أصالة ونزاهة العرق العربي الأصيل للسكان الغرناطين⁽³⁾. ويدل كلام ابن الخطيب على أن الغرناطين كانوا يعتزون بانتماءاتهم وأصولهم العربية، يؤكد هذا أن "نساء الطبقة الراقية في غرناطة كنّ يوصفن بالعربيات؛ لحفاظهن على التقاليد والعادات العربية"⁽⁴⁾.

هذا عن العناصر المسلمة، وأما العناصر غير المسلمة فتتمثل في اليهود، والنصارى المستعربين .

فأما اليهود فقد سكنوا غرناطة قديماً حتى إنها سُميت باسمهم، وأطلق عليها : غرناطة اليهود، وقد أشار الحميري صاحب الروض المعطار إلى هذا الشأن، حيث قال : "وتعرف بإغرناطة اليهود؛ لأن نازليها كانوا يهوداً"⁽⁵⁾.

وإذا كان ابن سعيد يذكر أن اليهود في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي كانوا يميزون في لباسهم عن سائر المسلمين؛ وذلك بارتدائهم غفائر الصوف الصفراء، بينما كان عامة الأندلسيين يلبسون الغفائر الخضراء والحمراء⁽⁶⁾؛ فإن النصوص عامة

(1) — محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ص72.

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص134 — وكذلك ص: 135.

(3) — ينظر: المصدر السابق ، ج 1 ، ص: 135.

(4) — أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص: 357 .

(5) — الحميري ، الروض المعطار ، ص23.

(6) — ينظر : المقرئ ، نفع الطيب ، ج 1 ، ص208. و الغفائر : جمع غفيرة ، أو غفارة ، وهو لباس يغطي العنق والقفا .

تفيد بأن اليهود في عهد بني الأحمر تمتّعوا بحريّات واسعة، ولاسيما في النواحي التجارية⁽¹⁾. واشتهروا في الطب والترجمة، وصناعة الحلي.

أما النصارى المسيحيون فقد كان بعضهم من بقايا المستعربين الذين كانوا يقيمون في غرناطة مقابل دفع الجزية، وبعضهم الآخر كان من التجار "وقد استقرّ أغلب التجار في المناطق الحدودية..."⁽²⁾، وبخاصة في مدينة ألمرية التي تُعدّ القاعدة التجارية الأولى في الإمارة الغرناطية⁽³⁾. ومما يلاحظ أن أعداد النصارى ازدادت في إقليم غرناطة على عهد بني الأحمر، وذلك "عن طريق أسرهم في أثناء المواجهات البحرية والبرية لغرناطة مع القوات المسيحية المجاورة"⁽⁴⁾.

ويلاحظ أيضاً " أن حكومة غرناطة حرصت على معاملة رعاياها المسيحيين معاملة حسنة؛ تحسباً لأي اضطهاد يقع ضد المسلمين المدجنين Mudejares أي المسلمين الخاضعين لملوك المسيحيين في الممالك الإسبانية⁽⁵⁾، وذلك لأن المعاملة كانت بالمثل وفق المعاهدات المبرمة بين الجانبين "⁽⁶⁾.

ويذكر ابن الخطيب أن النصارى " كانت لهم بخارج الحضرة على غلوتين تجاه باب إلبيرة في اعتراض الطريق إلى قو لجر؛ كنيسة شهيرة اتخذها لهم أحد الزعماء من أهل دينهم "⁽⁷⁾. ثمّة عنصر أخير دلّت المصادر على وجوده ضمن التركيبة الاجتماعية لسكان إقليم غرناطة خلال القرن السابع الهجري؛ ألا وهو العنصر التركي المعروف بالغرّ، ويُشار إليه في بعض المصادر بالأغزاز، وهم جنس من الترك بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين⁽⁸⁾. وقد

(1) — ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص358.

(2) — أحمد ثاني الدوسري، الحياة الاجتماعية في عصر بني الأحمر، ص82.

(3) — ينظر: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص358.

(4) — Rachel Arie : L' Espagne Musulmane au temps des Nasrides Paris : 1973

P. 319 نقلاً عن: أحمد ثاني الدوسري، الحياة الاجتماعية في عصر بني الأحمر، ص81.

(5) — ينظر: Ola Abdel Hamid Solman : Diccionario Espanol _ Arabe , Impreso en Libano, 2000 , p:133.

(6) — أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص359.

(7) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص107.

(8) — ينظر: علي ابن أبي زرع الفارسي، الأنييس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه: عبدالوهاب بن منصور، ط2، الرباط، المطبعة الملكية، 1420هـ — 1999م، ص176.

ظهر هذا العنصر بقلّة في عهد المرابطين، ثم كثر على عهد الموحدين حين أخذ "المنصور الموحدي في استجلابهم وإكرامهم بزيادة المرتبات والإقطاعات، وأغدق عليهم بدعوى أنهم غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه"⁽¹⁾.

وقد تميّز هؤلاء الأغزاز بأنهم كانوا يضيفون شعورهم كالنساء⁽²⁾، يقول مالك بن المرحل متغزلاً فيمن لوى ضفيرته منهم: {الكامل}

صَابٍ مِنَ الْأَثْرَاكِ أَصْبَى مُهْجَتِي
فَعَبَدْتُ نُورَ الْحُسْنِ فَوْقَ جَبِينِهِ

ويقول في وصفهم أيضا :

مُتَمَكِّنٌ فِي الْحُسْنِ نَوْنٌ صُدْغَهُ
تَنَسَّابُ عَقْرَبُ صُدْغِهِ فِي جَنَّةٍ
وَلَوَى ضَفِيرَتَهُ فَوَلَّى مُدْبِرًا
فَتَبَيَّنَ التَّمَكُّينُ فِي تَنَوِينِهِ
لَمْ يَجْنِ مِنْهَا الصَّبُّ غَيْرَ مَنُونِهِ
فَعَلَّ الْكَلِيمِ ارْتَابَ مِنْ تَنِينِهِ⁽³⁾

وهكذا؛ فإن المجتمع الغرناطي تكون — كما ذكرت سابقا — من عناصر مسلمة وأخرى غير مسلمة، وانحصرت الأولى في البربر والعرب والمولدين، وأما غير المسلمة فهم أهل الذمة من اليهود والنصارى المسيحيين، وكان لعادات هؤلاء الأخيرين وتقاليدهم صدى واضح في الحياة الاجتماعية على النحو الذي برز به أثر اليهود من أهل الذمة⁽⁴⁾، فقد استفادوا من تسامح الإسلام، وتوغّلوا في حياة المسلمين توغلاً اتاح لهم المشاركة الحقيقية في حياة القصور وفي الحياة اليومية، ولئن قلّ عددهم في عهد الدولة الموحدية، فإن ظهورهم من جديد إلى مسرح الحياة العامة في العدوتين بدا واضحا خلال عهد بني الأحمر وبني مرين⁽⁵⁾، وقد أشار بعض الشعراء الغرناطيين — كما سيأتي في رثاء المدن الأندلسية — إلى دورهم السلبي المتمثل في إقناع الأندلسيين بتسليم مدنها للنصارى.

(1) — محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلسي في العصر المريني، الكويت، دار القلم، 1405، 1985م، ص318.

(2) — المرجع السابق، ص318.

(3) — مالك ابن المرحل، الجوالات، تح: محمد مسعود جبران، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004م، ص131.

(4) — ينظر: أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج2، الدار

البيضاء، دار الكتاب، 1954 — 1955م، ص15.

(5) — ينظر: محمد بن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية (من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر)، ط1، الرباط، مطبعة

الرسالة، 1982م، ص38 — 43. (بتصرف)

وقد ازداد عدد السكان الغرناطيين المسلمين ازدياداً كبيراً بسبب سيل المهاجرين الذين توافدوا إلى إقليم غرناطة من مسلمي بلنسية ومرسية وجيان وإشبيلية وقرطبة وغيرها من القواعد التي سقطت في أيدي النصارى، أو التي كانت مهددة بالسقوط. وكانت مواجهة حكومة غرناطة مع ملوك النصارى تتميز تارةً بالحدة، وتارةً أخرى بالفنور، وفي أثناء فترات الهدنة حرص ملوك بني نصر على أن يحصلوا من مملكتي قشتالة وأراغون في عدد من الاتفاقيات والمعاهدات على السماح للمهاجرين بالهجرة إلى غرناطة مع عائلاتهم، وألاً تمنع هاتان المملكتان من أرادوا ذلك " مرفوعاً عنهم الاعتراض من غير شيء يلزمهم إلا العزم المعتاد على ما جرت به العادة من غير زيادة " (1). ومن ثم التحق بغرناطة عدد من المهاجرين الأندلسيين.

ومن جهة أخرى دخلت أفواج من البربر الذين كانوا يتوافدون على غرناطة من العدو المغربية من أجل الجهاد ومساعدة الغرناطيين في حروبهم ضد النصارى. وأمام هذا التوافد صار من الصعب تحديد عدد السكان الغرناطيين تحديداً دقيقاً، ولا سيما في العهد الأول من عمر الدولة النصرية.

2 — مذهبهم الديني :

كان أهل غرناطة " يدينون بمذهب الإمام مالك بن أنس، ولم يتأثر المجتمع الغرناطي في نزعة المذهبية ولا في تقاليد الدينية، رغم توالي سيادة المرابطين والموحدين عليه فترة من الزمن " (2).

3 — أشكالهم وصفاتهم :

كان أهل غرناطة يتسمون بصفات جسمانية مميزة تجمع بين الاتساق والقوة فـ"صورتهم حسنة، وأنوفهم معتدلة غير حادة، وشعورهم سود مُرسلة، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر، وألوانهم زُهر مُشربة بجمرة.. " (3). كما تميّز أهل غرناطة

(1) — شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج2، بيروت — منشورات دار مكتبة الحياة، د.ت، ص 294، 296.

(2) — محمد عبدالله عنان، مهاية الأندلس، ص49.

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص134.

بالعزة وإبائه الضيم، والمساحة بما في أيديهم، وهم ناهون في أفكارهم، ولهم حذق بالفروسية، وبصر بالطعن والضرب⁽¹⁾.

وتميّزت نساؤهم بجمال الشكل والأجسام، فقد ذكر ابن الخطيب أن " حريمهم حريم جميل موصوف باعتدال السمن، وتنعم الجسوم، واسترسال الشعور، ونقاء الثغور، وطيب الشذا، وخفة الحركات، ونبيل الكلام، وحسن المحاورة، إلا أن الطول يندر فيهن... " ⁽²⁾.

4 - لغتهم :

شهد المجتمع الغرناطي بالنظر إلى تركيبته السكانية المتنوعة لغات ولهجات مختلفة، بيد أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية، والمدخل لإحراز مكانة راقية أو منصب سام، وقد ذكر ابن الخطيب أن " ألسنتهم فصيحة عربية، لغاتهم يتخللها عرف كثير، وتغلب عليها الإمالة.. " ⁽³⁾. وظلت اللغة العربية لغة الحديث الرسمي، ولغة الإبداع والفن الأدبي شعراً ونثراً.

5 - لباسهم :

أمّا فيما يخصّ لباسهم، فقد غلب على طبقاتهم ارتداء "الملف المصبوغ شتاءً.... والكتان والحريير والقطن والمرعزي والأردية الأفريقية، والمقاطع التونسية، والمآزر المشفوعة صيفاً؛ فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة" ⁽⁴⁾.

وفي لباس الرأس نجد أن "العمائم تقل في زي أهل هذه الحضرة، إلا ما شدّ في شيوخهم وقضاةم وعلمائهم والجنود الغربي منهم" ⁽⁵⁾.

وكان العلماء والقضاة "يضعون الطيلسان على الكتفين، أو على كتف واحد، أو على الرأس أيضاً، وأما عامة الناس فكانوا لا يستخدمون العمائم ولا الطيلسان، ولكن يضعون

(1) — ينظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 134 . وينظر أيضاً : عبدالرحيم يوسف أحمد ، " النثر الفني في مملكة غرناطة " ، جامعة القاهرة — دار العلوم ، 1991م ، ص 20 رسالة دكتوراه غير منشورة .

(2) — ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص : 41 .

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 134 .

(4) — المصدر السابق ، ج 1 ، ص ص 134 — 136 .

(5) — المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 136 .

على رؤوسهم غفائر من الصوف الأحمر، أو الأخضر " (1).

أمّا فيما يتعلق بلباس الأمراء النصرين وجنودهم فقد اختلفت حوله الآراء، فقد ذكر ابن سعيد الغرناطي عند حديثه عن ملابس السلاطين الأندلسيين وأجنادهم أنها كانت شبيهة بملابس حيرانهم النصارى؛ قال: "وكثيراً ما يتزيّا سلاطينهم وأجنادهم بزي النصارى المجاورين لهم فسلّاحهم كسلّاحهم، وأقبيتهم من الإشكرلاط وغيره كأقبيتهم وكذلك أعلامهم وسروجهم" (2)

ويبدو من كلام ابن سعيد أن هذا المظهر لم يكن خاصاً بسلاطان دون آخر أي أنه لم يكن خاصاً ببني الأحمر فحسب؛ بل كان عاماً معروفاً لدى معظم السلاطين الأندلسيين في تلك الحقبة، ويبدو أيضاً أن هذا التأثير حدث داخل الإمارة الغرناطية في وقت متأخر عن زمن محمد ابن الأحمر الغالب بالله مؤسس الدولة؛ ذلك لأن معظم المصادر تؤكد أن مؤسس الدولة الغرناطية لم يحط نفسه بمظاهر العظمة، أو الأبهة؛ بل تذكر أنه غلبت عليه مظاهر التقشف والتواضع والبداءة (3)، فلم يكن زيّه عند دخوله غرناطة بفاخر على حد تعبير ابن عذاري الذي نقل لنا وصف لباس الغالب بالله عن شاهد عيان رآه عند دخوله غرناطة، حيث ذكر أن ابن الأحمر كان يرتدي "شاشية ملف مضلعة أكتافها مخرقة" (4)، ومما يدل على هذا التواضع في لباس الغالب بالله تلك الإشارات التي أجدها في بعض النصوص الشعرية الغرناطية؛ من ذلك قول أبي عبدالله البرجي من قصيدة طويلة {الكامل}:

لَمْ تَلْتَمِسْ دُنْيَا إِلَيْكَ تَسْوُقُهَا وَسِوَاكَ يَطْلُبُ لِدُنْيَا وَيَزِيدُ (5)

فهذا البيت يدل على تواضع الغالب بالله في لباسه، وزهده في الدنيا، وأنه استمر

(1) — أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص356. الطيلسان: كلمة فارسية تعني الرداء، و(الغفارة) خرقة تلبسها المرأة فتغطي رأسها ما قبل منه وما دبر غير وسطه، والسحابة فوق السحابة، وزرد ينسج من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة والجمع: غفائر. ينظر: المعجم الوسيط - إعداد إبراهيم مصطفى وآخرين، ج2، ط2، استانبول، المكتبة الإسلامية، (د، ن) ص: 224.

(2) — ينظر: المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص207.

(3) — ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة ج2 ص: 94.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة ج2 ص: 98، 99. وكذلك: ابن عذاري، البيان المغرب، ج3، ص337.

(5) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم: 3835، ورقة: 359.

متواضعا غير مكترث بأمر الدنيا ، وهذا يدفعني إلى القول إن لباس السلاطين النصرين في بداية تأسيس المملكة كان لباساً بسيطاً متواضعاً ، بينما طُبع — لاحقاً — بمظهر الأبهة والفخامة ، وذلك عندما أرسيت دعائم الملك ، وثبتت ركائزه .

ويبدو أن هذا المظهر اتضح منذ عهد السلطان الثاني محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه الذي تولى الحكم سنة 671هـ ؛ يدل على هذا ما ذكره مالك بن المرحل ضمن قصيدة قالها على لسان ملك بني مرين يستهجن ويعاتب سلطان غرناطة محمد الفقيه ؛ بسبب سياسته غير الثابتة مع بني مرين ، ويعرض بتأثر جنده بلباس جيرايم النصرى ، حيث يقول {الكامل} :

عَلَجاً تَوَلَّوْا كَالنَّعَامِ الشُّرْدِ	عَهْدِي بِجُنْدِكُمُ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا
فِي زِيَّهِمْ وَكَلَامِهِمْ فِي الْمَشْهَدِ	يَتَشَبَّهُونَ بِكُلِّ أَغْلَفٍ كَامِنٍ
وَمَنَاكِيرٍ يَأْتُونَهَا وَسَطَ النَّدِيِّ	وَطَعَامِهِمْ وَخِلَالِهِمْ وَشَرَابِهِمْ
أَعْيَانٍ مِنْ أَهْلِ التَّقَى وَالسُّودِدِ (1)	وَتَنْقِصُ الْعُلَمَاءَ وَالْفُضَلَاءَ وَال

فهذه الأبيات تؤكد ما ذكره ابن الخطيب في أثناء حديثه عن جند غرناطة ، حيث قال إن : " زيَّهم في القديم شبيهه بزى جيرايم من الروم .. ثم عدلوا عن هذا الزي ... " (2) .

وفي أبيات ابن المرحل التي قالها على لسان ملك بني مرين تعريض بالملك النصرى محمد الفقيه ، وهي لا تخلو من التحامل على الغرناطين بسبب سياسة الحكومة الغرناطية الموصوفة بالتلون والتغير مع جيرايم المرينين ، وابن المرحل كان ينقل من خلال هذه الأبيات رسالة سياسية تعبر عن وجهة نظر بني مرين ، وهو مبالغ في اتهامه الغرناطين بالضعف ، وفي وصف جندهم (بالنعام الشرد) ؛ وذلك ليقول من قيمة الغرناطين ، ووصمهم بأن لا همَّ لهم سوى التشبه بالنصارى الغاصبين في زيهم وطريقة مخاطبتهم وطعامهم وشرايمهم ، وتناسى بنو مرين أن الشعب الأندلسي عريق في حضارته ، رائد في الفكر والمدنية ، " إلا أنه بالمقابل حافظ على تقليده التمديني سليماً " (3) . ثم إن مظاهر

(1) — ابن القاضي ، درة الحجال في غرة أسماء الرجال ، ص 302 .

(2) — ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص 39 .

(3) — ليفي بروفنسال ، حضارة العرب في الأندلس ترجمة : ذوقان قرقوط ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة (د، ت) : ص 39 .

التأثير والتأثر هي من سمات الحضارة الأندلسية عامة، والغرناطية خاصة؛ وذلك نتيجة لتنوع التركيبة السكانية المكوّنة للشعب الغرناطي التي مرّ الحديث عنها فيما سبق، وبسبب مجاورة الأندلسيين للمسيحيين والقرب الجغرافي بينهما، ولو رجعنا لنص ابن سعيد السابق لوجدنا أنه لا يخص الغرناطيين وحدهم بهذا التأثير؛ بل إن كلامه كان عاماً يخص الأندلسيين جميعاً، ثم " إن التقليد العربي ارتضى مع محافظته على مكانته الرفيعة في الوقت ذاته بمؤثرات لم يكن له بمنجى من ارتياضها " (1) .

وقد رد شاعر بني الأحمر أبو عمرو ابن المرابط على هذه التهم والشائعات التي روج لها الحساد الحاقدون، مفتنّاً ما ذكره ابن المرحل عن تشبه الغرناطيين بالنصارى، ومشيداً بالمواقف البطولية للغرناطيين ضد أعدائهم، و بانتصاراتهم التي أغاضت نفوس الحساد، مؤكداً على تمسك الغرناطيين بمبادئ الدين الإسلامي، والافتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، وبالأمّة الأجلاء وعدم الحط من قدرهم، أو الإقلال من شأنهم، فهم الشهود والعدول والقضاة؛ يقول: {الكامل}

وَلَقَدْ وَقَفْنَا لِلْعَدُوِّ مَوَاقِفَا	كَادَتْ تَفِيضُ لَنَا نُفُوسُ الْحُسَدِ
نَسَبُوا إِلَيْنَا مَا هُمْ أَوْلَى بِهِ	وَتَقَلَّدُوا الْآثَامَ أَيَّ تَقَلَّدِ
مَنْ ذَا تَشَبَّهَ بِالنَّصَارَى أَوْ نَحَا	مَنْحَاهُمْ وَحَكَاهُمْ وَسَطَ التَّدِي
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا بَنِيْنَا	وَأئِمَّةَ التَّقْوَى الرُّضِيَّةِ نَقْتَدِي
مَنْ ذَا تَنَقَّصَ عَالِماً أَوْ صَالِحَا	وَهُمُ الْأَلَى بِالْهَدْيِ مِنْهُمْ نَهْتَدِي
وَإِذَا تَزَوَّجْنَا فَهُمْ شُهَدَاؤُنَا	وَعُدُولُنَا وَالْعَدْلُ خَيْرُ الشُّهَدِ
فَهُمْ أئِمَّتُنَا مَعَا وَقَضَاتُنَا	وَالْحَامِلُونَ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَرْشَدِ (2)

6 — عاداتهم :

اعتنى الغرناطيون اعتناءً خاصاً بنظافة المأكل والملبس، فهم كما يقول ابن سعيد: " أشدّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه فيطويه صائماً، ويتناح صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر

(1) — ليفي برونسفال، حضارة العرب في الأندلس، ص: 47 .

(2) — ابن القاضي، درة المجال في غرة أسماء الرجال، ص: 302.

فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها" (1).

ومن أبرز المظاهر التي تدل على اهتمام الغرناطين بالنظافة؛ كثرة الحمامات وانتشارها داخل المدن الغرناطية، فمدينة ألمرية مثلاً اشتهرت بالعديد من الحمامات، مثل حمام (الخنديق) الذي دارت حوله الحكايات، ونسجت فيه الأشعار، فهذا أبو بكر ابن الحاج البلفيقي (ت 694 هـ) (2) يسرد حكاية طريفة حول هذا الحمام إذ يقول: "بتُّ بحمام الخندق من داخل ألمرية يوم الجمعة منفرداً فطفئ القنديل، وبقيتُ مفكراً، وخطر لي ما يقول الناس من تخيل الجن في الأرحاء والحمامات، وعدم إقدام كافة الناس إلا من شدَّ على دخولها منفردين بالليل لاسيما بالظلام، واستشعرت قوة نفس عند ذلك فقلت مرتجلاً رافعاً بذلك صوتي: {الكامل}

زَعَمَ الَّذِينَ لَهُمْ عُقُولٌ قَدَرُهَا إِنَّ عَرَضَتْ لِلْبَيْعِ غَيْرَ ثَمِينِ
أَنَّ الرَّحَى مَعْمُورَةٌ بِالْجِنِّ وَالْ— حَمَّامٌ عِنْدَهُمْ كَذَا بَيَقِينِ
إِنْ كَانَ مَا قَالُوهُ حَقًّا فَاحْضَرُوا لِلْحَرْبِ هَذَا الْيَوْمِ مِنْ صَفِينِ" (3)

ويبدو أن تلك الحمامات لم تكن مكاناً للنظافة والاستحمام فحسب، بل كانت مصدراً للإلهام الشعري أيضاً، حتى إن الأشعار التي قيلت في الحمامات الأندلسية أفرد لها أبو عبد الله الحضرمي (ت 711 هـ) (4) مصنفًا خاصاً سماه بـ"تأنيس أرباب الاستحمام بما

قيل من الأشعار في الحمام"، ومما قيل في حمام الخندق بمدينة ألمرية: {الوافر}

وَلِلْحَمَّامِ حَاءَاتٌ تَمَانٍ إِذَا كَمَلْتَ فَقَدْ كَمَلَ التَّعِيمُ
فَحَمَّامٌ وَحَنَاءٌ وَحَوْضٌ وَحَكَائِكَ لَهُ حَجَرٌ يُعُومُ
وَحَجَّامٌ يُزِينُ ثُمَّ يُعْطِي حَدِيدَتُهُ وَأَنْتَ بِهِ عَلِيمُ
وَجَاءَ حَدِيثٌ مَنْ تُصْغِي إِلَيْهِ رَخِيمَ الدَّلِّ مَنْظَرُهُ وَسَيْمُ

(1) — المقرئ، نفع الطيب، ج 1، ص 208.

(2) — ينظر ترجمته لدى ابن القاضي، درة الحجال ترجمة رقم: 503. ص: 167.

(3) — أحمد بن القاضي المكناسي، جدوة الاقتباس في ذكر ما حل من الأعلام مدينة فاس، تح: عبد الوهاب بن منصور، ج 1، ط 2، الرباط — دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م، ص ص 292، 294، 295.

(4) — ينظر: ابن القاضي، درة الحجال ص: 190. ترجمة رقم: 542.

وَحَاءٌ تَامِنٌ وَهُوَ الْمُؤَدَّى إِلَيْهِ وَذَلِكَ الْحَاءُ الْعَظِيمُ؟⁽¹⁾

ومن مظاهر الاهتمام بالنظافة اعتناء الأهالي والسلطين بنظافة الحمامات عناية خاصة "من حيث الصيانة والنظافة وتأمين الراحة للمستحمين"⁽²⁾. ولذلك كان الشاعر الغرناطي أبو عمرو بن المرابط يذم حمام (توزر) الذي كان ينقصه بعض الاهتمام ، حيث قال {الخفيف}:

إِنَّ حَمَامَنَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ هُوَ فِي حَاجَةٍ إِلَى الْحَمَامِ
فَدَخَلْنَا وَنَحْنُ أَبْنَاءُ سَامٍ وَخَرَجْنَا وَنَحْنُ أَبْنَاءُ حَامٍ⁽³⁾

وكان من العادات الغرناطية التي أملتھا الطبيعة الفاتنة وعمقتها في نفوس الغرناطيين: الخروج إلى المنتزهات ، وقضاء الوقت فرادى وجماعات بين أحضان الطبيعة ، واشتهرت غرناطة بالعديد من المنتزهات التي كانت مقصداً لكل الغرناطيين أيام الصيف والربيع ، مثل متنزه: (عين الدمع) الذي كان يغص "بالمروج والحدائق الغناء"⁽⁴⁾. ومثل متنزه نهر شنيل الذي ولع أهل غرناطة بالجلوس على ضفافه ، وتغنى به الشعراء ، وغالوا في وصفه ومدحه ، يقول ابن سعيد الغرناطي في هذا النهر : {الكامل}

انْظُرْ لِشَنِيلٍ يُقَابِلُ وَجْهَهُ وَجَهَ الْهلالِ كَقَارِيٍّ أُسْطَارَهُ
لَمَّا رَأَاهُ مِعْصَمًا قَدْ زَانَهُ وَشَيْءُ الصَّبَا أَلْقَى عَلَيْهِ سِوَارَهُ⁽⁵⁾

ومن أجمل المنتزهات الغرناطية الشهيرة :متنزه حور مؤمل ، و اللشنته ، والزاوية ، والمشايخ⁽⁶⁾ ، و متنزه نجد المطل على بسيط غرناطة⁽⁷⁾ ، وفيه يقول أبو الحسن سهل بن مالك الغرناطي (ت 639 هـ)⁽⁸⁾: {الخفيف}

كُلُّ وَجْدٍ سَمِعْتُمْ دُونَ وَجْدِي لِأَصِيلٍ يَفُوتُ طَرْفِي بِنَجْدِ

(1) — ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج 1 ، ص 191 وما بعدها .

(2) — الدوسري ، الحياة الاجتماعية في غرناطة ، ص 163 .

(3) — ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج 1 ، ص 26 .

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 121 هامش رقم 4 .

(5) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ، ص 103 .

(6) — ينظر : المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(7) — ينظر : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 105 .

(8) — ترجمته في الإحاطة ، ج 4 ص : 277 .

حَيْثُ جَرَّرْتُ ذَيْلَ كُلِّ مَجُونٍ بَيْنَ حُورٍ تَمِيسُ فِيهِ وَرَنْدٍ
وَسَوَاقٍ كَأَنَّهُنَّ سَيْوْفٌ جُرِّدَتْ فِي الرِّيَاضِ مِنْ كُلِّ غَمْدٍ⁽¹⁾

ومن المتنزهات الغرناطية "متنزه السبيكة" الواقع خارج المدينة⁽²⁾ وفيه يقول أبو الطيب الرندي: {الكامل}

مَا بَيْنَ نَجْدٍ وَالسَّبِيكَةِ وَالْحِمَى أَرْضٌ سَمَتْ حُسْنًا فَأَشْبَهَتْ السَّمَاءَ⁽³⁾

7 — أعيادهم ومناسباتهم :

كان للغرناطيين أعياد ومناسبات متعددة ومتنوعة ، وكانت أعيادهم كما يقول ابن الخطيب "حسنة ماثلة إلى الاقتصاد " ⁽⁴⁾ ، ومن أشهر أعيادهم الدينية : عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وموسم عاشوراء، إضافةً إلى عيد المولد النبوي الذي يوافق الثاني عشر من ربيع الأول⁽⁵⁾ . وكانت مدينة وادي آش من المدن الغرناطية التي تحرص على الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ، وكان المتصوفة في هذه المدينة من أحرص الناس على إحياء هذه المناسبة وإقامة شعائرها،⁽⁶⁾ وعن المراسم المتبعة في إحياء هذه المناسبة الخروج ليلاً في مواكب الشموع المضيئة ، وإقامة الولائم ، وتلاوة القرآن ، وإنشاد الأذكار والمدائح والموشحات الدينية⁽⁷⁾ . وكانت تقدّم في هذه المناسبة أنواع مختلفة من الأطعمة والحلويات وأصناف من الطيب والبخور⁽⁸⁾ .

وقد اشتهر بإحياء هذه المناسبة أبو العباس أحمد العزفي رئيس مدينة سبتة المغربية، حيث أَلَّفَ كتاباً حول هذه المناسبة سَمَّاهُ بـ(الدر المنظَّم في مولد النبي المعظَّم) ، وقد

(1) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ، ص 105 .

(2) — السبيكة اسم الربوة التي بنيت عليها قلعة غرناطة، وكانت تربتها حمراء اللون ، فإذا سقطت عليها أشعة الشمس صارت مثل سبيكة الذهب؛ ولهذا سميت قلعة غرناطة بالحمراء نسبة إلى لون تربتها. ينظر: أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس، ص 301 .

(3) — أبو الطيب الرندي، روضة الأنس ونزهة النفس، مخطوط في خزانة الفقيه محمد المنوني نسخة مصورة على الميكروفيلم ورقة: 52

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 137 .

(5) — ينظر : أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 359 .

(6) — ينظر : أحمد بن إبراهيم القشتالي ، تحفة المغرب ببلاد المغرب ، ص 76 — 78 ، 108 — 109 .

(7) — ينظر : المصدر السابق ، ص 76 — 78 ، 108 — 109 . وينظر أيضاً : محمد المنوني ، "المولد النبوي الشريف في المغرب المريني" ، مجلة دعوة الحق ، ع 1 ، السنة 1968م ، ص 120 .

(8) — ينظر : أحمد بن إبراهيم القشتالي ، تحفة المغرب ببلاد المغرب ، ص 76 — 78 ، 108 — 109 .

اخترمته المنية قبل أن يكمل هذا الكتاب فأكملة ابنه أبو القاسم العزفي، وهو كتاب يدعو إلى التمسك بالدين الإسلامي ، والتعلق بمولد الرسول ﷺ ، والتراجع عن مشاركة النصارى أعيادهم وعوائدهم⁽¹⁾.

وقد " اتخذ الاحتفال بهذا العيد طابعاً رسمياً ، سواء في المغرب أو الأندلس خصوصاً منذ القرن الثامن الهجري " ⁽²⁾.

ومن الأعياد الغرناطية التي تميزت بطابعها الشعبي عيد العصير ، الذي يقام عند جني محصول العنب وعصره ، حيث يتوجه الأهالي إلى حقول الكروم لجني المحصول، وكانت تقام خلال هذه المناسبة أيام مميزة في جوٍّ يسوده المرح والطرب الغناء⁽³⁾، ويُعد هذا من سمات الاحتفالات الغرناطية، فقد ذكر ابن الخطيب أن الغناء " بمدينتهم فاش حتى في الدكاكين .. " ⁽⁴⁾.

بيد أنه كانت تنتشر في جوِّ الطرب والمرح الصاحب بعض العادات السيئة ، كشرب الخمر الذي هو — أيضاً — وسيلة من وسائل المشاركة في تلك الاحتفالات⁽⁵⁾، ولم ينبج من هذه العادة السيئة — أعني شرب الخمر — إلا من رحم ربي، فقد امتدت إلى رجال السلطة المقرّبين من الحكومة الغرناطية، فهذا أبو القاسم محمد بن العابد الأنصاري (ت 690 هـ) ⁽⁶⁾ أحد كتّاب السلطان محمد الفقيه أخبرنا عنه ابن الخطيب أنه كان معروفاً بـ " المعاقرة ، وانهماكه في البطالة ، واستعمال الخمر حتى زعموا أنه قاء يوماً بين يديه فأخّره عنها (يعني الكتابة) " ⁽⁷⁾، وقد صاغ ابن العابد قصيدة يطلب فيها الصفح من السلطان قال فيها : { الطويل }

(1) — ينظر : محمد بن تاويت الطنجي ، التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، القاهرة ، د.ن ، 1951م ، ص309. وينظر أيضاً : عبد الهادي التازي ، "لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي ؟" ، مجلة دعوة الحق ، ع277 ، السنة 1410هـ — 1989م ، ص50.

(2) — الدوسري ، الحياة الاجتماعية في غرناطة ، ص158.

(3) — ينظر: أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص359.

(4) — ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص40.

(5) — ينظر : الدوسري ، الحياة الاجتماعية في غرناطة ، ص:156.

(6) — ترجمته في الإحاطة ج 2 ص: 281

(7) — ابن الخطيب ، الإحاطة ج 2 ص: 281

أَفِي عَادَةِ الْإِنْصَافِ وَالْعَدْلِ أَنْ أُجْفَأَ لَأَنْ زَعَمُوا أَنِّي تَحَسَّيْتُهَا صِرْفًا⁽¹⁾
 ومن المناسبات الغرناطية ذات الصفة الرسمية التي كان يحتفل بها الغرناطيون عامة والشعراء
 خاصة؛ مناسبة إعدار أبناء السلاطين أو زواجهم⁽²⁾. والاحتفال بتعيين ولي العهد، وقد
 خُلِّدتْ بعض هذه المناسبات شعراً، من ذلك قصيدة أبي الطيب الرندي التي قالها بمناسبة
 تعيين محمد الفقيه ولياً للعهد سنة 655هـ⁽³⁾. وقد تزامن هذا الاحتفال مع مناسبة
 غرناطية أخرى، ألا وهي مولد الأمير محمد الثالث الملقب بالمخلوع ابن محمد الفقيه،
 وذلك سنة 655هـ⁽⁴⁾. وقد وثق الرندي هاتين المناسبتين من خلال مقدمة قال فيها: "لما
 بويح بالحضرة النصرية بولاية العهد للأمير المعظم أمير المسلمين أيده الله، واقترن بذلك
 مولد ابنه الأمير المعظم أسعده الله قلت ..."⁽⁵⁾.

ومن أبيات هذه القصيدة التي تدل على هاتين المناسبتين قول الرندي: {البسيط}

لِللَّهِ مِنْ عَيْدَيْنِ فِي نَسَقٍ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الْعَرَاءِ فِي الدَّوَلِ
 أَهْلًا بَدَا الْوَلَدِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهُ وَالصَّارِمِ الْمُتَنَضِّي مِنْ أَكْرَمِ الْخَلْلِ
 أَهْلًا بَدَا الْمَلِكِ النَّصْرِيِّ مَحْتَدُهُ وَالْفَارِسِ الْبَطْلِ ابْنَ الْفَارِسِ الْبَطْلِ
 وَيَبْعَةُ عَقِدَتِ وَالسَّعْدُ يُسْعِدُهَا فَمَا تَرَى فِي خِلَالِ الْأَمْرِ مِنْ خَلَلِ⁽⁶⁾

كذلك خلّد الرندي مناسبة أخرى من مناسبات الدولة النصرية، أعني مناسبة إعدار الأمير
 محمد الثالث، وهي مناسبة لم يشاهدها الرندي لكنه رسم أحداثها من مخيلته في قصيدة
 جاء فيها: {الرملي}

لَيْتَ أَنِّي شَاهِدٌ إِعْذَارُهُ فَهُوَ مِنْ غَدْرِ الزَّمَانِ الْمُعْتَدِي
 أَيُّهَا الذَّمْرُ الَّذِي يَعْذِرُهُ أَوْ مَا تَرَهَّبُ بَطْشَ الْأَسَدِ

-
- (1) — ابن الخطيب، اللوحة البدرية ص: 53. وفي الإحاطة ج 2 ص: 281 "أمن عادة الإنصاف...."
 (2) — ينظر: أحمد مختار العبادي، الأعياد في مملكة غرناطة، ص: 140. نقلاً عن: الدوسري، الحياة الاجتماعية في غرناطة، ص: 140.
 (3) — ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج 3، ص: 470.
 (4) — ينظر: علي ابن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية، ص: 84.
 (5) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي مخطوط دار الكتب المصرية، أدب تيمور، رقم: د. 603، ورقة: 56. وقد ورد هذا
 التقديم في النسخة المطبوعة من هذا الكتاب لكنه فيه بعض الاختلاف.
 (6) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوني، ص: 69.

وَيْكَ غَمَّضُ عِنْدَمَا تَقْطَعُهَا قِطْعَةً أَحْسَبُهَا مِنْ كَبِيدِي
وَتَأَخَّرَ هَيْبَةً إِنَّمَا الشَّ شَبْلٌ فِي الْمَخْبِرِ مِثْلُ الْأَسَدِ
أَتْرَى الْمِقْرَاضُ يَدْرِي أَنَّهُ فَعْلُهُ فِي الْجَلْدِ لَا فِي الْجَلْدِ
خَفْضُ الرُّوعِ قَلِيلًا إِنَّهُ مِنْ ذَوِي بَأْسٍ كِرَامٍ نُجْدٍ⁽¹⁾

ومن المناسبات الرسمية احتفال الغرناطيين بمواكب الأمراء والسلاطين النصرين في أثناء حركاتهم وجولاتهم في جهات المملكة، فقد ذكر ابن خلدون أنهم كانوا ينظمون للسلطان: "موكباً خاصاً يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقية، وهم فيه بين مكثر ومقل باختلاف مذاهب الدول في ذلك، فمنهم من يقتصر على سبعة من العدد تبركاً بالسبعة، كما هو في دولة الموحدين، وبني الأحمر بالاندلس، ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين، كما هو عند زناتة"⁽²⁾، وكان الغرناطيون يخرجون في مثل هذه الاحتفالات للقاء السلاطين النصرين بالأهل والأولاد؛ فقد ذكر أبو مروان اليحانسي في إحدى مروياته أن أحد السلاطين النصرين قدم إلى بلدة وادي آش فـ"خرج الناس للقياء بالأهل والولد"⁽³⁾. وقد خلّد لنا الشعراء الغرناطيون مثل هذه المناسبات شعراً، من ذلك قصيدة أبي عبدالله البرجي يصف فيها فرحة أهل ألمرية واحتفاءهم بموكب الأمير أبي سعيد ابن الغالب بالله الذي عين رئيساً على مدينة ألمرية، جاء فيها: {الكامل}

يَا يَوْمَ مَقْدَمِكَ السَّعِيدِ عَلَيْهِمْ لِلَّهِ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَمُ مُحَجَّلِي
بَرَزُوا إِلَيْكَ يَقُودُهُمْ حَادِي الْمُنَى فَالْكُلُّ بَيْنَ مُكَبِّرٍ وَمُهَلَّلٍ⁽⁴⁾

ومناسبة قدوم الغالب بالله بن الأحمر إلى مدينة ألمرية مع اقتراب حلول العيد يقول من قصيدة أخرى: {الكامل}

بُشْرَى لِمَقْدَمِكَ السَّعِيدِ فَإِنَّهُ فَتَحْ لِهَذَا الدِّينِ مِنْكَ جَدِيدُ
وَأَنْعَمَ بِعِيدٍ مُقْبِلٍ وَمُبَشِّرٍ بِسَعَادَةٍ يَأْتِي بِهَا وَيَعُودُ

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوني، ص: 75.

(2) — ابن خلدون، العبر، ج 1 ص: 460.

(3) — أحمد القشتالي، تحفة المغرب، ص: 77.

(4) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية — الرباط، رقم د. 3835، ورقم: 365.

وَاعْلَمَ بِأَنَّكَ عَيْدُنَا وَعَمِيدُنَا مَا إِنَّ لَنَا إِلَّا لِقَاءَكَ عِيدٌ⁽¹⁾

أما أبو جعفر أحمد بن شلبطور فيصور احتفال الدنيا بوفد الأمير أبي سعيد رئيس المريّة ضمن قصيدة جاء فيها: {الخب}:

فَلَوْ فَدِكَ تَحْتَفِلُ الدُّنْيَا نَاهِيكَ بِوَاكِفَةِ الدَّرِّ
مَلِكٌ إِنْ حَلَّ حِمَى أَرْضٍ خُصِّتْ بِمَزَايَاهُ الأُثْرِ
وَأَفَى فَكَأَنَّ وَفَادَتُهُ كَانَتْ وَالْيُمْنُ عَلَى قَدَرٍ⁽²⁾

وهكذا كان الغرناطيون عامة والشعراء خاصة يولون مثل هذه المناسبات الرسمية اهتماماً خاصاً، حتى إنها صارت كعيد من أعيادهم ، فالغرناطيون يعشقون الحياة ومباهجها، وكانت الحياة لديهم سلسلة من الأعياد المتصلة التي يتم الاحتفال بها بطرق شتى، وتتخذ أحياناً شكل المهرجانات الشعبية⁽³⁾.

8 — حرفهم وصناعاتهم: اشتغل الغرناطيون بالعديد من الحرف والصناعات التي استدعت وجودها طبيعة بلادهم الساحرة ، وأبرز هذه المهن وأشهرها : الزراعة التي ساقهم ولعهم بها إلى ابتكار وسائل جديدة ساعدتهم على تطوير وتنوع البقول والفواكه المستعذبة إلى حدّ بعيد ، فالجغرافي عبدالمنعم الحميري يقول مقررّاً ما يُنتجُ من محاصيل وفواكه : " وفحص البيرة هو أطيب البقاع نفعةً ، وأكرم الأرضين تربةً ، ولا يعدل به مكان غير غوطة دمشق ، وشارقة الفيوم ، ولا تُعلمُ شجرة تستعمل وتستغل إلا وهي أنجب شيء في هذا الفحص ، وما من فاكهة توصف وتُستظرف إلا وما هناك من الفاكهة فوقها ، ويجود فيها من ذلك ما لا يجود إلا بالساحل من اللوز وقصب السكر، وما أشبههما، وحرير فحص البيرة هو الذي ينتشر في البلاد ، ويعم الآفاق، وكتّان هذا الفحص يربو جيدهُ على كتّان النيل، ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين"⁽⁴⁾.

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية — الرباط ، رقم د. 3835 ، ورقم : 361.

(2) — المصدر السابق ، ورقة : 368.

(3) — الدوسري ، الحياة الاجتماعية في غرناطة ، ص145.

(4) — الحميري ، الروض المعطار ، ص:24.

ومما اشتغل به الغرناطيون أيضاً التعدين وصناعة الأسلحة ، كما تميّزوا بصناعة الأواني القيمة النادرة من الفخّار المذهب لاسيما في مدينة مالقة ، وبصناعة الورق وأمور أخرى متنوعة سواء من الحديد أو الجلود أو الزجاج خاصة في مدينة ألمرية⁽¹⁾.

يمكن القول إن الحياة الاجتماعية لسكان إقليم غرناطة كانت حياة متناقضة تعكس صوراً متعددة يظهر من خلالها البذلُ والجد، والمرح واللهو، والزهد والتصوّف.

وسأنتقل الآن إلى المبحث الثالث للتعرف على المظهر الجاد من حياة الغرناطيين؛ أعني الجانب الفكري والثقافي من حياتهم في القرن السابع الهجري.

(1) — ينظر : المقرئ ، نفع الطيب ، ج 1 ، ص: 153 — 154.

المبحث الثالث
الحياة الثقافية والفكرية
في إقليم غرناطة

المبحث الثالث

الحياة الثقافية والفكرية في إقليم غرناطة

إنّ الدارس للحياة الفكرية والثقافية في إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري لابد أن ينظر معتبرا إلى بعض الأمور المهمة التي أذكر منها :

1- قيام عدد من العلماء، والأدباء الغرناطين بالمهجرة خارج الأندلس ، ويبدو أن عددهم كان كبيراً حتى إنّ أحد أرباض غرناطة أطلق عليه "حوز الوداع" لا لشيء سوى أنّ الغرناطين اتخذوا هذا الموضوع لتوديع من يهاجر من أهلهم وذويهم⁽¹⁾.

وقد تعدّدت دوافع هذه الهجرة ما بين طلب للرزق، أو البحث عن المقام الطيب والحياة الكريمة نتيجة صعوبة الحياة، وغلاء تكاليف المعيشة، والبحث عن الأمن والاستقرار والطمأنينة بعيدا عن الأخطار التي كانت تتربّص بما تبقى من المدن الأندلسية⁽²⁾.

وأياً كانت دوافع هذه الهجرة فإن المهاجرين الغرناطين — وجلّهم استقرّ بالعدوة المغربية، وقسم منهم توجه إلى بلاد المشرق — أثروا الحياة الفكرية في البلدان التي هاجروا إليها، وأصبحوا امتداداً لتيار الثقافة الغرناطية بين أحضانها . وكان من أبرز من هاجر من الشعراء الغرناطين إلى المشرق في هذه الحقبة: علي بن سعيد الغرناطي ، وأبو حيان الغرناطي ، و من أبرز الغرناطين المهاجرين إلى العدوة المغربية: مالك بن المرحل ، وأبو الطيب الرندي ، بيد أن من هؤلاء الشعراء من كُتِبَ له العودة إلى الوطن ومنهم من ظلّ حبيس غربته فلم يكتب له الرجوع إلى وطنه .

وقد عبر هؤلاء الشعراء عن تجربة الغربة في شعر كثير أسهم في بروز موضوع شعريّ على خارطة الشعر الأندلسي أعني شعر الحنين والغربة ، وكان هذا الشعر من

(1) — ينظر : أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص370.

(2) — ينظر : المرجع السابق ، ص370.

أبرز موضوعات الشعر الغرناطي قى القرن السابع الهجري ؛ ولأهمية هذا الموضوع فإني خصصت له مبحثاً مستقلاً في الفصل القادم من هذه الدراسة .

2- ظاهرة الهجرة الداخلية من المدن الأندلسية التي احتلها العدو إلى مدن إقليم غرناطة؛ وهي هجرة قسرية كانت بسبب احتلال النصارى لمدن المسلمين؛ ومن أبرز المدن التي هاجر معظم سكانها إلى إقليم غرناطة : قرطبة ، وإشبيلية ، ومرسية ، وأريولة إلى غيرها من المدن الأخرى التي سقطت ضحية للحملة الصليبية التي شهدتها الأندلس في هذه الحقبة⁽¹⁾.

وقد كان معظم هؤلاء المهاجرين من العلماء والأدباء والشعراء المبدعين الذين أسهموا في إثراء حركة العلم والشعر في غرناطة . وكان من أبرز هؤلاء المهاجرين ابن رشيق المرسي وأبو بكر بن المرابط .

3- أن العلماء الغرناطيين في هذه الآونة ، لم يعرفوا نظام التخصص العلمي الدقيق، أي التخصص في مجال واحد وهو شأن عرف لدى معظم علماء الأندلس⁽²⁾؛ فقد تجد العالم منهم فقيهاً ، وشاعراً ، وطبيباً ، ومؤرخاً ، ولغوياً ، أي أن عناصر الثقافة تنوعت لدى العلماء الغرناطيين بين الموضوعات الدينية واللغوية والأدبية الذوقية ؛ وهم يؤلفون في الأدب ، وعلوم الدين ، والحديث ، والتاريخ ، والطب ، والرياضيات ... إلخ ، وسيتضح هذا الأمر للقارئ من خلال مشاركة العلماء الغرناطيين في معظم علوم العصر المتداولة آنذاك .

4- دور السلاطين والأمراء النصريين في ازدهار الحركة الثقافية في هذه الحقبة ؛ ويظهر هذا الدور في العناية الخاصة التي أخذوا يولونها رجالات الثقافة والعلم والأدب ، وقد بدا هذا الأمر جلياً منذ تأسيس الإمارة الغرناطية علي يدي السلطان الأول محمد بن نصر الملقب بالغالب بالله الذي كان "يعقد مجلساً عاماً يومين في كل أسبوع ، ترفع إليه الظلمات ويشافه طلاب الحاجات ، وينشده الشعراء ، وتدخل إليه الوفود ، ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضره أعيان الحضرة وقضاة الجماعة ... يفتح

(1) — ينظر : الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص29.

(2) — ينظر : الدوسري ، الحياة الاجتماعية في غرناطة ، ص235.

بقراءة أحاديث من الصحيحين ويُختتم بأعشار من القرآن العظيم⁽¹⁾.
ويظهر هذا الدور أيضاً من خلال استقطاب السلاطين النصرين أهل العلم والأدب للتدريس في غرناطة؛ من ذلك استدعاء السلطان محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه العالم المرسي محمد بن أحمد الرقوتي؛ لكي يدرس طلبة غرناطة، وقد خصَّصَ له منزلاً لهذا الغرض "وكان الطلبة يغشون منزله..."⁽²⁾، وتُعد هذه البادرة من المحاولات الأولى لإنشاء المدارس الغرناطية⁽³⁾.

ثمّة مظهر آخر من مظاهر اهتمام السلاطين النصرين بالثقافة؛ وهو يتجلى في إثارة رجال العلم والأدب وتقديمتهم على غيرهم في اعتلاء المناصب الإدارية في الدولة الغرناطية كوظيفة الكتابة، والوزارة، والقضاء، ونظرة إلى تراجم السلاطين النصرين في مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب؛ تجعل القارئ يدرك صحة هذا الأمر.

• أبرز العلوم والعلماء في إقليم غرناطة :

لم يكن المستوى الثقافي الذي وصل إليه الأندلسيون في عصر الموحدين حضارة قِشيرية زائفة، تضيع عند أول هزة أو أدنى اختبار⁽⁴⁾؛ بل كانت الثقافة التي وصلوا إليها قوية صامدة، ولم تنحدر انحدار الأوضاع السياسية في الأندلس .
وقد ظلت السمات العامة للثقافة الغرناطية سمات عربية إسلامية أندلسية خالصة، تتميز بطابعها الغرناطي الخاص الذي يستوعب الثقافات الأخرى، ويفيد منها دون أن يفقد هويته الثقافية الأم؛ أعني الهوية العربية الإسلامية⁽⁵⁾.

(1) — ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص44.

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص:68.

(3) — ينظر : الدوسري ، الحياة الاجتماعية في غرناطة ، ص:262.

(4) — ينظر : محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص:30.

(5) — قسّم الباحث الأسباني إميلو جارثيا غومث العصر الغرناطي من الناحية الثقافية إلى ثلاث فترات، وقرر أن الفترة الأولى غلب عليها التأثير النصراني، وكان ذلك على أول أيام الدولة النصرية، ويبدو أن الباحث الإسباني المذكور كان متأثراً برأي ابن سعيد، وكذلك رأي ابن الخطيب حول تأثير الأندلسيين بجيرانهم النصراني من حيث لباس الجند وأسلحتهم، وأقول إن التأثير الذي تحدث عنه كل من ابن سعيد وابن الخطيب لا يتعدى حدود الأكل والشرب والملابس وبعض الأشياء الأخرى التي لا علاقة لها بالتكوين

أما أهم العلوم في هذا العصر فهي :

● علوم الدين والفقه :

اكتظَّ إقليم غرناطة بجمهرة كبيرة من علماء الدين الذين أحرزوا تفوقاً ونبوغاً في هذا الميدان ، وكان "من الطبيعي أن يكون التدين والعناية بمشاعر الدين وأصوله وأهله عامةً واضحاً في بلد شغل بالحروب كالأندلس ، واثقت فيه على وجه من الوجوه روح الجهاد والمرابطة والمحاجة"⁽¹⁾ خاصة في هذه المرحلة التي ازدادت فيها الحملة الصليبية ضد الإسلام والمسلمين في الأندلس .

ويلاحظ أن علماء الدين من فقهاء وزهاد ومتصوفة ومحدثين ؛ كان جلهم من الأدباء الشعراء الذين ضربوا بسهم في مضمار الشعر .

ومن أشهر فقهاء العصر : أبو الحسن سهل بن محمد بن سهل بن مالك (ت639هـ) الذي قال في حقه ابن عبد الملك المراكشي : " كان من أعيان مصره، وأفاضل عصره تفتناً في العلوم وبراعة في المنثور والمنظوم ، محدثاً ضابطاً ... ، حافظاً للقرآن العظيم ، مجوداً له ، متقدماً في العربية ، وافر النصيب من الفقه وأصوله ... "⁽²⁾ . وقال عنه صاحب (الديداج المذهب) : هو "خطيب الخطباء ، وخاتمة رجال الأندلس ... "⁽³⁾ .

ومن الفقهاء المحدثين والمقرئين في هذه الفترة أبو بكر الأنصاري المدعو بحميد

الثقافي الفكري ، وقد سبق أن ناقشت هذا الأمر في المبحث السابق ، وأود أن أذكر هنا أن التأثير والتأثر بين المسلمين والنصارى كانا بصفة عامة من طبيعة العصر بحكم القرب ، والجوار ؛ فقد نُقل عن ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم ملك قشتالة أنه كان متأثراً بالثقافة العربية "وأنه تلقى الكثير من العلوم على العلماء العرب ، وتأثر بمناهجهم في التفكير والدرس ، وكان يقدر العلماء المسلمين ويحترم ثقافتهم؛ فهل هذا يعني إن ثقافته كانت عربية إسلامية؟! يُنظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ص:104 ، وينظر : أنخل جنثال بالثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص:167 .

(1) — محمد رضوان الداية ، تاريخ النقد في الأندلس ، ط2 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1981م ، ص:22 .

(2) — أبو عبدالله محمد بن محمد عبد الملك الأنصاري المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، تح : إحسان عباس ، ج4، ط1 بيروت ، دار الثقافة ، 1964م ، ص102 — 103 .

(3) — ابن فرحون ، إبراهيم بن علي بن محمد ، الديداج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تح: علي عمر ، ج2 ، ط1 ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، 1423هـ — 2004م ، ص346 .

، والمعروف بالقرطبي (ت652هـ)، وقد أقرأ بمدينة مالقة "القرآن، ودرّس الفقه، وأسمع الحديث" (1).

ومنهم: أبو عامر يحيى بن عبدالرحمن بن ربيع الأشعري (ت639هـ)، الذي "أقرأ بغرناطة لأكابر علمائها الحديث والأصلين" (2)، وكان من قضاة ابن الأحمر الغالب بالله (3) في هذه الحقبة.

ومنهم ابن الدباغ الإشبيلي، محمد بن إبراهيم الأوسي (ت668هـ)، الذي "أقرأ بجامع غرناطة لأكابر علمائها الفقه وأصوله، وأقرأ به الفروع والعقائد العامة..." (4).
ومنهم أبو عبد الله محمد بن الكمّاد (ت712هـ) "وكان إماماً مشهوراً في القراءات يُرحل إليه، محدثاً ثبتاً فقيهاً متصوفاً.. تصدّر للإقراء بغرناطة... وتخرّج بين يديه جملة وافرة من العلماء..." (5). ومن مصنفاته في القراءات القرآنية كتابه (المتع في تهذيب المقنع) (6).

ومنهم أبو بكر محمد بن الفخار الجذامي (ت723هـ) كان له برنامج خاص في التدريس، فقد كان يستغرق وقته كله "من لدن صلاة الصبح إلى الزوال، ثم يسند ظهره إلى طاق المسجد بعد ذلك، فيقرئ، وتأتيه النساء من خلفه للفتيا فيفتيهنّ على سؤالاتهن إلى نصف ما بين العصر والعشاء الأولى، ثم يأتي المسجد الأعظم بغرناطة بعد الغروب، فيقعد للفتيا إلى العشاء الآخرة..." (7). وله أكثر من ثلاثين مؤلفاً في فنون مختلفة، منها في علوم الدين (تجيب نظم الجمان في تفسير أم القرآن) وكتاب (الأحاديث الأربعون بما ينتفع به القارئون والسامعون) (8).

(1) — ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 1، ص 177 — 178.

(2) — المصدر السابق، ج 1، ص 339.

(3) — ينظر: ابن الخطيب، اللمحة البدرية، ص: 45.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص 69.

(5) — ابن فرحون، الديباج المذهب، ج 2، ص 260 — 261.

(6) — المصدر السابق، ج 2، ص 261.

(7) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص 92.

(8) — المصدر السابق، ج 3، ص: 93.

وفي ميدان التصوّف تألقت العديد من الأسماء الغرناطية في هذا العصر ، و كان من أبرزها: أبو الحسن علي بن فضيلة (ت696هـ) الذي كان من أشهر المتصوفين الغرناطين ،وقد ذكره ابن الخطيب ضمن مشيخة العديد من أعلام العصر⁽¹⁾، وقال عنه ابن عبد الملك المراكشي : " كان من أهل الفضل والدين المتين، والعناية التامة بالعلم، والبراعة في التصوف ،وله فيه رسائل بارعة ومقالات نافعة"⁽²⁾. وكان "مشاركاً في فنون من العلم أديباً بارعاً كاتباً بليغ الكتابة ... متصوّفاً سنياً"⁽³⁾.

ومن المتصوّفة المشهورين أبو مروان اليحانسي الذي أُلّف في كراماته أبو العباس الأزدي كتاب (تحفة المغترب ببلاد المغرب لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان)⁽⁴⁾.

ومن برع في مجال التصوف أبو إسحاق إبراهيم بن عبيديس⁽⁵⁾ الذي غلب عليه التصوف وشهر به"⁽⁶⁾، ومن أشهر مؤلفاته: كتاب (الرسائل والمسائل)⁽⁷⁾ وهو في الفقه والفروع ، وله في التصوف العديد من المؤلفات منها (نزهة الألباب في صفات الأحباب) الذي قال عنه الدكتور محمد بن شريفة : "يدل على مترع سني صوفي يعتمد القرآن

(1) — ينظر : مواضع كثيرة من الإحاطة في أخبار غرناطة ، منها: ج3، الصفحات 44، 89، 159، 202 ، 204 ، = 235 ، 401 ، 412 ، 414 ، 459.

(2) — ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ،تح : إحسان عباس ، ق 5 ج2، ط1 بيروت ، دار الثقافة ، 1965م :ترجمة رقم : 1061 ،ص : 541 .

(3) — أبو جعفر أحمد بن الزبير ، صلة الصلة ، تح :عبد السلام الهراس ،وسعيد أعراب ، ق 4 ،ص : 188 ، الترجمة رقم : 372 .

(4) — حقه المستشرق فرناندو دي لاجرانجا، ونُشر بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، عام 1974م.

(5) - ترجمته في الإحاطة، ج 1 ،ص :367. وفيه : (عبيدس) ،وأظن أن الاسم على النحو الوارد في الإحاطة يكون محرفاً ،فقد جاء الاسم بإببات الباءين(عبيديس) كما هو لدى : صلاح الدين الصفدي/ الوفي بالوفيات.د. إحسان عباس ج 2 . دارالنشر فرانز شتايز بقميسبادن 1389 هـ 1969 م ،ص :237 ، وكذلك ج 6 ص 325 ،وقد أثبت الاسم بيباءين الدكتور محمد بن شريفة ،وذلك في مقال بعنوان : (من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع الهجري ابن عبيديس النفري) ، وكذلك أثبت الاسم على هذا النحو الباحث عبد القادر مامة في مقال بعنوان (نص أندلسي لم يُنشر — قصيدة ابن عبيديس يستند فيها بابن الأحمر لإنقاذ مدينة جيان).

(6) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص :368.

(7) — ابن فرحون ، الديقاج المذهب ، ج 1 ،ص 243 — 244.

والحديث والمأثور من كلام السلف الصالح" (1)، وقد وصلتنا نسختان من هذا الكتاب، إحداهما توجد في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، والأخرى توجد في الخزانة الحسنية بالرباط، وكان هذا المتصوف شاعراً أيضاً، وله قصائد في الاستصراخ والدعوة إلى الجهاد في الأندلس، منها قصيدته التي توجه بها إلى محمد ابن الأحمر يستنهضه لإنقاذ مدينة جيان مسقط رأسه من أيدي النصارى، وسأعود إلى هذه القصيدة لاحقاً في المبحث الخاص بالرتاء من هذه الدراسة.

ومن المتصوفة الغرناطين أبو القاسم محمد بن يوسف بن خلصون، قال في حقه ابن الخطيب: "كان من جلة المشيخة وأعلام الحكمة، فاضلاً منقطع القرين في المعرفة بالعلوم العقلية متبحراً في الإلهيات، إماماً في طريقة الصوفية .. كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً، كثير الحلاوة والطلاوة، قائماً على القرآن، فقيهاً أصولياً... " (2). وله العديد من المؤلفات التي "تدل على جلالة وأصالته معرفته تنطق علماً وحكمة، وتروق أدباً وظرفاً" (3) من بينها كتاب في (المحبة) ، ورسالة (الفتق والرتق في أسرار حكمة الشرق) (4).

ومنهم أبو جعفر أحمد بن الحسن بن علي الزيات الكلاعي "الخطيب المتصوف الشهير" (5) (649 - 728هـ) كان "مشاركاً في الفقه واللغة والأدب والعروض... " (6). ومن أبرز مؤلفاته في القراءات القرآنية كتاب (لذات السمع من القراءات السبع) (7)، وكتاب سَمَاه (الوصايا النظامية في القوافي الثلاثية) (8) قال عنه الباحث مقداد رحيم: " يبدو من اسمه أنه أودعه مقطعات ذات ثلاثة أبيات فقط " (9).

• علوم اللغة :

(1) — محمد بن شريفة ، من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع : ابن عبيدس النفرزي ، مساهمة في النهضة والتراكم - دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية ، ط1، المغرب، دار توبقال، 1986م، ص237.

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص256 — 357.

(3) — المصدر السابق ، ج3 ، ص: 258 .

(4) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

(5) — المصدر نفسه ، ج1 ، ص: 287 .

(6) — المصدر نفسه ، ج1 ، ص : 288.

(7) — المصدر نفسه ، ج1 ، ص: 290.

(8) — ابن فرحون ، الديباج المذهب ، ج1، ص: 171.

(9) — مقداد رحيم ، اتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر ، الإمارات العربية ، المجمع الثقافي — أبوظبي ، 1420هـ — 2000م ، ص200.

شهد إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري ظهور العديد من أقطاب اللغة الذين كانوا يقرئون ويدرسون ويؤلفون في ميدان الدراسات اللغوية ، وكان من أبرزهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (626 – 708هـ) الحافظ النحوي شيخ ابن الخطيب الأب ، قال صاحب الإحاطة في حقه : " إليه انتهت الرياسة بالأندلس في صناعة العربية (أي النحو) " (1). وكان عالماً بالقرآن ، والحديث مجيداً للنشر والنظم ، وكيّ القضاء بغرناطة ، واتصل بسلطاتها الأمير أبي عبدالله محمد بن محمد بن نصر الملقب بالفقيه " فأكرم مثواه ، وعرف حقه ... " (2).

ومنهم ابن عبد النور المالقي ، أبو جعفر أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد (630 – 702هـ)، قال ابن الخطيب في حقه : " كان قيماً على العربية؛ إذ كانت جلّ بضاعته، يشارك مع ذلك في المنطق .. وعروض الشعر وفرائض العبادات من الفقه وقرض الشعر ، وكان له اعتناء بفكّ المعنى والتنقيح عن اللغوز .. أقرأ بوادي آش مدة، وتردد بين ألمرية وبرجة يُقرئُ بهما القرآن ... وناب عن بعض القضاة وقتاً ... " (3)، وقد برع في العديد من العلوم " إلا أنه لم يشتهر إلاً بالنحو ... " (4)، ومن أشهر مؤلفاته (رصف المباني في حروف المعاني) قال عنه ابن الخطيب : " وهو أجلّ ما صنّف، ومما يدل على تقدمه في العربية (أي النحو) " (5)، وله أيضاً " جزء في العروض، وجزء في شواذه " (6).

ومن أشهر النحويين الغرناطين: أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف النفزي الغرناطي (654 – 745هـ) الذي درّس في غرناطة ومالقة قبل رحيله إلى المشرق ، وكان يُلقب بـ "إمام النحاة في زمانه " (7)؛ وذلك لعلمه الغزير في هذا الباب ، وكان لأبي حيان معرفة واسعة بجملة من العلوم كالتفسير، والحديث، والشروط ، والفروع وتراجم الناس

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص: 189.

(2) — المصدر السابق ، ص: 191.

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص: 197.

(4) — جلال الدين عبدالرحمن السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج 1 ، ط 1 ، مطبعة موسى البابي الحلبي ، 1965م ، ص 131.

(5) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص: 198.

(6) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(7) — المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 43.

وطبقاتهم . ولأبي حيان نحو خمسين مؤلفاً⁽¹⁾، منها في مجال الدراسات اللغوية (التذييل والتكميل في شرح التسهيل)⁽²⁾، وله (ارتشاف الضرب في علم لسان العرب)⁽³⁾ وكتاب (اللوحة البدرية في علم العربية)، وكتاب (نحة الأندلس)⁽⁴⁾. وله في العروض (الآيات الوافية في علم القافية).

وقد بارح أبو حيان الأندلسي سنة 678هـ متوجهاً إلى المشرق، حاملاً إلى أهله ثروة حافلة في العديد من العلوم ، أبرزها النحو والصرف، وأبدى في القاهرة نشاطاً عظيماً، وكان يعيش عيشة تقشف؛ يقول: " يكفي الفقير في مصر أربعة أفلس يشتري له طلمةً بائة بفلسين وبفلس زيبياً، وبفلس كوز ماء، ويشتري ثاني يوم ليموناً يأكل به الخبز..."⁽⁵⁾.

ومن أقطاب اللغة في هذه الحقبة أبو بكر محمد بن إدريس القضاعي المعروف بالقللوسي (ت 707هـ) قال عنه ابن الخطيب: " كان إماماً في العربية والعروض والقوافي..."⁽⁶⁾. ومن أبرز مؤلفاته التي وصلتنا في علم العروض كتابه الذي سَمَّاه: (الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض)⁽⁷⁾

• التاريخ والتراجم وأدب الرحلات :

نالت كتب التاريخ والتراجم اهتماماً واسعاً من قِبَل علماء القرن السابع ، ومن المؤرخين الغرناطيين الذين برزوا في هذه الحقبة : الحافظ الفقيه التاريخي القاضي ابن عسكر المالقي ، محمد بن علي بن هارون الغساني (ت639هـ)، قال عنه ابن الخطيب إنه كان " مجوداً نحوياً... متفنناً في جملة معارف، ذا حظ صالح من رواية الحديث، تاريخياً

(1) — ينظر : آنخل جنثالث بالثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص225.

(2) — ينظر : عبالقادر رحيم الهبتي ، خصائص مذهب الأندلس النحوي في القرن السابع الهجري ، ط2 ، ليبيا ، جامعة قاريونس ، 1993م ، ص254.

(3) — المرجع السابق ، والموضع نفسه .

(4) — عبالقادر رحيم الهبتي ، خصائص مذهب الأندلس النحوي في القرن السابع ، ص254.

(5) — ينظر : آنخل جنثالث بالثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص : 224 ، 225.

(6) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص:75.

(7) — قام الباحث المغربي مزوار الإدريسي بتحقيق هذا الكتاب ونال به شهادة الدكتوراه. من جامعة عبد الملك السعدي بتطوان سنة 2003م وبجوزني نسخة من هذه الرسالة.

حافظاً ... متقدماً في عقد الوثائق، بصيراً بمعانيها، سريع البديهة في النظم والنشر مع البلاغة والإحسان في الفنين...⁽¹⁾. وقد تولى قضاء مالقة من قِبَل ابن الأحمر الغالب بالله، وله في ميدان التاريخ والتراجم كتاب "مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخبار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار"⁽²⁾.

ومنهم أبو جعفر بن الزبير المتقدم ذكره، وله في ميدان التاريخ والتراجم كتاب (صلة الصلة)⁽³⁾، وهو ذيل على كتاب (صلة) لابن بشكوال، وله أيضاً (تاريخ علماء الأندلس)، وكتاب (الإعلام بمن ختم به قطر الأندلس من الأعلام)⁽⁴⁾.

ومن الرحالة والرواة في هذه الحقبة: أبو محمد العبدري المعروف بابن المعلم الذي طاف بنواحي المغرب في سنة 686هـ وسجل مشاهداته في كتابه (الرحلة المغربية)⁽⁵⁾.

ومن الجغرافيين الناهمين في هذه الحقبة: أبو الحسن علي بن سعيد الغرناطي (612 - 685هـ)، الذي قال ابن الخطيب في حقه: "المصنف الأديب الرحال الطرفة الإخباري العجيب الشأن في التجول في الأوطان، ومداخلة الأعيان، والتمتع بالخزائن العلمية، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية"⁽⁶⁾. ومن أجل مصنفاته التي سجل فيها ملاحظاته الجغرافية والتاريخية والأدبية عن مدن الأندلس وأهلها كتاب (المغرب في حلى المغرب)⁽⁷⁾ الذي يُعد موسوعة أدبية تاريخية جغرافية.

ومن الرحالة المشهورين في هذا العصر: أبو عبدالله محمد بن رشيد السبتي (ت721هـ)، الذي زار مع رفيقه الرحالة الأديب الوزير أبي عبدالله محمد بن الحكيم

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص: 172، 173.

(2) — حققه د. صلاح حرار، ونشر في العام 1999م، كما حققه أيضاً د. عبدالله المرابط الترغني، ونُشرت طبعته الأولى في بيروت سنة 1999م.

(3) — حقق القسم الثالث والرابع والخامس منه: عبدالسلام المهراس وسعيد أعراب، وقامت بنشرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب خلال الأعوام: 1993 — 1994، 1995م.

(4) — محمد علي الشوكاني، البدر الطالع بمن كان بعد القرن التاسع، ج1، ط1، القاهرة، مطبعة السعادة، 1248هـ، ص34.

(5) — حققه: أحمد بن جدو، ونشرته كلية الآداب الجزائرية. د. ت.

(6) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص153.

(7) — حققه: د. شوقي ضيف، وطُبع مرتين في القاهرة، كانت الأخيرة في العام 1964م.

الرندي — الأماكن المقدسة، وطافا في بلاد المشرق ، وقد دوّن ابن رشيد رحلته في كتاب (ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيّهة إلى الحرمين مكة وطيبة)⁽¹⁾.

• العلوم العقلية :

انحصرت العلوم العقلية في إقليم غرناطة في الطب، والكيمياء، والنبات، والحساب ، والهندسة، ولم تجد بقية العلوم اهتماماً كبيراً .

ومن برز في مجال الطب في القرن السابع الهجري : أحمد بن مفرّج الأموي المعروف بابن الرومية (ت637هـ)⁽²⁾. أما أعظم علماء الأندلس في هذا العصر فهو ابن البيطار المالقي العالم النباتي الطبيب المشهور بضياء الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد ، المولود بمالقة سنة 593هـ والمتوفى بدمشق سنة 645هـ⁽³⁾.

ومنهم محمد بن السراج (653 — 729هـ) الذي عاش في غرناطة، ثم رحل إلى مراکش ووضع في الطب والأعشاب كتباً كثيرة لم يصلنا شيء منها⁽⁴⁾ ومن الأطباء الغرناطين أبو بكر بن عتيق بن الفراء الوادي آشي كان على " معرفة بالطب والعلاج ، وشرح أرجوزة ابن سينا وأجاد فيما قيد منها.. " ⁽⁵⁾

وقد ازدهر الطب في عهد النصرين ازدهاراً واضحاً، ودلّ على هذا الازدهار كثرة المشتغلين بالطب، والمتحرّفين بصناعته ، ومن العوامل التي ساعدت على ازدهار هذا العلم والانكباب عليه ممارسةً وتأليفاً ، حاجة الناس حكّاماً ورعيةً إلى الطب ، وما كان يحرزه الناهيون في هذا الميدان من مالٍ وجاهٍ وتقرب من السلطان ، وظهر عدد من المشتغلين بهذا الميدان ، و من الأطباء الذين اختصّوا بالبيت النصري : عيسى بن محمد بن سعادة الأموي (

(1) — حقّق بعض أجزائه : الحبيب الخوجة . وقام بدراسة هذا الكتاب دراسة قيمة أحمد حدّادي ، ونشرت الدراسة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ، في العام 1424هـ — 2003م.

(2) — ينظر : آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص536.

(3) — ينظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ص459 — 460.

(4) — آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص540.

(5) — ابن القاضي درة المجال ص: 372.

ت728هـ) الذي خدم الدار السلطانية، وكان له تأليف متعدد الأسفار سَمَّاه (القفل والمفتاح في علاج الجسوم والأرواح)، وقد رأى ابن الخطيب مسودات هذا الكتاب بيد ابن المؤلف، واطَّل على أجزاء منه⁽¹⁾ غير أنه لم يصل إلينا شيء منه.

ومنهم: أبو جعفر أحمد بن محمد الكُرَني (كان حياً سنة 690هـ) قال عنه ابن الخطيب: "شيخ الأطباء بقرناطة على عهده، وطبيب الدار السلطانية، كان نسيج وحده في الوقار والتزاهة.... قائماً على صناعة الطب مقرئاً لها، ذاكراً لنصوصها، موفّقاً في العلاج، مقصوداً فيه... مكبوح العنان عما تثبت به أصول صناعته من علم الطبيعة.." ⁽²⁾.

ومن الملاحظ أن هؤلاء الأطباء — كالأدباء والعلماء — لم ينحصر ميدان تخصصهم في صناعة الطب وممارسته دون غيره من العلوم الأخرى، بل درسوا إلى جانبه علوم الدين واللغة والأدب، وهناك من الأطباء من كان له نصيب في ميدان الشعر مثل أبي محمد ابن عبدالله بن الزبير (ت683هـ) شقيق أبي جعفر بن الزبير الذي مرّ ذكره، قال عنه ابن الخطيب: " كان طبيباً ماهراً كاتباً شاعراً ذاكراً للغة..." ⁽³⁾.

ومن الأطباء الشعراء أبو القاسم محمد بن يوسف بن خلصون الذي كان " منقطع القرين في العلوم العقلية.....، كاتباً بليغاً، شاعراً مجيداً... تحرّف بصناعة الطب إلى حين وفاته..." ⁽⁴⁾ ولابن خلصون كتاب نفيس في الطب سماه: "الأغذية وحفظ الصحة" وقد حقق الباحث محمد العربي الخطابي العديد من فصوله ⁽⁵⁾.

ومن الأطباء الشعراء أبو القاسم محمد بن محمد بن علي بن سودة المُرّي، الذي قال عنه ابن الخطيب: "مال إلى العلوم العقلية..... فتصدّر للعلاج، وعانى الشعر، وأرسم في الكتابة، وعُدّ من الفضلاء..." ⁽⁶⁾.

(1) — ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص236.

(2) — بن الخطيب، الإحاطة ج1، ص: 206.

(3) — المصدر السابق، ج3، ص: 419.

(4) — المصدر نفسه، ج3، ص: 256.

(5) — ينظر: محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة وتراجم ونصوص، ج2 ط1

بيروت، دار الغرب الإسلامي 1988م، ص: 7، وما بعدها.

(6) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص: 169.

ومنهم الوزير الأديب أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن شلبطور، الذي قال عنه ابن القاضي: " كان من صدور أهل الآداب، ومهرة الشعراء، والكتاب مع حظاً من صناعة الطب، ومشاركة في العربية (أي النحو) واللغة" (1).

وبرع في ميدان الرياضيات والهندسة: أبو علي الحسن بن محمد المعروف بالصَّعْلَعَل (ت 710 هـ) الذي " كان إماماً في علم الحساب والهيئة... " (2).
ومن المؤلفات التي ظهرت في هذا الميدان: كتاب ابن رشيق المرسي (628 – 696هـ) في مجال الرياضيات الذي سَمَّاه: (مقدمات في الحساب) (3).

وأما بقية العلوم العقلية كالفلسفة والتنجيم؛ فقد كانت من العلوم غير المرغوب فيها ولا يُتظاهرُ بها خوفاً العامة، ومَنْ كان يشتغل بها أطلق عليه العامة اسم زنديق، "وقيدت عليه أنفاسه" (4)؛ ولذلك قلَّ المتعاطون لهذا النوع من العلوم، وظل الاهتمام بها يدور في إطار المحاولات الفردية التي غالباً ما يكون نصيبها الفشل (5).؛ وذلك بسبب مجاهمة سلطة رجال الدين وموقفهم التقليدي المعادي لتلك العلوم، كذلك لم تلق هذه العلوم تشجيعاً من قبل بعض الحكام النصرين، ومما يدل على هذا الحكاية التي أوردها ابن الخطيب عن الأمير أبي الحجاج يوسف (ت 654هـ) مع والده الغالب بالله محمد بن نصر، حيث ذكر أن هذا الأمير كان مولعاً بالتعاليم، والنجوم، وأفرط في الاستغراق في ذلك، وكان أبوه الغالب بالله ينكر عليه ذلك " فدخل عليه يوماً وفي مجلسه مجلّسات كثيرة، وقال له: ما هذا يا يوسف؟ فقال - سترأ لغرضه المتوقع فيه نكير أبيه - : يا مولاي هي كتب أدب . فقال السلطان - وقد قنع منه بذلك - : يا ولدي ما أخذناها - يعني

(1) - ابن القاضي، درة الحجال، ص66، ترجمة رقم: 152.

(2) - ابن الخطيب، الإحاطة، ج1، ص468.

(3) - ينظر: محمد بن شريفة، ابن رشيق حياته وآثاره، ط1، المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1429هـ - 2008م، ص96.

(4) - المقرئ، نفع الطيب، ج1، ص:205.

(5) - ينظر: عنان، نهاية الأندلس، ص:461.

السلطة - إلا بقلة الأدب...⁽¹⁾. وعلق ابن الخطيب قائلاً: "تورية حسنة إشارة إلى الثورة على ملوك كان تحت إيالتهم فغرب في حسن النادرة..."⁽²⁾.
 بيد أن موقف السلطان النصري الثاني محمد الفقيه يبدو أنه كان أكثر مرونة من حيث الاهتمام بالعلوم العقلية فقد ذكر ابن الخطيب أنه أربى على والده الغالب بالله بخلال منها "إيثاره العلماء؛ من الأطباء والمنجمين والحكماء.."⁽³⁾

• الشعر والنثر :

كانت الحركة الأدبية في القرن السابع ما تزال في عنفوانها ، وكان الأدب نثراً ونظماً يحتل المكانة الرفيعة لدى ذوي الشأن من الأمراء والسلاطين الذين ظهوروا في هذه الحقبة ، وقد ألقت العديد من المؤلفات التي تؤكد على ازدهار الأدب شعراً ونثراً في أحضان الإمارات التي نشأت عقب سقوط دولة الموحدين في الأندلس ، من هذه المؤلفات كتاب : (زواهر الفكر وجواهر الفقر)⁽⁴⁾ لأبي العلاء ابن المرابط الذي يشهد بنهوض الأدب شعراً ونثراً في ظل إمارة بني عصام في مدينة أوريولة ، ومنها كتاب (روح الشعر وروح الشعر)⁽⁵⁾ لابن الحلاب الفهري (ت664هـ) الذي أكد على ازدهار الأدب شعراً ونثراً في ظل إمارة سعيد بن الحكم في مدينة ميورقة ، وأما كتاب أبي الحسن علي بن رشيق المرسي المسمّى بـ (التقييد)⁽⁶⁾ ، فهو يؤكد على ازدهار الأدب شعراً ونثراً في ظل إمارة

(1) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 4 ، ص : 354 .

(2) - المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(3) - ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص : 50 .

(4) - قام بتحقيق السفر الثالث من هذا الكتاب : حسن محمود إفليل ، ونشرت الطبعة الأولى منه مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض في العام 1418هـ .

(5) - اختصر هذا الكتاب أبو عثمان سعيد بن أبي جعفر إبراهيم بن ليون التجيبي (ت750هـ) في كتاب وسمّاه (لمح السحر وروح الشعر وروح الشحر) ، وقام بتحقيق هذا الكتاب المختصر : الباحث سعيد بن الأحرش ونشر طبعته الأولى اجمع الثقافي أبوظبي في العام 1426هـ - 2005م .

(6) - حقّق نصوص هذا الكتاب الدكتور محمد بن شريفة ، وأعدّ دراسة حول حياة ابن رشيق المرسي في بحث كان عنوانه (ابن رشيق المرسي حياته وآثاره) ، وقد نشرت طبعته الأولى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب سنة ، 1429هـ - 2008م . ويعدّ هذا الكتاب من المصادر القيمة التي ظهرت أخيراً ، وقد استعنت به في تحقيق بعض القصائد الغرناطية كقصائد أبي عبد الله البرجي ، وقصائد أبي جعفر ابن شلبطور .

بني نصر في القرن السابع الهجري، يعضد هذا ما ذكره ابن الخطيب من شعراء غرناطين، وما نقله من نصوصهم الشعرية والنثرية ضمن مؤلفاته خاصة في كتابه: (الإحاطة في أخبار غرناطة).

• علاقة بني الأحمر بالشعر ومدى اهتمامهم به :

كان ملوك غرناطة — جرياً على سنن ملوك الأندلس السابقين — من حماة العلوم والآداب ، وكان بلاطهم يسطع بتقاليده الأدبية الزاهرة ، كما سطعت من قبل قصور ملوك الطوائف⁽¹⁾، فقد أدرك النصريون منذ البداية أهمية الشعر ودوره في مساندة دولتهم الناشئة ، والشد من أزرها أمام أطماع الأعداء من الداخل والخارج ، وكانوا هم أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء، ومن ذوي الأذواق الأدبية الرفيعة، واشتهر عميدهم ومؤسس دولتهم محمد بن نصر الغالب بالله بحمايته للعلم والأدب، وقد شهد له المؤرخ الغرناطي أبو الحسن علي بن سعيد بأنه كان " يفهم الشعر، ويكثر مطالعة التاريخ"⁽²⁾، وكانت له أيام يخصصها لدخول الشعراء وسماع قصائدهم⁽³⁾.

وكان صالح بن شريف الرندي من خاصة الشعراء الأثريين لديه ، وكان يطلب منه معارضة بعض القصائد؛ ففي خبر ذكره ابن الخطيب عن أحد شيوخه أن السلطان الغالب بالله طلب من شاعره الرندي ألا يخرج من بستان قصره حتى يكمل قصيدته التي قال في مطلعها : {الطويل}

أَوَاصِلَتِي يَوْمًا وَهَاجِرَتِي أَلْفًا وَصَالِكِ مَا أَحَلَّى وَهَجْرُكَ مَا أَحْجَفَا⁽⁴⁾

وهي في معارضة قصيدة محمد بن هانئ الإلبيري الفائية التي مطلعها : {الطويل}

أَلَيْتُنَا إِذْ أَرْسَلَتْ وَارِدًا وَحَفَا وَبِتْنَا نَرَى الْجُوزَاءَ فِي أُذُنِهَا شَنْفَا⁽¹⁾

(1) — ينظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ص: 460 .

(2) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ، ص: 109 .

(3) — ينظر: ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص 44 (بتصرف).

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص: 364 .

وكان الأمراء النصريون من أولاد الغالب بالله ممن ينظمون الشعر، ويميزون حسنه من رديئه، ويثييون عليه، يذكر ابن الخطيب أن الأمير أبا سعيد فرج (ت652هـ أو 653هـ) كان "من أهل الأدب والنبيل ... قام (الأدب) في مدته على ساق" (2). ومن شعره الذي وصلنا قوله: {الطويل}

أفاتكة العين التي سلبت نسكي على أي حال شئت لا بد لي منك
فإما بذلي وهو أليق بالهوى وإما بعزّي وهو أليق بالملك (3)

وتدل بعض الأخبار على أن هذا الأمير كان من محبي الغزل والنسيب، ومن الأخبار التي تؤكد ذلك ما ذكره ابن الخطيب من أن الأمير أبا سعيد نظم بيتاً من الشعر قال فيه {الطويل}:

أرقت لبرق بالسيكة لا الحيف وإن كان فيه ما أحاذر من حتف
ثم طلب من أحد وزرائه أن يجيزه، واشترط "أن يكون المنظوم مشوب النسيب بالفخر" (4).
فقال الوزير مجيزاً:

تجور على قلبي لواحظ غادة بأنفذ من عزمي وأقطع من سيفي
ولي هزة نحو الوصال أو اللقا كهزة آبائي الكرام إلى الضيف
أفيض وفيض في الجفون و بالحشا فأشكو بحالي في الشتاء وفي الصيف
لعمري لقد وفى العلاء حق مفخري لو أنني في الدنيا مُرادِي أستوفي

وقد استحسّن الأمير هذه الأبيات ووقع عليه "كاتبه" يعني بذلك نفسه (5).

وإذا كان ابن الخطيب لم يتوسع في الترجمة لهذا الأمير، أو ربما تكون الترجمة وصلتنا مختصرة؛ فإنّ عبارة "قام الأدب في مدته على ساق" التي ذكرها ابن الخطيب، تدل على

(1) — ابن هاني الأندلسي، ديوانه، تح: كرم البستاني، بيروت، مكتبة صادر، 1952 م ص: 207.

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص247.

(3) — أبو الحسن علي بن عبدالرحمن بن هذيل الفزازي، فكاهات الأسمار ومذهبات الأخبار والأشعار، تح: عبدالله حمّادي، ص232. وفي الإحاطة، ج4، ص248 جاء البيت الأول:

"أيا ربّة الحسن التي سلبت نسكي على أي حال كنت لا بد لي منك".

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص248.

(5) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص248.

ازدهار الأدب زمن هذا الأمير، أما الدليل المؤكد على هذا الازدهار، فهو يتمثل فيما وصلنا من أشعار في مدح هذا الأمير فهي تشهد على ازدهار الشعر زمن هذا الأمير، وقد وردت إشارة إلى هذه الأشعار للكاتب أبي بكر ابن الخطاب في رسالة كتبها في التعزي وصلت من مدينة مرسية إلى محمد بن الأحمر في وفاة ابنه الأمير أبي سعيد فرج؛ قال فيها "ولئن طوته الصفائح لقد نشرته المدائح..."⁽¹⁾، ففي هذه العبارة إشارة قوية إلى كثرة المدائح التي قيلت في مدح الأمير أبي سعيد، وكذلك تدل على اشتهاار هذه القصائد داخل الأوساط الأدبية قبل وفاة الأمير وبعدها .

أما الأمير محمد الفقيه ولد الغالب بالله، وثاني ملوك غرناطة ، فقد كان "عالماً ضليعاً يعشق مجالس العلم، ويؤثر العلماء بعطفه"⁽²⁾، ولعلمه وثقافته الواسعة لُقّب بـ"الفقيه"، وكان هو أيضاً يقرض الشعر ، فقد ذكر ابن الخطيب أنه وقف "على كثير من شعره ..."⁽³⁾ ومن شعره قوله في الفخر : {الكامل}

أَمُّدُ عَيْنِي لِلَّذِي أَنَا كَارُهُ مِنْ صَاحِبِي إِنِّي لَعَيْنُ الظَّالِمِ ؟⁽⁴⁾

وثمة خبر ذكره ابن الخطيب عن هذا الأمير ، مفاده أنه لما أنشد أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن الحكيم الرندي لمحمد ابن الأحمر قصيدته التي قال في مطلعها : {الرملة} هَلْ إِلَى رَدِّ عَشِيَّاتِ الوِصَالِ سَبَبٌ أَمْ ذَاكَ مِنْ ضَرْبِ المَحَالِ " أعجب به وبحسن خطه ونصاعة ظرفه، وأثنى عليه واستدعاه إلى الوفادة على حضرته ... فأثبته في خواص دولته ..."⁽⁵⁾ وأدرجه ضمن كتابه، ثم تقلد الوزارة والكتابة معا، وصار يلقب بذوي الوزارتين.

أما الأمير محمد الملقب بـ(المخلوع) حفيد الغالب بالله ولد محمد الفقيه فقد كان عالماً شاعراً ينظم الشعر الرقيق⁽⁶⁾، وقد ذكر ابن الخطيب أنه وقف " على مجموع منه ألفه بعض

(1) — أحمد عزوي ، المغرب والأندلس في القرن السابع /13م ، ص: 25 .

(2) — محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ص: 461 .

(3) — ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص: 51 .

(4) — المصدر السابق، ص: 51 .

(5) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج2 ، ص: 447 .

(6) — ينظر : محمد عبدالله عنان ، نهاية الأندلس ، ص: 461 .

خدامه ،بيد أنه لم يصلنا من هذا المجموع سوى التزر القليل ؛من ذلك قوله :{السريع}
 وَأَعْدَيْ وَعَدًّا وَقَدْ أَخْلَفَا أَقْلُ شَيْءٍ فِي الْمَلَحِ الْوَفَا
 وَحَالَ عَن عَهْدِي وَلَمْ يَرَعَهُ مَا ضَرَّهُ لَوْ أَنَّهُ أَنْصَفَا
 مَا بِالْهَأْ لَمْ تَتَّعْطَفْ عَلَيَّ صَبَّ لَهَا مَا زَالَ مُسْتَعْطَفَا
 يَسْتَطْلِعُ الْأَنْبَاءَ مِنْ نَحْوِهَا وَيَرَقِبُ الْبَرْقَ إِذَا مَا هَفَا " (1)

هذه الأخبار ،والنصوص الشعرية التي مر ذكرها تدل بجلاء على مكانة الشعر لدى أفراد أسرة الغالب بالله،وتؤكد أن جلّ أبنائه الأمراء كانوا يقرضون الشعر،ويتذوقونه، ويحتفون بقائليه،والجدير بالذكر أن تذوق الشعر والحفاوة بقائليه والتشجيع على إنشاده لم يقتصر على أفراد أسرة الغالب بالله وحدهم ؛بل إن أبناء اعمومتهم وأقاربهم من أفراد البيت النصري كانوا على المستوى نفسه في الاهتمام بالشعر،وتذوقه، وتقدير قائليه، فقد برز في القرن السابع الهجري الرئيس أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن نصر في مدينة ألمرية⁽²⁾، وهو ينتمي إلى الفرع النصري الثاني (المحمدي) نسبة إلى محمد الابن الثاني لنصر بن عقيل جد الأسرة النصرية،وقد سبق أن أشرت إلى هذا الفرع في المبحث الأول من هذه الدراسة.

أما والد هذا الرئيس فهو أبو جعفر أحمد بن محمد بن نصر، الملقب بالفجلب كما هو في اللمحة البدرية⁽³⁾،وقد توطدت العلاقة بين أسرة هذا الرئيس وأسرة الغالب بالله محمد ابن الأحمر بالمصاهرة، فقد ذكر أبو الحسن البناهي المالقي (ت 745هـ) صاحب كتاب: "الإكليل في تفضيل النخيل" خبراً مفاده أن إحدى زوجات محمد الفقيه ولد

(1) — ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص: 62 .

(2) — ذكره ابن الخطيب في الإحاطة ،ج1،ص: 476 بلقب الرئيس عند حديثه عن الشاعر ابن رشيق المرسي في نصّ جاء فيه " ولحق بغرناطة — يعني ابن رشيق — ومدح السلطان بها ، ونجحت لديه مشاركة الرئيس بألمرية ... " . و في اللمحة البدرية ص: 36 — 37 ذكر ابن الخطيب خمسة من النصريين الذين يسمون بعلي وليس فيهم من يوصف بالرئيس سوى أبي الحسن علي بن أحمد بن نصر ،وقد وصفه ابن الخطيب أيضا — (صاحب الجيش) .

كذلك ذكر أبو مروان اليحانسي هذا الرئيس في مروياته عدة مرات ،وفي كل مرة يذكره بلقب الرئيس وبصاحب ألمرية. ينظر : القشتالي، تحفة المغرب ص: 29- 71 ، 72 .

(3) — ينظر : ابن الخطيب ، اللمحة البدرية ، ص: 37 . ولم اهتد إلى معرفة ما يعنيه هذا اللقب .

الغالب بالله كانت تسمى بـ (نزهة) وهي ابنة للرئيس أبي جعفر أحمد والد الرئيس أبي الحسن علي المعني بالحديث⁽¹⁾، ويبدو أن هذه المصاهرة ساعدت في منح الرئيس أبي الحسن بعض الصلاحيات الإضافية كتوليته شؤون مدينة ألمرية التي زارها الشاعر ابن رشيق المرسي ومدح رئيسها أبا الحسن بعدة قصائد، وأثابه بأن أثبته في خواص رجال الدولة⁽²⁾، وقد شهد ابن فضل الله العمري صاحب كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار للرئيس أبي الحسن علي بن نصر بخصال نبيلة، ووصفه بأسجاع تدل على تذوقه للأدب، وفهمه إياه، وحفاوته بقائليه؛ إذ قال: خلال حديثه عن الشاعر ابن رشيق المرسي: "عَلِقَ بصاحب ألمرية فأتى منه رجلاً فتح للجود باباً مغلقاً ، وأفاد النجوم بضياء حسّه تألقاً، وأعاد بتواضعه الدهر محمّماً ، وأعار فيض راحته الجهم فاهللاً مغدقاً ، طالما بات في حب الفضائل مؤرقاً ، وهزّ عود الآداب فأصبح مورقاً ، وجاء يتلو كريمي طيء فأنساهما كأن لم يخلقا . فتقبّله بكرم ما ردّ سعي آمل مخفقاً ، ولا ترك جديد همّة مخلقاً ، ونزل منه بملك جاره جار الفرقد ، وإن بُعد عن مداه فكأن قد ..."⁽³⁾.

يتضح من خلال هذا العرض السريع لعلاقة بني الأحمر — في القرن السابع الهجري — بالشعر، ومدى رعايتهم للأدب وحفاوتهم بالشعراء؛ أن دولتهم كانت دولة الأدب والشعر وأهم كانوا على وعي تام بأهمية الشعر، ودوره في مساندة دولتهم الناشئة، والشد من أزرها .

ولأن معظم أفراد الأسرة النصرية كانوا من الشعراء أو المتذوقين للشعر؛ فإن هذا انعكس على علاقتهم بالشعراء والأدباء، حيث راحوا يقربونهم من مجالسهم مفسحين لهم المجال لاعتلاء المناصب المرموقة في دولتهم، وراح الشعراء يتوافدون على بلاط بني نصر

(1) — ينظر: أبو الحسن البناهي ، الإكليل في تفضيل النخيل، مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم 189 ف ورقة: 52.

(2) — ينظر : مؤلف مجهول ، بلغة الأمانة ومقصد الليب فيمن كان بسبته في الدولة المرينية من مدرّس وأستاذ وطبيب ، تح : عبدالوهاب بن منصور ، ط1 المغرب ، المطبعة الملكية ، 1404 — 1984 ، ص: 22، وجاء فيها "الحسن ابن رشيق التغلبي ... نزل ألمرية وخدم لأمرها من بنى الأحمر الرئيس علي بن نصر "

(3) — ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح: محمد عبد القادر حريسات وآخرين ج17 (شعراء المغرب والأندلس)، ص: 175 .

منشدين القصائد في كل المناسبات، وكان من بين هؤلاء الشعراء أبو الطيب الرندي الذي كان "كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها، يسترفد ملوكها، وينشد أمراءها" (1)، وكان الشعر في دولة بني الأحمر منتشراً في كل الأوساط، فلم يعد مقصوراً على طبقة دون أخرى، بل كان له فرسانه من كافة الطبقات؛ وزراءً وكتّاباً وقُضاةً وأطبائاً...، يعضد هذا ما قرره الدكتور محمد رضوان الداية حول ازدهار الشعر في هذه الحقبة حيث قال: "كان ما يزال في الأندلس في أول القرن، وبعد استقرار الأمور لابن الأحمر في غرناطة — من يقدر الشعر، ويثيب عليه، ويشجع أصحابه، وكان بعض أولي الأمر من الخلفاء والوزراء والحكام يقرضون الشعر قليله و كثيره، ويشاركون في الحركة الأدبية، وكانت هناك حوافز مختلفة بحسب اختلاف الظروف وتنوعها وتشعبها في هذا القرن الشديد الاضطراب تدفع بالشعراء إلى نظم الشعر، وإيداعه ثمرات القرائح، وخلجات العواطف، سواء أكان ذلك مما يخص الشعراء أنفسهم، وفي حياتهم أم كان يخص الأمة في أحوالها المضطربة وظروفها القاسية، وكان هناك عدد من كتّاب الأمراء يقرضون الشعر، ويقدمونه بين يدي مخدوميهم فكثير لهذا شعر المديح والمناسبات... " (2) وسأقف في المبحث التالي عند أبرز شعراء إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري .

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص: 361 .

(2) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص: 53 .

المبحث الرابع
شعراء إقليم غرناطة في القرن
السابع الهجري

المبحث الرابع

شعراء إقليم غرناطة في القرن السابع الهجري

إن الدارس لحركة الشعر الغرناطي في هذه الحقبة؛ يجد نفسه أمام ثلاثة أجيال من الشعراء الذين كان لهم إسهام في ازدهار الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري، يمكن تصنيف هؤلاء الشعراء على النحو الآتي :

• شعراء الجيل الأول الذين عاشوا في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وهم:

— أبو الحسن سهل بن مالك (ت 639 هـ)

— أبو إسحاق بن عبيدس (553/ 659)

— أبو بكر يحيى ابن المرابط (ت 658 هـ)

— أبو عبد الله بن عسكر المالقي (ت 636 هـ)

— أبو عبد الله محمد بن غالب المالقي (ت 642 هـ)

— أبو النعيم رضوان بن خالد المالقي (ت 635 هـ)

— أبو عبد الله محمد بن باق الأموي (652 هـ)

— أبو عبد الله محمد الجذامي المالقي (631 هـ)

• شعراء الجيل الثاني الذين عاشوا جل حياتهم في القرن السابع الهجري، وهم:

— أبو الطيب الرندي (601 / 684 هـ).

— ابن رشيق المرسي (628 / 696 هـ)

— أبو جعفر ابن شلبطور (608 / 704 هـ).

— أبو عبد الله البرجي (كان حياً سنة 661 هـ)

— أبو عمرو ابن المرابط (كان حياً سنة 674 هـ)

— مالك ابن المرحل (604 / 699 هـ).

— أبو عبد الله بن الحكيم (660 / 708 هـ)

— أبو القاسم ابن خلصون (كان حياً سنة 671 هـ)

— أبو بكر عتيق ابن الفراء الغساني (635 / 698 هـ)

— أبو الحسن علي بن سعيد (610 / 685 هـ)

• شعراء الجيل الثالث الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن السابع

، وبداية القرن الثامن ، وهم :

— أبو حيان الغرناطي (645 / 745 هـ)

— أبو الحسن علي بن عمر القيحاوي (650 / 730 هـ)

— ابن الجياب الغرناطي (673 / 745 هـ)

— أبو محمد بن عبد العظيم الوادي آشي (كان حيا سنة 700 هـ)

— أبو عبد الله بن الشراط (كان حيا سنة 700 هـ)

— أبو بكر بن الفخار الجذامي (643 / 723 هـ)

— أبو عبد الله بن داود الحميري المالقي (ت 710 هـ)

وفيما يلي تراجم لشعراء غرناطين عاشوا معظم حياتهم في القرن السابع

الهجري ، وسأعرف بمن كان منهم على اتصال بدولة بني الأحمر :

• صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف النفزي

(¹) 601 — 684 هـ)، يُكْنَى بأبي البقاء، ويُكْنَى بأبي الطيب، والأخيرة هي

الأشهر⁽²⁾، وقد صرَّح بها ضمن قصيدة مدح فيها الأمير أبا سعيد فرج ابن

الغالب بالله ؛ حيث قال : { البسيط }

مِنْكَ الْقَبُولُ وَمِنِّي الْيَوْمَ مَعْدِرَةٌ إِلَى عُلَاكَ وَلَا ذَنْبٌ وَلَا لَمَمٌ

أَنَا أَبُو الطَّيِّبِ الثَّانِي لِمَنْتَقِدٍ وَأَنْتَ سَيْفُ الْمَعَالِي الْأَوْحَدُ الْعَلَمُ⁽³⁾

لم يكن الرندي شاعراً فحسب ، بل كان إلى جانب ذلك مؤلفاً ، وناقداً

، وفقهياً محدثاً ، وفرضياً مقدماً في رجال القرن السابع ، يدل على هذه الأوصاف

ما ذكره عنه عدد من المؤرخين ، كابن الزبير الذي قال عنه : " كان في الجملة

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص : 360 .

(2) — ينظر : محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص : 35 — 37 .

(3) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، أدب تيمور رقم : 603 رقة : 65 .

والقصيدة لم ترد في النسخة المحققة من هذا الكتاب .

معدوداً في أهل الخير وذوي الفضل والدين" (1)، وابن عبد الملك المراكشي الذي قال عنه: "كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام، ومنتوره، فقيهاً حافظاً، فرضياً متقناً في معارف شتى، نبيل المنازع متواضعاً، مقتصداً في أقواله..." (2).

وتدل مؤلفاته المتنوعة على معرفة واسعة تعكس ثقافة عصره، ومن مؤلفاته في علوم الدين (تصنيف في الفرائض)، وهو عبارة عن منظومة منها نسخة خطية في الخزانة الحسنية بالرباط. وله (جزء على حديث جبريل)، وله في علوم اللغة كتاب في العروض، وله أيضاً (مقامات بديعة) (3) وله كتاب: (روضة الأنس ونزهة النفس)، وهو كتاب موسوعي في التاريخ شبيه بكتب المعارف العامة، كعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، أو العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (4). وقد أهدى الرندي هذا الكتاب — كما يظهر من مقدمته — للأمير محمد الفقيه، وطرّزه باسمه احتفاءً وتقديراً (5).

ويعدُّ كتاب (الوافي في نظم القوافي) (6) من أشهر كتب أبي الطيب الرندي التي وصلتنا، وهو كتاب يُعدّ من كتب النقد الأدبي؛ تناول فيه الرندي الشعر

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص: 360.

(2) — ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، تح: إحسان عباس، ج 4، ص: 137.

(3) — ينظر هذه المؤلفات في: ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص: 360، 361. وكذلك: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج 4، ص: 137.

(4) — توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في مكتبة العالم محمد المنوني، وبجوزي نسخة منه مصورة على الميكرو فيلم.

(5) — ينظر: أبو الطيب الرندي، روضة الأنس ونزهة النفس، مخطوط مكتبة الأستاذ العالم محمد المنوني، نسخة منه مصورة على الميكرو فيلم: ورقة: 3.

(6) — حققه: محمد الحمار القنوني، ونال به دبلوم الدراسات العليا بإشراف د. محمد بن شريفة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس (فرع فاس) للعام الجامعي 1973 — 1974م، وبجوزي نسخة مخطوطة لهذا الكتاب مصورة عن نسخة دار الكتب المصرية أدب تيمور تحت رقم (603)، وقد قام محمد رضوان الداية بنشر بعض نصوص هذا الكتاب ضمن بحث بعنوان: (أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس)، وقامت بنشره مؤسسة الرسالة سنة 1976.

وأغراضه وأوزانه وعروضه وقوافيه إلى غير ذلك من قضايا الشعر.

وإذا كان ديوان الرندي لم يظهر حتى كتابة هذا البحث، فإن كتابه (الوافي في نظم القوافي) تضمّن جزءاً غير يسير من شعره ، وقد شهد بهذا الأمر ابن عبد الملك المراكشي الذي قال عن هذا الكتاب " أودعه جملة وافرةً من نظمه ..."(1). كذلك تضمّن كتابه (روضه الأُنس ونزهة النفس) بعض أشعاره، فضلاً عما ورد له من شعره في كتب التراجم مثل كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) الذي حوى جزءاً غير يسير من شعر الرندي .

وقد وجدت للرندي أشعاراً أحسب أنها جديدة وردت ضمن مخطوط مجهول المؤلف عنوانه : المنظوم والمنثور يوجد في خزانة خاصة بالمغرب(2)، و تتمثل هذه الأشعار في مجموعة من القصائد التي لم تصل إليها أيدي الدارسين الذين اهتموا بشعر الرندي(3)، ولأهمية هذه القصائد فلإني سأثبتها ضمن ملاحق هذه الدراسة .

وتعد هذه القصائد فضلاً عما وصلنا من شعر الرندي عن طريق كتب التراجم ككتاب(الإحاطة في أخبار غرناطة) للسان الدين ابن الخطيب حجّةً قويةً تدحض ادّعاء الباحث الإسباني أنخل جنثالث بالثيا الذي جعل الرندي ضمن شعراء الأندلس الذين " تروى لهم الأبيات في كتب الأدب ولكن طبقتهم في الشعر لم تكن عالية" (4) كما أنها تدعم ما ذهب إليه الدكتور محمد رضوان الدايدة

(1) — ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة ، تج :إحسان عباس ، ج4 ، ص137 .

(2) — هذا المخطوط بحوزة الباحث المغربي عبد العزيز الساوري حيث أمدي مشكوراً بقصائد للرندي من هذا المخطوط ، وسأثبت هذه القصائد ضمن ملاحق هذه الدراسة ، ومن المهم أن أذكر هنا أن الدكتور محمد بن شريفة أشار إلى هذا المخطوط في أثناء تعرضه لإحدى قصائد الرندي الجديدة ، حيث ذكر عن مصدرها أنها "وردت ضمن مجموع مخطوط فيه أشعار لأبي الطيب الرندي " ينظر: ابن رشيقي المرسي — حياته و آثاره ، ص : 288.

وأكد أجزم بأن هذا المجموع المخطوط الذي أشار إليه الدكتور محمد بن شريفة هو نفسه المخطوط المجموع الموجود في خزانة خاصة في المغرب بعنوان (المنظوم والمنثور) الذي حوى قصائد لأبي الطيب الرندي، وقد أحرني الباحث المغربي عبد العزيز الساوري بهذا الأمر.

(3) — ممن اهتم بشعر الرندي الدكتور محمد رضوان الدايدة ، حيث قام بدراسة خاصة بشعر الرندي، لكن دراسته لم تتضمن هذه القصائد التي وصفها بالجديدة .

(4) — ينظر : أنخل جنثالث ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص:160.

حين قرر أن الرندي "شاعر مكثار غزير الإنتاج..."⁽¹⁾.

ومهما يكن من رأي "بالنثيا" ، فإن الرندي طَرَقَ مختلف فنون القول في الشعر العربي من مدح ، وغزل ، ورثاء ، ووصف ، إلى غير ذلك من الأغراض والموضوعات التي تدل عليها أشعاره التي بين أيدينا ، هذا وقد شهد له معاصره أبو جعفر بن الزبير الغرناطي بتفوقه في غرضي المدح والغزل ، حيث قال في حقه إنه "شاعر مجيد في المدح والغزل ، وغير ذلك"⁽²⁾ وهذه الشهادة تكفي لكي تجعل الرندي على رأس شعراء المدح والغزل في القرن السابع الهجري ، وهي شهادة تؤكد بقوة على تفوقه في هذين الفنين .

أما أكثر مدائح الرندي — بحسب ما وصلنا — فهي في أفراد البيت النصري ، وقد سبق أن أشرت إلى أنه كان من الشعراء الأثريين لدى ابن الأحرر الغالب بالله ، وكان يطرب لشعره ، وأشهر مدائحه في هذا السلطان قصيدته الميمية التي قال في مطلعها : {الوافر}

سَرَى وَالْحُبُّ أَمْرٌ لَا يُرَامُ وَقَدْ أَعْرَى بِهِ الشُّوقَ الْعَرَامُ⁽³⁾

وللرندي ميمية أخرى في مدح الأمير أبي سعيد فرج ولد الغالب بالله قال في مطلعها : {البيسط}

مَا عُمْدَةُ الْمَلِكِ إِلَّا السِّيفُ وَالْقَلَمُ وَمَا السِّيَادَةُ إِلَّا الْبَأْسُ وَالكَرَمُ⁽⁴⁾

ويرى الدكتور محمد رضوان الداية أن الرندي "شاعر بلاط مدّاح ذو صلة وثيقة بالدولة الفتية وأمرائها المحبين للشعر ، المتطلعين إلى قصائده فيهم ، وأشعاره التي ينظمها في الأغراض الأخرى"⁽⁵⁾ ، ويرى أيضا أن الرندي كان لبني الأحرر بمثابة شاعر القصر ومناسباته المختلفة ، فهو يهتئ بالأعياد والانتصارات ، ويشارك

(1) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص: 55 .

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص: 360 .

(3) — المصدر السابق ، ج 3 ، ص: 361 .

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، مخطوط ، دار الكتب المصرية ، أدب تيمور رقم 603 رقة: 65 والقصيدة لم ترد في النسخة المحققة من هذا الكتاب .

(5) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص: 54 ، 55 .

في المواسم والمناسبات ، وهو يرثي من يُتوفى من الأسرة النصرية أيضاً " (1) .
ومن قصائده في مناسبات البيت النصري قصيدته اللامية التي مدح بها الأمير
محمد الفقيه بمناسبة توليه للعهد ومولد ابنه محمد الثالث سنة 655هـ ، وقال في
مطلعها : { البسيط }

مَنْ الطَّبَّاءُ تُرْوَعُ الأُسْدَ بِالْمَقْلِ؟ وَمَا رَمَتْهَا بَعِيرِ العُنْجِ والكَحْلِ (2)

ومن قصائد المناسبات الغرناطية قصيدته الرائية التي تعرف وتُنشر للمرة
الأولى ، وهي في مدح الرئيس أبي الحسن علي بن نصر . بمناسبة عيد الأضحى ،
وجاء في تقديمها " قال يهنئ بعيد كبير ، ومدح الرئيس أبا الحسن ابن الرئيس
الجليل أبي جعفر أحمد بن نصر... " (3) ، وقال في مطلعها : { الكامل }

عَيْدٌ كَبِيرٌ غَيْرَ أَنْكَ أَكْبَرُ وَحَيًّا وَلَكِنْ جُودٌ كَفَّكَ أَكْثَرُ (4)

وهي في نحو سبعة عشر بيتا .

ومن قصائده التي ارتبطت بمناسبات البلاط النصري قصيدته الدالية التي قالها
بمناسبة إعدار الأمير محمد الثالث ابن محمد الفقيه (5) ، وجاء في مطلعها : { الرمل }

أَثَامٌ شَفَّ عَنْ وَرْدٍ نَدٍ أَمْ غَمَامٌ ضَحَكَتْ عَنْ بَرْدٍ؟ (6)

وإذا كان الدكتور محمد رضوان الداية يرى أن شعر الرندي لا يدل على
اتصاله " ببعض الأمراء الموحدين ، أو ببعض الثوَّار ، والمنتزين في أرجاء الأندلس
بعامة ، أو في رندة بخاصة " (7) ، فإنَّ قصائد الرندي الجديدة تنفي هذه الرؤية

(1) — المرجع السابق ، ص: 55 .

(2) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح: محمد الحمار القنوني ، ص: 68 .

(3) — مؤلف مجهول ، المنظوم والمنثور ، مخطوط في خزانة خاصة بالمغرب ورقة : 59ظ — 60 و .

(4) — المصدر السابق: ورقة 59ظ — 60 و .

(5) — ينظر تقديم الرندي للقصيد في الوافي في نظم القوافي ، مخطوط ، دار الكتب المصرية أدب تيمور رقم: 603:
ورقة: 41 .

(6) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح: محمد القنوني ، ص: 73 .

(7) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص: 53 .

؛ وذلك لأنّ الرندي له قصائد في مدح أعيان بلده من أفراد أسرة بني الحكيم⁽¹⁾ الذين حاولوا الانقلاب على بني الأحمر في مدينة رندة، وقد اشتهر من أعيان هذه الأسرة وزير الدولة النصرية أبو عبد الله محمد بن الحكيم الذي وقف بجانب بني الأحمر في إفشال الانقلاب الذي قاده بنو الحكيم، وقد ذكر ابن الخطيب قصة هذا الانقلاب ضمن خبر طويل ساقه في كتابه (أعمال الأعلام) تحدث فيه عن انتزاع بعض الثوار من أسرة بني الحكيم في مدينة رندة ، ثم رجوعها إلى الإيالة النصرية مرةً أخرى بمساعدة الوزير أبي عبد الله بن الحكيم⁽²⁾.

ومن مدائح الرندي في أفراد أسرة بني الحكيم قصيدته اللامية التي جاء في تقديمها " قال يمدح بها الوزير الجليل أبا محمد عبدالرحمن بن الحكيم"⁽³⁾، وهو والد أبي عبد الله بن الحكيم كاتب ووزير بني الأحمر المذكور سابقا، وقال في مطلع هذه القصيدة: [الخفيف]

يا حُدَاةَ الْمَطِيِّ بِاللَّهِ إِلَّا خَبِرُونَا بِالرَّكْبِ أَيْنَ اسْتَقَلَّ؟⁽⁴⁾

وهي في نحو ستة عشر بيتا وفيها يشيد بنسب بني الحكيم الذي يعود إلى اللخمين حيث يقول:

حَلَّ فِي السَّرِّ مِنْ ذُوَابَةِ لَحْمٍ شَرَفًا مَا أَتَّهَى السُّهَى حَيْثُ حَلًّا

ومن المهم أن أذكر هنا قصيدته الرائية التي مدح فيها أشهر أعيان أسرة بني الحكيم آلاو

(1) — هي أسرة أندلسية مشهورة من مدينة رندة ، وأصل سلفهم من أعيان مدينة إشبيلية ، ثم انتقلوا إلى رندة، وكان أول من انتقل منهم إليها جدهم محمد بن فتوح في دولة بني عبّاد الذين يشتركون معهم في النسب إلى قبيلة (لخم) أما لقب "بني الحكيم" فهو نسبة إلى جدهم يحيى المعروف بالحكيم لطفه ، وكانوا قديما يعرفون ببني فتوح. ينظر: ابن القاضي، درة الحجال، ص: 184. وينظر: ابن الخطيب، الإحاطة ج 2 ص: 444 .

(2) — ينظر: ابن الخطيب ، أعمال الأعلام . ص: 291 ، وما بعدها.

(3) — مؤلف مجهول المنظوم والمنثور ، مخطوط في خزانة خاصة بالمغرب ورقة : 62ظ — 63و ، و صفة الوزير الواردة في النص قد تكون للتشريف . وينظر: أيضا ابن الزبير ، صلة الصلة ، ق3 ، ترجمة رقم: 368 حيث كناه بأبي القاسم.

(4) — مؤلف مجهول ، المنظوم والمنثور ، ورقة : 62ظ — 63و ، وهي قصيدة من ستة عشر بيتاً سأبتها ضمن الملحق الخاص بشعر الرندي .

هو أبو عبدالله محمد بن الحكيم كاتب الدولة النصرية ووزيرها الملقب بذي الوزارتين ،
وقد قال في مطلع هذه القصيدة : [السرير]

سَلَّمَ عَلَيَّ الْحَيِّ بِذَاتِ الْعَرَارِ وَحَيٍّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الدِّيَارِ⁽¹⁾

ويصرح الرندي باسم ممدوحه، وبكنيته أيضا ضمن أبيات هذه القصيدة ؛حيث قال :

كَأَنَّمَا الشَّمْسُ وَقَدْ أَشْرَقَتْ وَجَهْ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ اسْتَنَارَ
مَحَمَّدٌ مَحَمَّدٌ كَأَسْمِهِ شَخْصٌ لَهُ فِي كُلِّ مَعْنَى يُشَارُ

ومن الطريف أن يتشابه اسم الممدوح وكنيته في هذه القصيدة باسم وكنية
ملك غرناطة أبو عبدالله محمد ابن الأحمر وقد سبب هذا التشابه في وقوع عدد
من الدارسين في لبس حول المقصود بالمدح في هذه القصيدة فجعلوها وهماً في
مدح ابن الأحمر وذلك ما تنفيه القصيدة نفسها ؛ذلك لأن الرندي ذكر ضمن
القصيدة قرينة مهمة تدل على أن القصيدة في مدح أبي عبدالله بن الحكيم، ويتمثل
الدليل في ذكر نسب الممدوح إلى قبيلة "لخم"، ومن المعروف أن نسب بني الأحمر
لا يعود إلى هذه القبيلة إنما نسبهم يعود إلى الخزرجين الأزديين يقول الرندي
مشيدا بنسب ابن الحكيم :

تُزَهِّى بِهٍ لَخْمٌ وَسَادَتْهَا وَتَنْتَمِي قَيْسٌ لَهُ فِي الْفَخَارِ⁽²⁾

ولم يكن الرندي شاعر مدح فحسب ، بل كان له أيضاً باع في فنون أخرى

(1) — المقرئ ،نفح الطيب ،ج6 ،ص: 235، وهي قصيدة من خمسة وثلاثين بيتاً سأبتيها ضمن الملحق
الخاص بشعر الرندي في هذا البحث.

(2) — المقرئ :نفح الطيب ،ج6 ص: 236. أود أن أتبه هنا إلى أن عددا من الدارسين ،كالدكتور
محمد رضوان الداية جعلوا هذه القصيدة في مدح الأمير محمد الفقيه دون انتباه إلى أن أبياتها تدل
بوضوح على أنها في مدح أبي عبدالله محمد بن الحكيم، لا في مدح الأمير النصري محمد الفقيه
كما زعموا ؛و يوجد دليلاً يؤكدان صحة ما أذهب إليه؛ أولهما يمكن أن أستخلصه من القصيدة
نفسها وهو يتمثل في ذكر نسب الممدوح إلى قبيلة (لخم) ،ومن المعروف أن بني الأحمر ينتسبون
إلى الخزرجين الأزديين. أما الدليل الآخر فهو يتمثل في عدم وجود أي ذكر لأنصار في هذه
القصيدة ؛وقلما أجد قصيدة قيلت في مدح بني الأحمر خلعت من الإشادة بأجدادهم الأنصار
ينظر: الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ،ص53.

وقد تكرر هذا الخلط في عدد من الدراسات والأبحاث، كدراسة الدكتور الطاهر أحمد مكّي ،
دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ،ط3 ،القاهرة ، دار المعارف ، 1987 ص
299، 300. و دراسة الدكتور أيمن ميدان " اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة " ص: 322.
إلى غيرهما من الدراسات التي سأشير إليها لاحقاً ضمن الملحق الخاص بشعر الرندي .

كالغزل والرتاء ،وسنكتفي الآن بالحديث عن أشهر مراثيه،ونرجئ الحديث عن باقي رثائه،وشعره الغزلي إلى الفصل اللاحق من أغراض الشعر الغرناطي .

وبالرغم من أن للرندي مراثي عديدة ،كرثائه أباه، أو زوجته ،أو ابنه ،أو رثائه بعض السلاطين من بني الأحمر، فإن شهرة قصيدته النونية فاقت ما عداها من مراثيه شهرة وخلوداً في الشعر الأندلسي عامة ،والغرناطي خاصة ؛فقد ذاع صيتها على كل لسان ، ف "شرقت وغربت ، وسار بها السائرون في كل وادٍ"⁽¹⁾، يهيمنون بها حتى "أدركت شهرة واسعة"⁽²⁾، وقد عُدت هذه القصيدة "من أشهر قصائد الأندلسيين في الجهاديات ورثاء المدن الأندلسية الضائعة"⁽³⁾. ومطلع هذه القصيدة هو : { البسيط }

لِكُلِّ شَيْءٍ - إِذَا مَا تَمَّ - نُقْصَانُ فَلَا يُعْرُ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ⁽⁴⁾

وعن مناسبة هذه القصيدة ،وتاريخ نظمها؛ذكر المؤرخون القدامى كابن عذاري ، وصاحب الذخيرة السنية أن الرندي نظمها سنة 665هـ — عندما عقد محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه ولد الغالب بالله الصلح الثاني مع ملك قشتالة⁽⁵⁾، وقد مرّ ذكر هذا الصلح في المبحث الأول من هذا البحث ، بيد أن أقوال المؤرخين اختلفت حول عدد المدن التي تنازل عنها ابن الأحمر .بموجب هذا الصلح ، ومن المسلمّ به أنها زادت عن أربعين مسورة ما بين مدينة ،وحصن كان منها مدينة شريش والقلعة⁽⁶⁾ وغيرهما من المدن .

وفي العصر الحديث ذكر بعض المؤرخين عدة أسباب حول اختفاء هذه القصيدة من المؤلفات الأندلسية لاسيما مؤلفات ابن الخطيب ،بل اختلفت أيضا فيما وصلنا من مؤلفات الرندي نفسه،وقد عزا أحد الباحثين أمر اختفائها من

(1) — البيومي الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ،ص:225 .نقلًا عن :عبد الله الزيات ،رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص:374.

(2) — فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص:106.

(3) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص:93 .

(4) — علي ابن أبي زرع ، الذخيرة السنّية ، ص:112 .

(5) — ينظر :المصدر السابق ،ص:112.وينظر أيضاً :ابن عذاري ،البيان المغرب ،ج3، ص:470.

(6) — ينظر : ابن أبي زرع ، الذخيرة السنّية ، ص:112 .

المصادر الأندلسية إلى أسباب سياسية⁽¹⁾، ويذهب الدكتور الطاهر أحمد مكي إلى أن القصيدة تحمل في مجملها إدانة لابن الأحمر فهي "تدينه دون أن تعرض له، وتجعله مسؤولاً دون أن تذكر اسمه"⁽²⁾ ويستدل على هذه الإدانة بسرّ اختفاء هذه القصيدة من المؤلفات الغرناطية .

وتبقى آراء الباحثين حول سرّ اختفاء هذه القصيدة قابلةً للظن، ولا يمكن الأخذ بها بشكل قطعي إلاّ بعد أن يظهر ديوان الرندي .

ومهما يكن الأمر فإن علاقة الرندي بالبلاط النصري ظلّت مستمرة حتى بعد نظمه هذه القصيدة التي حدد تاريخها بسنة 665هـ ؛ فقد بعث برسالة عزاء وتهنئة إلى ثاني سلاطين بني الأحمر محمد الفقيه، يعزي، ويهنئ بالخلافة بعد وفاة والده محمد بن نصر الغالب بالله سنة 671هـ⁽³⁾، وهذا خير دليل على استمرار علاقة الرندي بالأسرة النصرية الحاكمة.

(1) — ينظر : محمد عبدالله عنان ، مرثية الرندي الأندلسية ، مجلة العربي ، ع227 ، س1977 ، ص: 91 — 92 .
نقلاً عن : عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ط1 ليبيا ، منشورات جامعة قارونيس ، 1990م ، ص: 377.

(2) — الطاهر أحمد مكي ، دراسات أندلسية ، ص: 313 .

(1) — تنظر: محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ص: 156 وما بعدها

● ومن شعراء القرن السابع الذين اتصلوا ببني الأحمر : ابن رشيق المرسي أبو علي الحسين بن عتيق بن الحسين بن عبدالله بن محمد بن أبي عبدالله بن رشيق التغلبي (628-696 هـ)⁽¹⁾.

إذا كانت ثقافة الأديب الأندلسي في القرن السابع مزيجاً من العلوم الأدبية، والدينية، حيث كان يدرس علوم اللغة والنحو والبلاغة والأدب، ويتفقه في علوم القرآن والحديث والفقه والأصول، ويضيف شيئاً من الرياضيات والطب، ويظهر ذلك فيما ينتج من شعر ونثر، وفيما يؤلف من كتب، فإن ابن رشيق كما يقول الدكتور محمد بن شريفة "يعتبر مثلاً لأدباء جيله في ذلك، فهو شاعر وناثر ومؤلف"⁽²⁾.

وقد وصفه ابن الخطيب بالعديد من الأوصاف التي تدل على ثقافته ومكانته، فقال في حقه كان "نسيح وحده، وفريد دهره إتقاناً ومعرفةً ومشاركة في كثير من الفنون اللسانية والتعليمية، متبحراً في التاريخ، رياناً من الأدب، شاعراً مقلقاً ..."⁽³⁾.

ولابن رشيق المرسي العديد من المؤلفات التي تؤكد اتصافه بهذه الأوصاف، وتدل على مكانته العلمية والأدبية بين رجال العصر، فمن آثاره في ميدان التاريخ (الكتاب الكبير في التاريخ)⁽⁴⁾، وله أيضاً التلخيص المسمى بـ (ميزان العمل) قال عنه ابن الخطيب: "هو من أظرف الموضوعات وأحسنها شهرةً"⁽⁵⁾.

وله في علوم الدين كتاب (المرآة) قال عنه بن شريفة هو في القراءات السبعة⁽⁶⁾، وله أيضاً (تخصيص العموم) وهو في علم الأصول⁽⁷⁾.

(2) — ينظر : ابن رشيق المرسي حياته وآثاره ، ص : 11 — 17 .

(2) — المصدر السابق ، ص : 108 .

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص : 472 .

(4) — المصدر السابق ، ج 1 ، ص : 476 .

(5) — المصدر نفسه ، والموضوع نفسه .

(6) — ينظر : ابن رشيق حياته وآثاره ، ص : 95 .

(7) — ينظر : المصدر السابق ، ص : 96 .

أما عن أدبه شعراً ونثراً فقد دل عليهما كتاباه (الرسائل والوسائل)⁽¹⁾ فقد قال عنه ابن رشيق نفسه "من حلي ما تضمن الإنشاد والإنشاء"⁽²⁾. وكتاب (التقييد)⁽³⁾ الذي ضمّنه أيضاً أشعاره ورسائله، كما ضمّنه أشعاراً ورسائل لأصحابه وأصدقائه ممن كانوا يخاطبونه ويخاطبهم⁽⁴⁾. ويعد الكتاب الأول (الرسائل والوسائل) من الكتب المفقودة ، أما كتابه الثاني (التقييد) فقد حقق نصوصه الدكتور محمد بن شريفة ضمن دراسة عن حياة ابن رشيق المرسي وآثاره.

ويعد شعر ابن رشيق المرسي "من الشعر الجيد"⁽⁵⁾. فقد كان على حد وصف ابن الخطيب "شاعراً مفلحاً"⁽⁶⁾. والمفلح — كما هو في كتاب (العمدة) — هو الذي يأتي في شعره بالفلق؛ وهو العجب"⁽⁷⁾، ومن شعره الذي وصلنا "قصائد في الغزل والمدح والرثاء ، ومنه أشعار ومقطوعات إخوانية ..."⁽⁸⁾. ولابن رشيق المرسي مدائح كثيرة في أفراد الأسرة النصرية ، من ذلك قصائده التي قالها في مدح الرئيس أبي الحسن علي الذي خدم له ابن رشيق في مدينة ألمرية ، وأول قصائده في هذا الرئيس قصيدته الكافية التي قال في مطلعها : {الكامل}

فَعَلَّ النَّوَى مَغْلَى لِبَعْضِ نَوَالِكَا فَاشْتَفِ الْحَبَالَ وَوَلَوْ بِطَيْفِ خَيْالِكَا⁽⁹⁾

(1) — يبدو أن هذا الكتاب ظل موجوداً بمدينة فاس حتى مطلع القرن العاشر الهجري ، فقد نقل الونشريسي صاحب المعيار العرب والمتوفى سنة 914هـ بعض نصوص هذا الكتاب ينظر: أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ج 11، الرباط ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية 1401، هـ 1981م، ص: 155 .

(2) — ينظر : ابن رشيق حياته وآثاره ،ص:99.

(3) — ينظر : المصدر السابق ،الموضع نفسه.

(4) — تضمن هذا الكتاب نصوصاً شعرية لشعراء غرناطين منهم أبو جعفر ابن شلبطور ،وأبو الطيب الرندي .

(5) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره ، ص : 108 .

(6) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص : 472 .

(7) — ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده ، تح : محمد محيي الدين عبدالحميد، ج 1 ، ط3،

مصر، مطبعة السعادة ،1963، ص: 115 .

(8) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره ، ص : 108 .

(9) — المصدر السابق ص : 69 .

وله في مدح هذا الرئيس قصيدة أخرى دالية جاء في مطلعها: {الطويل}
 أَلَا رَدُّدَا ذِكْرَ الْحَيِّبِ عَلَيَّ الْبُعْدُ فَذَاكَ حَدِيثٌ لَا يُمَلُّ عَلَيَّ الرَّدُّ(1)

وله قصيدة ثالثة رائية قال في مطلعها: {الرملي}

نَسَمْتُ مَا بَيْنَ وَرْدٍ وَعَرَارٍ وَعَلَى اللَّيْلِ تَبَاشِيرُ النَّهَارِ(2)

ولشاعرنا مدائح أخرى قالها في ابن الأحمر الغالب بالله ، أشار إليها ابن الخطيب في قوله: "ولحق بغرناطة ومدح السلطان بها" (3)، ومن المؤسف حقاً أنها ضاعت فيما ضاع من نتاجه الشعري، ولم يصلنا منها شيء، ويرى الدكتور محمد بن شريفة أن تأليفه المفقود (الرسائل والوسائل) "يشتمل على شيء" (4) مما قاله في مدح الغالب بالله .

ويكشف شعر ابن رشيق المتبقي عن ازدهار للبيئة الأدبية في الحقبة التي قضاها الشاعر يتنقل بين مدن إقليم غرناطة، فقد كانت له مخاطبات ومجاوبات شعرية مع أدباء غرناطة والمدن المجاورة، من ذلك قصيدته في قاضي مدينة برجة أبي عبدالله محمد بن بكر الذي سيأتي التعريف به لاحقاً، وقصيدته التي خاطب فيها وزير بني الأحمر في مدينة ألمرية أبا جعفر أحمد ابن شلبطور الذي سيأتي التعريف به فيما يلي .

ومن شعر ابن رشيق المرسي الرثائي قصيدته البائية الطويلة في رثاء أبيه قال في مطلعها: {البسيط}

عَالَبْتُ فِيكَ الْهَوَى لَوْ فُزْتُ بِالْعَلْبِ هَيْهَاتَ صَرْفٍ لَصَرْفِ الدَّهْرِ وَالنُّوبِ(5)

من خلال هذا العرض السريع للنتائج الفكرية لهذا الشاعر، يمكن القول إنه كان أحد أعلام القرن السابع الهجري الذين كان لهم إسهام على المستوى العلمي والأدبي، فهو - كما ذكرت سابقاً - شاعر وناثر ومؤلف .

(1) - ابن رشيق حياته وآثاره ، ص 170 - 171 .

(2) - المصدر السابق ، ص 173 - 174 .

(3) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص 476 .

(4) - ابن رشيق المرسي حياته وآثاره ، ص 49 .

(5) - المصدر السابق ، ص 202 .

● ومن شعراء القرن السابع الهجري الذين اتصلوا ببني الأحمر: أبو جعفر أحمد بن عبدالله بن إبراهيم الهاشمي⁽¹⁾، المعروف بابن شَلْبُطُور⁽²⁾ بفتح الشين المعجمة، وسكون اللام، وفتح الباء الموحدة، وضم الطاء المهملة، وبعد الواو الساكنة راء، على وزن: مَنْجُونٌ ولد سنة 608 هـ — وتوفي سنة 704 هـ).

هو من مدينة ألمرية وأعيانها في الرياسة والوزارة والأدب والكتابة، ويعدّ أحد رجالات دولة بني نصر في القرن السابع الهجري؛ حيث تولى الكتابة والوزارة على عهد الأمير أبي سعيد، ولد الغالب بالله، ثم الرئيس أبي الحسن علي بن نصر.

اشتهرت أسرة هذا الشاعر بقيادة الأساطيل والنشاط البحري في مدينة ألمرية⁽³⁾، وعن ثقافة شاعرنا ذكر ابن القاضي أنه "كانت له مشاركة في العريية واللغة (أي النحو) وكان له أيضاً حظ وافر في صناعة الطب"⁽⁴⁾ وقد تلقى علومه على

(1) — ابن القاضي المكناسي، درة الحجال، ترجمة رقم: 152، ص 66.

(2) — بنو شلبطور: هي أسرة من أعيان مدينة ألمرية، يدل اسمهم شلبطور (Salvador) على أن أصلهم من المولدين عجم الأندلس، وقد كانوا موالى لأسرة مشهورة في ألمرية هي أسرة بني خاتمة التي منها أبو جعفر بن خاتمة مؤلف كتاب (مزية ألمرية على غيرها من البلاد الأندلسية). ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص: 360 هامش: 1. وينظر: صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات ج 7 تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، ط 1، بيروت. دار إحياء التراث العربي 1420 هـ — 2000 م ص: 91 ترجمة رقم: 721. وينظر ابن القاضي، درة الحجال، ص: 182. وفيه إشارة إلى أنهم كانوا موالى لأسرة بني خاتمة.

(3) — اشتهر من هذه الأسرة ثلاثة أعلام:

أبو جعفر أحمد بن عبدالله وهو شاعرنا المذكور أعلاه، المتوفى سنة 704 هـ، ثم ابنه أبو عبد الله محمد وكان مثل والده في المكانة الاجتماعية بمدينة ألمرية، وقد توفي سنة 723 هـ، ثم حفيد شاعرنا، وهو أبو عبدالله بن محمد المعروف بركوب البحر وقيادة الأساطيل لبني الأحمر في مدينة المنكب من أعمال ألمرية وكان شاعراً أيضاً، وقد توفي سنة 756 هـ. ينظر: ابن القاضي، درة الحجال، ترجمة رقم، 125، 513، 528، ص 66، 172، 173، 182. وينظر أيضاً: ابن الخطيب، الإحاطة، ج 2، ص: 360. وينظر أيضاً: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 4، ط 1، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الكائنة في الهند، 1350، ص: 161.

(4) — ابن القاضي، درة الحجال، ترجمة رقم: 125، ص: 70، 89.

أستاذ ألمرية أبي القاسم بن الأصفر الحارثي، وفي الطب "أخذ عن هارون اليهودي" (1). ويعدّ أبو جعفر ابن شلبطور — إلى جانب كونه أديباً شاعراً — أستاذاً أيضاً، ومن أشهر تلاميذه الذين أخذوا عنه المحدث الشهير أبو عبد الله بن رشيد السبتي صاحب الرحلة الشهيرة، فقد ذكر المقرئ أنه (أي ابن رشيد) "أخذ بألمرية في اجتيازه عليها عن... والوزير الأديب أبي جعفر ابن محمد بن شلبطور وقيده عنه شعره... " (2).

أما عن المكانة الأدبية لأبي جعفر ابن شلبطور فقد ذكر ابن القاضي في حقه أنه: "كان من صدور أهل الأدب، ومهرة الشعراء والكتّاب.. وله نظم" (3).

وإذا كان هذا النظم الذي أشار إليه ابن القاضي في هذه العبارة، أو ذاك التقييد الذي أشار إليه المقرئ في العبارة السابقة حين ذكر أن ابن رشيد قيد شعر أبي جعفر ابن شلبطور؛ أقول إذا كان هذا النظم أو ذاك التقييد لم يصل إلينا منه سوى قصيدتين في مدح الأمير النصري أبي سعيد ولد الغالب بالله — (4) أو بعض الأبيات التي ذكرها الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات، أو قصيدة ذكرها ابن رشيقي المرسي، فإن ما تبقى من شعره يدل على أنه شاعر ذو نفس طويل، وأنه من أصحاب المطوّلات، وهو يدل أيضاً على تمتع ابن شلبطور بمهارة وبراعة واقتدار وعلو كعبه في فن المدح، وتعد القصيدتان المذكورتان من مطوّلات الأمداح الغرناطية التي قيلت في هذه الحقبة، حيث فاقت القصيدة الأولى الخمسين بيتاً، وهي قصيدة رائية قال في مطلعها: {الخبب}

(1) — المصدر السابق، ص: 66، وينظر: أحمد حدّادي، رحلة ابن رشيد السبتي أبي عبد الله محمد بن عمر، ص 283.

(2) — المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض، ج2، ط2، الرباط، صندوق إحياء التراث الإسلامي، 1398هـ — 1978م، ص: 349..

(3) — ابن القاضي درة المجال، ص: 66.

(4) — عثرت على هاتين القصيدتين ضمن مخطوط مجموع بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية في الرباط، رقم د. 3835، من الورقة: 369 إلى الورقة: 375. وسأقوم بنشرهما في هذه الدراسة ضمن الملحق الخاص بشعر أبي جعفر ابن شلبطور.

سَفَرَتْ غَرَاءَ عَنِ السَّفَرِ بُشْرَى عَمَّتْ كُلَّ الْبَشَرِ⁽¹⁾

وتدل أبيات القصيدة على أنها قيلت بمناسبة قدوم الأمير أبي سعيد على مدينة المرية .

أما القصيدة الثانية؛ فهي نونية، وقد نيفت عن الستين بيتاً، وقال في مطلعها
 {البيسط}:

قَدْ رَقَّتِ الْوُرُقُ فِي قُضْبِ الرِّيحِ فَأَنْسَتْهُ بِتَرْجِيحٍ وَتَلْحِينٍ⁽²⁾

ولشاعرنا ابن شلبطور قصيدة إخوانية وردت ضمن رسالة جوابية أرسلها إلى ابن رشيق المرسي⁽³⁾ المتقدم الذكر، ويدل ما بين أيدينا من نتاجه الأدبي على تضلعه في فني المنظوم والمثور، وتشهد له قصائده التي وصلتنا بشاعرية قوية — إذ كما قلنا هو من أصحاب المطولات — وتشهد له أيضاً بثقافة عالية متأثرة بعلوم العصر، ولو وصل التقييد الذي دوّن فيه ابن رشيد السبتي شعر ابن شلبطور لتوسّعت في الحديث عن أدب هذا الشاعر الوزير.

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ، د. 3835 ، ، ورقة: 369 .

(2) — المصدر السابق، ورقة: 374 .

(3) — وله أيضا بعض الرسائل، منها رسالة كتبها عن رئيس مدينة المرية أبي الحسن علي بن نصر الذي مر ذكره في هذا البحث. ينظر: رسائل أندلسية، تح: فوزي سعد عيسى، ط1 الإسكندرية، منشأة المعارف 1989 ص: 259، 260. ورسالة أخرى وردت ضمن كتاب (التقييد) لابن رشيق المرسي. ينظر: ابن رشيق المرسي حياته وآثاره ، ص: 164 .

● ومن شعراء القرن السابع الهجري: القاضي الأديب الشاعر أبو عبدالله محمد بن بكر البرجي (كان حياً سنة 661هـ)

من المؤسف كثيراً أنني لا أملك عنه معلومات⁽¹⁾، بيد أنني وجدت له أشعاراً ضمن مخطوط مجموع بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم 3835د، وجاء في تقديمها " للفقير الأجل القاضي الأعراف أبي عبدالله محمد بن بكر البرجي ..."⁽²⁾ وقد تضمن هذا المخطوط قصائد في مدح السلطان الغالب بالله محمد بن نصر، وفي مدح ولده الأمير أبي سعيد فرج .

وشاعرنا كما جاء في هذا التقديم من مدينة ((برجة)) وهي مدينة من أعمال المرية تقع على وادٍ مبهج يعرف بوادي عذراء، ولبهجة منظرها سموها بهجة⁽³⁾، وقد امتدحها عدد من الشعراء، منهم ابنها الشاعر أبو الفضل جعفر بن شرف (ت 534هـ)⁽⁴⁾ حيث قال فيها: المجتث

حُطُّ الرَّحَالِ بِبَرْجَةٍ	وَأَرْتَدُّ لِنَفْسِكَ بَهْجَةً
فِي قَلْعَةٍ كَسِلَاحٍ	وَدَوْحَةٍ مِثْلِ لُجْجَةٍ
فَحِصْنُهَا لَكَ أَمْنٌ	وَرَوْضُهَا لَكَ فُرْجَةٌ
كُلُّ الْبِلَادِ سِوَاهَا	كَعُمْرَةٍ وَهِيَ حَاجَةٌ ⁽⁵⁾

وعن وعورة طرق هذه المدينة يقول أستاذ المرية في وقته أبو جعفر أحمد بن عبد

(1) — لم أعثر له على ترجمة بحسب المصادر التي اطلعت عليها، وهو غير قاضي الجماعة أبي عبدالله محمد بن بكر (بتشديد الكاف) المترجم له في: الإحاطة، ج 2، ص: 176، واللمحة البدرية، ص: 6، 95، 104. وهو غير أبي عبدالله البرجي المترجم له في درة الحجال ص: 170، 171، ترجمة رقم: 509.

(2) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، د. 3835، ورقة: 351، ولدي نسخة مصورة من أوراق هذا المخطوط فيها قصائد أبي عبدالله البرجي، و قصيدتان لأبي جعفر أحمد ابن شليطور الذي مرّ ذكره، ولأهمية هذه القصائد سأثبتها ضمن ملاحق هذا البحث.

(3) — ينظر: المقري، نفح الطيب، ج 1، ص: 144.

(4) — ينظر ترجمته لدى: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 2، ص: 230.

(5) — المقري، نفح الطيب ج 1 ص: 144.

النور (ت 702 هـ) وقد استدعاه وجوه (برجة) للإقراء بها فتحول إليها: {
الكامل}

فَطَرِيقُ (بَرْجَةَ) أَجْبَلُ وَعِقَابُ لَا تَرْتَجِي فِيهَا الْخِلاصَ عِقَابُ
فَكَأَنَّمَا الْمَاشِي إِلَيْهَا مُذْنِبٌ وَكَأَنَّمَا تِلْكَ الْعِقَابُ عِقَابُ (1)

وفي برجة يقول بعضهم: {المتقارب}

إِذَا جِئْتَ بَرْجَةَ مُسْتَوْفِزاً فَخُذْ فِي الْمَقَامِ وَحَلِّ السَّفَرِ
فَكُلُّ مَكَانٍ بِهَا جَنَّةٌ وَكُلُّ طَرِيقٍ إِلَيْهَا سَقَرٌ (2)

كذلك وجدت مراسلة إخوانية للشاعر ابن رشيقي المرسى، أرسلها إلى قاضي برجة وشاعرها أبي عبد الله بن بكر بعد أن زاره في مدينة بَرْجَةَ ، وقد ورد في تقديم هذه المراسلة قول ابن رشيقي " نزلنا بها — أي بَرْجَةَ — على قاضيها أبي عبد الله بن بكر خير منزل فتلطّف في برّنا ... " (3). وقد تضمنت مراسلة ابن رشيقي قصيدة ورد في أبياتها اسم شاعرنا أبي عبد الله بن بكر، ومكان إقامته، فضلاً عن بعض خلاله وصفاته بما يشبه الترجمة الشعرية الموثقة؛ يقول: {الحنيف}

وَإِذَا مَا أَتَيْتَ بَرْجَةَ فَاسْأَلْ أَيْنَ تَرَبُّ النَّدى وَصِنُو الْعَمَامِ
سَوْفَ تُهْدِيكَ نَحْوَ بَابِ ابْنِ بَكْرٍ طُرُقَاتُ مُعْتَصِمَةٍ بِالزَّحَامِ
فَهَنَّاكَ السَّمَّاحُ مِثْلَ شَخْصاً وَسَنَا الْمَجْدِ لَاحَ بَدْرٍ تَمَامِ
بَلْ هُنَّاكَ الْكَمَالُ جَلٌّ وَجَلَى فِي الْعُلَى عَن مَسَامَتٍ أَوْ مُسَامِ (4)

وقد علّق الدكتور محمد بن شريفة على مراسلة ابن رشيقي قائلاً إنه " أطال فيها الشكر والثناء، وأبدع ما شاء؛ إذ كان القاضي أديباً شاعراً، ولهذا احتفل ابن

(1) — ابن القاضي ، درة الحجال ، ص: 65 ، 66 .

(2) — ينظر : المقري ، نفح الطيب ج 1 ص: 174. وقد ورد البيت الأخير ضمن أبيات منسوبة لأبي الفضل بن شرف شاعر برجة المذكور أعلاه. ينظر: المقري ، نفح الطيب ج 1 ، ص: 144

(3) — ابن رشيقي المرسى حياته وآثاره ، ص: 155 .

(4) — ابن رشيقي المرسى حياته وآثاره ص: 155

رشيق في حوك القصيدة ،وتأثقت في صوغ الرسالة ..."(1).

ويدل تأثق ابن رشيق المرسي في صياغة رسالته على أنه عرف عن تيقن المكانة الأدبية لهذا القاضي الشاعر، فهو يرى أن فنون البيان عجزت عن وصف ما لهذا القاضي من مكانة إذ يقول في رسالته : " كلما استنطقت القوافي خرست ،أو استنهضت الأسجاع آيستني، ويست ..."(2).

ومن المؤسف حقاً أن جواب شاعرنا أبي عبدالله البرجي عن هذه الرسالة ضاع فيما ضاع من نتاجه الأدبي يدل على هذا قول ابن رشيق " وضاع لي جوابه على هذا المكتوب، وكان من حُرِّ كلامه ؛إذ هذا الرجل ممن شهر هناك أدبه " (3). ولو وصلنا هذا الجواب لاستطعنا أن نعرف شيئاً عن براعة أبي عبدالله البرجي في مضمار النشر .

ومهما يكن الأمر فإن عبارة " كان من حُرِّ كلامه " من كلام ابن رشيق تشير إلى أن البرجي كان أديباً مُجيداً لفني المنظوم والمنثور ،ثم إن عبارة ابن رشيق الأخيرة "إذ هذا الرجل ممن شهر هناك أدبه" تؤكد على أن أدب هذا الشاعر كان مكتوباً مدوناً في زمن معاصره ابن رشيق المرسي، وليس ببعيد أن تكون القصائد المطولة التي وجدتها هي قطعة من ديوان له .

ويشهد ما وصلنا من أشعار أبي عبد الله البرجي بأنه شاعر بارع في فني المدح والغزل، وبأنه صاحب ملكة شعرية قوية ؛إذ تعد قصائده من مطوّلات الأشعار التي وصلتنا عن هذه الحقبة ،حيث بلغت إحداها أكثر من ثمانين بيتاً ،ومعظم هذه القصائد — كما ذكرت سابقاً — هي في مدح محمد بن نصر الغالب بالله ،وولده ولي عهده الأمير أبي سعيد فرج ، وأولى هذه القصائد بناها على قافية الحاء ،وهي في مدح الأمير أبي سعيد ولد الغالب بالله قال في مطلعها: {السرّيع}

(1) — المصدر السابق ، ص:154 .

(2) — المصدر نفسه ، ص:159 .

(3) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

شَدَّ حُشَاهُ بِيَدَيْهِ وَصَاحَ سَكْرَانَ مِنْ خَمْرِ الْهَوَى غَيْرَ صَاحٍ (1)
وعدتها ثلاثة وخمسون بيتاً.

وثاني هذه القصائد قصيدته الرائية وعدتها أربعة وأربعون بيتاً ، قال في مطلعها: {الوافر}
شُمُوسٌ مَا نُعَايِنُ أُمَّ بُدُورٌ أُمِ الطَّبَّيَاتِ تُبَدِّيهَا الْخُدُورُ (2)
ويبدو أنها لم تصل كاملة ؛ إذ قال الناسخ قبل البيت الأخير "ومنها".

وثالث هذه القصائد قصيدته الدالية التي مدح بها محمد بن نصر الغالب بالله ، وقال في
مطلعها: {الكامل}

بُشْرَاكَ مُلْكٌ مُقْبِلٌ وَسُعودٌ تَأْتِي عَلَيَّ وَفِي الْمَنَى وَتَعُودُ (3)
وعدتها خمسة وخمسون بيتاً.

أما رابع قصائده فهي القصيدة اللامية التي مدح فيها الأمير أبا سعيد ، وقال في مطلعها:
{الكامل}

أَصْبَحْتَ مَحْمُودَ السُّرَى فَتَأْمَلِ هَذَا الْكَيْبُ وَتِلْكَ حَوْمَةُ جَنْدَلِ (4)
وقد بلغت أبياتها سبعة وثمانين بيتاً.

وأما خامس قصائده فهي قصيدته الميمية ، وجاءت غزلية خالصة ؛ يقول في
مطلعها: {الكامل}

أَمِنَ الْعَرَامِ بَرَامَةَ الْأَرَامِ رُمْتَ السَّلَامَةَ لَاتَ حِينَ مَرَامِ (5)
عدتها اثنان وأربعون بيتاً.

وبعد ، فإن هذه القصائد المطوّلات ؛ هي دليل واضح على براعة البرجسي ، وإجادته
في فني المدح والغزل ، وتبقى عبارة ابن رشيق المرسي التي قال فيها : " إذ هذا
الرجل ممن شهر هناك أدبه " إشارة واضحة تدل على وفرة نتاج البرجسي الأدبي
، وشهرته في هذا العصر .

(1) — مؤلف مجهول :مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ، د. 3835 ، ورقة 352 — 353 .

(2) — المصدر السابق ، ورقات : 354 — 355 — 356 — 357 .

(3) — المصدر نفسه ، ورقات 358 — 359 — 360 — 361 .

(4) — المصدر نفسه ، ورقات 362 — 363 — 364 — 365 .

(5) — المصدر نفسه ، ورقات 366 — 367 — 368 .

- ومن شعراء القرن السابع الهجري الذين اتصلوا ببني الأحمر: أبو عمرو ابن المرابط (كان حياً سنة 674 هـ) .

اسمه ونسبه:

وبالرغم من المكانة التي حظي بها هذا الشاعر في بلاط بني الأحمر، وبالرغم من تكرار ذكر كنيته ولقبه في العديد من المصادر والدراسات الأندلسية؛ فإن أحداً لم يتوصل إلى الترجمة له؛ ولهذا السبب كان هذا الشاعر — كما يقول أحد الباحثين — "شبه مجهول" ⁽¹⁾، ومن ثم فقد وقف جل الدارسين الذين تعرضوا لهذا الشاعر عند إيراد كنيته ولقبه وصفته دون أي محاولة لمعرفة اسمه أو نسبه أو أي أمر يتعلق بأسرته، وسأحاول في هذه الأسطر أن أعرف شيئاً عن أسرة هذا الشاعر، وذلك من خلال ما توافر لدي من معلومات استخلصتها من بعض التراجم التي اطلعت عليها، وستكون البداية من كنيته (أبي عمرو) التي كانت هي أيضاً محل خلاف بين المؤرخين فقد وردت هذه الكنية لدى علي بن أبي زرع في كتابه الذخيرة السنوية... وابن خلدون في كتابه: العبر... "أبو عمر" ⁽²⁾ دون واو؛ بينما وردت في كتاب الإحاطة لابن الخطيب بالواو ⁽³⁾ ويرجح الباحث أن تكون كنيته (أبا عمرو) بالواو؛ وذلك لورودها لدى معاصره أبي الطيب الرندي في كتابه الوافي في نظم القوافي كذلك وردت الكنية بالواو في مقطوعة للرندي سيأتي الحديث عنها لاحقاً قال في مطلعها {السريع}

هَنَّأكَ اللهُ أَبَا عَمْرٍو مَا نَلْتِ فِي مُذْهَبِ الدَّهْرِ ⁽⁴⁾

أما ابن القاضي صاحب درة المجال فقد اكتفى بذكر لقبه فقط "ابن المرابط" ⁽⁵⁾ وهو لقب يعني في اللغة: الرجل الذي يعمل على ملازمة ثغر العدو أو

(1) — عبدالله الزيات، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ص: 397.

(2) — علي ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية ص: 163. و ابن خلدون، العبر ج 7 ص: 409.

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة ج I ص: 562 .

(4) — ينظر: أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور رقم 603 ورقة 47، ولم ترد هذه المقطوعة في النسخة المحققة من هذا الكتاب .

(5) — ابن القاضي، درة المجال ص: 302.

موضع المخافة⁽¹⁾.

وقد اشتهر بهذا اللقب في القرن السادس والسابع الهجريين أسرة من بيوتات مدينة أوريولة كان من أبرز أعيانها — بحسب ما وجدته عنهم — اثنان؛ الأول: أبو العلاء ابن المرابط صاحب كتاب "زواهر الفكر وجواهر الفقر" وأما الثاني فهو ابن عمه أبو بكر ابن المرابط الذي هاجر إلى مدينة مالقة بعد استيلاء النصارى على مدينة أوريولة، ومن المرجح لدي أن يكون هذا الأخير والد أبي عمرو ابن المرابط كاتب بني الأحمر الشاعر المعني بالحديث كما سيأتي لاحقاً، وللوصول إلى هذه الحقيقة فإني سأتحدث الآن عن أفراد هذه الأسرة بحسب ما توافر لدي من معلومات عنهم.

إن أقدم شخصية وصلت ترجمتها من أسرة ابن المرابط بحسب المصادر التي اطلعت عليها هي شخصية أبي الحسن ظافر بن إبراهيم بن أحمد بن أمية بن أحمد المرادي، ولم تذكر المصادر مكان ولادة ظافر هذا، ولكنها ذكرت أنها كانت في سنة 481هـ —

أما وفاته فكانت سنة 523 هـ وقد ذكر عنه أنه "كان راوية للحديث، منسوبا إلى معرفته، موصوفا بالثقة والعدل"⁽²⁾، وكان فقيهاً "يروى عن الحافظ أبي علي الصديقي أكثر المصنفات سماعاً عليه"⁽³⁾ وهذا يدل على مكانته العلمية في عصره.

أما الشخصية الثانية التي وصلتنا ترجمتها من أسرة بني المرابط فهي شخصية عبد الرحمن بن ظافر بن إبراهيم بن أحمد بن أمية بن إبراهيم بن المرابط المرادي، أحد أبناء ظافر المتقدم الذكر، وقد قال عنه ابن الزبير: "من أهل أوريولة، وجلتها يكنى أبا زيد، روى عن أبي علي الصديقي وعمر، فكانت وفاته بعد سنة ثمانين

(1) — ينظر: المعجم الوسيط: إعداد، إبراهيم مصطفى وآخرون، ج1 ط2، استانبول، المكتبة الإسلامية، (د، ن) ص: 232.

(2) — ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، تح: إحسان عباس ج4 ص: 137.

(3) — أحمد بن عميرة الضبي، بغية المتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس تح: إبراهيم الأبياري، ج2، ط1 القاهرة، دار الكتاب المصري 1989 ص: 425.

وخمسمائة أو نحوها، ذكره شيخنا القاضي الجليل أبو بكر يحيى⁽¹⁾ وكان من أبنائه علي والد أبي العلاء ابن المرابط مؤلف زواهر الفكر، وأحمد والد أبي بكر يحيى ابن المرابط نزيل مالقة وقاضيها، حفيد عبد الرحمن المذكور، وأحد شيوخ ابن الزبير .

ولم أعر في المصادر التي بين يدي على ترجمة لهذين الابنين أعني أحمد، وعلياً، وأمّا حفيد عبد الرحمن بن ظافر أبو بكر يحيى ابن المرابط الشخصية الثالثة من أسرة بني المرابط؛ فقد كان أحد شيوخ أبي جعفر بن الزبير، وقد أفرد له هذا الأخير ترجمة خاصة في كتابه (صلة الصلة) قال فيها: " يحيى أحمد بن عبد الرحمن بن ظافر بن إبراهيم بن أحمد بن أمية بن أحمد المرادي من أهل أوريولة وأعيانها يكنى أبا بكر، ويعرف بابن المرابط "⁽²⁾.

كان أبو بكر هذا من أشهر من أئجه بيت ابن المرابط، كان مولده سنة 582 هـ نشأ في بلده، واتجه منذ نعومة أظفاره إلى طلب العلم، وتلمذ على عدد من كبار الشيوخ في عصره، وأجاز له كثير من علماء المشرق، ذكر ابن الزبير عددا منهم، ثم قال إنه قد أغفل بعض من سمّاه له " اختصارا واكتفاء بالأشهر والأعراف "⁽³⁾.

وكان أبو بكر يحيى ابن المرابط ذا ثقافة دينية كبيرة؛ فقد ذكر ابن الأبار خيراً — عند ترجمة جده عبد الرحمن — مفاده أنه قرأ بخط ابن ابنه القاضي أبي بكر يحيى أنه وهب له كتباً منها: صحيح مسلم، وجامع الترمذي، وسنن الدارقطني، وغريب الحديث لأبي عبيدة، وغيرها⁽⁴⁾، وهذا الخبر يدل على اهتمام هذه الأسرة برواية الحديث الشريف منذ وقت مبكر، وسنرى لاحقاً كيف أن هذا الاهتمام المبكر برواية الحديث من قبل الأجداد؛ كان له أثره في المكانة التي وصل إليها الأحفاد في مجال رواية الحديث الشريف.

(1) — ابن الزبير، صلة الصلة، ق 3 ص: 190 ترجمة: 332 .

(2) — ابن الزبير، صلة الصلة ق 5 ص: 265 ترجمة: 542 .

(3) — المصدر السابق ق 5 ص: 266 .

(4) — ينظر: ابن الأبار، المعجم 222 .

ولم يكن أبو بكر يحيى ابن المرابط نزيل مالقة ذا ثقافة دينية فحسب، بل كان كاتباً وشاعراً أيضاً، فقد وصفه ابن الزبير الذي رآه وأخذ عنه بأنه كان "كاتباً جليلاً، وأديباً بارعاً" (1)، ومن شعره الذي وصلنا قصيدة في الشوق والحنين إلى بلده قالها من مدينة مالقة سنة 655 هـ التي هاجر إليها مضطراً بعد دخول النصارى بلده، وجاء في مطلع هذه القصيدة: {الطويل}

ألا يا نسيمَ الريحِ بَلِّغْ تَحِيَّتي وإنْ صَدَرَتْ حَرَى عن الكَبِدِ الحَرَى
وعَرِّجْ عَلَيَّ تُدْمِيرَ وافِضْ خِتَامَها بِمَجْلِسِ قاضيها وَسَيِّدِها الأَحْرَى (2)

شغل هذا الرجل أعني أبا بكر يحيى ابن المرابط بعد رحيله عن بلده وظيفة القضاء في إقليم غرناطة حيث "ولّى بعد خروجه عن بلده قضاء وادي آش، ثم قضاء مالقة" (3) ووصفه ابن الزبير بأنه "ممن ختم به قضاة العدل بالأندلس" (4)

وفي مدينة مالقة كانت وفاة أبي بكر يحيى ابن المرابط سنة 658 هـ (5) وكان قد ترك من الأبناء عثمان وأحمد (6) أما هذا الأخير فلم أعرف عنه شيئاً وأما عثمان فهو أبو عمرو ابن المرابط، كاتب وشاعر بني الأحمر المعني بالحديث هنا، وقد أورد هذا الخبر المهم ابن فضل الله العمري عند ترجمته لأبي بكر ابن المرابط، وذلك نقلاً عن شيخه أبي حيان الذي كان ينقل عن أبي جعفر بن الزبير الغرناطي، وقد ورد الخبر على هذا النحو "قال شيخنا أبو حيان: كان أبو جعفر بن الزبير يذكر أنه من قضاة العدل، وهو والد أبي عمرو بن المرابط كاتب السّرّ

(1) — ابن الزبير، صلة الصلة، ق5 ص: 266.

(2) — أبو العلاء ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص: 378.

(3) — ابن الزبير، صلة الصلة، ق5 ص: 266.

(4) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(5) — ينظر: ابن الزبير، صلة الصلة، ق5 ص: 266.

(6) — وردت الإشارة إلى هذين الابنين ضمن قصيدة لأبي الحسين المكناسي في مدح أبي بكر ابن المرابط قال فيها: {مجزوء الوافر}

عَلَى شَرَفِ بَنَاهُ وَقَدْ رَسَا لَابْنِيهِ مَنَسِيَا
نَمَا عَلِيًّا لِعُثْمَانَ لِأَحْمَدَ مِثْلَهَا عَلِيًّا
حَنَيْتُ عَلَيْهِمَا صَدْرِي فَحَلَا فِيهِ مَجْتِيًّا
فَدَامَ كِلَاهُمَا يَلْقَى مِنْ الخَيْرَاتِ كَلِيًّا

أبو العلاء ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص: 306.

لابن الأحمر .. " (1)، ويمكن أن أوكد هذا الخبر المهم من خلال الترجمة التي ذكرها ابن حجر العسقلاني نقلا عن الإمام الذهبي لمحمد ابن المرابط حفيد أبي بكر يحيى ابن المرابط، حيث قال في التعريف به: " محمد بن عثمان بن يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن بن ظافر إبراهيم بن أحمد بن أمية الغرناطي أبو عمرو بن أبي عمرو بن المرابط " (2) فالواضح من خلال هذه الترجمة أن محمدا هذا هو ابن لعثمان أبي عمرو ابن المرابط، كاتب السر لابن الأحمر ولد أبي بكر يحيى ابن المرابط نزيل مدينة مالقة وقاضياها .

ومن الطريف أن تكون كنية محمد هذا شبيهة بكنية أبيه عثمان كاتب بني الأحمر، فقد كان كلاهما يكنى بأبي عمرو، يتضح هذا من خلال الترجمة المذكورة، ومن الممكن أن يكون هذا التشابه في الكنى هو ما دعا ابن القاضي صاحب درة الحجال إلى الاقتصار على لقب (ابن المرابط) حين تعرّض لذكر كاتب ابن الأحمر أبي عمرو ابن المرابط على النحو الذي أشرت إليه في بداية حديثي عن هذا الشاعر .

ومن المفيد أن أذكر أن محمدا هذا ولد أبي عمرو عثمان ابن المرابط كاتب بني الأحمر، وحفيد قاضي مالقة أبي بكر يحيى ابن المرابط كان من كبار الرواة المحدثين الغرناطين، حيث عدّه السيوطي من الحفاظ؛ إذ ذكره في تلخيصه وتذييله لتذكرة الحفاظ للإمام الذهبي؛ وقد رتبته ضمن الطبقة الثانية والعشرين، واعتمد السيوطي في الترجمة له على الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني؛ حيث نصا معاً على سماعه لسنن النسائي الكبرى من أبي جعفر بن الزبير، وأنه قدم مصر فسمع من الحفاظ الدمياطي، ثم سمع في القدس من زينب بنت شكر، ثم نزل الربوة ثم دمشق (3) وقد أشرت فيما مضى إلى أن لأسرة بني المرابط اهتماما بعلم الحديث والرواية .

(1) — ابن فضل الله العمري، مسالك الأبطال في ممالك الأمصار، بتح: محمد عبد القادر خريسات، وآخرين ق2/ج 17 (شعراء المغرب والأندلس)، ص: 178، 179. ترجمة: 117 .

(2) — ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج4 ص 45. ترجمة رقم: 130.

(3) — ينظر: جلال الدين السيوطي، ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، د، ب، دار الفكر العربي، دت، ص: 359 .

ومما يؤكد على أن محمد بن عثمان بن يحيى ابن المرابط ولد الشاعر المعني بالحديث كان من المحدثين ؛ الرواة مجيء اسمه ضمن سند الرواة الذين رووا كتاب السنن الكبير للنسائي وهذا نص السند " فقد أخرجنا بجميع كتاب السنن الكبير تأليف الإمام أبي عبد الرحمن النسائي رحمه الله رواية أبي بكر بن الأحمر⁽¹⁾ عنه: الشيخ الإمام العالم الثقة المحدث المسند أبو عمرو محمد بن أبي عمرو عثمان بن أبي بكر يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن المرادي الغرناطي المالكي المعروف بابن المرابط في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .."⁽²⁾ وكان مولده سنة 680 هـ أما وفاته فكانت سنة 752 هـ⁽³⁾

وإذا كان ابن الخطيب لم يذكر - فيما أعرف من كتبه - كاتباً من عائلة ابن المرابط خدم لبني الأحمر سوى أبي بكر ابن المرابط الذي أشار إليه في كتابه (أعمال الأعلام) و كان ضمن كتابهم في مطلع القرن الثامن⁽⁴⁾؛ فإن ابن حجر العسقلاني نقل في كتابه " الدرر الكامنة" ترجمة لكاتب آخر من عائلة بني المرابط ، نقلها عن ابن الخطيب جاء فيها "محمد بن عثمان بن يحيى المرادي أبو عبد الله ابن المرابط، قال ابن الخطيب: " كان فاضلاً سورياً كريم الأبوة، قديم الحرمة، طيب النفس، كثير التخلق مطبوعاً ، اختص بالكتابة عن بعض ملوك بني الأحمر قبل سلطنته، وكتب بالدار السلطانية، وكانت وفاته سنة 741 هـ "⁽⁵⁾، ثم علق ابن حجر على هذا بقوله: " قلت: وهو والد أبي عمرو محمد بن محمد بن عثمان ابن المرابط نزيل دمشق "⁽⁶⁾

من خلال العرض السابق لأبرز الشخصيات من عائلة ابن المرابط يمكن أن استخلص أمرين الأول : أن الاسم الكامل لأبي عمرو ابن المرابط كاتب السرّ

(1) — هو أبو بكر محمد بن معاوية القرشي الأموي.

(2) — الإمام أحمد بن شعيب النسائي السنن الكبير، تح: فاروق حمادة، ط1 الولايات المتحدة الأمريكية ، فيرجينيا المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، 1993م ص: 41.

(3) — ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج4 ص: 45. ترجمة رقم: 130 .

(4) — ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص: 300 .

(5) — ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج4 ص: 45. ترجمة رقم: 131.

(6) — المصدر السابق، والموضع نفسه .

لابن الأحمر الشاعر المترجم له هو: عثمان بن يحيى بن أحمد بن عبد الرحمن بن ظافر إبراهيم بن أحمد بن أمية الغرناطي أبو عمرو ابن المرابط. أما الأمر الآخر؛ فهو أنه هناك ثلاث شخصيات من عائلة بني المرابط شغلت وظيفة الكتابة لبني الأحمر.

الشخصية الأولى هي: أبو عمرو ابن المرابط شاعر بني الأحمر في القرن السابع الهجري المعني بالحديث، أما الشخصية الثانية فهي شخصية أبي عبد الله ابن المرابط الذي ذكر ابن حجر ترجمته نقلاً عن ابن الخطيب، وأما الشخصية الثالثة فهي شخصية أبي بكر ابن المرابط الذي أشار إليه ابن الخطيب في كتابه (أعمال الأعلام)، ومن المحتمل أن يكون للكاتبين الأخيرين صلة قرابة بأبي عمرو ابن المرابط شاعر ابن الأحمر وكاتب سره .

أصدقاؤه:

أما أصدقاء أبي عمرو عثمان بن يحيى ابن المرابط شاعر بني الأحمر المعني؛ فمنهم أبو الطيب الرندي الذي كان هو الآخر على صلة بالبلاط النصري، ولا بد أنهما كانا يلتقيان داخل قصر بني الأحمر، ولا سيما أن أبا عمرو ابن المرابط كان يشغل وظيفة من وظائف القصر النصري ألا وهي وظيفة الكتابة؛ ومما يدل على العلاقة التي كانت تربط بين الرجلين تلك المراسلة الشعرية التي ذكرها الرندي في كتابه (الوافي في نظم القوافي) ودار موضوعها حول إهداء السلطان ابن الأحمر جارية لكتابه ابن المرابط؛ يقول الرندي في كتابه المذكور: "وكتبت لكتاب الحضرة النصيرية أبي عمرو ابن المرابط مهناً له بجارية أهديت له من الدار الكريمة { السريع }

هناك الله أبا عمرو	مانلت في مذهبة الدهر
سراء من عقائل الدهر بل	غراء من كرائم الأمر
أهداها مولى له راحة	أجود في المحل من القطر
كأنما أوما بها للعلى	فزقت الشمس إلى البدر
وانعم بما فإنما العيش في	نيل المنى في غفلة الدهر

وكل سلطانٍ له غرة يروق منها رونق البشرِ
فكل يوم عنده موسم وكل ليلٍ ليلة القدرِ⁽¹⁾
وقد جاوبه أبو عمرو ابن المرابط بمقطوعة شعرية قال فيها: {السريع}

يا بن شريفٍ يا سنا العصرِ ويا سناء النظم و النثرِ
ومن غدت أشعاره رونقا تروق منه صفحة الدهرِ
لله آدابك من روضة جالية بالتَّورِ والزهرِ
وأينعت أفنانها بالجنى أحلى من الوصل على الهجرِ
يسري نسيم الشعر عن دوحها معطرا من عنبر العطرِ
كأنما قد جرّ أذيالها بدارٍ دارينَ والشحرِ
ضمنتها تهنئة برّة قابلتها بالبرّ والشعرِ
ولم أجد عندي كفاء لها لكن أجبت الشعرَ بالشعرِ⁽²⁾

شعره:

إن أبرز ما وصلنا من شعر أبي عمرو ابن المرابط تلك القصائد التي أنشأها على لسان السلطان النصرى الثاني محمد الفقيه، وتوجه بها إلى السلطان المرىني أبي يوسف يعقوب، وكان موضوع هذه القصائد في المعاتبة والاعتذار والاستصراخ للجهاد، وأشهر هذه القصائد قصيدته التي جاء في مطلعها: {الكامل}

هَلْ مِنْ مُعِينِي فِي الْهَوَىٰ أَوْ مُنْجِدِي مِنْ مُتَّهِمٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ مِنْ مُنْجِدِي؟⁽³⁾
وبالرغم من شهرة هذه القصيدة إلا أن بعض المؤرخين كابن الخطيب اكتفى بالإشارة إلى مطلعها دون إيرادها كاملة، وكان ذلك في أثناء ترجمته محمد الفقيه ثاني سلاطين بني الأحمر، حين ذكر ما جرى بين هذا السلطان وأبي يوسف يعقوب المرىني من معاتبات "حسبما تدل على ذلك القصائد الشهيرة المتداولة، وأولها ما كتب به على عهده الفقيه الكاتب الصدر أبو عمرو ابن المرابط في

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية، أدب تيمور، رقم: 603، ورقة: 47، 48.

(2) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية، أدب تيمور، رقم: 603، ورقة: 48.

(3) — ابن خلدون، العبر ج 7 ص: 409.

غرض استنفاره للجهاد" (1)

كذلك اكتفى صاحب الذخيرة السننية بذكر مطلع هذه القصيدة وقال: "تركانها لطولها" (2)

أما ابن خلدون فهو الوحيد — بحسب اطلاعي — الذي انفرد بذكر هذه القصيدة؛ وقد بلغ ما أورده منها نحو تسعة وأربعين بيتاً، وتحدث عن تاريخ إنشادها ومناسبتها إذ قال "وتكدر الجو بينهما (يعني السلطان ابن الأحمر والسلطان أبي يوسف يعقوب) وأجاز أبو يوسف يعقوب إجازته الثانية، فانقبض ابن الأحمر عن لقاءه، ودارت بينهما مخاطبات شعرية في معنى العتاب على ألسنة كتأبهما....، فمن ذلك قصيدة كتبها إليه ابن الأحمر سنة 674 هـ — بعد واقعة دننه، واعتزاه على الرجوع إلى المغرب فخاطبه بما ليلة الإقالة بالجزيرة حذرا من غائلة العدو، ينحو فيها منحى الاستعطاف..". (3)

ومن المهم أن أذكر أن صاحب الذخيرة السننية حدد تاريخنا آخر مخالفا للتاريخ الذي ذكره ابن خلدون، حيث ذكر أن ابن الأحمر "بعث بهذه القصيدة" في ذي القعدة (4) من سنة 674 هـ يستنصر فيها أمير المسلمين يعقوب "ويطلب منه الجواز ثانياً؛ لأنه لما جاز أمير المسلمين إلى العدو بعد غزوة دون نونيو خاف ابن الأحمر من ألفونش، وخشي أن تكون للنصارى عليه كرة، فكتب إليه كتاباً بالقصيدة المذكورة...". (5) فأبي من التاريخين هو الصحيح لإنشاد هذه القصيدة؟

من المعروف أن مغادرة السلطان المريني للأندلس كانت في آخر يوم من رجب سنة 674 هـ (6) وهذا يعني أن القصيدة أُلقيت بحسب التاريخ الذي حدده صاحب الذخيرة — في ذي القعدة — بعد حوالي أربعة أشهر من مغادرة

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 1 ص: 562 .

(2) — علي ابن أبي زرع، الذخيرة السننية ص: 163

(3) — ابن خلدون، العبر ج 7 ص: 409 .

(4) — علي ابن أبي زرع، الذخيرة السننية ص: 163

(5) — المصدر السابق والموضع نفسه.

(6) — علي ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في المغرب ص: 420 .

السلطان المريني الأندلس لا "ليلة الإقالة بالجزيرة" كما ذكر ابن خلدون .
ومن المتوقع أن تكون غرناطة قد تعرضت لمضايقة النصاري وتحرشاتهم في
المدة التي غادر فيها السلطان المريني الأندلس ، وحينئذ بعث ابن الأحمر بهذه
القصيدة "حذرا من غائلة العدو"⁽¹⁾ على حد تعبير ابن خلدون.
إن من يقرأ قصيدة ابن المرابط ويلمس حدة الاستصراخ والاستنجد
ويستشعر الرثاء الوارد فيها ؛ لا بد له أن يرجح لها تاريخاً غير التاريخ الذي حدده
ابن خلدون ؛ ومن ثم يكون التاريخ الذي ذكره صاحب الذخيرة السنية هو
الأقرب إلى الواقع ؛ وذلك راجع لسببين اثنين الأول: اختصاص هذا الكتاب
بتاريخ الدولة المرينية، فلاشك في أن مؤلفه كان أقرب زمنياً إلى تلك الأحداث
من ابن خلدون.

وأما السبب الآخر؛ فهو يكمن في أن الأخذ بتحديد ابن خلدون لا يجعل
للهجة الاستصراخ أو الاستنجد التي تكتنف أبيات القصيدة منذ مطلعها أيّ
معنى ؛ خاصة أن ملك بني مرين وفق تحديد ابن خلدون لا يزال موجوداً وجيشه
فوق الأراضي الأندلسية ، ولا تزال انتصاراته التي حققها في عبوره الأول قريية
العهد ، فليس هناك من دافع لإطلاق صرخات الاستغاثة والاستنجد من قبل ابن
الأحمر .

أما القصيدة الثانية التي أنشأها ابن المرابط على لسان ابن الأحمر في مخاطبة
السلطان المريني فهي قصيدته التي قال في مطلعها : {الكامل }

قُلْ لِلْعُدَاةِ وَالْبُعَاةِ الْحُسْدِ يَعْقُوبُ وَالِدُنَا مَكَانَ مُحَمَّدٍ⁽²⁾

وقد كانت هذه القصيدة ردا على قصيدة لمالك ابن المرحل قالها "مجيبا لابن الأحمر عما
كتب به ليعقوب بن يوسف بن عبد الحق المريني"⁽³⁾ حيث قال ابن المرحل: {الكامل }

شَهِدَ الْإِلَهِ وَأَنْتِ يَا أَرْضُ اشْهَدِي أَنَّا أَجَبْنَا صَرْخَةَ الْمُسْتَنْجِدِ

(1) — ابن خلدون ، العبر ج7 ص: 409 .

(2) — ابن القاضي درة المجال ص: 302.

(3) — المصدر السابق ، ص: 302.

لَمَّا دَعَا الدَّاعِي وَرَدَّ صَوْتَهُ قَمْنَا لِنُصْرَتِهِ وَلَمْ نَتَرَدَّدِ⁽¹⁾

وقد تعرض ابن المرحل في قصيدته إلى ظنون ابن الأحمر الخاطئة حول رغبة بني

ميرين في الاستحواذ على ملك الأندلس؛ يقول ابن المرحل : {الكامل}

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا لَمْ نَعْتَقِدْ إِلَّا الْجِهَادَ وَنَصَرَ دِينَ مُحَمَّدٍ⁽²⁾

كذلك أشار ابن المرحل في قصيدته إلى موقف ابن الأحمر وحذره الشديد من بني ميرين

يقول : {الكامل}

وَأَزُورَ جَانِبَهُمْ وَشَدُّوا بَعْدَمَا بَسَطُوا لَنَا الْآمَالَ بَسَطَ مُهَدِّدِ

أَوْ مَا رَأَوْا أَنَا تَرَكْنَا أَرْضَنَا وَلَنَا بِهَا مُلْكٌ رَضِيُّ الْمُحْتَدِ⁽³⁾

لكن قصيدة ابن المرحل حملت عتابا شديدا تحول في بعض الأحيان إلى التقرير

والتوبيخ في كثير من أبياتها مثل قوله : {الكامل}

أَوْ مَا عَلِمْتُمْ أَنَّنَا أَيْدٍ لَكُمْ دُونَ الْعِدَا وَاللَّهُ خَيْرٌ مُؤَيِّدِ

لَوْ لَا رِجَالٌ مِنْ مَرِينٍ رَفَعُوا مِنْكُمْ لَكُنْتُمْ بِالْحَضِيضِ الْأَوْهَدِ

لَوْ لَا رِجَالٌ مِنْ مَرِينٍ قَاتَلُوا عَنْكُمْ لَكُنْتُمْ كَالنِّسَاءِ الْخُرَدِ

عَهْدِي بِجُنْدِكُمْ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا عَلَجًا تَوَلَّوْا كَالنِّعَامِ الشُّرَدِ

يَتَشَبَّهُونَ بِكُلِّ أَغْلَفٍ كَامِنٍ فِي زِيهِمْ وَكَلَامِهِمْ فِي الْمَشْهَدِ

وَطَعَامِهِمْ وَخِلَالِهِمْ وَشَرَابِهِمْ وَمَنَّا كِرٍ يَأْتُونَهَا وَسَطَ النَّدِيِّ

وَتَنْقُصُ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَّلَاءِ وَالْأَعْيَانِ مِنَ أَهْلِ التَّقَى وَالسُّودِدِ⁽⁴⁾

بيد أن ابن المرحل صرح في آخر قصيدته بأن هذا لا يعدو العتاب أو اللوم، وهو

لا يقصد به القطيعة؛ لأن عهد الود مازال قائماً والنية الصادقة موجودة، وإنما

القصد من وراء هذا العتاب هو الإرشاد والتوجيه الذي يكون من الأب لأبنائه

يقول: {الكامل}

هَذَا عِتَابٌ لَيْسَ فِيهِ قَطِيعَةٌ إِنَّ الْوَدَادَ كَعَهْدِهِ لَمْ يَنْفَدِ

(1) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه.

(2) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه.

(3) — المصدر نفسه والموضع نفسه.

(4) — ابن القاضي درة الحجال ص: 302.

فَأْتُوا بِعِزِّكُمْ إِلَى مَا عِنْدَنَا فِي حَقِّكُمْ وَلِتَسْمَعُوا مِنْ مُرْشِدٍ
ثُمَّ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْوَالِدِ يَدْعُو ابْنَهُ دَعْوَى مُحِبِّ مُسْعِدٍ⁽¹⁾

ومن المؤرخين الذين انفردوا بإيراد قصيدة أبي عمرو ابن المرابط ابن القاضي صاحب درة الحجال، فقد ذكر من هذه القصيدة نحو أربعة وعشرين بيتاً، وأظنها كانت أكثر من هذا، وقد تعرض ابن المرابط في هذه القصيدة لكل التهم والشائعات التي وردت في قصيدة ابن المرحل السابقة، وأخذ في تفنيدها، وهذا واضح منذ مطلع القصيدة الذي يحمل إشارة إلى دور الحاقدين والحساد الذي سعوا في إيغال صدور بني مرين على بني الأحمر، وإثارة الضغائن والفتن بين البلاطين، وجعل ابن المرابط منذ مطلع قصيدته يعرض بموقف بني إشقيلولة وبعض الخارجين على السلطة الغرناطية حيث يقول: {الكامل}

قُلْ لِلْعُدَاةِ وَالْبَغَاةِ الْحُسَدِ يَعْقُوبُ وَالِدُنَا مَكَانَ مُحَمَّدٍ
وَبَنُو مَرِينٍ كُلُّهُمْ إِخْوَانُنَا وَالِدَيْنُ وَأَخَى بَيْنَ أُمَّةٍ أَحْمَدٍ⁽²⁾

كذلك حاول الشاعر في قصيدته استدرار عطف السلطان المريني أبي يوسف يعقوب نحو الغرناطيين، فبين مكانته لديهم، فهو عندهم بمنزلة السلطان محمد ابن الأحمر الغالب الذي اختطفته المنية يقول: {الكامل}

إِنْ كَانَ مَفْقُوداً أَبُونَا إِنَّهُ مَا عَاشَ يَعْقُوبٌ كَأَنْ لَمْ يُفْقَدِ
فَلَنَّا بِهِ الْخَلْفُ الْكَرِيمُ وَحَبْدًا خَلْفٌ بِمَنْصُورِ اللِّوَاءِ مُؤَيَّدٍ⁽³⁾

ولم ينس ابن المرابط أن يشيد في هذه القصيدة بمواقف السلطان المريني أبي يعقوب والإشادة بانتصاراته، والاعتراف له بالمنة على الغرناطيين، وأن هذا ليس غريباً؛ لأن السلطان المريني في منزلة والدهم، وكم من منة تكون للأب على أبنائه، يقول: {الكامل}

يَعْقُوبُ نَادَيْتَاهُ مِنْ مَرَّاكِشٍ مِنْ تَغْرِ أَنْدَلُسٍ فَلَمْ يَتَرَدِّدِ

(1) — المصدر السابق والموضع نفسه.

(2) — المصدر نفسه والموضع نفسه.

(3) — ابن القاضي درة الحجال ص: 302.

وَأَجَابَ دَاعِينَا وَجَابَ لِنَصْرِنَا مَتْنِ الْفَلَاةِ وَلَجَّ بَحْرٌ مُزْبِدٍ
وَعَزَا بِبِلَادِ الرُّومِ غَزْوًا كَبَّهُمْ لَوْ جَرَّهُمْ وَسَطَ السَّعِيرِ الْمُوقِدِ
فَلَهُ عَلَيْنَا مِتَّةٌ وَيَدٌ وَكَمْ مِنْ مِتَّةٍ لِأَبِ عَلِيٍّ ابْنِ أَوْ يَدٍ⁽¹⁾

وأما ما رُوِّج له الحساد الحاقدون من تُهَمِّ وشائعات أشار إليها ابن المرحل في القصيدة السابقة، كتشبهه الغرناطين بالنصارى في المأكل والملبس، وجبن الغرناطين في مواجهة أعدائهم؛ فقد ردّ ابن المرابط عليها مشيدا بموافق بني الأحمر البطولية ضد الأعداء، وما حققوه من انتصارات أغاضت نفوس الحساد، وأكد على تمسك الغرناطين بمبادئ الدين الحنيف، وبسنة النبي صلى الله عليه وسلم، واقتدائهم بالأئمة الأجلاء، وعدم الخطّ من قدرهم أو الإقلال من شأنهم كما زعم الوشاة الحاقدون؛ ذلك لأن هؤلاء الأئمة هم الشهود في زواج الغرناطين، وهم عدوهم وقضائهم؛ يقول: {الكامل}

وَلَقَدْ وَقَفْنَا لِلْعَدُوِّ مَوَاقِفًا كَادَتْ تَفِيضُ لَنَا نُفُوسَ الْحُسَدِ
نَسَبُوا إِلَيْنَا مَا هُمْ أَوْلَى بِهِ وَتَقَلَّدُوا الْآثَامَ أَيَّ تَقَلَّدِ
مَنْ ذَا تَشَبَّهَ بِالنَّصَارَى أَوْ نَحَا مَنَحَاهُمْ وَحَكَاهُمْ وَسَطَ النَّدِي
وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا بَنِيْنَا وَأُئِمَّةَ التَّقْوَى الرُّضِيَّةَ نَقْتَدِي
مَنْ ذَا تَنَقَّصَ عَالِمًا أَوْ صَالِحًا وَهُمْ الْأَوْلَى بِالْهَدَى مِنْهُمْ نَهْتَدِي
وَإِذَا تَرَوَّجْنَا فَهُمْ شُهَدَاؤُنَا وَعُدُونَا وَالْعَدْلُ خَيْرُ الشُّهَدِ
فَهُمْ أَيْمَتُنَا مَعًا وَقَضَاتُنَا وَالْحَامِلُونَ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَرْشَدِ⁽²⁾

ويتردد في معظم أبيات قصيدة ابن المرابط التعريض ببني إشبيلية الخارجين عن طاعة الحكام النصرين، ومن ذلك قوله: {الكامل}

لَكِنَّ مَنْ تَهْفُو بِهِ الدُّنْيَا كَمَا تَهْفُو الزَّعَاذِرُ بِالْقَضِيبِ الْأَمْلَدِ
وَتَرَاهُ وَاهِي الدِّينِ ذَا وَجْهَيْنِ إِنْ تَجَذَّبَ إِلَيْكَ عِنَانُهُ لَمْ يَنْقَدِ
مُتْرَوغًا كَالثَّلْعَانِ وَإِنْ يَجِدُ يَوْمًا مَكَانًا خَالِيًا يَسْتَأْسِدِ

(1) — المصدر نفسه والموضع نفسه.

(2) — ابن القاضي درة المجال ص: 302

فَهُوَ الَّذِي لَا تُرْتَضَى أفعَالُهُ وَمَقَالُهُ فِي الْعَيْبِ أَوْ فِي الْمَشْهَدِ
 كَمْ رَامَ أَنْ يَشِينَكُمْ عَنْ قَصْدِكُمْ وَيَصُدُّكُمْ عَنَّا بِمَنْطِقِهِ الرَّدِّي
 بَأْتَتْ عَزَائِمُكُمْ عَلَيْهِ وَحَسِينَا مِنْكُمْ وَقَصْدُ وَدَادِنَا الْمَتَأَكَّدِ⁽¹⁾

وقد أكد ابن المرابط في نهاية قصيدته على أنه لا يقصد من هذا الرد تعقب ما ورد في قصيدة ابن المرحل، وإنما أراد الجواب على التهم والادعاءات الباطلة التي اتهم بها الغرناطيون يقول: {الكامل}

هَذَا جَوَابٌ لَيْسَ فِيهِ تَعَقُّبٌ فَتَصَفَّحُوا مِنْهُ سَبَائِكَ عَسَجَدِ
 وَيَخُصِّصْكُمْ مِنَّا السَّلَامُ مُجَدِّدًا أَبَدًا عَلَى الْمَلِكِ الْهَمَامِ الْأَوْحَدِ⁽²⁾

ويبدو أن قصيدة ابن المرابط قد آتت أكلها؛ فقد صلحت العلاقة بين البلاطين عقب هذه القصيدة، وعبر السلطان المريني بجيوشه للمرة الثانية إلى الأندلس للجهاد وقمع الكفرة؛ وذلك سنة 676 هـ، والتقى السلطان ابن الأحمر بالسلطان المريني، وأنشد ابن المرابط قصيدة بهذه المناسبة لم يصلنا منها سوى الشطر الأول من مطلعها قال فيه: "بُشْرَى لِحِزْبِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ"⁽³⁾

وذكر ابن خلدون أن شاعر بني مرين عبد العزيز الملزوزي أجاب عن قصيدة ابن المرابط بقصيدة لم يذكر ابن خلدون منها سوى شطرها الأول أيضا، وقد جاء فيه: "لَبَّيْكَ لَا تَخْشَ اعْتِدَاءَ الْمُعْتَدِي"⁽⁴⁾

هذا كل ما استطعت معرفته عن أبي عمرو ابن المرابط، وعن الشطر القليل الذي وصلنا من شعره، وسأنتقل الآن للتعريف بشاعر غرناطي آخر وصلنا قدر غير يسير من شعره، إنه الشاعر المالقي مالك ابن المرحل.

(1) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(2) — المصدر نفسه والموضع نفسه.

(3) — ابن خلدون، العبر ج 7 ص: 414.

(4) — ابن خلدون، العبر ج 7 ص: 414.

• من شعراء القرن السابع الهجري الذين اتصلوا ببني الأحرار: مالك ابن
المرحل (604/699هـ).

اسمه ونسبه:

هو الأديب القاضي مالك بن عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن الفرغ
بن أزرق بن منير بن سالم بن فرج⁽¹⁾ واشتهر باسم مالك، وهو الأشهر بيد أن له
اسماً آخر انفرد ابن الحاج النميري بإيراده في مذكراته ضمن رواية جاء فيها أن
ابن المرهل قال "سُميت باسمين، سَمَّاني أبي مالكاً لفقده خاله كان اسمه مالكاً
،وسمّنتني أمي :إبراهيم لفقدها أحاها كان اسمه إبراهيم، فقال: مالك خزن النار
فلم تعدْ عليه، وإبراهيم رمي في النار بالمنجنيق فلم تعدْ عليه، فلعلّي أنجو منها
بهذين الاسمين. وأنشد: {الطويل }

رُمُونِي فِي نَارِ الْهُوَى فَخَزِنْتُهَا فَسُمِّيتُ إِبْرَاهِيمَ طَوْرًا وَمَالِكًا
فَإِنْ نَجَوْنَا مِنْهَا بَطَّعَ وَعَصَمَةَ فَإِنِّي قَدْ أَصْبَحْتُ حَيًّا وَهَالِكًا⁽²⁾

يكنى هذا الشاعر بكنيتين هما : أبو الحكم وأبو المجد "والأولى أشهر"⁽³⁾، وله
كنية أخرى غير مشهورة انفرد بذكرها ابن الحاج النميري هي "أبو مروان"⁽⁴⁾
، ويعرف مالك في معظم كتب التراجم (باب المرهل) بفتح الراء والحاء مع
تشديد الحاء بوزن اسم المفعول من غير الثلاثي⁽⁵⁾.

وأما عن نسب شاعرنا فقد ذكرت المصادر أنه "مصمودي" مولى بني
"مخزوم"⁽⁶⁾.

وكان مولده في مدينة مالقة سنة 604 هـ وقد حدد ابن المرهل نفسه

تاريخ ميلاده حيث يقول : {الرجز }

يَا سَائِلِي عَنْ مَوْلِدِي كَيْ أَدْكُرُهُ وُلِدْتُ يَوْمَ سَبْعَةِ وَعَشْرَةَ

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 303 .

(2) — إبراهيم بن الحاج النميري ، مذكرات ابن الحاج النميري ، تح: بريمير ص :198.

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 304 .

(4) — إبراهيم بن الحاج النميري ، مذكرات ابن الحاج النميري ، تح: بريمير ص :198.

(5) — ينظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ج 3 ص: 304 .، وابن الزبير ،صلة الصلة ق 3 :65، ترجمة :77.

(6) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ص: 304.

مِنَ الْمَحْرَمِ افْتِتَاحِ أَرْبَعٍ مِنْ بَعْدِ سِتْمَائَةِ مُفَسَّرَةٍ⁽¹⁾

استهل ابن المرحل حياته في ربوع بلده مالقة التي كانت من المراكز الثقافية المهمة في القرن السابع الهجري، فأخذ علومه الأولى على شيوخها، ثم تنقل بعد ذلك في مراكز ثقافية، وبيئات أندلسية أخرى لا تقل عن مالقة أهميةً، وألقاً، وروعةً، مثل (غرناطة)، و (إشبيلية)، و (الجزيرة الخضراء)، حيث استكمل علومه وآدابه على مشايخها الأعلام حتى استوى على سوقه⁽²⁾.

وقد تقلّب شاعرنا في العديد من الحرف والوظائف فـ " تحرف مدة بصناعة التوثيق ببلده"⁽³⁾ و " أقام بغرناطة، وعقد بها الشروط مدة"⁽⁴⁾، و ولاءه ابن الأحمر " القضاء مرات بجهات غرناطة وغيرها"⁽⁵⁾.

رحل ابن المرحل بعد طور الشباب والصبا إلى خارج الأندلس، فتوجه مع أسرته إلى مدينة سبتة المغربية، ثم انتقل منها إلى مدينة فاس عاصمة ملك بني مرين المزدهرة خلال القرن السابع الهجري بعلوم علمائها الأصلاء، وفهوم العلماء الطارئين عليها من الأندلس، ونال فيها ابن المرحل حظوة كبيرة من قبل حكامها المرينيين، لاسيما من الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني، والأمير يوسف بن عبد الحق، والأمير أبي مالك عبد الواحد المريني، وصار ابن المرحل شاعر بني مرين المهتمّين⁽⁶⁾؛ ولسانهم الناطق في مخاطبة الملوك، وقد مر ذكر بعض قصائده التي أنشأها على لسان السلطان أبي يوسف يعقوب في مخاطبة السلطان ابن الأحمر محمد الفقيه⁽⁷⁾.

لقد ظل ابن المرحل في مدينة فاس إلى أن أدركته المنية عام 699 هـ⁽⁸⁾ بعد أن

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3 ص: 324

(2) — ينظر: المصدر السابق، ج3 ص: 304. وما بعدها.

(3) — ابن الزبير، صلة الصلة ق 3 ص: 65

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3 ص: 306 .

(5) — ابن الزبير، صلة الصلة ق 3 ص: 65 ترجمة: 77.

(6) — ينظر: علي ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 308، 376. وكذلك: ابن أبي زرع، الذخيرة السننية، ص: 98، 119، 123، وينظر: ابن القاضي، درة الحجال ص: 24، 25 .

(7) — ينظر: ص من هذا البحث.

(8) — ينظر: ابن الزبير، صلة الصلة ق 3 ص: 65 .

ناهز عمره خمساً وتسعين عاماً، وعود بذلك من المعمرين، ودفن في مقبرة " الجيسة" بالمدينة المذكورة، وأوصى بأن تكتب على شاهد قبره أربعة أبيات من

نظمه ذكر فيها معاناته وغربتة، وهي قوله : {مجزوء الخفيف}

زُرُّ غَرِيْباً بِمَعْرَبٍ نَازِحاً مَالَهُ وَلي
تَرَكَوهُ مُوسِّدًا بَيْنَ تَرَبٍ وَجَنْدِلِ
وَلتَقُلْ عِنْدَ قَبْرِهِ بِلِسَانِ التَّذَلُّلِ
رَحِمَ اللهُ عِبْدَهُ مَالِكَ بْنِ المَرَحَلِ (1)

شعره:

وصف أبو جعفر بن الزبير مالك ابن المرحل بأنه " شاعر رقيق مطبوع متقدم سريع البديهة رشيق الأغراض " (2)، وكان شعره — وهو ما يعني في هذه الدراسة — مركز نبوغه وشهرته حتى " فضل الناس نظمه على نثره " (3)، وعلل ابن الخطيب ذلك بأنه " من باب الكثرة لا من باب الإجادة " (4)

وكان يجمع في شعره " بين سهولة اللفظ وسلاسة المعنى ، وإفادة التوليد ، وإحكام الاختراع، وانقياد القريحة ، واسترسال الطبع ، والنفاز في الأغراض .. " (5) وقد نظم ابن المرحل في معظم أغراض الشعر و" تصرف في فنونه تصرفاً مطلقاً " (6) وما وصلنا من شعره يعكس ثلاثة أطوار مهمة من أطوار حياته هي :

الطور الأول: وهو طور الصبا والشباب، وقد قضى معظمه في ربوع الأندلس و" تلبس في صباه وشبابه بملابسات الحياة الاجتماعية اللاهية في مألقة مسقط رأسه، وفي مدينة الفن إشبيلية التي أنس فيها زمناً بالفراغ والبطالة، وهو ما نجد أثره واضحاً في نسق ما بين أيدينا من أشعار " (7) لاسيما أشعاره الغزلية التي

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة ، ج 3 ص: 324 .

(2) — ابن الزبير، صلة الصلة ق 3 ص 65: .

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة ، ج 3 ص: 320 .

(4) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(5) — المصدر نفسه ج 3 ص: 305 .

(6) — عبدالله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب 8 مالك ابن المرحل. بيروت، (د.ن ، د.ت) ، ص: 7 .

(7) — مالك ابن المرحل ، الجوالات ، ص: 28 .

ضمنها ديوان الجوالات و" المشتملة على التشبيب بالمؤنث والمذكر، و على الوصف لمجالس اللهو والقصف " (1)

الطور الثاني : وهو يمثل المظهر الجاد من حياة الشاعر، ويظهر هذا الطور من خلال ما خلفه من نظم تعليمي تمثل في مجموعة من الأراجيز في مختلف العلوم ،منها :

(التبيين والتبصير في نظم كتاب التيسير) ،وهي قصيدة طويلة عارض بها الشاطبية في علم القراءات في الوزن والقافية.

(الواضحة) ،وهي قصيدة في الفرائض ،و له أرجوزة في العروض، ونظم غريب القرآن لابن عزيز، ونظم (اختصار المنطق) لابن العربي ،وله أرجوزة نظم فيها فصيح ثعلب وشرحه سماها (الموطأة) ،ونظم الثلث الأول من كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة بعد ترتيبه، وله كتاب (الحلبي) ، والقصيدة المسماة (اللؤلؤ والمرجان) ، وأرجوزة سماها (مسلك النحل لمالك بن المرحل) ، و(ترتيب الأمثال) لأبي عبيد على حروف المعجم وكتاب (الرمي بالحصى والضرب بالعصا) (2).

ويرى الباحث عبد الله كنون أن ملكة مالك ابن المرحل الشعرية ، كانت من القوة بمكان جعل كل نظمه العلمي " متيناً منسجماً ، خالياً من الحشو والتكلف ، صادراً عن قريحة شاعرة وملكة قادرة ، وكان يضرب بها المثل في المعرفة بقرض الشعر وعلم العروض" (3)

ووصف محمد ابن تاويت نظم ابن المرحل التعليمي بأنه سلس ، حيث قال " كان الشعر يسلس في كل ما يريد ، فنظمه للعلوم نجده مشرقاً ، على غير ما نجده عليه عند الناظمين فيها" (4)

ويظهر هذا الطور أيضا من خلال شعره في الاستصراخ والاستغاثة والدعوة

(1) — المصدر السابق ، ص: 28 ، 29 .

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص: 307.

(3) — عبد الله كنون ، ذكريات مشاهير رجال المغرب 8 مالك ابن المرحل . ص: 8 ، 9 .

(4) — محمد بن تاويت ، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ج 1 ط 1 ، المغرب ، دار الثقافة ، 1402هـ

إلى الجهاد في الأندلس وهو يقع ضمن الدعوة التي نهض بها بعض الأدباء المغاربة والأندلسيين لإنقاذ ما بقي من الأندلس وقد وصلنا بعض القصائد التي قيلت في هذا الجانب منها قصيدته التي مطلعها: {الرجز}

اسْتَنْصَرَ الدِّينَ بِكُمْ فَأَقْدِمُوا فَإِنَّهُ إِنْ تُسْلِمُوهُ يُسَلِّمَ⁽¹⁾

وهي قصيدة حوت نحو تسعة وأربعين بيتاً دارت معانيها في الاستغاثة للأندلس، والرتاء العام لمدنهما التي سقطت في أيدي النصارى، وسأعود للوقوف عند هذه القصيدة لاحقاً ضمن الحديث عن رثاء المدن في هذه الدراسة.

الطور الثالث: ويتجسد في تنسكه واتجاهه إلى الزهد والتصوف، ويظهر هذا الطور من خلال أشعاره الزهدية ومدائحه النبوية التي يمكن تسميتها بالمكفرات التي "ختم بها مسيرة حياته، وأظهر فيها التحسر والندامة على ما فرط منه في زمن الصبا والشباب"⁽²⁾. وقد أودع هذه الأشعار في العديد من المؤلفات منها: "الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى" وعشريات الزهدية، ومخمسته النبوية التي التزم فيها مالا يلزم، وقالها على حروف المعجم بالترتيب.⁽³⁾

وإذا كان ابن المرحل كما ذكر المؤرخون "لم يتميز بحسبٍ، ولم يتقدم في ميدان نسب"⁽⁴⁾ فبدأ "حياته خامل" الذكر كما يقول الباحث عبد الله كنون، "واتجه إلى العلم والأدب فأصاب منهما وأجاد فيهما"⁽⁵⁾؛ فإنه أصبح بفضل ما أنتجه من أدب وشعر من "أشهر أدباء الأندلس"⁽⁶⁾، وكان شعره سر شهرته الواسعة بين أعلام عصره فقد "أنهضه أدبه وشعره، وعوضه بالظهور من الخمول نظمه ونثره، فطلع في جبين زمانه غرة منيرة، ونصع في سلك فصحاء

(1) — علي ابن أبي زرع، الذخيرة السنوية، ص: 98 .

(2) — ابن المرحل، الجوالات، ص: 28 .

(3) — حقق هذه الأشعار الدكتور محمد مسعود جبران، ونشرها ضمن دراسة قيمة بعنوان (مالك ابن المرحل

أديب العدوتين. دراسة تحليلية في أخباره وتحقيق نصوصه الأدبية الباقية)، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 304 .

(5) — عبدالله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب 8 مالك ابن المرحل ص: 5، 6.

(6) — المقرئ، نفع الطيب ج 6 ص: 235.

أوانه درة خطيرة وحاز من جيله رُتبة التقديم⁽¹⁾، وقد ذكر تلميذه القاضي أبو عبد الله المراكشي صاحب الذيل والتكملة أنه " كان مكثراً من النظم مجيداً ، سريع البديهة ، مستغرق الفكرة في قرضه ، لا يفتر عنه حيناً من ليل أو نهار ،..... لا يقدر صرفه من خاطره، وإخلاء باله من الخوض فيه؛ حتى كان من كلامه في ذلك أنه مرض من الأمراض المزمنة " (2).

ولم يخبرنا المراكشي بولوع ابن المرحل بنظم الشعر والهيام به فحسب ، بل أخبرنا أيضاً بتأثيره في الأدباء وغيرهم من أهل زمانه، وتعلقهم بأشعاره، وافتتاهم بقصائده ومقطعاته، حتى فشا شعره بين كل الطبقات، حيث قال " واشتهر نظمه وذاع شعره؛ فكلفت به ألسنة الخاصة والعامة وصار رأس مال المستمعين والمغنين وهجير الصادرين والواردين، ووسيلة المُكْدِين، وطراز أوراد المؤذنين، وبطائفة البطالين " (3).

ومما يؤسف له كثيراً أن ديوان هذا الشاعر الذي قدر أن يمد الله في عمره طويلاً، وأن يتفرغ خلال هذا العمر للشعر، وأن يكتب لإبداعه الشعري القبول عند أهل زمانه، لم يصلنا، وهو لا يزال في عداد الدواوين الشعرية المفقودة (4).

وإذا كان ما وصلنا من شعر ابن المرحل ليس فيه قصائد في مدح سلاطين بني الأحمر؛ فإن ابن الخطيب ذكر في كتابه (الإحاطة) أن ابن المرحل " أنشد السلطان الغالب بالله بمجلسه للناس من المقصورة بإزاء الحمراء قبل بناء الحمراء " (5)، وهذا يدل على أن لابن المرحل شعراً في مدح بني الأحمر، وقد يكون هذا الشعر ضمن ديوانه الكبير المفقود الذي كان ضمن مقتنيات خزانة القرويين ثم اختفى، ومن المرجح أن تكون أشعاره في بني الأحمر غير كثيرة؛ وذلك يرجع لعدة أسباب؛ منها هجرة الشاعر المبكرة خارج الأندلس، فقد ذكر ابن الزبير أنه

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 304 .

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3 ص: 307 .

(3) — المصدر السابق، والموضع نفسه .

(4) — ينظر: محمد العابد الفاسي، الخزانة العلمية بالمغرب بمناسبة عيد جامعة القرويين، مطبعة الرسالة 1380 . 1960، ص: 32 .

(5) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 306 .

تكرر قدومه على غرناطة وآخر انفصالاته عنها كان آخر سنة أربع وستين وستمائة⁽¹⁾، ومن هذه الأسباب أنه لم يحظ بمكانة كبيرة داخل بلاط بني الأحمر، إذ لم تكن وظيفة القضاء على بعض الجهات الغرناطية مما يرضي طموح ابن المرحل، وقد ذكر ابن الخطيب أنه "شكا (هو نفسه) للسلطان بضعف الولاية"⁽²⁾، وهذا يدل على أنه لم يكن راضياً، وكان يطمح إلى مكانة أفضل .

بقي أمر مهم لا بد لي أن أقف عنده قبل أن أغادر هذا الشاعر للتعريف بشاعر غرناطي آخر، ويتمثل هذا الأمر فيما عرف عن ابن المرحل من استهتار وكثرة هجاء ووقوع في أعراض الناس فضلاً عن اشتهاه شعره بالقحة والمجانة، وقد دلّ على ذلك ما ذكره ابن الخطيب في أثناء الترجمة لابن المرحل حيث ذكر عنه أنه كان "مهيباً مخطوب السلامة، مرهوباً على الأعراض، في شدقه شفرته وناره، فلا يتعرض إليه أحد بنقدي، أو أشار إلى قناته بغمز، إلا وناط به أبدة تركته في المثالات؛ ولذلك بنس وزئه، واقتحم حماه، وساءت بمحاسنه القالة رحمه الله، وتجاوز عنه"⁽³⁾ .

وأظن أن هذه المثالب كانت السبب الحقيقي وراء عدم تقريب هذا الشاعر لبلاط بني نصر، وقد استغل بعض أدباء العصر هذه المثالب للنيل من ابن المرحل والخط من قدره ولعل المناقضات الأدبية التي جرت بينه وبين معاصره ابن رشيق المرسى في أثناء إقامتهما بمدينة سبتة المغربية خير شاهد على ذلك.

فقد ذكر ابن الخطيب في أثناء ترجمته لابن رشيق المرسى أنه "جرت بينه وبين الأديب أبي الحكم مالك ابن المرحل من الملاحاة والمهاترات أشد ما يجري بين متناقضين"⁽⁴⁾، ويفهم من هذا الكلام أن المناقضات الشعرية بين هذين الشعارين كانت كثيرة، بيد أنه لم يصلنا منها — بحسب اطلاعي — سوى قصيدة لابن رشيق المرسى، وبيتين في الرد عليها لابن المرحل، وقد جاء في

(1) — ينظر: ابن الزبير، صلة الصلة ق 3 ص: 65. وفيه (خمسمائة) وهو تحريف .

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 306 .

(3) — المصدر السابق ج 3 ص: 305 .

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 472، 473 .

مطلع قصيدة ابن رشيق: {الكامل}

لِكِلَابِ سَبْتَةٍ فِي الثُّبَاحِ مَدَارِكُ وَأَشَدُّهَا دَرَكًا لِذَلِكَ مَالِكُ⁽¹⁾

وقد وصف ابن الخطيب هذه القصيدة بالطويلة وذكر أنها " تشتمل من التعريض والتصريح على كل غريب، واتخذ لها كنانة خشبية كأوعية الكتب، وكتب عليها (رقص معجل إلى مالك ابن المرحل)، وعمد إلى كلب، وجعلها في عنقه، وأوجعه خبطا حتى لا يأوي إلى أحد ولا يستقر، ثم طرده بالزقاق متكما بذلك، وذهب الكلب، وخلفه من الناس أمة، وقرئ مكتوب الكنانة، واحتمل إلى أبي الحكم، ونزعت من عنق الكلب، ودفعت إليه، فوقف منها على كل فاقرة كفت من طماحه، وغضت من عنان مجاراته، وتحدث بها مدة، ولم يغب عنه أنها من حيل ابن رشيق؛ ففوق سهام المراجعة، ثم أقصر مكبوحاً، وفي جوابه عن ذلك يقول: {المتقارب}

كِلَابُ الْمَزَابِلِ آذَيْنِي بِأَبْوَالِهِنَّ عَلَى بَابِ دَارِي

وَقَدْ كُنْتُ أَوْجِعُهَا بِالْعَصَا وَلَكِنْ عَوَتْ مِنْ وَرَاءِ الْجِدَارِ " (2)

ويبدو من كلام ابن الخطيب أن الغلبة في هذه الملاحاة بين الشعاعين كانت لابن رشيق، ويبدو أن السر في هذا راجع إلى أن قصيدة ابن رشيق تضمنت معظم الأوصاف التي تناقلها المؤرخون في ترجمة ابن المرحل؛ فابن الخطيب ذكر أن جده لا يعرف إلا بوصفه، وأنه نشأ حاملاً الذكر "لم يتميز بحسب، ولم يتقدم في ميدان نسب"⁽³⁾ وقد استغل ابن رشيق هذا العيب، وضمّنه قصيدته حيث قال: {الكامل}

يَا ابْنَ الْمَرْحَلِ لَوْ شَهِدْتَ مُرَحَّلًا وَقَدْ انْحَى بِالرَّحْلِ مِنْهُ الْحَارِكُ
وَطَرِيدُ لُؤْمٍ لَا يَجِلُّ بِمَعَشِرٍ إِلَّا أَمَالَ قِفَاهُ صَفْعَ دَالِكُ
لَرَأَيْتَ لِلْعَيْنِ اللَّئِيمَةِ سَخْنَةً وَعَلَا بِصَفْعِ عَرِكِ أُذُنَكَ عَارِكُ

(1) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، ص: 300.

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 1 ص: 475.

(3) — المصدر السابق ج 3 ص: 304.

وَشَغَلَتْ عَنْ ذَمِّ الْأَنْامِ بِشَاغِلٍ وَتَنَّاكَ حَصَمٌ مِنْ أَبِيكَ مِمَّا حِكُّ⁽¹⁾
 كذلك ذكر ابن الخطيب في ترجمة ابن المرحل أنه كان مبرزاً " في القحة والمجانة...
 مرهوباً على الأعراض في شدقه شفرته وناره " ⁽²⁾ واستغل ابن رشيق هذا العيب
 أيضاً، وضمنه قصيدته، حيث قال: {الكامل}

أَحَلَّى شَمَائِلَهُ السَّبَابُ الْمُفْتَرَى وَأَعَفَّ سَيْرَتَهُ الْهَجَاءُ الْمَاعِكُ

وَأَلَدَّ شَيْءٍ عِنْدَهُ فِي مَحْفَلٍ لَمَزٌ لِأَسْتَارِ الْحَافِلِ هَاتِكُ⁽³⁾

وذكر ابن عبد الملك المراكشي في ترجمته لابن المرحل أنه " كان رأس مال المسمعين
 والمغنين.... ووسيلة المكدين.... وبطائفة البطالين " ⁽⁴⁾، وقد أشار ابن رشيق إلى هذا
 العيب في قصيدته حيث قال: {الكامل}

يَعْشَى مَحَاضِرَهُ النَّيْمُ تَفَكُّهَا وَيَعَافُ رُؤْيَتَهُ الْحَلِيمُ النَّاسِكُ⁽⁵⁾

وأشار ابن رشيق أيضاً إلى أن الناس كانوا ينصحونه بترك ما هو فيه، حيث يقول:
 {الكامل}

وَاللِّسَنُ تَنْصَحُهُ بِأَفْصَحِ مَنْطِقٍ لَوْ كَانَ يَنْجُو بِالنَّصِيحَةِ هَالِكُ

تُبُّ يَا ابْنَ تَسْعِينَ فَقَدْ جُرَّتِ الْمَدَا وَارْتَا حِ لِّلْقِيَا بَسْنِكَ مَالِكُ⁽⁶⁾

فهذه المثالب التي ذكرها المؤرخون عن ابن المرحل استغلها الشاعر ابن رشيق
 المرسي للليل منه من خلال ما جرى بينهما من نقائض، وهي تمثل حقيقة لا يمكن
 للباحث أن يتجاهلها أثناء البحث عن الأسباب التي أسهمت في عدم حصول
 هذا الشاعر على وظيفة مرموقة داخل قصر بني الأحمر .

ومهما يكن الأمر فلا أحد يمكنه أن ينكر مكانة مالك ابن المرحل كونه أحد
 أعلام الأدب الأندلسي بوجه عام أو أن يجحد ما له من مواهب علمية وأدبية فذة

(1) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، ص: 301 ، 302 .

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 305 .

(3) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، ص: 300.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 307، وهو ينقل عن ابن عبد الملك المراكشي الذي ترجم لابن المرحل في،
 السفر السابع من كتاب "الذيل والتكملة" وهو مفقود.

(5) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، ص: 300.

(6) — المصدر السابق، ص: 301 .

جعلت منه غرة في جبين زمانه .

وإذا كان لابن المرحل أشعار كثيرة في مختلف أغراض الشعر؛ فإن شعره النبوي الذي يبدو أنه حبره في آخر حياته ، أكسبه شهرة واسعة ، ونال به احترام النقاد وتقديرهم، و دفاعهم عنه أيضاً؛ يقول الأستاذ عبدالله كنون مدافعاً عن ابن المرحل أمام سهام الذم والتعريض التي رماه بها ابن رشيق المرسي " ونحن لا نفهم من هذه التهم التي كالمها ابن رشيق جزافاً لشاعرنا إلا أنه كان أديباً أريحياً خفيف الروح ،عذب المفاكهة ،لاذع النكتة ،مخشي البادرة، ورجل من هذا الطراز يتحامى جانبه أهل الانقباض والتزمت، ولا يألفه إلا الرجال الاجتماعيون الذين وطؤوا أكنافهم للناس، وعلموا أنهم من أهل الأرض فنظّموا صلاتهم مع سكانها، ولكن ابن رشيق تعامى عن ذلك، وقال: {الكامل}

يَعْشَى مَحَاضِرَهُ اللَّيْمِ تَفَكُّهًا وَيَعَافُ رُؤْيَتَهُ الْحَلِيمِ النَّاسِكِ⁽¹⁾

ومهما يكن من أمر، فلا مشاحة في أن هذه المثالب أثرت في شخصيته، وقللت من مكانته وقدره لدى بعض ملوك عصره، وبسببها " بخس وزنه، وافتحم حماه، وساءت محاسنه القالة " ⁽²⁾ على حد قول ابن الخطيب .

وقد وفرت هذه المثالب مادة غنية لخصوم ابن المرحل لينالوا منه؛ وصرح بعضهم بأن التقرب من شاعر معروف يمثل هذه المثالب يجلب العار والمسبة له ولمن يقربه؛ فابن رشيق المرسي يصرح ضمن قصيدته السابقة بأن تقرب مثل هذا الصنف من الشعراء يجلب العار والشبهة لمن يقربه ؛ بل إن ابن رشيق يدعو عليه وعلى من يقربه من الملوك بالعذاب، ويتمنى لهما سوء الخاتمة، والموت العاجل؛ حيث يقول :

عَارٌ عَلَى الْمَلِكِ الْمَنْزَهَ أَنْ يَرَى فِي مِثْلِ هَذَا لِلْمُلُوكِ مَسَالِكِ
فَكَلَامُهُ لِلدِّينِ سُمٌّ قَاتِلٌ وَدُنُوهُ لِلْعَرَضِ دَاءٌ نَاهِكِ
فَعَلِيهِ ثُمَّ عَلَى الَّذِي يَصْغِي لَهُ وَيَلْ يُعَاجِلُهُ وَحَتْفٌ وَاشِكِ

(1) — عبدالله كنون ، ذكريات مشاهير المغرب ،مالك ابن المرحل ج 8 ،ص: 42 .

(2) — ابن الخطيب ،الإحاطة ج 3ص:305.

وَأَتَاهُ مِنْ مَثْوَاهُ آتٍ مَجْهَرٍ
لِدَمِ الْخَنَاجِرِ بِالْخَنَاجِرِ سَافِكٍ⁽¹⁾

ومن المصادفة الطريفة — بالرغم من الخصومة الشديدة بين هذين الشاعرين — أن يجمع القدر هذين الشاعرين في خدمة بلاط واحد؛ هو البلاط المريني؛ يقول ابن الخطيب متحدثاً عن هذه المصادفة، وما جلبته من ويلات على ابن رشيق المرسي " واستدعاه (يعني ابن رشيق المرسي) بأخرة أمير المغرب السلطان أبو يعقوب، فاستكتبه، واستكتب أبا الحكم صُدْفَةً، فيقال إنه جرّ عليه خجلةً كانت سبب وفاة أبي علي " (2)

ولم يذكر ابن الخطيب العمل الذي قام به ابن المرحل أو الكلام الذي قاله وخجل منه ابن رشيق وكان سببا في وفاته ! فهل يكون ابن المرحل أثار حفيظة السلطان المريني وخجلة ابن رشيق بالأبيات السابقة التي تمنى فيها ابن رشيق الموت العاجل وسوء المنقلب لابن المرحل ولم يخدمه، وذكر فيها أن قربه من الملوك عار؟

وإذا كان ابن المرحل لم ينل الخطوة المرجوة داخل بلاط بني الأحمر؛ فإن هناك شاعراً غرناطياً آخر احتلّ مكانة كبيرة في البلاط النصري، وتقلّد عدة وظائف في قصر الحمراء؛ إنه أبو عبدالله بن الحكيم وهو محور الحديث في السطور التالية.

(1) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره، ص: 302 .

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة ج I، ص: 475.

• ومن شعراء القرن السابع الهجري : أبو عبد الله بن الحكيم " الكاتب الأديب البليغ الشهير الذكر بالأندلس (660 / 708 هـ)⁽¹⁾.

اسمه ونسبه :

محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن محمد [بن سعد بن محمد] بن فتوح بن محمد بن أيوب بن محمد بن الحكيم اللخمي ذو الوزارتين ، يكنى أبا عبد الله⁽²⁾ كان "مولده ببلدة رندة سنة 660 هـ"⁽³⁾

ويرجع نسب هذا الشاعر إلى قبيلة (لخم) ، وأصل أسرته من مدينة إشبيلية، ثم انتقل سلفه إلى مدينة رندة في دولة بني عباد الذين يلتقون معهم في الانتساب إلى (اللخميين) .

وأما لقب الحكيم ؛ فقد اشتهر به يحيى جد والده ؛ وذلك لطبّه⁽⁴⁾ ، وأما لقب ذو الوزارتين ؛ فقد أطلقه عليه السلطان النصرى الثالث محمد ابن الأحمر الملقب بالملخوع ؛ وذلك بعد أن قلده الوزارة والكتابة ، وكان معه في الوزارة أبو سلطان عبد العزيز بن سلطان الداني، فلما توفي هذا الأخير أفرد السلطان المذكور ابن الحكيم بالوزارة ، ولقبه ذا الوزارتين، وصار صاحب أمره ونهيه .

علمه وأدبه :

كان لهذا الشاعر الوزير " عناية بالرواية وولوع بالأدب ، وصبابة باقتناء الكتب ، وقد جمع من أمهاتها العتيقة ، وأصولها الرائقة الأنيقة ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه ، ولا ظفرت به يده "⁽⁵⁾ ، ولم تشغله وظيفته "عن المطالعة والسماع والإفراط في اقتناء الكتب"⁽⁶⁾

وكان هذا الرجل ممن شغف بحب العلم فقد " رحل إلى الحجاز الشريف من

(1) — المقرئ ، أزهار الرياض ج 2 ص 342 .

(2) — ابن الخطيب الإحاطة ج 2 ص: 444. ، و المقرئ ، أزهار الرياض ج 2 ص: 342 . وكذلك ابن القاضي ، درة المجال ص: 184 ترجمة: 531 وفيه "سعيد" بدل "سعد" ، وما بين المعكوفتين غير وارد في الإحاطة .

(3) — المقرئ ، أزهار الرياض ج 2 ص: 342 ، 343 .

(4) — ابن الخطيب الإحاطة ج 2 ص: 444 .

(5) — المقرئ ، أزهار الرياض ج 2 ص: 342 ، 343 .

(6) — ابن الخطيب الإحاطة ج 2 ص: 444 .

بلده. " (1) ؛ وذلك لقضاء " فريضة الحج ، وأخذ عمن لقي هنالك من الشيوخ ، فمشيخته مشيخة وافرة ، وكان رفيقه في وجهته أبو عبد الله بن رشيد " (2) السبتي ، وكان ذلك سنة 683هـ (3) ، وقد ذكر ابن الخطيب أنه كان " خطيباً فصيح القلم ... ريان من الأدب ، مضطرباً بالرواية ، مستكثرّاً من الفائدة ، يقوم على المسائل الفقهية ، ويتقدم الناس في باب التحسين والتبسيط ، ورفع راية الحديث والتحديث ، نفق بضاعة الطلب ، وأحيا معالم الأدب ، وأكرم العلم والعلماء .. " (4) وكانت وفاته " بحضرة غرناطة قتيلا ، غدوة يوم الفطر مستهل شوال سنة 708 هـ ، وذلك لتاريخ خلع سلطانه ، وخلافة أمير المؤمنين أخيه أبي الجيوش مكانه " (5)

شعره :

ذكر ابن الخطيب أن أبا عبد الله بن الحكيم كان " كاتباً بليغاً أديباً شاعراً " (6) بيد أنه لم يكن شاعراً مكثراً ؛ وذلك بالرغم من أنه " كان من أعلم الناس بنقده ، وأشدهم تيقظاً لمواقعه الحسنة وأضدادها " (7) ، ووصف ابن الخطيب نتاجه الشعري بالقلة وعدم الجودة إذ قال : " بضاعته في الشعر مزجاة " (8) ومعنى المُرَجَى " الشيء القليل " (9) ، وفي التزليل العزيز : { وجئنا ببضاعة مزجاة } (10) ؛ أي أنها " رديئة أو قليلة ترد رغبة عنها من أزعجها ؛ أي دفعه " (11) ، ومما وصلنا من شعره قصيدته التي مدح فيها السلطان محمد الفقيه ثاني ملوك بني الأحمر ، وقال في مطلعها : { الرمل }

-
- (1) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج 8 ص : 18 .
 - (2) — ابن القاضي ، درة الحجال ص : 184 ، 185 .
 - (3) — ابن الخطيب الإحاطة ج 2 ص : 446 .
 - (4) — المصدر السابق ج 2 ص : 446 .
 - (5) — ابن القاضي ، درة الحجال ص : 185 .
 - (6) — ابن الخطيب الإحاطة ج 2 ص : 445 .
 - (7) — المصدر السابق ج 2 : 457 .
 - (8) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .
 - (9) — المعجم الوسيط ج 1 ، ص : 390 .
 - (10) — سورة يوسف ، الآية : 88 .
 - (11) — محمد فريد وجدي ، المصحف المفسر ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، 1988 ، ص : 316 .

هَلْ إِلَى رَدِّ عَشِيَّاتِ الْوِصَالِ سَبَبٌ أَمْ ذَاكَ مِنْ ضَرْبِ الْمَحَالِ⁽¹⁾

وهي " قصيدة طويلة من أوليات شعره " (2) ، وقد مر الحديث عنها في المبحث السابق (3) .

ومن شعره أيضا قوله في غرض كلفه السلطان بالقول فيه : { الوافر }

أَلَا وَاصِلٌ مُوَاصَلَةَ الْعَقَارِ وَدَعَّ عَنْكَ التَّحَلُّقَ بِالْوَقَارِ⁽⁴⁾

ومن شعره في الوصايا قوله : { البسيط }

إِنِّي لِأَعْسِرُ أَحْيَانًا فَيَلْحَقْنِي يُسِرُّ مِنَ اللَّهِ أَنْ الْعُسْرَ قَدْ زَالَا

يَقُولُ خَيْرُ الْوَرَى فِي سُنَّةٍ ثَبَّتَتْ أَنْفِقْ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالَا⁽⁵⁾

وقد علق ابن الخطيب على هذين البيتين بقوله : " وهو من أحسن ما قاله رحمه الله " (6)

ومن شعره في وصف البعد والفراق قوله : { الطويل }

فَقَدْتُ حَيَاتِي بِالْفِرَاقِ وَمَنْ غَدَا بِحَالِ نَوَى عَمَّنْ يُحِبُّ فَقَدْ فَقَدَا

وَمَنْ أَحْلَى بُعْدِي مِنْ دِيَارِ أَلْفَتْهَا حَجِيمٌ فُوَادِي قَدْ تَلَطَّى وَقَدْ وَقَدَا⁽⁷⁾

ومن بديع نظم ذي الوزارتين ابن الحكيم قوله : { الكامل }

يَالَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَطُولُ حَيَاتِي حَتَّى أَرَى هَذَا الزَّمَانَ الْآتِي؟

يَارِبِ إِنَّ قَدَّرْتَ لِي بِلُغُوغِهِ فَاجْعَلْهُ عَصْرًا بِالسَّرُورِ مَوَاتِي

وَإِنْ انْقَضَتْ أَيَّامُ عُمْرِي قَبْلَهُ فَاجْعَلْ عَلَيَّ مَا تَرْضِيهِ مِمَّاتِي

لَأَشِيءَ لِلدُّنْيَا وَلِلْآخِرَى مَعَا أَرْجُو إِذَا ضَاقَتْ عَلَيَّ جِهَاتِي

إِلَّا يَقِينِي أَنَّ جُودَكَ فَوْقَ مَا يُرْجَى وَأَنَّكَ غَافِرُ الزَّلَّاتِ⁽⁸⁾

وله أشعار في الشوق والحنين ، من ذلك قوله في الحنين إلى أيام الشباب والاعتبار بالشيب

الذي أخذ يذب على مفرق رأسه : { الطويل }

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ حَلَّ بِمَفْرِقِي نَذِيرًا بِتَرْحَالِ الشَّبَابِ الْمَفَارِقِ

(1) — ابن الخطيب الإحاطة ج 2 ص: 458 .

(2) — المصدر السابق والموضع نفسه .

(3) — ينظر: ص : 72 من هذه الدراسة .

(4) — ابن الخطيب الإحاطة ج 2 ص: 462 .

(5) — المصدر السابق ، ج 2 ، ص: 463 .

(6) — المصدر نفسه، والموضع نفسه .

(7) — المقرئ ، أزهار الرياض ج 2 ص: 364 .

(8) — المصدر السابق ، ج 2 ص: 346 .

رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ لَهَا انْظُرِي إِلَى مَا أَرَى هَذَا ابْتِدَاءُ الْحَقَائِقِ⁽¹⁾

ومن شعره في الشوق والحنين قصيدته التي قال في أولها: {الكامل}

ذَكَرَ اللَّوَى شَوْقًا إِلَى أَقْمَارِهِ فَقَضَى أَسَىً أَوْ كَادَ مِنْ تَذْكَارِهِ

وَعَلَا زَفِيرُ حَرِيْقِ نَارِ ضُلُوعِهِ فَرَمَى عَلَى وَجَنَاتِهِ بَشْرَارَهُ⁽²⁾

ولم يصل إلينا من شعر أبي عبد الله بن الحكيم سوى التثر القليل، قياساً بما وصل من نثره الذي تجسّد في العديد من الرسائل الرسمية وغير الرسمية، ومن المرجح أن يكون السبب في قلة ما وصل إلينا من شعره أنه كان من الشعراء المقلين فقد ذكر ابن الخطيب أن بضاعته في الشعر مزجاة أي قليلة، ويبدو لي أن هناك سبباً آخر أسهم في ضياع نتاجه الشعري، ويمكن أن استنتج هذا السبب مما ذكره ابن الخطيب في أثناء الترجمة له، حيث ذكر أنه توفي مقتولاً، وأن يد الغوغاء استولت على منازلهم " فضاع بها مال لا يكتب، وعروض لا يعلم لها قيمة من الكتب والذخيرة والآنية والسلاح والمتاع... " ⁽³⁾، ويفهم من هذا الكلام أن لابن الحكيم شعراً لم يصلنا .

(1) — المقرئ، أزهار الرياض، ج2 ص: 345 .

(2) — المقرئ، نفح الطيب ج8، ص: 20 .

(3) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

● ومن شعراء القرن السابع الهجري على عهد بني الأحمر أبو القاسم بن
 خلصون (كان حياً سنة 671 هـ) :
 اسمه وحاله:

هو محمد بن يوسف يكنى أبا القاسم، ويعرف بابن خلصون، وهو "روطي
 الأصل"⁽¹⁾ قد "سكن لوشة وغرناطة ومالقة"⁽²⁾
 انفرد ابن الخطيب بالترجمة لهذا الشاعر، وقال عنه: "كان من جلة المشيخة
 وأعلام الحكمة، فاضلاً منقطع القرين في المعرفة بالعلوم العقلية، متبحراً في
 الإلهيات، إماماً في طريقة الصوفية من أهل المقامات والأحوال...، قائماً على
 القرآن، فقيهاً أصولياً عظيماً، تتخلق، جميل العشرة"⁽³⁾.
 لم يخبرنا ابن الخطيب عن سبب انتقاله من بلدته روطة، واكتفى بإخبارنا أنه
 انتقل من حصن روطة إلى الخطابة والإمامة بلوشة"⁽⁴⁾.
 ويذكر ابن الخطيب أن هذا الرجل ابتلي بالحساد والحاقدين؛ ذلك حيث يقول
 "تمالأت عليه طائفة ممن شأنها الغض من مثله"⁽⁵⁾
 وكان هؤلاء الحساد السبب في خروجه من مدينة لوشة؛ فقد نقل ابن
 الخطيب عن والده الذي كان من أصحاب والد ابن خلصون خبراً مفاده أن

(1) — روطي نسبة إلى روطة وهي بلدة صغيرة تقع على المحيط قرب ثغر شلوفة شمال مدينة شريش، بها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة في كل سنة وهي غير روطة القريبة من سرقسطة. ينظر: ابن الخطيب الإحاطة، ج 3 ص: 256. وكذلك: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد زينهم محمد عزب القاهرة، دار الفرجاني، (د.ت) ص: 257. ويذكر الحميري صاحب الروض المعطار أن "بين المغرب والقبلة من شريش حصن روطة على شاطئ البحر، بينهما ستة أميال، وهو موضع رباط ومقر للصالحين مقصود من الأقطار، وروطة هذه بئر خصت بماء لا يعلم مثله في بقعة، وهي بئر أولية قديمة البنية، يتزل المرء يستقي الماء بيده حيث انتهى من البئر، فكلما كثر البشر بحصن روطة واجتمعت إليه المرابطة طما الماء في البئر وزاد حتى يستقى من رأس البئر باليد دون معاناة ولا مشقة، فإذا قل الناس بها وتفرقوا نضب الماء حتى يكون بآخر درك. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص: 102.

(2) — ابن الخطيب الإحاطة، ج 3 ص: 256.

(3) — المصدر السابق ج 3 ص: 256، 257.

(4) — المصدر نفسه ج 3 ص: 257.

(5) — المصدر نفسه، والموضع نفسه.

طائفة من أصدقاءه والحاقدين عليه روجوا في الناس أقوالاً مؤداها أن نزول المطر رهين بإخراج ابن خلصون من المدينة، وكان الناس يعانون شدة قحط، فخرج من البلدة، وما كاد يبتعد عنها بيضعة أميال حتى نزل الغيث " فسجد بموضعه وتوجه إلى الله قائلاً: سيدي أو أساوي عندك هذا المقدار؟، ولهج بالشكر والحمد. (1)

وبالرغم من جلالته هذا الرجل الذي كان " كثير الدؤوب على النظر والخلوة مقصوداً من منتحلي ما لديه ضرورة " (2) إلا أنه لم يلق في غرناطة عاصمة بني الأحمر من يقدره حق قدره، ويمكن أن نتعرف على السبب في ذلك من خلال الحكاية التي أوردها ابن الخطيب خلال التعريف به؛ حيث ذكر أن ابن خلصون قدم غرناطة، وبها الأستاذ أبو عبد الله محمد الرقوطي، وكان لهذا الأخير استيلاء على الحظوة السلطانية فقد كان من شأنه اختبار من يرد على الحضرة ممن يحمل فناً، وكان للسلطان النصري (محمد الفقيه) على بن خلصون موجدة؛ لمدحه في حديثه أحد الثوار عليه بمدينة قمارش بقصيدة شهيرة، فلما حضر سألته الأستاذ ما صناعتك؟ فقال: التصوف فالتفت إلى السلطان وقال: هذا رجل ضعيف لا شيء لديه بحيث لا يفرق بين الصناعة وغيرها (3)

ويدل هذا الجواب على أن ابن خلصون كان زاهداً في الاقتراب من ذوي السلطة وأصحاب الشأن، وإلا فكيف يمكننا أن نفسر هذا الجواب من عالم مثل ابن خلصون.

ومهما يكن الأمر فقد استقر ابن خلصون في نهاية المطاف بمدينة مالقة "فتحرف بها بصناعة الطب إلى حين وفاته" (4) ولم يخرنا ابن الخطيب بتاريخ الوفاة بيد أني عرفت أنه عاصر الملك النصري محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه المتوفى سنة 701 هـ فهل يكون ابن خلصون قد توفي قبل هذا التاريخ أم بعده؟

(1) — ينظر: ابن الخطيب الإحاطة، ج 3 ص: 257 .

(2) — المصدر السابق، والموضع نفسه .

(3) — ينظر: المصدر نفسه، والموضع نفسه .

(4) — المصدر نفسه، والموضع نفسه .

في حقيقة الأمر لا أملك معلومات دقيقة عن تاريخ وفاة ابن خلدون، أو السنة التي ولد فيها، ولكنني أرجح أنه كان كبيراً في السنّ على عهد السلطان محمد الفقيه، ويستنبط هذا الترجيح من الجملة التي ذكرها ابن الخطيب حين أشار إلى علاقة ابن خلدون بالسلطان محمد الفقيه حيث قال " وكان للسلطان النصري (يعني محمداً الفقيه) عليه موجدة؛ لمدحه في حدائته أحد الثوار عليه بمدينة قمارش بقصيدة شهيرة " (1) فعبارة " حدائته " توحى بأن ابن خلدون كان خلال إقامته في غرناطة كبيراً في السن، ويدل على هذا أيضاً الجواب الذي أدلى به محمد الرقوطي حين سأله عن صناعته، فأخبره بأنهما " التصوف " (2) فلا بد أن اعتناقه للتصوف حدث في سن متأخرة .

مؤلفاته :

لقد ترك الشاعر ابن خلدون العديد من المؤلفات التي وصفها ابن الخطيب بأنها " تدل على جلالته وأصالته معرفته، تنطق علماً وحكمة، وتروق أدباً وظرفاً " (3) ومن هذه المؤلفات:

- كتاب (الحبة) الذي وقف عليه ابن الخطيب بخط جده سعيد (4)، وقد كتب في هذا الموضوع غرناطيان آخران هما أبو إسحاق ابن عبيدس وابن الخطيب (5).
- (وصف السلوك إلى ملك الملوك) .
- (رسالة الفتق والرتق في أسرار حكمة الشرق) (6) .

هذا ولابن خلدون كتاب نفيس في الطب هو كتاب: (الأغذية وحفظ الصحة)، وقد قام الدكتور محمد العربي الخطابي بنشر عدد من فصول هذا الكتاب القيم، وأشاد بقيمته العلمية، وذكر أن منه نسختين مخطوطتين في الخزانة

(1) — ابن الخطيب الإحاطة، ج 3 ص: 257 . المصدر نفسه، والموضع نفسه .

(2) — المصدر السابق، والموضع نفسه .

(3) — المصدر نفسه ج 3 ص: 258 .

(4) — المصدر نفسه، والموضع نفسه .

(5) — لابن عبيدس كتاب سمّاه: (نزهة الألباب في صفات الأحباب)، ولابن الخطيب كتاب سمّاه: (روضة التعريف بالحلب الشريف)

(6) — المصدر نفسه، والموضع نفسه .

الحسنية بالقصر الملكي بالرباط⁽¹⁾.

أدبه :

لقد كان ابن خلدون كما يقول ابن الخطيب " كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً
كثير الحلاوة والطلاوة... " ⁽²⁾.

ولم يصلنا من نثر هذا العالم الشاعر الطبيب المتصوف سوى جزء من رسالة
كان موضوعها حول مؤلفات أبي حامد الغزالي وآراء بعض الفلاسفة والفقهاء
فيها وقد علق ابن الخطيب في ختام هذه الرسالة بقوله : " وهذه الرسالة طويلة
تكلم فيها (يعني ابن خلدون) على كتب أبي حامد الغزالي بما يدل على تفننه
وعلى اضطلاعاه... " ⁽³⁾

شعره:

أورد له ابن الخطيب في الإحاطة مختارات من شعره جلتها في المحبة الصوفية
، من هذه المختارات قوله : { الطويل }

وَللنجمِ فَنَدِيلٌ يُضِيءُ لِمَنْ سَرَى	رَكِبْنَا مَطَايَا شَوْقِنَا نَبْتَعِي السرى
وَأَجْفَانُنَا بِالسُّهْدِ لَمْ تَطْعَمِ الكَرَى	وَعَيْنُ الدُّجَا قَدْ نَامَ لَمْ يَدْرِ مَا بِنَا
وَلَا حَ عَمُودُ الفَجْرِ غُصْنًا مُنَوَّرَا	إِلَى أَنْ رَأَيْنَا اللّيلَ شَابَ قَدَالَهُ
فَسِرْنَا لَهَا نَبْغِي الكَرَامَةَ والقِرَا ⁽⁴⁾	لَمَحْنَا بِرَأْسِ البُعْدِ نَارًا مُنِيرَةً

ومنها قوله : { البسيط }

فِيكَ العِيَانُ وَنَبْغِي بَعْدَ آثَارَا	يَا نَائِمًا يَطْلُبُ الأَسْرَارَ إِسْرَارًا
وَالفَلْكَ وَالفَلْكَ العُلُوي قَدْ دَارَا ⁽⁵⁾	أَرْجِعْ إِلَيْكَ فَفِيكَ المَلِكُ مَجْتَمَعٌ

ومنها : { الطويل }

وَقَارِعَ بَابِ العِلْمِ مِنْ عَالِمِ الأَمْرِ	أَطَالِبَ مَا فِي الرُّوحِ مِنْ غَامِضِ السِّرِّ
--	--

(1) — ينظر: محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة وتراجم ونصوص، ج2، ص:7.

(2) — ابن الخطيب الإحاطة، ج 3 ص: 257.

(3) — المصدر السابق، ج 3، ص: 267.

(4) — المصدر نفسه ج 3 ص: 260.

(5) — المصدر نفسه، ج 3 ص: 261.

عَرَضْتُ لِعِلْمِ أَبْهَمِ الشَّرْعِ بَابَهُ
وَلَكِنْ خَبيراً قَدْ سَأَلْتُ مُحَقِّقاً
ومنها قوله: {الطويل}

مُشَاهِدَتِي مَعْنَاكَ يَا غَايَتِي وَقْتُ
مَقَامِي بَقَائِي عَاكِفَاً بِجَمَالِكُمْ
لَيْنُ حَالَتِ الْأَحْوَالُ دُونَ لِقَائِكُمْ
وَإِنْ كَانَ غَيْرِي فِي الْهُوَى خَانَ
فَمَا أَشْتَكِي بَعْدَ وَحْبِكَ لِي نَعْتُ
فَكُلُّ مَقَامٍ فِي الْحَقِيقَةِ لِي نَحْتُ
فَإِنِّي عَلَى حُكْمِ الْمَحَبَّةِ مَا حُلْتُ
عَهْدُهُ فَإِنِّي وَأَيْمُ اللَّهِ عَهْدِي مَا خِنْتُ (2)

ومن مختارات شعره: {الكامل}

أَعِدِ الْحَدِيثَ إِذَا وَصَفْتَ جَمَالَهُ
يَا وَاصِفَ الْمَحْبُوبِ كَرَّرَ ذِكْرَهُ
فَبِهِ تَهَيَّجُ لِلْمُحِبِّ خِيَالَهُ
وَأَدِرْ عَلَيَّ عُشَّاقِهِ جَرِيَالَهُ (3)

وتدل أشعاره الصوفية التي وصلتنا على أن مترعه الصوفي يعتمد على القرآن
والحديث والمأثور من كلام السلف الصالح .

ومن أشعاره في الغزل، وهي كما يقول ابن الخطيب: "من لطيف كلامه

ورقيق شعره" (4) {الرملي}

لَوْ خِيَالٌ مِنْ حَبِيبِي طَرْقَا
وَنَسِيمُ الرِّيحِ مِنْهُ لَوْ سَرَى
وَمَتَى هَبَّتْ عَلِيلَاتُ الصَّبَا
عَجَباً يَشْكُو فُؤَادِي فِي الْهُوَى
لَمْ يَدَعْ دَمْعِي بِخَدِّي طَرْقَا
بِشَدَاهُ لِأَزَالِ الْحَرْقَا
صَحَّ جِسْمِي فَهِيَ لِي نَفْثُ رُقَا
لَهَبَ النَّارِ وَجَفَنِي الْفَرْقَا
لَمْ يَدَعْ لِي رَمَقاً مُذْ رَمَقَا
غُصْنُ بَانٍ تَحْتَهُ دِعْصُ نَقَا
رَقَّ قَلْبِي فِي هَوَاهُ وَرَقَا
وَكَسَى الْبَدْرُ سَنَاهُ وَرَقَا
يَا أَهْيَلِ الْحَيِّ لِي فِيكُمْ رَشَا
بَدْرٌ تَمَّ طَالِعُ أَثْمَرَهُ
رَاقَ حُسْنًا وَجَمَالًا مِثْلَمَا
أَنْسَى الشَّمْسُ ضِيَاهُ ذَهَباً

(1) — المصدر نفسه، ج 3 ص: 262 .

(2) — ابن الخطيب الإحاطة ج 3 ص: 262 .

(3) — المصدر السابق، ج 3، ص: 258 .

(4) — المصدر نفسه ج 3 ص: 260 .

حُلِّلَ الحُسْنِ عَلَيْهِ خُلِعَتْ فَارْتَدَّاهَا وَلَهَا قَدْ خُلِقَا⁽¹⁾

من المؤسف حقاً أن معظم شعره لم يصل إلينا، فقد كان له شعر في المدح؛ إذ ذكر ابن الخطيب أن له قصيدة في مدح أحد الثوار بقمارش، واكتفى بوصفها بأنها "شهيرة" دون أن يذكر منها شيئاً، ويبدو أنها ضاعت فيما ضاع من نتاجه الأدبي.

• القاضي أبو بكر عتيق بن أحمد بن محمد بن يحيى الغساني الغرناطي المعروف بابن الفراء (635 / 696 هـ)⁽²⁾

ينسب هذا الشاعر إلى مدينة وادي آش " ويعرف عقبه ببني الوادي آشي .. " ⁽³⁾ وهناك عدد من الأعلام الذين يعرفون بالوادآشي منهم عبد البر بن فرسان الوادآشي وزير علي بن غانية الميورقي ومنهم أبو عبد الله محمد بن جابر بن قاسم القيسي ويعرف بصاحب الرحلتين، وله برنامج .

مكانته العلمية :

كان لابن الفراء معرفة باللغة والتاريخ والطب والعلاج فكان كما يقول عبد الملك المراكشي " جامعاً لفنون من المعارف ، معروف النبل في كل ما يتناول من الأمور العلمية وقيد كثيراً ، وعني بالعلم العناية التامة " ⁽⁴⁾ وكان له معرفة بالفقه والتفسير ، وله مجلس " بالجامع الأعظم من حضرة غرناطة يفسر فيه القرآن العظيم، ويتكلم عن الموطأ... " ⁽⁵⁾

مما يدل على المكانة العلمية التي وصلها توليه خطة القضاء في العديد من المدن الغرناطي ، كالمنكب ، وشلوبانية ، وبرجة ، وألمرية فضلاً عن غرناطة ، وقد كانت خطة القضاء — كما يقو البناهي — "من أسنى الخطط" ⁽⁶⁾ ، وذكر ابن

(1) — المصدر نفسه، والموضع نفسه .
(2) — ابن القاضي ، درة الحجال ، ص : 372 ، ترجمة رقم: 1159 . وفي الإحاطة ج 4 ص : 80 " كان حيا سنة خمس وثمانين وستمائة".
(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ج 4 ص : 80 .
(4) — ابن عبد الملك المراكشي ، الذيل والتكملة ، تح: إحسان عباس ، ق 5 ، ج 1 ، ترجمة : 226 ، ص : 117 .
(5) — ابن القاضي ، درة الحجال ، ص : 372 ، ترجمة رقم: 1159 .
(6) — أبو الحسن البناهي ، المرقبة العليا في القضاء والفتيا ، تحقيق: ليفي بروفنسال ، بيروت ، المكتب التجاري ، (د.ت) ص : 2،3.

الخطيب أنه " عرف في ذلك بالعدالة والتزاهة " (1)، وعده من القضاة الأصليين على عهد محمد ابن الأحمر الغالب بالله، و ابنه محمد الفقيه .

آثاره : من مؤلفاته :

- (نظم الحلبي في شرح أرجوزة أبي علي) وهي أرجوزة ابن سينا في الطب والعلاج؛ قال ابن القاضي : " ولعله لم يكمله ، ولقد أجاد فيما قيد منها " (2)
- قلت: وتعليق ابن القاضي على هذا الكتاب يدل على أنه اطلع عليه وقرأه.
- (نزهة الأبصار في فضائل الأنصار) وهو الكتاب الوحيد فيما أعلم الذي وصلنا، وهو كتاب محقق ومطبوع .
- وله جزء في فضائل سور القرآن (3).
- وله كتاب سماه (ناظر العين في مختصر البرهان لإمام الحرمين) (4).
- (إنفاق المقتّر وتلفيق المقصر) (5).

شعره :

من المؤسف حقاً أنه لم يصلنا إلينا من شعر ابن الفراء سوى التثر القليل؛ من ذلك قوله في وداع ولده : {مخلع البسيط}

يَا مَنْ يَرُومُ الرَّحِيلَ عَنِّي أَسْعَدَكَ اللَّهُ فِي ارْتِحَالِكُ
كَانَ لَكَ اللَّهُ خَيْرَ وَاقٍ سَلَّمَكَ اللَّهُ فِي الْمَسَالِكِ (6)

من شعره أيضاً الذي وصلنا قصيدته في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، التي قال في مطلعها : {الكامل}

يَا رَاكِبًا يَبْغِي الْجَنَابَ الْأَشْرَفَا وَمُنَاهُ أَنْ يَلْقَى الْكَرِيمَ الْمُسْعِفَا (7)

هذا كل ما وصلنا من شعر ابن الفراء ولاشك في أن له أشعاراً ضاعت ولم

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 4 ص: 81 .

(2) — ابن القاضي، درة المجال ، ص: 372، ترجمة رقم: 1159.

(3) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(4) — المصدر نفسه، والموضع نفسه.

(5) — أبو بكر عتيق ابن الفراء ، نزهة الأبصار في فضائل الأنصار ، ص: 48.

(6) — ابن القاضي ، جدوة الاقتباس ، ق 1 ص: 191 ، 192 .

(7) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 4 ص: 81 .

تصل إلينا، ويبقى كتابه: (نزهة الأبصار في فضائل الأنصار) خير دليل للبرهنة على جلالته تكوينه العلمي ومقدرته على التصنيف والتحليل وهو يشهد على باعه الواسع في مجال التاريخ عامة وفي موضوع مناقب الأنصار خاصة⁽¹⁾

يمكن القول إن هؤلاء الشعراء كانوا من أبرز الذين اتصلوا ببني الأحمري في القرن السابع الهجري، وهم لا يمثلون كل الشعراء الغرناطيين الذين أثروا الشعر في هذه الحقبة، لأن هناك شعراء غرناطيين آخرين أسهموا في إثراء الشعر الغرناطي بيد أن المجال لا يتسع لذكرهم جميعاً، وسأكتفي بالإشارة إليهم من خلال الإشارة إلى مواضع تراجمهم في المصادر والمراجع. وسأنتقل الآن إلى الحديث عن أبرز أغراض الشعر الغرناطي في هذه الحقبة.

(1) — ينظر: أبو بكر عتيق ابن الفراء، نزهة الأبصار في فضائل الأنصار، ص: 47 .

الفصل الثاني

أغراض الشعر الغرناطي

المبحث الأول : المدح

المبحث الثاني : الغزل

المبحث الثالث : الرثاء

المبحث الرابع : الحنين

المبحث الخامس : الوصف

المبحث الأول: المدح
أولاً: المدح السياسي
ثانياً: المدح النبوي

الفصل الثاني

أغراض الشعر الغرناطي

المبحث الأول: المدح أولاً: المدح السياسي

لقصيدة المدح في الشعر العربي مكانة اجتماعية كبرى ظلت تحتفظ بها على مر العصور إلى عصرنا الحاضر؛ وذلك لأنها تحمل في طياتها كنوزاً نفيسة عن مثل أسلافنا في التربية الخلقية و النفسية و الاجتماعية، و ما ينبغي أن يتصف به الحاكم من حصال وقيم، و يبدو أن الشاعر العربي كان يدرك الدور الذي يمكن أن تؤديه قصيدة المدح في التأثير على المحيط الاجتماعي و التربوي و النفسي و السياسي للمجتمع، فقد قال الشاعر العباسي أبو تمام:

لولا خلال سنّها الشعرُ ما درى بناءُ العُلا من أين تُؤتَى المكارم⁽¹⁾

وقد حافظ فن المدح على مكانته البارزة بين أغراض الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري، وكان له دور مهم في مساندة دولة بني الأحمر الناشئة، والشّد من أزرها في ظل الأخطار السياسية التي كانت تحيط بها سواء من الداخل أو من الخارج، و يمكن أن نتعرف على هذا الدور من خلال الوقوف على أبرز المعاني التي ركز عليها الشعراء الغرناطيون في قصيدة المدح في هذه الحقبة من عمر الدولة الغرناطية .

المعاني و الموضوعات التي تناوّلها الشعراء في المدح السياسي:

أ_ المعاني النفسية :

لم يغفل النقاد القدامى عن أهمية المعاني التي تطرحها قصائد المديح ودورها المؤثر في المجتمع؛ لذا سارعوا إلى وضع الأصول النظرية التي يجب على الشاعر أن يراعيها في مدحه، بيد أنهم اختلفوا حول أولوية المعاني التي يجب أن يشاد بها لدى الممدوح ، فرأى بعض النقاد، ومنهم قدامة بن جعفر ضرورة الاقتصار على الإشادة بالصفات المعنوية وإبرازها ، بينما ذهب آخرون، كابن رشيق القيرواني إلى ضرورة الإشادة بالصفات الجسمية أيضا حيث قال: " وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية التي ذكرها قدامة، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية : كالجمال والأهمة ، وبسطة الخلق ، وسعة الدنيا،

(1) - أبو تمام - ديوانه ضبط و شرح إيليا حاوي ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني، 1981، ص : 270.

وكثر العشييرة؛ كان ذلك جيداً، إلا أن قدامة قد أبي منه، وأنكره جملة، وليس ذلك صواباً، وإنما الواجب عليه أن يقول: إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح، فأما إنكار ما سواها كرة واحدة فما أظن أحداً يساعده فيه ولا يوافقه عليه " (1).

والدارس لقصيدة المدح الغرناطي يجد أنها جاءت متكئة على الصفات النفسية أكثر من غيرها، ومن بين الصفات التي احتلت مكانة واضحة في قصائد المدح الغرناطي: الشجاعة، والكرم، وهما من أفضل الصفات التي يمدح بهما القائد يقول ابن رشيق القيرواني: "وأفضل ما مدح به القائد: الجود والشجاعة، وما تفرع منهما، نحو التخرق في الهيئات، والإفراط في النجدة، وسرعة البطش، وما شاكل ذلك" (2).

1 — الشجاعة: ليس غريباً أن نجد تركيزاً مكثفاً على هذه الصفة العربية الأصيلة من قبل الشعراء الغرناطيين في مدائحهم السياسية؛ فقد كانت طبيعة الظروف السياسية المحيطة بالدولة الغرناطية تتطلب هذه الصفة أكثر من أي وقت آخر؛ لاسيما في ظل الاحتياج الصليبي للمدن الأندلسية، والتهديد المستمر الذي كانت تتعرض له دولة الإسلام في غرناطة من حين لآخر، فالشجاعة من أهم الصفات التي يجب أن يتصف بها الغرناطي؛ حاكماً كان أو رجلاً عادياً من عامة الشعب.

ومما يدل على هذا التركيز شيوع العديد من الألفاظ المعبرة عن هذه الصفة في قصائد المدح الغرناطي، من مثل: البأس، والإقدام، والشهامة، يقول أبو عبد الله البرجي مشيداً ببعض هذه الصفات لدى ممدوحه محمد ابن الأحمر: {الكامل}

شَهُمٌ فَلَوْلَا بَأْسُهُ يَوْمَ الْوَعَى لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الرَّجَالَ أَسْوَدٌ (3)

وكذلك ارتبطت هذه الصفة ببعض الألفاظ المعبرة عن الواقع الحربي الذي كانت تعيشه الأندلس آنذاك، فشاع في قصائد المديح ألفاظ من مثل: الجيوش، المعارك، الأعداء، جحفل، كتيبة، نصر، راية، سبي.. يقول محمد التطيلي الهذلي (4) في مدح الأمير محمد الفقيه

(1) — ابن رشيق القيرواني — العمدة، ج2، ص: 135.

(2) — المصدر السابق ج2، ص: 135.

(3) — مؤلف مجهول: مجموع في مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 360.

(4) — أظنه هو المترجم له في المغرب ج2 ص: 450، وكذلك أبو الحسن الرعيني، برنامج شيوخ الرعيني تح: إبراهيم شيوخ، دمشق

، وزارة الثقافة، 1962، ص 202 ترجمة رقم: 107.

ثاني ملوك بني الأحمر مستخدما بعض الألفاظ المذكورة: {الكامل}
بَهَرَ الْأَنْامَ بِسَيْفِهِ وَبِأَسِيهِ فَسَبَى وَأَنْعَمَ أَيَّمَا إِنْعَامٍ

ويقول أيضا:

كَمْ مِنْ كَيْتَبَةٍ جَحْفَلٍ قَدْ هَدَّهَا فِي مَعْرَكٍ مُبَهَّنِدٍ صَمَّصَامٍ⁽¹⁾

ويشيد أبو عبد الله البرجي بمواجهات محمد ابن الأحمر الغالب بالله للأعداء واستعداده لمواجهتهم: {الكامل}

وَأَعَدَّ لِلْأَعْدَاءِ أَيْضَ صَارِمًا فَهَدَى بِحَدِّ ظُبَاهُ كُلَّ مُضَلَّلٍ⁽²⁾

ويتخذ أبو جعفر ابن شلبطور من خفق الرايات منطلقا للإشادة بشجاعة ابن الأحمر و تصوير انتصاراته الباهرة: {البيسط}

بِاللَّهِ مَا خَفَقَتْ فِي الْجَوِّ رَايَتُهُ إِلَّا بِنَصْرِ وَتَأْيِيدٍ وَتَمْكِينِ

وَلَا تَحْرَكَ فِي جَيْشٍ لَهُ لَجَبٌ إِلَّا وَعَادَ بِتَسْكِينٍ وَتَهْدِينِ⁽³⁾

وبالرغم مما ذكر حول شجاعة الأمراء النصرين خاصة عن جرأة الغالب بالله محمد ابن الأحمر الذي قال عنه معاصره المؤرخ الغرناطي ابن سعيد " هو من عجائب الدهر في الفروسية والإقدام والسعادة في لقاء العدو"⁽⁴⁾ إلا أن وصف الشعراء الغرناطيين لشجاعة سلاطين بني الأحمر لم يخل من بعض المبالغات ، من ذلك ما أجده في قول أبي عبد الله البرجي مصورا أن ابن الأحمر لا يهرب مواجهة الجيش الجرار العظيم ، و لا يخشى الموت الذي هو أقل البذل والعطاء عنده: {الكامل}

لَا يَرْهَبُ الْجَيْشَ اللَّهَامَ وَلَا يَرَى بَدَلَ اللَّهِ كَرَمًا إِذَا لَمْ يُجْزَلِ⁽⁵⁾

ومثل هذا قول الرندي مصورا أن شجاعة ابن الأحمر تفوق جرأة الأسود ، وأنه لا يقود جيشاً إلا وعاد به من أرض المعركة محتفلاً بالنصر، وأنه ليس هناك أي حق للأبطال الذين يواجهونه في ساحة الحرب ، بل إن حقهم يصبح باطلا في ساحة الحرب: {المديد}

(1) - المقرئ - نفع الطيب ج 5 ص 281 .

(2) - مؤلف مجهول :مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم :3835 د ورقة : 364.

(3) - المصدر السابق ورقة : 372.

(4) - ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب، ج2 ص : 109 .

(5) - مؤلف مجهول :مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم :3835 د ورقة : 364.

يَزْعُ الْأَسَادَ مُعْضَبَةً وَيَرُدُّ الْجَيْشَ مُحْتَفِلًا
وَيُرِيكَ الْمَوْتَ يَحْمِلُهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ إِذَا حَمَلًا
فَتَرَى الْأَبْطَالَ بَاهِتَةً حَقَّهَا فِي الْحَرْبِ قَدْ بَطَلًا⁽¹⁾

ويشيد الرندي في قصيدة أخرى بشجاعة النصرين في ساحة الحرب مصورا أن قلوبهم صارت فوق دروعهم التي يلبسونها في الحرب، وأصبحت تحميها بدلا من أن يحدث العكس، بل إن سيوفهم التي تحملها أيديهم تحولت إلى نار حارقة للمشركين أصحاب النار يوم القيامة: {الكامل}

لَيْسُوا الْقُلُوبَ عَلَى الدَّرُوعِ وَأَشْرَعُوا بِأَكْفِهِمْ نَارًا لِأَهْلِ النَّارِ⁽²⁾

2 - الكرم: هو من الصفات التي تدل على الفروسية عند العرب، وكانوا يعبرون عن انعدامها بالفحش أي البخل، وبرزت هذه الصفة في قصيدة المدح بوصفها أهم صفة ينبغي أن يتصف بها المدوح، وحاول الشعراء الربط بين كرم المدوح والماء في صوره المتعددة؛ فصوره تارة بالبحر أو بالسحاب، وصوره بالحيا أو بالندى تارة أخرى؛ مثال ذلك قول أبي جعفر ابن شلبطور مصورا كرم الأمير أبي سعيد فرج ولد الغالب بالله بأنه كالبحر الذي يرمي باللؤلؤ النفيس: {البيسط}

يَخُوضُ بَحْرَ نَدَاكَ الْعَذْبِ مُرْتَمِيًا بِلُؤْلُؤٍ مِنْ نَفِيسِ الْحَمْدِ مَكْنُونِ⁽³⁾

و يصور الرندي البحار حائرة بسبب سخاء أبي عبدالله بن الحكيم، وفي كرمه الفياض الذي فاق في الجود والكثرة البحار؛ وذلك في قوله: {السريع}

يَفِيضُ مِنْ جُودِ يَدَيْهِ عَلَى عَافِيهِ مَا مِنْهُ تَحَارُ الْبَحَارُ
الْيَمْنُ مِنْ يُمْنَاهُ حُكْمٌ جَرَى وَالْيُسْرُ مِنْ شَيْمَةِ تِلْكَ الْيَسَارِ⁽⁴⁾

ويصور أبو القاسم محمد سودة المري⁽⁵⁾ كرم الأمير محمد الفقيه بأنه يفيض من يديه

{الكامل}

(1) — مؤلف مجهول، المنظوم و المنتور— مخطوط في خزنة خاصة في المغرب، ورقة: 63.ظ.

(2) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح: محمد الخمار الكنوبي، ص117.

(3) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 373.

(4) — المقرئ، نفح الطيب، ج6 ص 236.

(5) — ترجمته في الإحاطة ج 3، ص168.

مَنْ ذَا يُسَابِقُ فَضْلَهُ لِيُجُودِهِ وَ يَلْجُ فَيُضِ الْبَحْرَ فَاضَ يَمِينِهِ (1)

ومن الشعراء من صور جود الممدوح بالمطر و البحر معاً في الكثرة ، و النفع نحو بيت
الرندي في مدح محمد الفقيه: {البيسط}

و ما أردت من إحسانٍ و من كرمٍ يُنسى به الأجدان البحرُ و المطرُ (2)

بيد أن إلحاح الشعراء الغرناطيين في الإشادة بهذه الصفة أوقعهم في تكرار بعض الصور
التقليدية التي تربط بين جود الممدوح وشجاعته ، وذلك على النحو الذي نجده في قصائد
أبي عبد الله البرجي ، كقوله في مدح الأمير أبي سعيد فرج : {السريع}

يَمَّمْ عَشِيًّا دَارَهُ لِلْغَنَى وَاخْذَرُهُ فِي الْعَارَةِ عِنْدَ الصَبَاحِ (3)

وقوله في القصيدة نفسها: {السريع}

عَيْثُ و لَيْثُ كُلَّمَا قِسْتَهُ بِمُتْنَدَى الْجُودِ وَ يَوْمِ النَّطَاحِ

يُعْنِي وَ يُعْنِي مُنْعِمًا مُقْدِمًا لَدَى غَبُوقٍ وَ كَذَاكَ اصْطِبَاحِ (4)

وكرر هذا المعنى في قصيدة أخرى مدح فيها محمد ابن الأحمر الغالب بالله ؛ حيث قال
{الكامل}:

يَمِّمُهُ فِي النَّادِي تَنْلُ مَا تَشْتَهِي وَ حَذَارٍ أَنْ تَلْقَاهُ وَسَطَ الْجَحْفَلِ (5)

وفي قوله من القصيدة نفسها مكررا هذه المعاني: {الكامل}

تَلْقَاهُ يَوْمَ الْحَرْبِ غَيْرَ مُدْرِعٍ وَ تَرَاهُ يَوْمَ السَّلْمِ غَيْرَ مُبْخَلِ (6)

فهذه الأبيات تقوم على استدعاء معاني وصور تقليدية مألوفة ومكررة في قصائد المدح
العربي، والشاعر الغرناطي في مثل هذا الموقف "لا يتجاوز غالبا وصف الممدوح بصفات
عامة مبالغ فيها يمكن أن يلبسها لمن يريد دون عناء، و ليس وراءها دافع قوي من عاطفة
أو حب أو شكر، و من ثم جاءت باردة روحا ووقعا ، لا تثير في النفس شيئا " (7) وربما

(1) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3 ، ص: 170.

(2) — المصدر السابق ، ج3 ص : 365.

(3) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ، ورقة : 353.

(4) — المصدر السابق ، ورقة : 353.

(5) — المصدر نفسه ورقة : 364.

(6) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

(7) — إميلو غارثيا غومث، الشعر الأندلسي بحثه في تطوره وخصائصه ، ترجمة، حسين مؤنس، ط2، القاهرة، دار الرشد: 1425هـ —

دفع هذا الشعراء الغرناطيين للبحث عن صور جديدة يشيدون من خلالها بكرم الممدوح؛ فالرندي نجده يصور جود محمد ابن الأحمر بأنه طائرٌ ريشُهُ الثناءُ عمَّ كل الناس في بقاع الأرض حتى صار كالمثل المشهور؛ وذلك في قوله: {البسيط}

وَمَنْ لَهُ كَرَمٌ رِيَشَ الثَّنَاءِ بِهِ فَطَارَ حَتَّى سَرَى فِي الْأَرْضِ كَالْمَثَلِ (1)

وصور أيضاً أنامله بأنها سحاب ماطر حيث قال: {البسيط}

وَلَا هَمَى جُودُهُ مِنْ سُحْبِ أَنْمِلِهِ إِلَّا وَاعْتَتْ أَيَادِيهِ عَنِ السَّبَلِ (2)

وقد نلتقي ببعض الصور الطريفة؛ وذلك حين يمدح الأمير بالجود والسخاء إذا قلنا إن في يده غماما نجسنا حق اليد وذللنا الغمام؛ يقول الرندي: {الوافر}

إِذَا مَا قِيلَ فِي يَدِهِ غَمَامٌ فَقَدْ بُخِستَ وَقَدْ خُدِعَ الْعَمَامُ (3)

ولم تكن صفتا الشجاعة والكرم الصفتين الوحيدتين اللتين أشاد بهما الشعراء الغرناطيون، فقد أشادوا بصفات أخرى؛ مثل التواضع، والفصاحة،،ولين الجانب ... إلى غيرها من الصفات التي أشاد بها الشعراء في قصائدهم المدحية، ولكن لا يتسع المجال هنا للحديث عنها كلها .

ب — المعاني الجسميَّة :

لم تحظ الصفات الجسمية بمكانة كبيرة في قصيدة المدح الغرناطي قياسا بالصفات النفسية؛ واقتصر الأمر على التغني بالوجه الوضّاء، وجمال الحيّا، و الجبين الأغر؛ وهي صفات "لا ترمي في الغالب إلى إبراز فضائل جسدية لدى الممدوح بقدر ما ترمي إليه من تأكيد خصال محمودة و فضائل ينفذ من خلالها الممدوح إلى قلوب الوري، مثل السماحة، و نقاء السريرة، والشرف، والسيادة" (4). واتكأ الشعراء الغرناطيون على الصور البيانية في إبراز هذه الصفات؛ فشبهوا الوجه بالشمس تارة، و بنور الصباح تارة أخرى، و شبهوا الغرّة بالبدر حيناً وبالشمس أو القمر أحيانا أخرى؛ ومن ذلك قول أبي عبد الله البرجي في مدح

2005 = ص: 77.

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح: محمد الحمّار القنوي ص: 70.

(2) — المصدر السابق، ص: 69.

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3 ص: 363.

(4) — أشرف محمود نجما — قصيدة المديح في الأندلس، ط1، الإسكندرية، دار الوفاء للنشر والطباعة 2003، ص: 42.

الأمير أبي سعيد مشبهاً محياه بشمس الضحى: {السريع}

وَرَأَقَنِي مِنْهُ مُحِيًّا لَهُ بِشْرٌ حَكَى شَمْسَ الضُّحَى فِي انْتِصَاحٍ (1)

وكقول الرندي مصورا غرة ممدوحه محمد ابن الأحمر بالبدر ساعة اكتماله: {المديد}

وَنَظَرْنَا حُسْنَ غُرَّتِهِ فَرَأَيْنَا الْبَدْرَ مُكْتَمِلًا (2)

وقوله أيضاً مصوراً إشراق غرة الممدوح بأنها كالقمرين الشمس والقمر: {البسيط}

وَعَرَّةٌ يَتَّالَأُ مِنْ سَمَاحَتِهَا كَأَنَّهَا الْقَمَرَانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (3)

و كذلك قوله في مدح الرئيس أبي الحسن علي بن نصر: {الكامل}

و تَوَارَتْ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ حَجَلَةً مِنْ غُرَّةٍ مَيْمُونَةٍ هِيَ أَنْوَرُ (4)

و يبدو أن عدم اتكاء الشعراء الغرناطيين على الصفات الجسمية في قصائد المديح راجع إلى قضية البقاء والزوال، حيث أدركوا أن القيم التي ينبغي أن يعول عليها في المفاضلة بين الممدوحين؛ إنما هي القيم المعنوية التي تتحول سريعاً إلى نماذج قيمة تبقى و تخلد، ولا تفنى، أو تزول بزوال الأشخاص، أضف إلى ذلك " ارتقاء الذوق الأندلسي نتيجة اختلاط الدماء، وامتزاج الثقافات، وكثرة الأجناس في المجتمع، وتنوع خصائصهم وملاحظهم الخلقية، الأمر الذي تضعف معه قيمة التنويه بالصفات الحسية المحضة، و يصبح الاتكاء عليها شيئاً عديم الفاعلية و التأثير " (5)

ج — المعاني الدينية: عُرِفَتِ الأسرة النصرية — لاسيما في عهدها الأول — باهتمامها بالجانب الديني، فقد عرفنا أن محمد ابن الأحمر مؤسس دولة غرناطة كان محتفياً بتعاليم الدين، وكان يتقرب من المتصوفة الغرناطيين، ويؤثر التقشف والزهد في الدنيا، كذلك عرفنا أن أحد الأمراء النصرين — وهو محمد الثاني — كان يلقب بالفقيه، وهي صفة تدل على معرفة بعلوم الدين .

والحقيقة أن الصفات الدينية مرتبطة بالصفات النفسية لدى الممدوح، وقد أفردتها

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم 3835: ورقة: 353.

(2) — مؤلف مجهول، المنظوم و المنثور، مخطوط في خزانة خاصة في المغرب، ورقة: 63، ظ

(3) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 365.

(4) — مؤلف مجهول، المنظوم و المنثور مخطوط في خزانة خاصة في المغرب، ورقة: 59، ظ

(5) — أشرف محمود بنجا — قصيدة المديح في الأندلس ص: 43 .

بالحديث لما لها من أهمية في قصيدة المدح الغرناطي في هذه الحقبة التي شهدت تهديدا للوجود الإسلامي في الأندلس.

ومن المتوقع أن يكون السبب الحقيقي وراء الاهتمام الكبير بهذا الجانب من قبل الشعراء الغرناطيين يرجع إلى رغبتهم في إقناع الناس بشخصية الحاكم؛ وحتى لا تتعرض للقليل والقال، ووحداً لأي نزاع على السلطة قد ينتج عن ضعف الصفات الدينية لدى الحاكم؛ ولذا فإن إبراز صفاته الدينية؛ كإظهار ورعه ووقاره، يقود إلى صلاحه للقيادة والحكم، وفضلا عن هذا فإن الإشادة بهذه الصفات تعطي بريقاً ساطعاً من الإجلال والهيبة لشخص المدوح (الحاكم)، أضف إلى هذا نسب بني الأحمر العريق العائد إلى الأنصار الذين نالوا حظوة خاصة في القرآن العظيم والسنة الشريفة، ومن ثم فإن إضفاء الصفات الدينية على بني الأحمر يكون أمراً طبيعياً بالنظر إلى أصلهم الطيب من وجهة نظر الشعراء الغرناطيين. ومن النصوص الدالة على هذا الجانب قول أبي عبد الله بن الحكيم واصفاً ممدوحه الأمير محمد الفقيه بأنه عادل تقي يجهد نفسه في العبادات كالصوم والصلاة والزكاة: {الرملة}

مَلِكٌ إِنْ قُلْتَ فِيهِ مَلِكًا لَمْ تَكُنْ إِلَّا مُحِقًّا فِي الْمَقَالِ
أَيَّدَ الْإِسْلَامَ بِالْعَدْلِ فَمَا إِنْ تَرَى رَسْمًا لِأَصْحَابِ الضَّلَالِ
ذُو أَيَادٍ شَمَلَتْ كُلَّ الْوَرَى وَمَعَالٍ يَا لَهَا خَيْرٌ مَعَالِ
هِمَّةَ هَامَتْ بِأَحْوَالِ التَّقَى وَصِفَاتٍ بِالْجَلَالَاتِ حَوَالِ
وَقَفَ النَّفْسَ عَلَى إِجْهَادِهَا بَيْنَ صَوْمٍ وَصَلَاةٍ وَنَوَالِ⁽¹⁾

ويصف أبو عبدالله البرجي محمد ابن الأحمر الغالب بالله بأنه أصلح أحوال العباد، وألف شملهم، ونهض بمسؤولياتهم، وهي أمانة عظيمة استطاع حملها والقيام بها؛ ذلك في قوله {الكامل}:

أَلْفَتْ شَمَلَ الْمُسْلِمِينَ وَطَالَمَا أَوْدَى بِهِ التَّشْتِيتُ وَالتَّبِيدُ

(1) — المغربي — نفع الطيب، ج3، ص: 376. وابن الخطيب الإحاطة ج 2، ص458، 459. وفيه جاء الشطر الأول من البيت الأول "مَلِكٌ إِنْ قُلْتَ فِيهِ مَلِكًا" بكسر اللام في لفظة "مَلِكًا" الثانية وهي مكررة عن اللفظة الأولى "مَلِكٌ" بكسر اللام، والتكرار لا يضيف شيئاً جديداً إلى المعنى وفق هذا الضبط، وقد جاء ضبط هذا الشطر في النسخ "مَلِكٌ إِنْ قُلْتَ فِيهِ مَلِكًا" بفتح اللام في لفظة "مَلِكًا" الثانية، وهو الصحيح؛ لأن هذا الضبط أفاد المعنى، وحقق ما يريد الشاعر في هذا البيت؛ إذ يريد وصف المدوح الملك بالملك.

وَنَهَضَتْ بِالْأَعْبَاءِ وَهِيَ أَمَانَةٌ خَفَّتْ عَلَيْكَ وَإِنَّهَا لَتَوُودُ⁽¹⁾

ويكرر هذا المعنى مرة أخرى، واصفاً ممدوحه بأنه أصلح الأحوال بعد فسادها، وأزال الشبهات، وأجلى ظلامها وذلك في قوله: {الكامل}

صَلُّحَتْ بِكَ الْأَحْوَالُ بَعْدَ فَسَادِهَا وَدَنَتْ بِكَ الْأَمَالُ وَهِيَ بَعِيدُ
وَنظَرْتَ وَالشُّبُهَاتُ يُظْلِمُ أَفْقُهَا فَجَلَا دُجَاهَا مِنْ هَذَاكَ وَقُودُ⁽²⁾

ويشيد أبو القاسم محمد المري بحرص ممدوحه الأمير محمد الفقيه على إحياء رسوم الدين، والعقيدة التي صارت كالديوارس بسبب انتشار المنكرات: {الكامل}

أَحْيَا رُسُومَ الدِّينِ وَهِيَ دَوَارِسُ وَلَطَالَمَا صَدَعَ الشُّكُوكَ يَقِينُهُ⁽³⁾

ونحو هذا قول محمد التطيلي في مدح محمد الفقيه: {الكامل}

أَجْرَى مِيَاهَ الْعَدْلِ بَعْدَ جَفْوِهَا وَأَزَالَ نَارَ الظُّلْمِ بَعْدَ ضِرَامِ⁽⁴⁾

كذلك أشاد الشعراء بصنائع ابن الأحمر في إرساء دعائم الإسلام المتمثلة في التشييد و البناء و التحصين، وذلك على نحو الإشارة الواردة في قول أبي جعفر ابن شلبطور عند مدحه للأمير أبي سعيد مشيدا بصنائع والده الغالب بالله: {البيسط}

سَلِيلٌ مَنْ أَبْصَرَ الْإِسْلَامَ مُنْتَلِمًا فَسَدَّ مِنْهُ بِتَشْيِيدٍ وَتَحْصِينِ⁽⁵⁾

وكقول ابن الجياب الغرناطي (673_745 هـ) في مدح الأمير محمد الثالث الملقب بالملخوع مشيدا بتشييده للمساجد: {الطويل}

أَقَمْتَ لَدَيْنِ اللَّهِ شَتَى الْمَعَالِمِ وَفَتَحْتَ أَبْوَابَ الْعُلَا وَالْمَكَارِمِ
وَشَيَّدْتَ لِلْإِيمَانِ عِزًّا مُخَلِّدًا رَمَى الْكُفْرَ بِالذَّلِّ الْمُقِيمِ الْمُلَازِمِ⁽⁶⁾

ولم يقف الشعراء عند هذا الحد؛ بل أخذوا يلونون لوحاتهم الدينية بأصناف من الإجلال والهيبة للممدوح الذي يوشك أن يكون معصوماً، كإطلاق صفة الإمام على الممدوح، وهي صفة شاع استخدامها في قصيدة المديح إبان حكم الموحدين، واستمر

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، ورقة: 359.

(2) — المصدر السابق، ورقة: 360.

(3) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 170.

(4) — المقرئ — نفع الطيب ج 5 ص 281.

(5) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 372.

(6) — علي النقراط: ابن الجياب حياته وشعره ط 1 ليبيا، دار الكتب الوطنية 2002 ص 58

شيوعتها في قصيدة المدح إلى عهد بني الأحمر في القرن السابع الهجري ؛ يدل على هذا قول أبي عبد الله البرجي في مدح الأمير أبي سعيد : {الكامل}

فَهُوَ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ وَحَسْبُنَا حَسَبٌ تَطَاوَلَ فِي الزَّمَانِ الْأَطْوَلِ (1)

ولا تخفى الإشارة في الشطر الثاني من هذا البيت إلى نسب بني الأحمر العائد إلى الأنصار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل المدينة المنورة ، وقد كان هذا النسب محل اهتمام ، وموضوعاً للتأليف من قبل الأدباء الغرناطيين على نحو ما ذكرنا فيما تقدم من هذا البحث ، وشهد ابن الخطيب بأنه صنف في اتصال نسبهم إلى قيس بن سعد بن عباد ، سيد الأنصار غير ما تصنيف (2) .

والسؤال الذي أحاول الإجابة عنه الآن: هل حظي نسب بني الأحمر الجليل باهتمام الشعراء في قصيدة المدح الغرناطي مثلما حظي به في المؤلفات الغرناطية في هذه الحقبة؟

د — الاهتمام بنسب الممدوح : الإشادة بعراقة النسب أمر درج عليه شعراء العربية في قصائد المديح ؛ وذلك لما له من أثر نفسي كبير لدى الممدوح ، وهو لا يخص الملوك والأمراء وحدهم ؛ بل يشمل عامة الممدوحين ، فالرندي عند مدحه لأبي عبد الله ابن الحكيم أحد رجال بني الأحمر ؛ يشيد بنسبه الذي يرجع إلى اللخمين ، حيث يقول {السريع} :

مُؤْتَلُّ الْمَجْدِ صَرِيحُ الْعُلَا مُهْدَبُ الطَّبَعِ كَرِيمُ النَّجَارِ
تَزْهَى بِهِ لَحْمٌ وَسَادَاتُهَا وَتَنْتَمِي قَيْسٌ لَهُ فِي الْفَخَارِ (3)

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها أبا محمد عبدا لرحمن بن الحكيم والد أبي عبد الله بن الحكيم المتقدم الذكر يشيد بانتسابه إلى اللخمين ؛ حيث يقول : {الخفيف}

مَنْ إِذَا مَا سَتَرْتُهُ كَانَ شَمْسًا وَإِذَا مَا اعْتَمَدْتُهُ كَانَ ظِلًّا
حَلٌّ فِي السَّرِّ مِنْ دُؤَابَةِ لَحْمٍ شَرَفًا مَا انْتَهَى السُّهَى حَيْثُ حَلًّا (4)

وإذا كانت الإشادة بالنسب في معظم قصائد المديح الأخرى لا تتجاوز — في الغالب —

(1) — مؤلف مجهول : مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 363.

(2) — ينظر : ابن الخطيب — اللمحة البدرية ، ص : 33.

(3) — المقرئ — نفح الطيب ، ج 6 ص 236 .

(4) — مؤلف مجهول ، المنظوم و المنثور ، مخطوط في خزانة خاصة في المغرب ورقة : 62 ، ظ

البيت أو البيتين؛ فإن الأمر يختلف في مدح النصريين، حيث أفرد الشعراء الغرناطيون مساحة كبيرة في مدائحهم للإشادة بنسب بني الأحمر إلى الأنصار، ولا أكاد أجد قصيدة قيلت في مدح سلطان أو أمير أو رئيس نصريّ في هذه الحقبة تخلو من الإشادة بالأنصار، فقد اتخذ جل الشعراء الغرناطيين من الإشادة بكرم الأمراء النصريين وشجاعتهم مدخلا للإشادة بأجدادهم الأنصار، وموافقهم المشرفة مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في سبيل نصره الدين الإسلامي الحنيف، ويمكن أن أعد هذا الجانب من العناصر الأساسية التي ارتكز عليها مضمون قصيدة المديح الغرناطي، وقد استمر وجود هذا المحور في مدح بني الأحمر إلى القرن الثامن الهجري .

ومن الأمثلة التي تدل على هذه الظاهرة ما أجده في قصيدة أبي جعفر ابن شلبطور التي مدح فيها الأمير أبا سعيد، وأشاد بنسبه إلى الأنصار، وبما خصّوا به من تكريم وتشريف في القرآن الكريم، معرجاً على عراقه نسبهم التي تعود إلى القحطانيين من اليمن؛ حيث يقول:

{البسيط}

كَقَوْمِهِ الزُّهْرِ هُمْ آوَا وَهُمْ نَصَرُوا	وَبَدَّلُوا شِدَّةَ الْأَيَّامِ بِاللَّيْلِ
مِنْ الْيَمَانِينَ مِنْ قَحْطَانَ مِنْ سَبَا	مِنْ التَّبَابَعَةِ الشُّمِّ الْعِرَانِينَ
مَنْ الْأُلَى بَايَعُوا الْإِسْلَامَ نَصَرْتُهُ	فَلَمْ يَرَوْحُوا إِلَى بَيْعَاتِ مَعْبُونٍ
الْمُؤْتَرُونَ نَدَى وَالسَّابِقُونَ مَدَى	وَالتَّابِعُونَ هُدَى خَيْرَ التَّبِيِينِ
لَهُمْ لَدَى الْحَرْبِ صَوْلَاتُ الْأَسْوَدِ وَفِي الْـ	مِحْرَابِ بِالذِّكْرِ رَتَاتُ الرَّهَائِينِ
إِنْ شِئْتَ تَسْمَعُ فِي الْقُرْآنِ وَصَفَهُمْ	فَأَثَلُ الْكِتَابِ بترتيبٍ وَ تَبْيِينِ (1)

ومثل هذا ما نجده في قول الرندي مشيدا بنسب ممدوحه محمد ابن الأحمر الغالب بالله وبأجداده الأنصار، وموافقهم المشرفة مع الرسول صلى الله عليه وسلم: {الوافر}

نَمَتْهُ لِلْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي	سَرَاةً مِنْ بَنِي نَصْرِ كِرَامُ
هَمَّ الْأَنْصَارُ هَمَّ نَصَرُوا وَ آوَا	وَلَوْلَا الْمِسْكُ مَا طَابَ الْخِتَامُ (2)

ونحو هذا قول أبي عبد الله البرجي مشيدا بنسب ممدوحه الأمير أبي سعيد ولد الغالب بالله

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، د، ورقة: 373.

(2) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 363.

{الوافر}:

مِنَ النَّفَرِ الْأَلَى طَلَعُوا شُمُوساً سَرَى مِنْهُمْ جَمِيعَ الْخَلْقِ نُورُ
لَنَا مِنْهُمْ هُدَاةٌ أَوْ كَفَاةٌ وِلِلْإِسْلَامِ عِزٌّ أَوْ ظُهُورٌ⁽¹⁾

ويشيد الرندي بهذا النسب خلال مدحه للرئيس النصري أبي الحسن علي بن نصر، منوهاً
بمناقب الأنصار وبمآثرهم وبشجاعتهم ولم ينسَ ذكر مدينتهم التي حظيت بشرف قبر،

الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجده؛ يقول: {الكامل}

سِمةُ الألى حَازُوا المكارمَ و العُلا وزَكَتْ أَوَاصِرُهُم وَطَابَ العُنْصُرُ
مِنْ مَعشِرٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ المصطفى نَعَمَ النَّبِيُّ المصطفى وَالْمَعشِرُ
أَبْنَاءُ قِيلَةٍ لَا يُجَارَى مَجْدُهُم ما فَارِسُ فِي مُلْكِهَا مَا حَمِيرُ؟
قَوْمٌ لَهُم طِيبُ الحِياةِ بِطَيِّبَةٍ حَيْثُ النَّبِيُّ وَ قَبْرُهُ وَ المَنْبَرُ
هُم مَزَقُوا كِسْرَى وَلولا دَعْوَةٌ سَبَقَتْ لِقَيْصَرَ لَمْ يَفْتُهُم فَيْصَرُ
سَلُّ تُبَعًّا عَن بَأْسِهِم وَ نَدَاهُم إِنَّ التَّدَى وَ البَأْسَ نَعَمَ المَفْخَرُ⁽²⁾

وعلى هذا النحو يمكن القول إن الإشادة بنسب النصريين أصبحت عنصراً رئيساً في
قصائد المديح التي مُدِحَ فيها بنو الأحرر منذ العهد الأول للدولة، وقد استمر وجود هذا
المحور في قصيدة المدح التي قيلت في بني الأحرر في القرن الثامن الهجري، وقد تحول هذا
الأمر لدى بعض الشعراء إلى نوع من أنواع التعبير عن الحنين إلى البقاع المقدسة، والشوق
إلى زيارة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث وجدوا في الإشادة بالأنصار ما يخفف
عنهم برح الشوق، ولوعة البعد عن تلك المنازل الطاهرة، ومن هؤلاء الشعراء الذين اتخذوا
من ذكر البقاع المقدسة مدخلاً للإشادة بنسب النصريين ابن رشيق المرسى؛ فهو خلال
مدحه للرئيس أبا الحسن علي بن نصر أجده يذكر بعض المشاعر المقدسة كجبل عرفات
،ومنى، والكعبة المقدسة، وذلك للدخول في الإشادة بنسب ممدوحه، والتنويه بأجداده

{الرملة}:

كَعْبَةُ الفَضْلِ مَنِ تَلَكَ المَنَى عَرَفاَتُ العُرْفِ رُكْنُ الاِئْتِصارِ

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 357.

(2) — مؤلف مجهول، المنظوم و المنثور مخطوط في خزانة خاصة في المغرب، ورقة: 59، ظ

الذي يُنمى إلى نَصْرِ النَّدى ذِي الجَدَا المَمْنُوحِ والجَارِ المَجَارِ⁽¹⁾

ه — الصفات السياسية: لم تخل قصائد المديح الغرناطي من المضمون السياسي، والإشادة بالصفات السياسية التي يجب على الحاكم ملكاً، أو رئيساً أن ينتهجها، وأجد الرندي يحدد هذه الصفات في مطلع قصيدة توجه بها للأمير أبي سعيد حيث يقول:

{السيط}

ما عمدةُ الملكِ إلا السيفُ والقلمُ وما السيادةُ إلا البأسُ والكُرمُ

ولا سياسةٌ حتى تُتَقَى نَقْمٌ ولا رياسةٌ حتى تُرْتَجَى نَعَمٌ⁽²⁾

ومن المعروف أن سياسة بني الأحمر لم تتخذ اتجاهاً ثابتاً؛ بل اتسمت بالتوازن بحسب المصلحة الغرناطية مع الدول المجاورة القشتالية والأرجونية والمرينية، وقد وصفت بسياسة اللعب بالثلاث ورقات "Juego de tres Barajas"⁽³⁾، ووصفت أيضاً بسياسة "تماسك الشجاع ومُدَاراة المَغْلُوب"⁽⁴⁾؛ أي أن سياسة بني الأحمر في مواجهة الأعداء كانت تتم بالحرب حين الاقتضاء، وبالسلم حين يكون ذلك أجدى بحسب وجهة نظرهم، ورأى الشعراء الغرناطيون أن هذه السياسة حققت نتائج مبهرة خاصة إذا نُظِرَ إلى قوة غرناطة المتواضعة بجانب تلك القوى الكبرى، ومن ثم فإن هؤلاء الشعراء أخذوا يشيدون بالسياسة النصرية، وبما حققته من نتائج؛ مثال ذلك قول الرندي في مدح محمد ابن الأحمر:

{الوافر}

هُم مَنَحُوا الجَزِيرَةَ مِنْ حِمَاهِم جواراً لا يُذَمُّ ولا يُضَامُ

فَمِنْ حَرْبٍ تَشِيبُ لها التَّوَاصِي وَ مِنْ سِلْمٍ تَحِيْتُهُ: سَلامٌ⁽⁵⁾

وكذلك قول أبي عبد الله البرجي مشيداً بالصلح الذي عقده ابن الأحمر مع النصراري، مبرراً هذا الأمر بأنه لأجل حماية الدين الإسلامي: {السريع}

(1) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص : 173.

(2) — مؤلف مجهول، المنظوم و المنتور مخطوط في خزانة خاصة في المغرب، ورقة: 47، و

(3) — يُنظر: . 398 , 392 PP, Sanchez Albor noz : La Espana Musulmana II,

نقلًا عن: أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص: 344.

(4) — محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ص: 13.

(5) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 363. حيث لم ترد كلمة (من) فيكون البيت مكسور الوزن.

حَمَيْتُمُ الدِّينَ فَأُضْحَى بِكُمْ فِي مَنَعَةٍ مِنْ عِزِّكُمْ لَا تُبَاحُ
دَفَعْتُمُ بِالصَّلْحِ أَعْدَاءَهُ طَوْرًا وَ طَوْرًا بِصُدُورِ الرَّمَّاحِ⁽¹⁾

ويرى الرندي في حماية الدين الإسلامي ما يبرر عقد الصلح مع النصارى؛ إذ يقول في مدح محمد ابن الأحمر الغالب بالله: {الوافر}

بِسُعْدِكَ يَا مُحَمَّدُ عَزَّ دِينُ لَهُ بَعْدَ الْإِلَهِ بِكَ اعْتِصَامُ
وَبِاسْمِكَ تَمَّ لِلْإِسْلَامِ سَلْمٌ وَغِبَّ السَّلْمُ نَصْرًا مُسْتَدَامًا⁽²⁾

ولم ينس الشعراء خلال الإشادة بسياسة النصرين أن ينوهوا أيضا بما حققته من نتائج في حماية الدين والعقيدة؛ وذلك على نحو قول أبي جعفر ابن شلبطور: {الخبب}

فَبِعِزِّ مُلُوكِ بَنِي نَصْرِ أَمِنَ الْإِيمَانُ مِنَ الْغَيْرِ⁽³⁾

وكقول الرندي منوها بهذا الملمح: {البيسط}

تَأْمَنَ النَّاسُ فِي أَيَّامِهِ وَ مَشُؤَا كَمَا مَشَى الصَّاحِبَانَ الشَّاةُ وَ التَّمْرُ
وَزَالَ مَا كَانَ مِنْ خَوْفٍ وَ مِنْ حَذَرٍ فَمَا يُرَى الدَّيْلَانَ الْخَوْفُ وَ الْحَذَرُ⁽⁴⁾

ونجد مثل هذه الإشادة لدى أبي عبد الله البرجي، ومن ذلك قوله من قصيدة في مدح

محمد ابن الأحمر الغالب بالله: {الكامل}

لَوْلَا دِفَاعُكَ يَا ابْنَ نَصْرِ لَمْ يَكُنْ لِلْأَمْنِ فِي هَذَا الْوُجُودِ وَجُودُ

.....

.....

مَهَّدَتْ أَقْطَارَ الْجَزِيرَةِ كُلِّهَا فَتَوَى طَرِيدٌ وَاسْتَقَرَّ شَرِيدُ
فَعَدَّتْ لَنَا أَرْجَاؤُهَا بِكَ جَنَّةً طَلَعَ الْأَمَانِي عِنْدَهَا مَنُضُودُ
قَدْ أَيَّنَعَتْ بِالْأَمْنِ رَوْضَاتُ الْمُنَى وَاخْضَرَّتْ فِي جَنَابَتِهَا الْجُلْمُودُ⁽⁵⁾

إنَّ هذه النصوص التي تهلل و تبارك سياسة النصرين مع أعدائهم النصارى تشكل دعماً معنوياً قوياً كان بنو الأحمر في حاجة ماسة إليه؛ لدعم موقفهم، وشد أزرها دولتهم الناشئة،

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، ورقة: 353.

(2) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 363.

(3) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835، ورقة: 371.

(4) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 365.

(5) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835، ورقة: 359.

وهي في جانب آخر تمثل — على حدّ تعبير غارسيا غومث — " ضرورةً لازمةً للملوك وذوي الشأن، ودوافعها النفسية واضحة لا تحتاج إلى بيان؛ فقد كانت للشعر عند العرب قيمة سياسية كبرى ظل يحتفظ بها على مر العصور، ثم إن التصوير و المماثلة كانا محرمين على المسلمين؛ و من ثم كانت قصيدة المديح تقوم مقام اللوحات الرسمية التي كان غير المسلمين من الملوك يؤجرون الرسّامين على رسمها " (1)

• أبرز الملحوظات حول قصيدة المدح السياسي:

يمكن القول إنّ قصيدة المدح في القرن السابع الهجري احتفظت بطابعها المشرقي، سواء من حيث المضمون، أو المنهج الذي سارت عليه.

أولاً_ من حيث المضمون:

1_ نجد أنّ المعاني التي طرحها الشعراء الغرناطيون في مدائحهم هي معان عربية، أشاد بها شعراء العربية السابقون، واستخلصها النقاد من قصائدهم ، ويأتي في مقدمة هذه المعاني الشجاعة، والكرم، فضلاً عن الإشادة بكرم الأصل وشرف النسب، وهي من المعاني التي يعتزّ بها العربي ويفاخر .

أما المعاني الجسميّة التي ركز عليها الشعراء الغرناطيون؛ فقد كانت محدودة فلم تتجاوز حدود الإشادة بطلاقة الوجه، و حسن الغرّة و الجبين، وهذا المنحى يتفق مع ما أقره بعض النقاد، كابن رشيق القيرواني الذي رأى أنه من الخير الجمع بين الصفات المعنوية و الجسمية العرضيّة " كالجمال و الأبهة و بسطة الخلق وسعة الدنيا وكثرة العشيرة " (2)

2_ ويلاحظ أيضاً أن المعاني التي طرحها الشعراء الغرناطيون لم تأت في بعض الأحيان مفردة، أي أنّها لا تذكر أجزاء مفككة؛ وإنما كان الشاعر الغرناطي يجمعها في بناء قوي متين. مثال هذا قول أبي القاسم المري في مدح محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه: {الكامل}

شَمْسُ الْمَدَى حَتْفُ الْعِدَا مُحْيِي النَّدَى بَحْرُ الْجِدَا طُولُ الْمَدَى تَمَكِينُهُ (3)

وكقوله أيضاً: {الكامل}

(1) — إميليو جارثيا جوميث — الشعر الأندلسي بحث في تطوره و خصائصه، ص: 77.

(2) — ابن رشيق القيرواني — العمدة ، ج 2، ص: 135.

(3) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3 ، ص: 170

لَيْثُ الشَّرَى غَوْتُ الْوَرَى قَمَرُ الشَّرَى سَنَ الْقَرَى عَمَّ الْقَرَى تَأْمِينُهُ⁽¹⁾

وعلى هذا النحو قول أبي جعفر ابن شلبطور جامعاً بين بعض الصفات المعنوية والحسية في مدحه للأمير أبي سعيد: {الخبب}

بَأْسٌ يُفْنِي وَتَدَى يُعْنِي وَسَنَى يُعْشِي نُورَ الْبَصْرِ⁽²⁾

وكقوله أيضاً: {البيسط}

لَيْثٌ إِذَا رَهَبُوا غَيْثٌ إِذَا رَعِبُوا حَبْرٌ إِذَا طَلَبُوا عَلِمَ الدَّوَاوِينَ⁽³⁾

3_ لم تخل قصائد المدح الغرناطي من الإغراق في المبالغة التي قد تصل إلى حد الغلو أو التقديس للممدوح، مثل قول أبي جعفر ابن شلبطور في مدح الأمير أبي سعيد فرج: {البيسط}

فَاقَ الْوَرَى فَكَانَ اللَّهُ صَوْرَهُ طَبِياً وَصَوَّرَ كُلَّ النَّاسِ مِنْ طِينٍ⁽⁴⁾

وقوله أيضاً: {البيسط}

حَازَتْ لَهُ السَّبَقَ بَيْنَ الْكَافِ وَالنَّوْنِ خَلَقَ جَمِيلٌ وَأَخْلَاقٌ مُقَدَّسَةٌ⁽⁵⁾

وأحيانا يمتضي الشاعر بالصور إلى لون من المبالغات المنفرة؛ تذهب المعنى وتترك في النفس عكس ما يريد من تصوير؛ يقول:

إِذَا مَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِحُرٍّ كَفَاهُ لَثْمٌ كَفَكَ وَالسَّلَامُ⁽⁶⁾

ومن ذلك قول أبي عبدالله البرجي في مدح الأمير أبي سعيد فرج ولد الغالب بالله {الوافر}

غَدَا فَرَجٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مَوْلَى بِهِ كُلُّ الْبَرِيَةِ تَسْتَجِيرُ⁽⁷⁾

4_ اشتملت بعض المدائح على أبيات ذات طابع دعائي يروج للممدوح، ويدعو إلى التمسك به؛ وذلك على النحو الذي يبدو في بيت ابن شلبطور في مدح الأمير أبي سعيد

(1) - ابن الخطيب - الإحاطة ج 3 ، ص: 170

(2) - مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835 د ورقة: 371.

(3) - المصدر السابق ، ورقة: 373.

(4) - المصدر نفسه، و الموضوع نفسه.

(5) - المصدر نفسه، و الموضوع نفسه.

(6) - ابن الخطيب ، الإحاطة ج 3 ص : 364

(7) - مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835 ، ورقة : .

ولد ابن الأحمر : {البيسط}

أُمُّ ابْنِ نَصْرٍ وَ أَمَلٌ فَضَّلَ نَائِلِهِ تَبَّتْ عَلَيَّ أَمَلٍ مَا عَشْتَمَ مَضْمُونٌ⁽¹⁾

وكما في قول الرندي في مدح الرئيس أبي الحسن علي بن نصر : {الكامل}

وَارْقُبْ بِشَائِرٍ يُرْتَجَى إِقْبَالُهَا إِنَّ الْجَزِيرَةَ بِابْنِ نَصْرٍ تُنْصَرُ⁽²⁾

5_ ثمة أحداث مهمة وحقائق تاريخية متعلقة بتاريخ الدولة النصرية في عهدها الأول،

نستطيع أن نستشفها من مضمون هذه القصائد، وهذه الحقائق منها ما يتعلق بمشاركة

الأمير أبي سعيد في الصلح الذي عقده والده محمد ابن الأحمر الغالب بالله مع القشتاليين

سنة 643هـ وامتد هذا الصلح نحو عشرين عاما، وقد دلّ على هذه المشاركة أبيات أبي

عبد الله البرجي ضمن قصيدة في مدح الأمير أبي سعيد فرج قال فيها: {السرّيع}

يَا فَرَّاجَ الْعَمْرَاتِ يَا مَنْ لَهُ بِيضُ الْأَيْدِي وَالْمَعَانِي الْفَسَاحُ

خَاطَرْتَ بِالْمَجْدِ وَلَمْ تَدْرِغْ إِلَّا تُقَى اللَّهِ وَنِعْمَ السَّلَاحُ

وَرُمْتَ أَمْرًا فِيهِ حِفْظُ الْوَرَى فَلَاحَ فِيمَا رُمْتَ وَجْهَ الْفَلَاحُ

فَاهِنًا ثَوَابَ اللَّهِ وَانْعَمَ فَمَا سَأَلْتَهُ عَمَّ جَمِيعَ التَّوَاخُ

فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنْكَ بُشْرَى كَمَا فِي كُلِّ صَدْرٍ فَرَحَةٌ وَأَنْشِرَاحُ⁽³⁾

فالأبيات تدل بجلاء على دور مهمّ للأمير أبي سعيد في عقد الصلح مع القشتاليين، بيد أنّنا

لا نجد في المدونات العربية التي تعرضت لتاريخ مملكة غرناطة — لاسيما مؤلفات لسان

الدين ابن الخطيب التي وصلتنا — ما يدل على هذا الدور للأمير أبي سعيد ولد الغالب

بالله؛ وهذا يعطي لقصيدة المدح الغرناطية في هذه المرحلة أهميةً تاريخيةً خاصة إلى جانب

قيمتها الأدبية.

ومن الأحداث التاريخية التي وثقتها قصيدة المديح توثيق تولي الأمير أبي سعيد فرج

ولد الغالب بالله على مدينة المرية، وقد دلّ على ذلك قول أبي عبد الله البرجي من قصيدة

في مدح هذا الأمير : {الكامل}

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، ورقة: 374.

(2) — مؤلف مجهول، المنظوم و المنشور مخطوط في خزانة خاصة في المغرب، ورقة: 60، و

(3) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835 د ورقة : 354، 353.

بُشْرَى الْمَرِيَّةِ إِذْ غَدَتْ لَكَ حَضْرَةً تَسْمُو عَلَى ذَاتِ الْعِمَادِ وَتَعْتَلِي (1)

ومن أهم الأمور التاريخية التي وثقتها قصيدة المديح توثيق أسماء أولاد محمد ابن الأحمر الغالب، وعددهم الذي تضاربت حوله الروايات ما بين الثلاثة أولاد أو الأربعة؛ وقد دل على عددهم الحقيقي، وكذلك على أسمائهم أبيات أبي عبد الله البرجي الواردة في قصيدة يمدح فيها محمد ابن الأحمر الغالب بالله، ويفاخر بأبنائه، قال فيها: {الكامل}

وَإِذَا الْمُلُوكُ تَفَاخَرُوا مَا بَيْنَهُمْ فَبَنُوكَ بَيْنَهُمُ الْمُلُوكُ الصَّيْدُ
فَأَبُو سَعِيدٍ لِلسَّعُودِ مُصَاحِبٌ بُوْجُودِهِ إِسْعَادُهَا مَوْجُودُ
فَرَجٌ إِذَا نَادَيْتَهُ لَبِّي الْهُدَى وَ سَمًا لِذِكْرَاهُ الْعُلَا وَالْجُودُ

.....
.....
وَشَقِيْقُهُ الْمَلِكُ الْعَلِيُّ مُحَمَّدٌ نَعَمَ الْهَمَامُ السَّيِّدُ الصَّنْدِيدُ
وَلْيُوسُفَ التَّمَكِينُ وَالشَّرْفُ الَّذِي يَرْفَى بِهِ نَحْوَ الْعُلَا وَيَزِيدُ (2)

فهذه الأبيات تعد وثيقة تاريخية مهمة؛ لأنها تعضد ما جاء في بعض الروايات التاريخية التي ذهبت إلى أن للغالب بالله محمد ابن الأحمر ثلاثة أولاد، وقد أشرت إلى هذه الحقيقة فيما تقدم من هذه الدراسة (3).

ثانياً — من حيث المنهج: غلب على قصائد المدح الغرناطي استهلالها بالمقدمات التقليدية التي تتعدد فيها الموضوعات، وهو نهج يوافق رأي ابن رشيق القيرواني الذي ذهب إلى ضرورة التمهيد لقصيدة المدح بالنسيب، بل إنه عاب على الشعراء الذين يهجمون على الغرض مصافحة، دون أن يجعلوا لكلامهم بسطاً من النسيب، وسمى قصائدهم التي على هذا الحال "بتراء"؛ أي هي كالخطب البتراء التي لا يبدأ فيها بحمد الله عز وجل كما هو معتاد في معظم الخطب (4).

والقصائد التي جاءت خالية من المقدمات التقليدية هي قليلة جدا في الشعر الغرناطي. مثال

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835 د، ورقة: 364. ومما يدل على هذا أيضا

قصيد أبي جعفر ابن شلبطور التي قالها بمناسبة قدوم الأمير أبي سعيد على مدينة المرية ينظر القصيدة في هذا البحث ص: .

(2) — المصدر السابق، ورقة: 361.

(3) — ينظر: الفصل الأول من هذا البحث ص: 27 .

(4) — ينظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج 1، ص: 231 .

ذلك: قصيدة أبي عبد الله البرجي التي قال في مطلعها: {الكامل}

بُشْرَاكَ مَلِكٌ مُقْبَلٌ وَسُعودٌ تَأْتِي عَلَيَّ وَفَقِ الْمُنَى وَتَعُودُ⁽¹⁾

وكذلك قصيدة علي بن سعيد الغرناطي (ت 685 هـ)⁽²⁾ التي قالها في الغالب بالله محمد

ابن الأحمر، واستهلها بالمدح مباشرة؛ فقال: {الطويل}

لِمِثْلِكَ تَنْقَادُ الْجِيُوشُ الْجَحَافِلُ وَتُدْخِرُ أَبْنَاءَ الْقَنَا وَالْقَنَابِلُ⁽³⁾

ويبدو أن بعض الشعراء الغرناطيين كانوا يدركون النهج الذي قرره ابن رشيق القيرواني لقصيدة المديح من حيث ضرورة التقديم لها بالنسب؛ وهذا ما يدل عليه صراحة قول أبي عبد الله البرجي ضمن قصيدة في مدح الأمير أبي سعيد استهلها بالنسب، جاء في آخرها:

{الكامل}

أَمَّتَكَ يَقْدُمُهَا النَّسِيبُ شَرِيعَةً فِي الشَّعْرِ لِلشَّعْرَاءِ لَمْ تَبْدَلِ⁽⁴⁾

وكما يدل عليه قول أبي جعفر ابن شلبطور في آخر قصيدة مدحية في الأمير أبي سعيد

{البيسط}

وَأَسْأَلُ الصَّفْحَ فِي كَأْسٍ وَفِي رَشِيٍّ كِلَاهُمَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِي فَيَعْنِينِي

فَلَا وَحَقِّكَ مَا قَادَ الْهُوَى رَسْنِي وَلَا انْتَنَيْتُ إِلَى الصَّبْهَاءِ تُعْوِينِي

لَكِنَّهُ أَدَبٌ أَحْرَيْتُهُ سَبِيًّا إِلَى ثَنَائِكَ فِي أَثْنَاءِ تَضْمِينِ⁽⁵⁾

أما الخاتمة في قصيدة المدح؛ فقد حرص الشعراء الغرناطيون على أن تختتم بالدعاء

للممدوح مثال هذا قول أبي عبد الله البرجي في آخر قصيدة مدح بها ابن الأحمر

{الكامل}

اهنأ أمير المسلمين ببهجة

وانعم هنيئاً في ظلال سعادة

يئقى لها بعد الزمان خلود

غمر البسيطة سعيها المحمود⁽⁶⁾

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835 د ورقة: 364.

(2) — ترجمته في الإحاطة ج 4 ص: 152.

(3) — ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب ج 2 ص: 109.

(4) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: د 3835 ورقة: 365.

(5) — المصدر السابق، ورقة: 373.

(6) — المصدر نفسه، ورقة: 361.

وقوله أيضا في ختام قصيدة أخرى داعياً لممدوحه الأمير أبي سعيد ووالده محمد ابن الأحمر: {الكامل}

وَوَقَاكُمَا عَيْنَ الزَّمَانِ فَأَنْتُمَا أَهْلُ الْكَمَالِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ
هَذَا دُعَائِي مُخْلِصاً حَدَّثَ بِهِ عَنْ كُلِّ حَافٍ فِي الْأَنَامِ وَمُنْعِلِ
وَاللَّهِ أَرْجُو فِي الْقَبُولِ فَإِنَّهُ مَهْمَا دَعَوْنَاهُ بِصِدْقٍ يَقْبَلِ
وَعَلَى الْمَقَامِ مِنَ الْعَبِيدِ تَحِيَّةٌ تَسْرِي فُيْزِرِي عَرْفُهَا بِالْمُنْدَلِ (1)

و من أمثلة الخواتم الدعائية قول أبي جعفر ابن شلبطور في آخر قصيدة مدحية:

{البيسط}

أَعْطَاكَ رَبُّكَ تَمْلِيكاً وَأَصْحَبَهُ نَصِراً وَيُسْراً عَطَاءً غَيْرَ مَمْنُونِ
وَاسْتَقْبَلْتَنِي الْمَعَانِي بِالْهِنَا أَبَداً فِي طَالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ الْمِيَامِينِ (2)
وقوله من قصيدة أخرى: {الخب}

كُنْ فِي سَعَةٍ مِنْ أَرْبَعَةٍ شَرَفٍ تَرْفٍ مُلْكٍ عُمُرِ (3)

ومن الخواتم الدعائية قول محمد التطيلي في ختام قصيدة داعياً للنصرين: {الكامل}

لَا زِلْتُمْ وَالسَّعْدُ يَخْدُمُ أَمْرَكُمْ فِي غِبْطَةٍ مَوْصُولَةٍ بِدَوَامِ
حَتَّى يَصِيرَ الْأَمْنُ فِي أَرْجَائِنَا عَبْدًا يَقُومُ لَنَا عَلَى الْأَقْدَامِ
وَاللَّهُ يَنْصُرُكُمْ وَيُعَلِّي مَجْدَكُمْ مَا سَحَّ إِثْرَ الصَّحْوِ مَاءَ غَمَامِ (4)

و من الشعراء الغرناطيين من مزج في الخاتمة بين وصف قصيدته والدعاء للممدوح، مثال

ذلك قول الرندي في ختام قصيدة مدحية: {الكامل}

خَذَهَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فَرِيدَةً مِمَّا يُهَامُ بِهِ وَلَا مَنْ يَعْذُلُ
كَالسَّحْرِ إِلَّا أَنَّهَا قَدْ حُلَّتْ كَالزَّهْرِ إِلَّا أَتْهَالَ لَا تَدْبُلُ
تَاهَتْ وَ لَمَّا أَنْهَيْتَ لِمَقَامِكُمْ جَعَلْتَ تُقْبَلُهُ عَسَاهَا تُقْبَلُ
فَلَيْنَ دُهَيْشَتْ فَلِلْمَمْلُوكِ مَهَابَةٌ وَلَيْنَ خَجَلَتْ فَإِنَّ مِثْلَكَ يُخْجَلُ (1)

(1) — مؤلف مجهول: مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: د 3835، ورقة: 366.

(2) — المصدر السابق، ورقة: 374.

(3) — الصدر نفسه، ورقة: 372.

(4) — المقرئ نفح الطيب ج 5 ص: 281، 282.

وقوله أيضا في ختام قصيدة أخرى مدح فيها الرئيس أبا الحسن علي بن نصر: {الكامل}

واهناً به نظماً تُزَانُ بِهِ الْعُلَا إِنَّ النِّظَامَ بِهِ يُزَانُ الْجَوْهَرُ⁽²⁾

وأما أبو عبدالله بن الحكيم فقد ختم قصيدة له مدح فيها محمد الفقيه بالحديث عن

القصيدة في أربعة أبيات، ثم قال في آخرها: {الرملة}

فَهِيَ فِي تَأْدِيَةِ الشُّكْرِ لَكُمْ أبدأً بَيْنَ احْتِفَاءٍ وَاحْتِفَالٍ⁽³⁾

هذا أبرز ما سجلته من ملحوظات حول قصيدة المدح السياسي في الشعر الغرناطي في

القرن السابع الهجري، وقد كان هناك نوع آخر من المدح وجد رواجاً في الأوساط

الغرناطية في هذه الحقبة من عمر الشعر الغرناطي إنه المدح النبوي الشريف و هو ما

سأتحدث عنه في الصفحات التالية .

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح: محمد الخمار الكنوني ص: 134.

(2) — مؤلف مجهول، المنظوم والمنثور مخطوط في خزانة خاصة في المغرب ، ورقة: 60، ظ.

(3) — المقرئ نفع الطيب ج 3 ص: 376 .

المبحث الأول

ثانياً : المدح النبوي

المدائح النبوية " هي من فنون الشعر التي أذاعها الزهد والتصوف ، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع ؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص " (1).

عُرِفَ هذا الفن في الغرب الإسلامي منذ عهد المرابطين، ثم الموحدين، ثم اتسع مجاله وبرزت طرائقه، واتضحت قساماته خلال عهد المرينيين، وقد تُوجَّ هذا الازدهار بظهور قصيدة المولد النبوي، ومدح النعال المقدسة (2).

عوامل الازدهار:

تضافرت عدة عوامل أسهمت في ازدهار هذا الفن في هذه الحقبة، كان من أبرزها :
أولاً — اهتمام الأندلسيين منذ زمن المرابطين بفن السيرة النبوية درساً وتهذيباً وتأليفاً، وقد برز خلال عهدهم عدد من العلماء في مجال السيرة النبوية، كابن حزم القرطبي (ت456هـ) صاحب (جوامع السيرة) (3)، ومعاصره أبي عمر بن عبد البر (ت463هـ) صاحب (الدرر في اختصار المغازي والسير)، وهو كتاب محقق ومطبوع (4)، وله أيضاً (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) (5)، وقد استمر الاهتمام بالسيرة إلى العصور اللاحقة، وظهرت عدة مؤلفات، ومما وصلنا منها كتاب في شرح سيرة ابن هشام المسمى (الروض الأثف) لأبي زيد عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي (ت581هـ) (6).

-
- (1) — زكي مبارك ، المدائح النبوية في الأدب العربي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، 1949 ، ص6 .
 - (2) — ينظر : محمد المنوني ، "ملاحم ودواوين في السيرة والمديح النبوي" ، دعوة الحق ، ع9 ، س9 ، 1960 ، المغرب ، ص97 .
وينظر أيضاً : محمد المنوني ، "المولد النبوي الشريف في المغرب المريني" ، دعوة الحق ، ع1 ، س12 ، 1968 ، المغرب ، ص117 .
 - (3) — حققه : إحسان عباس، وناصر الدين الأسد، وراجعاه، أحمد محمد شاكر، طبع، دار إحياء السنة، باكستان.
 - (4) — حققه شوقي ضيف، طبعة القاهرة، 1386هـ/1966م.
 - (5) — حققه: علي محمد الجاوي، ونشرت طبعته الأولى دار الجيل بيروت، 1412هـ - 1992م.
 - (6) — كانت أول طبعة للكتاب بمصر ، في مطبعة الجمالية ، سنة 1332هـ - 1914م. ثم طبع بعد ذلك ثلاث طبعات بمصر أيضاً : طبعة عباس الحلبي ، منذ نحو عشرين عاماً ، وطبعة دار الكتب الحديث (توفيق عفيفي) 1378هـ - 1967م ، وطبعة مكتبة الكليات الأزهرية (حسين أمبابي) 1391هـ - 1971م .

ثانياً — البعد الجغرافي بين البقاع المقدسة والبلاد الأندلسية ، حيث كان له أثر قوي في تأجيج لهيب الشوق والحنين لدي الغرناطين، وقد أشار إلى هذا الملمح الدكتور زكي مبارك ، حيث قال : " لأن بعد المزار غزا القلوب بأقباس الحنين " (1)، وقد عبر عدد من الشعراء الغرناطين عن هذا الملمح ؛فمالك ابن المرحل الذي " لم يكتب له رغم هذا الشوق والتوق الرحلة إلى خارج العدوتين الأندلس والمغرب ؛مما أضرم في طواياه نار الحنين إلى ديار الرسول صلى الله عليه وسلم البعيدة النائية عن دياره" (2) عبر من خلال مدائحه النبوية عن عدم القيام بالحج وقصد الحجاز بسبب البعد الجغرافي عن تلك الديار، من ذلك قوله: {الطويل}

صَدَعْتُ بِحُبِّي مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ وَرَفَرْتُ فِي وَكْرِي وَرَيْشِي ذُو قَصٍّ (3)

ومن الشعراء الغرناطين الذين عبروا عن هذا الملمح أبو محمد بن عبد العظيم الوادي آشي (كان حيا سنة 700 هـ) (4) حيث يقول : {الطويل}

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ مُحِبِّ مُتَيْمٍ ثَوَى قَلْبُهُ شَرْقاً وَجُثْمَانُهُ غَرْباً (5)

ثالثاً — الواقع السياسي المتردي الذي عاشته الأندلس في القرن السابع الهجري ؛فقد بدأت القوى الصليبية منذ مطلع هذا القرن تنتزع المدن الأندلسية مدينة تلو أخرى ،وقد شكل هذا الأمر تهديداً صارخاً لكيان الإسلام في الأندلس ،ومن ثم أخذ الشعراء يوقظون الهمم والعزائم متخذين من النبي ﷺ نبراساً هادياً ،طالبين منه الشفاعة والعون والنصر ،مذكرين الأمة الأندلسية بمجهاده ضد المشركين ،ومواقفه الصامدة في مواجهة أعداء الإسلام ؛لكي يستطيعوا الصمود في مواجهة الزحف الصليبي ،يقول الدكتور شوقي ضيف "و حين اشتد الضعف بدولة الموحدين — أي في بداية القرن السابع الهجري — وأخذت المدن الأندلسية تسقط مدينة وراء مدينة في حجر النصارى الشماليين ،تكاثر المديح

(1) — زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ، ج1 ، القاهرة ، مطبعة الرسالة ، 1983 ، ص :280

(2) — محمد مسعود جبران مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص :186 .

(3) — المرجع السابق ، ص :403 .

(4) — ترجمته لدى : ابن الخطيب ، الإحاطة ، "نصوص جديدة لم تنشر" تح : عبدالسلام شقور ، ط1 ، المغرب ، مؤسسة التغليف و الطباعة ، 1988 ، ص:141.

(5) — عبدالرحمن بن محمد الجادري الفاسي ، شرح البردة ، مخطوط في خزانة محمد المنوي ، الرباط ، ميكروفيلم 1375، ورقة 23.

النبي؛ إذ اتخذ الشعراء الأندلسيون أداةً للاستغاثة والاستنجاد بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، لإنقاذهم من محتهم...⁽¹⁾.

والواقع أن هناك أوجه تشابه بين الواقع السياسي المتردي في المشرق والمغرب في هذه الحقبة؛ فقد كان المشرق يتعرض للحملة الصليبية القادمة إليه من الغرب، والهجوم التتري الكاسح المنطلق من الشرق ويكفي أن أذكر بأن احتياح التتار الكاسح لبغداد كان سنة 656 هـ وهي المدة التي كانت فيها المدن الأندلسية تسقط تترى بأيدي النصارى، وقد أدى هذا الخطر المشترك إلى خلق شعور مشترك بالضعف وقلة الحيلة على الأقل بين الشعراء المسلمين في الشرق والغرب، ولم يكن أمام الأدباء والشعراء — وهم ضمير الأمة ولسانها الناطق — سوى أن يتوجهوا إلى الرسول ﷺ يستشفعون به ويطلبون منه العون والنصرة..⁽²⁾.

رابعاً — الاحتفال بالمولد النبوي الذي أضحي منذ بداية القرن السابع تقليداً راسخاً في الغرب الإسلامي، سواء في الأندلس أو المغرب، وكانت مدينة وادي آشي من المدن الغرناطية التي تحرص على الاحتفال بهذه المناسبة، وكان المتصوفة في هذه المدينة يقومون بإحياء المولد النبوي، وخلال تلك الاحتفالات كانت تُنشد قصائد المديح النبوي. وكان لوالي مدينة سبتة الفقيه أبي العباس أحمد بن محمد العزفي اللخمي دور في رسوخ الاحتفال بالمولد النبوي في العدو المغربية إلى العصر الحاضر، وقد ذكرت في مكان سابق من هذه الدراسة أن لهذا الرجل كتاباً يخص الاحتفال بالمولد النبوي الشريف⁽³⁾.

ثمة عامل أخير أسهم في انتشار المدح النبوي في هذه الحقبة، ألا وهو انتشار الفكر الصوفي بين الأوساط المسلمة، فقد "بدأ التصوف في الغرب ضعيفاً ينكره الفقهاء والمحدثون من أهل الظاهر، ولكنه ما لبث أن أصبح له من الانتشار ما أصبح الصوفية به أكثر المشتغلين بأمور الدين حظوةً وشعبيةً عند الجماهير..⁽⁴⁾، وقد ساعدت طقوسهم المتمثلة في الأدعية وحلقات الذكر والإنشاد على خلق مناخ مناسب لانتشار فن المدائح

(1) — شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات، ط1، مصر، دار المعارف، د.ت، ص371

(2) — ينظر: محمد علي مكي، المدائح النبوية، ص123 (بتصرف).

(3) — ينظر: ص50 من هذه الدراسة.

(4) — المرجع السابق، ص129.

النبوية وذيوعه ، وقد أولى الدكتور زكي مبارك هذا الجانب أهمية كبيرة ؛ حيث قصر دوافع نشأة هذا الفن ومناخه على البيئات الصوفية ، وذهب إلى القول بأنه " لم يهتم به من غير المتصوفة إلا القليل .. " (1).

والسؤال الآن : ما أبرز المحاور التي بُنيت عليها قصيدة المدح النبوي في هذه الحقبة ؟

محاور قصيدة المديح النبوية :

بالرغم من كثرة الدروب والمسالك المتنوعة التي استخدمها الشعراء الأندلسيون في بناء مدائحهم النبوية ، إلا أنه يمكن رصد بعض المحاور التي لا تكاد تخلو منها قصيدة نبوية ، وتتمثل هذه المحاور في المقدمة التي قد تطول أو تقصر ، ثم في رصد صفات النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته وسيرته ، ثم طلب الشفاعة والعتق ، ثم الصلاة والتسليم عليه ، ولا يعد وجود هذه العناصر أو المحاور مجتمعة شرطاً في قصيدة المديح النبوي ، فقد يقتصر الشاعر على بعض هذه العناصر دون بعضها الآخر ، على أن الثابت في معظم المدائح النبوية التي قيلت في هذه الحقبة أن تشتمل القصيدة النبوية على هذه العناصر ، وسنحاول فيما يلي الوقوف على هذه المحاور:

أولاً — المقدمة :

هي أول عنصر تتشكل منه قصيدة المديح النبوي ، وتنسم المقدمة في هذا الفن بطابع خاص يختلف عما هو معروف في قصائد المديح الأخرى التي تعتمد المقدمة فيها على تعدد الموضوعات. فالمقدمة في القصيدة النبوية قد تنهض على التأمل أو الإغراء بالزهد في الدنيا، ثم الانتقال إلى المدح النبوي ، كما هو الحال في قصيدة مالك ابن المرحل التي استهلها بقوله : {المتقارب}

رَأَيْتُ الْفَتَى لَا يَمَلُّ الْأَمْلُ وَ إِنِّ عَمَلِ الْخَيْرِ مَلُّ الْعَمَلِ
وَيَأْمَنُ دَهْرًا يَرَى مَكْرَهُ وَيَسْمَعُ عَنْ فَتْكَهِ بِالْأَوَّلِ
وَهَلْ طُرِرُ الصَّبْحِ إِلَّا ظُبًّا وَ هَلْ غُرِرُ الشَّهْبِ إِلَّا الْأَسَلِ
أَتَحْسَبُ دُنْيَاكَ هَذَا عُرُوسًا؟! تَهَادِي إِلَيْكَ وَتُهْدِي الْجَذَلَ (2)

(1) — زكي مبارك ، المدائح النبوية في الأدب العربي ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، 1949 ، ص 17 .

(2) — محمد مسعود جبران ، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص 342 .

وقد تنهض المقدمة على وصف الشوق إلى زيارة مدينة الرسول ﷺ وقبره الطاهر ؛ ذلك " لأن بعد المزار غزا القلوب بأقباس الحنين"⁽¹⁾، على حد قول الدكتور زكي مبارك، فتردد أصدااء الشوق وتتفجر لوعة الحنين في أعماق الشاعر الغرناطي كلما هبّ نسيم، أو أزمع ركبٌ على التوجه إلى تلك الأراضى المباركة، يقول أبو الحسن على بن سعيد الغرناطي في مقدمة قصيدة نبوية معبراً عن شوقه إلى تلك البقاع المقدّسة بعد أن تعذّر عليه زيارتها: {الكامل}

يا سَائِرِينَ لَيْثِرِبِ بُلْعْتُمْ قَدْ عَاقَنِي عَنْهَا الزَّمَانُ الْأَثْكَدُ
أَعَلِمْتُمْ أَنْ طِرْتُ دُونَ مَحَلِّهَا سَبَقًا وَهَذَا أَنَا إِذْ تَدَانِي مُقْعَدُ
لَا طَابَ عَيْشٌ أَوْ أَحِلَّ بِطَيْبَةٍ أَفْقٌ بِهِ خَيْرُ الْأَنْامِ مُحَمَّدُ
يَا لَيْتَنِي بُلَعْتُ لَثْمَ تُرَابِهِ يَزْدَادُ سَعْدًا مَنْ بِذَلِكَ يَسْعَدُ⁽²⁾

ومثل هذا أيضاً قصيدة مالك ابن المرحل النبوية التي استهلها بذكر الشوق، ووصف

حنينه إلى الديار المقدسة؛ حيث قال: {البيسط}

شوقٌ كما رُفِعَتْ نارٌ على عَلمٍ تُشَبُّ بَيْنَ فِرْعَوْنَ الضالِّ وَالسَّلْمِ
أَلْفُهُ بَضْلُوعِي وَهُوَ يَحْرِقُهَا حَتَّى بَرَانِي بَرِيًّا لَيْسَ بِالْقَلَمِ
مَنْ يَشْتَرِينِي بِالْبُشْرَى وَيَمْلِكُنِي عَبْدًا إِذَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَى الْحَرَمِ
دَعِ لِلْحَبِيبِ ذِمَامِي وَاحْتَمِلْ رَمَقِي فَلَيْسَ ذَا قَدَمٍ مِنْ لَيْسَ ذَا قَدَمِ
يَا أَهْلَ طَيْبَةٍ طَابَ الْعَيْشُ عِنْدَكُمْ جَاوَرْتُمْ خَيْرَ مَبْعُوثٍ إِلَى الْأُمَمِ
عَايِنْتُمْ جَنَّةَ الْفَرْدُوسِ عَنِ كُتْبِ فِي مَهْبَطِ الْوَحْيِ وَالْآيَاتِ وَالْحَكَمِ
لَتَرْكُنَ بِهَا الْأَوْطَانَ خَالِيَةً وَنَسْلُكُنَ لَهَا الْبِيدَاءَ فِي الظُّلْمِ⁽³⁾

وقد تنهض مقدمة قصيدة المديح النبوي على ذكر صفات المصطفى ﷺ، كما في قصيدة أخرى لابن المرحل استهلها بقوله: {الطويل}

بوصف حبيبي طرّز الشعرَ ناظمه ونمّم خدّ الطرس بالنقش راقمه

(1) — زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، ج1 ص280.

(2) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، جمعها: يوسف بن إسماعيل النبهاني، ج2، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ، 1996، ص43.

(3) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص351.

حبيبٌ له فضلٌ على الناسِ كلهم
مفاخرُهُ مشهورةٌ و مكارمُهُ
له الحسنُ والإحسانُ في كلِّ مذهبٍ
فآثاره محمودَةٌ و معالمه (1)

وقد تنهض بعض مقدمات المدائح النبوية على ذكر غزل عفيف ، كما هو الحال في قصيدة
أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي التي بدأها بقوله : {الطويل}
دَعَا للهِوى و القلبُ أولُ مَنْ لَبَّى
حَبِيبٌ أَتَارَ الفِكرَ إذ نَوَّرَ القلبَا
سقاني شرابَ الحبِّ في أرضِ أَنسِهِ
فمَتَّعَنِي أَنسًا وَأَسْكَرَنِي حَبًّا (2)

وقوله أيضا في مطلع قصيدة أخرى : {البيسط}
نَمَّتْ بِسَرِّ غَرَامِ القَلْبِ أَحْفَانُ
لَمَّا اسْتَقَلَّتْ غَدَاةَ البَيْنِ أَظْعَانُ (3)

فمثل هذا الاستهلال الغزلي يترع فيه الشاعر إلى حبِّ النبي ﷺ ، وهو يعود إلى تأثير صوفي؛ فقد أقرَّ ابن عربي بذلك في قوله "وجعلت العبارة عن ذلك بلسان الغزل أو التشبيب؛ لتعلق النفوس بهذه العبارات ، فتتوفر الدواعي على الإصغاء إليها ، وهو لسان كل أديب روحاني لطيف .." (4).

وربما تقوم القصيدة النبوية على الاستهلال بمقدمة خميرية؛ وذلك على نهج المتصوفة في التعبير عن الحب الإلهي ، من ذلك قصيدة أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي النبوية التي استهلها بمقدمة خميرية طويلة تعبيراً عن حب النبي ﷺ ، قال فيها : {الطويل}
تَعَالَوْا نُعَاطِئُهَا مُقَدَّسَةَ صِرْفَا
فَنَرَشُفُهَا فِي بَسْطِ رَوْضِ الهُدَى رَشْفَا
أَنَارَ بِهَا الأَكْوَانَ نَوْرًا فَأَشْرَقَتْ
وَمِنْ قَبْلِ مَوْجُودَاتِهَا وَجَدْتُ لُطْفَا
شَرِبْنَا بِأَكْوَابِ الصَّفَاءِ صَفَاءَهَا
فَلِلَّهِ مَا أَحْلَى هَوَاهَا وَمَا أَصْفَى
وَعَبْنَا عَنِ الإِحْسَاسِ مِنْ طِيبِ سُكْرِهَا
فَلَا حَ لَنَا فِي الكَوْنِ مَا لَمْ يَكُنْ يَخْفَى (5)

وهكذا يتضح أن الشعراء الغرناطين سلكوا دروبا ومسالك متنوعة في بناء مقدمات مدائحهم النبوية وبدا الأثر الصوفي واضحا من خلال هذه المقدمات.

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص352 .

(2) — عبدالرحمن الجادري الفاسي ، شرح البردة ، مخطوط في الميكروفيلم رقم 1375 المكتبة الوطنية ، الرباط ، ورقة : 24 .

(3) — المصدر السابق ، ورقة 24 .

(4) — محيي الدين بن عربي ، ذخائر الأعلام — شرح ترجمان الأشواق ، بيروت ، المطبعة الأنسية ، 1312هـ ، ص5 .

(5) — المجموعة النهائية في المدائح النبوية ، ج2 ، ص308 .

ثانياً — المعاني التي ركز عليها الشعراء الغرناطيون في مدائحهم النبوية :

1 — الإشادة بصفات النبي صلى الله عليه وسلم وشمائله الطاهرة:

تحدث الشعراء الغرناطيون عن الصفات المعنوية للنبي ﷺ، ومزجوا بينها وبين الصفات الحسية، فأشادوا بكرمه، وعفته، وصفحه، ووفائه، وعفوه، ورحمته، ورأفته، وكرم أخلاقه، وبشجاعته؛ يقول ابن المرحل: {الطويل}

رؤوف عطف أوسع الناس رحمةً وجادت عليهم سحبه وغمائمه
حفي وفي لا تميمن عهوده حمي أبي لا تلمين شكائمه⁽¹⁾

ويشيد أبو محمد بن عبد العظيم الوادي أشي بالصفات الحسية والمعنوية للرسول ﷺ؛ فيقول: {الطويل}

فصف حُسن بدرٍ لاح في آل هاشم رأى البدرُ مرآه المتَّم فاستخفى
حبيبٌ لمن يهواه أصبح ملجأً ملاذ لمن آوى إلى ظلّه الأخفى
وجيهٌ فكلُّ الناسِ تحت لوائه شفيعٌ لأرباب الخطايا غدا كَهفًا⁽²⁾

ويشيد ابن سعيد الغرناطي برحمة النبي ﷺ، وبشجاعته في مواجهة طواغيت الكفر؛ حيث يقول: {الكامل}

يا رحمةً للعالمين بُعثت والدُ دُنيا بجنح الكفر ليل أربدُ
أطلعت صبحاً ساطعاً فهديت ليلُ إيمانٍ إلا من يحدُّ ويحدُّ
لم تخش في مولاك لومة لائم حتى أقرَّ به الكفور المُلحدُ
ونصرت دين الله غير محاذر ودعوت للأخرى الألى قد أسعدوا
ولقيت من حرب الأعداي شدةً لو كابدوها ساعةً لتبددوا⁽³⁾

ويشيد ابن المرحل بشجاعته وحلمه وعفوه وكرمه وذلك في قوله: {الطويل}

قِرَاعٌ إِذَا كَانَ الْقِرَاعُ لِمُوجِبٍ عَفُوٌّ إِذَا مَا رَاجَعَ الْحَلَمَ مَائِقُ

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 352.

(2) — المجموعة النبوية في المدائح النبوية، ج2، ص: 309.

(3) — المرجع السابق ج2 ص: 44.

قَرَاهُ عَظِيمٌ وَالْقَرَارُ مِنَ الْقَرَى فَمَا لِلنَّدَى أَوْ لِلهُدَى عَنْهُ عَائِقُ⁽¹⁾
 وفي قوله أيضاً معدداً صفات النبي العظيمة ﷺ: {الطويل}
 سَمَاحٌ وَإِنْعَامٌ وَبَأْسٌ لَدَى الْوَعَى وَحِلْمٌ لَهُ طَيْبُ الْأُرُومَةِ خَامِسُ
 سَمِعٌ إِلَى دَاعِيهِ فَالْنَهْجُ سَالِكٌ وَإِنْ قِيلَتْ الْعُورَاءُ فَالْنَهْجُ طَامِسُ⁽²⁾
 ويمزج ابن المرحل بين صفاته الحسية وصفاته المعنوية ﷺ؛ حيث يقول: {الطويل}
 مُحَيَّاهُ أَحْيَا بِالْحَيَا كُلُّ مُجْدِبٍ وَجَلَّى بِأَنْوَارِ الْهُدَى كُلُّ مُظْلِمٍ⁽³⁾
 ويقول أيضاً: {الطويل}
 شُرُوقٌ جَبِينِ الْمُصْطَفَى أَوْضَحَ الْهُدَى فَمَالِكَ يَا بَطَّالُ غَشَّائِكَ مَا غَشَّائًا⁽⁴⁾

2 — ذكر معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته المثلى:

تناول الشعراء الغرناطيون جوانب الثراء في شخصية النبي ﷺ، وحاز هذا الجانب مساحة كبيرة في قصائد المديح النبوي، وتغنوا بمولده ﷺ، وما صاحبه من بشائر ومعجزات، فها هو إيوان كسرى قد تصدعت جدرانها وشرفاته، وها هي نار الفرس قد خمدت، وبحيرة (ساوه)⁽⁵⁾، قد أدركها الجفاف فغاض ماؤها، إلى غير ذلك من المعجزات الكثيرة التي رافقت ولادته وبعثته ودعوته وجهاده ﷺ؛ يقول مالك بن المرحل مضمناً بعض هذه الإمارات، والبشائر في قصيدة نبوية: {الطويل}

بَدَا أَمْرُهُ لِلْفُرْسِ عِنْدَ وِلَادَةِ فَاصْبَحَ كِسْرَى ذَا انْكَسَارٍ مِنَ الرُّعْبِ
 بَكَى إِذْ رَأَى الْإِيوَانَ مُرْتَجِسًا بِهِ وَلَا حَتَّ لَهُ الْآيَاتُ فِي الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ
 بِيوتٍ مِنَ النَّيْرَانِ بَاتَتْ خَوَامِدًا وَبَحْرٌ بَعِيدُ الْقَعْرِ أَضْحَى بِلَا شَرْبِ

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 375.

(2) — المرجع السابق، والموضع نفسه.

(3) — المرجع نفسه، ص: 370.

(4) — المرجع نفسه، ص: 376.

(5) — بحيرة: ساوه، كانت بحيرة عظيمة في مملكة العراق، تسير فيها السفن، وهي أكثر من ستة فراسخ، فأصبحت ليلة مولده، يابسة ناشفة، كأن لم يكن بها ماء، واستمرت على ذلك حتى بني مكانها "ساوه" وبقيت إلى اليوم.

وساوه بعد الألف واو مفتوحة بعدها هاء ساكنة مدينة حسنة بين الري وهمدان في الوسط، وتقربها مدينة يقال لها: (آوه) فساوه سنية شافعية، وآوه أهلها شيعة إمامية، وبينهما نحو فرسخين ولا يزال يقع بينهما عصبية وما زالتا معمورتين إلى أن خرَّها التتار سنة 671هـ، ويبلغ طول ساوه سبعة وسبعين درجة، وعرضها خمساً وثلاثين درجة، والنسبة إلى ساوة ساوي، وساوجي، وقد نسب إليها طائفة من أهل العلم. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان - ج 3 ص: 179.

بَوَارِقُ لَاحَتْ بَعْدَ جَذْبِ فَشَامِهَا سَطِيحٌ فَنَادَى حِينَ أَلْقَيْنَ بِالْخِصْبِ⁽¹⁾
 ويرصد أبو الحسن ابن حمدون المالقي⁽²⁾ بعض المعجزات التي رافقت مولد الرسول ﷺ
 ودعوته وجهاده ضمن قصيدة نبوية قال فيها: {الطويل}

بِهِ أُخْمِدَتْ مِنْ قَبْلِ نِيرَانِ فَارِسٍ وَحَقَّقَ مِنْ ظُبِّي الْفَلَاةِ حِطَابُ
 وَكَمْ قَدْ سَقَى مِنْ كَفِّهِ الْجَيْشَ فَارْتَوَى وَكَمْ قَدْ شَفَى مِنْهُ الْعُيُونَ رُضَابُ⁽³⁾

ويرصد ابن المرحل معجزة الغار الذي حمى النبي ﷺ ورفيقه أبا بكر الصديق ، وما
 كان من رعاية الله لهما حين قيض لهما الحمامة ، والعنكبوت التي نسجت على فوهة الغار
 ستراً يوهم جموع الشرك ، ويبعدهم عنهما ، وما كان من أمر سراقه بن مالك وغوص
 سيقان فرسه في الوحل عندما همَّ بإدراك ركب الرسول ﷺ ؛ وذلك في قوله : {الطويل}

حَوَى الْغَارُ مِنْهُ سِرًّا عِلْمٌ وَحِكْمَةٌ فَأَطْبَقَ أَحْنَاءٌ عَلَيْهِ شَحَا حَا
 حَمَاهُ حَمَامٌ دَاجِنٌ وَعَنَاكِبُ نَسَجْنَ فَصَيَّرْنَ الْبُيُوتَ صِحَا حَا
 حَنَا نَحْوَهُ رَأْسَ الْجَوَادِ سَرَا قَةٌ فَسَاخَتْ يَدَاهُ فِي الطَّرِيقِ فَصَا حَا
 حَنَايِكَ هَذِي آيَةٌ فَدَعَا لَهُ فَلَا قَى فَلَاحًا بَعْدَ ذَا وَنَجَا حَا⁽⁴⁾

كذلك رصد الشعراء ما تناقلته كتب السير عن معجزاته ﷺ ، وما ظهر على يديه من
 خوارق العادات ، كانشقاق القمر ، وتفجر الماء من بين أنامله الكريمة ، وسجود الشجرة
 ومشيتها نحوه ، وحديثه مع الحجر ... إلخ ، يقول أبو محمد بن عبدالعظيم الوادي أشي
 راصداً بعض هذه المعجزات العظيمة : {البيسط}

وَبِالْعَجَائِبِ آتَى فِي مَدَائِحِهِ وَأَذْكَرُ الْمَعْجَزَاتِ الْغَرِّ وَالْأَثْرَا
 طِمَاعَةٌ وَرَجَاءٌ فِي تَلْطَفِهِ وَمِنْ رَجَاهِ بِإِدْرَاكِ الْمَنِيِّ ظَفْرَا
 وَلِلشِّفَاعَةِ يَدِينِي وَلَا قَنْطُ فَقَدْ يَفُوزُ بِمَا يَهْوَاهُ مِنْ صَبْرَا
 كَأَحْمَدِ الْمَصْطَفَى الْمُخْتَارِ مَا حَمَلَتْ أَنْثَى وَلَا وَضَعَتْ مِنْ بَطْنِهَا قَمْرَا

(1) — محمد مسعود جبران ، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص: 381 .

(2) — ذكره المقرئ في نوح الطيب ، ج 3 ص: 365 وذكر أنه أنشدها سنة 667 هـ .

(3) — المجموعة النبوية في الملائح النبوية ، ج 1 ، ص: 355 .

(4) — محمد مسعود جبران ، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص: 386 . والأحناء: الضلوع. وساخت: أي غارت وغاصت في

مَنْ أَتَى بِأَنْشِقَاقِ الْبَدْرِ مُعْجِزَةً فَحُسْنُهُ كُلِّ حَسَنِ بِالسَّنَا بَهْرًا
بِمَسِّهِ الْبَيْرَ بِالْعَذْبِ الزَّلَالِ طِفْتُ وَكَانَ مِلْحًا أَجَاجًا مَأْوَاهَا قَدِيرًا
وَإِذْ شَكَا الْجَهْدَ فِي الْإِرْوَاءِ عَسْكَرُهُ تَفَجَّرَ الْمَاءُ عَنْ يُمْنَاهُ فَاثْفَجَرَا

والجذعُ حَنَّ له شوقاً فسكته وكلم الضبِّ والأشجارَ والحجرا (1)

ويرصد ابن سعيد الغرناطي ضمن قصيدته النبوية بعض معجزات النبي ﷺ حيث يقول :
{الكامل}

فَحَمَاكَ بِالْغَارِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَدْلُ لِ الْمَعْجِزَاتِ وَخَابَ مَنْ يَتَرَصَّدُ
وَوَقَاكَ مِنْ سُمِّ الدَّرَاعِ بِلُطْفِهِ كَيْمَا يُغَازِ بِكَ الْعِدَا وَالْحُسَّادُ
وَالْجِذْعُ حَنَّ وَمَاءٌ كَفَّكَ قَدْ هَمَى مَا بَيْنَ خَمْسِكَ وَالصَّحَابَةِ شَهْدُ
وَالذُّئْبُ أَنْطِقَ لِلَّذِي أَضْحَى بِهِ يُهْدِي إِلَى سَبِيلِ النَّجَاحِ وَيُرْشِدُ (2)

ويعدد أبو حيان الغرناطي (645، 745 هـ) (3) في قصيدة نبوية معجزات النبي ﷺ ؛ حيث
يقول: {البيسط}

وَكَمَ لَهُ مُعْجِزًا غَيْرَ الْقُرْآنِ أَتَى فِيهِ تَصَافَرُ مَنَقُولٌ وَمَعْقُولُ
فَلِلرَّسُولِ أَنْشِقَاقُ الْبَدْرِ نَشْهَدُهُ كَمَا لِمُوسَى انْفِلَاقُ الْبَحْرِ مَنَقُولُ
وَنَبْعُ مَاءِ فُرَاتٍ مِنْ أَنْامِلِهِ كَالْعَيْنِ ثَرَّتْ فَمَا الْهَتَّانُ مَا النَيْلُ؟
رَوَى الْخَمِيسَ وَهُمْ زُهَاءُ سَبْعِمِيءٍ مَعَ الرِّكَابِ فَمَشْرُوبٌ وَمَحْمُولُ
وَالْجِذْعُ حَنَّ إِلَيْهِ حِينَ فَارَقَهُ حَنِينَ وَلَهَى لَهَا لِلرُّومِ مَثْكُولُ
وَأَشْبَعَ الْكُثْرَ مِنْ قُلِّ الطَّعَامِ وَلَمْ يَكُنْ يَمَعْرُهُ بِالْكَثْرِ تَقْلِيلُ
وَالْعَنْكَبُوتُ بِيَابِ الْغَارِ قَدْ نَسَجَتْ حَتَّى كَأَنَّ رِدَاءً مِنْهُ مَسْدُولُ
وَفَرَّخَتْ فِي رِحَاهُ الْوُرُقُ سَاجِعَةً تَبْكِي وَمَا دَمْعُهَا فِي الْخَدِّ مَطْلُولُ (4)

وتعد معجزة الإسراء والمعراج من بين المعجزات التي كثيراً ما ترددت في قصائد المدح

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، "نصوص جديدة لم تنشر" تح : عبدالسلام شقور ، ص 141 — 142 .

(2) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ، ج 2 ، ص 44 ، 45 .

(3) — ينظر ترجمته: في درة الحجال ، ص 196 ، ترجمة رقم : 573 . وكذلك في نفع الطيب ج 3 ص : 289 .

(4) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ، ج 3 ، ص 48 .

النبوي إما تلميحاً أو تصريحاً ، فقد وصف الشعراء الغرناطيون إسرائ الرسول ليلاً من الحرم المكي إلى بيت المقدس ، ثم معراجه في السماوات السبع حتى أضحى ﴿قَاب قَوْسِينَ أَوْ أَدْنَى﴾⁽¹⁾ . فمالك ابن المرحل يرصد هذه المعجزة في العديد من مدائحه النبوية؛ من ذلك قوله: {المتقارب}

وَإِسْرَاءَ رُوحٍ وَجِسْمٍ مَعًا	إِلَى حَضْرَةِ الْقُدْسِ ذَاتِ الْأَزَلِ
إِلَى حَيْثُ لَا فَلَكَ يَسْتَدِيرُ	إِلَى حَيْثُ لَا مَلَكٌ يَسْتَقِلُّ
وَلَا سَبَقَ الدَّلُوفِيهِ الرَّشَا	وَلَا تَبَعَ الثُّورُ فِيهِ الحِمْلُ
وَلَا المَشْتَرِي فِي ذُرَاهُ اشْتَرَى	وَلَا زُحَلٌ فِي مَدَاهُ رَحَلُ ⁽²⁾

وفي قوله أيضا ضمن قصيدة نبوية أخرى : {الطويل}

لِإِسْرَائِهِ فَوْقَ السَّمَوَاتِ آيَةً بَدَتْ فَهَدَّتْ مَنْ كَانَ ضَلَّ ضَلَالًا⁽³⁾

ومثل هذا قول أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي راصداً هذه المعجزة ضمن قصيدة نبوية : {الطويل}

وَمَنْ خُصَّ بِالإِسْرَاءِ وَالقُرْبِ كَيْفَ لَا	بِهَدْيِ المعَالِي يُفْضَلُ الجِنْسَ وَالصَّنْفَا
دَنَا قَابَ قَوْسِينَ اخْتِصَاصًا وَأَثَرَةً	دُنُوَّ حَيِّبِ عَهْدٍ مَحْبُوبِهِ وَفَى
فَكَانَ إِمَامًا لِلصَّلَاةِ مُقَدِّمًا	وَجَبْرِيْلُ وَالْأَرْسَالُ مِنْ خَلْفِهِ صَفًّا ⁽⁴⁾

ويشيد أبو الحسن علي بن سعيد الغرناطي بهذه المعجزة حيث يقول : {الكامل}

وَبَلِيْلَةَ الإِسْرَاءِ حَبَاكَ وَسَمِّي الصِّ — صِدِّيقَ مَنْ أَضْحَى بِقَوْلِكَ يَسْعَدُ⁽⁵⁾

وقد رصد ابن المرحل في قصيدته النبوية — التي سماها (الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى) — هذه المعجزة ؛ وذلك في قوله : {الطويل}

جِهَارًا وَفِي الإِسْرَاءِ لَاحَتْ سَرَائِرُ	فَمِنْ هَالِكِ تَلْكَ الغَدَاةِ وَمِنْ نَاجِ
جَلَالَتِهِ لَاحَتْ لِكُلِّ مُقَرَّبِ	بِإِسْرَاعِ جَبْرِيْلِ إِلَيْهِ .مَعْرَاجِ

(1) — سورة النجم ، آية : 9 .

(2) — محمد مسعود جبران ، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ص: 345 .

(3) — المرجع السابق ، ص: 378 .

(4) — المجموعة النهائية في المدائح النبوية ، ج 2 ، ص: 310 .

(5) — المرجع السابق ، ج 2 ، ص: 45 .

جَمَاهِيرُ سُكَّانِ السَّمَاوَاتِ أَقْبَلُوا
لَلْقِيَاهُ أَفْوَاجاً عَلَى إِثْرِ أَفْوَاجِ
جَمَاعَةٍ سَادَاتِ كَمُوسَى وَآدَمَ
لَقَوُهُ بِتَرْحِيبٍ هُنَاكَ وَإِنْبَهَاجٍ⁽¹⁾

ولم ينسَ الشاعر الغرناطي وهو يعدد معجزات الرسول ﷺ معجزة القرآن الكريم الذي كان وسيبقى معجزة الإسلام الخالدة — مهما توالى الأحقاب وكثرت الأحقاد — محفوظاً من أن يُحرّف أو يُمسّ بسوء، أو أن يكون له مثال بما حواه من بلاغة وإعجاز وقف فصحاء العرب وبلغاؤهم عاجزين عن الإلمام أو الإحاطة به، يقول ابن سعيد الغرناطي راصداً هذا الملمح في قصيدته النبوية: {الكامل}

وَحَبَاكَ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ وَمُعْجَزِ الْـ
كَلِمِ الَّذِي يَهْدِي بِهِ وَيُهْدَدُ
وَبُعِثْتَ بِالْقُرْآنِ غَيْرَ مُعَارِضٍ
فِيهِ وَأَمْسَى مَنْ نَحَاهُ يُطْرَدُ
فَتَوَالَتِ الْأَحْقَابُ وَهُوَ مُبْرَأٌ
مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثَالٌ يُوجَدُ
وَلَكُمْ بَلِيغٌ جَالٌ فَصَلَ حِطَابِهِ
وَالسُّرُجُ فِي ضَوْءِ الْعَزَالَةِ تَهْمَدُ⁽²⁾
و يشيد أبو حيان الغرناطي بأعظم معجزات الرسول محمد ﷺ ألا وهي معجزة القرآن الكريم الذي أعجز أرباب الفصاحة عن مجارة بلاغته أو الإحاطة بمواطن الإعجاز فيه وهو باقٍ محفوظ؛ لأن الله تكفل بحفظه من كل تحريف؛ يقول: {السيط}

يَتْلُو كِتَاباً مِنَ الرَّحْمَنِ جَاءَ بِهِ
مُطَهَّرًا ظَاهِرًا مِنْهُ وَتَأْوِيلُ
جَارٍ عَلَى مَنَهَجِ الْأَعْرَابِ أَعْجَزَهُمْ
بَاقٍ مَعَ الدَّهْرِ لَا يَأْتِيهِ تَبْدِيلُ
بَلَاغَةٌ عِنْدَهَا كَعَّ البَلِيغُ فَلَمْ
يَنْطِقْ وَفِي هَدْيِهِ طَاحَتْ أَصَالِيلُ
وَطُوبُوا أَنْ يَجِئُوا حِينَ رَأَيْتَهُمْ
بِسُورَةٍ مِثْلِهِ فَا سْتَعْجَزَ القَيْلُ

.....
.....
قد انْقَضَتْ مُعْجَزَاتُ الرُّسُلِ مِنْذُ قَضَوْا
نَحْبًا وَأُفْجِمَ مِنْهُ ذَلِكَ الْجَيْلُ
وَمُعْجَزَاتُ رَسُولِ اللَّهِ بِأَقْيَمَةٍ
مَحْفُوظَةٌ مَا هِيَ فِي الدَّهْرِ تَحْوِيلُ
تَكْفَّلَ اللَّهُ هَذَا الذِّكْرَ يَحْفَظُهُ
وَهَلْ يَضِيغُ الَّذِي بِاللَّهِ مَكْفُولُ⁽³⁾

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 385.

(2) — المجموعة النهائية في المدايح النبوية ج 2، ص: 45.

(3) — المصدر السابق، ج 3، ص: 47، 49.

3 — إظهار العجز عن إدراك صفات شخصية النبي ﷺ:

ثمة محور ردده الشعراء الغرناطيون في مدائحهم النبوية، وهو يتمثل في فكرة العجز عن حصر مناقب الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته ومعجزاته الباهرة، وارتداد آفاقه الشاسعة، والخوض في غمار لجة بحره الزاخر بالصفات العظيمة والآيات الكريمة، ويعد هذا المحور ملمحاً واضحاً تناوله جلّ الشعراء الغرناطيين في مدائحهم النبوية، فأبو محمد بن عبد العظيم الوادي آشي يصرح بالتقصير والعجز عن حصر ما تتسم به شخصية النبي ﷺ؛ لأن القرآن لم يترك مجالاً لوصفه أو مدحه، إذ حصر أوصافه أجلّ حصر؛ يقول:

{البيسط}

أتيتُ بالبعضِ من آياتِهِ إِنِّي مُقَصِّرٌ وَلِعَجْزِي جِئْتُ مُخْتَصِرًا
كُلُّ الخَوَاطِرِ والأَذْهَانِ قَدْ عَجَزَتْ عَنْهَا بَأَيِّ بَلِيغٍ وَصَفَهَا حَصْرًا (1)

ويعبر مالك بن المرحل عن عجزه عن إدراك صفات المصطفى ﷺ من خلال مدائحه

النبوية؛ من ذلك قوله: {الطويل}

مَحَامِدُهُ لَا يَسْتَقِيلُ بِحَصْرِهَا لِسَانُ حَطِيبٍ مُصْقِعٍ مُتَكَلِّمٍ

.....

.....

مَحَابِرُنَا كَمْ حَبَّرَتْ مِنْ ثَنَائِهِ وَمَا عَبَّرَتْ إِذْ كُلُّ مَا فِيهِ مَعْلَمٌ (2)

وقوله من قصيدة أخرى: {المتقارب}

وَحَسْبُكَ أَنَّ لَهُ مُعْجَزَاتٍ تَزِيدُ عَلَى الأَلْفِ فِيمَا نُقِلُ (3)

ويعبر ابن سعيد الغرناطي عن هذا الملمح في قوله: {الكامل}

لَمْ أَسْتَطِعْ حَصْرًا لِمَا أُعْطِيَتْهُ فَذَكَرْتُ بَعْضًا وَاعْتَذَارِي يُنْشَدُ
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَصَفْتُ مُحَمَّدًا نَفِدَ الكَلَامُ وَوَصْفُهُ لَا يَنْفَدُ (4)

ويعبر أبو الحسن علي بن حمدون المالقي عن هذا الملمح؛ حيث يقول: {الطويل}

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، "نصوص جديدة لم تنشر"، تح: عبدالسلام شقور، ص: 142.

(2) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 370. جاء الروي في البيت الثاني بالضم مع أن روي الأبيات بالكسر.

(3) — المرجع السابق، ص: 346.

(4) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، ج2، ص: 45.

محمد المختار أعلى الورى ندى
 وأكرم مبعوث أتاه كتاب
 أتسب أن تحظى بعد صفاته
 وهيئات ما يحصي علاه حساب⁽¹⁾
 ويقول أبو حيان الغرناطي بعد أن عدد معجزات الرسول ﷺ: {البيسط}
 هذا وكم معجزات للرسول أتت
 لها من الله تمديد وتأصيل
 غدت من الكثر أعداد النجوم فما
 يحصي لها عددا كتب ولا قيل⁽²⁾

4 — طلب الشفاعة والتوسل بالنبي ﷺ

ثمة محور رابع تنهض عليه قصيدة المدح النبوي، وهو يتمثل في طلب الشفاعة والتوسل بالنبي ﷺ، وعادة ما يقترن طلب الشفاعة بالاعتراف بالتقصير أو بكثرة الذنوب التي ارتكبت أو بهما معاً ثم الندم؛ فمالك بن المرحل يقترن طلب الشفاعة باعترافه بكثرة الذنوب في العديد من مدائحه النبوية؛ من ذلك قصيدته التي قال فيها: {البيسط}

رَكَابِنَا تَحْمِلُ الْأَوْزَارَ مُثْقَلَةً
 إِلَى مَحَاطٍ خَطَايَا الْعُرْبِ وَالْعَجَمِ
 ذُنُوبُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كَثُرَتْ
 وَقَدْ أَتَيْنَاكَ فَاسْتَعْفِرْ لِمُجْتَرِمِ
 ذَنْبٌ يَلِيهِ عَلَى تَكَرُّرِهِ نَدَمٌ
 فَقَدْ مَضَى الْعُمْرُ فِي ذَنْبٍ وَفِي نَدَمِ

وقال فيها أيضاً :

ذَاكَ الْحَبِيبُ الَّذِي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ
 مُحَمَّدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ⁽³⁾
 ويقول في قصيدة أخرى : {الطويل}
 بداراً إلى تخفيف ذنب حملته
 لعل إلهي أن يخفف من ذنبي
 بمدحي له استشفعت ثم محبتي
 آمالي في مدحي شفيع وفي حبي
 بلى إن في مدح النبي وسيلة
 وفي حبه أخرى فحسبي هماً حسبي⁽⁴⁾

وعلى هذا النحو يكرر ابن المرحل في العديد من مدائحه طلب الشفاعة والاعتراف بذنوبه.

أما أبو محمد بن عبد العظيم الوادي آشي فهو يرى أن حب الرسول الكريم ﷺ و مودته

(1) — المجموعة النبوية في المدائح النبوية ، ج1، ص: 356 .

(2) — المرجع السابق ، ج3 ، ص: 49 .

(3) — المرجع نفسه ، ص: 351 .

(4) — المرجع نفسه ، ص: 382 .

هي وسيلته التي يرتجئها في مغفرة ذنوبه التي هي كالجبال؛ وذلك في حيث يقول:
 {الطويل}

أمولاي يا مولاي دعوة مُبْعَدٍ على الهلك من تَسْوِيفِ رِحْلَتِهِ أَشْفَى
 بَعَثْتُ وَدَادِي وَاشْتِيَاقِي وَسَيْلَةً وإِنِّي فِي بَابِ الرَّجَا بِاسِطٍ كَفَّا
 وَإِنَّ ذُنُوبِي كَالجِبَالِ رَجَاحَةً وَحُبُّكَ يَا مَوْلَايَ يَنْسِفُهَا نَسْفًا⁽¹⁾

ويُقرُّ أبو الحسن علي بن حمدون الملقب بتقصيره طالباً الرضا والثواب بمدحه للرسول
 الكريم ﷺ حيث يقول : {الطويل}

أُفِرُّ بِتَقْصِيرِي وَأَطْمَعُ فِي الرِّضَا وَمَا الْقَصْدُ إِلَّا مَرْجِعٌ وَمَتَابٌ

.....
 وَأَرْجُو ثَوَاباً بِامْتِدَاحِي مُحَمَّدًا وَمَا كُلُّ مُثْنٍ فِي الزَّمَانِ يُثَابُ
 إِلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ أَنْهِيَ مَدَائِحِي وَإِنَّ رَجَائِي رَاحَةٌ وَتَوَابٌ⁽²⁾

أما ابن سعيد الغرناطي فهو يرجو النجاة من العقاب، ويأمل السعادة في جنان الخلد غير
 آبه بثواب الدنيا الزائل؛ يقول: {الكامل}

عَنْ ذِكْرِهِ لَا حُلَّتْ عُمْرِي مُثْنِيًّا وَمَدِيحُهُ فِي كُلِّ حَفْلٍ أُسْرُدُ
 يَا مَادِحًا يَبْغِي ثَوَاباً زَائِلًا فَتَوَابٌ مَدْحِي فِي الْجَنَانِ أُقْلَدُ
 لَوْلَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ نَدْرِ الْهُدَى وَبِهِ غَدًا نَرْجُو النِّجَاةَ وَنَسْعُدُ⁽³⁾

ونجد أبا بكر عتيق ابن الفراء الغساني يقرن طلب الشفاعة بالاعتراف بالذنوب؛ وذلك
 حين يخاطب ركب الراحلين إلى الديار المقدسة موصياً إياهم بأن يطلبوا له الشفاعة عند

قبر رسول الله ﷺ؛ يقول: {الكامل}

وَأذْكَرُ ذُنُوبَكَ وَاعْتَرَفَ بِعَظِيمِهَا فَعَسَى الَّذِي تَرْجُوهُ أَنْ يَتَّعِظَ فَا
 وَاجْعَلْ شَفِيعَكَ إِنْ قَصِدْتَ عِنَايَةً قَبْرًا تَقْدَسُ تَرْبُّهُ وَتَشْرَفَا
 وَأذْكَرُ هُدَيْتَ أَخَا الْبَطَالَةِ عُمْرَهُ كَمْ مَرَّةً نَقَضَ الْعَهْدَ وَأَخْلَفَا

(1) — المجموعة النبهانية في المدايح النبوية، ج2، ص: 311.

(2) — المرجع السابق، ج1، ص: 35.

(3) — المرجع نفسه، ج2، ص: 44.

ولكم تيقن بالدليل فمأله
وعصى فأسلمم للقطيعة والجفا
هَلْ عَطْفَةٌ لِلْعَفْوِ تَنْفُحُ نَحْوَهُ
رَكِبَ الْعِنَادَ لِحَاجَةٍ وَ تَعَسَّفَا
حَقَّ عَلَى مَنْ خَانَ أَنْ لَا يَعْرِفَا
يَوْمًا فَيُضْحِي بِالرِّضَا مَتَعْرِفَا⁽¹⁾

5 — ذكر الصحابة والخلفاء الراشدين :

لقد غطت صفات النبي ﷺ المساحة الكبرى في المدائح النبوية الغرناطية كونها موجهة إليه بالأساس، بيد أن هذا لم يحل دون ذكر الصحابة، سواء بالدعاء لهم، أو بالإشادة إلى دورهم في نصره الدعوة الإسلامية. وقد جاء حديث الشعراء عنهم خلال إشارات عابرة

دون إطالة، من ذلك قول أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي: {البيسط}

يَا نَفْسُ صَلِّيْ عَلَيْهِ وَالْقَرَابَةَ مَعَ
وَأَنْتِي الْفَضْلَ لِلصَّدِيقِ ثُمَّ أَبِي
أَصْحَابِهِ وَمُحِبِّ فِيهِ مَتَّصِفِ
حَفْصِ وَعُثْمَانَ وَابْنِ الْعَمِّ وَاعْتَرِفِي⁽²⁾

وقوله في قصيدة نبوية أخرى: {الطويل}

وَمِنِّي عَلَى الصَّحْبِ الْكِرَامِ تَحِيَّةٌ
يُضَمِّحُ رِيَّاهَا لَنَا شَقَّهَا أَنْفَا⁽³⁾

ومن هذا قول ابن المرحل في قصيدته النبوية (الوسيلة الكبرى) معبراً عن حبه للرسول صلى الله عليه وسلم، ولأصحابه الكرام: {الطويل}

ضِرَامُ اشْتِيَاقٍ فِي الْفُؤَادِ مَحْرَكٌ
ضَجِيعًا رَسُولِ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِ عَمِّهِ
وَصَرَفُ زَمَانٍ لِلجَنَاحِينَ هَائِضٌ
وَعُثْمَانُ أَحْبَابِي وَضَلَّ الرُّوَافِضُ⁽⁴⁾

ثالثاً — الخاتمة : درج معظم الشعراء الغرناطيين على ختم مدائحهم النبوية بالصلاة أو

السلام على النبي ﷺ، مثال هذا قول أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي في ختام

إحدى مدائحه النبوية: {الطويل}

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ مُحِبِّ مُتَيْمٍ
ثَوَى قَلْبِهِ شَرْقًا وَجِثْمَانَهُ غَرْبًا⁽⁵⁾

وقوله في ختام قصيدة أخرى: {الطويل}

(1) — المجموعة النبوية في المدائح النبوية، ج 2، ص: 311، 312.

(2) — المرجع السابق ج 2، ص: 308.

(3) — المرجع نفسه، ج 2، ص: 311.

(4) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 405.

(5) — عبدالرحمن الجادري الفاسي، شرح البردة، ورقة 23.

صَلَاتِي وَتَسْلِيمِي عَلَيْكَ مُرَدِّدٌ أَجُوزُ عَلَى حَدِّ الصَّرَاطِ بِهِ خَطْفًا⁽¹⁾
وقوله في أخرى:

مَنِّي الصَّلَاةُ حَيَاتِي وَالسَّلَامُ عَلَيَّ بِدْرِ الدُّجَى وَالنَّهْرُ بَيْنَ الضَّجِيعِينَ⁽²⁾
ومن ذلك قول ابن سعيد الغرناطي في ختام قصيدته النبوية: {الكامل}
فَعَلَيْكَ يَا خَيْرَ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا مَنِّي التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ السَّرْمَدُ⁽³⁾

ويسير ابن المرحل في ختم قصائده النبوية على هذا النهج، من ذلك قوله في ختام قصيدة نبوية مكرراً الصلاة على النبي ﷺ في أكثر من بيت: {المتقارب}

فَصَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ السَّمَاءِ صَلَاةً مَضَاعِفَةً تَتَّصِلُ
وَصَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ السَّمَاءِ صَلَاةً مَدَى الدَّهْرِ لَا تَنْفَصِلُ
صَلَاةً تَطِيبُ بِهَا الشَّرَفَاتُ إِذَا نَفَحَتْ وَتَطِيبُ الْأُصْلُ⁽⁴⁾

وقوله في ختام قصيدة أخرى مكرراً السلام: {الطويل}

سَلَامٌ عَلَيْهِ كَلَّمَا افْتَرَّ بَارِقٌ فَرَاقَتْ عِيُونَ المَجْدِ بَيْنَ مِبَاسِمِهِ
سَلَامٌ عَلَيْهِ مَا تَفَاوَحَتِ الرَّبَابُ بَزَهْرٍ كَأَنَّ المِسْكَ تَحْوِي كَمَائِمَهُ⁽⁵⁾

• أهم الملحوظات حول المدح النبوي :

1 — ازدهر شعر المديح النبوي في القرن السابع الهجري لعدة أسباب أتينا على ذكر بعضها فيما تقدّم ، وبرز في هذا الميدان عدد من الشعراء الغرناطيين ، منهم من وصل إلينا قدر من شعره النبوي كمالك ابن المرحل ، وأبي محمد بن عبد العظيم ، ومنهم من لم يصلنا شعره كأبي الحسن علي بن عفيف الخزرجي الغرناطي الذي قال عنه ابن الزبير إنه "وقف

(1) — المجموعة النهائية في المدايح النبوية ، ج2 ، ص: 311 .

(2) — عبدالرحمن الجادري الفاسي ، شرح البردة ، ورقة 24 ، 25 . والضجيجان : هما : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

(3) — المجموعة النهائية في المدايح النبوية ج2 ص: 45 .

(4) — محمد مسعود جبران ، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص: 349 . والشرفات جمع شرفة أعلى الشيء ، ومن البناء ما يستشرف به على غيره .

(5) — المرجع السابق ، ص: 354 .

نظمه على مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يُعلم له نظم في غيره⁽¹⁾

2 — تسربت بعض الأفكار الصوفية إلى قصيدة المدح النبوي مثل شيوع فكرة النور الحمدي، أو الوجود الحمدي على حد تعبير محيي الدين بن عربي الذي ذهب إلى أن للنبي محمد ﷺ وجوداً " قبل وجود الخلق، وقبل وجوده الزماني في صورة النبي المرسل ، وأن هذا الوجود قديم غير حادث "⁽²⁾، وكان لهذه الفكرة متزلة كبيرة لدى "المتصوفة"، وانتشرت في بيئاتهم، وعملوا على بثها، ونشرها.. وما من شاعر متصوف إلا تناولها حتى أضحت عنصراً مهماً من عناصر قصيدة المديح النبوي لديهم⁽³⁾، وقد تناول عدد من الشعراء الغرناطيين هذه الفكرة في مدائحهم النبوية إما تصريحاً أو تلميحاً: مثال ذلك قول أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي في إحدى مدائحه: {البيسط}

زَيْنُ النَّبِيِّنِ عَيْنُ الرَّسْلِ خَاتَمُهُمْ	فِي الْبَعَثِ أَوْلُهُمْ فِي رُتْبَةِ الشَّرْفِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نُورُهُ فِي ظَهْرِ آدَمَ لَمْ	يَشْمَلْهُ مَا كَانَ مِنْ عَفْوٍ وَمِنْ لُطْفِ
هُوَ الْمَخْلُصُ نُوحاً فِي سَفِينَتِهِ	وَقَدْ حَرَّتْ فِي عَظِيمِ الْمَوْجِ مُنْقَذِ
وَنُورُهُ صَانَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ لَهَبِ	مِنْ نَارِ نُمْرُودَ لَمَّا أَنْ عَلَاهُ طُفِي
وَقَدْ فَدَى اللَّهُ إِسْمَاعِيلَ خَيْرَ فِدَاءٍ	صَوْنًا لِمُودَعِ نَوْرِ مِنْهُ مُكْتَنِفِ ⁽⁴⁾

وقوله ملمحاً إلى هذه الفكرة في قصيدة نبوية أخرى: {البيسط}

لَوْلَا أَبُو الْقَاسِمِ الْمَخْتَارُ مَا طَلَعَتْ	شَمْسٌ وَلَا أَشْرَقَتْ بِالنُّورِ أَكْوَانُ ⁽⁵⁾
--	---

مثل هذا قول ابن سعيد الغرناطي ملمحاً إلى هذه الفكرة: {الكامل}

لِسِنَّاكَ حِينَ بَدَا بِآدَمَ أَقْبَلَتْ	رَعِيًّا لِسِيْمَاكَ الْمَلَائِكُ تَسْجُدُ ⁽⁶⁾
---	---

وقد ردد مالك ابن المرحل هذه الفكرة بكثرة في مدائحه النبوية، من ذلك قوله: {الطويل}

أضاءت به الدنيا فمن نوره سرى	إلى الشمس والأقمار كل ضياء ⁽¹⁾
------------------------------	---

(1) — ابن الزبير ، صلة الصلة ق4 ص :150 ترجمة رقم :306 ، وكذلك المقرئ ، نفع الطيب ، ج 2 ، ص 394 .

(2) — محيي الدين بن عربي ، فصوص الحكم ، تح: أبو العلا عفيفي ، القاهرة 1946 م . نقلا عن أيمن ميدان ، اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة ، ص:148

(3) — محمود علي مكي ، المدائح النبوية ، ص:133 .

(4) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ، ج 2 ، ص:308 .

(5) — عبدالرحمن الجادري الفاسي ، شرح البردة ، ورقة 24 .

(6) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ، ج 2 ص:45 .

وقوله في قصيدة أخرى: {الطويل}

خَبَا كُلُّ نُورٍ حِينَ لَاحَ لِتُورِهِ وَأَصْبَحَ بَعِيَّ الْكُفْرِ وَهُوَ مُرُوخٌ⁽²⁾

وقوله في قصيدة أخرى: {الطويل}

مَحَبَّتَهُ تَتَلَوُ مَحَبَّةَ رَبِّهِ وَكَلْتَاهُمَا نُورٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ⁽³⁾

وقوله في أخرى: {الطويل}

صَدِيتُ وَمَا يَجْلُو سِوَى نُورِهِ الصِّدَا فُلُولَاهُ مَا أَيْضُ الصَّبَاحِ وَلَا مَصَاً⁽⁴⁾

وقوله في أخرى: {الطويل}

بَرَاهُ إِلَهُ الْخَلْقِ نُورًا مَصُورًا لَكَيْمَا يُلَاقِي عَالَمَ الرُّوحِ وَالتُّرْبِ⁽⁵⁾

ويشير أبو حيان الغرناطي إلى هذه الفكرة في قصيدته النبوية؛ إذ يقول: {البيسط}

سِرٌّ مِنْ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ ضَمَّنَهُ جِسْمٌ مِنَ الْجَوْهَرِ الْأَرْضِيِّ مَحْبُورٌ

نُورٌ تَمَثَّلَ فِي أَبْصَارِنَا بَشَرًا عَلَى الْمَلَائِكِ مِنْ سِيمَاهُ تَمَثَّلُ⁽⁶⁾

كذلك نجد أن الشعراء الغرناطين حرصوا على ختم مدائحهم النبوية بتكرار الصلاة والسلام على الرسول ﷺ، وهذا الملمح له منزلة خاصة لدى المتصوفة، فهو في عرفهم ذكر، والذكر لديهم أفضل من الدعاء⁽⁷⁾. من ذلك قول ابن المرحل في ختام قصيدة نبوية: {الطويل}

عَلَيْهِ صَلَاةُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا سَجَعَتْ فِي فَرْعِ أَيْكَ سَوَاجِعُ⁽⁸⁾

ولا نكاد نجد قصيدة نبوية طالت أم قصرت إلاّ وذُيِّلت بصيغة أو أكثر من صيغ الصلاة والتسليم على الرسول ﷺ، وقد مر ذكر العديد من الشواهد التي على هذا النهج.

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 380.

(2) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 387. مروخ: ملين مكسور.

(3) — المرجع السابق، ص: 370.

(4) — المرجع نفسه، ص: 372.

(5) — المرجع نفسه، ص: 361.

(6) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، ج3، ص: 47.

(7) — سعاد علي عبدالرازق، التصوف عند ابن القيم الجوزية، جامعة عين شمس، كلية الآداب، 1975، ص: 152 رسالة دكتوراه غير منشورة.

(8) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 406.

3 — اتسمت معظم المدائح النبوية بطابع الصدق والعمق والأصالة، وأفاض الشعراء في تصوير حنينهم وشوقهم للنبي ﷺ، وإلى كل ما يتعلق به، وعبروا عن رغبتهم في زيارة الروضة الشريفة وزيارة قبر الرسول ﷺ، ليقتطفوا ثمار القرب، ويكتحلوا بثره الطاهر، من ذلك ما نلمسه في قول أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي معبراً عن شوقه لزيارة الروضة الشريفة: {الطويل}

وما ذاتُ أشواقٍ أقامت بوجرةٍ	وقد فقدتُ في ظل سرحتها حشفاً
تجدد ذكراها فتجري دموعها	فاونةً سكباً وآونةً ذرفاً
و تسري نسيما ت الصبا فتشوقها	وتذكر مرعىً مخصباً بالحمي جفاً
و تسمع سجعاً للحمام بالضحي	فتهتف في أرجاء مكنسها هتفاً
فأجفانها تهمي وأشجانها تري	وأحوالها أحوال من فارقت إلفاً
بأكثر وجداً من محب رجأؤه	قوي ولكن جسمه يشتكي ضعفاً
متى وعسى يقضي الزمان بعطفه	فيصرف عني من تصاريفه صرفاً
فأتي على أعلى الصعيد لأحمد	والثم في آثار أخمصه ألقاً
سأثني عنان الشوق عن أرض منشئي	وأركب من عزمي إلى يثرب طرفاً ⁽¹⁾

فالشاعر يقدم لنا صورة نفسية معبرة عن شوقه، وما يجول في أعماقه من مشاعر الحنين والحب.

ونلمس هذا الشعور الصادق في قول علي بن سعيد الغرناطي؛ حيث يعبر عن حنينه لزيارة المدينة المنورة، ولثم ثراها الطاهر؛ فيقول: {الكامل}

يا عاذلي فيما أكابد قل في	ما أبتغيه صباة وتسهد
لم تلق ما لقيته فعذلتني	لا يعذر المشتاق إلا كممد
لو كنت تعلم ما أروم دنوه	ما كنت في هذا الغرام تُفند
لا طاب عيشي أو أجل بطيبة	أفوق به خير الأنام محمد
يا ليتني بلغت لثم ثرابه	يزداد سعداً من بذلك يسعد
فهناك لو أعطى مناي محلة	من دونها حل السها والفرقد

عَيْنِي شَكَتَ رَمْدًا وَإِنَّ شِفَاءَهَا
 مِنْ دَائِهَا ذَاكَ الثَّرَى لَا الْإِثْمِدُ
 يَا خَيْرَ خَلْقِ اللَّهِ مَهْمَا غَبَّتَ عَنْ
 عُلْيَا مَشَاهِدِهَا فَقَلْبِي يَشْهَدُ
 مَا بِاخْتِيَارِ الْقَلْبِ يَتْرُكُ جِسْمَهُ
 غَيْرُ الزَّمَانِ لَهُ بِذَلِكَ تَشْهَدُ⁽¹⁾

ويعبر ابن المرحل في العديد من مدائحه التي سماها (الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى)⁽²⁾، عن شوقه وحبه للنبي ﷺ، حيث بدا من خلال هذه القصائد "شاعراً مغرماً بحب النبي وذكره، هائماً متفانياً بآثاره وأخباره وأحاديثه"، وذلك كما يبدو في قوله: {الطويل}

ثلاث أمانٍ لي زيارة قبره ورؤياه في نومي وفي يوم أُبعث⁽³⁾

وقد أظهرته هذه المدائح شاعراً متشوقاً إلى الروضة الشريفة شديد التعلق بمشخصات النبي ﷺ، والمواضع التي وطئتها قدماه، لاسيما مدينته المنورة (طيبة) التي كثر ذكرها في مدائحه تعبيراً عن توفقه لزيارتها؛ من ذلك قوله: {الطويل}

يودُّ المعنى أن يعاينَ طيبةً وَيَقْضِي لَهُ فِيهَا الْمَمَاتَ وَفِي الْحَيَا
 يموت بعهد أو يعيش بغبطةٍ ففي كل حال منهما نحمد السعيا⁽⁴⁾

وقوله أيضاً: {الطويل}

ضُعُونِي عَلَى أَرْضِ مَشَى فِي عِرَاصِهَا لَعَلِّي عَلَى تُرْبِ اللَّطِيْمَةِ قَائِضٌ⁽⁵⁾

ويجعل ابن المرحل غاية أمانيه أن يكحل ناظره بمرأى طيبة التي يمنُّ إليها كلما لاح برق الحجاز، يقول: {الطويل}

يقرُّ بعيني أن أرى أرض طيبة وذلك أقصى ما أحبُّ من الدنيا
 يمنُّ فؤادي كلما حنَّ راكب ففاحت على أزراره تلکم الريا
 يحرِّكني برق الحجاز إذا سرى فأدعو لأوطان الأحبَّة بالسقيا⁽⁶⁾

(1) — المجموعة النبوية في المدائح النبوية، ج2 ص: 43 .

(2) — وهي عبارة عن تسعة وعشرين قصيدة على عدد حروف المعجم، في كل قصيدة عشرون بيتاً

(3) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل: أديب العدوتين، ص: 184.

(4) — المرجع السابق، ص: 178 .

(5) — المرجع نفسه، ص: 405 .

(6) — المرجع نفسه، ص: 186 .

وعلى الرغم من اتسام هذه المدائح بطابع الصدق والعمق ، فإنها لم تخلُ من بعض التكلف والصنعة ، وذلك على نحو ما نجد في قصيدة ابن المرحل اللامية ، التي صاغها "الشاعر في قالب شكلي رتيب ..."⁽¹⁾. يدل على هذا قوله : {الطويل}

لأسمائه من أحرف الحمدِ بنيةً فقلْ أفعلاً أو فاعلاً أو مُفعلاً
لأفعاله تصريفٌ علمٍ وحكمةٍ وما اعتلَّ فعلٌ من علاه بل اعتللاً⁽²⁾

ونلمس هذا التكلف أيضاً في مخمسة ابن المرحل التي استخدم فيها جميع الحروف الألفبائية، وقال في مطلعها: {الكامل}

ألفٌ أجلُّ الأنبياءِ نبيُّ بضياءه شمسُ النهارِ تضيءُ
وبه يؤملُ محسنٌ ومسيءٌ فضلاً من الله العظيم عظيمًا
صلُّوا عليه وسلِّموا تسليماً⁽³⁾

إلى آخر الخمسة ...

4 - توسع بعض الشعراء الغرناطين في المدح النبوي ، فأنشأوا في غمرة تجليات الشوق إلى الرسول ﷺ ، وإلى معاهده ، وكل ما يُنسبُ إلى ذاته من ماديات ومعنويات شعراً مدحياً في وصف مثال نعله ﷺ تبركاً به وتوسلاً بصاحبه ، ويعد هذا الموضوع من الموضوعات التي برزت في المدائح النبوية في القرن السابع الهجري، فقد ذكر المقرئ اهتمام الأندلسيين بهذا الموضوع ؛ وذلك حين قال "وقد اعتنى الناس والأئمة بتمثال النعل الكريم، وحق على كل مؤمن أن يقطع لمشاهدتها الفلا ، فإذا شاهدها قبلها ألفاً وألفاً ، وتوسل بصاحبها إلى الله الكريم زلفى ، ولثم تراها لثماً ، وجعلها فوق رأسه تاجاً ، واستغنى بالتوسل بمن لبسها ، فلم يكُ إلى غابر الدهر محتاجاً..."⁽⁴⁾.

ومن الشعراء الغرناطين الذين نظموا في هذا الموضوع مالك ابن المرحل، حيث ضمّن بعض مدائحه النبوية شعراً مدحياً في مثال نعل الرسول ﷺ ، وهو يدل على حرارة إيمانه وصدق توبته وإنابته إلى الله على نحو ما نقرأ في قصيدته النبوية التي افتتحها بقوله:

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص: 182 .

(2) — المرجع السابق ، ص: 415 .

(3) — المرجع نفسه ، ص: 354 ، وما بعدها .

(4) — المقرئ ، أزهار الرياض ، ج 2 ، ص: 252 .

{ الطويل }

بوصف حبيبي طرّز الشعر ناظمه ونمّمت خدّ الطرس بالنقش راقمه
وبعد مدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أوصافه ﷺ في أبيات، ثم خلاص إلى مدح

النعل الشريف ، حيث يقول : { الطويل }

ومما دعاني والدواعي كثيرة إلى الشوق أن الشوق مما أكاثمه
مثال لنعلي من أحب حديثه وها أنا في يومي وليلي لاثمه
أجر على رأسي ووجهي أدبه وأثمه طورا وطورا الأزمه
صباية مشتاق ولوعة هائم نعم أنا مشتاق الفؤاد وهائم
كأن مثال النعل محراب مسجد فؤادي فيه شاخص الطرف دائمه
أمثله في رجل أكرم من مشى فتبصره عيني و ما أنا حاله⁽¹⁾

ويصف الشاعر مواجده وخطرات روحه المحبة فيقول : { الطويل }

أصك به خدي وأحسب وقعه على وجنتي خطأ هناك يداومه
ومن لي بوقع النعل في حرّ وجنتي لماش علت فوق النجوم براجمه
تفيض دموعي كلما لاح نوره بكائك للبرق الذي أنت شائمه⁽²⁾

ويسترسل الشاعر في بسط التعبير عن حبه وشوقه، فيظل ينثر ما في فؤاده المحب من عشقه

الواله للرسول الكريم ﷺ، فيقول : { الطويل }

فيا دمع عيني أنت تمنع ناظري نعيماً به فارق فإتاك ظالمه
ويا حرّ قلبي أنت تحرم باطني لصوقاً به فاسكن لعلك راحمه
سأجعله فوق الترائب عوده لقلبي لعل القلب يطفأ جاحمه
وأربطه فوق الشئون تيممة لجفني لعل الجفن يرقأ ساجمه⁽³⁾

ولابن المرحل قصيدة نبوية أخرى يصف فيها حبه للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويصف فيها مثال نعله الكريم ، وهي قصيدة طائية بدأها بلون من الموازنة وحسن التقسيم ؛ حيث

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص: 353 .

(2) — المرجع السابق، والموضع نفسه.

(3) — المرجع نفسه، والموضع نفسه..

قال في مطلعها: {الطويل}

أدْمَعَكَ أَمْ سِمِطٌ وَقَلْبِكَ أَمْ قُرْطٌ وشوقك أَمْ سَقَطٌ وَجِسْمُكَ أَمْ حَطٌ

وفيهما يقول في مدح هذا الأثر الشريف : {الطويل}

رَأَيْتُ مِثَالَ النَّعْلِ نَعْلَ مُحَمَّدٍ فَمَلْتُ وَمَالِي غَيْرُ ذَاكَرِهِ اسْفِنَطٌ
خَرَقْتُ حِجَابَ السَّبْعِ عَنْ حُسْنِ وَجْهِهِ فَأَبْصَرْتُهُ فِي سَدْرَةِ الْمُتْتَهَى يَخْطُو
رَأَيْتُ مِثَالاً لَوْ رَأَيْتُهُ كَرَوَيْتِي نَجْوَمُ الدُّجَى وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ مَشْمَطٌ
لَسَرَّ الثَّرِيَا أَنَّهَا قَدَمٌ وَلَمْ يَسِرَّ الثَّرِيَا أَنَّهَا أَبَدًا قَرْطٌ⁽¹⁾

فالشاعر لا يعظم قيمة هذا الأثر أو مثال النعل النبوي على المخلوقات الجامدة فحسب،

بل نجده يظهر من خلال هذا التعظيم أشواقه و مواجد المحبة: {الطويل}

أَرَى لَثْمَهُ مِثْلَ التَّيْمِمْ مُجْزِئاً فَأَلْثَمَهُ حَتَّى أَقُولَ سَيَنْعَطُ
وَمَا هِيَ إِلَّا لَوْعَةٌ وَصَبَابَةٌ بِقَلْبِي لَهَا قِسْطٌ وَفِي مَدْمَعِي سِمِطٌ⁽²⁾

ويرى أحد الباحثين في هذا المظهر الصادق من التعلق بالآثار النبوية ، كما هو واضح من هذه الأبيات والتي قبلها "تعويضاً عما أحسَّ به الشاعر مما ضاع عليه من فرصة أداء الفريضة وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم"⁽³⁾.

5 — ثمة ملاحظة أخيرة تتمثل في وجود بعض المدائح النبوية ضمن رسائل نثرية

يتم إرسالها إلى المدينة المنورة مع الركب الراحلين ،وقد كان هذا الاتجاه الوجداني تعبيراً عن الوجد والتوق الذي ينتاب الغرناطين في زيارة قبر الرسول ﷺ ومدينته ولثم آثاره الكريمة ، ظناً منهم أنها تكفل لهم الشفاعة ،والاستجابة لدعائهم .

وقد سار على هذا النهج — أعني نظم القصائد النبوية ،وتضمينها رسائل نثرية، ثم إرسالها إلى البقاع المقدسة — عدد من الشعراء الغرناطين ،منهم أبو بكر عتيق ابن الفراء الغساني الوادي آشي ،الذي نظم قصيدة نبوية توجّه بها إلى النبي صحبة رسالتين⁽⁴⁾.

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل : أديب العدوتين ص: 341 .

(2) — المرجع السابق، والموضع نفسه . وسينغط : انعط في الماء انغمس و غاص فيه. ينظر : المعجم الوسيط ، ج 2 ، ص 222 .

(3) — محمد العلمي حمدان ، " المدائح النبوية في عصر بني مرين " ، مجلة دعوة الحق ، ج 6 — 7 ، 1974 ، المغرب ، ص 50 .
نقلاً عن : مالك بن المرحل : أديب العدوتين ، ص: 182 .

(4) — ينظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 4 ، ص: 81 .

وقد دلت قصيدته على حبه الرسول و شوقه إلى زيارة الروضة الشريفة الطاهرة ؛ يقول

معبراً عن هذا الحب : {الكامل}

يا راكباً يبغي الجناب الأشرفا	ومناه أن يلقي الكريم المُسْعِفا
عرج بطيئة مرة لتري بها	عَلَمِي قَبُولِ رَحْمَةً وَتَعْطُفاً
واذكرُ ذنوبك واعترف بعظيمها	فَعَسَى الَّذِي تَرْجُوهُ أَنْ يَتَعْطُفا
واجعل شفيعك إن قصدت عناية	قَبْرًا تَقْدَسُ تُرْبُهُ وَتَشْرُفا
قبراً تضمّن نورَ هدي واضح	لم يحتجب عن مُبصره ولا اختفى
قبراً حوى النور المبين فنوره	يَهْدِي بِهِ دَارَ السَّلَامِ مَنْ أَقْتَفَى
قبراً علا بالهاشمي محمد	أهَى الأنام سناً وأولى مَنْ وَفَى
خير الورى علمُ التقى شمس الهدى	المنتقى والمجتبى والمصطفى
سلم عليه وخصّه بتحية	واقراً عليه من السلام مضجعاً ⁽¹⁾

ومن هؤلاء الشعراء من عبر عن شوقه وحبه للرسول من خلال نظم قصائد نبوية يحتوي مضمونها رسالة إلى البقاع الطاهرة ، فابن عسكر المالقي لم يرحل إلى المدينة المنورة، ولم يشاهدها عن كتب ،حتى يصفها عن قرب ،بيد أنه لم يكبح جماح مشاعره ،ورغبته — كأبي مسلم — في رؤية المقام ،والتزول إلى الكعبة وقد عبر عن ذلك شعراً ؛ فما إن سمع أن ابن سعيد يريد الرحلة نحو تلك البقاع حتى حمّله قصيدة لتتشد عند الروضة المباركة قال فيها : {الوافر}

عليّ إذا أتيت ترى محمد	صلاة الله لا تعدوه سرمد
فقبله وقل صبّ غريب	بأقصى العرب أمك وهو مفعد
أراد زيارة فثناه عنذر	وكم سيف جراز وهو معد
فإن منع المسير أتاك منه	سلام طيب أبداً يردد
ومدح لا يزال بكل حين	من الآداب كالدر المنضد
أقمت وأنت ترحل يابن موسى	لقد نلت السرور وظلت مكمده ⁽²⁾

(1) — المجموعة النهائية في المدايح النبوية ، ج 2 ، ص : 311 .

(2) — ابن سعيد ، اختصار القدر المعلى ، ص : 130 .

وإذا كان أبو بكر ابن الفراء الوادي آشي، وابن عسكر المالقي (ت636 هـ) ⁽¹⁾، قد حمّلا أشواقهما الركب الراحلين من خلال الرسائل والقصائد، وإرسالها إلى تلك البقاع الطاهرة؛ فإن أبا عبد الله بن الحكيم زار الأراضي المقدسة، وعایش تجربة الحج، وهو يطلعنا على بعدٍ آخر من المشاعر التي تنتاب الحاج الغرناطي وقد تحقق حلمه الذي طالما راوده، ويرى ابن الحكيم أنه لا يغني عن زيارة تلك البقاع الرسائل، ولا القصائد التي تحمل الشوق والحنين، فليس من رأى كمن سمع، فها هي ربوع يثرب ومعالمها تطل من بعيد فتثير الشجى في النفس، وها هي موطن الوحي، ومنازل خير من وطئ الثرى، فلا يملك المرء إلاّ التزول عن راحلته سائراً على قدميه؛ تعظيماً وتكريماً للثرى الذي وطئته قدما خير النبيين، وأفضل الخلق أجمعين الرسول الطاهر محمد ﷺ؛ يقول معبراً عن مشاعره {الطويل}:

ولمّا رأينا من ربوع حبيينا	وبالترب منها إذ كحلنا جفوننا
وحيث تبدى للعيون جمالها	نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة
نسح سجال الدمع في عرصاتها	وإن بقائي دونه لخسارة
فيا عجباً ممن يحب بزعمه	وزلات مثلي لا تعدد كثرة
بيثرب أعلاماً أترن لنا الحبا	شفينا فلا بأساً نخاف ولا كربا
ومن بعدها عتأ أدلت لنا قربا	لمن حل فيها أن نلّم به ركبنا
ونلثم من حب لواطئه التربا	ولو أن كفي تملأ الشرق والغربا
يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتبا	وبعدي عن المختار أعظمها ذنبا ⁽²⁾

(1) — ترجمته في أعلام مالقة، ص: 175. وكذلك ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب ج1 ص: 431.

(2) — المقري، نفع الطيب، ج3، ص: 379.

المبحث الثاني: الغزل

المبحث الثاني

الغزل

ثمة اهتمام واضح أبداه الشعراء الغرناطيون بهذا الفن ، فقد رصدوا ما يجيش في أعماق قلوبهم من أحاسيس، وما ينتابهم من مشاعر إذا دنا حبيب أو صدّ ، وقد ضمّنوا هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ضمن مقطّعات وقصائد غزلية خالصة ، وفي مقدمات قصائد المدح السياسي، وقد أحدثوا في هذا النهج الأخير امتزاجاً بين الغزل وما يعقبه من موضوعات أخرى ، يقول أبو الطيب الرندي في معرض الاعتداد بشاعريته وإتقان صنعته، كاشفاً عن نهجه الغزلي الذي يعتمده في مقدمات قصائده المدحية : {البيسط}

خُذْهَا إِلَيْكَ أبا بكرٍ مُهَيَّبَةً أَرْهَى مِنَ الْحُسْنِ فِي أَبْهَى مِنَ الْحَلَلِ
عَذْرَاءَ قَدْ بَانَ فِيهَا عَذْرُ حَاسِدِيهَا إِذْ غَازَلَ الْمَدْحُ فِيهَا رِقَّةَ الْعَزَلِ⁽¹⁾

بيد أن الغزل الذي كانوا يأتون به في شكل مقطّعات أو قصائد غزلية خالصة بدا أكثر صدقا وتعبيراً عن حرارة العواطف وخلجات النفوس ، من الغزل الذي كانوا يأتون به تلبيةً لتقليد في راسخ ضمن مقدمات قصائد المدح السياسي ، ويدل على ذلك اعتراف بعض الشعراء أنفسهم بهذا الأمر ، يقول أبو عبد الله البرجي معترفاً في إحدى مدائحه بأن نهجه الغزلي في مقدمة تلك القصيدة لم يكن سوى لداع تقليدي ، واقتداء بمن سبقه من الشعراء فحسب : {الكامل}

أَمَّتْكَ يَقْدُمُهَا النسيبُ شَرِيعةً في الشعرِ للشعراءِ لم تَتَبَدَّلِ
بِهِمْ اقْتَدَيْتُ تَأْدُباً وَتَظَرُّفًا وَجَرَيْتُ فِي مِضْمَارِهِمْ لَمْ أَعْدِلِ⁽²⁾

اتجاهاته:

ظل الغزل الغرناطي يدور حول محورين رئيسيين في بناء موضوعه، هما: المرأة والغلام، واتخذ في موضوعه الأنثوي اتجاهين منفصلين متباعدين، أحدهما عفيف، والآخر حسي

(1) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي — شاعر رثاء الأندلس ، ص 60 .

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ، رقم : 3835د ، ورقة : 365 .

، وكان يحيا بجوار الغزل العفيف نط آخر هو ما يُعرف بالحجازيات ، وفيما يلي عرض لهذه الاتجاهات .

أولاً — الغزل العفيف :

يتسم الغزل العفيف — كما هو معروف — بنوع من التسامي نحو عواطف نزيهة ، وترفع عن المعاني الحسيّة ، والصور المثيرة للغرائز ، وبالإحساس بنوع من القلق إنه " قلق السهر الذي يجعل المحب حتى وهو قريب من محبوبه لا يستمتع بسعادته تماماً ولا يستطيع أن ينسى آلامه الماضية ، ويبدو له الحاضر غير مؤكد ألا يجب عليه أن يخشى تقلب محبوبته؟ إن اللحظة التي يمكن أن يجنيها سعادة يسممها هذا القلق وربما كان هذا وهما منه لا يقوم على أساس " (1). ويبرز في هذا الغزل " كثرة التذلل والشكوى، وذكر الدموع، والسهر، وامتحان صدق الحب بتمني الموت ، وإظهار الغيرة الشديدة... " (2).

ويُعدّ هذا الاتجاه امتداداً لموجة الغزل العذري التي ظهرت في العصر الأموي ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى بغداد في القرن العاشر الميلادي الرابع الهجري على يد ابن داود الأصبهاني (390هـ) صاحب كتاب (الزهرة) الذي يعتبره ماسينيون "أول محاولة لوضع منهج شعري للحب الأفلاطوني ... " (3).

وكان لكتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الظاهري أثر كبير في شيوع هذا اللون الغزلي وتثبيته في نفوس الأندلسيين ، وتقريبه إلى أرواحهم ، فقد سجّل في هذا الكتاب اعترافه بالحب نقياً طاهراً يرقى عن الآثام .

وقد امتدّ شيوع هذا اللون إلى القرن السابع الهجري ، وترددت أصداؤه في الغزل الغرناطي ، فأبو المطرف الغرناطي (ت 609 هـ) (4) يقرر أن "حب العراق " غلب

(1) — هنري بيريس : الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ؛ ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسية وقيمه التوثيقية ،

ترجمة : الطاهر أحمد مكّي ط 1 ، القاهرة ، دار المعارف 1988 م ، ص : 357 .

(2) — إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين ، ج 1 ط 5 ، بيروت ، دار صادر ، 1978 ، ص : 156 .

(3) — غارثيا غومث ، الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ، ص 59 .

(4) — ينظر : ترجمته لدى ابن سعيد — المغرب في حلى المغرب ج 2 ص : 120 .

عليه ، و يعترف بأنه يجري في غزله على سنن جميل العذري ؛ حيث يقول: {الخفيف}
أَنَا صَبُّ كَمَا تَشَاءُ وَتَهْوَى شَاعِرٌ مَاجِنٌ خَلِيعٌ جَوَادٌ
أَرْضَعْتَنِي الْعِرَاقُ ثَدِي هَوَاهَا وَغَذَّنِي بِظَرْفِهَا بَغْدَادُ
رَاحَتِي لَوْعَتِي وَإِنْ طَالَ سَقَمٌ وَتَوَالَى عَلَيَّ الْجَفُونَ سُهَادُ
سُنَّةٌ سَنَّا قَدِيمًا جَمِيلٌ وَأَتَى الْمُحَدِّثُونَ مِثْلِي فَزَادُوا⁽¹⁾

فالشاعر يؤكد من خلال هذه الأبيات على ارتباطه بالعراق، وتمسكه بالهوى العذري الذي اشتهر به جميل بن معمر، ويحرص على أن يكون غزله موصولاً بغزل العذريين، وأن يصبح حلقةً موصولة بسلسلة شعراء الغزل العذري على مرّ العصور .

وتعد أشعار مالك ابن المرحل التي صاغها في هذا الاتجاه تعبيراً "عن تجارب عاطفية إنسانية حقيقية مرّ بها في سنوات من حياته ، وصورّ خواطرها المستكنة، واختلاجاتها العميقة في المجالي النقيّة المؤثرة ..."⁽²⁾. فهو يجعل من غراميات العذريين مثلاً للتعبير عن وجدانه ولوعة حبه العفيف ، وذلك على نحو ما يبدو في قوله : {الكامل}

يَا مَنْ رَأَى وَلَهِيَ بِهَا وَصَبَّائِي حَدَّثَ حَدِيثَ بُثَيْنَةَ وَجَمِيلِ
عَزَّتْ وَذَلَّ مُجِبُّهَا فَتَحَكَّمَتْ بَدَمِ الْمُحِبِّ وَإِنْ أَتَى بِدَلِيلِ⁽³⁾

• ملامح الغزل العفيف ومعانيه

تردد في أشعار الغرناطين العديد من المعاني التي تكشف عن سمات هذا النمط الغزلي، كالحديث عن أثر الهوى في نفوسهم ، وتصوير عذابه ، وما يترتب عليه من ذلّ وخضوع ، وتصوير قسوة المحبوب التي فاقت الحد، وكانوا يصوغون هذه المعاني في عبارات صادقة وأسلوب رقيق يكشف عن سمات هذا اللون الغزلي وخصائصه ؛ يقول ابن عسكر المالقي متحدثاً عن أثر الحب، وما يحدثه من نحافة في جسم العاشق حتى يغدو كالرسم الدائر؛ إذ يصبح شاحباً كأن ليس له أثر، وذلك من خلال حوار قصصي دار

(1) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ، ص 120. و في نفح الطيب ، ج 2 ، ص 609 ورد البيت الأول والثاني فقط، وجاءت رواية الشطر الثاني من البيت الأول هكذا " شاعر ماجد كريم جواد " .

(2) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص 39.

(3) — المصدر السابق ، ص 113.

بينه وبين حبيبه {المتقارب}

ولمَّا أَذَابَ الْهَوَى مُهْجَتِي فَأَصْبَحْتُ مِنْهَا كَرَسَمٍ دَثَرَ
ولم يَنْتَقِ عَيْنُ تَرَاهُ الْعُيُوهَ نُ مِنِّْي وَلَا أَثَرَ مِنْ أَثَرَ
تَعَرَّضْتُهُ قَاصِداً كِي يَرَى شُحُوبِي فَيُشْفِقُ أَوْ يَعْتَبِرُ
وَنَادَيْتُ رِفْقاً! فَقَالَ: اعْجَبُوا أ مِنْ دُونَ جِسْمٍ يُلَامُ الْبَشَرَ؟!
وقال: أ تُبْصِرْنِي هَازِلاً؟ فَإِنَّكَ لَسْتَ تُرَى بِالْبَصَرِ
فقلتُ: لقد صدق القائل: أُرِيهَا السُّهَاءَ وَ تُرِينِي الْقَمَرَ!⁽¹⁾

وبعد ملمح الإصابة بالنحول والسقم من الملامح التي ردها الشعراء الغرناطيون في غزلهم العفيف " وهي فكرة ليست جديدة في الشعر العربي فإن كبار العشاق في صدر الإسلام مثل كثير عزة، وجميل بثينة ومجنون ليلي... وصفوا لنا تباريح الحب في نغم لا يبدو أن أحداً بعدهم قد فاقهم فيه ومن ثم لا نجد تحسرات الشاعر الأندلسي ذات أهمية فهو مريض من الحب ويذبل تدريجياً ويشحب وجهه وينحف جسمه من الأرق والصوم"⁽²⁾؛ يقول مالك ابن المرحل واصفاً ما يعتري وجدانه من لوعة الهيام والعشق {البيسط}:

يَا سَائِلِي عَنْ نُحُولِي أَوْ ضَنِّي حَسَدِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْعَيُونِ النَّجْلِ أَسْرَارُ⁽³⁾
ويشير أبو عبدالله محمد بن غالب المالقي (ت 642)⁽⁴⁾ إلى ملمح السقم والنحول في أسلوب رقيق، وألفاظ سهلة تكشف عن سمات هذا اللون الغزلي، حيث يقول: {الكامل}
لَا تَخْشَ قَوْلًا قَدْ عَقَدْتَ الْأَلْسِنَا وَابْعَثْ خَيْالَكَ قَدْ سَحَرْتَ الْأَعْيُنَا
وَاعْطَفْ عَلَيَّ فَإِنَّ رُوحِي زَاهِقٌ وَانْظُرْ إِلَيَّ بِنَظْرَةٍ إِنْ أَمْكَنَّا
لَا يَخْدَعَنَّكَ أَنْ تَرَانِي لِابْسَاءٍ ثُوبِي فَقَدْ أَصْبَحْتُ فِيهِ مُكْفَنًا

(1) — ابن عسكر وابن خميس، أعلام مالقة، تح: عبدالله المرابط الترغي، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1420هـ — 1999م، ص ص 183 — 184.

(2) — هنري بيريس: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ص: 357.

(3) — ابن المرحل، الجوالات، ص 43.

(4) — ترجمته في الإحاطة ج 2 ص 315. وفي اختصار القدح المعلى، ص 128.

مَازَالَ سِحْرُكَ يَسْتَمِيلُ خَوَاطِرِي بِأَرْقٍ مِّنْ مَّاءِ الصَّفَاةِ وَأَلْيَنَا⁽¹⁾
فقد صور الشاعر من خلال هذه الأبيات جذوة الحب المتوهجة في أعماقه، ووصف ما
أحدثه العشق في نفسه ، فقد أصابه النحول ، وكادت روحه أن تزهق ، وإذا كان وصال
محبوبته بعيد المنال ، فحسبه أن يظفر بنظرة تروي ضمأه ، وتخفف من لوعته ، وقد عبر عن
هذا في أسلوب يذوب رقةً وعذوبةً .

ومن الشعراء الذين تميز غزلهم العفيف بالرقة والسهولة مالك ابن المرحل، ولننظر إلى قوله
وهو يصدق بما يختلج في قلبه من وله ووصب : {الوافر}

هَوَاهَا مَا شَكَوْتُ سِوَى هَوَاهَا فَوَاهَا كَمْ أَقَاسِي الْحُبِّ وَاهَا
إِذَا ذَكَرُوا سِوَاهَا قَلْتُ مَهَلًا وَهَلْ فِي الْأَرْضِ مَنْ يُهْوَى سِوَاهَا
حُلَاهَا عَلَّمْتَنِي الْحُبَّ كَهَلًا فَيَا لِلَّهِ مَا أَحْلَى حُلَاهَا⁽²⁾

ومن الملامح الأخرى التي ركز عليها الشعراء في هذا النمط الغزلي ملمح الصد
والهجران والحرمان من قبل المحبوبة ، يقول الرندي واصفاً عواطفه إزاء من يحب ، مجسداً ما
يلاقيه من لوعة وألم بسبب الحرمان والصد من قبل الحبيبة : {المنسرح}

قَطَعَ قَلْبِي بِصَدِّهِ قِطْعًا وَإِذَا ضَرَّنِي وَمَا أَنْتَفَعَا
وَعَرَّنِي أَوْلًا بِوَصْلَتِهِ وَعِنْدَمَا لَذَّ وَصْلُهُ قِطْعًا
وَمَرَّ عَنِّي لَمَّا شَكَوْتُ لَهُ كَأَنَّهُ مَا رَأَى وَمَا سَمِعَا!
وَكَبِدِي ! لَوْ تُفِيدُ (وَكَبِدِي) لَمْ يَتْرِكِ الدَّهْرُ فِيهِ لِي طَمَعَا
يَا لَيْتَ قَلْبِي الَّذِي وَهَبْتُ لَهُ يَرْجِعَ لِي الْيَوْمَ كَيْفَمَا رَجَعَا!⁽³⁾

ويعبر أبو عبدالله محمد بن غالب المالقي عن هذا الملمح حيث يقول : {الطويل}
وَبِي رَشَاءٌ مِنْ أَهْلِ غَرْنَاطَةِ غَدَا يَجُودُ بِتَعْدِي وَ يَنْخَلُ بِاللُّقْيَا⁽⁴⁾

(1) — ابن سعيد ، اختصار القدر المعلى ، ص128 .

(2) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص48 .

(3) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي — شاعر رثاء الأندلس ، ص62 .

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج2 ، ص318 .

ويقول ابن المرحل راصدا هذا الملمح: {الوافر}

تُعَذِّبُنِي وَتُسَخِّطُنِي لِيَبِي فَيَعْدُبُ لِي وَ أَجْهَدُ فِي رِضَاهَا⁽¹⁾

ومن ملامح هذا النمط الغزلي العفيف تصوير العاشق ذليلاً خاضعاً لمعشوقته، متفانياً في رضاها وفي حبها، وذلك بالرغم من قسوتها وصددها؛ يقول ابن المرحل مظهراً تذللته وخضوعه لمن يحب غير آبه لما يقوله العواذل: {الكامل}

أَنَا عَبْدُهُ وَأَنَا رَضِيْتُ بِفَعْلِهِ فَعَلَامَ عَاتَبَنِي الْعَذُولُ وَأَنْبَا⁽²⁾

ويقول ابن رشيق المرسي مخاطباً الحبيب: {الكامل}

يَا مَالِكًا رَقِي أَمَا لَكَ رِقَّةٌ أَوْ مَا ضِيَاعَةٌ مُهَجِّي مِنْ مَالِكَا؟
كَمْ أُرْتَضِي إِذْ لَالَ نَفْسِي فِي الْهَوَى وَأَرَاكَ مُرْتَكِبًا مَدَى إِذْ لَالَ كَا⁽³⁾

ويقول الرندي مظهراً صورة العاشق المتيمم التي تدعو إلى الإشفاق: {الكامل}

وَمُتَيِّمٌ لَوْ كَانَ صَوَّرَ نَفْسَهُ مَا زَادَهَا شَيْئًا سِوَى الْإِشْفَاقِ
مَا كَانَ يَرْضَى بِالصَّدُودِ وَإِنَّمَا كَثُرَتْ عَلَيْهِ مَسَائِلُ الْعُشَاقِ⁽⁴⁾

ومن العجيب حقاً أمر العاشق؛ فهو يلتمس لمعذبه ألف سبب وعذر، بل كلما زاد الحبيب في صلفه ازداد تعلقاً به، وازداد رغبةً في الاقتراب منه، معرباً دائماً عن وفائه له،

يقول أبو عبدالله محمد بن غالب المالقي راصدا هذا الملمح: {الطويل}

أَيَحْسَبُ مَنْ أَصْلِي فُؤَادِي بِحُبِّهِ بَأَنِّي سَأَسْأَلُو عَنْهُ حَاشَاهُ حَاشَاهُ
مَتَى غَدَرَ الصَّبِّ الْكَرِيمِ وَفَى لَهُ وَإِنْ أَثْلَفَ الْقَلْبَ الْحَزِينَ تَلَافَاهُ⁽⁵⁾

ويكثر ابن المرحل من التماس الأعذار لصلف المحبوبة وصددها، من ذلك قوله: {الرملة}

كَيْفَ أَسْأَلُو عَنْ هَوَاهُ وَالْحَشَا قَدْ حَشَاهُ مِنْ هَوَاهُ مَا حَشَاهُ⁽⁶⁾

(1) — ابن المرحل، الجوالات، ص 143.

(2) — المصدر السابق، ص 66.

(3) — ابن رشيق المرسي: حياته وآثاره، ص 168 — 169.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص 372.

(5) — المصدر السابق، ج 2، ص 317.

(6) — ابن المرحل، الجوالات، ص 143.

وقوله أيضاً : {الكامل}

هُمُ أَعْدَمُونِي كُلَّ أَنْسٍ فِي الْهَوَى وَأَنَا أَقْرُّ لَهُمْ بِمَا لَا يُوجَدُ
لَا ذَمٌّ عِنْدِي لِلْحَبِيبِ وَإِنْ جَنَى إِنَّ الْحَبِيبَ بِكُلِّ حَالٍ يُحْمَدُ⁽¹⁾

وبالرغم من الحرمان والقسوة بالصدِّ الدائم ، والسلبية المتناهية من قبل الحبيبة ، فإن جدوة الحب تبقى دائماً متوهجة في قلب الشاعر الغرناطي ؛ وذلك لكي يأتي اللقاء حلو المذاق وإن كان قصيراً مخفوفاً بالمخاطر ؛ يقول الرندي : {السريع}

وَلَيْلَةٌ قُصِّرَ مِنْ طُولِهَا بِزُورَةٍ مِنْ رَشَاٍ نَاضِرٍ
اسْتَوْفَرَ الدَّهْرُ بِهَا غَالِطاً فَادْغَمَ الْأَوَّلُ فِي الْآخِرِ⁽²⁾

ويقول ابن المرحل : {الكامل}

كَمْ لَيْلَةٌ سَبَقَ الصَّبَاحُ عِشَاءَهَا قِصْرًا فَمَا أَمْسَيْتُ حَتَّى أَسْفِرًا⁽³⁾

ومن ملامح هذا النمط الغزلي التعبير عن مواقف الفراق ، وما تتركه في نفوس العشاق من آلام ومشاعر متناقضة ؛ يقول ابن المرحل راصداً آلام الفراق ولوعته بين أضلعه
{الكامل}:

رَحَلُوا وَلَكِنْ دَارُهُمْ فِي أَضْلَعِي مَا هَوْلَةٌ وَهَوَاهُمْ يَتَجَدَّدُ
وَلَهُمْ مَصِيفٌ فِي الضُّلُوعِ وَمَرْبَعٌ وَلَهُمْ مُرَادٌ فِي الدَّمُوعِ وَمُورِدٌ⁽⁴⁾

ويصور أبو القاسم بن خلصون ما ينتاب العشاق لحظة البين والفراق ، مجسداً ما يعترتهم من هول وذهول ، فالأنفاس حري ، وخفقات القلب متلاحقة ، والدموع غزيرة منهمة ، واللسان قد خرس عن الكلام ، يقول : {الكامل}

هَلْ تَعْلَمُونَ مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ عِنْدَ الْوَدَاعِ بِلُوعَةِ الْأَشْوَاقِ
وَالْبَيْنُ يَكْتُبُ مِنْ نَجِيعِ دِمَائِهِمْ إِنَّ الشَّهِيدَ لَمَنْ يَمُتُ بِفِرَاقِ
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَ حَالِهِمْ يَوْمَ النَّوَى لَرَأَيْتَ مَا يَلْقَوْنَ غَيْرَ مُطَاقِ

(1) — المصدر السابق ، ص 77 .

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص 366.

(3) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص 101.

(4) — المصدر السابق ، ص 77.

منهم كئيبٌ لا يَمَلُّ بُكَاءَهُ قد أُغْرِقَتْهُ مَدَامِعُ الْأَمَاقِ
وَمُحَرَّقُ الْأَحْشَاءِ أَشْعَلَ نَارَهُ طُولُ الْوَجِيبِ بِقَلْبِهِ الْخَفَّاقِ
وَمَوْلَهُ لَا يَسْتَطِيعُ كَلَامَهُ مِمَّا يُقَاسِي فِي الْهُوَى وَيُلَاقِي
خَرَسَ اللِّسَانَ فَمَا يُطِيقُ عِبَارَةً أَلَمَ الْمُرُورِ وَمَا لَهُ مِنْ رِاقِ
مَا لِلْمُحِبِّ مِنَ الْمُنُونِ وَقَايَةً إِنْ لَمْ يُغِيثْهُ حَبِيبُهُ بِنَاقِ (1)

وأما أبو عبدالله بن الشراط (كان حيا سنة 700 هـ) (2) فهو يصور نفسه شمعةً تَحْتَرِقُ من شدة التهالك بعد فراق الحبيب ؛ وذلك في قوله : {الوافر}

وَكُنْتُ أَلْفَتْ قَبْلَ الْيَوْمِ إلفاً أُنَادِي مَرَّةً فَيُجِيبُ أَلْفَا
وَكُنَّا مِثْلَ وَصَلِ الْعَهْدِ وَصَلَاً وَكُنَّا مِثْلَ وَصَفِ الشَّهْدِ وَصَفَا
فَفَرَّقَ بَيْنَنَا صَرْفُ اللَّيَالِي وَسَوَّغَنَا كُؤُوسَ الْبَيْنِ صِرْفَا
فَصَرْتُ غَدَاةَ يَوْمِ الْبَيْنِ شَمْعَاً وَسَارَ فَصَارَ كَالْعَسَلِ الْمُصَفَّى
فَدَمَعِي لَا يَتَمُّ أَسَىً وَجِسْمِي يَغْصُ بِنَارِ وَجْدِي لَيْسَ يُطْفَأُ (3)

ومن الملامح البارزة في الغزل الغرناطي العفيف زيارة الحبيب طيفاً أو خيالاً ، فالعاشق متيم بمن يحب ينتهز كل فرصة مهما بدت صعبة المنال للاقتراب منه حبيبه ليثبه آلام الهوى والصدد ، فإذا نأى الحبيب أو تمادى في صلفه صار الشاعر يبحث عن مسلك أو طريقة لاستدعاء الذكريات ، وتكون زيارة الطيف أو الخيال وسيلته للتخفيف من حدة شعور الفراق والحرمان . يقول أبو القاسم بن خالصون : {الرملى}

لَوْ خَيَالٌ مِنْ حَبِيبِي طَرْقَا لَمْ يَدَعْ دَمْعِي بِخُدِّي طَرْقَا
وَنَسِيمُ الرِّيحِ مِنْهُ لَوْ سَرَى بِشَذَاهُ لِأَزَالُ الْحَرْقَا
وَمَتَى هَبَّتْ عَلَيَاتُ الصَّبَا صَحَّ جِسْمِي فَهَيَّ لِي نَفْثُ رُقَا (4)

ويقول أيضاً : {البسيط}

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص 258.

(2) — ترجمته في الإحاطة ج 3 ص 441 .

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص 442.

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص 260.

قُلْتُ: الخيالُ ولو في النومِ يُقْنَعُنِي فَقَالَ قَدْ كُحِّلْتُ عَيْنَاكَ بِالسَّهْدِ⁽¹⁾

ويتحدث ابن رشيقي المرسي عن طيف الحبيب حيث يقول: {الكامل}

فعل النوى ملغى لبعض نوالِكا فاشْفِ الخبالَ ولو بطيفِ خيالِكا

ما ضرَّ لو سَامَحَتْ مِنْهُ بِزَوْرَةٍ أُرِدَ السرابَ بها مكانَ زُلالِكا⁽²⁾

وأما ابن المرحل فإن سهره ودموعه بمنعان زيارة طيف الحبيب أو خياله ، يقول

{السيط}

وَمَنْ لِعَيْنِي أَنْ تَلْقَى خَيْالَكُمْ وَقَدْ أَبَى الْمَانِعَانِ الدَّمْعُ وَالسَّهْرُ⁽³⁾

ويقول أيضاً: {الوفر}

وقد كان الخيالُ يزورُ غيباً لو أن العينَ لم تَمْنَعْ كَرَاهَا⁽⁴⁾.

• الحجازيات :

من خلال النصوص الشعرية التي وصلتنا عن هذه الحقبة أستطيع القول إنه كان يجيأ بجوار الغزل العفيف شعر غزلي آخر، يذكرنا بذلك الاتجاه الذي سلكه الشريف الرضي في قصائد "الحجازيات"؛ تلك القصائد المبنية على نوع من الحنين المبهم، مع الإشارة إلى الأماكن البدوية. وقد أقر ابن خفاجة أنه نسج بعض قصائده على منوال قصائد الشريف، وذكر هذا في مقدمة ديوانه⁽⁵⁾.

ومن الشعراء الذين اشتهروا بهذا النمط الغزلي في القرن السابع الهجري ابن الجنان الشاطبي؛ حيث صارت مقطعاته الغرامية قلائد أهل الغرام على حدّ تعبير ابن سعيد⁽⁶⁾. وقد احتفظ له المقرئ ببعض المقطعات التي تجري على هذه الطريقة⁽⁷⁾.

(1) — المصدر السابق، والموضع نفسه .

(2) — ابن رشيقي المرسي : حياته وآثاره ، ص168.

(3) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص 92.

(4) — المصدر السابق ، ص143.

(5) — ينظر: ديوان ابن خفاجة ، تح : السيد مصطفى غازي ، ط 1 ، الإسكندرية ، 1960م ، ص14.

(6) — ينظر : المقرئ ، نفع الطيب ، ج 2 ، ص120.

(7) — ينظر : المصدر السابق ، ج 2 ، ص121.

من أبرز ملامح هذا النمط الغزلي حشد العناصر البدوية وترديدها؛ حيث يستترشد الشاعر معانيه من عالم البادية الرحب، حيث الشيخ، والبان، والعرار، وحيث الأماكن الحجازية، والنجدية، كالحيف، وسلع، ولعلع، ورامة،⁽¹⁾.

وقد جعل الشعراء الغرناطيون حجازياتهم — على طريقة الشريف الرضي — في مقدمات قصائد المديح، ومن الشعراء الذين ساروا على هذا النهج أبو عبدالله بن بكر البرجي فتراه يصدر إحدى قصائده في مدح الأمير أبي سعيد فرج بغزل ينحو فيه هذا المنحى، حيث ضمّنه العديد من المظاهر البدوية التي تعنى بها كثير من شعراء هذا النمط الغزلي، يقول: {الوافر}

قَفُوهَا إِنَّهَا تَلَعَاتُ نَجْدٍ	وما للعيس عن نجدٍ مسيرُ
وميلوا بي إلى الأثلاثِ نُحِيوا	فؤاداً كادَ من شوقٍ يطيرُ
وحيوا بالسلامِ بني سليمٍ	فقلبي في فنائهم أسيرُ
عسى ولعلّ من سلبتُ فؤادي	سُتوميء بالتحيّة أو تُشيرُ
وإن سألوا فقل ضيفٌ ملّمٌ	وإن بحثوا فقل صبٌّ يزورُ
وإن هم أنكروا مني ازدياراً	فما في زورٍ مشتاقٍ نكيرُ
وإن قالوا: الصدورُ فقد وردتم	فقولوا ما لنا عنكم صدورُ
فقلبي عندهم رهنٌ لحبي	وجسمي دون قلبي لا يسيرُ
وفي أبياتهم من لستُ أشكو	وإن كانت على ضعفي تجورُ
كتمتُ حديثها كرمًا فأضحى	عليه من حلى صوتي سُتورُ
فأنسبُ بالعقيقِ و أرضِ نجدٍ	ووجدي عن ضميري لا يحورُ
وأدعو زينباً وأقولُ سعدى	وغيرهم ما يُجابه ضميرُ
وما لي من مُرادٍ في سواها	فينجدُ في هواها أو يُغيرُ
بنفسي يومَ رامةٍ إذ رمّنتني	بطرفٍ في لواحظه فُتورُ ⁽²⁾

(1) — ينظر: فوزي سعد عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص112.

(2) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم: د 3835، ورفقات: 354، 355، 356، 357. تلعات: التلعة مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض، ومن أمثال العرب فلان لا يمتنع ذنب تلعة يضرب

ويعمضي الشاعر على هذا النسق البدوي فهو كما ترى، يتنفس في جوٍّ بدويٍّ خالص، يذكر أسماء الأماكن الحجازية (تلعات نجد — رامة) وبعض القبائل المشهورة في تلك الديار (بني سليم)، ويستمد معانيه من عالم البادية الرحب، وقد صاغ غزله في أسلوب حوارٍ لا يخلو من الرقة والعدوية مدفوعاً بالشوق وحنين إلى تلك الديار المقدسة، وكون الشاعر صاغ هذا الغزل في مقدمة قصيدة مدحية فهو إذاً يُذكرٌ ممدوحه بأصوله العربية الإسلامية الأصيلة .

ومن الشعراء الغرناطين الذين ساروا على هذا الدرب أبو عبدالله بن الحكيم حيث يقول في إحدى حجازياته ذاكراً الأماكن الحجازية (وادي الخيف — ميني) : {الرملي}

هَلْ إِلَى رَدِّ عَشِيَّاتِ الْوَصَالِ سَبُّ أُمِّ ذَاكَ مِنْ ضَرْبِ الْمَحَالِ

فَبِوَادِي الْخَيْفِ خَزْفِي مُسْعِدٌ وَبِأَكْنَافِ مِئِي أَسْنَى نَوَالِ
لَسْتُ أَنْسَى الْأُنْسَ فِيهَا أَبَدًا لَا وَلَا بِالْعَذْلِ فِي ذَاكَ أُبَالِي
وَعَزَّالٌ قَدْ بَدَا لِي وَجْهُهُ فَرَأَيْتُ الْبَدْرَ فِي حَالِ الْكَمَالِ⁽¹⁾

ومنهم أبو الحسن سهل بن طلحة (كان حياً سنة 652)⁽²⁾ الذي يقول في إحدى حجازياته : {الكامل}

أَنَا لِلْعَرَامِ وَلِلْهَوَى مَدْفُوعٌ فَمَتَى السَّلْوُ وَوَصَلْتُهَا مَمْنُوعٌ

يَا حَبَّذَا دَارٌ لِرَيْتَبِ بِاللُّوَى حَيْثُ الْفُؤَادُ عَلَى الْهَوَى مَطْبُوعٌ
يَا حَادِي الْعَيْسِ التَّفْتِ نَحْوِ اللُّوَى إِنِّي بِسَكَّانِ اللُّوَى مَفْجُوعٌ
وَعُجِ الْمَطِيِّ بِلَعْلَعٍ وَبِرَامَةٍ فَهِنَاكَ قَلْبٌ لِلشَّجِيِّ مَرُوعٌ
أَطْلَالُ آرَامٍ وَبَيْضٌ خُرْدٌ هُنَّ الْأَهْلَةُ بِالْجُيُوبِ طُلُوعٌ

للرجل الذليل الحقيق. ينظر: لسان العرب - ج 8 ص 35 . والأثلاث: شجر من الفصيلة الطرفاوية طويل مستقيم يعمر جيد

الخشب كثير الأغصان متعدها دقيق الورق واحده أثلة. ينظر: المعجم الوسيط، ج 1، ص: 12 .

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 ، ص: 458.

(2) — ينظر ترجمته لدى ابن الخطيب ، الإحاطة ج 4 ص: 313.

في ظبيةٍ من بينهنّ تصدّني حُسنًا ولي أبداً إليه نزوعُ
حوراءُ جائرةٌ عليّ بحكمها ظلماً وإنّي مُدعِنٌ وسَمِيعٌ⁽¹⁾

ومنهم أبو القاسم المرّي الذي قال في إحدى قصائده ذاكراً الأماكن الحجازية والمظاهر البدوية (كرامة والأطلال واللوى ومزدلف والكثيب وديار العامرية) : {الكامل}

جَادَ الحِمَى صَوَّبَ الغمامِ هُتُونُهُ تُزجِي البروقَ سحَابُهُ فتعِينُهُ
وَسَقَى دِيَارَ العامريةِ بَعْدَمَا وافى بجرعا و الكثيبِ معِينُهُ
يَنْدَى بِأَفْنَانِ الأَرَكَ كَأَنَّهُ عَقْدٌ تَنَأَنَرَ بالعَقِيقِ تَمِينُهُ

.....

هَنَّ الديارُ برامةٍ لا دَهْرُهَا سَلِسُ القِيَادِ ولا العتابُ يُلِينُهُ
وَلَقَدْ وَقَفْتُ بِرَسْمِهَا فَكَأَنِّي مِنْ نَاحِلِ الأَطْلَالِ فِيهِ أَكُونُهُ
قلبي بذلك باللّوى حَلَفْتَهُ أَلْوَى بِمُزْدَلِفِ الرِّفَاقِ طَعِينُهُ⁽²⁾

ومنهم مالك بن المرحل الذي يذكر في إحدى قصائده الحجازية (سلع ، ودار سلمى ، وآل عذرة ...) إذ يقول : {الخفيف}

جَادَ أَرْضَ الغيومِ صوبُ الغمامِ كَمَ حَوِيمٍ لَنَا بِهِا فِي الحمامِ

.....

سَلُّ سَلْعٍ عَن دَارِ سَلْمَى وَبَلَّغَ عَن سَلِيمِ الفؤادِ أَرْكَى السَّلامِ
وَبِهَا افْتَضَّ عُذْرَةَ الوصلِ صَبُّ هُوَ مِنْ آلِ عُذْرَةَ فِي الغَرَامِ⁽³⁾

وإذا كان معظم الشعراء الغرناطين قد جعلوا من حجازياتهم مقدمات لقصائد المديح مجارين في هذا النهج من سبقهم من رجال هذا الفن؛ فإنّ من الشعراء من اتجه — بالإضافة إلى هذا النهج — اتجاهاً آخر عندما قصر بعض قصائده الحجازية على الغزل

الخالص ، مثل قصيدة أبي عبدالله البرجي الغزلية التي استهلها بقوله : {الكامل}

أَمِنَ الغرامِ بِرَامَةِ الأَرَامِ رُمّتَ السَّلامَةَ لَاتَ حِينَ مَرَامِ

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج4 ، ص : 314 .

(2) — المصدر السابق ، ج3 ، ص : 169 ، 170 .

(3) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص : 120 ، 121 .

دَارُ الْهُوَى مَا دَارَ إِنْسَانٌ بِهَا إِلَّا أَنْتَنِي بِصَبَابَةٍ وَ غِرَامِ
فَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الْخِيَامِ بِرَامَةٍ فَأَثْرُكَ فَوَادِكَ وَارْتَحَلْ بِسَلَامِ
وَبِمُنْحَى الْوَادِي لَدَى سَمْرَاتِهِ ظَبْيِي يَصِيدُ الْأَسَدَ فِي الْأَجَامِ⁽¹⁾

هذه النصوص التي عرضتها في هذا الاتجاه الغزلي تدل على أن الشعراء الغرناطيين كان يحدوهم في حجازياتهم — إلى جانب نهجهم التقليدي — شوقٌ عاتٍ إلى الأراضي المقدسة ، وتشبُّثٌ مستميت بالجذور الأولى ، لاسيما في زمن يتعرَّض فيه الأندلسيون لعدوان صليبي يهدد الدين والهوية والوطن .

ثانياً — الغزل الحسيّ أو الإباحي :

تعرَّض شعراء إقليم غرناطة لهذا اللون الغزلي، وظهر في شعرهم بكثرة ووضوح، ما يسمح لنا بالقول إنَّ هذا الاتجاه كان أكثر شيوعاً وانتشاراً بين الشعراء الغرناطيين ، وذلك لما كانت تتمتع به البيئة الأندلسية من تحرر وترف ، كما كان لانتشار الغناء دور بارز في ذيوع هذا اللون الغزلي . ومما يدل على انتشار الغناء في البيئة الغرناطية قول ابن الخطيب إنَّ الغناء " بمدينتهم فاشٍ حتى في الدكاكين .."⁽²⁾ . ويبدو أن هذا ما جعل غزلهم يتميز بالرقّة والسهولة والرشاقة ، وهو السبب نفسه في كثرة المقطّعات الغزلية القصيرة التي تتميز بقلّة عدد أبياتها ، وسهولة ألفاظها، ورشاقة أوزانها ، حيث أقبل الشعراء على نظمها تلبيةً لحاجة الغناء والمغنين⁽³⁾ . وكان أيضاً لانتشار الجوّاري ودور اللهو أثر في ذيوع هذا اللون الغزلي .

ومن الشعراء الغرناطيين المشهورين بهذا الاتجاه الغزلي : ابن سعيد الغرناطي ، الذي ترددت في شعره العديد من أسماء الجوّاري ، ولعل أشهرهنّ جاريتة الإشبيلية (صبح) التي تعلقُ بها ، وكان له معها مغامرات كثيرة ، تحدّث عنها في غير قصيدة ، من ذلك قوله في مطلع قصيدة : {مخلع البسيط}

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط ، رقم : د 3835 ، ورقعات :

366 ، 367 ، 368 .

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ج1 ، ص:137 .

(3) — ينظر : فوزي سعد عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص : 106 (بتصرف) .

أَوْجَهُ (صُبْح) أَمِ الصَّبَاحِ وَلَحْظُهَا أَمَ ظُبَا الصَّفَاحِ؟⁽¹⁾
 وفي إحدى قصائده يصف لقاءً له معها حين زارته ذات ليلة متخفية ففاح نشرها ، ودلَّ عليها ، ويصور فيها ما دار بينهما في تلك الليلة ، حيث ارتشفا خمر الرضاب ، واعتنقا فأضحى ساعدها وشاحاً لها ، يقول :مخلع {البسيط}

زَارَتْ وَمِنْ نُورِهَا دَلِيلٌ وَ اللَّيْلُ قَدْ أَسْبَلَ الْجَنَاحُ
 أَخْفَتْ سَرَاهَا فَبَاحَ نَشْرُ لَهَا بَعْرِفٍ فَشَا وَفَاحُ
 وَأَفَتْ فَأَمْسَى فَمِي مُدَاماً وَ سَاعِدَايَ لَهَا وَشَاحُ
 كَأَنَّما بَتُّ بَيْنَ رَوْضٍ وَالْغُصْنِ وَالْوَرْدِ وَالْأَقَاحِ⁽²⁾

ويبرز الجانب الحسي بصورة واضحة في شعر ابن سعيد الغزلي إلى حد التهتك، وذلك على نحو ما يبدو في قوله من قصيدة يصف فيها تجربته مع فتاة عذراء: {الكامل}

وَخَرِيدَةٍ مَا إِنْ رَأَيْتُ مِثْلَهَا حَيْثُ مِنَ الْأَلْحَاطِ بِالْإِيْمَاءِ
 فَسَأَلْتُهَا سَمِعَ الشِّكَاةَ فَأَفْهَمَتَ أَنَّ الرَّقِيبَ جُهَيْنَةَ الْأَنْبَاءِ
 وَتَبِعْتُهَا ، وَسَأَلْتُ مِنْهَا قُبْلَةً فِي خَلْوَةٍ مِنْ أَعْيُنِ الرَّقَبَاءِ
 فَفَنَّتْ عَلَيَّ قِيَامَهَا بِنَعَانِقِي أَحْيَا فَوَاداً مَاتَ بِالرِّحَاءِ
 وَوَجَدْتُهَا لَمَّا مَلَكَتْ عِنَانَهَا عَذْرَاءَ مِثْلِ الدَّرَّةِ الْعَذْرَاءِ
 جَاءَتْ إِلَيَّ كَوَرْدَةٍ مُحْمَرَّةٍ فَتَرَكَتُهَا كَعَرَارَةٍ صَفْرَاءِ
 وَسَلَبْتُهَا مَا أَحْمَرَّ مِنْهَا صَفْوَهُ فَجَرَى مُذَاباً مَجْنَحاً لِرَجَائِي⁽³⁾

فأبيات الشاعر تعبر بجلاء عن إباحية تامة ، وتبرز صورة المرأة عابثة متهتكة طالبة لا مطلوبة ، تتمتع بجرأة كبيرة ، وبقدر واسع من التحرر، ولا تمانع في منح عاشقها بسخاء، وهي من جهة أخرى تعبر عن التحرر الذي عرفته بعض البيئات الأندلسية في هذه الفترة، لاسيما البيئة الإشبيلية التي غرق شعراؤها في اللهو والبطالة ، مما دفعهم إلى التعبير بصراحة عن هذه الملذات في أشعارهم الغزلية ، على أن هناك من الشعراء من ابتعد عن تعرية المرأة

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج3 ، ص :77.

(2) — المصدر السابق ، ج3، ص :77. 78.

(3) — المصدر نفسه ، ج3 ، ص :32 ، 33.

ووصف جسدها العاري ، مكنيفاً بما يقره الذوق العام السائد آنذاك ، ومنهم أبو الطيب الرندي ،الذي رأى امرأة فاتنة تحللت من ثيابها ، مبدية مفاتن جسدها ، تاركة إياها لماء الحمام يتخلل بينها، تُرى هل هناك ما هو أروع لشاعر من جسد عار مبلل بالماء مثير لكوامنه ،فيندفع إلى وصف كل عضو ورصد كل حركة ؟

وبالرغم من هذا المنظر المغربي إلا أن الرندي اكتفى برصد ثلاثة ملامح فقط؛ هي تصوير مسح الماء عن وجنتيها ، و تصوير قطرات الماء المتساقطة على ذوائبها ،وتصوير وجهها ،وقد راحت تنثر شعرها وتجمعه مبدية إياه تارة، ومخفية إياه تارة أخرى ،فبدت كأنها شمس تظهر تارة من خلف الغمام، وتختفي تارة أخرى ،فقال: {الكامل}

بَرَزَتْ مِنَ الْحَمَّامِ تَمَسَّحُ وَجْهَهَا عَن مِثْلِ مَاءِ الْوَرْدِ بِالْعُنَابِ
وَالْمَاءُ يَقْطُرُ مِنْ ذَوَائِبِ شَعْرِهَا كَالطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ غُرَابِ
فَكَأَنَّهَا الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فِي الضُّحَى طَلَعَتْ عَلَيْنَا مِنْ خِلَالِ سَحَابِ⁽¹⁾

وقد عد ابن الخطيب هذه الأبيات من النسيب ،وأراه محققاً في ذلك، ويرى الدكتور الطاهر أحمد مكّي أن هذه الأبيات ترسم صورة نادرة في الشعر الأندلسي، وذكر أنها " صورة قلّ أن نجد لها شبيهاً في الشعر الأندلسي... " (2)

ومن الصور التي تتردد بكثرة في هذا الاتجاه الغزلي : صورة الصباح الذي كثيراً ما يكون نذير الفراق والانفصال بين الأحباب ، وانتهاء لحظات الوصال التي طالما اختلست تحت جناح الظلام ، وفي إحدى قصائد ابن سعيد تظهر الحبيبة فزعة قلقة من نور الصباح خوفَ الفضيحة وانكشاف أمرهما ؛ وذلك إذ يقول: {مخلع البسيط}

فَبَيْنَمَا الشَّمْلُ فِي انتِظَامِ إِذْ سَمِعَتْ دَاعِيَ الْفَلَاحِ
فَعَادَرْتُنِي فَقَلْتُ : عُدْرًا قَالَتْ : أَمَا تَحْذَرُ افْتِضَاحِ
وَلَّتْ وَ مَا خَلْتُ مِنْ صَبَاحِ يَبْدُو عَلَى إِثْرِهِ صَبَاحِ⁽³⁾

ويتكرر مشهد الصباح لدى أبي الحسن سهل بن مالك الذي؛ يقول في حوار مع حبيته

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص : 371 .

(2) — ينظر، الطاهر أحمد مكّي ، دراسات أندلسية ، ص : 303.

(3) — المقرّي ، نفع الطيب ، ج3 ، ص: 79 .وللمزيد ينظر أيضا ج3 ص 74 .

وقد حلَّ الصباح {الطويل}

وَلَمَّا رَأَيْتُ الصَّبْحَ هَبَّ نَسِيمُهُ دَعَانِي دَاعِيهِ إِلَى الْبَيْنِ وَالشَّتِّ
فَقُلْتُ أَخَافُ الشَّمْسَ تَفْضَحُ سِرَّنَا فَقَالَتْ : مَعَاذَ اللَّهِ تَفْضَحُنِي أُخْتِي⁽¹⁾

وعلى هذا النحو كان الشعراء الغرناطيون يهيمون بوصف وداع المعشوقة في الصباح ، بيد أن ذلك لا يعني أسبقيتهم في طرق هذا الملمح ولا أظن أنهم سبقوا المشاركة في ذلك؛ فقد سبقهم إلى هذا الوصف عمر بن أبي ربيعة في قصيدته المشهورة (أمن آل نُعم أنت غادٍ فمُبكرٌ) ، وعلى هذا تكون أشعارهم في وصف هذا الملمح " تستمد من جذادات الشعر المشرقي في المعاني والصور، ولكنها تعيدها في معارض جديدة، فيها طرافة الخيال وبراعة التصوير .. " ⁽²⁾

• ملامح الجمال الأنثوي لدى الشعراء الغرناطيين:

لم تختلف ملامح الجمال الأنثوي التي رصدها الشعراء الغرناطيون في القرن السابع الهجري، عمّا رصده شعراء العصور السابقة، فالمفردات متوارثة ، والصور قديمة ، ولم يخرج الغرناطيون عن النموذج الموروث من الشعر العربي إلا تلبيةً لنداء التقاليد الخاصة بالبيئة الغرناطية المغايرة، وتركزت معظم تلك الملامح في صورة الوجه المشرق البيضوي بالشمس أو بالبدر نوراً ، وكذلك في العيون الواسعة الساحرة الشبيهة بعيون المها مظهرًا، وبوقع النبال والسيوف أثراً ، وفي الريق الذي هو كالخمر ، وفي الخدود الوردية، والشفاة العسلية ، وفي الأسنان الشبيهة في انتظامها واثلافها بالدرر الأقحوانية التي سلكت في عقدٍ ، وفي الشعر الأسود الفاحم الذي يشبه الليل البهيم، وفي الصدر الناهد ، والخصر النحيل ، والردف الثقيل ، والقامة الرشيقة المشبهة غصن البان الذي يتمايل ويهتز كلما داعبته نسيمات الرياح، إلى غير ذلك من الصفات التي تغنى بها شعراء العرب في أشعارهم كثيراً.

ومن الممكن أن نجد معظم هذه الملامح تتجسّد في أبيات أبي عبدالله البرجي ، حيث

(1) — ابن سعيد ، اختصار القدح المعلّى ، ص 62 .

(2) — شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط 11 ، القاهرة ، دار المعارف ، (د.ن) ص: 433 .

يقول: {السريع}

مَرَضَى مِنَ السَّحْرِ وَ هُنَّ الصَّحَاخُ
وَ إِن تَجَلَّتْ قُلْتَ : بَدْرُ لِيَاخُ
غُصْنًا مِنَ الْبَانِ تَنْتَهُ الرِّيَاخُ
خَصْرٌ رَقِيقٌ فَوْقَ رِدْفٍ رَدَاخُ
إِلَّا بِخَصْرٍ جَالٍ فِيهِ الْوِشَاخُ
وَافْتَنَّ فِيهَا تُعْرُهَا عَنْ أَقَاخُ
أَذَكَّى وَأَشْهَى مِنْ سُلَافَاتِ رَاخُ

حُمُصَانَةٌ تَحْسِبُ أَجْفَانَهَا
إِذَا تَوَلَّتْ قُلْتَ : حِقْفُ النَقَا
وَ إِن تَنْتَ أَعْطَافَهَا خِلْتَهَا
يُوَاوِلُ الضُّدُّ بِهَا ضِدَّهُ
لَمْ يَثْبُتِ الْخَلْخَالُ فِي سَاقِهَا
تَفْتَحَتْ وَجْنَتُهَا وَرَدَةٌ
وَابْتَسَمَتْ عَنْ شَنْبِ عَاطِرٍ

.....
مِنْ لَحْظِهَا أَتَخَنَّ قَلْبِي جِرَاخُ
أَنْضَى وَ أَمْضَى مِنْ صُدُورِ الرَّمَاخُ⁽¹⁾

.....
دَنَوْتُ مِنْهَا فَنَضَّتْ صَارِمًا
وَ أَشْرَعَتْ نَهْدَيْنِ مِنْ صَدْرِهَا
وَ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا مِنْ قَصِيدَةِ أُخْرَى : {الوافر}
فَمَالَ بِهَا الْهَوَى فَنَضَّتْ نَقَابًا
وَ أَبَدَتْ تُعْرُهَا فَشَهِدَتْ قَطْعًا

قَضَى أَنَّ الْخُدُودَ هِيَ الْبُدُورُ
بِأَنَّ الدَّرَّ مَنِيَّتُهُ الثُّعُورُ⁽²⁾

وَ كَذَلِكَ الْأَمْرُ فِي قَوْلِ أَبِي حِيَانَ الْغَرْنَاطِيِّ : {الطويل}

سَبَانِي جَمَالٌ مِنْ مَلِيحِ مِصَارِعِ عَلَيْهِ دَلِيلٌ لِلْمَلَاخَةِ وَاضِحُ
لَيْنٌ عَزَّ مِنْهُ الْإِمْتَلُ فَالْكَلُّ دُونُهُ وَإِنْ خَفَّ مِنْهُ الْخَصْرُ فَالرَدْفُ رَاجِحُ⁽³⁾
وَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ فَإِنَّ التَّبَايْنَ الظَّاهِرَ بَيْنَ الرَدْفِ الثَّقِيلِ وَ الْخَصْرِ النَّحِيلِ هُوَ مَنْ أْبْرَزَ
مِوَاظِنَ الْجَمَالِ الْجَسْدِيِّ الْأَنْثَوِيِّ لَدَى الشَّاعِرِ الْغَرْنَاطِيِّ ، وَ لَا تَكَادُ هَذِهِ الْمَلَامِحُ تَخْرُجُ عَنْ
الْمِوَاضِعِ الَّتِي رَصَدَهَا بَقِيَّةُ الشُّعْرَاءِ الْغَرْنَاطِيِّينَ فِي غَزَلِهِمُ الْأَنْثَوِيِّ ، بَلْ نَرَاهَا تَتَكَرَّرُ بِكَثْرَةٍ فِي
مَعْظَمِ الْقِصَائِدِ الْغَزَلِيَّةِ ، يَقُولُ مَالِكُ بْنُ الْمَرْحَلِ رَاصِدًا بَعْضَ هَذِهِ الْمَلَامِحِ : {الكامل}

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، رقم 3835 د، ورقتان: 351 ،
352.

(2) — المصدر السابق، ورقة: 355.

(3) — المقرئ، نفح الطيب، ج 3 ص 336.

أَوُورِدِ بِدَمِ الْمُحِبِّ صَقِيلِ
تَخْطُو بَعْضَ الْبَانَةِ الْمُطَّلُولِ
بِجَفْوِهَا فَسَكَّرَتْ دُونَ شَمُولِ
نوعين للتعنيق والتقييل

عَرَضَتْ بِأَمْلَحِ عَارِضٍ وَ تَلِيلِ
وَرَنْتَ بِالْحَاظِ الْعَرَالِ وَأَقْبَلْتِ
وَتَبَسَّمْتَ عَنْ عَقْدِهَا وَتَكَلَّمْتِ
نَظَمَ الْجَمَانُ بَثْغِهَا وَبَجِيدِهَا

.....
مِنْ حَمَلٍ مَا لَا يُسْتَطَاعُ ثَقِيلِ (1)

.....
هِيَ كَلَّفَتْنِي مَا تَكَلَّفَ خَصْرُهَا

ويلاحظ على غزل الغرناطين كثرة مزجهم بين ملامح المرأة، وبين مفردات الطبيعة وأوصافها، فالمرأة في غزلهم غالباً ما تكون روضة غناء، حدودها كالورود، وعيونها كالنرجس، وثغرها كالأقاحي، وقد يلتبس الأمر على القارئ، فلا يعرف المقصود بالوصف المرأة أم الطبيعة؟، ويعدُّ هذا سمة بارزة في غزل الغرناطين، حيث شهد لهم المقرئ بهذا الأمر حين قال " إذا تغزّلوا صاغوا من الورد حدوداً، ومن النرجس عيوناً، ومن الآس أصداعاً، ومن السفرجل نهوداً، ومن قصب السكر قدوداً، ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم، ومن ابنة العشب رضاباً... " (2).

يقول ابن المرحل في وصف المرأة: {البيسط}

غيداء غادية في الحسن رائحة لها روائح مسكٍ خالط النفسا (3)

ويقول أيضاً: {الطويل}

و روضاً من الحسن البديع منعماً وليس له إلا دموعي جداول (4)

وله أيضاً: {المتقارب}

وتبسم عن نورة لو يكون على شكلها النور لم يذبل (5)

ويقول أبو الحسن سهل بن مالك مصوراً أنفاس المحبوبة بالأقاحي، وريقها بالخمير:

(1) — ابن المرحل، الجوالات، ص: 112، 113.

(2) — المقرئ، نفع الطيب، ج 1، ص: 323.

(3) — ابن المرحل، الجوالات، ص: 142.

(4) — المصدر السابق، ص: 112.

(5) — المصدر نفسه، ص: 115.

{الطويل}

تبسّم واستأثرتُ منه بقبلةٍ فَشِئِمْتُ أَفَاحاً وارْتَشَفْتُ عُقَاراً (1)
ويرصد الرندي العديد من مظاهر الطبيعة في أثناء تغزله بحبوبته وتذكر أيامه الخوالي، إلى الحد الذي يكاد فيه أن يخرج إلى رصد أوصاف الطبيعة، والخروج عن موضوعه الأصلي وهو الغزل؛ إذ يقول: {الخفيف}

عللاني بذكرِ تلكِ الليالي
لَسْتُ أَنسَى لِلْحُبِّ لَيْلَةَ أَنَسِ
غَفَلَ الدَّهْرُ وَالرَّقِيبُ وَبِتْنَا
ضَمَّنَا ضَمَّةَ الْوِشَاحِ عِنَاقُ
بَرَدْتُ الْحَشَا بِلِثْمِ بَرُودِ
وَكُوُوسُ الْمُدَامِ تَجْلُو عَرُوساً
وَلنَحْرِ الدُّجَى ذَوَابِلُ شَمْعِ
وَالثَّرِيَا تَمُدُّ كَفّاً خَضِيباً
وَكأنَّ الصَّبَاحَ إِذْ لَاحَ سَيْفُ
وَمَسَحْنَا الْكَرَى إِلَى غَانِيَاتِ
فِي رِيَاضِ تَبَسَّمِ الزَّهْرِ فِيهَا
وَجَرَى عَاطِرُ النَّسِيمِ عَلِيلاً
فَاكْتَسَى النَّهْرُ لَأَمَةً مِنْهُ لَمَّا
يَا لِيَالِي مَنِّي سَلَامٌ عَلَيْهَا
وَعَهودِ عَهْدَتُهَا كَاللَّالِي
صَالَ فِيهَا عَلَى النَّوَى بِالْوِصَالِ
فَعَجِبْنَا مِنْ اتِّفَاقِ الْمَحَالِ
بِئِمِينَ مَعْقُودَةَ بِشِمَالِ
لَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى خَبَا لِي خَبَالِي
أَضْحَكَ الْمَرْجُ نَعْرَهَا عَنْ لَالِ
عَكَسَتْ فِي الزَّجَاجِ نُورَ الذُّبَالِ
أَعْجَمَتْ بِالسَّمَاكِ نُورَ الْهِلَالِ
يُنْتَضِي مِنْ غَيْنٍ وَمِيمٍ وَدَالِ
غَانِيَاتِ بِكُلِّ سِحْرِ حَالِ
لِعَمَامِ بَكَتْ دُمُوعَ دَلَالِ
يَتَهَادَى بَيْنَ الصَّبَا وَالشَّمَالِ
أَنْ رَمَى الْقَطْرُ نَحْوَهُ بِنِبَالِ
أُتْرَاهَا تَعُودُ تِلْكَ اللَّيَالِي؟! (2)

فالرندي كما ترى يذكر ليالي أنسه مع حبيبته، ويسترجع أيامه الخوالي، واستطرد في وصف ذلك المجلس الذي كان يضمهما، وخرج إلى ما لابس مكان لقائهما، فالتفت إلى

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 4، ص 281.

(2) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوي، ص: 128، 129. وكذلك عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ج 4، ص: 137، 138.

الطبيعة من حولهما في الأرض والسماء "ولولا بيته الأخير الذي لفت الذهن إلى موضوعه الأصلي، وهو الغزل، ووصل أوله بأخره؛ لكان استغراق وصف الطبيعة أغلب على أبياته"⁽¹⁾.

إن تعلق الشاعر الغرناطي بالطبيعة في أثناء تغزله ليس شيئاً عجبياً، فقد كانت الطبيعة الإطار الجميل الذي احتضن حبه، وكانت الصديق الوفي الذي كتم سرّه، فتحت ظلالها، وبين أفنائها ورياضها تعاطى أرقّ النجوى، وأحلى عبارات العشق والهوى، وهي بالنسبة للغرناطين جزء من حبهم وعشقهم "يرتبطون بها، ويجسّون بمشاركتها إياهم بكل أحاسيسهم من فرح وحزن وانسراح وانقباض"⁽²⁾.

فمالك ابن المرحل يتخذ من البرق والحيا ما يصور ملامح عشقه، وهو اه فيقول:
{ الطويل }

مَتَى قَامَتِ الْعَيْنُ الَّتِي شَامَتِ الْبَرْقَا مَتَى هَدَأَ الْقَلْبُ الَّذِي أَوْحَشَ الْخَفَقَا
مَتَى رَقَاً الدَّمْعُ الَّذِي سَاجَلَ الْحَيَا أَلَا رَبَّمَا يَرْقَى الْحَيَا وَهُوَ لَا يَرْقَا
مَحَبٌّ وَبَيَّتَ اللَّهُ يَا جِيرَةَ الْجَمَى أَأَنْكُرُ فَضْلَ اللَّهِ أَمْ أَحْجَلُ الدَّرَقَا⁽³⁾

وعادةً ما يمزج الشاعر الغرناطي في أثناء تغزله بالمرأة بين الطبيعة وما يرتبط بها من مجالس أنس، وما يدور بين جنباتها من معاقرة ومسامرة، ويكثر هذا في غزل الرندي على نحو ما رأينا في قوله السابق، ومن ذلك أيضاً قوله مازجاً بين هذه العناصر الثلاثة: {الرملة}

أَلَشَّامُ شَفَّ عَنْ وَرْدٍ نَدٍ أَمْ غَمَامٌ ضَحِكَتْ عَنْ بَرْدٍ
أَمْ عَلَى الْأَزْهَارِ مِنْ حُلَّتِهَا بَدْرُ تَمِّ فِي قَضِيبٍ أَمْلَدٍ
بِأَبِي لَيْنٍ لَهُ لَوْ أَنَّهُ نُقِلَتْ عَطْفُتُهُ لِلْخَلَدِ
لَا وَالْحَاظِ لَهَا سَاحِرَةٌ نَفَشَتْ فِي الْقَلْبِ لَا فِي الْعُقَدِ
لَا طَلَبْتُ الثَّارَ مِنْهَا ظَالِمًا وَأَنَا الْقَاتِلُ نَفْسِي بِيَدِي

(1) — محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي، ص: 134.

(2) — محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس، ص: 167، 168.

(3) — ابن المرحل، الجوالات، ص: 140.

نَظَرْتُ عَيْنِي لِحَيْنِي نَظْرَةً أَخَذْتُ رُوحِي وَخَلَّتْ جَسَدِي⁽¹⁾
وينتقل الرندي بعد أن طرح سمات الطبيعة على حبيبته وذكر شوقه الجارف إليها، وما يكابده من صلفها وظلمها ، إلى ذكر الخمر متخذاً منها وسيلةً للشفاء مما يعاني، فيقول :
هَاتِهَا بِاللَّهِ فِي مَرَضَاتِهَا قَهْوَةٌ فِيهَا شِفَاءُ الْكَمَدِ
عُصِرَتْ بِاللُّطْفِ فِي عَصْرِ الصَّبَا فَرَمَتْ بِالْمَسْكِ لَا بِالزَّبَدِ⁽²⁾

• الغزل الغلmani :

لم تنكر البيئة الأندلسية هذا النوع من الغزل ، فقد شاع وانتشر بشكل واضح ، ودلّ على هذا الانتشار بعض المؤلفات التي ظهرت في هذه الحقبة، مثل كتاب ابن سعيد (اختصار القدر المعلن) ، وقد ساعد على ذبوع هذا اللون الغزلي الشاذ العديد من العوامل منها "سريان موجة من التهتك والمجون في بعض البيئات ، وانتشار الحانات ودور اللهو..."⁽³⁾ ، و منها اختلاط الأندلسيين بالبيئة المسيحية التي كانت تعجّ بأنواع من اللهو والفجور ، ومنها تنوع التركيبة السكانية الغرناطية ، التي ضمت عناصر مختلفة أسهمت في الرقي بالحياة العامة، وعملت في الوقت نفسه على إشاعة بعض السلبيات ، كالترف واللهو والبطالة والضياع ، وكانت التركيبة السكانية الغرناطية تضم عناصر عرفت بالملاحاة والجمال كالفرنجة، والأغزاز الذين هم جنس من الأتراك ، وكانوا يتشبهون بالنساء في إضفار شعورهم ، وقد أشرت إلى هذا فيما مضى من هذا البحث⁽⁴⁾ . يقول مالك بن

المرحل متغزلاً بغلام تركي، معدداً صفاته ، مركزاً على ذؤابة شعره الطويلة : {الكامل}
ظبي من الأتراك ينفر خيفة في الحب من شرك به أن يعلقا
وتصح نسبه إذا حققتها للترك لحظاً و الأعارب منطقا
طرح الذؤابة خلفه فحسبته حشاً بعصن أراكة متعلقا
تصل الركاب إذا تمهل ركباً وإذا ترجل ضمها متمنطقاً

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوي ، ص: 73.

(2) — المصدر السابق ، ص: 74.

(3) — فوزي سعد عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص: 118.

(4) — راجع المبحث الثاني من الفصل الأول من هذا البحث .

طَالَتْ وَزَادَ سَوَادُهَا فَظَنَّتْهَا لَيْلَ الصَّدُودِ فَلَمْ أَزَلْ مُتَعَلِّقًا⁽¹⁾
أضف إلى العوامل السابقة عامل الطبيعة الغرناطية الساحرة التي فتحت وجدان الشعراء،
وسبت عقولهم، وأرهفت أحاسيسهم .
هذه العوامل وغيرها جعلت هذا اللون الغزلي الشاذ مألوفاً بين الأوساط الأندلسية، غير
منكرٍ لدى خاصتهم أو عامتهم⁽²⁾.

وبحسب ما وصلنا من الشعر الغرناطي في هذه الحقبة فإن مالك بن المرحل يُعدُّ من أكثر
الشعراء الغرناطيين احتفاءً بهذا اللون الغزلي؛ حيث جاء ديوانه الشعري (الجوالات) حافلاً
بالعديد من النصوص الشعرية التي تدلُّ بجلاء على أنه جرى في الطور الأول من حياته في
ميدان اللهو إلى منتهاه، وكرع من رحيق كأس الغزل الغلماي حتى الشمال⁽³⁾.

وتدل الأشعار الغرناطية الغزلية في هذا اللون على شيوع ظاهرة أسماء الغلمان المتغزل بهم،

فأبو حيان الغرناطي نراه يتغزل بفتى يُسمَّى (مظلوماً) حيث يقول: {الطويل}

و ما كنت أدري أن مالك مُهْجِي يسمَّى (مظلوم) وظلُّم جفاؤُهُ

إلى أن دَعَانِي لِلصَّبَا فَأَجَبْتُهُ وَمَنْ يَكُ مَظْلُوماً أُجِيبَ دَعَاؤُهُ⁽⁴⁾

وشاع في غزل مالك بن المرحل الغلماي بعض أسماء الغلمان، مثال ذلك قوله في كاتب

اسمه (عمر): {الطويل}

غزالٌ من الكُتَّابِ فيه محاسنٌ يَهِيْمُ بِهَا شُرَّابُ رَوْضٍ ومُدْرَاءُ

وفي عينه عينٌ لمن طلب اسمه وفي فمه ميمٌ وشاربه الرأء⁽⁵⁾

وقوله يتغزل فيمن يُدعى (بابن أبي الخير): {الرملي}

شَفَّني يَا ابنَ أَبِي الخَيْرِ الهوى والهُوى إن لم تَصِلْني مُهْلِكُ⁽⁶⁾

(1) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل أديب العدوتين، ص 292 — 293.

(2) — ينظر: فوزي سعد عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص 118، (بتصرف).

(3) — ينظر: ابن المرحل، الجوالات، ص 39، (بتصرف).

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة ج 3، ص: 58.

(5) — ابن المرحل، الجوالات، ص 65.

(6) — المصدر السابق، ص: 110.

أما أكثر غزل ابن المرحل فقد كان في فتي اسمه (عيسى)، ويدل شعره فيه على أنه كان مفتوناً به زمن لهوه و بطالته ، يدل على هذا قوله : {البيسط}

لا تهلكن عسى "عيسى" يُكَلِّمَنِي فَإِنَّ صَدْرِي لَهُ مَهْدٌ وَفِيهِ رَبًّا⁽¹⁾
وقوله أيضاً مبدياً التوق إلى وصاله : {البيسط}

لعل وصلك يا عيسى يكون لنا عيداً فيحسب من آياتك الكُبرِ⁽²⁾
ولابن المرحل غزل في غلام آخر اسمه (محمد) ولع به ، واستنكر نفوره ، وقال فيه: {الطويل}

محمد يا مَنْ مرّ في الحب قلبه وإن كان مدعوراً بطُولِ نَفَارِهِ⁽³⁾
ولم يكن ابن المرحل الشاعر الغرناطي الوحيد الذي تغزّل بمن اسمه (محمد) فهناك الشاعر الغرناطي أبو عبد الله البرجي الذي له قصيدة كاملة يتغزل فيها بفتى اسمه (محمد) يدل على هذا قوله : {الكامل}

أحمدُ يا خيرَ مولى يُرتجى رُحْمَاكَ مِنْ وَصْبِي وَبَرَحِ هِيَامِي⁽⁴⁾
ولابن رشيق المرسى أحد الشعراء المهاجرين إلى غرناطة غزل في فتي اسمه (محمد) يدل على هذا قوله : {الطويل}

محمد حبِّي قاتلي ووسيلتي إليه وفيه قاتلٌ وشفيع⁽⁵⁾
إن شيوع الأسماء في الغزل الغلماي يكاد يكون ظاهرة عامة لدى معظم الشعراء الأندلسيين ، لاسيما في هذه الحقبة ، فقد وجدت هذه الظاهرة — أعني ظاهرة ترديد أسماء بعينها في الغزل الغلماي — لدى الشاعر الإشبيلي إبراهيم بن سهل الذي يغصّ ديوانه بالغزل الغلماي ، وقد صاغ معظمه في غلام اسمه (موسى)، بيد أنه تغزّل أيضا في أُخريات حياته بفتى اسمه (محمد)؛ وقال فيه : {الطويل}

(1) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص: 68 .

(2) — المصدر السابق ، ص: 92.

(3) — المصدر نفسه ، ص : 96.

(4) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 368 .

(5) — ابن رشيق المرسى : حياته وآثاره ، ص: 131.

تَسَلَّيْتُ عَنْ مُوسَى بِحُبِّ مُحَمَّدٍ
وَلَوْلَا هُدَى الرَّحْمَنِ مَا كُنْتُ أَهْتَدِي⁽¹⁾

وأراني مدفوعاً إلى طرح التساؤل التالي : هل كان هذا الفتى الأخير المدعو بمحمد الذي تغزل به ابن سهل هو عينه من تغزل به ابن المرحل، وأبو عبدالله البرجي، وابن رشيق المرسي، أم كان ذلك من محض المصادفة لا غير؟!

مهما يكن الأمر فإن النصوص الغزلية التي وصلتنا تدل على أن هذا النمط الغزلي كان شائعاً بكثرة في هذه الحقبة، بيد أنه يمكنني القول — وكما يبدو من خلال هذه النصوص — إن الكثير من الغزل الغلماني كان في إطار التندر أو التسلية، أو على سبيل الملاحظة والظرف، يسوقه الشاعر بحثاً لإثبات مقدرة فنية يتمتع بها، أو مجازاةً لتقليد فني، أو بحثاً عن صورة فنية مبتكرة أو تشبيه لطيف، فالغزل الغلماني في مثل هذه الحالات "ليس هدفاً في حد ذاته، ولكنه وسيلة لإثبات مهارة الشاعر وقدرته الفنية"⁽²⁾.

ومن الشواهد التي تؤكد هذا الأمر الحكاية التي ذكرها ابن الخطيب عن أبي بكر بن الفخار الجذامي (643 – 723 هـ)⁽³⁾ في أثناء خروج هذا الأخير من مسجد مدينة شريش والحكاية أوردها كما جاءت في (الإحاطة) على لسان صاحبها: " قال : خرجت يوماً من حلقة الأستاذ بشريش وأنا شاب في جملة الطلبة ، وكان يقابل باب المسجد حانوت سراج وفيه فتى وسيم يرقم جلداً ، فقالوا لي : لا تتجاوز هذا الباب حتى ترتجل لنا شيئاً في ذلك الفتى، فقلت: {الوافر}

وربّ معذّرٍ للحُـبِّ دَاعٍ
يُرُوقُ بِهِأُ مَنْظَرِهِ البهيج
وَشَى فِي وَجنتيه الحسَنُ وَشَيْأُ
كَوْشَى يديه في أدم السروج"⁽⁴⁾

ومن الشواهد التي تدل أن المراد بالغزل الغلماني المجازاة أو الظرف ما ذكره ابن سعيد

(1) — ابن سهل الإشبيلي ، ديوانه ، تح:د. محمد فرج دغيم ، ط1 ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1998م ، ص: 114 . ويُنظر أيضاً : ص: 359 ، 410 ، 414 ، 415 .

(2) — فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص: 126 .

(3) — ترجمته في: الإحاطة ، ج3 ، ص: 91 .

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص: 95 .

الغرناطي عن أبي عبدالله بن ثابت ⁽¹⁾ إذ قال: "بينما أنا معه ذات يوم بالجزيرة الخضراء في موضع إقرائه، إذ مرَّ غلام يميمس في برود شبابه كالغصن في رفته وإندائه، فقال: {مخلع البسيط}

هَذَا هُوَ الْمَنْطِقُ الْجَمِيلُ فَكُلُّ قَلْبٍ لَهُ يَمِيلُ
فقلت : قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَقْلِي
فقال : أَفِي الْهَوَى تُطَلَّبُ الْعُقُولُ ؟ ⁽²⁾.

ومن هذا القبيل أيضاً : ما رصده كلُّ من ابن سعيد الغرناطي، وأبي محمد عبد الحق الزهري القرطبي ⁽³⁾ من ملامح الوسامة لغلام "بديع الصورة، قد تجرَّد وشقَّ البحر كالسيف المهند، فقال أبو محمد: {المحت}

جِسْمٌ هُوَ الْمَاءُ لُطْفًا وَارْتُهُ شُقَّةٌ مَاءِ
فقال ابن سعيد :

لَا بَلُّ هُوَ الثُّورُ أَضْحَى يَدِبُّ فِي الظُّلْمَاءِ
فردَّ أبو محمد قائلاً:

يَخْفَى كَسَيْفٍ بِغَمْدٍ وَيُنْتَضَى لِلْمَضَاءِ
فقال ابن سعيد:

كَأَنَّهُ نَجْمٌ رَجْمٌ يَشُقُّ ثَوْبَ السَّمَاءِ ⁽⁴⁾.

ومن نحو هذا أيضاً : قول ابن سعيد الغرناطي في غلام جميل الصورة أهْدَى تفاحة: {مجزوء الرمل}

نَابَ مَا أَهْدَيْتَ عَنْ عَرٍ فِي وَعَن رِيْقٍ وَخَدِّ
حَبَّذَا تَفَاحَةً قَدِّ أَشْبَهَتْ أَوْصَافَ مُهْدِي

(1) — ينظر ترجمته لدى ابن سعيد : اختصار القدح المعلّى ، ص:167.

(2) — ابن سعيد ، اختصار القدح المعلّى ، ص:167.

(3) — ينظر ترجمته لدى ابن سعيد، اختصار القدح المعلّى ، ص:135.

(4) — ابن سعيد ، اختصار القدح المعلّى ، ص:135.

بِتُّ مِنْهَا فِي سُورٍ فَكَأَنَّ قَدْ بَتَّ عِنْدِي (1)
فهذه النصوص لا تدل على عشق الشاعر أو هيامه بالمتغزل به ، بقدر ما تدل على ما يمتلكه الشاعر من موهبة ومقدرة فنية ، وفي حدود هذا المفهوم يمكن أن ننظر إلى كثير من المقطعات الغلمانية ، كتلك التي تصف غلاماً لسعته نحلة في شفته، أو غلاماً على فمه أثر المداد، أو في غلام يرش وجهه بالماء ، أو في مريح أمرد وقد لبس ثياباً حمراء، ومعظمها يأتي ضمن مقطعات قصيرة لا تتجاوز الأبيات الثلاثة أو الأربعة ، وهي في الغالب تنظم على البديهة أو الارتجال ؛ لأن أغلبها يكون امتحاناً لقدرة الشاعر (2).

• ملامح الغزل الغلماني

إن القارئ للغزل الغلماني في هذه الحقبة يجد أن الصفات والملامح التي أسبغها الشعراء الغرناطيون على غلمانهم لا تختلف كثيراً عن الصفات والملامح التي ركزوا عليها في غزلهم الأثنوي الحسي ، حتى إن القارئ — في بعض الأحيان — قد يلتبس عليه الأمر ، فلا يدري ما نوع الغزل الذي أمامه، أهو أثنوي أم غلامي؟ وذلك إذا لم تكن هناك قرينة تدل على المراد بالغزل. لننظر مثلاً في قول أبي عبد الله البرجي ، وهو يرصد ملامح فتاه (محمد): {الكامل}

بدمي لواظظه المراض فإنها	في قلبي المصدور ريش سهام
رشاً تقنع بالدجى عن لمة	ونضاً اللثام فلاح بدر تمام
جمعت محاسنه على ضديهما	فلق الصباح وسدفة الإظلام
فكأن نور جبينه في شعره	صبح تجلى تحت جناح ظلام
وكأنه غصن النقا مهما اثنى	في لين عطف واعتدال قوام
وإذا تبسم ثغره تاه الورى	في حسن لؤلؤ ثغره البسام (3)

فالملامح والصفات التي يرصدها الشاعر في غلامه هي نفسها الملامح والصفات الأثنوية، بصورة قد توحي أنه يتغزل بأنثى لا بغلام ، فالألحاح ساحرة ، والخصر رقيق ، والجبين

(1) — المقرئ نفح الطيب ، ج 3 ، ص: 35 .

(2) — ينظر : فوزي عيسى الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص :

(3) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 267 .

منير، والشعر أسود، والثغر متألئى ، بل إن الشاعر يصف ما أحدثته هذه الألفاظ في قلبه من جوى وحرقة كما لو أنها أَلحَظَ أنثى، ولولا ما ساقه من أبيات عقب هذا الوصف

لفتاه، لظنّ القارئ أن المقصود بهذا الوصف امرأة لا غلام ، حيث قال: {الكامل}

وَإِذَا يَجُولُ بِنَائِهِ فِي مُهْرَقٍ فَدَعَ الرِّيَاضَ لَزَهْرَةِ الْأَقْلَامِ
يَجْلُو ظِلَامَ الْمَشْكِلَاتِ بِخَاطِرٍ مُتَأَلِّئِي بِلَوَائِحِ الْإِلْهَامِ
وَيَجِيلُ فِكْرَتَهُ فَيُدْرِكُ كُلَّ مَا أَعْيَتْ مَدَارِكُهُ عَلَى الْأَفْهَامِ⁽¹⁾

فهذه الأبيات تنفي أن يكون المتغزل به أنثى ؛ وذلك لما تضمنته من قرائن واضحة .

إن ظاهرة خلع الصفات الأنثوية على المتغزل بهم من الغلمان ؛بجدها في العديد من النصوص الشعرية في هذه الحقبة ، فهذا هو ابن رشيق المرسي يتغزل بفتاه (محمد)

فيقول: {الطويل}

وَذِي لِحْظَاتٍ كَالسِّيُوفِ تَرُوعُ يُنَادِي بِهَا النَّاسَ اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا
عَدَا نَعْرُهُ نَعْرًا بِهِ الْحَيِّ مَانِعٍ كَذَا كُلُّ نَعْرٍ بِالسِّيُوفِ مَنِيْعٍ
أَطَعْتُ ظُبَاهَا خَيْفَةً مِنْ نَكَاهَا وَسَيَّانٍ عَاصٍ عِنْدَهَا وَ مُطِيعٍ
إِذَا مَا شَكَا الْعُشَّاقُ حَرَّ ضُلُوعِهِمْ أَقُولُ : وَ هَلْ لِلْعَاشِقِينَ ضُلُوعُ
وَ إِنْ زَعَمُوا أَنَّ الْقُلُوبَ تَصَدَّعَتْ فَلَا قَلْبَ لِي تُخَشِّي عَلَيْهِ صُدُوعُ⁽²⁾

فالشاعر يصف أَلحَظَ فتاه (محمد) وكأنه يصف أَلحَظَ أنثى ، كما أنه يصف لوعة حبه وعشقه كما لو كان المتغزل به أنثى ، لكن ذكر اسمه في آخر قصيدته ينفي هذا الاحتمال الأخير ، إذ يقول:

مُحَمَّدُ حَبِيِّ قَاتِلِي وَ وَسِيلِي إِلَيْهِ وَفِيهِ قَاتِلٌ وَ شَفِيعٌ⁽³⁾

وفي شعر ابن المرحل الغلماني العديد من الشواهد التي تؤكد هذه الظاهرة ، فمن الصفات التي وصف بها فتاه عيسى تشبيهه بالهلال والبدر والشمس والظبي ، من ذلك

قوله مشبهاً إياه بالهلال إلا أنه لا يلحقه نقص : {الطويل}

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 267.

(2) — ابن رشيق المرسي : حياته وآثاره ، ص129.

(3) — المصدر السابق، ص131.

هَيْلَالٌ لِأَبْصَارِ الْأَنَامِ يَسُوقُهُمْ إِلَيْهِ وَلَكِنْ فِيهِ حُسْنٌ بِلَا تَقْصِ (1)
ويصف أبو عبدالله البرجي غلامه بالشمس تارة، وبالصبح تارة أخرى، فيقول:
{الكامل}

يا شمس أنسي يا صباح بشارتي يا طيب عيشي يا شفاء سقامي (2)
ويصف ابن رشيق المرسي غلامه مشبهاً إياه بالبدر تارة، وبالشمس تارة أخرى؛ يقول:
{الطويل}

هو البدرُ لولا أن منه طُلوَعُهُ وليس لبدرٍ من هناك طُلوَعُ
هو الشمس في بُعد المرامِ وإنما له حُسْنٌ وجهٍ لم تَلْهُهُ بديعٌ (3)
كذلك دارت أوصافهم حول العذار، والخال، واللحية والشارب، وعقربة الأصداغ و" أولعوا بوصف العذار فشبهوه بالآس، وبالأفعى التي تطوف بالروض، وبالمدحان المتصاعد من نار وجه المعشوق ... " (4)، يقول أبو حيان الغرناطي راصداً هذه الملامح، جاعلاً من عذار معشوقه، سياجاً يحمي ورد الخد ممن يحاول قطفه: {الكامل}

خَافَ اقْتِطَافَ الْوَرْدِ مِنْ وَجَنَاتِهِ فَأَدَارَ مِنْ آسٍ سِيَاجَ عِذَارٍ (5)
ويقول أيضاً راصداً ضعيفة معشوقه، مشبهاً إياها بالحياة: {الطويل}
سَعَتِ حَيَّةٌ مِنْ شَعْرِهِ نَحْوَ صُدْغِهِ وَمَا انْفَصَلَتْ مِنْ خَدِّهِ إِنْ ذَا عَجَبٌ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنْ سَلْسَالَ رَيْقِهِ بَرُودٌ وَلَكِنْ شَبَّ فِي قَلْبِي اللَّهْبُ (6)
ويرصد ابن المرحل هذا الملمح لدى معشوقه؛ فيقول: {الكامل}
ولوى غديرة شعره عبثاً بها فكأنما قد راعني ثعبانٌ (7)

(1) — ابن المرحل، الجوالات، ص136.

(2) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم: 3835 د، ورقة: 368.

(3) — ابن رشيق المرسي: حياته وآثاره، ص130.

(4) — فوزي عيسى، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص122.

(5) — المقرئ، نفع الطيب، ج 3 ص: 339. وفي الإحاطة، ج 3، ص57. "جنباته" بدلا من وجناته وهو تحريف.

(6) — المقرئ، نفع الطيب، ج 3 ص: 330. برود بفتح الباء: بارد، وشب: أضرم، واللهب: النار.

(7) — ابن المرحل، الجوالات، ص134.

ويرصد أبو عبدالله البرجي ملامح فتاه، فيصف مقلتيه بالسيف الصارم ، وأما عذاره فهو
كجَمالة السيف ؛ يقول : {الكامل}

لَمَّا انتضى من مقلتيه صارماً
حَسُنَ العِذارُ حَمَائِلاً لِحَسَامٍ⁽¹⁾
ويقول أيضاً :

لاح الجمالُ بِخَدِّهِ كَأفُورَةٍ وَ بَدَا العِذارُ فَكَانَ مِسْكَ خَتَامٍ⁽²⁾
وتغنوا أيضاً بجمر الرضاب وسحر الأخطى وورد الوجنات وعشقوا الرقة والغنج في
غلمانهم ؛ يقول أبو حيان الغرناطي راصداً بعض هذه الأوصاف في معشوقه : {الطويل}
وذو شفة لمياء زينت بِشامةٍ من المسك في رشفاتها يذهب التُّسْكُ

.....

تَعَلُّ بِمَعْسُولٍ كَأَنَّ رِضابُهُ مُدَامٌ مِنَ الفِرْدُوسِ خاتِمُهُ مِسْكَ⁽³⁾
ويقول الرندي في وصف ملامح فتى : {الكامل}

كتب الجمالُ بِخَطِّهِ فِي خَدِّهِ وَ الخَطُّ فِي حَسَنِ الخُدُودِ يَزِينُ
فَكَأَنَّ رِقْمَ الصَدغِ مِنْهُ أَرْقَمٌ وَكَأَنَّما (لَام) بِهِ أَوْ (نون)⁽⁴⁾
ويقول أيضاً : {البيسط}

كَأَنَّ خِيالَهُ فِي حُسْنِ صَفْحَتِهِ كَوَاكِبُ كُسِفَتْ فِي دَارَةِ القَمَرِ⁽⁵⁾
وتردد في غزلهم الغلماي معاني الصدد والحرمان ، وما يكابده العاشق من عذاب ووصب
، ونحول ، وذلك على نحو ما رأينا في الغزل الأنتوي ؛ يقول أبو عبدالله البرجي مصوراً هذه
المعاناة وما يكابده العاشق في عشقه : {الكامل}

وأشدُّ ما ألقاهُ شوقٌ مُنْجِدٌ وَتَجَلَّدُ قَدَّ جَدِّ فِي الإِثْهَامِ
وَحُشاشَةٌ قَدِ أَصْبَحَتْ مَقْسُومَةً مَا بَيْنَ ماءٍ فِي الهوى وَضِرَامِ

(1) — مؤلف مجهول : مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 368 .

(2) — المصدر السابق ، ورقة : 368 ..

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص:59 .

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، 171 .

(5) — المصدر السابق ، ص: 123 .

فَكَأَنَّ أَنْفَاسِي وَيَبِيضَ مَدَامِعِي بَرَقَ تَأَلَّقَ فِي مُثُونِ غَمَامِ
فَمَتَى دَنَا شَوْقِي فَصَبْرِي نَازِحٌ وَإِذَا ارْتَوَى جَفْنِي فَقَلْبِي ظَامِي⁽¹⁾

ويقول الرندي مصوراً ما يكابده من لوعة الصدِّ والهجران: {الكامل}
بأبي الذي أشكو هَوَاهُ وَصَدَّهُ وَالصَّدُّ صَعْبٌ وَالهُوَى تَهْوِينُ
.....
كَابَدْتُ مَا كَابَدْتُ فِي حَبِّي لَهُ وَالْمَوْتُ فِي حَقِّ الْحَبِيبِ يَهْوَنُ
.....
فَكَأَنَّ مَا هُوَ يَوْسُفٌ فِي حُسْنِهِ وَكَأَنَّ نِيَّيَ مِنْ حُبِّهِ الْجَنُونُ⁽²⁾

يقول ابن المرحل راصداً هذه المعاني: {الكامل}
يَا سَائِلِي عَنْ نَوْمِ عَيْنِي إِنَّهُ مُذْ فَاضَ دَمْعِي مَرًّا فِي تِيَارِهِ
ويقول أيضا: {الكامل}
يَا قَلْبُ صَبْرًا لِلصَّدُودِ فَإِنَّهُ يَكْسُو الْفَتَى بِالصَّبْرِ عَارِي عَارِهِ⁽³⁾

ويقول أبو حيان الغرناطي: {الكامل}
كَمْ ذَا أَدَارِي فِي هَوَاهُ مَحَبَّتِي وَلَقَدْ وَشَى بِي فِيهِ فَرَطٌ أُوَارِي⁽⁴⁾

وأمام رصد معاني الصدِّ والهجر والحُرمان، لم يتردد الشعراء الغرناطيون في إظهار تذللهم لغلماهم إلى حدِّ تقبيل مواطن نعالهم ، أو وصف أنفسهم بالعبيد ، على نحو ما نقرأ في قول أبي عبد الله البرجي مظهراً تذللَه لغلماه : {الكامل}

هَبْ لِي رِضَاكَ فَإِنَّهُ أَسْنَى الْمُنَى وَارْحَمْ بَعِزَّ الْحُسْنِ ذُلَّ مَقَامِي
وَاعْطِفْ عَلَيَّ وَلَهِي وَفَرَطِ صَبَابَتِي وَوُجُودِ وَجْدِي وَانْعِدَامِ مَنَامِي
فَأَنَا غُلَامُكَ سَيِّدِي مَهْمَا أَضْفَ لِعَلَّاكَ حُزْتُ تَعْرِفُ الْأَعْلَامِ
وَلِعَبْدِكَ الشَّرْفُ الْمُؤْتَلُّ وَالْعُلَا مَا دُمْتَ تَدْعُوهُ بِلَفْظِ غَلَامِي

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 368 .

(2) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، 171 .

(3) — مالك بن المرحل ، الجوالات ، ص : 90 .

(4) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 3 ص : 339 .

مُرْنِي فَدَيْتُكَ يَا مُحَمَّدُ أُمَّتَيْلُ أَمْرِي لَدَيْكَ وَفِي يَدَيْكَ زَمَامِي (1)
ويقول ابن المرحل مظهراً تذللّه أمام محبوبه (عيسى): {البيسط}

بَسَطْتُ خَدِّي خَوْفَ الْقَبْضِ مِنْ مَلِكٍ إِذَا أَشَارَ بِأَدْنَى لِحْظِهِ قَتَلَا
تُقَبَّلُ الْأَرْضَ أَعْضَائِي وَتَلْتُمُهَا إِذَا تَجَلَّى بَظْهِرِ الْعَيْبِ وَأَتَّصَلَا
يَا مَنْ لَهُ دَوْلَةٌ فِي الْحُسْنِ بَاهِرَةٌ مِثْلِي وَمِثْلُ فُؤَادِي يَخْدُمُ الدُّوَلَا (2)

ويقول ابن رشيقي المرسي مخاطباً محبوبه: {البيسط}

مَوْلَايَ مَوْلَايَ مَعْمُورَ الْفُؤَادِ رَضِيَّ عُدَّ بِالرَّضَى مَرَّةً أُخْرَى وَخُدَّ عُمْرِي (3)

ومثلما استرشد الشعراء الغرناطيون معطيات الطبيعة في غزلهم الأثوي، كذلك فعلوا في غزلهم الغلماي ؛ فصوروا ملامح الغلمان ومحاسنهم من خلال إسقاط صفات الطبيعة عليهم، فأضفوا بهذا رقّة على الغلمان من رقّة الطبيعة؛ من ذلك قول أبي حيان الغرناطي طارحاً عناصر الطبيعة على غلامه، فالوجه يجتلى من النرجس والورد والبهار: {الكامل}

فِي وَجْهِهِ زَهْرَاتُ رَوْضٍ تُجْتَلَى مِنْ نَرْجَسٍ مَعَ وَرْدَةٍ وَبَهَارٍ (4)

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل طرح الشاعر الغرناطي سمات الغلام وصفاته على الطبيعة في استدعاء عكسي "فأخذ العرار من ألحاظه، والبهار من خدّه، والآس من نبت عذاره" (5)، يقول أبو العباس بن بلال (6) في وصف فتى: {الطوبل}

وَعَهْدِي بِهِ إِذِ قَامَ لِلْأَسِ قَاطِعاً وَقَدْ صَيَّغَ مِنْ وَرْدِ الرِّيَاضِ لَهُ خَدُّ
وَمِنْ وَرْقِ الرِّيحَانِ خُضْرَةٌ شَارِبٍ وَمِنْ نَوْرِهِ تَغْرٌ وَمِنْ غُصْنِهِ قَدُّ (7)

ويقول أبو النعيم رضوان بن خالد المالقي (ت 635 هـ) (8)، في وصف محاسن غلام

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 368 .

(2) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص 145 .

(3) — ابن رشيقي المرسي : حياته وآثاره ، ص 133 .

(4) — المقرئ ، نفتح الطيب ، ج 3 ص : 339 .

(5) — فوزي سعد عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص 123 .

(6) — ينظر ترجمته في: اختصار القدح المعلّى ، ص 86 . ونفتح الطيب ج 5 ص : 209 .

(7) — ابن سعيد ، اختصار القدح المعلّى ، ص : 88 .

(8) — ينظر ترجمته في: اختصار القدح المعلّى ، ص 185 ، 186 .

{مخلع البسيط}:

وَجْهٌ نَظِيرٌ لَنَا رِيَاضٌ فَكُنَّا نَاطِرٌ إِلَيْهِ
فَالزَّهْرُ فِيهِ كَزَهْرٍ فِيهِ وَالوَرْدُ تَوْرِيدٌ وَجَنَّتِيهِ
وَالجِيدُ جِيدٌ القَطِيعِ حُسْنًا وَالوَجْهُ تُفَاحَةٌ عَلَيْهِ (1)

ويقول الرندي راصداً مواطن الجمال في فتى: {مخلع البسيط}

أَطْلٌ فِي وَجْهِهِ العِذَارُ وفيه للعاشقِ اعْتِذَارُ
وَابْيَضٌ وَجْهٌ وَاَحْمَرٌ خَدُّ وَاخْضَرٌ بَيْنَهُمَا العِذَارُ
فَمَنْ رَأَاهُ رَأَى رِيَاضًا الأَسُّ وَالوَرْدُ وَالْبَهَارُ (2)

ومثلما صور الشعراء الغرناطيون مواقف الفراق والوداع في غزلهم الأثوي، كذلك صوروا هذه المواقف وآلامها في غزلهم الغلماي، من ذلك قول أبي الحسن سهل بن مالك مودعاً

فتى كان يهواه: {الطويل}

وَلَمَّا اسْتَقَلَّتْ نَعْلُهُ فَوْقَ أَدْهَمَا وَجَدْتُ غُرَابَ البَيْنِ أَشْأَمَ أَسْحَمَا
وَسَارَ وَعَيْبِي وَالفِرَاقُ يَحْثُهُ تُعَايِنُ قَلْبِي سَائِرًا مُتَقَدِّمًا
وَأَوْمَى إِلَى تَقْبِيلِهِ بِنَانِهِ فَلَمْ أَدْرِ هَلْ أُوصِي بِهَا أَوْ تَحْتَمَا (3)

وأخيراً فإن الشعراء الغرناطيين لم يكتفوا برصد ملامح الإعجاب ومواطن الفتنة لدى الغلمان فحسب، بل حاولوا أيضاً الدفاع عما يوجه للغلام من مثالب وعيوب، متمكين في ذلك على البراعة في التعليل؛ مثال ذلك قول أبي عبدالله محمد بن غالب المالقي في غلام

مفقوء العين اليسرى: {الكامل}

لَمْ تَزُوْا إِحْدَى زَهْرَتَيْهِ وَلَا ائْتَنْتَ عَنْ نُورِهَا وَبَدِيعِ مَا تَحْوِيهِ
لَكِنَّهُ قَدْ رَامَ يُغْلِقُ جَفْنَهُ لِيُصِيبَ بِالسَّهْمِ الَّذِي يَرْمِيهِ (4)

تلك هي أبرز محاور الغزل التي تناولها الشعراء الغرناطيون في هذه الحقبة، فهي موزعة

(1) — ابن سعيد، اختصار القدح المعلّى، ص185.

(2) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوني، ص124.

(3) — ابن سعيد، اختصار القدح المعلّى، ص: 61.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص327.

على محورين رئيسيين؛ تمثل المحور الأول في غزل أنثوي، تناولوا فيه الملامح العذرية والحسية للمرأة، وتناولوا في هذا المحور أيضاً الغزل الحجازي، وذلك من خلال مقدمات قصائد المديح ، أما المحور الآخر في غزل الغرناطين، فهو يتمثل في الغزل الغلماي الذي كان شائعاً ومنتشراً في البيئة الأندلسية في هذه الحقبة، وقد تميز غزل الغرناطين في معظمه باللغة السهلة البسيطة، وبالأسلوب الرقيق العذب.

• أبرز الملحوظات حول شعر الغزل :

أولاً— شاع في الغزل بنوعيه — الأنثوي و الغلماي — الألفاظ والمصطلحات الإسلامية الدينية بكثرة ، والألفاظ والمصطلحات المسيحية بقلّة ، والشواهد على هذا كثيرة نقتصر الآن على ذكر بعضها ، ونرجئ الحديث عن بقيتها إلى الفصل القادم من هذا البحث ، ومن أمثلة التأثير بالألفاظ المسيحية قول ابن عسكر المالقي: {السريع}

أَهْوَاكَ يَا بَدْرُ وَأَهْوَى الَّذِي	يَعْدُلُنِي فِيكَ وَأَهْوَى الرَّقِيبُ
وَالْحَارَ وَالِدَارَ وَمَنْ حَوْلَهَا	وَكُلَّ مَنْ مَرَّ بِهَا مِنْ قَرِيبُ
مَا إِنْ تَنْصَرْتُ وَلَكِنِّي	أَقُولُ بِالتَّشْلِيثِ قَوْلًا غَرِيبُ
تَطَابِقِ الْأَلْحَانِ وَالكَأْسِ إِذْ	تَبْسُمُ عُجْبًا وَ الْغَزَالِ الرَّيْبُ ⁽¹⁾

ومن ذلك أيضاً قول مالك بن المرحل ذاكراً مذهب الثالوث المسيحي: {الكامل}

قال العذولُ ثلاثةٌ في واحد	سأقولُ بالثالوثِ فيه و صلِّبا
أو لم يكنْ للعاذلين فضيحةٌ	أنْ يصبحوا بالعذلِ منِّي أو جَبَا ⁽²⁾

أما التأثير بالألفاظ والمصطلحات الإسلامية فقد جاء في شعر الغزل الغرناطي بكثرة، سواء فيما يخص القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو المصطلحات الصوفية ، فمن أمثلة التأثير بالألفاظ القرآنية قول ابن المرحل موظفا (شهب الرجم): {الكامل}

وكانَّ شُهْبَ الرِّجْمِ بَعْضُ حَلِيهَا عَثَرَتْ بِهِ مِنْ سُرْعَةٍ فَتَكَسَّرَا⁽³⁾

(1) — ابن سعيد ، اختصار القدح العلّي ، ص130، 131. وكذلك : ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج1

ص: 432 . وفيه (حلّها) بدلا من (حولها) ، وقد أورد البيت الأول والثاني فقط.

(2) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص67.

(3) — المصدر السابق ، ص101.

وكذلك استخدم لفظة (الشرك) ليتبرأ مما في ظلاله القائمة من النكران وذلك في قوله: {الرملة}

إِنْ أَكُنْ أَشْرَكَتُ فِي حَبِّكَ يَا سَيِّدِي فَاشْهَدْ بِأَنِّي مُشْرِكٌ⁽¹⁾
ومن ذلك قول أبي عبدالله البرجي متأثراً بالآية الكريمة ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾⁽²⁾: {الكامل}

أَوْحَى إِلَيَّ بِنَظْرَةٍ مِنْ لَحْظِهِ جَاءَتْ عَلَى قَدَرٍ فَأَصَمْتُ مَقْتَلِي⁽³⁾
ومن ذلك أيضاً قول ابن رشيقي بقصة الرسول موسى عليه السلام: {الوافر}

وَأَصْبَحَ إِذْ ضَلَلْتُ كَحُوتِ مُوسَى بِيَحْرِ الدَّمْعِ أَذْهَلَ مِنْ فَتَاهُ⁽⁴⁾
ومن شواهد التأثر بالحديث النبوي ومصطلحاته: قول أبي عبدالله البرجي: {الكامل}
يَا سَعْدُ أَنْتَ عَلَى الْغَرَامِ مُسَاعِدِي فَارَوْهُوِي عَنِّي صَحِيحاً وَاحْمِلْ⁽⁵⁾
ويعد شيوع الألفاظ والمعاني الدينية ظاهرة بارزة في شعر الغزل في هذه الحقبة⁽⁶⁾.

ثانياً — تسرّبت إلى الغزل الغرناطي العديد من المصطلحات النحوية واللغوية؛ من ذلك قول مالك بن المرحل: {الوافر}

تَبَدَّتْ مِنْ مَحَاسِنِهِمْ حُرُوفٌ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ فِي الْمَحَلِّ
فَمِنْ أَصْدَاعِهِمْ وَأَوَاتُ عَطْفٍ وَمِنْ قَامَاتِهِمْ أَلْفَاتُ وَصَلٍ⁽⁷⁾
وقول أبي عبدالله البرجي: {الكامل}
فَالسَّيْنُ مَا أَبَدْتُهُ طُرَّةً شَعْرِهِ نَسَقاً وَفِي صُدْغِيهِ عَطْفَةٌ لَامٍ⁽⁸⁾

(1) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص110 .

(2) — سورة طه ، الآية 40 .

(3) — مؤلف مجهول :مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 367 .

(4) — ابن رشيقي المرسي : حياته وآثاره ، ص129 .

(5) — مؤلف مجهول :مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 362 .

(6) — وينظر : ابن سهل الإشبيلي ، ديوانه ، تح:د. محمد فرج دغيم ، ص293 وما بعدها . وينظر أيضاً: فوزي = عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص121 .

(7) — ابن المرحل ، الجوالات ، ص114 .

(8) — مؤلف مجهول :مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 368 .

كذلك تسربت بعض المصطلحات الصوفية مثل لفظة (الحرقا) في قول أبي القاسم ابن
خلصون : { الرمل }

وَنَسِيمُ الرِّيحِ مِنْهُ لَوْ سَرَى بِشَدَاهُ لَأَزَالَ الْحَرْقَا (1)

ثالثاً - تميّز غزل الغرناطين برقة الأسلوب ، وسهولة الألفاظ ، وكثر في غزلياتهم لون
من الحوار الرقيق بين الشاعر ومحبوبته ، أو بينه وبين عذّاله ، أو بينه وبين فواده ، ومن ذلك

قول أبي الحسن سهل بن مالك الغرناطي : { الوافر }

وَكُنْتَ وَعَدْتَنِي يَا قَلْبُ أَنِّي مَتَى مَا تُبْتُ مِنْ لَيْلَى تَتَّوِبُ
فَهَا أَنَا تَائِبٌ عَنْ ذِكْرِ لَيْلَى فَمَا لَكَ كُلَّمَا ذُكِرْتَ تَذُوبُ
فَقَالَ: بَلَى وَعَدْتُكَ غَيْرَ أَنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ مِنْ ذَنْبِي أَتُوبُ (2)

ومثل ذلك قول مالك ابن المرحل الذي تميّز في غزله بهذا الأسلوب الحواري : { الرمل }

زُرْتُهُ وَالِدُخْنَ رِدْءٌ لِلدُّجَى وَعَيُونُ الشَّهْبِ تَرْتُو مِنْ خَلَلْ
قَالَ : مَنْ أَنْتَ فَقُلْتُ مَالِكُ قَالَ مَمْلُوكُ الْهُوَى؟ قُلْتُ: أَجَلْ
قَالَ : هَلْ جِئْتَ بِمَا أَلْهُو بِهِ؟ قُلْتُ: قَدْ جِئْتُ فَمَا قَوْلُكَ هَلْ؟
قَالَ فَاصْعَدْ لَيْسَ عِنْدِي ثَالِثٌ غَيْرَ شَمْطَاءَ مِنَ الْفُرْسِ الْأَوَّلِ (3)

رابعاً - بدا في غزل بعض الشعراء التأثر بالأجواء العسكرية والحربية التي كانت
تعيشها الأندلس آنذاك ، وظهر هذا التأثر في استخدام بعض الألفاظ أو المصطلحات التي
تعكس هذا التأثر ، مثال ذلك قول مالك بن المرحل : { البسيط }

يَا جَيْشَ أَلْحَاطِهِ مَهَلًا فَبَيْنَكُمْ حُكْمُ الْمَصَاحِفِ لَا حُكْمَ الْقَنَا الذُّبْلِ
وَيَا وِلَاةَ فُؤَادِي إِنَّهَا دَوْلٌ لَكِنَّ دَوْلَتَكُمْ مِنْ أَحْسَنِ الدُّوَلِ
مَا دَوْلَةٌ نُصِرَتْ بِالسُّمْرِ مُشْرَعَةٌ مِنْ دَوْلَةٍ نُصِرَتْ بِالْأَعْيُنِ النَّحْلِ (4)

(1) - ابن الخطيب ، الإحاطة ج 3 ص : 260 .

(2) - ابن سعيد ، اختصار القدر المعلى ، ص 62 .

(3) - ابن المرحل ، الجوالا ، ص 118 .

(4) - المصدر السابق ، ص : 111 .

وقوله أيضاً: {الطويل}

ومما أعاد الحُبَّ و الحُبُّ مخلفٌ
لَهُ جُنْدٌ عُلَا إِنْ جَنَّ فِي الرَّكْبِ بَازِلٌ⁽¹⁾

(1) — ابن المرحل ، الجوالات المصدر ، ص 112.

المبحث الثالث : الرثاء

المبحث الثالث

الرثاء

عرف الشعر الغرناطي نوعين من الرثاء في هذه الحقبة، تمثل النوع الأول في رثاء الأشخاص؛ ومنه رثاء سلاطين البيت النصري، ورثاء الأهل والأقارب، ورثاء النفس ورثاء الحسين رضي الله عنه .

أما النوع الآخر من الرثاء الذي عرفه الشعر الغرناطي في هذه الحقبة فهو رثاء المدن الأندلسية التي سقطت بأيدي النصارى .

وقد اتخذت المراثي الغرناطية نهجاً متقارباً، فهي تحتوي في العادة على أربعة محاور: الاستهلال بمقدمة تأملية في حقيقة الموت والحياة، ثم إظهار التألم والتفجع وأثر الفقد على الشاعر وعلى الناس، ومظاهر الطبيعة، ثم الانتقال إلى ذكر مآثر الميت ومكارمه المعنوية غالباً، والخلفية نادراً، ثم النفاذ إلى استخلاص العبرة، والتعزّي بالحث على الصبر، والتأسي بالسلف، فيما عُرف من فجائع الدنيا ليتأسي بذلك وليُّ الهالك⁽¹⁾، ومن الشعراء من أضاف محوراً آخر تمثل في المزج بين التهنتة والتعزية، فوُفق تارةً في هذا المزج، وأخفق تارةً أخرى، أما الخاتمة فتكون غالباً بالدعاء للميت والترحم عليه.

نظرة الشاعر الغرناطي إلى الموت:

قلّة من الشعراء الذين تحدثوا عن الموت بوصفه ظاهرة تستحق التأمل والتدبر لذاتها، لا كمدخل لرثاء أو تأيين؛ ذلك لأن الموت " تجربة لا تحدث إلا مرة واحدة في العمر، وحين تحدث يكون صاحبها عدماً، لا يحس ولا يشعر بالنسبة لنا على الأقل، وأن تعيش التجربة تخيلاً، أو ترتدّ إليها تصوراً، يتطلب الأمر حين تكون شاباً حالة نفسية معتمة، أو واقعاً اقتصادياً ضاعطاً، تصبح الحياة معه عبئاً مضمناً تود التخلص منه، أو أن تتقدم بك السن، وتشرف على النهاية، فأنت على بعد خطوات من الموت لا محالة، وذلك ما نراه مع أبي البقاء فقد امتدت به الحياة، وحين دنت ساعته، تحدث عن الموت حديث

(1) — ينظر: أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوي ص: 80، 81.

الواعظ ، فما بعده عسير ، وطاعات المرء هي التي تُحسَب له ، ويدعو غيره لأن يُعرض
عن اللذات، وأن يتعظوا، ويتبعوا أوامر الله ، كل من على الدنيا رحل ومضى حتى الملوك
، ولم يحمل أي منهم غير كفنه، ولم يجز من أرضها غير قبره" (1) ؛ يقول : {السريع}

الموت سرُّ الله في خلقه وحِكْمَةٌ دَلَّتْ على قَهْرِهِ
مَا أَصْعَبَ الموتَ وَمَا بَعْدَهُ لَوْ فَكَّرَ الإنسانُ في أمرِهِ
أيام طاعاتِ الفتى وحَدَّها هي التي تُحسَبُ مِنْ عُمْرِهِ
لا تُلهِك الدنيا ولذائها عن نَهْيِ مَولَاكَ ولا أمرِهِ
وانظر إلى من ملك الأرض هل صح له منها سوى قبرِهِ؟ (2)

أولاً— رثاء الأشخاص :

أ — رثاء الحكام

درج بعض الشعراء في رثاء الحكام على الجمع بين غرضين يقعان على طرفي
نقيض، أعني الجمع بين التعزية والتهنئة في قصيدة واحدة، ويرى ابن رشيق القيرواني أن
هذا الأمر من أصعب أنواع الرثاء (3) ؛ وذلك لأنه يتطلب من الشاعر مقدرةً إبداعيةً فذةً
في حسن التخلص من موضوع إلى آخر، وسنرى أن هذا الأمر لا يتحقق لكل الشعراء.
من الشعراء الغرناطين الذين نجحوا في الجمع بين التعزية و التهنئة أبو الطيب الرندي؛
وذلك من خلال قصيدة رثائية قالها في رثاء سلطان البيت النصري محمد بن نصر الغالب
بالله ، و تهنئة ولي عهده ثاني السلاطين النصريين محمد الفقيه، وردت ضمن رسالة تعزية
صدرها بمقدمة نثرية هي إلى روح الشعر أقرب منها إلى النثر، حيث عدّد فيها مناقب
المرثي وسماته قائلاً : " فقد كان للعدل إماماً ، وللدن قواماً ، وللملك تاجاً وحساماً ...
يسهر لتنام العيون " (4)

ثم انتقل الشاعر للحديث عن ولي العهد فقال : "ولولا حسن الخلف من بعده بمولانا

(1) — الطاهر أحمد مكى، دراسات أندلسية، ص: 307 .

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص: 373.

(3) — ابن رشيق القيرواني العمدة ج2 ص: 155 .

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح: محمد الخمار القنوي ص: 84 . 85 .

ولي عهده، وسليل مجده ، لقلنا ذهب البأس والكرم ، وعُطِّل السيف والقلم ، وغاض ماء الندى ، وطُفي مصباح الهدى ... إلخ⁽¹⁾.

ثم بدأ الرندي قصيدته بداية مباشرة ، فلم يقف في مطلعها عند تأمل مصير الإنسان أو رصد صراعه النفسي بين حب الحياة وجبروت الموت، إنما راح الشاعر يرصد هول المصاب وفداحة الرزية وما تجره من خسارة تعود على الدين الإسلامي ومعتنقيه ، حيث يقول: {البسيط}

مَا جَلَّ خَطْبُ كَهَذَا الْحَادِثِ الْجَلَلِ فَلْيَقْضَ حَقَّ الْأَسَى بِالْأَدْمَعِ الْهَمَلِ
مُصَابٌ مَنْ فُجِعَ الْإِسْلَامُ فِيهِ وَمَنْ سَكََّ الْمَسَامِعَ مِنْهُ هَزَّةُ الْجَبَلِ
يَا حَسْرَةَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا عَلَى مَلِكٍ قَدْ كَانَ حَسْبُهُمَا لَوْ مُدَّ فِي الْأَجَلِ⁽²⁾

ثم ينتقل الشاعر إلى تعداد مناقب المرثي وشمائله ، فقد كان شجاعاً مقداماً في ساحات الوغى، متبسماً يذلل كل عقبة متشحاً بالحزم ، سديد الرأي، تعالى عن الصغائر، وتعلق بما يَبْقَى ذِكْرُهُ؛ يقول: {البسيط}

كَمْ غَمْرَةٍ خَاضَهَا وَالثَّغْرُ مَبْتَسِمٌ وَالْمَوْتُ يَخْطُرُ بَيْنَ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ
وَصَعْبَةٍ خَاضَهَا وَالْحَزْمُ مَعْتَصِمٌ وَالْقَوْلُ يَنْجَحُ بَيْنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
وَمَا عَسَى أَنْ يُمَدَّ الْقَوْلُ فِي مَلِكٍ مَا حَادَ عَنْ كَرَمٍ يَوْمًا وَلَا بَطَلِ
وَلَا أَزْدَهْتَهُ مَنِيَّ يَصْبُو الْحَلِيمُ لَهَا وَلَا سَبَّتَهُ ذَوَاتُ الْأَعْيُنِ النَّجَلِ
وَإِنَّمَا كَانَ وَالْعَلِيَاءُ تَحْفَظُهُ بِالْمَكْرُمَاتِ عَنِ اللَّذَاتِ فِي شُغْلِ
سَقْتَهُ مِنْ دِيمِ الرَّحْمَى مُفَضَّفَةٌ تَمُدُّهَا مُذْهَبَاتُ الْأَدْمَعِ الْهَمَلِ
فَكَمْ سَقَى لِلطُّبَا وَالسُّمْرِ مِنْ غَلَلِ وَكَمْ شَفَى لِلْعُلَا وَالْمَجْدِ مِنْ عِلَلِ⁽³⁾

وتعلو نبرة الحزن لدى الرندي ، فيوجه حديثه للأمير الراحل ، مظهراً مدى تفجعه لفقدته ودهشته ، فكان كالضيف ، ما حل إلا وتأهب للرحيل ، وكأن وجهه الجميل ما أشرق يوماً ، وكان يده ما امتدت تفيض بالخير والعتاء .

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح: محمد الخمار القنوني ص: 84 . 85 .

(2) — المصدر السابق ، ص: 86 .

(3) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

ويتخذ الرندي من الحديث على حتمية الاحتماء بالصبر والاتكاء على العبرة المحسمة

في حقيقة الموت تمهيداً لتهنئة السلطان الجديد ؛ يقول : {البسيط}

مولاي مولاي آفاً مكررةً لو كان يُغني نداءً الوجد و الوجل
أصبحت فينا على حكم الرضى خبراً فكنت كالضيف أو كالطيف في المثل
كان وجهك لم يشرق لناظره كالبدر في السعد أو كالشمس في الحمل
كان كفك لم تُبسط لأمليها يوماً ولا عرضت للجود والقبل⁽¹⁾

ويتوجه الرندي بالعزاء للسلطان الجديد داعياً إياه إلى التسليم بقضاء الله وقدره ،
مذكراً إياه بالنبي — صلى الله عليه وسلم — ، فإن كنت أيها السلطان قد ودعت مولياً
لا نظير له ، فقد رحل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو أعلى وأجل ، يقول :

{البسيط}

يا وارث المجد والمُلك الذي كرمت منه الخلال فما فيهن من خلل
سلم لما قد جرى حكم القضاء به فكل شيء من الأشيا إلى أجل
و ما بكى العين بعد الشيء نافعها وإنما طلل المفقود كالطلل
وأنت أكرم من يعزى العزاء له وأنت أثبت عند الهول والوهل
وإن مضى عنك مولى لا نظير له فقد مضى المصطفى المختار في الرسل
وفي بقائك لإسلام تسلية وفي الأواخر ما يسلي عن الأول
لازلت للملك والإسلام تنصره حتى تبلغ فيه غايمة الأمل⁽²⁾

وعلى هذا النحو ينجح الرندي في الجمع بين التعزية والتهنئة في قصيدة واحدة، دون
أن يشعر القارئ بالتناقض بين الغرضين ، كذلك نجح الشاعر إلى حد ما في تجسيد حرارة
العاطفة والصدق الشعوري إزاء المصاب .

ومن استطاع الجمع بين التعزية والتهنئة في رثاء الحكام الغرناطين ابن الجياب
الغرناطي، الذي اتخذ من المقابلة اللغوية أداة للمزج بين الرثاء والتهنئة في كل بيت من
أبيات قصيدته التي رثى بها ثاني السلاطين النصرين محمد الفقيه ، وهنأ بها ابنه محمداً

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص:86 .

(2) — المصدر السابق ، ص:87 ، 88 .

الثالث الملقب بالمخلوع ، بيد أن الشاعر أخفق من ناحية تجسيد الصدق الشعوري إزاء الحادث ، ومن الممكن أن نلمس هذا منذ الأبيات الأولى التي استهل بها قصيدته ؛ حيث قال : {المتقارب}

مُصَابٌ حَلِيلٌ وَصَنَعٌ حَمِيلٌ وَمَلِكٌ سَعِيدٌ وَأَجْرٌ حَزِيلٌ
فَإِذَاكَ يُهَيِّجُ بَرَحَ الْأَسَى وَهَذَا يُسَكِّتُ فَرْطَ الْغَلِيلِ
وَكَأَنَّ الْأَنَامَ لَهُ بَاهِتٌ وَكُلُّ فَوَادٍ صَحِيحٍ عَلِيلٌ
فَمَذْ غَاضَ بَحْرُ النَّدَى لَمْ تَزَلْ بِحَارُ الدَّمُوعِ عَلَيْهِ تَسِيلٌ⁽¹⁾

فالشاعر — كما ترى — يعزي ويهنئ ، ويبارك معاً ، مظهراً براعته الفنية في الجمع بين النقيضين اعتماداً على عنصر المقابلة ، بيد أن القارئ لهذه الأبيات لا يشعر فيها بجملة العاطفة الجياشة أو الصدق الشعوري إزاء المصاب ، وهو ما لمسناه في قصيدة الرندي ؛ ولعل السبب يكمن في اعتماد الشاعر على براعته اللغوية والإجادة الفنية التامة في الصنعة التي تبرز من خلال براعته في حسن التخلص من غرض لآخر ؛ ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن قصيدة ابن الجياب أقرب إلى المدح منها إلى الرثاء ! يقول : {المتقارب}

فَمِنْ قَصْرِهِ وَإِلَى قَصْرِهِ فَطَابَ مُعْرَسُهُ وَالْمَقِيلُ
تَبَدَّلَ مِنْ نِعْمَةٍ تَنْقُضِي نَعِيمًا مَقِيمًا وَنَعَمَ الْبَدِيلُ
وَعُوضَ مِنْ زَائِلٍ بَاقِيًا فَهَا هُوَ فِي نِعْمَةٍ لَا تَزُولُ⁽²⁾

ويختتم الشاعر قصيدته — على عادة شعراء هذا الباب — بالدعاء للسلطان الجديد ، فيقول :

فَدُمٌ لِلْأَنَامِ كَمَا تَبْتَغِي عَلَيْكَ مِنَ النَّصْرِ ظِلٌّ ظَلِيلٌ
وَقَابِلٌ جَمِيعَ حَيُوشِ الْأَسَى بِصَبْرٍ يَرُدُّ شَبَاهَا فَلِيلٌ
وَلَا زَلَّتْ فِي مُلْكِكَ الْمُعْتَلِي وَفِي نَعَمٍ ضَافِيَاتِ الدُّيُولِ⁽³⁾

(1) — ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص: 58 — 59 .

(2) — المصدر السابق ، ص: 59 .

(3) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

وإذا كان ابن الجياب لم يوفق في قصيدته من حيث التجسيد العاطفي والعمق الوجداني الصادق لهول المصاب ، فإن من الشعراء مَنْ لم يوفق منذ مطلع قصيدته ، وهو أمر كما ذكرت سابقا يرجع إلى تباين القدرات من شاعر إلى آخر ؛ و يتضح هذا من خلال قول أحد الشعراء الغرناطين في مطلع قصيدة توجه بها إلى محمد الثالث محاولا الجمع بين التعزية والتهنئة في قصيدة واحدة : {الوافر}

عَلَى مَنْ تَنْشُرُ الْيَوْمَ الْبُؤُودُ وَتَحْتَ لَوَاءِ مَنْ تَسْرِي الْجُنُودُ⁽¹⁾

فكأن الشاعر تجاهل العوض الذي يمثله السلطان الجديد في القيام بتلك المهمات ، لهذا علق السلطان محمد الثالث على ذلك بقوله : "على هذا الزبلح الذي ترى قدامك" ⁽²⁾ ، واستطرف الناس هذا الرد ، وحجل الشاعر من سوء مطلععه ، "ومن غير المعتاد أن نجد مثل هذا المطلع لكبار الشعراء ... " ⁽³⁾ .

ب — رثاء الأهل والأقارب :

يتميز هذا اللون من المراثي بصدق العاطفة وحرارة الشعور ، والإكثار من التفجع والتحسر على الفقيد ، ومما يندرج تحت هذا الضرب رثاء الشاعر لأبنائه وذوي رحمه من آباءه وزوجاته .

1 — رثاء الآباء :

من الشعراء الغرناطين الذين رثوا آباءهم في هذه الحقبة أبو الطيب الرندي ، وله قصيدة رثى بها أباه، وأظهر فيها تألمه لفراقه ، وبكاه فيها بكاءً حاراً مظهراً عمق مصابه وفاجعته على فقدته لوالده ، حيث تضاعف حزنه عليه بسبب فقدته لأمه قبله حتى إنه لا يكاد يصدق خبر موته، يقول : {البسيط}

حَقًّا أَحْبَبْنَا أَوْدَى " أبو حسن " ؟ مَهْلًا بِنَا فَعَسَى هَذَا مِنَ الْكَذِبِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لَا مَيَّنٌ وَلَا طَمَعٌ زَوْرُ الْأَمَانِي خِدَاعٌ بِالْدموعِ وَبِي

(1) — ابن الخطيب ، اللوحة البدرية ، ص: 61 .

(2) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(3) — عبدالحمد عبد الله الهرامة ، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ، ج 2 ، ط 1 ، ليبيا ، كلية الدعوة

الإسلامية ، 1996 ، ص: 129 .

أَمَا كَفَى الدَّهْرَ مِنْ فَقْدِي لِوَالِدَيْ حَتَّى يُضَاعِفَ لِي وَجْدِي بِفَقْدِ أَبِي⁽¹⁾

وقد استرسل الرندي في إظهار عمق مصابه ولوعته مكرراً نداءه لأبيه في نبرة حزينة تبوح

بشدة ألم الشاعر، يقول: {البيسيط}

مَا أَصْعَبَ الْفَقْدَ لِلْأَحْبَابِ يَا أَسْفِي وَمَا أَمَرَّ فِرَاقَ الْمَوْتِ يَا حَرَبِي

أَبِي ذَهَبَتْ وَلَمْ تَرْجِعْ فَيَا عَجَبِي لِلْعَيْشِ بَعْدَكَ حَتَّى قُلْتُ: يَا عَجَبِي

أَبِي ذَهَبَتْ حَمِيدَ الذِّكْرِ طَيْبِهِ ذَهَابَ مَنْ لَمْ يَعِبْ يَوْمًا وَ لَمْ يَعِبْ⁽²⁾

ويعزي الشاعر نفسه ويصبرها بعد أن سكن الفقد بطن الثرى ، ولا عجب أن يوارى

الثرى جثمانه، فالذهب الخالص يكون موضعه التراب، وما لُثِمَ التراب إلا لما أودع فيه ،

وما البكاء إلا لشدة الفقد وجلال المصاب ، ولو كان النداء يطبب الكرب ويشفيه

لكان، ذلك بالآلاف، وفقد الأب لا يُبقي للعيش سروراً، ولا للفرحة مكانا بعده؛ يقول :

{البيسيط}

يا سيِّداً صار بطنُ الأرضِ مَسْكَنُهُ والتربُ يُوضَعُ فيه خالصُ الذهبِ

لم نَلْثَمِ التُّرْبَ إِجْلَالًا وَتَكْرُمَةً إِلَّا لِمَوْضِعِهَا مِنْ خَدِّكَ التُّرْبِ

ولا بَكَيْنًا وَنَحْنُ الصَّابِرُونَ دَمًا إِلَّا لَشِدَّةِ مَا نَلْقَى مِنَ الْوَصْبِ

مولايَ مولايَ آلفاً مكررة لَوْ أَنَّهَا دَعْوَةٌ تَشْفِي مِنَ الْكَرْبِ

لم يَبْقَ بَعْدَكَ لِي شَيْءٌ أُسْرُ بِهِ فَكَيْفَ بَعْدَكَ لِي فِي الْعَيْشِ مِنْ أَرْبٍ⁽³⁾

ولابن رشيق المرسى قصيدة رثى فيها أباه ، تنم عن عاطفة قوية وحزن عميق ، فالمرثيُّ

أب، ومعلم ،ومرب ،وراع ،بل كان كل شيء في حياة ولده ، يقول : {البيسيط}

فكلُّ عَيْشِي مَذْفَارِقْتَهُ نَكْد وكلُّ باقيه لغوٌ غير محتسب⁽⁴⁾

ويعدد الشاعر مناقب أبيه فيقول: إنه كان يخرج للجهاد، ويرابط في الثغور، ويتجول

في البلدان لطلب العلم ، ويذكر عنه أنه كان يتمتع بعالي الرتب ،وسامي النسب ، فهو

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الحمّار القنوي ، ص: 88 .

(2) — المصدر السابق ص: 89 .

(3) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

(4) — ابن رشيق المرسى — حياته وآثاره ، ص: 203 .

تغلبني العمومة، مرابطي الخؤولة ، ويذكر أنه كان في مجلس القضاء يجمع بين حصافة الرأي ولطافة الكلام ، يعرفه مجلس الفتوى ، ومقام التقى ، يصل الأرحام ، ويقطع ذوي الريب والآثام ، يقول معدداً هذه المناقب والخصال : {البيسط}

سَلْ عَنْ تَحَرُّكِهِ سُكْنَى الثُّغُورِ وَمَا	قَاسَى هُنَالِكَ مِنْ حَرْبٍ وَمِنْ حَرْبِ
سَلْ عَنْ تَجَوُّلِهِ أَطْوَارَ حَالَتِهِ	مَدَارِسَ الْعِلْمِ وَالْأَقْلَامِ وَالْكَتُبِ
سَلْ عَنْ مَنَاسِبِهِ أَوْ عَنْ مَنَاصِبِهِ	نَاهِيكَ مِنْ حَسَبٍ نَاهِيكَ مِنْ رُتَبِ
سَلْ عَنْ خُؤُولَتِهِ أَوْ عَنْ عُمُومَتِهِ	مُرَابِطِي عَجَمٍ أَوْ تَغْلِبِ الْعَرَبِ
سَلْ عَنْ حَصَافَتِهِ أَوْ عَنْ لَطَافَتِهِ	فَصَلَ الْقَضَاءِ وَصَوْتِ الْخِصْمِ فِي لَجَبِ
سَلْ عَنْ تَشْرِعِهِ أَوْ عَنْ تَوَرُّعِهِ	طَهَارَةِ النَّشْءِ مِنْ بَدْءٍ إِلَى عَقَبِ
سَلْ عَنْهُ مَجْلِسَ فَتَوَى أَوْ مَقَامَ نُقَى	أَوْ وَصَلَ ذِي رَحِمٍ أَوْ قَطَعَ ذِي رَيْبٍ (1)

ويختتم الشاعر هذه الشهادة بقوله : {البيسط}

بِذَاكَ أَشْهَدُ لَكِنْ غَيْرَ مُتَّهِمٍ دَعَا مَا يَقُولُونَ فِي ابْنِ شَاهِدٍ لِأَبٍ (2)

ويقرر الشاعر أن حياة أبيه كانت له وحده ، وأن افتقاده أشد ما يكون افتقاداً إلى عطفه المعروف ، وحدثه المألوف ، فهو لم يعرف العيش الرغد إلا معه ، ولم يرع في المرتع الخصب إلا برعايته ، نعم إنه كان يحنو تارةً بغريزة الحدب ، ويقسو تارةً أخرى لضرورة الأدب ، يقول : {البيسط}

هَذَا افْتِقَارِي الَّذِي مَازَلْتُ أَعْرِفُهُ	فَأَيُّنَ مَعْرُوفُ ذَاكَ الْعَطْفِ وَالْحَدَبِ
قَدْ كُنْتُ فِي عَيْشِهِ فِي عَيْشَةِ رَغْدٍ	وَمِنْ رِعَايَتِهِ فِي مَرْتَعِ خَصْبِ

.....

.....

مَهْمَا حَنَا فَلِمَعْنَى فِي سَجِيَّتِهِ وَإِنْ قَسَا فَلِضَرْبِ مَا مِنَ الْأَدَبِ (3)

ويتأسف الشاعر ويتحسّر لكون الموت اختطف أباه بعد أن أصبح قادراً على القيام

(1) — ابن رشيبي المرسبي — حياته وآثاره ، ص: 204 .

(2) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(3) — المصدر نفسه ، ص: 203 .

بخدمته، إلا أن الموت لم يمهله حتى يقوم بشيء من برّه وأداء بعض حقوقه عليه قائلاً :
 {البيسط}

حَتَّى إِذَا عَرَفَتْ نَفْسِي الْحَقِيقَ لَهُ عَرَفَان صِدْقٍ إِلَى جَدْوَاهُ مُنْتَسِبِ
 وَ صَارَ هَمِّي فِي إِثَارِ خِدْمَتِهِ وَرَاحَتِي أَنْ أَنْالَ الشَّيْءَ مِنْ تَعْبِي
 مَضَى وَ لَمْ أَتَمَّعْ مِنْ مَبْرَّتِهِ بِيَعُضِ مَا كَانَ مَأْمُولِي وَمُطَلَّبِي⁽¹⁾

2 — رثاء الزوجة :

كان ذبوع هذا اللون من المراثي في القرن السابع تأكيداً للمكانة البارزة التي كانت تتبوأها المرأة في المجتمع الأندلسي عموماً والغرناطي خصوصاً ، ويتميز هذا الضرب بأنه "لون ذاتي خالص يعتمد على ميل أصيل في نفس الشاعر إلى البوح ، كأنه ترجمة ذاتية قصيرة " (2) .

والشاعر في رثائه لزوجته لا يركز على وصف محاسنها الحسية أو الجسدية ، وإنما يتحدث عن فضائلها وصفاتها المعنوية ، وقد يتحدث عن حلاوة العشرة ، ويفيض في وصف ما أصابه من حزن وأسى على فراقها (3) .

ويرى الرندي خلال حديثه عن رثاء النساء ، أن يقتصر الشاعر في تأبينهن ، "وأن يكني عنهن جرياً على عادة الصون لهنّ ، فيقال في المرأة أنها كانت شمساً أفلتت ، أو زهرة ذبلت ونحو ذلك " (4) .

يقول الرندي في قصيدة يرثي بها زوجته: {البيسط}

فَإِنْ تَكُنْ زَهْرَةً فِي رَوْضِهَا قُطِفَتْ فَكَلَّمَا تُمْتِعُ الْأَيَّامُ بِالزَّهْرِ
 وَإِنْ تَكُنْ دُرَّةً مِنْ سِلْكِهَا خُطِفَتْ فَالدهرُ أدري بما يسبي من الدرر⁽⁵⁾

(1) — ابن رشيق المرسي — حياته وآثاره ، ص: 203 ..

(2) — إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي — عصر الطوائف والمرابطين ، ج 1 ، ط5 ، بيروت ، دار صادر ، 1978م ص: 120 .

(3) — يُنظر : فوزي عيسى ، الشعر في عصر الموحدين ، ص: 270 .

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ص: 89 .

(5) — المصدر السابق، مخطوط دار الكتب المصرية ، أدب تيمور ، رقم 603 ، ورقة: 56 . والقصيدة غير واردة في النسخة المحققة من هذا الكتاب.

ويتذكر الرندي أيامه الخوالي ، يوم أن كان الدهر مساعفاً إلى أن جاء الفراق الأخير
الذي لا لقاء بعده ، يقول مظهرًا تحسّره وتوجّعه من ألم الفراق والفقْد : { البسيط }
وَاحْسَرْتِي لِفِرَاقٍ لَا عَزَاءَ لَهُ وَلَوْعَةٍ لَمْ تَدَعْ مِنِّي وَلَمْ تَذِرْ
يَا بُرْهَةً كَانَ فِيهَا لِلْمُنَى أَمَلٌ وَنُزْهَةً لِلْهَوَى وَالسَّمْعِ وَالْبَصْرِ
مَضَتْ مُضِيَّ الصَّبَا عَنِّي وَلَا عِوَضٌ وَمِنْ يَقُومُ مَقَامَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؟⁽¹⁾

ويسترجع الرندي ذكريات الماضي مع زوجته ، فقد كانا يعيشان مؤتلفين هاتنين كحبات
عقد نُظمت في سلك ، أو روحين يضمّهما جسد واحد ، إلى أن فرّق بينهما الموت ،
فأصبح كعين فقدت نور الإبصار ، ويتمنى لو أن زوجته قاسمته عمره ولم ترحل ، يقول :
{ البسيط }

عَهْدِي بِالْفَتِنَا وَالْأُنْسِ يَنْظِمُنَا بِطَيْبَةِ الْعَيْشِ نَظَمَ السَّلَكِ لِلدُّرْرِ
رُوحَيْنِ فِي جَسَدٍ سَرِيئِينَ فِي خَلْدِ كَمَا تَقَابَلَ أَهْلُ الْخُلْدِ فِي السُّرْرِ
حَتَّى رَمَى الْبَيْنَ شَخْصَيْنَا فَفَرَّقْنَا كَمَا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالنَّظَرِ
يَا لَيْتَنِي عِنْدَمَا حُمَّ الْحِمَامُ كَمَا قَاسَمْتُهُا كَبِدِي قَاسَمْتُهُا عُمُرِي⁽²⁾

ولا يجد الرندي أمام فاجعته بموت زوجته سوى التسليم بقضاء الله وقدره ، فيقول :
{ البسيط }

إِذَا قَضَى اللَّهُ أَمْرًا لَا مَرَدَّ لَهُ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ كَالْتَسْلِيمِ لِلْقَدَرِ⁽³⁾

ويختتم الشاعر قصيدته بتعزية نفسه وتصبيرها من ألم الفراق ، ولوعة الفقْد ،
فيقول : { البسيط }

يَا قَلْبُ صَبْرًا عَلَى مَا قَدْ فُجِعْتَ بِهِ فَلَسْتَ فِي دَفْعِ مَقْدُورٍ بِمُقْتَدِرِ
لَا تَبْكُ فَقَدْ حَبِيبٌ أَنْتَ تَابِعُهُ إِذَا مَضَى الْبَعْضُ فَالْبَاقِي عَلَى الْأَثْرِ⁽⁴⁾

(1) — يُنظر : أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، مخطوط دار الكتب المصرية ، أدب تيمور ، رقم 603 ،
ورقة 56 .

(2) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(3) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

(4) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

3 — رثاء الأبناء :

وهو من أصعب أنواع الرثاء وهل هناك ما هو أصعب وأقسى على النفس البشرية من انتهاء حياة طفل في مقتبل عمره أبعد ما يُظنُّ أن الموت سيختطفه ؟ ، ويرى ابن رشيق القيرواني أن "من أشد الرثاء صعوبةً على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأةً لضيق الكلام فيهما، وقلة الصفات ..."(1).

وللرندي في هذا الضرب من الرثاء قصيدة رثي فيها ابنه رثاء أب مكلوم ، وقد عبر فيها عما أصابه من ألم الفراق والحيرة في مواجهة حقيقة الموت ، هذه الحيرة تظهر من خلال كثرة تساؤله فإذا كان الفقيد نجماً أفل فللنجوم أفول يعقبه سطوع ، وإن كان زهرة ذبلت لقلّة الماء، فلماذا لا تزهر من جديد ودمعه المنهمر سيل لها ؟ يقول :

{ الطويل }

بُنَيَّ أَبَا بَكْرٍ بُنَيَّ أَبَا بَكْرٍ	وَمَاذَا عَسَى يُعْنِي التعلُّلُ بِالذِّكْرِ؟
ذَهَبَتْ ذَهَابَ الصَّبْرِ عَنِّي مُكْرَهًا	فَوَا أَسْفِي أَنْ لَا لِقَاءَ إِلَى الْحَشْرِ
فَإِنْ كُنْتَ نَجْمًا زَاغَ مِنْهُ أَفُولُهُ	فَمَا لَكَ لَا تَبْدُو مَعَ الْأَنْجُمِ الزُّهْرِ؟
وَإِنْ كُنْتَ زَهْرًا جَفَّ إِذْ أَخْلَفَ الْحَيَا	فَمَا لَكَ لَا تَحْيَا وَدَمْعِي كَالْقَطْرِ؟ (2)

وينتقل الرندي لوصف أثر الفقد في نفسه ، ويكشف عن هذا الأثر من خلال ترديد اسم ابنه الفقيد ، وكأن تكرار اسمه ينفس كربته ؛ يقول : { الطويل }

مُحَمَّدُ مَا أَشْجَى فِرَاقَكَ لَوْعَةً	مُحَمَّدُ مَا أَذْهَى مُصَابِكَ مِنْ أَمْرِ
مُحَمَّدُ فِي قَلْبِي مُحَمَّدٌ فِي فَمِي	لَئِنْ غَابَ عَنْ عَيْنِي فَمَا غَابَ عَنْ فِكْرِي (3)

فالقارئ يستطيع أن يحس بحرارة اللوعة ، ويشعر بألم الفقد والمصاب ، من خلال تكرار اسم الفقيد الذي يقوي هذا الإحساس ، ويزيد من أثره لدى المتلقي ، وكأن الشاعر

(1) — ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ج2 ، ص: 154 .

(2) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، مخطوط دار الكتب المصرية ، أدب تيمور 603 ، ورقة: 57.

58. والقصيدة غير واردة في النسخة المحققة من هذا الكتاب.

(3) — المصدر السابق، والموضع نفسه .

يستعذب تكرار اسم ابنه ويجد في هذا تخفيفاً لشدة كربه .

ولأبي حيان ابنة تسمى (نُضاراً)⁽¹⁾ لما توفيت صنّف فيها كتاباً سماه " النَّضار في المسلاة عن نُضار " (2) وكان يثني عليها كثيراً في رثائه إياها ؛ من ذلك قوله من قصيدة مردداً اسم ابنته " نُضار " تعبيراً عن شدة الألم بسبب فقدانها : {مخلع البسيط}

يا ليلةَ البينِ مِنْ "نُضار" صدعت قلبي بما جنيت
يا تُرْبَةً قَدْ حَوَتْ "نُضارا" طَبَّتْ شَدًّا بِالذِّي حَوَيْتِ⁽³⁾

وفيهما يقول أيضاً :

أَمْضَيْتِ الحزنُ يا "نُضار" وصرت مُضْنِيَّ لما مضَيْتِ
أصبحتُ فرداً فليتَ أُنِي قَضَيْتُ نَحْباً لما قَضَيْتِ⁽⁴⁾

ولا يملك الشاعر سوى الدعاء لابنته الفقيدة ، ويقول في آخر قصيدته :

وَقَدَّسَ اللهُ مِنْكَ رُوحاً نَأَلْتُ مِنَ الخُلْدِ مَا اشْتَهَيْتِ
وإنَّ بَيْتاً لها مَحَلٌّ لَخَيْرِ بَيْتٍ لِخَيْرِ بِنْتِ⁽⁵⁾

ج — رثاء النفس : لم يقف الشعراء الغرناطيون عند رثاء من فقدوا فحسب ، بل رثوا أنفسهم أيضاً ، والملاحظ على هذا الضرب من المراثي أنها تأتي قصيرة ، إذ عمدوا إلى "عدم الإطالة ، ومالوا إلى الأبيات من الشعر لتُحفظ عنهم ، أو لتُكتب على قبورهم ، ولتكون أمثالاً سائرة ؛ لأن المقطعات أقرب إلى السامع وأدخل ، ولأن الشعراء في مثل تلك المواقف النفسية لا يتأتى لهم التطويل ..."⁽⁶⁾.

(1) — ينظر: المقرئ ، نفع الطيب ، ج 3 ص: 315 .

(2) — المصدر السابق ، ج 3 ص: 315 .

(3) — أبو حيان الغرناطي ديوانه نسخة مخطوطة في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم ق 69 ورقة: 14، 13

(4) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(5) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه .

(6) — حسين خريوش ، الرثاء في الأدب الأندلسي ، القاهرة ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، 1973 ، ص 125 ، أطروحة ماجستير ، غير منشورة .

فابن عسكر المالقي نعى نفسه "حين آن أن تغرب من سماء مغاربه شمسُهُ" (1)، فقال مقتنعاً
بجتمية الموت: {الطويل}

ولما انقضت إحدى وخمسون حجةً كائني منها ما تذكرت أحلم
ترقيت أعلاها لأنظر فوقها إلى الحنف مني علي منه أسلم
إذا هي قد أدنته مني كأنما ترقيت فيها نحوه وهي سلم (2)

وأبو الطيب الرندي — وقد امتد به العمر حتى ناهز الثمانين — رثى نفسه بيتين أوصى
بوضعهما شاهداً على قبره، طالباً فيهما من يمر به الدعاء له بالرحمة والمغفرة، قال فيهما
: {الطويل}

خليلي بالود الذي بيننا اجعلا إذا ميت قبري عرضة للترحم
عسى مسلم يدنو فيدعو برحمة فإني لمحتاج لدعوة مسلم (3)

ومن الشعراء الغرناطين الذين رثوا أنفسهم أبو عبدالله محمد بن باق الأموي (ت
652هـ) (4) الذي أوصى بأن يدفن بين شيوخه، وأن تكتب على قبره هذه الأبيات
: {الطويل}

ترحم على قبر ابن باق وحيه فمن حق ميت الحي تسليم حيه
وقل أمن الرحمن روعة خائف لتفريطه في الواجبات وغيه
قد اختار هذا القبر في الأرض راجياً من الله تخفيفاً بقرب وليه
فقد يشفع الجار الكريم لجاره ويشمل بالمعروف أهل نديه
وإني بفضل الله أوثق وأثق وحسبي وإن أذبت حُب نبيه (5)

د — رثاء الحسين رضي الله عنه.

ثمة لون آخر من الرثاء عرفه الشعر الغرناطي في هذه الحقبة، أعني رثاء الحسين أو ما

(1) — ابن عسكر، وابن خميس، أعلام مالقة، تح: عبدالله المرابط الترغي، ص: 177.

(2) — المصدر السابق، ص: 177.

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص: 375، 376. وفيه (محتاج) بدلا من (لححتاج).

(4) — ترجمته في الإحاطة ج2، ص: 338، 339.

(5) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص: 340 — 341.

يعرف بالحسينيات، وهي المراثي التي قيلت في رثاء الحسين بن علي رضي الله عنهما. والحقيقة أن هذا اللون من الرثاء وجد منذ عهد المرابطين، وللشاعر أبي عبد الله بن أبي الخصال قصيدتان في هذا الموضوع⁽¹⁾

ويمكن أن نعد القرن السابع الهجري العصر الذهبي لما نظمته الشعراء وألفه الأدباء في أخبار الحسين خاصة وأهل البيت عامة فممن ألف في هذا الموضوع محمد بن عبد الرحمن بن علي التجيبي سنة 610 هـ، وله كتاب (مناقب السبطين الحسن والحسين)⁽²⁾، وابن الأبار البلسني، وله كتابان في هذا الموضوع، الأول بعنوان: (معادن اللجين في رثاء الحسين) والآخر بعنوان: (در السمط في خبر السبطين)، وقد نقل المقرئ فصولاً مطولة من هذا الكتاب الأخير، واعتذر عن إيراد شيء آخر غير ما ذكره، معللاً ذلك بأن "في الباقي ما تشم منه رائحة التشيع"⁽³⁾، وقد استمر الاهتمام بآل البيت عامة وبالحسين خاصة إلى عهد بني الأحمر فالرندي يحدثنا في كتابه (روض الأنس ونزهة النفس) الذي ألفه لابن الأحمر في رثاء الحسين؛ ويقول: "وقد رثي الحسين قديماً وحديثاً..."⁽⁴⁾

ويعد ابن صفوان من أكثر الشعراء الأندلسيين رثاءً للحسين، وله شعر كثير في هذا الموضوع، وقد شهد له بذلك عدد من المؤرخين؛ يقول عنه المقرئ: "وله رسائل بديعة وقصائد جليلة، وخصوصاً في مراثي الحسين رضي الله عنه"⁽⁵⁾، ويقول عنه عبد الملك المراكشي: "وانفرد من تأيين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركته من حكايات كثيرة"⁽⁶⁾، ويذكر الرندي أن "ممن بكاه فأحزن، ورثاه فأجاد، وأحسن أبو بحر صفوان بن إدريس الأندلسي.... وحسنياته كثيرة مشهورة"⁽⁷⁾

(1) — ينظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ج 1 ص: 169

(2) — خير الدين الزركلي، الأعلام، ج 6، ط 15، بيروت — دار العلم للملايين، 2002 ص: 191

(3) — المقرئ، نفح الطيب ج 6 ص 253.

(4) — أبو الطيب الرندي، روضة الأنس ونزهة النفس مخطوط في خزانة الفقيه محمد المنوني، نسخة مصورة على الميكروفيلم ورقة: 56

(5) — المقرئ، نفح الطيب ج 6 ص 372.

(6) — عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة تح: إحسان عباس، ق 4، ص 140.

(7) — أبو الطيب الرندي، روضة الأنس ونزهة النفس، مخطوط في خزانة الفقيه محمد المنوني، نسخة مصورة على

لقد كان صفوان من مدينة مرسية في شرق الأندلس التي تتميز في يوم عاشوراء من كل عام بإقامة احتفال رهيب، وبخاصة في مدينة مرسية بمناسبة ذكرى مقتل الحسين، وذلك في جو من الخشوع والمهابة والقداسة، يعرض مشهد جنازتي يشخص المأساة، وتشعل الأضواء، ويوقد البخور، ويحضر القراء المحسنون والمنشدون البارعون، وتقدم الموائد والأطعمة، وترتفع الأصوات الجميلة منشدة المراثي الحسينية، وقد ظلت هذه العادة إلى عهد ابن الخطيب⁽¹⁾. الذي ذكر أن هذه المراثي كانت تسمى "الحسينية"⁽²⁾

لقد كان وجود هذا اللون من الرثاء في الشعر الغرناطي انعكاساً لمحبة الغرناطيين للرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومما يدل على هذه المحبة في قلوب الغرناطيين؛ أن بعضهم كان يدعي النسب لأهل البيت؛ فقد ذكر ابن الخطيب أبياتاً كتبها أبو جعفر بن الزيات (728 / 649 هـ)⁽³⁾ في شخص يدعي قرابته للرسول صلى الله عليه وسلم قال فيها: { الخفيف }

رَجُلٌ يَدْعِي الْقَرَابَةَ لِلْبَيْتِ	تِ وَإِنَّ الثَّرِيَّ مِنْهُ بِمَعَزَلٍ
سَالَ مِنِّي خِطَابِكُمْ وَهُوَ هَذَا	وَلَكُمْ فِي الْقُلُوبِ أَرْفَعُ مَنَزَلٍ
فَهَبُوهُ دُعَاءَكُمْ وَامْتَحُونِي	مِنْهُ حَظًّا يَنْمُ الثَّوَابَ وَيَجْزَلُ
وَعَلَيْكُمْ تَحِيَّةُ اللَّهِ مَا دَا	مَ أَمِيرُ الْهُدَى يُوَلِّي وَيَعَزَلُ ⁽⁴⁾

ومن المراثي الغرناطية التي وصلتنا في رثاء الحسين قصيدة ناهض بن محمد الوادي آشي (ت 615 هـ)، وهي قصيدة حزينة ومؤثرة، تنم عن حب الحسين، وتعاطف الشاعر مع قضية قتله، وقد بدأها بمقدمة لا تخلو من الأسى والشجاء؛ قال فيها: {الكامل}

أَمْرِيَّةٌ سَجَعَتْ بِعُودِ أَرَاكِ	قُولِي مُوَلَّهَةً عَلَامَ بُكَاءِكِ؟
أَحْفَاكِ الْفُكُ أَمْ بُلِيَّتِ بِفُرْقَةٍ	أَمْ لَاحَ بَرَقُ بِالْحِمَى فَشَجَاكِ؟

الميكروفيلم ورقة: 56

(1) — ابن الخطيب، أعمال الأعلام مطبوع ص 36 نقلا عن فوزي عيسى: الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ص: 176، ولم أجد هذا في النسخة المطبوعة .

(2) — المصدر السابق ص: 36

(3) — ترجمته في الإحاطة ج 1، ص: 287 وما بعدها.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 1، ص: 376 .

لَوْ كَانَ حَقًّا مَا ادَّعَيْتِ مِنَ الْجَوَى
أَوْ كَانَ رَوْعَكَ الْفِرَاقُ إِذَا لَمَّا
وَلَمَّا أَلْفَتِ الرُّوضَ يَأْرِجُ عَرْفُهُ
وَلَمَّا اتَّخَذَتْ مِنَ الْغُصُونِ مَنْصَةً
وَلَمَّا ارْتَدَّيْتَ الرِّيشَ بُرْدًا مُعْلِمًا
لَوْ كُنْتَ مِثْلِي مَا أَفْقَتِ مِنَ الْبُكَاءِ
إِيهِ حَمَامَةٌ حَبَّرِي نِي إِي نِي

وفيها يقول:

أَبْكِي قَتِيلَ الطَّفِّ فَرَعَ نَبِينَا
وَيْلٌ لِقَوْمٍ غَادَرُوهُ مَضْرَجًا
مُتَعَفِّرًا قَدْ مُزِّقَتْ أَشْلَاؤُهُ
أَكْرَمُ بِنْفَرَعٍ لِلنَّبُوءَةِ زَاكِي
بِدِمَائِهِ نَضْوًا صَرِيحَ شِكَاكِ
فَرِيًّا بِكُلِّ مُهَنْدٍ فَتَاكِ⁽²⁾

و يوجه حديثه إلى يزيد بن معاوية الذي نكل بالحسين دون مراعاة لمكانته، وصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

أَيَزِيدُ لَوْ رَاعَيْتَ حُرْمَةَ جَدِّهِ
أَوْ كُنْتَ تُصْغِي إِذْ نَقَرْتَ بِثَغْرِهِ
أَتْرُومُ وَيَكُ شَفَاعَةً مِنْ جَدِّهِ
وَلَسَوْفَ تُنْبَذُ فِي جَهَنَّمَ خَالِدًا
لَمْ تَقْتَنِصْ لَيْثَ الْعَرِينِ الشَّاكِي
قَرَعْتَ صِمَاخَكَ أَتَّةُ الْمَسْوَاكِ
هَيْهَاتَ! لَا، وَمَدْبَرِ الْأَفْلَاكِ
مَا اللَّهُ شَاءَ وَلَا تَ حِينَ فَكَاكِ⁽³⁾

ومن المراثي الحسينية التي وصلتنا خمسة للرندي صاغها على حروف المعجم مذيلا إياها بأعجاز من قصيدة زهير بن أبي سلمى التي قال في مطلعها: {الوافر} عفا من آل فاطمة الجواء فيؤمن بالقوادم فالحساء

ومن عرف بهذا النهج في المراثي الحسينية صفوان بن إدريس؛ فقد ذكر الرندي في كتابه (روض الأنس ونزهة النفس) جزءاً من خمسة لصفوان قال عنها " ومما أحسن فيه

(1) — المقرئ، نفح الطيب ج 6، ص: 372، 373.

(2) — المصدر السابق ج 6، ص: 373.

(3) — المصدر نفسه والموضع نفسه.

وأجاد ما شاء الخمسة التي نظم أقسامها على حروف المعجم، وذيل مراكزها بأعجاز من قصيدة امرئ القيس التي أولها (قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل) ، ومن هذه الخمسة:

ديار الهدى بالخيف والجمرات إلى ملتقى جمع إلى عرفات
مجري سيول الغيم والعبرات معارف هدي أصبحت نكرات
لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جُنُوبٍ وَشَمَائِلٍ (1)

وقد أقر الرندي بإعجابه بطريقة ابن صفوان، وقال: " وقد ألعت بطريقة صفوان في رثائه عليه السلام بجملة حدوت فيها حدوه، فبلغت شأوه بما هو في المعنى أغرب، وإلى الحال أنسب، وذلك أني صنعت خمسة على حروف المعجم مذيلة بأعجاز من قصيدة زهير؛ منها: {الوافر}

أييت فلا يساعدي عزاء إذا ذكر الحسين وكربلاء
فخل الوجد يفعل ما يشاء لمثل اليوم يدخر البكاء
" عفا من آل فاطمة الجواء "

بعينك يا رسول الله مابي دموعي في انهمال وانسكاب
وقلبي في انتهاب والتهاب على دار مكرمة الجناب
" عفتها الريح بعدك والسماء "

بكيث منازل الصبر السؤاة بمكة والمدينة والفرات
معالم للعلا والمكرمات عفت آثارها وكذاك باقي
" على آثار من ذهب العفاء " (2)

إلى آخر الخمسة.

ولأبي بكر ابن المرابط مقطوعة قال فيها: {مخلع البسيط}

بِاللّهِ يَا لَائِمِي تَرَفَّقْ مَالِي بِاللُّومِ مِنْ يَدَيْنِ
حَسْبِي فَأَقْصِرْ، هَلِيبُ قَلْبٍ وَفَيْضُ دَمْعٍ بِجَدُولَيْنِ

(1) — أبو الطيب الرندي ، روضة الأوس ونزهة النفس ، مخطوط في خزنة الفقيه محمد المنوني ، نسخة مصورة على

الميكروفيلم ورقة: 57

(2) — المصدر السابق و الموضوع نفسه.

وَمَا أَقَاسِي بِكَرْبَلَاءَ مِنْ كَرَبِ الْوَجْدِ بَيْنَ ذَيْنِ⁽¹⁾

وهي تدور حول معنى بيتين نظمهما ابن الجوزي في يوم عاشوراء قال فيهما: {مخلع البسيط}

وَلَائِمٍ لَامٍ فِي اكْتِحَالِي يَوْمَ اسْتَحَلَّوْا دَمَ الْحُسَيْنِ
فَقُلْتُ: دَعْنِي أَحَقُّ عُضْوُ يَحْظَى بِلِبْسِ السَّوَادِ عَيْنِي⁽²⁾

ويمكن القول إن المراثي التي وصلتنا في رثاء الحسين ليس فيها ما يدل على أفكار أو تشيع الشعراء الغرناطيين بالمعنى المذهبي، وإنما تدل على حبه العميق للحسين وعطفهم على آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانياً — رثاء المدن :

يمكن اعتبار العقود الثلاثة الأولى من القرن السابع الهجري حقبة ضياع المدن الأندلسية، وسقوطها في أيدي النصارى، يقول ابن خلدون: "وكانت هذه المدة من سنة اثنتين وعشرين، إلى سنة سبعين فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين، واستبيح حماهم، واتهم العدو بلادهم وأموالهم نهباً في الحرب، ووضيعة ومدارة في السلم"⁽³⁾

وفي هذه المدة سقطت قرطبة عام 633هـ، ثم بلنسية عام 636هـ، ثم مرسية عام 640هـ، ثم جيان عام 643هـ، فشاطبة عام 644هـ، وتلتها إشبيلية عام 646هـ، فضلاً عما سقط من مدن تابعة لغرناطة، إما تنازلاً من قبل بعض الأمراء النصرانيين، أو نتيجة هزيمة أو انسحاب، وبهذا التهاوي السريع للمدن الأندلسية أخذت خارطة الدولة الإسلامية في الأندلس تتقلص بشكل سريع، ورهيب في صورة تشير الألم والحزن في النفوس، "وقد أذكت هذه المحنة لوعة الشعراء، واستثارت قرائحهم، فبكوا مدغم بكاءً حاراً، وتفجّعوا على ضياعها، ووصفوا ما أصابها على أيدي الأعداء من خرابٍ وتدمير، وما لحق بأهلها من صنوف العذاب وضروب الذل والهوان، وجروا إلى غايتهم في هذا

(1) — أبو العلاء ابن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص: 269.

(2) — المصدر السابق، ص: 245.

(3) — ابن خلدون، العبر، ج7، ص: 392.

الضرب من الرثاء حتى صار فناً أصيلاً تميزوا به... " (1) .
والدارس لشعر رثاء المدن في هذه الحقبة يجد أنه ارتبط ببعض الموضوعات التي يصعب استقلالها استقلالاً تاماً ؛ " ذلك لأن الموضوعات متشعبة ، والمعاني متداخلة... " (2) .
يقول الدكتور مصطفى الشكعة " ربما كان من الصعوبة بمكان تصنيف شعر رثاء الوطن الإسلامي في الأندلس إلى موضوعات جانبية بعينها... " (3) .
وبالرغم من هذا الامتزاج فإن الموضوعات التي تناولها الشعراء في رثاء المدن الأندلسية ، يمكن تقسيمها تقسيماً تقريبياً على النحو التالي :

1 — الاستنجد والحضّ على الجهاد والوحدة :

منذ أن أخذ التقلص يصيب البلاد الأندلسية في حركة مدّ طاغ وجزر متوانٍ ؛ حين راح الثغر يسقط تلو الثغر ، والقلعة تتهاوى في أعقاب الحصن ؛ والشعراء الأندلسيون لم يصمت لهم لسان ، ولم تتقطع لهم أوتار قيثاره ، فراحوا يسددون قوافيهم سهاماً تصيب ولا تطيش ، حاضّين على الجهاد بكل السبل ، مبيّنين فضله وأجره عند الله تعالى ، ولسان حالهم ينطق بقول امرئ القيس " وجرح اللسان كجرح اليد " (4) . فلم يترك الشعراء وتراً يُشجّي إلا ضربوا عليه ، ولا جرحاً يؤلم إلا نكّوه مستخدمين في سبيل ذلك كل وسائل البيان من أجل إنجاد الأندلس و إنقاذها ، ولم يتركوا طائفةً إلا ووجهوا إليها الخطاب .
لقد أطلق الشعراء نداء الاستنجد ، وصيحات الاستغاثة إلى السلطان النصري محمد بن الأحمر الغالب بالله ، وإلى القبائل المغربية ، وملك بني مرين ، وإلى المسلمين في كل بقاع الأرض .

فالشاعر أبو إسحاق بن عبيديس (5) توجه بقصيدة رثاء حزينة إلى محمد بن نصر

(1) — حسين خريوش ، الرثاء في الأدب الأندلسي ، ص: 115 .

(2) — عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص: 403 .

(3) — مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي — موضوعاته وفنونه ، ط 1 ، بيروت ، دار العلم للملايين ، 1974 ، ص: 512 .

(4) — امرؤ القيس ، ديوانه ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 4 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1984 ، ص: 124 .

(5) — ينظر ترجمته لدى ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، ص: 367 ينظر أيضا هذه الدراسة ص: 61 .

الغالب بالله الذي كان "مؤملاً لرسالة الإنقاذ"⁽¹⁾، يحضه فيها على الجهاد، وإنقاذ الأندلس، و مدينة جيان من الغزو الصليبي، وقد صور ابن عبيديس في مقدمة قصيدته الأندلس، وكأنها مصابة بمرض مزمن، وأنها لن تشفى منه إلا بآبن نصر الذي "يجب أن يطب الأندلس المريضة ويعودها ويُجيب نداء جيان"⁽²⁾ يقول مصورا حال الأندلس و ما تعانيه مدنه: {الوافر}

أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ أَلَا تُعْودُ	لأندلسٍ بها مَرَضٌ شَدِيدٌ !
وَأَنْتَ طَيِّبُهَا وَاللَّهُ يَشْفِي	فَمَا لَكَ لَا تَطْبُ وَلَا تُعْودُ ؟!
فَجِيَانَ تُنَادِيكَ ابْنَ نَصْرِ	أَلَا مَالٌ يُعْودُ أَلَا جُنُودُ
وَأَنْتَ مَلِيكُهَا الضَّرْغَامُ تَدْعُو	لنَصْرِ الدِّينِ لَوْ نَفْسٌ تُجُودُ
حَمَى جِيَانَ سَيْفُ لَابِنِ نَصْرِ	وَهَلْ يَحْمِي الحِمَى إِلَّا الأَسُودُ؟
وَقَرْطَبَةُ أَقَامَ الشَّرْكَ فِيهَا	وَمَا يَغْزُو القَرِيبُ وَلَا البَعِيدُ
وَإِنْ تُغَوَّرَهَا وَتُغَوَّرَ حِمَصُ	تَمَلَّكَهَا العَدُوُّ لَنَا المَبِيدُ
وَأُبْدَةُ يَعِيثُ بِهَا النِّصَارَى	وَنَارُ الكُفْرِ لَيْسَ لَهَا حُمُودُ ⁽³⁾

ويسترسل الشاعر في تعداد المدن الواقعة بأيدي النصارى ، ويذكر عبثهم بها وبأهلها ، وهو في كل مرة يخاطب أو يلمح إلى ابن نصر سليل الأنصار مستنجداً ومستصرخاً وحاضاً إياه على الجهاد لاسترجاع ما ضاع ؛ لأنه الأمل الوحيد المتبقي للأندلسيين قبل أن يتوجه إلى الله عز وجل ضارعاً متوسلاً يستوهبه ويستمنحه اللطف لعباده يقول: {الوافر}

إِلَهَ الْعَالَمِينَ إِلَيْكَ يَشْكُو	فَقِيرٌ لَا يَقُومُ لَهُ قُعودُ
فَأَنْتَ المُسْتَجِيبُ لِمَنْ دَعَاهُ	وَكُلُّ الجُنْدِ جُنْدُكَ يَا مَجِيدُ

(1) — عبدالقادر زمامة ، (نص أندلسي لم يُنشر — قصيدة ابن عبيديس يستنجد فيها بآبن الأحمر لإنقاذ مدينة جيان)، مجلة المناهل ، ع26 ، السنة العاشرة ، جمادى الأولى/1403 ، مارس/1983 ، المغرب ، وزارة الشؤون الثقافية، ص: 291 .

(2) — المرجع السابق ، ص: 292 .

(3) — المرجع نفسه ، والموضع نفسه.

فنصراً يا إله الخلق نصراً
 ولطفاً بالجزيرة يا إلهي
 فأنت الله تفعل ما تريد
 فما إن في مضرتها مزيد
 فكّم من فتنة عمياء فيها
 شقت فيها وما يشقى السعيد⁽¹⁾

لقد أحسّ ابن عبيديس أن السيل قد بلغ الزبي ، وليس على ذلة الأندلس مزيد بما أشعله أهلها من فتن ، وعلى الله المعوّل في إحمادها وإطفاء جذوتها، وفي البيت الأخير إشارة من الشاعر إلى السبب الذي أودى بالأندلسيين إلى هذه الحال من الذل والمهانة ، وسأعود لاحقاً للحديث عن هذا الأمر .

وإذا كان الشاعر ابن عبيديس توجه بندائه — كما مر — إلى محمد ابن الأهمر مستنجداً به ومستصرحاً وراثياً لما حل بالأندلس من خراب ودمار؛ فإن مالك بن المرحل المالقي الأصل، رفع عقيرته راثياً ومستنجداً ومستنهضاً لهمم القبائل المغربية وملوكها من بني مرين للجواز إلى الأندلس برسم الجهاد، ونصرة دين الله عز وجل ، وربما تكون قصيدته الميمية هي من أشهر ما قاله في هذا الباب ، فقد ثلثت على المنبر في مسجد مدينة فاس المغربية، واكتسبت تأييداً شعبياً عريضاً حتى تسارع الناس للالتحاق بمسلمي الأندلس ، يقول الأستاذ محمد بن تاويت عن هذه القصيدة إنها "أول قصيدة نراها تتوجه إلى مخاطبة الشعب واستنفاره على أعداء الإسلام ..."⁽²⁾.

ولم يبدأ ابن المرحل قصيدته بخطاب شخص محدد كما فعل ابن عبيديس في مطلع قصيدته السابقة، إنما عمد ابن المرحل أساساً إلى المسلمين جميعاً يستنجد بهم لنصرة الدين الإسلامي ، فقال مخاطباً أهل العدو المغربية : { الرجز }

استنصرّ الدين بكم فأقدموا
 لا تسلموا الإسلام يا إخواننا
 فإِنَّهُ إنْ تُسَلِّمُوهُ يُسَلِّمُ
 وأسرجوا لنصره وألجموا
 لاذت بكم أندلس ناشدة
 برحم الدين ونعم الرحم
 واسترحمتكم فارحموها إنّه
 لا يرحم الرحمن من لا يرحم

(1) — عبدالقادر زمامة ، (نص أندلسي لم يُنشر ، ص : ص: 292 .

(2) — محمد بن تاويت ، الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى ، ج1 ، ص: 443 .

ما هي إِلَّا قِطْعَةٌ مِنْ أَرْضِكُمْ وَأَهْلُهَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ⁽¹⁾

فالشاعر في هذه الأبيات "يستصرخ حمية المحكومين والرعية ، ويستثير وجدانها نحو نكبة الأندلس ..."⁽²⁾، لذا جعل الدين والإخوة في الإسلام والجوار محاور أساسية في الاستنجاد واستنهاض الهمم، وهذا يدل على أن الشاعر كان يدرك طبيعة الصراع القائم بين المسلمين والنصارى في الأندلس فهو صراع وجود لا صراع حدود ، وجود للدين والإسلام فوق الجزيرة الإيبيرية .

ويسترسل ابن المرحل في عرض قضية الأندلس المسلمة المجاهدة وما ينتظرها من عون المجاهدين المغاربة ، فيصور أحوالها وما تعانيه من قتل وأسر وجوع وفتنة ماحقة ، مذكراً بما سقط من مدن بأيدي الأعداء، وما يعانيه أهلها من ظلم وتشريد، يقول : {الرجز}

اسْتَخْلَصَ الْكُفَّارُ مِنْهَا مُدُنًا	لِكُلِّ ذِي دِينٍ عَلَيْهَا نَدْمٌ
قَرْطَبَةٌ هِيَ الَّتِي تَبْكِي لَهَا	مَكَّةٌ حُزْنًا وَالصَّفَا وَزَمْزَمٌ
وَحِمَصٌ وَهِيَ أُخْتُ بَعْدَادَ وَمَا	أَيَّامُهَا إِلَّا الصَّبَا وَالْحَلَمُ
اسْتَخْلَصُوهَا مَوْضِعًا فَمَوْضِعًا	وَاقْتَدِرُوا وَاحْتَكَمُوا وَانْتَقَمُوا
وَقَتَّلُوا وَمَثَلُوا وَأَسْرُوا	وَأَتَكَلَّمُوا وَيَتَمَمُوا وَأَيَّمُوا
أَيَّامَ كَانَ الْخَوْفُ مِنْ أَعْوَانِهِمْ	وَالْجُوعُ وَالْفِتْنَةُ وَهِيَ أَعْظَمُ ⁽³⁾

ويشيد الشاعر في أبيات قصيدته بشجاعة المغاربة ، وما عرّفوا به من مراعاة للجوار، وحماسة للدين، وغيره على الإسلام متخذاً من ظنون النصارى الخاطئة بأنه لا ناصر لهذا

الدين، مدخلاً لذلك، فيقول : {الرجز}

ظَنُّوا وَكَانَ الظَّنُّ مِنْهُمْ كَاذِبًا	أَنْ لَيْسَ لِلَّهِ جُنُودٌ تَقْدُمُ
مَا صَدَّقُوا أَنَّ وِرَاءَ الْبَحْرِ مَنْ	يَغْضَبُ لِلْإِسْلَامِ حِينَ يُظْلَمُ
وَلَا دَرَوْا أَنَّ لَدَيْكُمْ حُرْمَةً	يَحْفَظُهَا شَبَابُكُمْ وَالْهَرَمُ
لَوْ عَرَفُوا قَبَائِلَ الْعُدُوِّ مَا	عَدَوْا عَلَيَّ حَيْرَانِهِمْ وَاجْتَرَمُوا

(1) — علي ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، ص: 98، 99 .

(2) — محمد مسعود جبران ، مالك بن المرحل — أديب العدوتين ، ص: 169 .

(3) — علي ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، ص: 99.

يَا أَهْلَ هَذِي الْأَرْضِ مَا أَخْرَكُمُ عَنْهُمْ؟ وَأَنْتُمْ فِي الْأُمُورِ أَحْزَمُ (1)

ويشير ابن المرحل الحماسة الدينية في نفوس أهل العدو المغربية، مبيناً فضل الجهاد وما يوجب تقديمه على سائر الأعمال الدنيوية الأخرى، مزيناً لهم أجره وثوابه في الدنيا والآخرة، فالملت في رحمة من الله في جنان الخلد ، والحي في رضى من ربه ونعمة ، يقول: {الرجز}

تَسَابَقَ النَّاسُ إِلَى مَوَاطِنِ الْأَجْرُ فِيهَا وَافِرٌ وَالْمَغْنَمُ

مِيَّتُهُمْ قَدْ قَرَّ فِي رَحْمَتِهِ
يَضْرِبُ بِالسَّيْفِ فَيَرْضِي رَبَّهُ
أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْتِهِ إِيمَانُهُ
وَحُبُّهُ فِي فِعْلٍ مَا يُقَدِّمُ (2)

كل هذا قبل أن يُصعد الشاعر من الإيقاع؛ ليكشف عن المطلوب، في جو عاصفي هائج مزوج بدغدغة رفيعة للعواطف الإنسانية، تحركها تحريكاً عنيفاً مهما بلغت من السكون، يقول: {الرجز}

حُدُّوا السَّلَاحَ وَانْفِرُوا وَسَارِعُوا
إِنَّ أَمَامَ الْبَحْرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ
وَنَحْوَكُمْ عِيُونُهُمْ نَاطِرَةٌ
وَالرُّومُ قَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَمَا لَهُمْ
كُلُّهُمْ يَنْظُرُ فِي أَطْفَالِهِ
أَيَّنَ الْمَفْرُ؟ لَا مَفْرَ إِذَا
إِلَى الَّذِي مِنْ رَبِّكُمْ وَعُدَّتُمْ
خَلْقاً لَهُمْ تَلَفَّتْ إِلَيْكُمْ
لَا تَطْعَمُ النَّوْمَ وَكَيْفَ تَطْعَمُ؟
سِوَاكُمْ رِداً فَأَيَّنَ الْهِمَمُ؟
وَدَمْعُهُ مِنَ الْحِدَارِ يَسْجُمُ
هُوَ الْغِيَاثُ أَوْ إِسَارٌ أَوْ دَمٌ (3)

لقد انتقل ابن المرحل من الحديث عن الدين وعن الأندلس إلى المتلقي نفسه ؛ إذ هو محور الحديث، وبيده مفتاح النجاة لأطفال الأندلس ، وإن لم يفعل فهم بين أسر أو قتل ،

(1) — علي ابن أبي زرع ، الدخيرة السنية ، ص:99.

(2) — المصدر السابق ، ص: 99، 100.

(3) — المصدر نفسه ، ص: 100 .

فليختر المتلقي أي الأمور الثلاثة أفضل .

ويبدو أن براعة ابن المرحل في معالجة هذا الموضوع ، وطريقة تسرّبه إلى دواخل المتلقي قد آتت أكلها ؛ إذ إن هذه القصيدة حين " قُرئت بصحن جامع القرويين من فاس يوم الجمعة بعد الصلاة ، بكى الناس عند سماعها ، وانتدب كثير منهم للجهاد " (1).

ولم يكفّ الشعراء الغرناطيون عن الاستنجد ، والحض على الجهاد ، والدعوة إلى الوحدة لغزو أرض المشركين ، وردّ ما سلب من ثغور الأندلس وحصونها ، حتى عندما اتخذ بعض أمراء البيت النصري من مهادنة العدو سياسة تفرضها طبيعة الظروف الداخلية للإمارة الغرناطية في فترة تاريخية معينة .

فأبو الطيب الرندي شاعر النصريين الأثير لم يتوان في نظم قصيدة رثائية ضمّنها أبياتاً تحريضية يستنجد فيها ببني مرين ، وكلّ المسلمين من وراء البحر؛ للذود عن الإسلام وحماية ديار المسلمين ، وتبدو دعوته ظاهرة في قوله : { البسيط }

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبِيضَاءُ رَأَيْتُهُ أَدْرِكُ بِسَيْفِكَ أَهْلَ الْكُفْرِ لَا كَانُوا (2)

ويتوجه بندائه لكل المسلمين في أبيات لا تخلو من التقريع لحكام المسلمين (3)؛ لما ساد بينهم

(1) — علي ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، ص: 98 .

(2) — المقرئ ، أزهار الرياض ، ج1 ص: 49 . وهذا البيت لم يرد في نفع الطيب .

(3) — اختلفت كلمة الباحثين حول المعنى بالإدانة في هذه القصيدة فقد ذهب الدكتور عبدالله الزيات إلى أن قصيدة الرندي كانت إدانة لحكام الأندلس آنذاك ، وأن الرندي قال قصيدته في أثناء وجوده في المغرب عند بني مرين ، اعتقاداً من هذا الباحث بأن العلاقة بين بني الأحمر وبني مرين كانت متدهورة في هذه الحقبة ، في حين ذهب الدكتور محمد رضوان الداية إلى أن قصيدة الرندي كانت " صرخة مدوية في وجه حكام الشأن الأعلى في غرناطة وفاس ، وإن كانت لهجة الخطاب عامة " . ينظر : عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص: 368 . وينظر : الداية ، أبو البقاء الرندي — شاعر رثاء الأندلس ، ص 92 .

ويبدو أن ما ذهب إليه الدكتور محمد رضوان الداية هو الأقرب إلى الواقع ؛ ذلك لأن العلاقة بين العدوتين لم تندهور إلا بعد عبور ملك بني مرين سنة 674هـ ، ولم أجد في المصادر التي بين يدي ما يدل على تدهور العلاقات بين العدوتين المغربية والأندلسية قبل هذا التاريخ ، وإذا كان الرندي أنشد قصيدته هذه في أثناء وجوده بالعدوة المغربية ، فإن هذا لا يعني بالضرورة أنها إدانة لحكام الأندلس وحدهم ؛ بل إن لهجة الخطاب عامة كما ذكر الدكتور محمد رضوان الداية ؛ أي أنها كانت موجهة للحكام المسلمين جميعاً في العدوتين الأندلسية والمغربية .

من فرقة وتدابير، حتى إن كل واحد منهم قانع بما لديه، ولا يهمله من أمر الإسلام شيء، كما يتجلى في أبياته التالية التي يبدو أنها لا تزال تنبض بالحياة، وتصلح للتعبير عن واقع أمتنا اليوم، يقول: {البيسيط}

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة	كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة	كأنها في ظلام الليل نيران
ورائعين وراء البحر في دعة	لهم بأوطانهم عز وسطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس	فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	أسرى وقتلى فلا يهتّم إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم	وأنتم يا عباد الله إخوان
ألا نفوس أبيات لها همم	أما على الخير أنصار وأعوان؟ (1)

فكل شيء لدى المسلمين موفور، الخيل والسلاح والرجال، وما عدوا إلا النفوس الأبية والهمم العالية. وإمعاناً من الرندي في التقرير، وتجسيدا لموت الضمائر، نراه يحدد مجال استخدام الخيل والسلاح، فأما الخيل فهي في مجال السبق — وليس الحرب — عقبان، وأما السيوف فهي محمولة فقط وكأنها أداة للزينة، ثم إنها في ظلام النقع نيران، وكان المسلمين يكتفون بإظهارها للزينة، فلا طائل من ورائها، فقد أودى بهم البطر والدعة والعز والسلطان، ولكل شأن يغنيه عن سماع أنباء الأندلس ومحن أهلها المستضعفين بها، فلا نفوس أبيات ولا همم، ولا أعوان على الخير، ولا أنصار.

ولم تكن صرخة الاستنجد والحض على الجهاد تجري على ألسنة الشعراء الغرناطيين فحسب، بل كانت أيضاً على ألسنة الأمراء النصرين، من ذلك ما كتبه أبو عمرو بن المرابط على لسان ثاني سلاطين النصرين محمد الفقيه عقب الجفاء الذي كان بين بنى

ومهما يكن من أمر المعنى بالإدانة في هذه القصيدة؛ فإن علاقة الرندي بالأمراء النصرين ظلت مستمرة بوصفه شاعر البلاط والقصر، وذلك إلى ما بعد تاريخ نظم هذه القصيدة المحدد بسنة 665 هـ، وليس أدل على استمرار علاقة الرندي بالبلاط النصرين من تلك التعزية التي حبرها الرندي في رثاء السلطان محمد بن نصر الغالب بالله المتوفى سنة 671 هـ وقد تحدثت عن هذه القصيدة في مطلع هذا البحث.

(1) — المقرئ، نوح الطيب، ج6، ص: 233، 234. وكذلك: علي ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص: 113.

الأحمر و بين بني مرين بشأن بني إشقيلولة ، وما أعقب ذلك من تزلف ابن الأحمر لملك قشتالة كما بينت في الفصل الأول من هذا البحث .

وابن الأحمر من خلال نص ابن المرابط يستعطف السلطان المريني " ويعترف له بالخطأ في الأولى ، ويطلب منه الإقالة والعودة إلى الأندلس لإطفاء الفتنة ، وقمع الكفرة ... " (1) ، وينفذ وصية أبيه بالتعاون مع بني مرين والاعتصام بهم في كل الأحوال .

يقول أبو عمرو بن المرابط مستنجداً للذود عن الأندلس ، ونصرة الدين الإسلامي والحفاظ على عقده من الانفراط مذكراً بفضل الجهاد وما ينتظر المجاهدين من الأجر والثواب يوم القيامة: {الكامل}

هَذَا الْجِهَادُ رَيْسُ أَعْمَالِ التُّقَى خُذْ مِنْهُ زَادَكَ لِارْتِحَالِكَ تَسْعَدِ
هَذَا الرِّبَاطُ بِأَرْضِ أَنْدَلُسٍ فَرِحْ مِنْهُ لِمَا يُرْضِي إِيَّاهُ وَاعْتَدِي (2)

وبعد أن يصف الشاعر حال المسلمين في الأندلس ، وما وصلوا إليه من ذل وهوان على أيدي الأعداء ، يصل إلى مخاطبة بني مرين وأهل العدو ، يستنجد ويستعطف مكرراً ندائه ، في اتكاء واضح على التذكير بالمعاني الدينية التي تحض على مراعاة الحوار وحماية الجار وإنجاده وتنفيس كربته ، مذكراً بقصة النبي — صلى الله عليه وسلم — وحديث جبريل — عليه السلام — الذي وصّاه فيه بحقوق المجاورة ، يقول : {الكامل}

أَبْنِي مَرِينٍ أَنْتُمْ جِيرَانُنَا وَأَحَقُّ مَنْ فِي صَرْحَةٍ بِهِمْ ابْتَدِي
فَالجَارُ كَانَ بِهِ يُوصِّي المصطفى جبريلُ حقاً في الصحيح المُسْنَدِ
أَبْنِي مَرِينٍ وَالقَبَائِلُ كُلُّهَا فِي المَغْرِبِ الأَدْنَى لَنَا وَالأَبْعَدِ (3)

ويكرر الشاعر دعوته للجهاد مبيناً فضله ووجوب تقديمه على سائر الأعمال الأخرى ،

وما يلاقيه المجاهدون من جزاء وفوز عظيم في جنان الخلد والنعيم ، فيقول : {الكامل}

كُتِبَ الْجِهَادُ عَلَيْكُمْ فَتَبَادَرُوا مِنْهُ إِلَى فَرَضِ الأَحَقِّ الأَوْكَدِ
وَارضُوا بِأحدي الحُسْنَيْنِ وَاقْرَضُوا حَسَنًا تَفُوزُوا بِالحَسَانِ الخُرْدِ

(1) — علي ابن أبي زرع ، الدخيرة السنينة ، ص: 163 .

(2) — ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص: 410 .

(3) — المصدر السابق ج 7 ، ص: 412 .

هَذِي الْجِنَانُ تَفْتَحَتْ أَبْوَابَهَا وَ الْحَوْرُ قَاعِدَةٌ لَكُمْ بِالْمَرْصَدِ
 مَنْ بَائِعٌ مِنْ رَبِّهِ؟ مَنْ مُشْتَرٍ مِنْهُ الْحَصُولُ عَلَى النِّعَمِ السَّرْمَدِ؟⁽¹⁾

وهكذا ، فإن عناصر الاتكاء على الدين والأخوة والمجاورة نجدها حاضرة بقوة في رثاء المدن الأندلسية ، لا سيما لدى الشعراء الغرناطيين ، إيماناً منهم بفاعليتها وقوة تأثيرها على نفوس المسلمين خاصتهم وعامتهم ، ويعد هذا من خصائص شعر رثاء المدن في هذه الحقبة ، كما أن من خصائصه الاعتماد على عنصر التصوير في استثارة عواطف المخاطبين ، حيث راح الشعراء يعرضون بعض النماذج الإنسانية في قصائدهم الرثائية ، ويصورون ما حل بها من ظلم وتشريد وهوان .

ومن خصائصه أيضاً ارتباطه الوثيق بالدعوة إلى الوحدة ، وقد لاحظ هذا الدكتور عبدالله الزيات ، حيث قال : "إن موضوع الدعوة إلى الجهاد والوحدة متداخلان مع موضوع الاستنجداد في قصائد كثيرة ، بحيث كان الاستنجداد غالباً يرد في القصائد التي تدعو إلى الجهاد والوحدة ..."⁽²⁾

ومن الشواهد التي تؤكد هذه الملاحظة ما جاء في قصيدة ابن عبديس السابقة ، حين توجه إلى الله ضارعاً متضرعاً داعياً بتأليف قلوب المسلمين ، وجمعهم على الود والمحبة ، وذلك في قوله : {الوافر}

وَمَا الْمَنْصُورُ إِلَّا مُسْتَجِيبٌ وَعَهْدُ النَّاصِرِينَ لَهُ جَدِيدٌ
 وَجَمْعُ الْمُؤْمِنِينَ لَهُ انْتِصَارٌ فَأَلْفْنَا بِوَدِّكَ يَا وَدُودٌ⁽³⁾

كما ظهرت الدعوة إلى الوحدة في قصيدة ابن المرحل ، وذلك في قوله : {الرجز}

لَاذَتْ بِكُمْ أَنْدَلُسٌ نَاشِدَةٌ بِرَحِمِ الدِّينِ وَنِعَمِ الرَّحِمِ⁽⁴⁾

وينبذ الرندي التقاطع والشتات بين المسلمين فيقول : {البيسط}

مَاذَا التَّقَاعُ فِي الْإِسْلَامِ بَيْنَكُمْ وَأَنْتُمْ يَا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانٌ؟⁽¹⁾

(1) — ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص : 412 ، 413 .

(2) — عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص : 433 .

(3) — عبدالقادر زمامة ، "نص أندلسي لم يُنشر" ، ص 292 .

(4) — علي ابن أبي زرع ، الذخيرة السنوية ، ص 98 .

ويقف أبو عمرو ابن المرابط مستفهماً متعجباً من فرقة المسلمين، وشتاتهم أمام اتحاد أعدائهم على حربهم، وفنائهم، حيث يقول: {الكامل}

مَا بَالُ شَمَلِ الْمُسْلِمِينَ مُبَدِّدٌ فِيهَا وَشَمَلُ الْكُفْرِ غَيْرُ مُبَدِّدٍ⁽²⁾

بل إن ابن المرابط يرى أن الوحدة والجهاد في سبيل الله واجبان دينيان سيُسأل عنه بنو مرين — إذا ما فرطوا فيه — من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك حين يقول: {الكامل}

مَاذَا اعْتَدَارُكُمْ غَدًا لِنَبِيِّكُمْ وَطَرِيقُ هَذَا الْعُذْرِ غَيْرُ مُمَهَّدٍ؟
إِنْ قَالَ لِمَ فَرَطْتُمْ فِي أُمَّتِي وَتَرَكْتُمُوهُمْ لِلْعَدُوِّ الْمُعْتَدِي
لِلَّهِ لَوْ أَنَّ الْعُقُوبَةَ لَمْ تُخَفِ لَكَفَى الْحَيَا مِنْ وَجْهِ ذَاكَ السَّيِّدِ⁽³⁾

وبعد هذا البسط لموضوع الدعوة للجهاد، والحض على الوحدة، ننتقل إلى موضوع آخر تناوله الشعراء في رثاء المدن .

2— تشخيص أسباب السقوط والانهيار :

تعددت الأسباب، وتباينت الدوافع التي أسهمت في أفول المدن الأندلسية، وذلك من شاعر لآخر، وكان للشعراء الغرناطين إسهام في تشخيص هذه الأسباب، وإبراز تلك الدوافع، والحض على تلاشيها وتجاوزها، غير أن صقيع التربة كان أعنف من أن تقاومه نبتة ضعيفة، فضاعت صيحات الشعراء سدى، وراحت أطراف الخارطة الأندلسية تُطوى شيئاً فشيئاً، ومن تلك الأسباب: الفتنة العمياء التي شقيت بها الأندلس بعد أفول نجم دولة الموحدين، فتفرق المسلمون، وتخاذلوا فيما بينهم، وتقاعدوا عن الجهاد، وركنوا إلى الراحة والانغماس في الشهوات، وقد ألمح الشاعر ابن عبيدس في قصيدته الرثائية السابقة إلى ذلك حيث يقول: {الوافر}

وَلُطْفًا بِالْجَزِيرَةِ يَا إِلَهِي فَمَا إِنْ فِي مَضْرَبَتِهَا مَزِيدُ
فَكَمْ مِنْ فَتْنَةٍ عَمِيَاءَ فِيهَا شَقِيَتْ بِهَا وَمَا يَشْقَى السَّعِيدُ⁽¹⁾

(1) — المقرئ، نفح الطيب، ج6، ص234 .

(2) — ابن خلدون، العبر، ج7، ص413 .

(3) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

ثمة سبب آخر ذكره الشاعر في قصيدته السابقة أسهم في الإسراع بسقوط المدن الأندلسية، وهو دور اليهود وخذاعهم للناس بأمر الصلح مع العدو.. فقد كان اليهود يستغلون حاجة الناس المنكوبين، ويخدعونهم بشتى الأساليب⁽²⁾.

يقول ابن عبيدس مشيراً إلى هذا الدور في أثناء رثائه للمدن والحصون الواقعة في قبضة النصارى : {الوافر}

وَمَا قِيحَاطَةٌ تَرَكْتُ شِكَاةً وَيَشْكُوهَا مُهَنْدٌ مَنْ يَسُودُ
وَشَوْذُرٌ ثُمَّ مَرَّتْشُ لَوْ تَرَاهَا وَنَارُ الْكُفْرِ يُضْرِمُهَا الْيَهُودُ
تَرَاهُمْ يَخْدَعُونَ النَّاسَ صُلْحًا وَأَمْرُ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ جُحُودُ
فَلَا مَالٌ يَخْدَعْتَهُمْ تَبَقَى وَلَا نَاسٌ، وَلَا نَظْرٌ سَئِيدٌ⁽³⁾

ويقول أيضاً : {الوافر}

وَكَمْ مِنْ نَفْحَةٍ لَللَّهِ تَسْرِي فَلَوْلَا اللَّطْفُ مَا بَقِيَ الْوَجُودُ
فَمَتَّعْنَا بِنَصْرِ مِنْكَ يَثْرَى فَلَوْلَا الْقَطْرُ أَهْلَكْنَا الْيَهُودُ⁽⁴⁾

ولم يكن هذا الدور لليهود أمراً جديداً ، "فكل تاريخ الأندلس، وكل الوقائع فيه تؤكد أن تسامح المسلمين مع أهل الذمة في الأندلس كان خطأً تاريخياً فادحاً ، سبباً للأندلس من الكوارث والخطوب ما كانت تسلم منه، لو لم يلقَ المسيحيون واليهود هذه السهولة"⁽⁵⁾.

وقد وجد هؤلاء اليهود فرصة سانحة أمامهم للإسراع في تهوي المدن الإسلامية وخروج الإسلام منها ، سيراً على ما عُرفوا به من نفاق وخبث ، يقول عبدالواحد المراكشي : "ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي... منذ قام أمر المصامدة....، وإنما اليهود عندنا يُظهرون الإسلام ويُصلّون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن؛ جارينَ على مِلَّتِنَا

(1) — عبدالقادر زمامة ، "نص أندلسي لم يُنشر" ، ص292 .

(2) — المرجع السابق ، والموضع نفسه .

(3) — لمرجع نفسه ، والموضع نفسه

(4) — المرجع نفسه ، والموضع نفسه.

(5) — عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص52 .

وَسُتِّبْنَا وَاللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ، وَتَحْوِيهِ بِيُوتُهُمْ. " (1).

وبما أن معظم شعراء رثاء المدن كانوا من الفقهاء والزهاد والمتصوفين ، فإن الأقرب إلى أذهانهم في أثناء تشخيصهم أسباب الهزيمة وسقوط المدن، هو ردها إلى عقاب الله سبحانه وتعالى ، والابتعاد عن التمسك بمبادئ الدين الحنيف ؛ يقول الدكتور الطاهر أحمد مكِّي : "وأقرب شيء إلى تصور الفقهاء هو رد النكبات إلى عصيان البشر، وعقاب الله ... " (2).

وقد أوجز مالك بن المرحل أسباب السقوط في بيت واحد ، بعد أن استعرض مظاهر انحلال المجتمع الأندلسي ، وعدم تمسكه بمظاهر الإسلام ، وفقدان الوازع الديني بالابتعاد عن اتباع المثل الأعلى والافتداء برسول الله — صلى الله عليه وسلم — (3) ، يقول مخاطباً الأندلسيين : {الكامل}

كَيْفَ الْهُدَى لَهُمْ ؟ وَمَنْ لَا يَقْتَدِي بِنَبِيِّهِ وَإِمَامِهِ لَمْ يَهْتَدِ!! (4)

ثمة سبب آخر أسهم في دنو انهيار الأندلس ، تمثل في التراخي الذي انتاب البعض ، والفتور الذي فت عضدهم ، وقد امتد هذا التراخي ليشمل كل القوى الإسلامية داخل الأندلس وخارجها ، فأبو الطيب الرندي في مرثيته الخالدة يوجه حديثه للمسلمين جميعاً ، وقد نعموا بحياة رغدة متسائلاً في إنكار لموقفهم السلبي حيال ما يحدث في الأندلس ، ألم تصلكم أنباء ما حل بها وبأهلها من محن أصبحت حديث الرائح والغادي؟! يقول : {البيسط}

يَا رَاكِبِينَ عَتَاقَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عَقْبَانُ
وَحَامِلِينَ سَيُوفَ الْإِهْنَدِ مُرْهَفَةً كَأَنَّهَا فِي ظَلَامِ النَّقْعِ نِيرَانُ
وَرَاتِعِينَ وَرَاءَ الْبَحْرِ فِي دَعَاةٍ لَهُمْ بِأَوْطَانِهِمْ عَزٌّ وَسُلْطَانُ
أَعْنَدَكُمْ نَبَأًا مِنْ أَهْلِ أَنْدَلُسٍ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ الْقَوْمِ رُكْبَانُ ؟

(1) — عبدالواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح :صلاح الدين الهواري ، ط1 ، بيروت ، المكتبة العصرية 1426 هـ — 2006 ، ص224 .

(2) — الطاهر أحمد مكِّي ، ملحمة السيد ، ط1 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1970 ، ص169 .

(3) — ينظر : عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص446 — 447 .

(4) — ابن القاضي ، درة الحجال ، ص:302 .

كَمْ يَسْتَعِيثُ بِنَا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ قَتَلَى وَ أَسْرَى فَمَا يَهْتَزُّ إِنْسَانٌ⁽¹⁾

3 — تداعيات السقوط وآثاره على الدين والإنسان :

أ — أثره على الدين :

لم يكن الصراع الدائر في الأندلس بين النصارى والمسلمين صراعاً تذكي جذوته دواع اقتصادية أو عسكرية ، بل كان حرباً صليبية على كل ما له علاقة بالدين الإسلامي والمسلمين ورموزهم ومعالمهم ، فقد كان الصليبيون النصارى يسارعون كلما سقطت مدينة أمام جحافلهم ، إلى تحويل المسجد إلى كنيسة ، وإبدال صوت الأذان برنين ناقوس لا يعبر عن معنى ، ولا ينقل رسالة ، و كان جامع بلنسية الكبير من المساجد الأندلسية التي بدلت صورته أكثر من مرة ، نتيجة احتلاله ثم استعادته ثم احتلاله مرة ثانية وثالثة ، فقد حوله السيّد الكمييدور إلى كنيسة ، ثم رده المسلمون جامعاً ، ثم أعاده رذمير كنيسة ، ثم أعيد جامعاً ، ثم عند خروج المسلمين نهائياً من بلنسية أقيم على أنقاضه كاتدرائية⁽²⁾ ، وأضحى هذا السلوك أسلوباً وتقليداً متبعاً لدى النصارى عند احتلالهم أية مدينة أندلسية ، وقد سلط الشعراء الغرناطيون الضوء على هذا الملمح ، من ذلك قول أبي عمرو ابن المرابط: {الكامل}

وَاللَّهُ فِي أَقْطَارِهَا لَمْ يُعْبَدِ !؟	أَتَعَزُّ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ مَدَائِنُ ؟
بِمُتْلِثِينَ سَطَوْا بِكُلِّ مُوَحِّدِ !؟	وَتَذَلُّ أَرْضُ الْمُسْلِمِينَ وَتُبْتَلَى
فَاهْلَكَ عَلَيْهِ أَسَى فَلَ تَتَجَلَّدِ	كَمْ جَامِعٍ فِيهَا أُعِيدَ كَنِيسَةً
وَالْحَمْرُ وَالْخَنْزِيرُ وَسَطَ الْمَسْجِدِ	الْقِسُّ وَالنَّاقُوسُ فَوْقَ مَنَارِهِ
مِنْ قَانَتَيْنِ وَرَاكِعِينَ وَسُجَّدِ	أَسْفًا عَلَيْهَا أَفْقَرَتْ صَلَوَاتُهَا
مُسْتَكْبِرٍ مُذْ كَانَ لَمْ يَتَشَهَّدِ ⁽³⁾	وَتَعَوَّضَتْ مِنْهُمْ بِكُلِّ مُعَانِدِ

أما الرندي فقد وقف في مرثيته النونية طويلاً عند هذا الملمح ، حين راح يذكر أن حادث

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 6 ، ص 233 ، 234 .

(2) — ينظر : محمد عبدالله عنان ، الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال ، ج 8 ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ،

2001 ، ص 95 ، وكذلك ص 9 — 10 .

(3) — ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص 410 ، 411 .

انقيار الأندلس وما أصاب المسلمين من ذل وهوان ليس له ما يعادله في أحداث الإسلام ، ولا يوجد ما يسلي المسلمين عنه ، وأنه يتأثر له كل شيء له علاقة بالإسلام، حتى إن جبل أحدٍ بالمدينة المنورة يتأثر له ، فقد كان الحادث جلاً عندما أزيح الإسلام عن الأندلس، ودافعته القوى الصليبية عن مدنه وأقطاره، فحلا منه جل الجزيرة ، بعد أن كان يظلمها بظلمه، وتخفق رايته فوق أقطارها⁽¹⁾؛ وذلك في قوله : {البيسط}

وَلِلْحَوَادِثِ سُلوَانٌ يُسَهِّلُهَا وَمَا لِمَا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ سُلوَانٌ
دَهَى الْجَزِيرَةَ أَمْرٌ لَا عَزَاءَ لَهُ هَوَى لَهُ أَحَدٌ ، وَأَنْهَدَ نَهْلَانُ
أَصَابَهَا الْعَيْنُ فِي الْإِسْلَامِ فَارْتَزَّتْ حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارُ وَبُلْدَانُ⁽²⁾

ويصور الرندي الإسلام باكياً متأسفاً على فراق الأندلس ؛لما بينه وبينها من رابط المحبة والمودة والعاطفة القوية ، متأثراً لما حل بالمساجد التي حوّلت إلى كنائس تدق فيها النواقيس وتعلق عليها الصليبان ، وحتى المناير هي الأخرى تبكي — برغم جمودها — على هجرة المسلمين من تلك البلدان ، يقول : {البيسط}

تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبِيضَاءُ مِنْ أَسْفٍ كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الْإِلْفِ هَيْمَانُ
عَلَى دِيَارٍ مِنَ الْإِسْلَامِ خَالِيَةٍ قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكَفْرِ عُمْرَانُ
حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ
حَتَّى الْمَحَارِبُ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْتِي وَهِيَ عِيدَانُ⁽³⁾

وصور ابن المرحل في قصيدته الرثائية العلاقة الوثيقة بين المشرق والغرب الإسلامي ، حتى إن الأماكن المقدسة التي لها أثر في تاريخ الإسلام بكت متأثرة لما حل بالإسلام والدين الحنيف في الأندلس ؛ يقول : {الرجز}

قَرطِبَةُ هِيَ الَّتِي تَبْكِي لَهَا مَكَّةُ حُرْنًا ، وَالصَّفَا وَزَمَزَمُ
وَحِمَصٌ وَهِيَ أَخْتُ بَعْدَادَ وَمَا أَيَامُهَا إِلَّا الصَّبَا وَالْحَلْمُ⁽⁴⁾

(1) — ينظر : عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص 478 .

(2) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 6 ، ص 233 .

(3) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(4) — علي ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية ، ص 99 .

وقد كشف ابن المرحل أيضا عن السبب الذي يدفع المسلم إلى الجهاد في سبيل الله، وهو يتمثل في اعتقاد النصارى الفاسد وادعائهم الكاذب على الله جل جلاله باسم رسوله عيسى عليه السلام، وأمه العذراء، وهما بريتان مما يدعون؛ وذلك في قوله: {الرجز

مَا هَمُّهُ إِلَّا قِتَالُ أُمَّةٍ يُكْبِرُ عَيْسَى قَوْلَهُمْ وَمَرِيْمُ
تُشْرِكُ بِاللَّهِ وَتَدْعُو مَعَهُ خَلَقًا يَصِحُّ جِسْمُهُ وَيَسْقُمُ
وَتَدْعِي أَنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَابْنًا وَلَا صَاحِبَةٌ وَلَا ابْنٌ⁽¹⁾

فالشاعر يصور في هذه الأبيات حقيقة الصراع، ويبرزه في شكل عراك عقيدي بين المسلمين والنصارى، وهو يبرر قتال الصليبيين ومحاربتهم؛ وذلك لأن عداوة النصارى للمسلمين هي في حقيقتها نابعة من أساس ديني عقدي فاسد، مترسخ في أذهان النصارى، يدعو إلى عدم التصديق بعقيدة المسلمين، وما جاء به القرآن الكريم، واعتبارها كفراً وإلحاداً⁽²⁾.

ب — أثره على الإنسان : " كان من موضوعات شعر رثاء المدن في الأندلس الوقوف عند نماذج إنسانية تقشعر لها الأبدان لما عانتها من التشريد والقهر ، وتنفطر لها الأفئدة لما قاسته من مآسٍ وويلات"⁽³⁾.

فالرندي يسلط الضوء في قصيدته الرثائية على إبراز صورتين متناقضتين عاشهما الإنسان الأندلسي، الصورة الأولى عندما كان قبل الاحتلال الصليبي في عزة وكرامة، يظله وطنه، ويحفه بالهناء، وأما الصورة الأخرى فهي عندما صار الإنسان الأندلسي بعد

الاحتلال طريداً شريداً مهاناً، لا وطن يستظل بظله ، يقول: {البيسط}

يَا مَنْ لِدَلَّةِ قَوْمٍ بَعْدَ عِزِّهِمْ أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرًا وَطُغْيَانًا
بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ وَ الْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ تِيَابِ الدُّلِّ أَلْوَانُ

(1) — المصدر السابق ، ص 100 .

(2) — ينظر : عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص : 480 (بتصرف).

(3) — المرجع السابق، ص: 453 .

وَلَوْ رَأَيْتَ بُكَاہُمْ عِنْدَ بَیْعِهِمْ لَهَالِكَ الْأَمْرُ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ⁽¹⁾

ومن النماذج الإنسانية التي وقف عندها الشعراء الغرناطيون نموذج النسوة اللاتي عانين من الاستباحة والأسر والإذلال والتعذيب ، ونموذج الطفل الذين تركوا صرعى يتخبطون في دمائهم ، والرُّضَع الذين تركوا لاحول لهم ولا قوة ، مهملين بعد سببي أمهاتهم ، و نموذج الشيوخ الذين بلغوا من الكبر عتياً، فلم يحترم العدو لهم وقاراً ولم يرع فيهم شيخوخةً أو عجزاً⁽²⁾.

وقد صور الرندي معاناة المرأة الأندلسية التي تُسبى ويفرَّق بينها وبين رضيعها، وصور أيضاً المرأة العذراء التي كان حياؤها خدراً لها، ففرض عليها أن تبدو سافرة الوجه تساق مكرهة لارتكاب المكروه ، يقول : {البيسط}

يَا رَبِّ أُمَّ وَطِفْلٍ حَيْلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ
وَطَفْلَةٍ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّهَا هِيَ يَأْقُوتُ وَمَرْجَانُ
يَقُودُهَا الْعَلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً وَالْعَيْنُ بَاكِيَةٌ وَالْقَلْبُ حَيْرَانُ⁽³⁾

كذلك صور أبو عمرو بن المرابط معاناة بعض النماذج الإنسانية من ويلات الحرب، وما آلت إليه حالها من ذل وهوان وتشريد، وظلم، وأكد الشاعر على وجوب إنقاذها من قبل المسلمين وجوباً دينياً يقول : {الكامل}

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ عِنْدَهُمْ وَأَسِيرَةٍ فَكِلَاهُمَا يَبْغِي الْفِدَاءَ فَمَا فِدِي
كَمْ مِنْ عَقِيلَةٍ مَعْشَرٍ مَعْقُولَةٍ فِيهِمْ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي مَلْحَدِ
كَمْ مِنْ وُلْدٍ بَيْنَهُمْ قَدْ وَدَّ مَنْ وَلَدَاهُ وَدًّا أَنَّهُ لَمْ يُوَلَّدِ⁽⁴⁾

فالرجال والنساء أسرى يبحثون عن طريق للخلاص ، فما يجدون إليها سبيلاً ، والأسيرات يتمنين لو كن مَيِّتَاتٍ ، ولا يشهدن هذه المواقف من الذل والمعاناة ، والآباء

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 6 ، ص: 234 .

(2) — ينظر : عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص: 453 بتصرف .

(3) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 6 ، ص: 234 .

(4) — ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص 411 .

أمام تعذيب أبنائهم ، وعذابهم هم أيضاً يتمنون من إشفاقهم عليهم أنهم لم يُولدوا...⁽¹⁾.
وهذه المعاناة من صنوف العذاب والتشريد تضج لها ملائكة السماء، وتبكي رحمة
وشفقة لحال الأندلسيين، يقول أبو عمرو ابن المرابط بعد أبياته السالفة التي صور فيها
معاناة الأندلسيين من هذا الغزو الصليبي : {الكامل}

صَجَّتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِحَالِهِمْ ورثى لَهُمْ مَنْ قَلْبُهُ كَالْجَلْمَدِ⁽²⁾

وأخيراً ، يمكن القول إنَّ شعر رثاء المدن تضمن العديد من الموضوعات ، وارتبط بعدة
معانٍ ارتباطاً وثيقاً ، كالحضّ على الجهاد ، والدعوة إلى الوحدة ، وتصوير تداعيات
الحرب ، كذلك جسّد مواقف إنسانية ودينية وقومية للشعراء الغرناطيين ، وشكّل هذا
الشعر ظاهرة بارزة من ظواهر الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري بخاصة ، وقد عاد
هذا النمط الشعري إلى الظهور للواجهة من جديد إثر بداية النهاية للأندلس في آخر عصر
بنو الأحمر ، وبعد سقوطها نهائياً في أيدي الأعداء ، وهو بذلك يشكّل حلقةً شعرية دائرة
على عهد بني نصر، بما ابتدأ وبها انتهى ! .

(1) — ينظر : عبدالله الزيات ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص460 (بتصرف) .

(2) — ابن خلدون ، العبر ، ج7 ، ص412.

المبحث الرابع : الحنين

المبحث الرابع

شعر الحنين

يعدّ شعر الحنين من أبرز الموضوعات التي برزت على خارطة الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري ، وهو باب واسع وقديم في الشعر العربي ، وقد تميز حنين الغرناطيين بصدق العاطفة والإحساس المرهف ، فهم يصدرون في حنينهم عن نفوس معذبة تجرعت مرارة البعد وآلام الغربة عن الوطن والأهل⁽¹⁾.

كذلك تميّز حنينهم بأنه يكشف عن تعلق الغرناطي بوطنه وتمسكه به ، فالوطن "أياً كان هذا التداخل بين مكوناته من أهل ودمن ومعاهد ، فإن النصوص الوطنية الباقية دلت على تعلق الأندلسي ببلاده بشكل لا يمكن تجاهله..."⁽²⁾.

لقد عاش الشعراء الغرناطيون تجربة الغربة والبعد عن الوطن في شتى البقاع ، فمنهم من ألقى عصا التسيار في المغرب كأبي الطيب الرندي ، ومالك بن المرحل ، ومنهم من شد الرحال إلى المشرق كابن سعيد الغرناطي ، وأبي حيان النفزي ، وأبي عبدالله بن الحكيم ، وتعددت الأسباب والدوافع حول اغتراب هؤلاء الشعراء ، ما بين طلب للحياة الكريمة الآمنة أو المكانة المرموقة لاسيما بعد سوء أحوال الأندلس السياسية منذ مطلع القرن السابع الهجري ، وما بين طلب للعلم وأداء فريضة الحج . وكُتِبَ لبعض الشعراء العودة إلى الوطن كأبي الطيب الرندي وأبي عبدالله بن الحكيم ، وظل بعضهم الآخر أسير غربته كابن سعيد ، وأبي حيان ، في حين ظل مالك بن المرحل ينتقل بين بلاد العدوتين حتى سنة 674هـ التي سجلت آخر انفصالاته عن الأندلس⁽³⁾.

وقد عبر هؤلاء الشعراء جميعاً عن هذه التجربة في العديد من القصائد والمقطوعات

(1) — يُنظر : فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص:156 بتصرف .

(2) — عبدالحميد الهرامة ، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن ، ج 1 ، ص: 413 .

(3) — ينظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص: 306 .

التي صورت ما يضطرم في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس ، ويمكن الوقوف على أهم المحاور والموضوعات التي تناولها شعر الحنين والغربة على النحو الآتي :

أولاً — الحنين إلى (الأندلس) الوطن الأم :

يمثل الحنين إلى الوطن الأندلسي جانباً مهماً في نتاج الشعراء الغرناطيين في هذه الفترة ، وقد برز بشكل واضح لدى الشعراء الذين رحلوا إلى جهات متعددة بعيدة عن الأندلس ؛ ويعد ابن سعيد الغرناطي أحد الشعراء الغرناطيين الذين أفسحوا للحنين إلى الوطن مجالاً واسعاً في شعرهم ، فقصائده في الغربة تكاد تكون ديواناً كاملاً من الشعر في هذا الموضوع ، فقد انتقل إلى المشرق ، وعندما حل مصر شعر بالغربة واختلج الحنين إلى وطنه في صدره شاعراً بفقدانه ، وقد أقرّ هو نفسه بمرارة هذه التجربة حين قال : "ولما قدمتُ مصرَ والقاهرة أدركتني فيهما وحشة ، وآثاراً لي تذكرُ ما كنت أعهد بجزيرة الأندلس من المواضع المبهجة التي قطعت بها العيش غصاً خصيباً ، وصحبت بها الزمان غلاماً ولبست الشباب برداً قشيباً ..."⁽¹⁾ . كذلك دلّ شعره على حنين صادق ومعبر كما يبدو في قوله {الرملة}:

هَذِهِ مِصْرٌ فَأَيْنَ الْمَغْرِبُ ؟ مُذْ نَأَى عَنِّي فَعَيْنِي تَسْكُبُ
فَارَقْتُهُ النَّفْسُ جَهْلًا إِنَّمَا يُعْرِفُ الشَّيْءُ إِذَا مَا يَذْهَبُ⁽²⁾

وكلما تذكر الشاعر أيامه التي قضاها في ربوع وطنه الأندلسي اشتد به الحنين إليه ، فتراءى له صورة ذلك الوطن وينتابه الشعور بالندم الشديد وهو يقاسي مرارة الغربة والحرمان فيقول : {الرملة}

هَذِهِ حَالِي وَأَمَّا حَالَتِي فِي ذَرَا مِصْرٍ فَفِكْرٌ مُتَعَبٌ

.....

هَآ أَنَا فِيهَا فَرِيدٌ مُهْمَلٌ وَكَلَامِي وَلسَانِي مُعْرَبٌ⁽³⁾

ويصور الآلام والمتاعب التي واجهته في أثناء اغترابه في مصر ، فيضيق ذرعاً بصفة

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 3 ، ص: 48 .

(2) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

(3) — المصدر نفسه ، ج 3 ، ص: 50 .

(المغربي) التي تقترن بالجفوة والخشونة لدى بعض الناس مما جعله يحس بغربة المكان ووحشته ، ولم يجد تلك المكانة التي حظي بها في وطنه الأندلسي ، فصار غريباً يمزقه الحنين إلى الوطن يقول : {الرملى}

وَأُنَادَى مَعْرَبِيًّا لِيَتَنِي
لَمْ أَكُنْ لِلْعَرَبِ يَوْمًا أُنْسَبُ
نَسَبٌ يُشْرِكُ فِيهِ حَامِلٌ
وَنَبِيَّهُ ، أَيْنَ مِنْهُ الْمَهْرَبُ
أَتْرَانِي لَيْسَ لِي جَدُّ لَهُ
شُهْرَةٌ أَوْ لَيْسَ يُدْرَى لِي أَبٌ ؟ (1)

ويدافع ابن سعيد عن صفة المغربي التي وصف بها في موطن هجرته في مصر شاكياً امتناع أحد نظار الدواوين عن مقابلته واحتجابه عنه ؛ فيقول : {المحتث}

يَاذَا الْحِجَابَ تَرَفَّقُ
فَفِي حَيَاتِي حِجَابٌ
إِنْ سُدَّ بَابُكَ عَنِّي
فَكَمِ إِلَى اللَّهِ بَابٌ
وإنْ أَكُنْ مَعْرَبِيًّا
فَلِي مَعَانٍ غَرَابٌ (2)

وتزداد غربة الإنسان عن وطنه ، ويشتد الحنين إليه ، كلما رأى في غربته وجهاً غريباً لا يعرفه ، فابن سعيد نراه يشكو من أنه أصبح يعترض وجوه الناس فلا يعرف منها أحداً ، فيبدو وحيداً في عالم مليء بالبشر ، فتترأى صورة الوطن أمام ناظريه ويدرك ما تحمله تجربة الاغتراب من مرارة وألم ، فيقول : {الكامل}

أَصْبَحْتُ أَعْتَرِضُ الْوُجُوهَ وَلَا أَرَى
مَا بَيْنَهَا وَجَهًا لِمَنْ أُدْرِيه
عَوْدِي عَلَى بَدْنِي ضَالًّا بَيْنَهُمْ
حَتَّى كَأَنِّي مِنْ بَقَايَا النَّيِّه
وَيُحَ الْعَرِيبِ تَوَحَّشَتْ أَلْحَاطُهُ
فِي عَالَمٍ لَيْسُوا لَهُ بِشَبِيهِه (3)

إن الإحساس بفشل تجربة الغربة ومن ثمَّ الندم على فراق الوطن والتفكير في العودة إليه يكاد يكون إحساساً عاماً لدى جلِّ الأندلسيين الذين هاجروا في هذه الحقبة (4) ، وابن سعيد الغرناطي هو أحد الشعراء الذين أدركوا أن غربتهم لم تثمر شيئاً ، وأنَّ الجري وراء

(1) — المقري ، نفح الطيب ، ج3 ، ص: 50.

(2) — ابن سعيد ، اختصار القدر المعلى ، ص: 4 .

(3) — المقري ، نفح الطيب ، ج3 ، ص: 29 .

(4) — ينظر : ابن سعيد ، اختصار القدر المعلى ، ص: 164.

المجد والشهرة كان كالبرق الكاذب أو السراب الخادع ، ويقول مفكراً في العودة إلى وطنه والرجوع عن هذه التجربة المريرة : {الرملة}

سَوِّفَ أَثْنِي رَاجِعاً لَا غَرَّيْني — بَعْدَ مَا جَرَّبْتُ — بَرِّقْ خُلْبٌ⁽¹⁾

ويقول في قصيدة أخرى معبراً عن هذا المعنى: {الكامل}

إِنَّ عَادَ لي وَطَنِي اعْتَرَفْتُ بِحَقِّهِ — إِنَّ التَّغْرِبَ ضَاعَ عَمْرِي فِيهِ⁽²⁾

وبالرغم من أن ابن سعيد يتظاهر في بعض الأحيان بالصبر والتجلد وعدم الاكتراث لقسوة الغربة والمعاناة التي يواجهها، إلا أن هذا المنحى يكشف عن عمق حنينه إلى الوطن؛

فهو يقول مظهراً أن عزة المرء لا تكون إلا في وطنه، وبين أهله وذويه: {الطويل}

فَإِنْ كُنْتُ فِي أَرْضِ التَّغْرِبِ غَارِباً — فَسَوِّفَ تَرَانِي طَالِعاً فَوْقَ غَارِبِ
فَصَمَّصَامُ عَمَّرُو حِينَ فَارَقَ كَفَّهُ — رَمَوْهُ وَلَا ذَنْبٌ لِعَجْزِ الْمُضَارِبِ
وَمَا عِزَّةُ الضَّرْغَامِ إِلَّا عَرِينُهُ — وَمَنْ مَكَّةَ سَادَتْ لَوْيَ بْنِ غَالِبِ⁽³⁾

هناك أمر أود أن أشير إليه وأنا أتحدث عن تجربة الاغتراب لدى ابن سعيد ألا وهو أن موطن الهجرة ومدتها يشكلان عاملين مهمين في نتاج الشاعر المهاجر سواء من حيث الكم أو الكيف؛ فابن سعيد مثلاً كانت هجرته إلى البلاد الشرقية، فكان لهذا دور في تعميق الغربة في نفس الشاعر؛ فتلك البلاد تعد بعيدة جداً عن الأندلس قياساً بالعدوة المغربية، يبدو أن هذا البعد الجغرافي وما يرتبط به من بعد حضاري وبيئي كان له أثره في عدم تكيف معظم المهاجرين الأندلسيين؛ خاصة الذين رحلوا إلى المشرق وفي كتاب نفتح الطيب للمقري إشارة إلى هذا الأمر نراها في تقسيم المهاجرين الأندلسيين إلى قسمين: مهاجرين لم يتجاوزوا في هجرتهم العدوة المغربية ومهاجرين تجاوزوا في هجرتهم العدوة المغربية إلى البلاد الشرقية، وفي هذا التقسيم إشارة إلى التباين بين مواطن الهجرة، وما

(1) — المقري ، نفتح الطيب ، ج3 ، ص:51.

(2) — المصدر السابق، ج3 ، ص: 29 .

(3) — المصدر نفسه ، ج3 ، ص:34 . غارب الأول اسم الفاعل من قولهم "غربت الشمس" وغارب الثاني اسم

لمقدم سنام البعير وما يليه ويراد به ذروة الشيء ينظر محمد بن مكرم ابن منظور (ت 711 هـ) : لسان

العرب ج 1 ، ط3 ، بيروت ، دار صادر ، 1994 ، ص:644. و الصمصام :اسم علم لسيف عمر بن معد

يكرب الزبيدي

تركة من آثار كثيرة على المهاجرين .

يستطيع الدارس أن يلاحظ من خلال الشعر الذي نظمه ابن سعيد في غربته العديد من الآثار التي تركتها تجربة الغربة في البلاد الشرقية ومن هذه الآثار الاعتراف بعدم التكيف مع ذلك المجتمع الجديد الذي هاجر إليه ،ومن ثم كثرة الشكوى والندم والتحسر على فراق الوطن، ومن جملة هذه الآثار كثرة نتاجه الشعري الذي يعبر عن هذه التجربة؛ يقول المقرئ: "إنه — أي ابن سعيد — لما اتصل بمصر ودخلها اشتاق إلى تلك المواطن الأندلسية الرائقة ، ووصفها بالقصائد والمقطوعات الفائقة " (1).

ومن الشعراء الغرناطين الذين عاشوا تجربة الغربة في البلاد الشرقية أبو حيان الغرناطي الذي بارح الأندلس سنة 687 هـ مهاجراً إلى المشرق وقد عبّر عن تجربة اغترابه وحنينه إلى وطنه الأندلسي من خلال ما وجدته في غربته من إهمال لعلوم اللغة لاسيما علم النحو الذي برع فيه كثيراً، فهو يصور حاله في دار هجرته في مصر مهملاً لا أحد يقدره من ذوي الشأن مع جلالته قدره وعلو كعبه في هذا العلم؛ يقول: {الطويل}

أَقَمْنَا بِمِصْرَ عَشْرِينَ حِجَّةً يَشَاهِدُنَا ذُو أَمْرِهِمْ وَنُشَاهِدُهُ
فَلَمَّا نَلَّ مِنْهُمْ مَدَى الدَّهْرِ طَائِلًا وَلَمَّا نَجَدْنَا فِيهِمْ صَدِيقًا نُوَادِدُهُ (2)

ويصور أبو حيان في شعره تعلقه بوطنه وشدة ارتباطه به؛ فيقول: {الطويل}

بِغَرْنَاطَةَ رُوْحِي وَ فِي مِصْرَ جُثِّي تُرَى هَلْ يُثْنِي الْفَرْدَ مَنْ هُوَ فَارِدُهُ (3)

وإذا كان ابن سعيد الغرناطي وأبو حيان الغرناطي حطت بهما رحال الغربة في بلاد المشرق، فإن من الشعراء الغرناطين من لم تتجاوز حدود غربتهم العدو المغربية كأبي الطيب الرندي الذي — بحسب ما عرفت عنه من معلومات — لم يتجاوز في غربته أرض العدو المغربية؛ فقد عاش هناك تجربة الغربة وتجرب مرارتها ، فهاهو يحن وهو بمدينة مراكش إلى وطنه ، فيقول في قصيدة مقسما .معالم الإسلام المقدسة راجياً إياها أن تبلغ شوقه وسلامه إلى وطنه ويستخدم أسلوب القسم للدلالة على شدة حنينه إلى وطنه

(1) — المقرئ ، نفح الطيب، ج2 ، ص:197.

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص:55 .

(3) — المصدر السابق ، ج3 ، ص:51 .

{الكامل}:

بِحَيَاةٍ مَا ضَمَّتْ عُرَى الْأَزْرَارِ بِذِمَامٍ مَا فِي الْحَبِّ مِنْ أَسْرَارِ
بِالْحِجْرِ بِالْحَجَرِ الْمُكْرَمِ بِالصَّفَا بِالْبَيْتِ بِالْأَرْكَانِ بِالْأَسْتَارِ
بِاللَّهِ إِلَّا مَا قَضَيْتَ لِبَانَةٍ تَقْضِي بِهَا وَطَرًا مِنَ الْأَوْطَارِ
بَلَّغٌ لِأَنْدُلُسَ السَّلَامَ وَصِفَ لَهَا مَا بِي مِنْ شَوْقٍ وَبُعْدٍ مَزَارِ⁽¹⁾

ويتحدث الرندي في قصيدة أخرى عن معاناته ،ومرارة بعده عن وطنه وما ينتابه من شعور راصداً الملمح الذي عبر عنه ابن سعيد سابقاً ، أعني الشعور بالغربة وتذكر قسوتها

كلما قابله وجه غريب في موطن هجرته ؛ يقول {الوافر}:

غَرِيبٌ كُلُّ مَا يَلْقَى غَرِيبٌ فَلَا وَطَنٌ لَدَيْهِ وَلَا حَبِيبٌ
تَذَكَّرَ أَصْلَهُ فَبَكَى اشْتِيَاقًا وليس غريباً أَنْ يَبْكِيَ غَرِيبٌ⁽²⁾

ولا ينسى الرندي أن يذكر مكانة الوطن بالنسبة للأديب ففيه يجد عزته وكرامته ولا يشعر فيه بالضياح ؛ يقول {الوافر}:

أَلَا ذَكَرَ الْإِلَهَ بِكُلِّ خَيْرٍ بَلَادًا لَا يَضِيعُ بِهَا أَدِيبٌ⁽³⁾

ويلمح الرندي إلى فشل تجربة الغربة وندمه على فراق الوطن ، و يقول ناقماً على حظه العاثر متأسفاً على حياته التي قضاها خارج الوطن بحثاً عن الرزق والمال لاعناً الضرورة التي تجر المرء على هجر أرضه فيعيش خارجه ذليلاً مهاناً بعد أن كان حراً كريماً {الوافر}

لَحَى اللَّهُ الضَّرُورَةَ فَهِيَ بَلَوَى تُهَيِّنُ الْحُرَّ وَالْبَلَوَى ضُرُوبُ
رَأَيْتُ الْمَالَ يَسْتُرُ كُلَّ عَيْبٍ وَلَا تَخْفَى مَعَ الْفَقْرِ الْعِيُوبُ
كَأَنَّ الْعَقْلَ لِلدُّنْيَا عَدُوٌّ فَمَا يَقْضِي بِهَا أَرْبَاً أَرِيبُ

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوي ، ص:129 . وهذه القصيدة غير واردة في نسخة دار الكتب المصرية المخطوطة .

(2) — ابن الخطيب، الإحاطة ، ج3 ، ص:370 وفيه "كلما" بدلا من "قلما" والتصحيح ورد لدى أحمد حاجم الربيعي ، فوات الحققين ، دراسة تطبيقية في فوات تحقيق الإحاطة في أخبار غرناطة ، ص:46.

(3) — ابن الخطيب، الإحاطة ، ج3 ، ص:371 .

إِذَا لَمْ يُرْزَقِ الْإِنْسَانُ بَخْتًا فَمَا حَسَنَاتُهُ إِلَّا ذُنُوبٌ⁽¹⁾

وهكذا فالاعتراف بالفشل والندم يظهران في شعر الرندي على استحياء في قالب الحكمة والموعظة، وما ذلك إلا لأنه قريب من حدود بلاده يستطيع أن يعود إليه دون الكثير من العناء الذي يمكن أن يواجهه من كان مهاجرا في البلاد الشرقية وقد جاء حين الرندي إلى الوطن ضمن التعبير عن تجربة جماعية عاناها معظم الأندلسيين في هذه الفترة الذين عاصروا المحنة الأندلسية وعاشوا أحداثها⁽²⁾.

بيد أن نتاجه الذي وصلنا في التعبير عن الحنين إلى وطنه هو قليل جدا قياسا بنتاج ابن سعيد أو أبي حيان الغرناطي؛ وقد يرجع السبب في هذا الأمر إلى ما أشرت إليه فيما مضى؛ وذلك أن مكان الهجرة له آثار كبيرة في تجربة الغربة خاصة بالنسبة للشاعر؛ وذلك من حيث عمق التجربة وتأثيرها في الشعور النفسي لديه، ومن حيث وفرة النتاج الشعري الذي ينظمه تعبيرا عن هذه التجربة.

إن في تجربة الغربة لدى الشاعر المالقي مالك ابن المرحل الذي ظلّ ينتقل بين الأندلس، والمغرب، ثم كانت آخر انفصالاته عن الأندلس سنة 674هـ، ليستقر بالعودة المغربية؛ دليلا آخر على أثر المكان في تجربة الغربة فبالرغم من المدة الطويلة التي قضاها ابن المرحل خارج الأندلس مسقط رأسه إلا أنه لم يصلنا من شعره في التعبير عن هذه التجربة سوى التزر القليل؛ من هذا قوله في وصية تمثلت في أبيات أمر أن تُكْتَبَ على قبره؛ لتظل شاهداً على تجربة اغترابه عن وطنه: {مجزوء الخفيف}

زُرُّ غَرِيباً بِمَغْرَبٍ نَازِحاً مَا لَكَ وَلي
تَرْكُوهُ مُوسِداً بَيْنَ تُرْبٍ وَجَنَدَلٍ
وَلْتَقُلْ عِنْدَ قَبْرِهِ بِلِسَانِ التَّذَلِّلِ
يَرْحَمُ اللهُ عِبْدَهُ مَالِكَ ابْنِ المَرْحَلِ⁽³⁾

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص: 371.

(2) — ينظر: محمد أحمد الدقالي، الحنين في الشعر الأندلسي في القرن السابع الهجري، ط1، الإسكندرية، دار

الوفاء، 2008، ص: 187.

(3) — المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص: 324، وفيه ورد في عجز البيت الأول كلمة (ول) ولعل الصواب ما أثبتته.

فهذه الأبيات تدل على أن الشاعر كان يعاني تجربة الغربة عن وطنه ولكنها لاتصل في عمقها النفسي إلى مستوى قصائد ابن سعيد مثلاً في عمق التعبير عن هذه التجربة فليس في هذه الأبيات الشعور بالندم أو الفشل الذي رأيناه في قصائد ابن سعيد، ولك أن تتوقع معي شعر هذا الشاعر أقصد ابن المرحل فيما إذا لو كانت غربته في البلاد الشرقية مثلاً.

خلاصة القول إن التقارب الجغرافي والثقافي بين بلاد العدوتين الأندلسية والمغربية فضلاً على الأصول العرقية لبعض الشعراء الغرناطيين كابن المرحل الذي يرجع نسبه إلى أصل مصمودي من بر العدو المغربية كل هذه معطيات يجب أن ترعى في دراسة الحنين الغرناطي؛ ذلك لأن هذه المعطيات تشكل عوامل قوية في تعميق حنين الشاعر إلى وطنه، و في كثرة أو قلة نتاجه الشعري.

ثانياً — الحنين إلى الطبيعة الأندلسية :

مما لاشك فيه أن الشعراء الأندلسيين تعلقوا بطبيعة بلادهم وفتنوا بها لما وهبها الله من جمال يفوق الوصف، ويكفي أن نستمع إلى قول شاعر الأندلس الشهير أبي إسحاق ابن خفاجة يصف جمال هذه الطبيعة: {البيسط}

يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ لِلَّهِ دُرُّكُمْ مَاءٌ وَظِلٌّ وَأَنْهَارٌ وَأَشْجَارٌ
مَا جَنَّةُ الْخُلْدِ إِلَّا فِي دِيَارِكُمْ وَلَوْ تَخَيَّرْتُ هَذَا كُنْتُ أَخْتَارُ
لَا تَحْسَبُوا فِي غَدٍ أَنْ تَدْخُلُوا سَقَرًا فَلَيْسَ تَدْخُلُ بَعْدَ الْجَنَّةِ النَّارُ⁽¹⁾

وقد شغلت هذه الطبيعة حيزاً من حنين الغرناطيين في غربتهم وصارت أداةً ومنفذاً يعبرون من خلالها عن شوقهم إلى وطنهم ، ومما عمق حنينهم إلى تلك الطبيعة الجميلة وزاد من شعورهم بالبعد عنها أنهم لم يجدوا لها نظيراً في موطن هجرتهم ، وقد انعكس أثر الشوق إليها من خلال قصائدهم التي حبروها في أثناء غربتهم .⁽²⁾

وأستطيع أن أوكد على أنه لا توجد قصيدة لشاعر غرناطي قيلت في الشوق والحنين

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 2 ، ص: 198 .

(2) — ينظر : محمد أحمد الدقالي ، الحنين في الشعر الأندلسي في القرن السابع الهجري ، ص: 250 بتصرف .

تخلو من ذكر الطبيعة والتغني بجمالها، ويمكن أن أعد شعر ابن سعيد في غربته أصدق شاهد على هذا؛ فهو يحن إلى الأيام التي قضاها في ربوع إشبيلية ويصف تجواله على ضفاف نهرها الكبير ويشيد به ويفضّله على نهر النيل في مصر ولكنه يُظهر ألمه وحزنه على غربته التي أبعدهت عن تلك الظلال الوارفة؛ يقول من قصيدة: {الرملة}

أَيْنَ حِمَصٍ؟ أَيْنَ أَيَّامِي بِهَا؟ بَعْدَهَا لَمْ أَلْقَ شَيْئًا يُعْجِبُ
كَمْ تَقْضَى لِي بِهَا مِنْ لَذَّةٍ حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرِبٌ

ويقول أيضا:

أَيْنَ حُسْنِ النِّيلِ مِنْ نَهْرٍ بِهَا؟ كُلُّ نَعْمَاتٍ لَدَيْهِ تُطْرِبُ⁽¹⁾

ويكشف في قصيدة أخرى عن عمق شعوره بطبيعة بلاده وتعلقه بأثمارها، ويمتزهاها فيقول مخاطباً النيل المصري: {الكامل}

يَا نَيْلَ مِصْرَ أَيْنَ حِمَصُ وَنَهْرُهَا حَيْثُ الْمَنَاطِرُ أَنْجُمٌ تَلْتَأَحُ؟
فِي كُلِّ شَطِّ لِلنَّوَاظِرِ مَسْرَحُ تَدْعُو إِلَيْهِ مَنَازِحُ وَبَطَاحُ
وَإِذَا سَبَّحَتْ فَلَسْتُ أَسْبِحُ خَائِفًا مَا فِيهِ تَيَّارٌ وَلَا تَمْسَاحُ⁽²⁾

ويتكرر في شعره الحنين إلى الأثمار الأندلسية ومنها: نهر حمص إشبيلية_ الذي يُعدُّ مفخرة لكل الأندلسيين كونه من أطول الأثمار الأندلسية وأجملها؛ يقول: {الكامل}

يَا نَهْرَ حِمَصٍ لَا عَدْتِكَ مَسْرَّةٌ مَاءٌ يَسِيلُ لَدَيْكَ أَمْ صَهْبَاءُ؟
كُلُّ النُّفُوسِ تَهَشُّ فَيْكَ كَأَتْمَا جَمَعَتْ عَلَيْكَ شَتَاتَهَا الْأَهْوَاءُ
وَوَدِّي إِلَيْكَ مَعَ الزَّمَانِ مُجَدِّدٌ مَا إِنْ يَحُولُ تُذَكَّرُ وَعَنَاءُ⁽³⁾

ويحن ابن سعيد إلى نهر شنيل، أشهر الأثمار الغرناطية وإلى ما حوله من متزهات، ويتذكر أيام أنسه التي قضاها هناك، فلا يرى في ذكرياته سوى الصور الجميلة؛ يقول: {الطويل}

عَلَى نَهْرِ شَنْيَلٍ وَلِلْقُضْبِ حَوْلَنَا مَنَابِرُ مَا زَالَتْ بِهَا الطَّيْرُ تَخْطُبُ

(1) — المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص: 48.

(2) — المصدر السابق، ج3، ص: 72.

(3) — المصدر نفسه ج2، ص: 211.

وَقَدْ قَرَعَتْ مِنْهُ سَبَائِكَ فِضَّةً خِلَالَ رِيَاضٍ بِالْأَصِيلِ تُذْهَبُ (1)

وقد شغلت المتزهات الأندلسية حيزاً من حنين ابن سعيد، فهو يتذكر أيام أنسه ونعيمه التي قضاها في متزته (شنتبوس) بإشبيلية، وفي متزته (حور مؤمل) بغرناطة ويكي أماً وحنناً على مرور تلك الأيام الجميلة؛ يقول في متزته (شنتبوس) : {الرملة}

وَلَكُمْ فِي شَنْتَبُوسٍ مِنْ مُنَى قَدْ قَضَيْنَاهُ وَلَا مَنْ يَعْتَبُ

حَيْثُ هَاتِيكَ الشَّرَاجِبُ الَّتِي كَمْ بِهَا مِنْ حُسْنِ بَدْرِ مُعْصَبُ

ويقول أيضاً في متزته (حور مؤمل) :

وَإِلَى الْحَوْرِ حَنِينِي دَائِماً وَعَلَى شَنْبِيلَ دَمْعِي صَيَّبُ

حَيْثُ سَلَّ النَّهْرُ عَضْباً وَأَنْتَتْ فَوْقَهُ الْقَضْبُ وَغَنَى الرَّبْرَبُ (2)

ولم يقف ابن سعيد في حنينه إلى الطبيعة الأندلسية عند حد الأثمار أو المتزهات فحسب، بل امتدّ حنينه ليشمل الأودية الأندلسية التي قضى فيها مراتع شبابه، فهذا هو يحن إلى (وادي الطلح) بشرق إشبيلية وهو وادٍ كما يروى "ملتف الأشجار كثير مترّم الأطيّار"⁽³⁾، ويتذكر عهده الذي قضاها فيه مع من يحب وسط طبيعته الساحرة؛ يقول: {السريع}

وَأَذْكُرُ بَوَادِي الطَّلْحِ عَهْدًا لَنَا لِلَّهِ مَا أَحْلَى وَ مَا أَطْيَبَا

بِجَانِبِ العِطْفِ وَقَدْ مَالَتِ الـ أَغْصَانُ وَ الزَهْرُ يُبِثُّ الصَّبَا

وَ الطَّيْرُ مَازَتْ بَيْنَ الْحَانِهَا وَ لِيَسَّ إِلَّا مُعْجَبًا مُطْرَبَا (4)

وعلى هذا النحو أجد أن حنين الشاعر الغرناطي ابن سعيد إلى طبيعة بلاده جاء عبر تذكّر أيام المتع والملاذات، واسترجاع تلك الصور الجميلة للطبيعة الأندلسية التي لم يجد ما يعادها في موطن هجرته وقد سار أبو الطيب الرندي على هذا النهج في حنينه إلى طبيعة بلاده، فالذاكرة تعود به أثناء غربته إلى مدينة (رُنْدَة) فيصف نهرها وطبيعتها الخلابة

(1) — المقرئ، نفع الطيب ج 3، ص: 52.

(2) — المصدر السابق ج 3، ص: 49.

(3) — المصدر نفسه، ج 3، ص: 53.

(4) — المصدر نفسه، والموضع نفسه، ومازت: نَوَعَتْ.

مصوراً مظاهر الجمال فيها ؛ حيث استوت كالمعصم ، ولوى عليها نهرها نصف سوار ،
وحيث المياه الجارية ، والظلال الوارفة ، والحدائق الغناء ، وحيث المتزهات الجميلة التي
قضى في ظلها أيام أنسه ونعيمه ، ولم يبق له من تلك الأيام سوى الحنين إلى الذكريات
التي تراوده من حين إلى آخر ، يقول : {الكامل}

و التاج والديموس واللوؤزارِ	و إذا مررت برؤدة ذات المنى
و لوى عليها النهر نصف سوارِ	حيث استوت تلك المدينة معصماً
ما شئت من ظل وماء جار	وامتد في تلك البطاح أمامها
فيه من الأسماع والأبصار	و بسحجة العلياً لنا متنزه
وجرى النسيم وفاح كل عرار	حيث انتهت في الحسنى كل حديقة
بين الغناء و غنة الأطيّار	والعصن في حرّكاته متحيراً
بين النشيد و نعمة الأوتار	ويكاد قلب الصب يفنى رقة
وكأنها سحر من الأسحار	لله كم بتنا بها من ليلة
حتى غداً خبراً من الأخبار	عيش تلاعبت الخطوب بعهدِه
لم يبق لي منها سوى التذكار ⁽¹⁾	ومعاهد كانت عليّ كريمة

ويقول الرندي متذكراً محاسن طبيعة بلاده متشوقاً إليها : {الوافر}

و ريح هوائها مسك و طيب	بلاد ماؤها عذب زلال
يكاد من الحنين له يدوب ⁽²⁾	بها قلبي الذي قلب المعنى

ويستحضر ابن المرحل طبيعة مدينته (مالقة) "التي كانت تسمى في القدم رية"⁽³⁾ ويتذكر

ما يحدثه الغيث في رياضها وبساتينها ؛ حيث يقول : {الطويل}

تُرش الحشا رشاً (.....)	أمن رية و افتك مسكية الريا
وإن كان ميتاً عاد من حينه حياً ⁽⁴⁾	يليل يبل الروض حين يبله

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوي ، ص: 129 — 130 .

(2) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص: 371 .

(3) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 1 ص: 423 .

(4) — مالك بن المرحل ، الجوالات ، ص: 147 ، وقد جاء بياض في الديوان .

ويدعو الشاعر لبلاده بالسقيا على عادة الشعراء وهذا يكشف عن تعلقه بطبيعة بلاده، وعن حنينه وشوقه الجارفين في أعماقه حتى إنه لا يرى ما يعادل جمالها في بلاد أخرى ، يقول: {الطويل}

سَقَى الْقَطْرُ قَطْرًا لَسْتُ أَرْضَى لِأَرْضِهِ
بَعِيرِ دُمُوعِي أَنْ تَمُرَّ بِهِ سَقِيَا
زُمُرْدَةٌ خَضْرَاءُ حُفَّتْ بِجَوْهَرٍ
فَقُلْ مَبْسَمَ رَثْلٍ وَقُلْ شَفَةَ لَمِيَا
عَلَيْهَا حُلَى رُوحِيَّةٌ لَوْ تَجَسَّدَتْ
فَحَلَّتْ مَحَلَّ الْحَلِيِّ عَطَلَتْ الْحَلِيَا
وَوَشِيَّ إِذَا الرِّكْبُ الْيَمَانُونَ أَقْبَلُوا
عَلَى أَرْضِهِمْ لَمْ يَقْبَلُوا غَيْرَهُ وَشِيَا
فَلَوْ نَافَرْتِ عَدْنَا إِلَيْنَا وَقَالْنَا
لَمَنْ تُثْبِتُونَ الْحَقَّ مُشْكِلَةَ الْفَتِيَا (1)

ويضرب الشاعر داعياً لله برعاية أرض وطنه، متذكراً ليالي أنسه في نيرة حزينة معبرة عن مكانته في نفسه ، حتى إن أحاديث الأوطان إذا ما ذُكرت فإنها تحمل أسي وشجي طالما حاول الشاعر كتمهما ، يقول : {الطويل}

رَعَى اللَّهُ أَرْضًا كُنْتُ أَجْنِي بِهَا الْمُنَى
إِلَى أَنْ جَنَى دَهْرِي فَأَعْدَمَنِي الْجَنِيَا
لِيَالِي لَا أَذْرِي لِأَيِّبَةِ عَلِيَّةٍ
تَطُولُ الدُّجَى وَالشَّمْسُ لَمْ تَنْزِلِ الْجَدِيَا
مُؤَاتَاةٌ أَحْبَابٌ مُعَاطَاةٌ أَكْوَسٍ
مُنَاغَاةٌ أَوْتَارٌ مُسَاعِدَةٌ الْأَشْيَا
أَحَادِيثُ أَوْطَانٍ إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا
نَشَرْتُ أَسَى قَدْ كُنْتُ أَحْكَمُهُ طِيَا (2)

وهكذا نرى أن الطبيعة حاضرة بقوة في الحنين الغرناطي ، ويمكن القول إن الحنين إلى الطبيعة لدى الشعراء الغرناطيين في القرن السابع الهجري جاء صادقاً ومعبراً، وامتزج بالأسى والحزن؛ نظراً لما كان يعصف بالبلاد من محن الضياع في هذه الفترة ، وارتسمت هذه الطبيعة في أذهان هؤلاء الشعراء كجنة خلفوها وضاعت منهم .

كذلك كشفت النصوص عن مدى الارتباط والامتزاج بين الحنين إلى الوطن والحنين إلى الطبيعة، وما تحويه من ماء وهواء ومنتزهات ورياض وأنهار ، فالغربة لدى الشاعر الغرناطي " في شعره ليست بكاء هذا الوطن الأندلسي بقدر ما هي بكاء على الطبيعة

(1) — مالك بن المرحل، الجوالات ، ص: 147

(2) — المصدر السابق ، ص: 148 .

الأندلسية التي عشقها وامتزج معها... " (1).

وبقي أن أشير في هذا الجانب إلى أن حنين الشاعر الغرناطي تعدى المظاهر الطبيعية من أثمار وأشجار ورياض ومنتزهات إلى المظاهر الحضارية التي عرفها في بلاده كالنواعير المنتشرة في المزارع الأندلسية ، فمنظرها وأصواتها لم تفارق خياله في غربته ، يقول ابن سعيد الغرناطي : {الرملة}

وَلَكُمْ بِالرَّجِّ لِي مِنْ لَذَّةٍ بعدها ما العيشُ عندي يعذبُ
والنواعيرُ التي تذكَّارُها بالنَّوى عَنْ مُهَجِّي لَا تُسَلِّبُ (2)

ولعل هذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على تعلق الغرناطين بوطنهم وارتباطهم به ارتباطاً كاملاً ، سواء من حيث مظاهره الطبيعية ، أو من حيث مظاهره الحضارية .

ثالثاً — الحنين إلى الأهل والأصدقاء :

أعطى الشعراء الغرناطيون هذا الموضوع جانباً من الأهمية عبر قصائدهم التي حبروها في غربتهم ، وهو يرتبط بالوطن ، فالوطن ليس حفنةً من التراب أو اسماً يُنسب إليه الشخص ، إنما هو بمعناه الواسع يعني الأهل والأصدقاء أيضاً ، وقد رأينا الشاعر الغرناطي فيما سبق يشعر بمرارة الغربة ، ويشتد حنينه إلى وطنه كلما اعترضه في موطن هجرته وجه غريب ، وسنرى الآن مدى تعلق الشاعر الغرناطي بأهله وأصدقائه من خلال الحنين إلى أيامه التي قضاها بينهم ، ولعل لوعة الفراق للأهل تزداد حزناً وألماً حينما يكون البعد عنهم قسرياً ناتجاً عن كارثة احتلال للوطن ، وهل هناك أعظم من كارثة الشعب الأندلسي الذي احتلت أرضه وهجر عن وطنه ، حين يكون الفراق للوطن بسبب الاحتلال فكأنه وداع أبدي للوطن، والأهل والأصدقاء ، فتزداد اللوعة ، ويشتد الحنين. و لننظر إلى قول ابن رشيق المرسي مودّعاً أحد أصدقائه في نبرة لا تخلو من الحزن والأسى : {البسيط}

حَيَّا إِلَاهُ بَعِيداً ذِكْرُهُ دَانَ يَجَلُّ فِي الوَصْفِ عَنْ وَصْلِ وَهَجْرَانِ
طَوْتُهُ عَنِّي بِلَادٌ لَا سَبِيلَ لَهَا وَقَدْ حَوَاهُ سَوَادٌ بَيْنَ أَجْفَانِي

(1) — فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص: 163 — 164 .

(2) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 3 ، ص: 48،49 .

وَلَيْتَ صَرَفَ اللَّيَالِي كَانَ يُقْنَعُهُ
لَكِنَّ أَبِي الْبَيْنُ إِلَّا الْبَيْنَ ثَانِيَةً
فَظَلْتُ أُنْشِدُ وَالْأَمَالَ تُزْعَجُنِي
بَيْتِي حَبِيبٍ وَقَدْ جَدَّ الرَّحِيلُ بِهِ
بِالشَّامِ قَوْمِي وَبِعْدَادِ الْمَنَى وَأَنَا
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا فَعَلْتُ
أَنْبِي بِسَاحِلِ بَحْرٍ وَهُوَ بِالثَّانِي
كَالسَّهْمِ قَيْسَ بِهِ فِي الرَّمِيِّ قَوْسَانَ
عَنْ أَهْلِ وُدِّي وَعَنْ أَهْلِي وَأَوْطَانِي
وَشَأْنُهُ فِي تَصَارِيفِ النَّوَى شَانِي:
بِالرَّقْمَتَيْنِ وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
حَتَّى تَبْلُغَنِي أَقْصَى خِرَاسَانَ (1)

لقد كان ابن رشيقي المرسى أحد الشعراء المهاجرين إلى غرناطة بعد أن احتلت مدينته من قبل النصارى — ومن ثم بدا حنينه إلى أهله وذويه الذين تركهم في مدينته ملتها بنعمة الحزن والأسى ، ويتردد على لسانه في كل لحظة إلى الحد الذي كان الشاعر فيه يصدر بعض مدائحه بمقدمات في الشوق والحنين إلى أهله وأحابه في مدينة مرسية؛ وذلك كقوله في إحدى مدائحه متشوقاً إلى الأهل والأحباب مخاطباً الحمام أن يبلغ سلامه وشوقه إليهم: {الطويل}

أَجِبْ يَا حَمَامَ الْأَيْكِ إِنِّي عَاشِقٌ
وَطَارِحِنِي الْأَلْحَانَ فِي بَثِّ لَوْعَةٍ
وَحُذْ خَبْرِي أَنْدَى لَدَى فِتْيَةِ الْهُوَى
نَعِمْتُ زَمَانًا بِالْحَبِيبِ وَقُرْبِهِ
إِلَى أَنْ دَعَا لِلْبَيْنِ دَاعٍ أَجَبْتُهُ
فَطِرٌ بِجَنَاحِ الشُّوقِ مَنِّي إِلَيْهِمْ
وَنَادِ أَوْلِي وَدِّي سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
وَحَسْبِي تَبْلِيغُ السَّلَامِ وَحَسْبُهُمْ
فَإِنْ جِئْتَنِي مِنْهُمْ بَرَجْعَ تَحِيَّةٍ
وَإِنْ سَأَلُوا عَنِّي سُؤَالَ تَعَطُّفٍ
شَكَأَ مِثْلَ مَا تَشْكُوهُ مِنْ أَلَمِ الْفَقْدِ
تُشَارِكُنِي فِي وَصْفِهَا وَهِيَ لِي وَحْدِي
وَأَلْطَفَ مَسْرَى بَيْنَهُمْ مِنْ صَبَا نَجْدِ
يُنْظِمُنَا شَمْلٌ كَمُنْتَظَمِ الْعِقْدِ
وَمَا عَنْ رِضَى مَنِّي أَجَبْتُ وَلَا قَصْدِ
وَجُلٌّ حَيْثَمَا حَلُّوا مِنَ الْبَانِ وَالرُّنْدِ
وَكَرَّرُ ثَلَاثًا بِالْأَمَارَةِ فِي الْعَدِّ
فَقَدْ عَلِمُوا حَالِي وَقَدْ فَهَمُوا قَصْدِي
فَدَيْتُكَ مِنْ رَيْبِ الْأَمَانِ بِمَا أُفْدِي
فَقُلْ فِي جَوَارِ لِلرَّيْسِ وَفِي رِفْدِ (2)

فالشاعر نراه يحنُّ إلى أهله وأحابه في شوقٍ ملتهب ولوعة وأسى ، وعلى الرغم من المكانة

(1) — ابن رشيقي المرسى حياته وآثاره ، ص: 195 .

(2) — المصدر السابق، ص: 172 — 173 .

التي حظي بها في بلاط بني نصر ، إلا أن ذلك لم يغيه عن الشوق والحنين إلى أهله وأحبابه ، وهذا يؤكد مكانتهما المشار إليها ، هذا من ناحية ، وهو دليل على تمسك الأندلسي بوطنه وأرضه وتعلقه بأهله من ناحية أخرى .

وفي قصيدة لأبي بكر يحيى ابن المرابط (ت 658 هـ) الذي هاجر إلى مدينة مالقة نراه يمزج بين الشكوى من الغربة وبين الشوق والحنين إلى الأهل والأصدقاء والتحسر على ضياع الأيام التي قضيت على أرض الوطن حين كان الشمل ملتئماً ، فبدأها مخاطباً نسيم الريح بأن يبلغ سلامه وشوقه إلى أهله ومدينته: {الطويل}

ألا يا نسيمَ الريحِ بَلِّغْ تَحِيَّتِي	وإن صَدَرَتْ حَرَى عَنِ الكَبِدِ الحَرَى
وعرَّجْ عَلَيَّ (تُدْمِر) وافضُّضْ حِتَامَهَا	بِمَجْلِسِ قَاضِيهَا وَسَيِّدِهَا الأُخْرَى
نَشَأْنَا جَمِيعاً تَحْتَ أَفْيَاءِ عِزَّةِ	وَأَمْنٍ وَنُعْمَى مَا عَرَفْنَا لَهَا قَدْرًا
إِلَى أَنْ قَضَى جَوْرًا بَتَشْتِيَتِ شَمْلِنَا	فَوَدَّعْتُهُ قَسْرًا وَوَدَّعَنِي قَسْرًا
وَأودَّعْتُهُ قَلْبِي غَدَاةَ فِرَاقِهِ	فَأعْجَبَ بِجِسْمِ سَارٍ مِنْ قَلْبِهِ صِفْرًا !
فلا كان يومُ البينِ يوماً فَلَمْ يَدَعْ	لَنَا جَلْدًا عِنْدَ الوَدَاعِ وَلَا صَبْرًا
أَحْيِي واحِدِي والمَاجِدُ الأَوْحُدُ الذي	حَشَا أَضْلُعِي مِنْ بَرَقِ أَشْوَاقِهِ جَمْرًا
وجرَّعَنِي لِمَا تَنَاءَتْ دِيَارُهُ	وَشَطَّ مَزَارًا مِنْ نِزَاعِي لَهُ صَبْرًا
أَعِنْدَكَ أَنِّي وَالدِيَارُ بَعِيدَةٌ	يُهَيِّجُ بِلْبَالِي النَسِيمُ إِذَا مَرًّا
وَيُذَكِّرُنِي البَرَقُ اللَّمُوعُ بِأَرْضِكُمْ	مَعَاهِدًا مَا فِيهَا فَتَزَعَّجُنِي الذُّكْرَى
حَنِينًا إِلَى تِلْكَ الدِيَارِ وَأَهْلِهَا	أَلَا سَقِيَتْ مَا دُمْتَ فِي قُطْرِهَا القَطْرَا
وَحَقَّ فَوَجَدِي بَعْدَ فُرْقَتِنَا بِهَا	كَوَجَدِ أَيْنَا قَبْلُ فِي الجَنَّةِ الأُخْرَى
وإن كُنْتُ قَدْ خَيَّمْتُ فِي دَارِ نِعْمَةٍ	وَأَمْنٍ وَرَعِيٍّ مَا أُطِيقُ لَهَا شُكْرًا
فَيَالَيْتَ شِعْرِي وَالأَمَانِي حَوَادِغُ	تُغَرُّ وَمَا (لَيْتُ) بِمُجْدِيَةِ أَجْرَا
أَعَانِدَةٌ بِالْجَلْقِينِ عُهُودُنَا	وَأَيَّامُنَا فِيهَا وَبِالسُّكَّةِ الزُّهْرَا ؟
وَهَلْ ذَلِكَ العَيْشُ الأَنِيقُ بِرَاجِعِ	إِلَيْنَا كَمَا كُنَّا بِهَا مَرَّةً أُخْرَى ؟
وَكَيْفَ وَقَدْ حَلَّتْ بِسَاحَتِهَا العِدَا	وَمَا سَاغَ لِلإِيمَانِ أَنْ يَأْلَفَ الكُفْرَا ؟
وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ فِي نَظْمِ شَمْلِنَا	بِإِدَارِ أَمَانٍ مَا نَخَافُ بِهَا دُعْرَا

فَمَازِلْتُ أَدْعُوهُ بِذَلِكَ ضَارِعًا وَ إِنِّي بَلْقِيَاكُمْ لَأَرْتَقِبُ الْبُشْرَى (1)

فالشكوى من الغربة وقسوتها، وآلام البعد عن الأهل والأصحاب وما يترتب على ذلك من شوق وحنين ودموع وحرقة، كلها حاضرة في هذه الأبيات التي تعبر عن النفسية القلقة اليائسة من الاجتماع ولمّ الشمل بعد أن حل العدو الصليبي في دار الأهل والأحباب، يدل على ذلك التساؤلات المتلاحقة في معظم أبيات القصيدة، ويبدو أن رؤية الشعراء الأندلسيين المهاجرين مُدْنَهُمْ وهي تسقط تبعاً للواحدة بعد الأخرى عمق المساة في نفوسهم، وأكسبها لوناً تشاؤمياً حزيناً، صحيح أن الغربة ثقيلة على نفس الإنسان، ولكنها تكون أكثر ألماً وعمقاً عندما ينعدم الأمل في التمام الشمل، والعودة إلى الوطن⁽²⁾. ويبدو أن الشعور باليأس والإحباط سيطر على معظم الشعراء الأندلسيين في هذه الفترة؛ فابن سعيد الغرناطي نجده يتذكر الرفاق وأصدقاء الصبا، فيشعر بممرارة الغربة والفراق، وينتابه شعور بالإحباط واليأس من اللقاء بهم فلا يجد سوى الخمر شفاءً لوجده وحنينه إليهم؛ حيث يقول: {مجزوء الكامل}

قُمْ هَاتِيهَا لَاحَ الصَّبَاحِ مَا الْعَيْشُ إِلَّا الْأَصْطَبَاحُ
مَعَ فِتْيَةٍ مَا دَابُّهُمْ إِلَّا الْمُرُوءَةُ وَالسَّمَّاحُ (3)

فمرارة الغربة وقسوة البعد عن الرفاق دفعنا الشاعر إلى البحث عن وسيلة تنسيه حقيقة واقعه المرير، فلا يجد سوى السكر ليتساوى لديه ظلام الليل المغيب للنظر مع ظلام السكر المغيب للعقل. ويتكرر تذكر الشاعر لأصدقائه الذين كانوا ينادونه بأجلّ الأسماء فيقابل بين حالته في وطنه بينهم وبين حاضره في غربته بعيداً عنهم، فبعد أن كان سيداً مطاعاً مفتخرًا بعائلته وبنسبه، أمسى غريباً ذليلاً لا أصدقاء له ولا أحباب، بل دموع واغتراب، يقول: {مجزوء الكامل}

مَا نَادَمُوا شَخْصًا فَكَأ نَ لَهُمْ بِخِدْمَتِهِ اسْتِرَاحُ
يَدْعُوهُ بِأَجَلِّ مَا يُدْعَى بِهِ الْحُرُّ الصُّرَاحُ

(1) — أبو العلاء بن المرابط، زواهر الفكر وجواهر الفقر، ص: 55 — 56 .

(2) — ينظر: المصدر السابق، ص: 55 بتصرف .

(3) — المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص: 71.

كُرْهًا فَقَدْتُهُمْ فَمَا لِي بَعْدَ بُعْدِهِمْ ارْتِيَا ح⁽¹⁾

ولا ينسى ابن سعيد أن يتذكر فراقه لجيرانه أيضاً متعجباً من ذاته ، فَجَوْرُهُمْ لا يمنعه من الحنين إليهم أو التلهف لرؤيتهم ، ونفسه لا تستقر ولا تهدأ إلا بلقاءهم ؛ حيث يقول :
{الكامل}

لِي حَيْرَةٌ ضُنُّوا عَلَيَّ وَجَارُوا فَنَبَتَ بِي الْأَوْطَانُ وَالْأُوطَارُ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّنِي مَعَ جَوْرِهِمْ مَا قَرَّ لِي بَعْدَ الْفِرَاقِ قَرَارُ⁽²⁾

ويتساءل الشاعر مخاطباً وطنه في مرارة ويأس ؛ يقول: {الخفيف}

أَيِّنَ قَوْمٍ أَلْفُتُهُمْ فِيكَ لَمَّا قَرَّبَ الدَّهْرُ آذُنُوا بِالرَّوَا حِ
تَرَكُونِي أَسِيرَ وَجَدٍ وَشَوْقِ مَا لِقَلْبِي مِنَ الْجَوَى مِنْ سَرَا حِ
أَعْرَضُوا ثُمَّ عَرَّضُونِي لِشَوْقِ تَرَكَ الْقَلْبَ مُتَخَنِّئًا بِجِرَا حِ⁽³⁾

فالأبيات لا تحمل عتاباً بقدر ما تحمل شوقاً وحنيناً إلى الأحباب والأصدقاء الذين ألفهم الشاعر واعتادهم . والفراق هنا متحقق بإرادة القرب منهم على الرغم من تحكم الدهر وإعراضه .

واختار الشعراء الغرناطيون النسيم ، والبرق ، والرياح ليحملوها الشوق ، والسلام إلى الأهل والأصدقاء ، فإن ابن سعيد يختار الرياح التي تزيده شوقاً وحنيناً إلى أرض الأحباب والأصدقاء ، ويصور قلبه كالطائر جناحه الشوق والحنين ، حيث يقول :
{مجزوء الكامل}

لِلَّهِ شَوْقِي إِنْ هَفَتُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِمُ الرِّيَا حِ
فَهُنَاكَ قَلْبِي طَائِرُ لَهُمْ وَمِنْ شَوْقِي جَنَّا حِ⁽⁴⁾

ويعبر أبو عبد الله بن الحكيم عن حنينه وشوقه إلى أهله وأصدقائه فيخاطب نسيم الصبا محملاً إياه أشواقه إليهم فيقول: {الخفيف}

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج3 ، ص: 71 . المصدر السابق .

(2) — المصدر السابق ، ج3 ، ص: 35 .

(3) — المصدر نفسه ، ج3 ، ص: 74 .

(4) — المصدر نفسه ، ج3 ، ص: 71 .

يَا نَسِيمَ الصَّبَا إِذَا جَنَّتَ قَوْمًا
فَتَلَطَّفَ عِنْدَ الْمُرُورِ عَلَيْهِمْ
قُلْ لَهُمْ قَدْ غَدَوْتُ مِنْ وَجْدِهِمْ فِي
وإِنْ اسْتَفْسَرُوا حَدِيثِي فَأَيَّي
مُلِئْتُ أَرْضُهُمْ بِشِيحٍ وَرُنْدٍ
وَحُقُوقًا لَهُمْ عَلَيَّ فَادِّ
حَالَ شَوْقٍ لِكُلِّ رُنْدٍ وَرُنْدٍ
بِاعْتِنَاءِ الْإِلَهِ بَلَّغْتُ قَصْدِي (1)

ويعبر في قصيدة أخرى عن شوقه وحنينه إلى الأهل والأصدقاء والأحباب مخاطباً البرق بأن يأخذ دمع عينيه ويسكبه على ديارهم ؛ إذ يقول : {الكامل}

يَا بَرْقُ خُذْ دَمْعِي وَعَرِّجْ بِاللَّوِيِّ
وَإِذَا لَقِيتَ بِهَا الَّذِي بِإِحَائِهِ
فَاقْرَأِ السَّلَامَ عَلَيْهِ قَدْرَ مَحَبَّتِي
أَلَمْ بِسَائِرِ إِخْوَتِي وَقَرَابَتِي
فَاسْفَحْهُ بَيْنَ نَبَاتِهِ وَعَرَارِهِ
أَلْقَى خُطُوبَ الدَّهْرِ أَوْ بِجَوَارِهِ
فِيهِ وَتَرْفِيعِي إِلَى مِقْدَارِهِ
مَنْ لَمْ أَكُنْ لِجَوَارِهِمِ بِالكَارِهِ

أَثَبْتُ لِدَاكَ الْحَيَّ أَنْ أَخَاهُمْ
فِي حِفْظِ عَهْدِهِمْ عَلَى اسْتِبْصَارِهِ (2)

و يتخيل أبو حيان الغرناطي — على عادة الشعراء — مخاطباً ليحمّله السلام إلى إخوانه وأصدقائه وشيوخه لاسيما شيخه أبو جعفر بن الزبير الذي خصّه بالذكر تعبيراً عن حنينه وشوقه إليه، على أن اللطيف في الأمر أن الشاعر لا ينسى السلطان الغرناطي بالتحية أيضا

بل ويمدحه في أكثر من بيت ؛ حيث يقول : {الطويل}

أَحْيِ إِنْ تَصِلْ يَوْمًا وَبُلَّغْتَ سَالِمًا
وَقَبْلَ تَرَى أَرْضَ بِهَا حَلَّ مَلَكُنَا
مُبِيدُ الْعِدَا قَتْلًا وَقَدْ عَمَّ شَرُّهُمْ
أَفَاضَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ جُودًا وَنَجْدَةً
لِعَرْنَاطَةٍ فَانْفَذْ لِمَا أَنَا عَاهِدُهُ
وَسُلْطَانُنَا الشَّهْمُ الْجَمِيلُ عَوَايِدُهُ
وَمُحِيي النَّدَا فَضْلًا وَقَدْ قَلَّ هَامِدُهُ
فَعَزَّ مُوَالِيهِ وَذَلَّ مُعَانِدُهُ
وَعَمَّ بِهَا إِخْوَانُنَا بِتَحْيِيَةٍ
وَخُصَّ بِهَا الْأُسْتَاذَ لَا عَاشَ كَأَيْدُهُ

وَإَيَّي وَ إِنْ شَطَطَتْ بِنَا غُرْبَةُ النُّوَى
لَشَاكِرِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَامِدُهُ (1)

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 ، ص: 460 — 461 .

(2) — المصدر السابق ، ج 2 ، ص: 461، 462 .

ويعبر عن لوعة الفراق بعد سروره واجتماعه مع أهله في وطنه فيقول: {البيسط}

يا فرقةً أبدلتني بالسرور أسىً وأسهرتُ ناظراً قد طالما نعسا

أنى يكون اجتماعٌ بين مفترق جسمٍ بمصرٍ وقلبٍ حلَّ أندلساً؟! (2)

وإذا كان أبو حيان الغرناطي يتخيل مخاطباً ليحمل سلامه إلى الإخوان والأصدقاء ويخص

بهذا بعض الشخصيات الغرناطية كشيخه أبي جعفر بن الزبير، والسلطان النصرى؛ فإن أبا

الطيب الرندي اختار هذا المنحى في إرسال سلامه إلى الأهل لكنه لا يخصّ أحداً بعينه، وإنما

يطلب تبليغه لكل الأهل والديار؛ إذ يقول: {الكامل}

وإذا مررتَ بـ (رُندة) ذاتِ المنى والراح والديموسِ واللوزارِ

سَلِّمْ عَلَيَّ تِلْكَ الدِيَارِ وَأَهْلِهَا فَالْقَوْمُ قَوْمِي وَالدِيَارُ دِيَارِي (3)

رابعاً — الحنين إلى أيام الشباب والصبا :

يعد هذا النوع من الحنين قديماً في الشعر الأندلسي، فقد تناوله عدد من الشعراء

الأندلسيين، ومنهم ابن خفاجة الذي بكى شبابه وحنَّ إلى أيام صباه عندما رأى الشيب

يدب بين حنايا رأسه، وحرَّك أشجانه فتأوه قائلاً: {الطويل}

فآهٍ طويلاً ثم آهٍ لكبيرةٍ بَكَيتُ عَلَيَّ فَقَدِ الشَّبَابَ بِهَا دَمًا (4)

وقد تناول هذا الموضوع بعض الشعراء الغرناطيين الذين أخذت تسيطر عليهم هذه

الفكرة، فزمن الشباب لا يرجع وقدره لا يعرف إلا بعد فواته، كما يبدو في قول أبي

الطيب الرندي الذي بكى شبابه وحنَّ إليه وجرت دموعه سكوباً عليه فانشقَّ له قلبه

انشقاقاً؛ حيث يقول: {الوافر}

وَمِمَّا هَاجَ أَشْوَاقِي حَدِيثُ جَرَى فَجَرَى لَهُ الدَّمْعُ السَّكُوبُ

ذَكَرْتُ بِهَا الشَّبَابَ فَشَقَّ قَلْبِي أَلَمْ تَرَ كَيْفَ تَنْشَقُّ القُلُوبُ؟

عَلَى زَمَنِ الصَّبَا فَلْيَبْكْ مِثْلِي فَمَا زَمَنُ الصَّبَا إِلَّا عَجِيبُ

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص55.

(2) — ابن القاضي، درة المجال، ص: 196.

(3) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوني، ص: 129.

(4) — ابن خفاجة الأندلسي، ديوانه، تح: السيد مصطفى غازي، الإسكندرية، 1960، ص: 234.

جَهَلْتُ شَيْبِي حَتَّى تَوَلَّتْ وَقَدَّرُ الشَّيْءَ يُعْرِفُ إِذْ يَغِيبُ⁽¹⁾

وهذا ما يعبر عنه قوله أيضاً : { الطويل }

لَعَمْرُ الْهُوَى مَا الْعَيْشُ إِلَّا مَعَ الصَّبَا وَمَا بَعْدَ أَيَّامِ الشَّبِيهِ مِنْ عُذْرٍ⁽²⁾

ويكى ابن المرحل شبابه حنيناً وشوقاً على ما مضى من شبابه الذي قضاه في رياض الأندلس فيتأوه على تلك الأيام الجميلة الماضية كلما لاحت في ذاكرته فيقول : { الكامل }

وملاوة العشرين وهي أجلُّ ما نثر الزمان عليك لولا طيه

وها لأيام الشباب وآه من تذكاره فلقد أمض مضيه

قد كان يحسن غيه ولعاية في حسنه إن كان يحسن غيه⁽³⁾

ويرتبط غالباً ذكر الشباب بالحديث عن الشيب ، فيكون ذلك طريقاً لزهده الإنسان ورجوعه إلى الخالق سبحانه وتعالى ، لاسيما إذا كان المرء قد ضيع في شبابه ما ضيع من حقوق الله تعالى كما يبدو في قول الرندي : { الكامل }

و لَكُمْ قَطَعْنَا الدَّهْرَ فِي ظِلِّ الصَّبَا مَا بَيْنَ إِعْذَارٍ وَخَلْعِ عِذَارٍ

.....

وَاحْسَرْتَنَا مِنْ ذِكْرِ أَيَّامِ الصَّبَا هَا قَدْ بَدَأَ شَيْبِي فَأَيْنَ وَقَارِي؟⁽⁴⁾

وقول أبي عبد الله بن الحكيم : { الطويل }

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّيْبَ حَلَّ بِمَفْرَقِي نَذِيرًا بِتَرْحَالِ الشَّبَابِ الْمَفَارِقِ

رَجَعْتُ إِلَى نَفْسِي فَقُلْتُ لَهَا انْظُرِي فَإِنِّي أَرَى هَذَا ابْتِدَاءَ الْحَقَائِقِ⁽⁵⁾

وأما ابن المرحل فحين أخذ الشيب يظهر في مفرق رأسه أخذ يتمسك بشبابه؛ حيث يقول: { الكامل }

قَالَ الْوُشَاةُ وَقَدْ بَدَتْ فِي مَفْرَقِي لِلشَّيْبِ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى الْكِبَرِ

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص:370،371 .

(2) — مؤلف مجهول، المنظوم والمنثور ، مخطوط في خزانة خاصة بالمغرب ، ورقة : 58 ظ .

(3) — مالك بن المرحل ، الجوالات ، ص:149 .

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي . تح : محمد الخمار القنوبي ص:130 .

(5) — المقرئ ، أزهار الرياض ، ج2 ، ص:345 .

كَمْ ذَا التَّصَابِي وَالشَّبَابُ قَدْ انْقَضَى وَالشَّيْبُ قَدْ عَمَّ الْمَفَارِقَ وَانْتَشَرُ
فَأَجَبْتُهُمْ : إِنَّ التَّصَابِي لِلْفَتَى كَالنُّورِ أَحْلَى مَا يَكُونُ مَعَ السَّحَرِ (1)

فتمسك الشاعر بشبابه ومحاولته تعليل ظهور الشيب على مفرق رأسه ، يعكس شوق الشاعر وحنينه إلى أيام شبابه التي انقضت وولت ، ويعبر الشاعر في أبيات أخرى عن حنينه إلى الشباب خلال محاولته ستر شبيه الذي بدأ في الظهور بالخضاب ليحسن مرآه ويموه به على النساء الحسان ، غير أن ذلك لا يفلح في إخفاء الشيب ، يقول : {الطويل}

كَتَمْتُ مَشِيبي بِالْخِضَابِ تَعْلَلًا فَلَمْ يَخْطِنِي شَيْبِي وَرَابَ خِضَابُ
كَأَنِّي وَقَدْ زَوَّرْتُ لَوْنًا عَلَى الصَّبَا أُعْتَوْنَ طِرْسًا لَيْسَ فِيهِ كِتَابُ
غَرَابُ خِضَابٍ لَمْ يَقِفْ مِنْ حِذَارِهِ وَأَعْجَبُ شَيْءٍ فِي الْحِذَارِ غُرَابُ (2)

ويقول أبو الحسن علي القيجاطي (650 ، 730 هـ) (3) مصوراً الشيب بأنه كالأزهار المفتحة ، وأن الشباب كالليل الذي سرعان ما ينقضي وينجلي ظلومه بظهور النهار ، فالعمر كله قصير مثل البدر الذي يظهر حسنه ساعة اكتماله ثم يعود سريعاً هاللاً . {الكامل}

رَوْضُ الْمَشِيْبِ تَفْتَحُ أَزْهَارُهُ حَتَّى اسْتَبَانَ نَعَامُهُ وَبَهَارُهُ
وَدُجَى الشَّبَابِ قَدْ اسْتَبَانَ صَبَاحُهُ وَظَلَامُهُ قَدْ لَاحَ فِيهِ نَهَارُهُ
فَأَتَى حَمَامٌ لَا يُعَافُ وَقَوْعُهُ وَمَضَى غُرُوبٌ لَا يُخَافُ مَطَارُهُ
وَالْعُمُرُ مِثْلُ الْبَدْرِ يَبْدُو حُسْنُهُ حِينَآ وَيَعْقَبُ بَعْدَ ذَاكَ سِرَارُهُ (4)

وبعد ، فهذه أبرز المحاور والموضوعات التي تناولها الشعراء الغرناطيون في شعر الحنين والغربة ، فقد حنوا إلى الوطن وعبروا عن شوقهم الدائم إليه ، وصوروا معاناة الغربة وآلامها ، كذلك حنوا إلى الطبيعة التي طالما احتضنت أيام أنسهم ونعيمهم ، وحنوا أيضاً إلى الأهل والأصدقاء وصوروا شوقهم إليهم . ، وعبروا عن حنينهم إلى أيام الشباب ناديين فقدوا ومتحسرين عليها ، وجاء حنينهم في كل هذه الموضوعات مفعماً بصدق التجربة

(1) — محمد مسعود جيران ، مالك بن المرحل أديب العدوتين ، ص: 305 .

(2) — المصدر السابق ، ص 302 — 303 .

(3) — ترجمته في الإحاطة ، ج 4 ص: 104 . وكذلك : نفع الطيب ج 8 ص: 22 .

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 4 ، ص: 105 .

وعمق العاطفة .

أما أبرز ملحوظة أسجلها حول شعر الحنين والغربة ؛ فهي تتمثل في حرص معظم الشعراء الغرناطيين على ذكر أماكن بعينها خلال حنينهم إلى الوطن ، فابن سعيد الغرناطي نجده يذكر أسماء مدن وأماكن بعينها وهي ظاهرة تطرد في معظم قصائده التي قالها في غربته، فهو يذكر غرناطة والجزيرة الخضراء ومرسية ومالقة ، ويردد أسماءها خلال حنينه للأيام التي قضاها في هذه المدن ، وكلما ذكر اسما أو مكاناً في وطنه تعالت زفرات شوقه الملتهبة ، وذلك على نحو قوله : {الرملة}

بَلْ عَلَيَّ "الخضراء" لا أنفكُ مِنْ زَفْرَةٍ فِي كُلِّ حِينٍ تَلْهَبُ
و إلى "الْحُورِ" حَنِينِي دَائِمًا وَعَلَيَّ "شَنْيَل" دَمْعِي صَيَّبُ
و إلى "مَالِقَةَ" يَهْفُو هَوَى قَلْبِ صَبِّ بِالنَّوَى لا يِقْلَبُ
و على "مَرْسِيَةَ" أَبْكِي دَمًا مَنَزِلٌ فِيهِ نَعِيمٌ مُعْشَبُ
مَعَ شَمْسٍ طَلَعَتْ فِي نَاطِرِي ثُمَّ صَارَتْ فِي فُؤَادِي تَعْرُبُ (1)

و كما في قوله : {السريع}

و اذْكَرُ بَوَادِي "الطَّلْحِ" عَهْدًا لَنَا وَ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا : {الرملة}

أَيْنَ "حِمَصٌ"؟ أَيْنَ أَيَّامِي بِهَا؟ وَ فِي قَوْلِهِ : {الرملة}

و لَكُمْ فِي "شَنْتَبُوسٍ" مِنْ مُنَى قَدْ قَضَيْتَاهُ وَ لا مَنْ يَعْتَبُ (4)

و يذكر أبو الطيب الرندي أسماء أماكن بعينها خلال حنينه إلى وطنه ؛ حيث يقول : {الكامل}

وَ "الرَّاحِ" وَ "الدِّيمُوسِ" وَ "اللُّؤْزَارِ" (5) وَإِذَا مَرَرْتَ بِرُنْدَةَ ذَاتِ الْمُنَى

(1) — المقري ، نفع الطيب ، ج 3 ، ص : 49 .

(2) — المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 53 .

(3) — المصدر نفسه ج 3 ، ص : 48 .

(4) — المصدر نفسه ، ج 3 ، ص : 49 .

(5) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوي ، ص : 129 .

ويقول أيضاً: {الكامل}

"بَسِيحَةَ" الْعَلِيَا لَنَا مُتَنَزَّةً فِيهِ مِنَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ⁽¹⁾

ومالك بن المرحل خلال حنينه إلى مدينته مالقة نراه يذكر اسمها القديم وهو رِيَّةَ ، في بيت لم يصلنا كاملاً حيث يقول: {الطويل}

أَمِنْ رِيَّةٍ وَافْتَكَّ مِسْكِيَّةَ الرِّيَا تَرَشُّ الْحَشَا رَشَّأً (...)⁽²⁾

ونجد مثل هذا الملمح لدى شعراء آخرين ، كأبي حيان الغرناطي الذي ردد اسم مدينته غرناطة في إحدى قصائده ؛ حيث يقول: {الطويل}

بِعَرْنَاطَةٍ رُوْحِي وَفِي مِصْرٍ حُثِّي تُرَى هَلْ يُنْتَى الْفَرْدَ مَنْ هُوَ فَارِدُهُ؟⁽³⁾

والظاهرة نفسها نجدها لدى الشعراء الذين هاجروا إلى غرناطة في هذه الحقبة ، كابن رشيق المرسي الذي نراه يذكر وادي الرياحين في مرسية متشوقاً إلى الأيام التي قضاها فيه حيث يقول: {الطويل}

وَهَلْ لِي فِي وَادِي الرِّيَاحِينَ وَقْفَةٌ أَلْقَنُ مَحْنُونَ الْهَوَى سِيرَةَ الْوَجْدِ⁽⁴⁾

وأما أبو بكر بن المرابط وهو أحد المهاجرين إلى غرناطة فنجده خلال حنينه إلى أهله وأصدقائه يذكر اسم مدينته تدمير ؛ حيث يقول: {الطويل}

وَعَرَجَّ عَلَى تَدْمِيرَ وَأَفْضُضْ حِتَامَهَا بِمَجْلَسِ قَاضِيهَا وَسَيِّدِهَا الْأَحْرَى⁽⁵⁾

وهكذا؛ فإن هذه النصوص تدل على الارتباط الوثيق بين الشاعر الأندلسي، والمكان، الذي قضى فيه أيام أنسه وصباه، وشهد فيه أجمل ذكريات حياته السعيدة ؛ حيث نعم فيه بالوصال مع الأصدقاء والأحباب، واحتسى فيه كؤوس الهوى بين أحضان الطبيعة الجميلة، فظلّ المكان راسخاً في ذاكرته ؛ لأنه يمثّل مرحلة مشرقة من مراحل حياته في وطنه، ومن ثم فإن ذكر هذا المكان أو استحضاره في أثناء حنين الشاعر إلى وطنه يؤنس من وحشته في

(1) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(2) — مالك بن المرحل ، الجوالات ، ص: 147، والبياض موجود في أصل المصدر .

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص: 56 .

(4) — ابن رشيق المرسي حياته وآثاره ، ص: 170 .

(5) — أبو العلاء بن المرابط ، زواهر الفكر وجواهر الفقر ، ص: 378 — 379 .

تلك الغربة، ويعيد إليه شيئاً من التوازن في حالة الانكسار النفسي التي يعانيتها. أضف إلى هذا أن ترديد مثل هذه الأسماء المتعلقة بالوطن هو علامة بارزة على ما يكابده الشاعر من الغربة المكانية والغربة العاطفية الوجدانية، وهو من ناحية أخرى تخليد للمكان في ذاكرة الناس وبخاصة في مرحلة صار فيها الوجود العربي الإسلامي في الأندلس مهدداً تعصف به رياح السقوط⁽¹⁾.

(1) — ينظر: محمد سعيد محمد، الشعر في قرطبة من منتصف القرن الهجري الرابع إلى منتصف القرن الخامس، ط1، الإمارات العربية، المجمع الثقافي — أبو ظبي، 1424 — 2003، ص: (بتصرف).

المبحث الخامس: الوصف

المبحث الخامس

الوصف

الوصف باب واسع في الشعر العربي وقد بما قال ابن رشيق القيرواني "الشعر الاقله راجع إلى باب الوصف ولا سبيل إلى حصره، واستقصائه..."⁽¹⁾ وفيما يلي أبرز محاور الوصف في الشعر الغرناطي:

أولاً — وصف الطبيعة :

امتازت غرناطة بطبيعة فاتنة وخلابة ، فهي كما يقول أبو الطيب الرندي "تخرقها المياه نحواً من أربعين ميلاً ، وبداخلها وخارجها روضات ومنتزهات رائقة المسميات والأسماء تشابهت فيها الأرض بالسماء (كالسيكة ونجد) وغيرهما من معاهد وصور ومغانٍ..."⁽²⁾. وقد رسم لنا الرندي بالشعر لوحة فنية لهذه الطبيعة الساحرة وما تضمه من منتزهات ورياض ، وما يخرقها من أنهار ، وذلك في قوله : {الكامل}

مَا بَيْنَ نَجْدٍ وَالسِّيْكَةِ وَالْحِمَى أَرْضٌ سَمَتْ حُسْنًا فَأَشْبَهَتْ السَّمَاءَ
أَوْ مَا رَأَيْتَ النَّهْرَ سَالَ مَجْرَةً فِيهَا فَأَطْلَعْتَ الْمَزَاهِرَ أَنْجُمًا
حَيْثُ التَّفَافُ الدُّوْحُ يَنْشُرُ ظِلَّهُ بُرْدًا بِمَطْرُوزِ الْمَذَائِبِ مُعْلِمًا
وَالرُّوْضُ يَسْبِكُ كُلَّ مَاءٍ فِضَّةً وَالْحُسْنُ يَطْبَعُ كُلَّ نَوْرٍ دِرْهَمًا⁽³⁾

وعلى هذا النحو فتن الشعراء الغرناطيون بالطبيعة الغرناطية الساحرة التي عاشوا بين أحضانها ، والتي داعبت حواسهم وعواطفهم أينما نظروا أو توجهوا ، وقد أخذوا يصفون جمالها ، ويتغنون بمجاليتها البهية ، ويجسدون كلفهم بالطبيعة وولعهم بها في العديد من القصائد والمقطوعات التي تصف الرياض والزهور والثمار، و الأنهار وما يحف بجنباتها من زهر وشجر... إلخ .

(1) — ابن رشيق القيرواني، العمدة ج 2 ص: 204

(2) — أبو الطيب الرندي، روضة الأنس ونزهة النفس، مخطوط في خزانة الفقيه محمد المنوني، نسخة مصورة على الميكروفيلم ورقة: 52.

(3) — المصدر السابق ، والموضع نفسه .

وقد انعكس هذا الوله بالطبيعة فيما نظموه من أشعار ، حيث ربطوا الطبيعة بكل موضوعات الشعر وفنونه وجعلوها ممتكاً لأغراضهم الشعرية فإذا تغزلوا أسقطوا صفات الطبيعة على مَنْ تغزلوا بهم ، وإذا وصفوا الراح اتكأوا على الطبيعة وأفاضوا في وصف محاسنها ، وإذا حنوا إلى بلادهم تذكروا طبيعتها الجميلة ، وإذا مدحوا أو رثوا أخذت عناصر الطبيعة وصورها تنبث في أبياتهم... إلخ

ولم يقف حبهم للطبيعة وتعلقهم بها عند حدّ المشاركة أو القيام بدور في بناء قصائدهم فحسب ، بل عبروا عن ذلك في قصائد ومقطوعات مستقلة بذاتها أيضاً ، واصفين فيها الطبيعة وصفاً خالصاً مصوراً بها مواطن الجمال والفتنة واقفين عند كلّ جزئية من جزئياتها⁽¹⁾، وقد تحرك الشاعر الغرناطي في وصفه للطبيعة وفق عدة محاور هي :

1 — وصف الرياض والبساتين :

اهتمّ الغرناطيون بوصف الرياض فراحوا يرسمون لها لوحات فنية تصوّر ما تشتمل عليه من زهر وشجر وجداول وطيور ، وغالباً ما يأتي وصفهم للروضات في إطار عام لموضوع المدح أو الخمر أو خلال حنينهم إلى بلادهم ، ويلاحظ أنهم في وصفهم للروضات غالباً ما يتحدثون عن الحيا أو المطر وما أحدثه في تلك الرياض على نحو ما نقرأ في قول أبي جعفر بن شلبطور : {الخب} :

وَأَصَابَ الْمُرْنَ رِيَاضَ الْحَزْ	نِ فَعَادَرَهُ مِثْلَ الْعُرْرِ
فَلَقَدْ سَرَّحْتُ عَلَى عَجَبٍ	مِنْ سُنْدُسٍ سَرَّحَتْهَا نَظْرِي
وَلَقَدْ كُسَيْتُ مِنْ تَحْتِ حُلِيٍّ	حُلَالاً حُلَيْتُ وَشَيْءَ الْحَبْرِ
وَصَبَا تَخْتَالُ حِلَالَ رُبِيٍّ	قَدْ دَبَّجَهَا صَوْبُ الْمَطْرِ
كَمَنْتُ تُبْدِي رَهْباً حَتَّى	نَفَثْتُ بِالسَّحْرِ مَعَ السَّحْرِ
وَتَنْتَ أَفْنَانَ مُكَلَّلَةً	تُزْهِى بِأَفَانِينَ الزَّهْرِ ⁽²⁾

فالشاعر يصف ما أحدثه الغيث في تلك الرياض حتى غدت مثل الغرر مكسوّة ببدياج وحلى ، ويرصد هبوب ريح الصبا وما نثرته الأزهار من أريج على تلك الرُبى .

(1) — يُنظر : فوزي سعد عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص128 (بتصرف).

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 381.

ويتكرر ملمح الغيث وما يحدثه في الرياض في العديد من النصوص الغرناطية فمالك بن
المرحل يرسم في إحدى قصائده لوحةً بديعةً للطبيعة الغرناطية الجميلة ، ويرصد ملمح ما
أحدثه الحيا في أزهار الرياض ، ويصف رفيف الطير وأصواتها فبدت تلك الروضة في زي
العروس التي تختال بجليها ؛ يقول : {الكامل}

فَانظُرْ إِلَى الرُّوضِ الَّذِي حَلَّ الحَيَا فَعَدَا يَسُرُّ النَّاطِرِينَ حُلِيِّه
قَدْ رَنَحَتْهُ بِرَاحِهَا رِيحُ الصَّبَا فَحَنَّا عَلَى سُفْلِيه عُلُوِّيَه
وَالرُّوضُ رَاضٍ قَدْ أَعَادَ حَيَاتَه نَشْرُ الحَيَا فَسَرَى الهموعُ سَرِيه⁽¹⁾

ويلتفت الشاعر إلى أسراب الطير المزدان بألوانه التي تشابه الزهر ، وبغنائه الملائم لإيقاع
الطبيعة الرقيقة ، فيقول : {الكامل}

وَالطَّيْرُ مُخْتَلِطُ الصَّنَائِعِ وَالْحُلَى يَعَزُّوهُ إِمَّا صَوْتَهُ أَوْ زِيَه
يَشْدُو بِشِعْرِ لَا يَقُومُ بِنَاوَه عِنْدَ السَّمَاعِ وَلَا يَصْحُ رَوِيَه
وَقَدْ اسْتَدَارَ بِسَاقِ كُلِّ خَمِيلَةٍ خَلْخَالُ سَلَسَالٍ أَتَاهُ أَتِيَه
وَالجُوُّ أَرْزَقُ وَالْعَرَّارَةُ مِثْلَه وَالعَيْشُ أَخْضَرُ وَالْحَدِيقُ سَمِيَه
أُنْسٌ لِعَمْرِي لَيْسَ يَدْرِي حَاضِرٌ مَسْمُوعُهَ أَشْهَاهُ أُمٌّ مَرْتِيَه⁽²⁾

وهكذا ، فالشاعر يصور جمال الطبيعة الفاتنة في تلك الرياض مستحضراً عناصر الجمال
من الحيا وما أحدثه في تلك الرياض ومن الطير المزدان المغرّد على أغصان الأشجار ولا
يخلو وصف الشاعر من عنصر التشخيص ، وهو عنصر أراه حاضراً في وصف الرندي
لروض أخذ زينته من ماء السماء فغدت أزهاره كأنها في رداء أهل التقى من شدة البياض،

وبدت القضب وقد بللتها قطرات المطر موشحة بالحلي الفضي ، يقول : {الطويل}

سَلِ الرُّوضِ مَنْ حَلَّاهُ بِالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ وَجَرَّ لَهُ ذَيْلَ الْمَجْرَةِ بِالنَّهْرِ
أَحَلَّ الحَيَا أَهْدَى لَهُ زِينَةَ السَّمَا فَأَصْبَحَ فِي زِيِّ الهُدَى وَلَا يَدْرِي
وَالْإِذَا مَا لِلْقُضْبِ قَدْ وُشِّحَتْ بِهِ بَدَائِعُ حَلِيٍّ مِنْ لُجَيْنٍ وَ مِنْ تَبِيرِ
وَشَقَّ لِثَامَ الوَرْدِ عَن وَجَنَاتِهِ فَقَبَّلَ فِيهَا لَوْعَةً مَبْسَمَ الزُّهْرِ⁽¹⁾

(1) — مالك بن المرحل ، الجوالات ، ص 148 .

(2) — المصدر السابق ، ص 148 — 149 .

ويختار ابن سعيد الغرناطي الساعة التي يتشح فيها الروض برذاذ الأنداء قبيل الشروق فتتمق الروض وتحسنه ويصير الروض مثل لابس الثوب الموشى؛ وذلك حيث يقول:

الأفُقُ طَلَقُ والنسيمُ رخَاءُ والروضُ وشَّتْ بُرْدُهُ الأنداءُ (2)

ويصف الرندي روضةً راصداً حركة القضب الرقيق الناعم الذي داعبته نُسيمات ريح الصبا فانتنى واهتزَّ طرباً ولا يخلو وصفه هنا أيضاً من ذكر المطر الصيب وما أحدثه في تلك الروضة إذ يقول: {السريع}

والروضُ قد رَوْضُهُ صَيْبٌ فَالْعَسُ يَلْثُمُهُ أَشْنَبُ
وللصبا على الرُّبَا هَبَّةٌ نَوَاعِمُ القُضْبِ لَهَا تَطْرُبُ
سُرَّتْ بِمَسْرَاهَا رِيَّاحُ المُنَى فَهَبَّ مِنْهَا نَفْسٌ طَيِّبٌ (3)

وهكذا نرى أن الشعراء الغرناطيين يصفون الرياض راصدين ما يحدثه المطر أو الحيا في تلك الرياض روعة وجمالاً ، كما نجد عناصر التشخيص للطبيعة ظاهرة بينة في هذه النصوص ، وهذه الخاصية تكاد تكون سمة لازمة في وصف الشعراء الغرناطيين لطبيعة بلادهم ، يقول أبو عبدالله محمد الجذامي المالقي (ت 631 هـ) (4) مشخصاً الروضة وكأنها تختال في ثوب من الحسن: {الطويل}

أَيَا رَوْضَةٍ تُبْدِي النجومَ أَزَاهِرًا وَتَخْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الحُسْنِ رَائِقٌ (5)

2 — وصف الأزهار والثمار :

أ — الأزهار :

إذا كان الشعراء المشاركة احتفوا بما تحتضنه صحراء جزيرتهم من ورود وأزهار على قلة

(1) — مؤلف مجهول، المنظوم والمنثور ، مخطوط في خزانة خاصة بالمغرب ، ورقة : 51 ظ.

(2) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 3 ، ص:30.

(3) — مؤلف مجهول، المنظوم والمنثور ، مخطوط في خزانة خاصة بالمغرب ، ورقة : 51 ظ. وكذلك : المقرئ ، نفع الطيب ، ج 2 ، ص : 263.

(4) — ينظر ترجمته لدى ابن خميس، أعلام مالقة ص: 166 .

(5) — ابن عسكر وابن خميس ، أعلام مالقة ، ص: 165.

هذه الورود وتلك الأزهار ، فوصفوا الخزامى والرند والشيخ والعرار... إلخ ، فإن البيئة الأندلسية ضمت ألواناً وصنوفاً كثيرة متنوّعة الألوان والأشكال والأحجام من الورود والأزهار، وراح الشعراء الأندلسيون يلبون نداء الفطرة المتفجّر في أعماقهم ، واصفين إياها ومتغنّين بها في أشعارهم حتى أضحي وصفها من أهم ملامح شعر الطبيعة عندهم ، فقد "عمد الشعراء الأندلسيون إلى الوقوف على صفات كل نورة وما تتميز به ؛ ليعبروا عن دقة إحساسهم بها ، وشدة ولعهم بجمالها ، ولذلك فهم يطيلون الوقوف عندها ، ويدققون النظر فيها وكأنهم في هذا يريدون القول بأنهم يكبرون الأنوار ويعشقونها ، ويتولّعون بها لذاتها ، وليس لشيء آخر كأن تكون سبباً لتذكر حالات ومواقف ومشاهدات في المجتمع والحياة... " (1).

ومن أنواع الورود والأزهار التي عرفتھا البيئة الغرناطية ، وهام الشعراء بوصفها : الآس ، والأقحوان ، والياسمين ، والبنفسج ، والبهار ، والجلنار ، والحبق ، والخيري ، والريحان ، والسوسن ، وشقائق النعمان ، والقرنفل ، والنرجس ، والنمّام ، والنور ، والنيلوفر ، والورد... إلخ ؛ ويشكل اللون عنصراً واضحاً في وصف الشعراء للأزهار والورود؛ فابن المرحل نراه يرصد عدداً من الأزهار وألوانها ، فيصف الزهر الأصفر ، و يصف نبات الورس وهو نبات كالسمسم أصفر اللون ، ونبات النيلبي وهو نبات أزرق ، كما يصف النرجس ، ويصف زهر السوسان الشبيه في لونه بلون التبر الفضي ، ويذكر الياسمين وهو ضرب من الرياحين ، فيقول : {الكامل}

زَهْرٌ يَرُوقُ وَخَيْرُهُ خَيْرٌ لَهُ	مَا غِيبَ أَصْفَرُهُ وَلَا كَحْلِيَّهُ
يَحْكِي الكَوَاكِبَ وَالغَمَامَ إِذَا بَدَا	وَرَسِيَّهُ فِي الرُّوضِ أَوْ نَيْلِيَّهُ
وَكَأَنَّمَا خَبَأَتْ لِنَرْجِسِهِ بَدَا	سَوْسَانُهُ تَبْرًا فَلَاحَ خَبِيَّهُ
وَالياسمينُ يُطِلُّ مِنْ كُرْسِيِّهِ	مِثْلَ الأَمِيرِ يَقْلُهُ كَرْسِيَّهُ (2)

أما أكثر الزهور التي فتن به الغرناطيون فهي زهرة الخيري ، حيث راحوا يصفونها خالعين

(1) — مقدار رحيم ، النوريات في الشعر الأندلسي ، ط 1 ، بيروت ، عالم الكتب ، 1986م ، ص 90 .

(2) — مالك ابن المرحل ، الجوالات ، ص 148 .

عليها من الصفات الإنسانية ما يجعلها تحسُّ وتشعر وتدرك وتعي وتتفاعل مع الأشياء من حولها ، فأبو الطيب الرندي يشخصها في صورة فتاةٍ حسناء خرجت سافرة الوجه تناجي حبيباً متّسحة بظلام الليل؛ يقول: {الطويل}

كَأَنَّ شَذَا الْخَيْرِيَّ زَوْرَةً عَاشِقٍ يَرَى أَنَّ جُنْحَ اللَّيْلِ أَكْتَمَ لِلْسَّرِّ⁽¹⁾

ويذهب في موطن آخر إلى أن الخيري حبس أنفاسه نهاراً لأن الصباح عين رقيب عليه ،

وأنه باح بأسراره ليلاً لأنه رأى الليل نهار الأريب ، إذ يقول: {السريع}

وَأَزْرَقَ اللَّوْنَ كَلَوْنَ السَّمَاءِ فِيهِ لِمَنْ يَنْظُرُ سِرّاً عَجِيبٌ

شَحَّ مَعَ الصَّبْحِ بِأَنْفَاسِهِ كَأَنَّمَا الصَّبْحُ عَلَيْهِ رَقِيبٌ

وَبَاحَ فِي اللَّيْلِ بِأَسْرَارِهِ لَمَّا رَأَى اللَّيْلَ نَهَارَ الْأَرِيبِ⁽²⁾

كذلك وصف الغرناطيون الورد بيد أنهم " لم يظهرها كثيراً من الفنّ أو الخصوبة ؛ لأنهم لم يكونوا يعرفون منها سوى نوع واحد ، هو الورد الأحمر ، وانحصر وصفهم لها في لون الزهرة الأحمر وشبهوا حمرة بالاحجار الكريمة من العقيق والياقوت الأصفر المائل إلى الحمرة أو بالدم نفسه أو بالجمرة ، ولكن التشبيه الذي يتوارد بكثرة هو تشبيهها بخدّ الحبيبة الذي يحمّر ارتباكاً ... " ⁽³⁾ يقول أبو عبدالله محمد بن الفخّار واصفاً الورد:

{الكامل}

انظُرْ إِلَى وَرْدِ الرِّيَاضِ كَأَنَّهُ دِيْبَاجُ خَدِّ فِي بَنَاتِ زَبْرَجَدِ
قَدْ فَتَحَتْهُ نَضَارَةٌ فَبَدَا لَهُ فِي الْقَلْبِ رَوْنَقُ صُفْرَةٍ كَالْعَسَجَدِ
حَكَّتْ جَوَانِبَ خَدِّ حَبِّ نَاعِمٍ وَالْقَلْبُ يَحْكِي خَدَّ صَبِّ مُكَمَدِ⁽⁴⁾

ويصف ابن المرحل الورد فيقول : {الكامل}

وَالْوَرْدُ كَالْوَجَنَاتِ أَذْكَى نَارَهَا مَاءُ الْكُرُومِ وَقَدْ تَمَكَّنَ رِيثُهُ⁽⁵⁾

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ص: 370.

(2) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوي ، ص: 113.

(3) — هنري بيريس ، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ، ص: 162.

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص: 95.

(5) — مالك ابن المرحل ، الجوالات ، ص: 148.

أما الرندي فيصف الورد في قوله: {مخلع البسيط}

الوردُ سُلطَانُ كلِّ زَهْرٍ لَوْ أَنَّهُ دَائِمُ الوردِ
أَبْعَدَ خَدِّ المِلاحِ شَيْءٌ؟ مَا أَشْبَهَ الوردَ بالخُدودِ! (1)

ولم يقف الشاعر الغرناطي عند وصف لون الورد أو الزهر فحسب ، وإنما رصد أيضاً
حركته ، فهذا هو أبو جعفر ابن شلبطور يقول: {البسيط}

والوردُ يَخْتَالُ في أَبْرَادِ سُنْدِسِيهِ والزهرُ مَا بين مَنضُودٍ وَمَضْنُونِ (2)

وبحسب ما وصلنا من أشعار فإن الرندي يعد من أكثر الشعراء الغرناطيين احتفاءً بالأزهار
والورود ، فقد وصف الأقحوان والحبق القرنفلي والبهار والنجس وحبّ الملوك، غير أن
كلفه بالناحية الشكلية طغى — في بعض الأحيان — على الجوانب الأخرى ، فلم يُعِنَ
بإضفاء الأوصاف الإنسانية عليها ، ووقف عند مجرد الجمع بين علاقات شكلية أو صفات
حسية تربط بين المشبه والمشبه به ، فمن ذلك قوله في وصف الأقحوان: {البسيط}

إذا أَرَدْتَ لَوْصِفِ الأَقْحوانِ فَقُلْ كَأَنَّمَا هُوَ تَعْرُفِيهِ دِينَارُ
أَوْ مُقْلَةٌ مِنْ فَتِيَّتِ التَّبْرِ مُحْكَمَةٌ لَهَا مِنَ الفِضَّةِ البِيضاءِ أَشْفَارُ (3)

وقوله في وصف حبّ الملوك: {الخفيف}

فَنَحَ الحَبُّ نَوْرَهُ فَحَسَبْنَا أَنْ في الرَوْضِ قُبَّةً مِنْ شَقِيقِ
ثُمَّ أَجْرَى نَوَّارَهُ عَن سُلُوكِ مِنْ حَرِيرٍ فِيهَا فُصُوصُ عَقِيقِ (4)

وأخيراً يمكن القول من خلال النصوص الماضية "إن وصف النواوير لم يكن كله وصفاً
جامداً واقفاً عند حدود الصورة المادية ، بل إن من الشعراء من حاول أن يطبع وصفه
للنواوير بالملامح الإنسانية من خلال الصورة الحيوية التي يقتطفها من الحياة والمجتمع
والتشبيهات التي يتناولها في هذا الوصف وتوشيح نورياته به" (5).

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص: 112.

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 385 .

(3) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص: 113.

(4) — المصدر السابق ، ص: 114.

(5) — مقداد رحيم ، النوريات في الشعر الأندلسي ، ص: 137 — 138 (بتصرف).

ب - الثمار: لم يقف وصف الشعراء الغرناطين للطبيعة عند حدّ الأزهار والورود فحسب ، وإنما تناولوا أيضاً وصف الثمار على تعدد صنوفها وتباين طعومها ، وبرز في هذا الجانب أبو الطيب الرندي ، فقد أولع بوصف الثمار وله العديد من المقطوعات التي تؤكد ذلك ، فمن ذلك وصفه للنفاح مصوراً حمرة واصفراره بلون العاشق والمعشوق لحظة اللقاء ، إذ يقول : {السريع}

ثَفَّاحَةٌ كَالْمِسْكِ نَفَّاحَةٌ يَصْبُو لَهَا النَّاظِرُ وَالنَّاشِقُ
جَرَّتْ بِهَا الْحُمْرَةُ فِي صُفْرَةٍ كَمَا التَّقَى الْمَعْشُوقُ وَالْعَاشِقُ⁽¹⁾

ومن ذلك وصفه العنب في قوله : {مجزوء الرجز}

وَعِنَبٍ كَفَضَّةٍ يُعَصِّرُ مِنْهَا ذَهَبٌ
كَأَنَّما حُبُوبُهُ لَأَلَى أَوْ حَبِيبٌ
السُّمْرُ مِنْهَا لِعَسٍّ وَالْبَيْضُ مِنْهَا شَتَبٌ⁽²⁾

ويقول الرندي في وصف التين : {السريع}

أَهْلًا بَتِينَ حَسَنِ الْمَنْظَرِ صُورَ مِنْ مِسْكِ أَوْ مِنْ عَنَبِ
مُطَرَّرِ الْبُرْدِ إِذَا ذُقَّتْهُ أَلْهَى عَنِ الْمَنْظَرِ بِالْمَخْبَرِ
كَأَنَّما الْبَارِي سَبْحَانُهُ حَشَاهُ بِالسَّمْسِمِ وَالسُّكَّرِ⁽³⁾

وله في وصف الرمان : {البيسط}

لِلَّهِ رُمَانَةٌ قَدْ رَاقَ مَنظَرُهَا فَمِثْلُهَا بِيَدِيعِ الْحُسْنِ مَنَعُوتٌ
الْقِشْرُ حُقٌّ لَهَا قَدْ ضُمَّ دَاخِلَهُ وَالشَّحْمُ قَطْنٌ لَهَا وَالْحَبُّ يَاقُوتٌ⁽⁴⁾

ووصف أيضاً الجزر فقال : {البيسط}

انظُرْ إِلَى جَزَرٍ فِي اللَّوْنِ مُخْتَلَفٌ الْبَعْضُ مِنْ سَبَجٍ وَالْبَعْضُ مِنْ ذَهَبِ

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوبي ، ص : 115.

(2) — المصدر السابق ، ص : 114.

(3) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه.

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص : 370.

إِنْ قُلْتَ قَصَبٌ فَقُلْ قَصَبٌ بِلَا زَهْرٍ أَوْ قُلْتَ شَمْعٌ فَقُلْ شَمْعٌ بِلَا لَهَبٍ⁽¹⁾

3 - وصف الأنهار:

فتن الشعراء بأنهار بلادهم ، فهناك نهر غرناطة الذي يتوزع على ديارها وحمّاماتها وأسواقها وأصقاعها الداخلية والخارجية وبساتينها ، وهناك نهر شنيل الذي فضلوه كثيراً على نهر النيل في مصر ... إلخ . وقد تغنوا بهذه الأنهار وبجمالها ، وعبروا عن ذلك في العديد من اللوحات الوصفية ، فوصفوا النهر في جميع أحواله ؛ في سكونه ، وجريانه وانصبابه ، وتعددت صور النهر في أشعارهم ، فهو تارة في سيف تعلق في نجاد أو ارتقى في أحضان غمد ، وتارة ثانية قد تناثر الجلنار فوق صفحته ، فبدا كالحية الرقطاء ، وتارة ثالثة قد انطبع فوق صفحته وجه الهلال ، فصار كالمعصم وتارة أخرى يصفون ما يحيط به من ظلال فوق صفحته بالخال فوق خدي كاعب فاتنة أو بالكحل في عيون الحسنات "وفي كل ذلك يأتي النهر خيطاً من خيوط عديدة تتوازي وتتقاطع لتشكّل معاً منظراً طبيعياً كاملاً ..."⁽²⁾؛ فالرندي يصف النهر مشبهاً إياه بالسيف الذي سُئل من غمده فيقول {الطويل}:

يسيل على مثل الجمان مسلسلاً كما سُئل عن غمدٍ حُسامٍ مُجوهرٍ⁽³⁾
ويتكرر هذا الوصف لدى بعض الشعراء كإبن سعيد الغرناطي الذي يقول: {الوافر}
غداً مُتَقَسِّماً في كلِّ وجهٍ كما سُئلت على حَزِّ نُصُولٍ⁽⁴⁾

ومن ذلك أيضاً قول أبي الحسن سهل بن مالك الغرناطي: {الخفيف}
وسواق كأنهن سيوفٌ جُرِّدتْ في الرياضِ من كلِّ غمْدٍ⁽⁵⁾
ويقول ابن سعيد الغرناطي يصف نهرًا وقد تناثرت أوراق الجلنار على صفحته فبدا كأنه

(1) — أحمد حاجم الربيعي ، فوات المحققين ، دراسة تطبيقية في فوات تحقيق الإحاطة في أخبار غرناطة ، ط1 ، دمشق ، دار ومؤسسة رسلان ، 2009 م ص: 47 . وفي الإحاطة ج3 ، ص370 . "حذر" ، "سج" .

(2) — فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص 131 .

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص367 .

(4) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج1 ، ص423 .

(5) — المصدر السابق ، ج2 ، ص105 .

حيّة رقطاع: {الكامل}

وَبَدَا نَثَارُ الْجَلْنَارِ بِصَفْحِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ حَيَّةٌ رَقَطَاءُ⁽¹⁾

ويصف ابن سعيد نهر شنيل حين انطبعت عليه صورة هلال الأفق، ويصوره بأنه صار كالسوار على المعصم، إذ يقول: {الكامل}

انْظُرْ لِشَيْئِلٍ يُقَابِلُ وَجْهَهُ وَجْهَ الْهَلَالِ كَقَارِيٍّ أَسْطَارُهُ

لَمَّا رَأَاهُ مِعْصَمًا قَدْ زَانَهُ وَشَيْئِ الصَّبَا أَلْقَى عَلَيْهِ سِوَارُهُ⁽²⁾

والملاحظ على وصف الشعراء الغرناطين للنهر أنهم لا يصفونه منعزلاً عما يحيط به من حيوط تشكل المنظر الطبيعي بكل عناصره من روض وزهر.

لننظر إلى قول الرندي وهو يصف الطبيعة حول النهر، مضيفاً التشخيص على عناصرها، فالزهر يتسم لبقار الغمام الذي، يسحّ الدموع دلالاً، والنسيم الموشى بأريج الزهور يتهادى في تيه ودلال، بمنح أريجه ربح الصبا والشمال، والنهر يتوشح بوشاح رقيق، إذ يقول: {الخفيف}

فِي رِيَاضٍ تَبَسَّمُ الزَّهْرُ فِيهَا لِغَمَامٍ بَكَتْ دُمُوعَ دَلَالِ

وَجَرَى عَاطِرُ النَّسِيمِ عَلِيلاً يَتَهَادَى بَيْنَ الصَّبَا وَالشَّمَالِ

فَاكْتَسَى النَّهْرُ لَأَمَةً مِنْهُ لَمَّا أَنْ رَمَى الْقَطْرُ نَحْوَهُ بِالْبَالِ⁽³⁾

ويصف ما يحف جانبي النهر من أزهار كأنها نجوم بأكناف المجرة فيقول: {الطويل}

وَأَزْرَقَ مَحْفُوفٍ بِزَهْرٍ كَأَنَّهُ نَجُومٌ بِأَكْنَافِ الْمَجْرَةِ تُزْهَرُ⁽⁴⁾

ويرصد ابن سعيد منظراً لنهر شنيل وقد بدت القضب منابر للطيور المغردة حول النهر فيقول: {الطويل}

عَلَى نَهْرٍ شَنِيلٍ وَلِلْقُضْبِ حَوْلَنَا مَنَابِرُ مَا زَالَتْ بِهَا الطَّيْرُ تَخْطُبُ⁽⁵⁾

(1) — المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص30.

(2) — ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص103.

(3) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوني، ص: 129.

(4) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص367.

(5) — المقرئ، نفع الطيب، ج3، ص52.

ويقف الغرناطيون في وصفهم للنهر عند صورة تدلي الأغصان على صفحته ، فابن سعيد الغرناطي يصف النهر وقد مالت على صفحته الغصون ويشبهه بمقلة كثيرة شعر الأهداب فيقول : {الكامل}

والنهرُ قد مالت عليه غصُونُهُ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْلَةٌ وَطَفَاءٌ⁽¹⁾

ويصور أبو عبدالله بن داود الحميري المالقي (ت 710 هـ)⁽²⁾ الأغصان وهي تنثني في طرب مصافحة النهر الثقيل ، ويصف الأزهار بين جانبي النهر ضاحكة ومتبسمة من تصرف الأغصان ، إذ يقول : {الطويل}

وَتَطْرَبُ أَغْصَانُ الْأَرَكَ فَتَنْثِنِي إِلَى صَفْحَةِ النَّهْرِ الثَّقِيلِ تُصَافِحُ
فَتَبَسُّمُ الْأَزْهَارِ مِنْهَا تَعَجُّبًا فَتَهْدِي إِلَيْهَا عَرَفَهَا وَتُنَافِحُ⁽³⁾

ويرصد الرندي هذا الملمح فيقول : {الطويل}

وقد صَافَحَ الْأَدْوَاخَ مِنْ صَفْحَاتِهِ حَتَّى حَبَابِ النَّسِيمِ مُكْسَرٌ⁽⁴⁾

ويصف ابن سعيد النهر بأنه صفحة خط عليها النسيم أسطراً ، وقد مالت الأغصان على صفحة هذا النهر قارئاً إياها ، إذ يقول : {المنسرح}

كَأَنَّمَا النَّهْرُ صَفْحَةٌ كُتِبَتْ لَهَا أَبَاتٌ عَنْ حُسْنِ مَنَظَرِهِ
أَسْطُرُهَا وَالنَّسِيمُ مُنْشِئُهَا مَالَتْ عَلَيْهِ الْغُصُونُ تَقْرُؤُهَا⁽⁵⁾

ولم يقف الغرناطيون في وصفهم لأنهار بلادهم عند هذا الحد ، بل رصدوا أيضاً حركتها في انسيابها وجريان مياهها ، فها هو أبو عبدالله محمد الجذامي يصف انسياب النهر مشبهاً إياه بسنا البدر حسناً أو بريق البرق، وذلك في قوله : {الطويل}

إِذَا انْسَابَ مَا بَيْنَ الرَّيِّعِ تَخَالُهُ سَنَا الْبَدْرِ حُسْنًا أَوْ وَمِيضَ الْبُورَاقِ⁽⁶⁾

ويرصد صوت الماء وجريانه مشبهاً إياه بمدامع الحزين المفجوع أو برنة العاشق المولّه

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 3 ، ص 30 . المقلة بالضم العين ، والوظفاء : الكثيرة شعر الأهداب .

(2) — ينظر ترجمته لدى ابن الخطيب ، الإحاطة ج 2 ص 371 .

(3) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 2 ، ص 377 .

(4) — المصدر السابق ، ج 3 ، ص 367 .

(5) — ابن سعيد ، المغرب في حلي المغرب ، ج 2 ، ص 103 .

(6) — ابن عسكر وابن حميس ، أعلام مالقة ، ص 165 .

فيقول: {الطويل}

كَأَنَّ خَرِيرَ الْمَاءِ يَخْضُمُ بِالْحَصَا مَدَامُعُ مَحْزُونٍ وَرَنَّةُ عَاشِقٍ⁽¹⁾
ويصف ابن المرحل صوت الماء واصطكاكه بالحصا مشبهاً إياه بصوت قطعة الحديد
(السيف) الذي يجرّه الحداد على الأرض ؛ إذ يقول: {الكامل}

وَالأَرْضُ قَدْ ضُرِبَتْ بِمُرْهَفٍ نَهْرِهَا صَفْحاً وَأُلْقِيَ فِي الْمَكَانِ فِسَاحَا
فَاسْمَعُ إِلَى غَرْبِيهِ فِي حَصْبَائِهِ كَالْقَيْنِ جَرَّ عَلَى الْفَلَاةِ سِلَاحَا⁽²⁾

4 – وصف البحر:

لم يقف الشاعر الغرناطي في رصده لمظاهر الطبيعة ووصفها عند الأنهار فحسب ، بل
وصف البحر أيضاً فهذا هو أبو الطيب الرندي يصف البحر مصوراً حالتيه مرتفعاً هائجاً
وهادئاً طافياً راصداً ما يطوف فوقه من حيب حتى كأنه سماء زرقاء مليئة بالشهب المتألثة
؛ إذ يقول: {البيسط}

الْبَحْرُ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْتَ تَحْسِبُهُ مِنْ لَمِ يَرِ الْبَحْرَ يَوْمًا مَا رَأَى الْعَجَبَا
طَامَ لَهُ حَبَبٌ طَافٍ عَلَى زَرْقٍ مِثْلَ السَّمَاءِ إِذَا مَا مُلَّتْ شُهْبَا⁽³⁾
ويصف ابن سعيد البحر في مدينة الجزيرة الخضراء راصداً صوته المشبه زئير الأسد فيهرب
أغصان الأشجار القريبة منه ، إذ يقول: {الرمل}

بَلْ عَلَى الْخُضْرَاءِ لَا أَنْفَكُ مِنْ زَفْرَةٍ فِي كُلِّ حِينٍ تَلْهَبُ
حَيْثُ لِلْبَحْرِ زَيْرٌ حَوْلَهَا تُبْصِرُ الْأَغْصَانَ مِنْهُ تَرْهَبُ⁽⁴⁾

ويقول أيضاً واصفاً البحر بأنه ثوب أزرق طرّزت فوقه صورة البدر: {الرمل}
وَكَأَنَّ الْبَحْرَ ثَوْبٌ أَزْرَقُ فِيهِ لِلْبَدْرِ طِرَازٌ مُذْهَبٌ⁽⁵⁾
ومن اللطيف حقاً أن نجد وصف السفن حاضراً في الذاكرة الشعرية الغرناطية ، فالرندي

(1) — ابن عسكر وابن حميس ، أعلام مالقة ، ص 165 .

(2) — مالك ابن المرحل ، الجوالات ، ص : 73 .

(3) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج 4 ص : 321 .

(4) — المصدر السابق ، ج 3 ، ص 49

(5) — المصدر نفسه ، والموضع نفسه

يصف السفن في البحر خالغاً عليها العديد من أوصاف الخيل ، فالسفن في البحر كالخيل
الواقفة على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة ، إذ يقول : {السريع}

سفائنٌ تسبح في لُجَّةٍ	كأنَّها صوافنٌ تلعبُ
من أدهم يهفو شراعٌ به	كأنَّ صباحاً دونه غيبُ
إذا جرى من خلفه مُلجماً	فلا حقٌ لعتقه يُنسبُ
وأشهب صُورٌ من عنبر	وأين منه العنبرُ الأشهبُ
وأسحم يُدعى غراباً وما	ينعقُ بالبين و لا ينعبُ ⁽¹⁾

ويبدو من خلال هذه الأبيات أن الرندي حين يصف هذا المنجز الحضاري " لم يخرج
في عمله الوصفي عن إسباغ صفات مألوفة في الشعر العربي لوصف الخيل وغيرها ، فكأن
العملية الشعرية (في هذا الوصف) تعتمد على تركيب ما يخصّ الفرس والغراب بما يناسب
وصف السفن ، وهذا يُخفِّتُ من نصاعة العمل الفنّي ويذهب بالكثير من جدّته " ⁽²⁾

5 – وصف الليل :

يُعدُّ وصف الليل من الموضوعات القديمة التي طرقتها شعراء العربية منذ القدم وعرف
وصف الليل لدى كثير من الشعراء العرب القدامى من أمثال امرئ القيس والنابغة وأبي
العلاء المعري .. ، لكن وصف الليل يعد أيضاً من الموضوعات المتجددة ؛ ذلك لأن الطبيعة
لا تتغير ولكن تأملات الشعراء إياها تتغير وتتجدد تبعاً لأحاسيسهم وأمزجتهم⁽³⁾ .
وكثيراً ما يتخذ الشاعر من وصف الليل "رموزه ويستخدمها في تفسير غير المرئي..."⁽⁴⁾ .
فالرندي مثلاً من الشعراء الغرناطين الذين أطالوا الوقوف في وصف الليل ؛ فهو يصوره
في إحدى قصائده فارساً مهزوماً ، والشهب في انحسارها السريع خيولاً شهباء تفرُّ أمام
انبلاج الفجر مخلّفة وراءها ساحة القتال حتى لكأننا أمام معركة حربية ، إذ يقول

(1) — محمد رضوان الداية ، أبو البقاء الرندي ، ص73.

(2) — المرجع السابق ، والموضع نفسه.

(3) — ينظر : إليزابيث دور — الشعر كيف نفهمه ونتذوقه ، ترجمة إبراهيم الشوس ، بيروت ، مطبعة المنيمنة ،
1961م ، ص246 (بتصرف).

(4) — مورييس بورا ، الخيال الرومانسي ، ترجمة إبراهيم الصيرفي ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، 1977م ، ص115.

{السريع}:

وليلةً نَبَّهتُ أَجْفَانَهَا والفجرُ قد فَجَّرَ ضَوْءَ النهارِ
و الليلُ كالمهزومِ يومِ الوغى والشهبُ مثلَ الشهبِ عندِ الفِرَارِ
كأنَّما اسْتَحْفَى السُّهَاءَ حَيْفَةً وطُولِبَ النجمُ بِثَأْرٍ فَثَارَ
لِذَاكَ مَا شَابَتْ نَوَاصِي الدُّحَى وطَارَحَ النسرُ أَخَاهُ فَطَارَ⁽¹⁾

فالجو المهيمن على وصف الشاعر هو جوّ الحرب فهو يصف إِدبار الليل وإقبال النهار ويستوحي وصفه من اقتراب انتهاء إحدى المعارك ، حيث هزم أحد طرفيها، فولّى هارباً مدبراً لا يلوي على شيء ، ويصف الشهب في السماء ، وهي تتجه نحو الأفول وقت طلوع النهار مشبها إياها بالخيول الشهباء وهي مسرعة بالهروب ، وقد ألهبها فارسها المدعور ضرباً.

ف عناصر التصوير في وصف الرندي لليل وإن كانت بعيدة عن السلاح والحرب إلا أن الشاعر وتأثير من الجو الحربي الذي كانت تعيشه الأندلس حينئذ؛ عقد روابط بينها وبين الجوّ العسكري ، فيبدو الليل في صورة المهزوم وشبهه كالخيل الهاربة أمام النهار المنتصر ، أمّا البُعد الرمزي أو الدلالي في وصف الشاعر لليل ونجومه على هذا النحو فهو يتعلق بتولي بني الأحمر لملك الأندلس وانتصارهم على خصومهم وأعدائهم ، يدل على هذا قول الشاعر متخلصاً إلى المدح بعد هذا الوصف {السريع}

كأنَّما الشمسُ وقد أَشْرَقَتْ وجهُ أبي عبد الإله استنار⁽²⁾

فاختيار الشاعر لوجه الممدوح مشبهاً والشمس مشبهاً به يكشف عن دلالات ورموز للأبيات السابقة ؛ إذ إن رمز النهار هو الشمس ورمز الليل بدره وكواكبه ، فإذا بزغت الشمس امّحت معالم الليل بما فيه من شهب ونجوم وولّت كالمهزومة ، ثم إن استعمال الشاعر للتعبير (والفجر قد فَجَّرَ ضَوْءَ النهار) يوحي هو الآخر بتلك الولادة القوية العسيرة في آنٍ واحد لعصر بني نصر الذي أشرقت شمسهم فيه ، فانطفأت كواكب خصومهم وأعدائهم. ويبدو أن الرندي في هذا المعنى كان متأثراً ببيت النابغة الذبياني الذي

(1) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج 6 ص : 335 — 336 .

(2) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج 6 ص : 336 .

قال فيه: {الطويل}

فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبُ إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبٌ⁽¹⁾

6 - وصف الخيل :

تعدّ الخيل مظهراً من مظاهر الفروسية لدى الأندلسيين ، وهي مملح من ملامح الترف والأبهة والبهاء ، وهي أيضاً إحدى وسائل الحرب في الانقضاض والمباغته للعدو في الحرب ، وقد اعتنى الغرناطيون بوصف الخيل ، فوصفوا سرعتها وشبهوها بالبرق الخاطف، من ذلك قول الرندي راصداً هذا الملمح: {الكامل}

مِنْ كُلِّ لَيْثٍ فَوْقَ بَرْقِ خَاطِفٍ بِيَمِينِهِ قَدْرٌ مِنَ الْأَقْدَارِ⁽²⁾

وقول محمد التطيلي في معرض مدحه للأمير النصري محمد الفقيه مشيداً باقتنائه الخيل السريعة: {الكامل}

المُقْتَنِي الجُرْدِ المَذَاكِي عُدَّةً لِلْكَرِّ فِي الْأَعْدَاءِ وَالْإِقْدَامِ
مِنْ كُلِّ مَبِيضٍ كَانَ أَدِيمَهُ لَوْنُ الصَّبَاحِ أَتَى عَقِيبَ ظَلَامِ⁽³⁾

ويقول ابن سعيد الغرناطي في وصف سرعة الحصان: {الطويل}

يَقِيدُ طَيْرَ اللَّحْظِ وَالْوَحْشِ عِنْدَمَا يَطِيرُ بِهِ نَحْوَ النِّجَاحِ جَنَاحِ⁽⁴⁾

ومن الصفات التي نرصدها في وصفهم للخيل صفة العتق والسرعة كما في قول الرندي: {السيط}

يا رَاكِبِينَ عِتَاقَ الخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنَّهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عَقْبَانُ⁽⁵⁾

ولم يقف الشاعر الغرناطي في وصفه للخيل عند الإشارة لصفة العتق والسرعة فحسب ، بل نراه أيضاً يصف ألوانها ، فهذا هو ابن سعيد الغرناطي يصف فرساً أقر أكحل الحلية فيقول: {الطويل}

(1) — النابغة الذبياني ديوانه تح: ناصف سليمان عواد ، ط، بغداد، وزارة الثقافة والفنون، 1979 م ص 62 .

(2) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوبي ، ص: 117 .

(3) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 5 ، ص 281 .

(4) — المصدر السابق، ج 3 ، ص 34 .

(5) — المصدر نفسه ، ج 6 ، ص 233 .

وَأَجْرَدٌ تَبْرِيٌّ أَثَرْتُ بِهِ الثَّرَى
لَهُ لَوْنٌ ذِي عِشْقٍ وَحُسْنٌ مُعَشَّقٌ
عَجِبْتُ لَهُ وَهُوَ الْأَصِيلُ بِعَرَفِهِ
ويولع ابن سعيد بوصف الخيل فيرصد ألوان العديد منها بدقة وإحكام فيقول: {الكامل}

وَلَلْفَجْرِ فِي خَصْرِ الظَّلَامِ وَشَاحُ
لِذَلِكَ فِيهِ ذَلَّةٌ وَمَرَّاحُ
ظَلَامٌ وَبَيْنَ النَّاطِرَيْنِ صَبَّاحُ⁽¹⁾

وَلَكُمْ سَرِينَا فِي مُتُونِ ضَوَامِرٍ
مِنْ أَدْهَمٍ كَاللَّيْلِ حُجَلٌ بِالضَحَى
أَوْ أَشْهَبٍ يَحْكِي غَدَائِرَ أَشْيَبٍ
أَوْ أَشْقَرٍ قَدْ نَمَّقَتْهُ شُعْلَةٌ
أَوْ أَصْفَرٍ قَدْ زَيَّنَتْهُ غَرَّةٌ
طَارَتْ وَلَكِنْ لَا يُهَاضُ جَنَاحُهَا
ثانياً — وصف مظاهر الحياة العامة :

1 — وصف الخمر وما يتعلق بها

وصف الشاعر الغرناطي الخمر بالقدح والعتقاء والصهباء ، يقول أبو جعفر بن شبلطور واصفاً الخمر بالعتق ، راصداً لونها المشبه التبر الفضي ورائحتها المشبهة المسك :

{البسيط}

هَاتِ الْمَدَامَ نَدِيمِي مِنْ مُعْتَقَةٍ
صَفْرَاءُ رَقَّتْ فَلَا أَدْرِي أَأْتَحَلَّهَا
كَأَنَّمَا وَصَفُهَا إِنْ رُمَّتْهُ صِفَانَةٌ
كَالْمِسْكِ كَالْتَّبْرِ فِي طَيْبٍ وَ تَلْوِينِ
فَقَدْ الدَّنَانِ أَمِ التَّحْرِيمِ فِي الدِّينِ؟
نَارٌ وَنُورٌ فَتُصَلِّينِي وَتُسَلِّينِي⁽³⁾

ويصف أبو الطيب الرندي الخمر فيقول: {الرملي}

هَاتِهَا بِاللَّهِ فِي مَرَضَاتِهَا
قَهْوَةٌ فِيهَا شِفَاءُ الْكَمْدِ

(1) — المصدر نفسه ، ج3 ، ص:34 . والأجرد: يقال فرس أجرد أي سَبَّاق، أو قصير الشعر، ينظر: المعجم الوسيط ج1 ص: 240، والتبري: الذي لونه لون التبر وهو الذهب.

(2) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج3 ، ص:32 . ابن ذكاء: هو الصبح ، وذكاء: الشمس ، وجعل الصبح ولدها لأنه يستمد منها نوره ينظر: المعجم الوسيط ج1 ص: 651 .

(3) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 381 .

عُصِرَتْ بِاللِّطْفِ فِي عَصْرِ الصَّبَا فَرَمَتْ بِالْمِسْكِ لَا بِالزَّبَدِ⁽¹⁾
ويقول أيضاً: {البيسط}

وَنظَرَةٌ يُشْتَفَى مِنْهَا بِثَانِيَةٍ كَمَا تَدَاوَيْتِ بِالصَّهْبَاءِ مِنْ تَمَلٍ⁽²⁾
ويصف ابن سعيد الغرناطي الخمر فيقول إنها حبست في دنائها دهرًا طويلًا وإنها شابت
لطول حبسها: {السريع}

بِاللَّهِ يَا حَابِسَهَا أَكُؤُسًا شَابَتْ لَطُولِ الْحَبْسِ وَلَى النَّهَارِ⁽³⁾
ووصف الشعراء الغرناطيون شعاع الخمر فشبهوه بالقبس وبالحب الذي يطفو فوق
الكؤوس ، من ذلك قول أبي العباس بن بلال: {المنسرح}

لَنَا نَبِيذٌ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ قَلْدَهُ عِقْدَ دُرِّهِ الْحَبَابُ
قَد رَقَّ حَتَّى كَأَنَّهُ دَنْفٌ أَنْحَى عَلَيْهِ الْغَرَامُ وَالْوَصَبُ
كَأَنَّهُ فِي زُجَاجَةٍ قَبَسٌ لَهُ شِعَاعٌ وَمَا لَهُ لَهَبٌ⁽⁴⁾

وقول الرندي واصفا بريق الخمر بشعاع البرق المتقد: {الرمل}

مَا دَرَى مُدِيرُهَا فِي كَأْسِهَا وَهِيَ مِثْلُ الْبَارِقِ الْمُتَقِدِ
دُرَّةٌ ضُمَّتْ عَلَى يَاقُوتَةٍ أَمْ لُجَيْنٌ فِيهِ شَوْبٌ عَسَجَدِي؟⁽⁵⁾

ويصف ابن شلبطور شعاع الخمر بالقبس الذي يضيء ما حوله فيقول: {البيسط}

تَوَقَّدَتْ فِي نَوَاحِي كَأْسِهَا قَبَسًا يُضِيءُ لِي كُلَّ مَا حَوْلِي فِيهِدِينِي⁽⁶⁾

ويصف الرندي الخمر بأنها تجلى كما تجلى العروس ملمحاً إلى فكرة مزج الخمر بالماء
فيقول: {الخفيف}

وَكُؤُوسُ الْمَدَامِ تَجْلُو عُرُوسًا أَضْحَكُ الْمَرْجُ تُعْرَهَا مِنْ لَالِي⁽⁷⁾

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص : 74 .

(2) — المصدر السابق ، ص : 68 .

(3) — ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ، ص : 176 .

(4) — ابن سعيد ، اختصار القدح المعلى ، ص 88 .

(5) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص : 74 .

(6) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ، ورقة : 381 .

(7) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص 129 .

ولم يقف الشاعر الغرناطي عند حدّ وصف الخمر أو كأسها فحسب ، بل وصف ساقِي الخمر ومديرها أيضاً ، فأبو جعفر بن شلبطور يصف ساقِي الخمر مصوراً ألحاظه الساحرة الفاتنة التي تسكر الندماء إذ يقول : {البيسيط}

يُدِيرُهَا أَوْطَفُ الْأَلْحَاطِ سَاحِرُهَا	يُمَيِّتُنِي فِي الْهَوَى طَوْرًا وَيُحْيِينِي
إِذَا رَمَانِي بِطَرْفٍ مِنْهُ أَسْكُرَنِي	كَأَنَّهُ مِنْ مُدَامِ اللَّحْظِ يَسْتَقِينِي
لَا شَيْءَ أَحْسَنَ مِنْ كَأْسٍ مُشْعَشَعَةٍ	تُدَارُ مَا بَيْنَ فَتَانٍ وَمَفْتُونٍ
حِينَ أُفَدِّيهِ بِالنَّفْسِ الَّتِي ذَهَبَتْ	شَوْقًا إِلَيْهِ وَأَحْيَانًا يُفَدِّيَنِي ⁽¹⁾

أما الساقِي عند ابن سعيد الغرناطي فهو متبذل لا يمنع ندماءه أن ينالوا منه ما يشتهون ،

ولا جناح عليهم في أن يشبعوه عناقاً ولثماً ، كما في قوله : {مجزوء الكامل}

اشرب على بَنِيُونِشٍ	بين السواني والبطاح
مع فتية مثل النجو	م لهم إذا مروا جماح
سَاقِيهِمْ مُتَبَدِّلٌ	لَا يَمْنَعُ الْمَاءَ الْقِرَاحُ
كُلُّ يَمَدِّ يَمِينِهِ	مَا فِي الَّذِي يَأْتِي جُنَاحُ
هَبُّوا عَلَيْهِ كَلِّمَا	هَبَّتْ عَلَى الرُّوضِ الرِّيحُ
طَوْعُ الْأَمَانِي كُلُّ مَا	يَأْتِي بِهِ فَهَوَ اقْتِرَاحُ
عَانَقْتُهُ حَتَّى تَرَكَ	تُ بِخَصْرِهِ أَنْرَ الْوَشَاحُ ⁽²⁾

2 — وصف الدواليب والنواعير :

تأمل الشاعر الغرناطي الدواليب والنواعير التي كانت تنتشر حول الرياض والمزارع الغرناطية ، وتأمل حركاتها وأصواتها وهي تدور وسط المياه ووصف صوتها مشبهاً إياه بأنين العاشق و ببيكاء المفارق لأهله وأحبابه ، خالعاً عليها الأوصاف الإنسانية ، فأبو عبدالله محمد الجذامي يصف دولاباً يسبح في الماء بطريقة محكمة ، ويخلع عليه العديد من الأحاسيس الوجدانية مشبهاً إياه في دورانه بمغزل القطن مصوراً صوتته المنبعث من حركته بأنين الباكي يوم فراق أهله ، وذلك في قوله : {الطويل}

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 381 .

(2) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج3 ، ص: 77 .

ودائرة في الماء سبّحاً تخالها
 كَرْدَانَةٌ فِي كَفِّ مُحْكَمَةِ الْعَزْلِ
 فهذي تُطِيرُ الْمَاءَ مِنْ فَرْطِ سَبِّحِهَا
 وهذي تُطِيرُ الْقَطْنَ مِنْ شِدَّةِ الْفَتْلِ
 لقد شَاقَنِي مِنْهَا أَنْيْنٌ كَأَنَّه
 أَنْيْنٌ بُكَائِي يَوْمَ غَيْتُ عَنِ الْأَهْلِ⁽¹⁾

ويحّن ابن سعيد الغرناطي إلى النواعير التي تذكره دائماً بالفراق والبين والبكاء على فقد الوطن والأهل ، فهي لا تكاد تفارق مهجته في غربته يقول : {الرملة}

والنواعيرُ التي تذكّارُها بِالنَّوَى عَنِ مُهْجَتِي لَا يُسَلَّبُ⁽²⁾

أمّا ابن عسکر المالقي فهو يرصد الحركة المنتظمة للناعورة وهي تدور في الماء ، فهي في حركتها البطيئة الهادئة كالسارق الفطن، ويشبهها في دوراتها المنتظم بالكواكب التي تدور في الفلك بجامع الانتظام دون خلل أو تغير يقول : {السرّيع}

و دائِرِ يَسْرِقُ مِنْ مَائِهِ
 كَوَاكِبًا فَهوَ بِهَا صَاعِدُ
 حَتَّى إِذَا قَامَ بِهَا وَاسْتَوَى
 وَقُلْتُ : هَذَا فَلَكُ زَائِدُ
 أهوتُ إِلَى الْأَرْضِ كَمَا قَدْ جَرَتْ
 نِيَازِكُ لَاحَ لَهَا مَارِدُ⁽³⁾

ويصف ابن عسکر المالقي مرةً أخرى حركة الدولاب؛ فيقول : {السرّيع}

وَسَابِحٍ فِي الْمَاءِ أَعْجَبُ بِهِ
 لَمْ يَعْرِفِ السَّبْحَ وَلَا أَنْكَرًا
 يَجْرِي مَدَى الدَّهْرِ وَمَا زَالَ عَنِ
 مَوْضِعِهِ يَوْمًا وَلَا قَصْرًا
 وَيَنْتَقِي مِنْ مَائِهِ فِضَّةً
 يَسْبِكُهَا مِنْ حِينِهِ جَوْهَرًا⁽⁴⁾

3 - وصف الحمامات :

يُعدُّ شيوخ الحمامات في البيئة الغرناطية مظهرًا من مظاهر الحياة الحضارية التي يأوي إليها الناس للاستحمام والاستجمام ، وقد اعتنى الشاعر الغرناطي بوصف الحمامات التي كانت تنتشر في المدن الغرناطية ، فيها هو ابن عطاء المالقي⁽⁵⁾ يقول في حمام بمدينة مالقة

(1) — ابن عسکر وابن حميس ، أعلام مالقة ، ص 165.

(2) — المقرّي ، نفع الطيب ، ج 2 ، ص 281.

(3) — ابن عسکر وابن حميس ، أعلام مالقة ، ص 184.

(4) — المصدر السابق ، 184.

(5) — ينظر : ترجمته في نفع الطيب ج 4 ص 369 . وما بعدها

عجز عن وصفه: {مجزوء الخفيف}

سل بحمّامنا الذي كل عن شكره فَمِي

كم أراني بقربه جنة في جهنّم⁽¹⁾

ويرصد شاعر آخر شدة الحرارة في أحد الحمامات فيصفه قائلاً: {الوافر}

وحمام كأن النار فيه مسعرة بيران الجحيم⁽²⁾

ويقول آخر مازجاً بين أحاسيسه وحرارتها وبين احتدام هواء الحمام: {الطويل}

ذكرتك في الحمام نفسي لك الفدا ففاضت دموعي واعتلت زفراتي

فمن حرّ أنفاسي احتدام هوائه وتسكاب ذاك الماء من عبراتي⁽³⁾

ويصف أبو عمرو ابن المرباط أحد الحمامات وما لحقه من إهمال في قوله: {الخفيف}

إن حمّامنا الذي نَحْنُ فيه هو في حاجة إلى الحمّام

فَدَخَلْنَا وَنَحْنُ أَبْنَاءُ سَامٍ وَخَرَجْنَا وَنَحْنُ أَبْنَاءُ حَامٍ⁽⁴⁾

وعادة ما يأتي ذكر الحمامات ووصفها ممتزجاً بأحاسيسهم ومشاعرهم العاطفية من ذلك

قول الرندي واصفاً جاريته وقد خرجت من الحمام: {الكامل}

بَرَزَتْ مِنَ الْحَمَامِ تَمْسَحُ وَجْهَهَا عن مثل ماء الورد بالعُنَابِ

والماء يَقْطُرُ مِنْ ذَوَائِبِ شَعْرِهَا كالطُّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ غُرَابٍ⁽⁵⁾

ولم يقف وصف الشاعر الغرناطي للمظاهر الحضارية عند هذا الحد فحسب ، بل امتد

إلى وصف المقصّ والشموع وأدوات الكتابة كالدواة والقلم ، من ذلك قول الرندي

يصف قلماً مشبهاً إياه في نحوه واصفرار لونه بالعاشق المتيم الذي أنحله حبه وهيامه مشيدا

بفعل القلم الذي قد يفوق فعل السيف أو الرمح لأنه سلاح ذو حدين: {المتقارب}

وَأَصْفَرَ كَالصَّبِّ فِي رَوْنَقٍ تَظُنُّ بِهِ الْحُبَّ مِمَّنْ نَحَلُّ

(1) — المقرّي ، نفع الطيب ، ج4 ، ص: 369.

(2) — أحمد بن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج1 ، ص190.

(3) — المصدر السابق والموضوع نفسه.

(4) — أحمد بن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج1 ، ص189.

(5) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص371.

بَدِيعُ الصِّفَاتِ حَدِيدُ الشَّبَاةِ يَطُولُ الرِّمَاحَ وَإِنْ لَمْ يَطُلْ
يُعْبَرُ عَمَّا وَرَاءَ الضَّمِيرِ وَيَفْعَلُ فَعَلَ الطُّبَا وَالذُّبُلَ⁽¹⁾

ويقول في وصف شمعة خالعا عليها العديد من الصفات الإنسانية: {الطويل}

وصفراء لون التبر قاسمتها الهوى إذا ما بكيت الحب ليلاً بكت معي
كمنلي في سقمي و لوني و حرقتي وصبري و تسهيدي وصمتي وأدمعي⁽²⁾

ثالثاً - وصف الجيش والعتاد الحربي :

1 - وصف الجيش :

لاشك في أن الحرب الصليبية التي شنها النصارى على مسلمي الأندلس قد تركت أثراً في شعرهم لاسيما في مجال الوصف ، فقد اهتم الشاعر الغرناطي بوصف الجيش وعتاده وأسلحته فوصف السيف والرمح والدرع ، وبرز في وصف الجيش أبو الطيب الرندي الذي كان قريباً من البلاط النصرى في هذه الفترة ، فهو يصف الجيش الغرناطي وما يتسم به الجند الغرناطيون من قوة وعزيمة وشدة بأس ، فهم أسود اعتلت ظهور الخيل المشبهة في سرعتها وانقضاضها، ومباغتتها العدو البرق الخاطف تصب على الأعداء جحيم الموت ، ولنتأمل هذا الوصف في قول الرندي: {الكامل}

وكتيبة بالدارعين كثيفة جرّت حيول الجحفل الجرار
روض المنايا قضبها السمر التي من فوقها الرايات كالأزهار
فيها الكماة بنو الكماة كأنهم أسد الشرى بين القنا الخطار
متهللين لدى الهياج كأنما خلقت وجوههم من الأقمار
من كل ليث فوق برق خاطف يمينه قدر من الأقدار
من كل ماض ينتضيه مثله فيصيب أجالا على أعمار
لبسوا القلوب على الدروع وأشرعوا بأكفهم نارا لأهل النار
وتقدموا ولهم على أعدائهم حنق العدا وحمية الأنصار

(1) - المصدر السابق ، ج 3 ، ص 368. الشباة: طرف السيف وحده.

(2) - أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص : 146.

فَارْتَاعَ نَاقُوسٌ لِيَخْلَعَ لِسَانَهُ
وَبَكَى الصَّيْبُ لِذَلَّةِ الْكُفَّارِ
ثُمَّ انْتَشَوْا عَنْهُ وَعَنْ عُبَادِهِ
وَقَدْ اصْبَحُوا خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ⁽¹⁾

2 - وصف العتاد الحربي :

أ - وصف القوس

وصف الشاعر الغرناطي القوس وعادة ما شبهه بالهلال أو الحاجب في شكله ، أما نباله فهي كالنجوم ، وهو في دقة إصابته كألحاظ الحسان ، يقول ابن عسکر راصداً هذه الملامح في وصفه للقوس : {الوافر}

أَلَا يَا نَاطِرًا رَمِيَّ تَعَجَّبُ
كَأَنِّي فِي الْإِصَابَةِ لَحَظُ رِيمِ
أَسْرُ بِحُسْنِ رِيثِي مَنْ رَمَى بِي
كَأَنِّي قَدْ رَمَيْتُ عَلَى الْهُمُومِ
إِذَا أَرَمِي السَّهَامُ يُقَالُ : هَذَا
هِلَالُ الْأَفْقِ يَرْمِي بِالنُّجُومِ
فَلَوْ أَرَمِي عَلَى الشَّيْطَانِ يَوْمًا
سَبَقْتُ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ الرَّجُومِ⁽²⁾

ويقول الرندي في وصف قوس مشبهاً إياه بحاجب العين : {الوافر}

تَنَكَّبَهَا كحَاجِبِهِ وَسَوَى
بِأَهْدَابِ الْجَفُونِ لَهَا نَبَالًا
فَلَمْ أَرَقَبْلَهُ بَدْرًا مُنِيرًا
تَحْمَلُ فَوْقَ عَاتِقِهِ هَلَالًا⁽³⁾

ويفتخر القوس بصفاته في أبيات لأبي عبد الله بن الحكيم إذ يقول : {الكامل}

أَنَا عُدَّةٌ لِلدِّينِ فِي يَدِ مَنْ غَدَا
لِلَّهِ مُنْتَصِرًا عَلَى أَعْدَائِهِ
أَحْكِي الْهَلَالَ وَأَسْهَمِي فِي رَجْمِهَا
لِنِ اعْتَدَى تَحْكِي رُجُومَ سَمَائِهِ
قَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ أَنِّي عُدَّةٌ
إِذْ نَصَّ خَيْرُ الْخَلْقِ مُحْكَمَ آيِهِ
وَإِذَا الْعَدُوُّ أَصَابَهُ سَهْمِي فَقَدْ
سَبَقَ الْقَضَاءُ بِهَلِكِهِ وَفَنَائِهِ⁽⁴⁾

ب - وصف السيف والرمح

(1) - أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوي ، ص: 117 .

(2) - ابن عسکر وابن خميس ، أعلام مالقة ، ص 184 .

(3) - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص : 368 .

(4) - المصدر السابق ، ج 2 ، ص : 464 .

من ذلك قول الرندي يصف سيفاً مازجاً في وصفه بين العواطف الإنسانية واللمسات العسكرية الحربية ، فالسيف سليل ماء ولهب، حدُّ الآجال بحدّه، وهو في منظره أبيض من الوصل غبَّ هجر طويل بينما حدّه أقطع وأقتل من هجر بعد وصل لذيد: {البيسيط}

و أبيض صبيغ من ماء و من لهب على اعتدال فلم يخمد ولم يسل
ماضي الغرار يهاب العمر صولته كأنما هو مطبوع من الأجل
أنهى من الوصل بعد الهجر منظره حسناً وأقطع من دين على مال⁽¹⁾

أما الرمح فعنده من الظمأ ما جعله يتخيل كل درع لامعة منهل ماء لا يلبث أن يغشاها ليروي غلته ، فهو كالأفعى وهي تنساب إلى جداول المياه طلباً للري ، فلا عجب أن هام الكمأة بهذا الرمح حباً وعشقا ، فهو مليح قدأ واعتدالاً ، وكل ذي قد معتدل ووجه مليح حري بهذا الهيام والعشق ، يقول : {البيسيط}

وأسمر ظن ماء كل سابغة فخاض كالأيم يستسقي من النهل
هام الكمأة به حباً ولا عجب من لوعة بمليح القد معتدل⁽²⁾

ويصف ابن المرحل حمالة سيف منمنمة موشاة فيشبهها بالرياض المخضرة بمياه النهر ؛ يقول: {البيسيط}

حمالة كرياض جاورت نهراً فأنبئت شجراً رقت أزاهرها
كحياة الماء عامت فيه وانصرفت فعاب أولها فيه و آخرها⁽³⁾

هذه هي أبرز المحاور التي تضمنها الوصف في الشعر الغرناطي ، وفيما يأتي عرض لأهم الملاحظات التي يمكن أن أسجلها حول وصف الطبيعة في الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري.

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص: 368.

(2) — المصدر السابق ج 3 ، ص: 368.

(3) — محمد مسعود حيران ، مالك بن المرحل أديب العدوتين ، ص: 304.

• أهم الملاحظات حول شعر الوصف :

1 — وصف الطبيعة باعتبارها عنصراً منفعلاً :

يمكن القول إن وصف الطبيعة في الشعر الغرناطي على عهد بني الأحمر لم يكن وصفاً عادياً تقليدياً على غرار ما عرف في الشعر الأندلسي من قبل؛ إذ لم نألف أن ترى الطبيعة الأندلسية بهذه الانفعالية والتفاعل مع الحدث الخارجي مثلما نجده في وصف الطبيعة الغرناطية؛ فقد استطاع الشاعر الغرناطي أن يبرز هذه الطبيعة بوصفها عنصراً منفعلاً بالأحداث الجارية آنذاك، وبدا هذا الأمر واضحاً من خلال بعض المقدمات في قصائد المدح السياسي، كقصيدة أبي جعفر أحمد بن شلبطور التي استهلها بمقدمة يصف فيها احتفاء الطبيعة الغرناطية بقدوم الأمير أبي سعيد ولد الغالب بالله، وتوليته رئاسة مدينة المرية، حيث يقول: {الخبب}

سَفَرَتْ غَرَاءَ عَنِ السَّفَرِ	بُشْرَى عَمَّتْ كُلَّ الْبَشْرِ
وَمُنَى تَنْطَلَعُ مُؤَذِّنَةً	بِالْيَمْنِ وَإِذْرَاكِ الْوَطْرِ
كَسَتْ الْأَكْنَافُ بِشَارَتِهَا	شَارَاتٍ مُعْلِمَةَ الطُّرَرِ
وَأَصَابَ الْمُزْنَ رِيَاضَ الْحَزِّ	نِ فَعَادَرَهُ مِثْلَ الْعُرْرِ
فَلَقَدْ سَرَّحَتْ عَلَى عَجَبٍ	مِنْ سُنْدَسٍ سَرَّحَتْهَا نَظْرِي
وَلَقَدْ كُسِيَتْ مِنْ تَحْتِ حُلِيِّ	حُلَا حُلَيْتٍ وَشِي الْحَبْرِ
وَصَبَا تَخْتَالُ جِلَالَ رَبِّي	قَدْ دَبَّجَهَا صَوْبُ الْمَطْرِ
كَمَنْتَ تُبْدِي رَهْبًا حَتَّى	نَفَثْتَ بِالسَّحْرِ مَعَ السَّحْرِ
وَتَتَّ أَفْنَانَ مُكَلَّلَةً	تُزْهِى بِأَفَانِينَ الزَّهْرِ
أَخَذَتْ لِقْدُومِكَ زُخْرَفَهَا	مِنْ مُنْتَظِمٍ أَوْ مُنْتَشِرٍ
فَلَوْ فَدِكَ تَحْتَفِلُ الدُّنْيَا	نَاهِيكَ بِوَإِكْفَةِ الدُّرْرِ ⁽¹⁾

فالشاعر كما ترى يرسم لوحةً فنيةً بديعةً لابتهاج الطبيعة وفرحتها لهطول الغيث / الأمير،

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم 3835 د، ورقة: 369.

وكان البشائر قد عمّت الدنيا بأسرها لمقدم الأمير على مدينة المرية ، فالأرض اكتست بأثواب سندسها ، وأزهار الرياض ابتسمت وفاحت نواويرها بعد أن سقاها الحيا فتأنقت في زخرفها احتفاءً بالغيث / الأمير .

وبصورة عامة فإن الشاعر صور الطبيعة في زينتها الكاملة وهي صورة تبدو فيها الطبيعة عنصراً منفصلاً بالحدث ، وهذه اللوحة الوصفية تكشف عن براعة الشاعر في إظهار انفعال الطبيعة وإبراز فرحتها مرتبطة بفرحة أهل المرية لمقدم الأمير النصري وفي هذه اللوحة الفنية تظهر براعة الشاعر في الإشارة إلى حال الطبيعة قبل مجيء الغيث / الأمير ، وتتجلى هذه البراعة في قوله : { الخب }

وَأَصَابَ الْمُزْنَ رِيَاضَ الْحَزْ
نِ فَعَادَرَهُ مِثْلَ الْغُرْرِ

فدلالة هذا البيت توحى بأن الشاعر يريد التمييز بين مرحلتين مختلفتين : مرحلة ما قبل مجيء الغيث / الأمير ، ومرحلة ما بعد مجيئه ؛ فقد كانت السيادة في المرحلة الأولى لمصائب الدهر على الطبيعة، فبدت الرياض والبساتين موشاة بكل ألوان الحزن والعبوس ، وبتعبير آخر كانت الطبيعة خراباً ودماراً أتت عليها الحرب بناورها وحديدها ، كانت الطبيعة في حريف عمرها تعيش مرحلة ليس لها سوى مرطها الأسود ، وكانت عناصر هذه الطبيعة من زهر ورياض وأشجار... إلخ في طينة أخرى مناسبة لحالة الحرب التي كان الأندلسيون يخوضونها على جبهتين خارجياً ضد الروم إبان الاجتياح القشتالي للأراضي الأندلسية ، وداخلياً ضد الفتن التي عصفت بالبلاد الأندلسية في هذه الحقبة ، فالشاعر يريد بهذا الالتفات أن يلمح إلى المرحلة التي كانت الأندلس تسعى فيها لاستعادة ذاتها وتحقيقها ، وهو ما حصل في المرحلة الثانية ، أي بعد قدوم الغيث / الأمير ، فقد نشر في بساطها الفرح واستعادت الطبيعة بسمتها وعادت إلى سالف عهدها ، فقد حلّ الأمل بعد اليأس والانبساط بعد الانقباض ، فزال الحزن ورجعت الطبيعة إلى بهائها المعهود ، فهذه هي تحفي بمقدم الأمير الذي انتصر على نواب الدهر وأعاد للأندلس شبابها/الربيع ، بعدما دبّ إليها المشيب/الخريف/ الحزن .

يمكن القول إن الشاعر قد حقق نجاحاً في تصوير عناصر الطبيعة من مطر وشجر ورياض وأزهار بوصفها كائنات حية تنفعل بالحدث ، وتشارك الناس فرحتهم وسعادتهم

وحزهم أيضاً، وهذا النجاح يعود في المقام الأول إلى مقدرته الوصفية وقوة الخيال الكبيرة لدى الشاعر في اختيار عناصر الطبيعة اختياراً دقيقاً، ثم توظيفها لبيان فكرته، كما يعود أيضاً إلى براعته في اختيار الوزن الملائم لهذه القصيدة التي بناها على وزن الخبب الذي ساعد في تصوير انفعال الطبيعة بالحدث.

2 — توظيف الطبيعة باعتبارها عنصراً فاعلاً مشاركاً :

ثمة ملحوظة أخرى يرصدها الباحث حول وصف الطبيعة الغرناطية في هذه الحقبنة وهي تتمثل في توظيف عناصر الطبيعة بوصفها عنصراً فاعلاً مشاركاً، وليبان هذا أعود إلى

مقطوعة أبي الطيب الرندي في وصف الجيش الغرناطي؛ حيث يقول: {الكامل}

وكتيبة بالدارعين كثيفة	جرت خيول الجحفل الجرار
روض المنايا قصبها السمر التي	من فوقها الرايات كالأزهار
فيها الكماة بنو الكماة كأنهم	أسد الشرى بين القنا الخطار
متهللين لدى الهياج كأنما	خلقت وجوههم من الأقمار
من كل ليث فوق برق حاطف	بيمينه قدر من الأقدار
من كل ماض ينتضيه مثله	فيصيب آجالاً على أعمار
لبسوا القلوب على الدروع وأشرعوا	بأكفهم ناراً للأهل النار
وتقدموا ولهم على أعدائهم	حنق العدا وحمية الأنصار
فارتاع ناقوس لخلع لسانه	وبكى الصليب لذلّة الكفار
ثم أنشوا عنه وعن عباده	وقد أصبحوا خبراً من الأخبار ⁽¹⁾

فالمأمل لهذه الأبيات يجد أن الشاعر يوظف عناصر الطبيعة من زهر وشجر وروض ويشركها في وصف الجيش الغرناطي، ويجد أن الطبيعة تحولت إلى جندي من الجنود الغرناطين تشارك في الدفاع عنهم ضد الغزاة الصليبيين الحاقدين على الإسلام، وكأن الطبيعة جيش بذاته يقاتل مع الجيش الغرناطي.

وهكذا لم تعد الطبيعة مجالاً للترهة أو اللذة والمتعة، بل فرض عليها القدر أن تكون

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوني، ص: 117.

عنصراً مشاركاً في الحرب الدائرة في الأندلس ، والرندي من الشعراء الذين حققوا نجاحاً في الكشف عن الوجه الأخر للطبيعة الأندلسية في ساعة الحرب ، فهو يضع القارئ من خلال أبياته السابقة أمام صورتين للروض ، الأولى يبدو فيها روضاً حقيقياً كثيفاً بنباته وشجره وزهره ، وهذه الصورة ملغاة لأنها ظل يتبادر إلى ذهن القارئ ، وذلك من خلال تركيز الشاعر على وصف الجيش ورسم صورة الكتيبة بكثافة رجالها ورماحها وبنودها ، وهي الصورة التي أراد الشاعر إيصالها إلى المتلقي؛ لأن حال الأندلس يقتضيها ويستدعيها ، وعليها يترتب القسم الآخر من النص ، فالروض الأول (الظل) هو ما نقيس عليه صورة الكتيبة ، أمّا الوصف الثاني الذي وضعنا أمامه الشاعر فهو روض للمنايا نباته القنا وبنوده الأزهار ، فهو ساحة لمعركة الدم والموت ، وهذا يعني أن أديم الأندلس تحوّل في عين الشاعر إلى ساحة للمعركة والدفاع من أجل البقاء والحياة ، فالأشجار تحولت إلى رماح والأزهار إلى بنود والناس إلى أسود ، إنها حديقة موت أو روض منايا لها حنق كحنق العدا وحمية كحمية الأنصار ، وهدفه هو بعث الحياة في جسد الأندلس من خلال القضاء على قشتالة ، فكانت النتيجة هي أن ثلّت عروش الكفر وارتفع صوت الآذان وخرس الناقوس ، وعزّ دين الله وذلّ الصليب الكافر .

لقد جاء توظيف الشاعر لعناصر الطبيعة في وصف الجيش بوصفها عنصراً مشاركاً أي فاعلاً ، وتعدّ أبيات الرندي من أحسن ما قيل في وصف الجيش والسلاح ، وقد أبدى الرندي نفسه إعجابه بها ، فصدّرها بقوله : " ومن أحسن ما قيل في وصف الجيش والسلاح قولي"⁽¹⁾ ، الأبيات .

3 - تأثير الحرب في وصف الطبيعة :

سيطر هاجس الحرب والسلاح على عقول بعض الشعراء وظهر تأثير الحرب من خلال وصف الشعراء للطبيعة لتنظر مثلاً إلى قول أبي الطيب الرندي : {الطويل}

وِجَارِيَّةٌ تَسْقِي وَسَاقِيَةٌ تَجْرِي وَغَانِيَةٌ يُعْنِي عَنِ الْعُودِ صَوْتُهَا
بِحَيْثُ يُجْرُ النُّهْرُ ذَيْلَ مَجْرَةٍ يَرْقُ عَلَى حَافَاتِهَا الزَّهْرُ كَالزَّهْرِ

(1) - أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الخمار القنوني ، ص: 117.

وقد هزّت الأرواحُ خَصْرَ كَتَائِبِ بِأَلْوِيَةٍ بِيضٍ عَلَى أَسَلٍ سُمُرٍ
رَمَى قَزَحٌ نَبْلًا إِلَيْهَا فَجُرَّدَتْ سَيْوْفٌ سَوَاقِيهَا عَلَى دَارِعِ النَّهْرِ
وَهَبَّتْ صَبَاً نَجْدٍ فَجَرَّتْ غَلَائِلًا تُجَفِّفُ دَمْعَ الطَّلِّ عَنْ وَجَنَةِ الزُّهْرِ⁽¹⁾

فالجوّ الذي يصفه الشاعر في بداية النص ليس جوّ حرب أو سلاح ، بل هو جوّ متعة ولذّة (صوت غانية ، صوت عود ، جارية تسقي ...) ، وكل هذا يجري بين أحضان الطبيعة ، حيث المياه الساقية تجري ، وماء النهر في صبيبة كأنّه ذيل ملاءة بيضاء ، وحوله الزهر كالنجوم الزُّهر في أطراف الحجرّة ، لكنّ الشاعر — فجأة — يعرّج على الجانب الحربي العسكري ، فتبدو له الحديقة مسرحاً للحرب فكأن نباتها كتائب عسكر يوم عرضها حاملةً ألوية بيضاء على الرماح كنايةً عن بيض الورد على الأغصان المُلد ، وكأن قطرات المطر وهي تتساقط على هذه الكتائب ، نبال انطلقت من قوس قزح فجرّدت سيوفها التي هي السواقي واحتمت بالنهر الذي هو الدرع .

فالحرب — كما ترى — حاضرة في نص الشاعر غير مفارقة لخياله ؛ فقد مزج في مخيلته بين صورتين (الأولى: صورة الحرب والسلاح ، والأخرى صورة الطبيعة وعناصرها) ، فكانت النتيجة أن أسقط عناصر الطبيعة على أدوات الحرب ، ويمكن توضيح هذا من خلال المقابلة البيانية التالية بين عناصر الصورتين :

نبات الروض	←	كتائب عسكر
الورد الأبيض	←	بنود بيضاء
الأغصان المُلد	←	رماح سمراء
قوس قزح	←	قوس الرمي
قطرات المطر أو الطل	←	نبال أو سهام
السواقي	←	سيوف
النهر	←	درع

فالتناسب بين الطرفين واضح بيّن ، حتى إنك لو أخذت هذه الصورة ووضعتها ضمن

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ج3 ص: 370.

شعر الحرب والجهاد لما شعرت بفارق كبير، وإذا تأملت في هذا المشهد فإنك تستطيع أن تتصور أن الطرف الثاني الذي يشكل عتاد الجيش والعسكر، كأنه يجرس الطرف الأول الذي يشكل عناصر الطبيعة.

4 — المزج بين وصف الطبيعة ووصف الخمر :

مزج بعض الشعراء الغرناطين بين وصف الخمر ووصف الطبيعة مزجاً قوياً، وظهر هذا لدى ابن سعيد، فالخمر لا تكون عنده إلا في رحاب الطبيعة وبين أحضانها حتى إن الغرضين يتداخلان في شعره تداخلاً كبيراً، فهو يشرب الخمر حين يكون الأفق طلقاً في روض وشت الأنداء بُرودَهُ وعلى ضفاف نهر مالت عليه الغصون وعلى صفحته نثار الجلنار وكسته الشمس حلّة زاهية، إذ يقول: {الكامل}

الأفُقُ طَلَقٌ والنَّسِيمُ رَحَاءُ	والروضُ وشَّتْ بُرْدُهُ الأَنْدَاءُ
والنهرُ قد مالت عليه غُصُونُهُ	فَكَأَنَّما هُوَ مُقْلَةٌ وَطَفَاءُ
وبدأ نثارُ الجَلْنارِ بِصَفْحِهِ	فَكَأَنَّما هُوَ حَيَّةٌ رَقْطَاءُ
والشمسُ قد رَقَمَتْ طِرَازاً فَوْقَهُ	فَكَأَنَّما هي حُلَّةٌ زَرْقَاءُ
فَأَدِرْ كُووسَكَ كي يَتِمَّ لَكَ المَنَى	واسْمَعْ إلى ما قالَتِ الوَرْقَاءُ ⁽¹⁾

وحيث يعرّج ابن سعيد بوادي ريّة ويجذبه حسنه يشرب الخمر صرفاً حيث الماء والظلّ الظليل وحيث الجمال غدا متقسماً على كل وجه، يقول: {الوافر}

بِوادي رِيَّةٍ عَرَّجَ فإِنِّي	رَأَيْتُ الحُسْنَ عَنه لا يَمِيلُ
وَهاتِ الخمرَ صِرْفاً دون مَزْجِ	بِحيثِ الماءِ و الظلِّ الظليلِ
غَدَا مَتَقَسِّمًا في كُلِّ وَجْهِ	كَمَا سُلْتُ على حَزِّ نَصُولِ
تَحُولُ لَواحِظي ما دمتُ فيه	بِحيثِ تَرَى مَذانِبَهُ تَحُولُ ⁽²⁾

فالشاعر يحب الطبيعة لأنها تدعوه إلى الخمر فإذا شاهد روضاً أو رأى نهراً أو استنشق عطرًا أو أحسَّ بالنسيم يعطر الأرجاء؛ هتف بالخمر التي عشقها وملكت عليه حواسه، يقول: {الرملي}

(1) — المقرّي، نفع الطيب، ج 3، ص: 30.

(2) — ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج 1، ص: 423.

يَا نَسِيمًا عَطَّرَ الْأَرْجَاءَ ، هَلْ
 هُمْ أَعْلُوهُ وَهُمْ يَشْفُونَهُ
 خَلَعَ الرُّوضُ عَلَيْهِ زَهْرَهُ
 فَأَبَى إِلَّا شَذَاهُ فَاتَّئِنَى
 بَعَثُوا ضَمْنَكَ مَا يَشْفِي الْكَرْبَ؟
 لاشفاه الله من ذاك الوصب
 حينَ وافى من ذرآكم فَعَلَ صَبْ
 حاملاً من عَرَفِهِ مَا قَدْ غَصَبْ

كلُّ هَذَا قَدْ دَعَانِي لِلَّتِي
 مَلَكَتْ رَقِيَّ عَلَيَّ مَرَّ الْحِقْبِ (1)

وتبدو ظاهرة مزج الخمر بالطبيعة لدى أبي جعفر بن شلبطور أيضاً ، فهو يهتف بالخمر حين يجذبه منظر بديع للزهور والورود وهي تونس أوراق الرياحين الرقيقة فوق أغصان القضب ؛ يقول : {البيسط}

قَدْ رَقَّتِ الْوُرُقُ فِي قُضْبِ الرِّيحِ
 وَاسْتَقْبَلَتْهُ تُعُورُ الزَّهْرِ ضَاحِكَةً
 طَوْرًا يَقْرُؤُ اعْتِدَالًا مُشَبِّهًا أَلْفًا
 وَأَنْشَقَّتْهُ الصَّبَا لَمَّا رَأَتْهُ صَبَا
 وَ الْوَرْدُ يَخْتَالُ فِي أَبْرَادِ سُنْدُسِهِ
 فَبَاحَ مِنْ عَجَبٍ بَلْ صَاحَ مِنْ طَرْبٍ
 يَا صَاحَ لَا صَحُوْ بَعْدَ الْيَوْمِ يَصْحُبُنِي
 فَانْسَتْهُ بِتَرْجِيْعٍ وَتَلْحِيْنِ
 فَاهْتَزَّ زَهْوًا بِأَزْهَارِ الْبَسَاتِيْنِ
 وَتَارَةً يَنْشِي كَعَطْفَةِ النَّوْنِ
 عَرَفًا يُقَصِّرُ عَنْهُ مِسْكَ دَارِيْنِ
 وَ الزَّهْرُ مَا يَبِيْنُ مَنضُودٍ وَمَوْضُونِ
 مَا لِي وَلِلرُّوْضِ يَسِيْنِي وَ يَصْلِيْنِي
 قُمْ فَاسْقِنِيهَا بِنِيَّاتِ الرَّارِحِيْنِ (2)

5 — الاهتمام بالناحية الشكلية :

لم يكن وصف الطبيعة كله يسير على وتيرة واحدة ؛ فقد اكتسى معظم وصفهم بالحركة والحيوية وخلع الصفات الإنسانية على عناصر الطبيعة ، بيد أن هناك نصوصاً شعرية اهتم فيها أصحابها بالناحية الشكلية ، مثال ذلك قول الرندي : {الوافر} :

كَأَنَّ الْبَدْرَ تَحْتَ الْعَيْمِ وَجْهٌ
 كَأَنَّ الْكَوْكَبَ الدَّرِيِّ كَأْسٌ
 كَأَنَّ سَطُورَ أَفْلَاكِ الدَّرَارِيِّ
 عَالِيَهُ مِنْ مَلَا حَتِّهِ لِشَامٍ
 وَقَدْ رَقَّ الزَّجَاجَةُ وَالْمُدَامُ
 قِسِيٌّ وَ الرَّجُومُ لَهَا سِيْهَامُ

(1) — المقرّي ، نفع الطيب ، ج3 ، ص: 56 .

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط ، رقم 3835 د ورقة : 380 .

كَأَنَّ مَدَارَ قُطْبِ بَنَاتِ نَعَشٍ نَدِيٍّ وَالنَّجُومُ بِهِ نِدَامٌ⁽¹⁾

فمثل هذا الوصف يكشف عن اهتمام بالناحية الشكلية التي تقوم على تراكم الصور التشبيهية وازدحامها اعتماداً على أداة تشبيه واحدة، وهي (كَأَنَّ) في محاولة لتجديد المعاني والصور القديمة. ومثل هذا أيضاً قول محمد التطيلي: { الكامل }

فكَأَنَّما وَجَنَائِهَا فِي لَوْنِهَا وَرَدُّ الرِّياضِ رَبَّابِ بِصَوْبِ غَمَامٍ

وَكَأَنَّما دَرَعُ الدُّجَى مِنْ شَعْرِهِ قَدْ حَاكَهُ مِنْهَا يَدُ الإِظْلَامِ

وَكَأَنَّما رِيْقُ حَوَاهُ تَعْرَهُ مَسْكٌ أُدْيِفَ بَعْنَبِرٍ وَمُدَامٌ⁽²⁾

ويبدو أن هذه الطريقة في الوصف — التي يعتمد الشاعر فيها على أداة تشبيه واحدة تتكرر في كل بيت — قد نالت إعجاب القدماء ، فالمقري نجده يثني على قصيدة لابن هانئ الأندلسي لما فيها من تشبيهات بارعة "حرق فيها المعتاد"⁽³⁾، ويبدو أيضاً أن هذه الطريقة صارت نمطاً يحتذى ؛ إذ كلف بها معظم الشعراء الأندلسيين وكرروها كثيراً في شعرهم⁽⁴⁾.

ومن المعروف أن الشاعر ابن خفاجة الأندلسي اشتهر بهذا النهج في وصفه للطبيعة فقد ولع بحشد الصور والتشبيهات بشكل متعاقب ولاهت في كثير من القصائد، وقد يصل الأمر به إلى ازدحام الصور في تضاعيف البيت الواحد، وقد تركت هذه الطريقة من الوصف أثرها الواضح في وصف الطبيعة لدى الشعراء الأندلسيين اللاحقين وكان من بينهم أبو الطيب الرندي الذي هو من أكثر الشعراء الغرناطين احتذاءً لنهج ابن خفاجة في وصف الطبيعة ، وقد صار هذا النهج سمة من سمات إنتاجه الشعري خاصة في الطبيعة⁽⁵⁾.

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح : محمد الحمّار القنوني ، ص: 108.

(2) — المقري ، نفع الطيب ، ج5، ص: 281.

(3) — المصدر السابق، ج5 ، ص: 184.

(4) — يُنظر : ديوان ابن حميدس ، تح : د.إحسان عباس ، ط1 ، بيروت دار صادر ، 1960م ، ص16.

(5) — لاحظ هذا أيضاً الدكتور محمد رضوان الداية ، انظر كتابه : أبو البقاء الرندي ، ص97.

الفصل الثالث

القضايا الفنية في الشعر الغرناطي

المبحث الأول: اللغة

المبحث الثاني: الصورة الفنية

المبحث الثالث: موسيقى الشعر

المبحث الأول: اللغة

الفصل الثالث

القضايا الفنية في الشعر الغرناطي

المبحث الأوّل: اللغة — الروافد، والمقومات .

ثمة روافد ومقومات أسهمت في تشكل لغة الشاعر الغرناطي يمكن أن نحصرها في ستة روافد رئيسة هي :

القرآن الكريم ، الحديث الشريف ، الأمثال والأقوال المشهورة ، الأعلام و الأماكن ذات الصبغة التاريخية ، مفردات العلوم و مصطلحاتها .

إن من يريد معرفة دور هذه المقومات في تشكيل لغة الشاعر الغرناطي لابد له من العلم بطريقة التعليم عند الأندلسيين ؛ وهي طريقة يكشف عنها ابن خلدون في قوله "و أمّا أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب وهذا هو الذي يراعونه في التعليم إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب"⁽¹⁾ ويمضي ابن خلدون في الكشف عن طريقة الأندلسيين في التعليم قائلاً " ولا تختصّ عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه ؛ بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما وبرّز في الخط والكتاب وتعلّق بأذيال العلم على الجملة ..."⁽²⁾

وأما عن المنهج المتبع في تدريس هذه العلوم فهو " ينقسم إلى قسمين : إجباري واختياري، الإجباري: هو تعليم القرآن والصلاة والدعاء، وبعض النحو والعربية والقراءة والكتابة .

وأما الاختياري: فهو تعليم الحساب و النحو والعربية والشعر وأيام العرب وأخبارها "⁽³⁾ وتعد هذه العلوم من أبرز المقومات التي نبه إليها ابن الأثير في ثقافة الأديب حيث ذهب

(1) — ابن خلدون العبر، ج 1، ص: 1039 .

(2) — المصدر السابق ، والموضع نفسه.

(3) — إبراهيم علي العكش — التربية و التعليم في الأندلس ، عمان ، دار الفيحاء: 1986 ، : 166 .

إلى أنه ينبغي للكاتب أن تكتمل عنده ثمانية من المعارف هي : معرفة علم العربية من النحو و الصرف ،ومعرفة ما يحتاج إليه من اللغة ،ومعرفة أمثال العرب وأيامهم ،والاطلاع على كلام المتقدمين من المنظوم والمنثور ،ومعرفة الأحكام السلطانية من الإمامة والإمارة والقضاء والحسبة، وحفظ القرآن الكريم، وحفظ الأخبار النبوية ،ومعرفة العروض ومعرفة علم القافية ⁽¹⁾ ورأى ابن الأثير أن أهم طرق تعلم الكتابة تكمن في ثلاث شعب هي أن "يصرف (الكاتب) همه إلى حفظ القرآن الكريم، وكثير من الأخبار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ، ممن غلب على شعره الإجداد في المعاني والألفاظ ثم يأخذ في الاقتباس من هذه الثلاثة ، أعني القرآن، والأخبار النبوية ، والأشعار، فيقوم ويقع ويخطئ ويصيب ويضل ويهتدي ، حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه" ⁽²⁾

هذه القاعدة التي نشأ عليها الأندلسيون بصورة عامة ، والشعراء بصورة خاصة ؛ كان لابد أن تؤتي أكلها فيما ينتجه الشاعر الغرناطي من شعر خاصة من حيث اللغة الشعرية؛ فالأديب شاعرا كان أم كاتباً هو في حقيقة أمره لا ينتج عملاً فنياً أصيلاً دون ثقافة عميقة متصلة بتراثه الأدبي فهو على حد تعبير الدكتور شوقي ضيف " لا ينبت فجأة من تلقاء نفسه ، بل هو كالشجرة الطيبة تضرب جذورها في أعماق بعيدة ... وليست التربة التي تضرب فيها جذور الأديب إلا ما سبقه من نماذج الأدب وإلا ما شفعت به هذه النماذج من أصول وقواعد وتقاليد ، لا ليستعيرها في عمله ، ولكن لتفتح أمام عينه الآفاق... " ⁽³⁾

وإذ أحاول معرفة أثر الروافد التي غذت لغة الشاعر الغرناطي فإنني أطرح التساؤل التالي :هل استطاع الشعراء الغرناطيون توظيف هذه الروافد توظيفاً فنياً يخدم نصوصهم الشعرية، ويدل على فهم واستيعاب عميقين لها ؟ أم فرضت هذه الروافد سيطرتها على إبداعهم الشعرية ؛ومن ثم كان توظيفها لسد مكان شاغر في هذه النصوص؟ وما هي المستويات التي سار عليها الشعراء في الاستفادة من هذه الروافد؟ وللإجابة على ذلك لابد من الوقوف عند كل رافد على حدة وفق ما يلي :

(1) — ينظر: ابن الأثير — المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ،تح أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة، ج 1 — ط 2 ، مصر ، دار النهضة (د.ت) ، ص 5 ، 6 ، 7 .

(2) — المصدر السابق ، ج 1 ، ص 100 .

(3) — شوقي ضيف ، في النقد الأدبي ، ط 9 ، القاهرة ، — دار المعارف ، 2004م. ص: 176 .

أولاً: القرآن الكريم : ظل القرآن الكريم الرابط المتين الذي يربط الشعر العربي بعضه ببعض قديمه وحديثه على مر العصور؛ وذلك لأنه شكل منبعاً ثرياً للشاعر العربي أينما وجد يمدّه بثروة لغوية ضخمة يوظفها في تعبيره الفني، والمتتبع للشعر الأندلسي يلاحظ أن الأثر القرآني بدا واضحاً منذ اللحظات الأولى التي وطعت فيها أقدام العرب الأرض الأندلسية؛ وذلك حين خاطب القائد طارق بن زياد جنده استعداداً لفتح الأندلس بخطبة حفلت بالألفاظ والمعاني القرآنية، وقد نسبت إليه قصيدة قالها في هذه المناسبة جاء فيها:

{الطويل}
 رَكِبْنَا سَفِينًا بِالْمَجَازِ مُقَيَّرًا عَسَى أَنْ يَكُونَ اللَّهُ مِنَّا قَدِ اشْتَرَى
 نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنّةٍ إذا ما اشتَهينا الشيءَ فيها تيسَّرا
 ولسنا نُبالي كيفَ سالتَ نفوسُنَا إذا نحنُ أدركنا الذي كان أجدرًا⁽¹⁾
 فقد أخذ معاني البيتين الأول والثاني من الآية الكريمة { إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون }⁽²⁾

واستمرّ الأثر القرآني في الشعر الأندلسي إلى العصور اللاحقة وصولاً إلى العصر الغرناطي في القرن السابع الهجري فما أنتج من شعر غرناطي في هذه الحقبة لا ينفصل عن التقاليد الموروثة في الشعر العربي عامة، فهو يجري في الاتجاه نفسه و يشيع فيه هذا التيار الذي يصل بين الماضي والحاضر، والروح الفنية الأصيلة في هذا الشعر متغلغلة في كثير من جوانبه لاسيما في لغته .

ويمكن أن نرى أثر القرآن الكريم في لغة الشعر الغرناطي من خلال الوقوف على مستويات توظيف الشعراء الغرناطيين للنص القرآني، وهي كما يلي:

المستوى الأول: ويتمثل في الإشارة إلى سورة قرآنية بعينها دون تسليط الضوء على جانبها الدلالي كقول ابن المرحل {الكامل}

كَمْ لَيْلَةٍ لَمْ يَسْرَ فِيهَا كَوْكَبٌ إلا و مَطْلَعُهُ مِنَ الْأَجْفَانِ
 قَضَيْتُهَا سَهْرًا وَجَفْتُكَ نَائِمٌ (يَاسِينَ) عَذْلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ⁽³⁾

(1) — المقرئ — نفع الطيب ، ج 1 ، ص : 248 .

(2) — سورة التوبة ، الآية : 111 .

(3) — مالك ابن المرحل : الجوالات ، ص : 130 .

ونحو هذا قول أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي: {البسيط}
 فِي طَيِّ (طَه) و (يَاسِينِ) حَقِيقَتُهَا وَفِي (الحَوَامِيمِ) مَعْنَاهَا لِمَنْ بَصَرًا⁽¹⁾
 فالإشارة في هذه الأبيات إلى اسم السور القرآنية فقط دون الاتكاء على المستوى
 الدلالي وأمثلة هذا المستوى من التوظيف للنص القرآني قليلة في الشعر الغرناطي مقارنة
 بمستويات التوظيف الأخرى .

المستوى الثاني: ويتمثل في اقتباس لفظة أو آية قرآنية ثم توظيفها داخل النص الشعري دون
 أي تعديل أو تحوير، وهذا المستوى من التوظيف يستدعي الحذر والتفطن من قبل
 الشاعر؛ وذلك لأن الألفاظ على حد قول عبد القاهر الجرجاني " لا تتفاضل من حيث هي
 ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كَلِمٌ مفردةٌ، وأن الفضيلةً وخلافها، في ملائمة معنى اللفظة
 لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد بذلك أنك ترى
 الكلمة تروقك و تؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك و تُوحشك في موضع
 آخر ... " ⁽²⁾

فالكلمة وفق هذه القاعدة لا تكتسب معنى محددًا ولا تفيد فائدة خاصة إلا إذا أدت
 وظيفة داخل السياق الواردة فيه، وبالرغم من هذا فإن هناك مفردات لغوية اكتسبت
 النسبة إلى النص القرآني إلى حد يمكن القول إنها مفردات قرآنية بالرغم من مجيئها خارج
 السياق القرآني؛ وذلك لأنها احتفظت بطابعها القرآني. ⁽³⁾

إن الألفاظ والعبارات المحتفظة بطابعها القرآني كثيرة في الشعر الغرناطي، ومن الشعراء
 الذين استطاعوا أن يوظفوها توظيفاً فنياً جيداً مالك ابن المرحل؛ مثال ذلك استخدمه
 عبارة "أقوم قَيْلاً" في معرض الغزل حيث قال: {الكامل}
 أَيْقُولُ عَشْتُ وَقَدْ تَمَلَّكُهُ الهَوَى لَوْ قَالَ مُتُّ لَكَانَ أَقَوْمَ قَيْلًا ⁽⁴⁾
 وهي مأخوذة من الآية الكريمة { إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قَيْلاً } ⁽⁵⁾

(1) — ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة، نصوص جديدة لم تنشر، تح:عبد السلام شقور.ص: 141.

(2) — عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، ط3 القاهرة، مطبعة المدني 1413 هـ 1992م ص: 46.

(3) — ينظر: أحمد عبد المطلب : قراءة أسلوبية في الشعر الحديث ، القاهرة ، دار المعارف 1994م ص 170 بتصرف .

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ج3 ، ص 308 .

(5) — سورة الزمل ، الآية: 6 .

كذلك استخدام لفظة (مشرك) وهي لفظة قرآنية خالصة في قوله: {الرمل}
إِنْ أَكُنْ أَشْرَكَتُ فِي حُبِّكَ يَا سَيِّدِي فَاشْهَدْ بَأْتِي مُشْرِكٌ⁽¹⁾
وأما أبو الطيب الرندي فقد استخدم لفظة " العرجون " وهي لفظة قرآنية خالصة في
قوله: {السريع}

وَفِي الثُّرَيَّا قَمَرٌ سَافِرٌ عَن غُرَّةٍ غَيْرِ مِنْهَا السَّفَارُ
كَأَنَّ عَنقُودًا تَتَنَّى بِهِ إِذْ صَارَ كَالعُرْجُونِ عِنْدَ السَّرَارِ⁽²⁾
فلفظة " العرجون " ندر استخدامها خارج السياق القرآني لذلك هي به ألتصق ،وقد وردت
في قوله تعالى { والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم }⁽³⁾

ووظف أبو محمد بن عبد العظيم الوادي آشي لفظة (زلفى) في قوله: {الطويل}
وَبِالتَّفْئِي لِلأَعْرَاضِ إِثْبَاتُ ذَاتِهَا وَبِالحَمْدِ وَالتَّقْدِيسِ تَقْرِيْبُهَا زُلْفَى⁽⁴⁾
وهي لفظة مستنبطة من الآية الكريمة: {فغفرنا له ذلك و إن له عندنا لزلفى وحسن
مآب} ⁽⁵⁾ أو من قوله تعالى : { ألا لله الدين الخالص و الذين اتخذوا من دونه أولياء ما
نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى } الآية⁽⁶⁾

ومن الألفاظ ذات الطابع القرآني الموظفة في الشعر الغرناطي لفظة (السعير) حيث وظفها
أبو عبد الله البرجي في قوله: {الوافر}
فَلَا تَسْأَلْ جُفُونِي عَن دُمُوعٍ وَلَا تَسْأَلْ فُؤَادِي مَا السَّعِيرُ⁽⁷⁾
ووظفها ابن المرحل في قوله: {الوافر}

و مِنْ فُؤَادِيهِ نَفْسِي فِي ضَلَالٍ وَ مِنْ حُدَيْهِ قَلْبِي فِي سَعِيرٍ⁽⁸⁾
فاللفظة هي قرآنية خالصة وردت في العديد من آيات القرآن العظيم من ذلك قوله

-
- (1) — مالك ابن المرحل: الجوالات 110 .
 - (2) — المقرئ ،نفع الطيب ج 6 ،ص :236.
 - (3) — سورة : يس ، الآية :39 .
 - (4) — المجموعة النبهاانية في المدائح النبوية ، ج2، ص 308 ، العرض ما يقوم بغيره ، والزلفى القرب.
 - (5) — سورة : ص الآية: 25 .
 - (6) — سورة الزمر الآية: 3 .
 - (7) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم 3835: 355 .
 - (8) — مالك ابن المرحل : الجوالات ص 99 .

تعالى: {فريق في الجنة وفريق في السعير} (1)

ومن الألفاظ القرآنية المستخدمة في الشعر الغرناطي لفظة: (النشور) الواردة في بيت أبي عبدالله البرجي: {الوافر}

و يَا لَيْلَ الْمَشُوقِ أَلَا صَبَّاحُ و يَا مَيْتَ الْوَدَاعِ مَتَى النُّشُورُ (2)
فهي مأخوذة من الآية الكريمة { فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور } (3) أو من
الآية الكريمة { فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور } (4)

ومن أمثلة هذه الألفاظ لفظتنا (طلع، منضود) اللتان استخدمهما أبو عبدالله البرجي في
قوله: {الكامل}

فَعَدَّتْ لَنَا أَرْجَاؤَهَا بِكَ جَنَّةً طَلَعُ الْأَمَانِي عِنْدَهَا مَنُضُودٌ (5)
فالطلع شيء يخرج من النخل مثل النواة، و معنى لفظة منضود أي وضع بعضه على بعض
و اللفظتان مقتبسستان من قوله تعالى: { والنخل باسقات لها طلع نضيد } (6)

و أما لفظة: "موضون" الواردة في بيت أبي جعفر ابن شلبطور: {البيسط}
و الْوَرْدُ يَخْتَالُ فِي أَبْرَادِ سُنْدُسِهِ وَالزَّهْرُ مَا بَيْنَ مَنُضُودٍ وَ مَوْضُونٍ (7)

فهي مأخوذة من الآية الكريمة: {ثلة من الأولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة} (8)
ومن الألفاظ القرآنية الخالصة لفظة: "صيب" الواردة في بيت الرندي: {السريع}
و الرَوْضُ قَدْ رَوَّضَهُ صَيْبٌ فَأَلْعَسُ يَلْثِمُهُ وَ أَشْنَبُ (9)
وفي بيت ابن سعيد الغرناطي: {الرملة}

(1) — سورة الشورى الآية: 7 و كذلك جاءت في سورة الحج الآية: 4 وسورة لقمان الآية: 21 وسورة سبأ الآية 12 و سورة فاطر الآية: 6 وسورة الملك الآيات: 5، 10، 11 .

(2) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 ورقة: 356.

(3) — سورة فاطر الآية: 9 .

(4) — سورة الملك الآية: 15 .

(5) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 359 .

(6) — سورة ق الآية: 10 .

(7) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 ورقة: 371 .

(8) — سورة الواقعة الآية: 15 .

(9) — مؤلف مجهول، المنظوم والمنثور، مخطوط في خزانة خاصة في المغرب ورقة: 384ظ .

وإلى الحورِ حَنِينِي دَائِمًا و عَلَى شَنِيلَ دَمْعِي صَيَّبُ (1)

فهي لفظة مأخوذة من قوله تعالى: { أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد و برق } (2)

وكذلك ألفاظ "رُكَّع ، رَاكِعِينَ ، سَجُود ، سَجَّد " الواردة في بيت أبي عمرو ابن المرابط:

{الكامل}

أَسْفًا عَلَيْهَا أَفْفَرْتِ صَلَوَاتُهَا مِنْ قَانِتِينَ وَ رَاكِعِينَ وَ سُجَّدِ (3)

وفي بيت أبي عبد الله البرجي: {الكامل}

تَا لِلَّهِ لَوْ جَاَزَ السُّجُودُ لِغَيْرِهِ لَأَتَاكَ مِنْ رُكَّعٍ وَسُجُودٍ (4)

فهي مقتبسة من الآية الكريمة: { للطائفين والعاكفين والركع السجود } (5) ومن الآية الكريمة: { وطهر بيبي للطائفين والقائمين والركع السجد } (6)، ومن الآية الكريمة: { يا مريم اقنعي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين } (7)

إن هذه الألفاظ التي استشهدنا بها فيما مضى من هذه الأسطر هي ألفاظ ذات صبغة قرآنية خالصة ظلت تحتفظ بنسبتها إلى القرآن الكريم بالرغم من ورودها خارج السياق القرآني، وقد استطاع الشعراء توظيفها فنياً بما يخدم نصوصهم الشعرية ومن أمثلة توظيف الآية القرآنية دون إجراء أي تعديل أو تحوير قول الرندي: {الرميل}

أنا أسلو عن حبيبي ساعة يا عدولي ، قل هو الله أحد (8)

فقد اقتبس الآية الكريمة: { قل هو الله أحد } في الشطر الثاني من البيت دون أي تحوير أو تغيير.

المستوى الثالث: يمكن أن أسميه الاقتباس المحوّر؛ أي اقتباس لفظة أو آية مع إجراء بعض التحوير أو التعديل عليها من حيث التركيب الصرفي أو النحوي أو بالتقديم أو بالتأخير .

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج3، ص: 49 .

(2) — سورة البقرة الآية : 19 .

(3) — ابن خلدون : العبر ج7 ، ص: 411 .

(4) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ، ورقة : 359 .

(5) — سورة البقرة الآية : 125 .

(6) — سورة الحج الآية : 26 .

(7) — سورة آل عمران الآية 43 .

(8) — الطاهر أحمد مكّي — دراسات أندلسية ، ص: 304 .

ومثال هذا ألفاظ: (ظل ، ظليل ، حرور) الواردة في بيت أبي عبد الله البرجي في معرض المدح: {الوافر}

وَأَسْنَدْنَا إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ فَلَا ظِلَّ يُخَافُ وَلَا حَرُورٍ (1)

فهذه الألفاظ مأخوذة من الآية الكريمة: {لهم فيها أزواج مطهرة و ندخلهم ظلا

ظليلا} (2)، أو من الآية: {ولا الظل ولا الحرور} (3).

ومن أمثلة هذا الاقتباس على مستوى الآيات مع إجراء التعديل أو التحوير عليها قول الرندي {المتقارب}

تَزَلَّزَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا فَكَلَّتْ لِسْكَانَهَا: مَا لَهَا ؟

فَقَالُوا أَنَا أَبُو عَامِرٍ فَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ! (4)

فقد اقتبس الشاعر هذين البيتين من سورة الزلزلة من قوله تعالى: {إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها و قال الإنسان ما لها} (5) وهو اقتباس مُحَوَّر.

ونحو هذا الاقتباس قول الرندي في معرض الرثاء: {البسيط}

يَا قَلْبُ صَبْرًا لِمَا تَلَقَى وَ يَا كَبِدِي فَإِنَّمَا خُلِقَ الْإِنْسَانُ فِي كَبِدٍ (6)

وكذلك قول أبي القاسم ابن خلدون: {البسيط}

دَعَوْتُ مِنْ شَفَتِي رِفْقًا عَلَى كَبِدِي فَقَالَ لِي خُلِقَ الْإِنْسَانُ فِي كَبِدٍ (7)

فعبارة " خلق الإنسان في كبد " اقتباس محور من الآية الكريمة: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبِدٍ} (8)، وكبد: مكابدة ومشقة، وهي تجانس (كبدية) أحد أعضاء جسم

(1) — مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ، ورقة : 356 .

(2) — سورة النساء الآية : 57 .

(3) — سورة فاطر الآية 21 .

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص : 372.

(5) — سورة الزلزلة الآيات : 1 ، 2 ، 3 .

(6) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح :محمد الخمار القنوني ص : 92.

(7) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص : 260.

(8) — سورة البلد الآية : 4

الإنسان والاختلاف بينهما واضح.

ومن نحو هذا الاقتباس قول الرندي في معرض المدح : {البيسط}

بِمَا تَكُنْ ضُلُوعِي فِي هَوَاكَ بِمَنْ يَعْنُو لَهُ السَّاجِدَانِ النُّجْمُ وَالشَّجَرُ (1)
فقوله (الساجدان النجم و الشجر) مأخوذ من الآية الكريمة {النجم والشجر يسجدان} (2)
ومن هذا قول ابن رشيق المرسي : {المتقارب}

خُذِي مَا تَخَيَّرْتُهُ وَارْجِعِي لِرَبِّكَ مَرْضِيَّةً رَاضِيَةً (3)

فهو مأخوذ من الآية الكريمة : {ارجعي إلى ربك راضية مرضية} (4)

ومن أمثلة هذا المستوى اقتباس الآية الكريمة: {وما أدراك ما سقر لا تبقي ولا تذر} (5) في بيت أبي جعفر ابن شلبطور في معرض المدح : {الخبب}

فَإِذَا الْبَاسَ وَيُتْلِفُهُ كَرَمٌ لَمْ يُبْقِ وَلَمْ يَذَرِ (6)

وفي قول الرندي مادحا : {البيسط}

يَا طَلْعَةَ الشَّمْسِ إِلَّا أَنَّهُ قَمَرٌ أَمَا هَوَاكَ فَلَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ (7)

وفي قوله أيضا في معرض الرثاء : {البيسط}

وَاحْسَرَّتِي لِفِرَاقٍ لَا عَزَاءَ لَهُ وَلَوْعَةٌ لَمْ تَدْعُ مِنِّي وَلَمْ تَذَرِ (8)

فعبارة (لم يبق و لم يذر) وكذلك عبارة (فلا يبقي ولا يذر) مقتبستان مع بعض التحوير من الآية الكريمة السابقة .

المستوى الرابع : ويتمثل في توظيف ألفاظ قرآنية تحيل إلى آية بعينها أو مجموعة آيات

(1) — ابن الخطيب _ الإحاطة ج 3 ، ص : 364 .

(2) — سورة الرحمن الآية : 6 .

(3) — ابن رشيق المرسي حياته و آثاره ، ص : 179 .

(4) — سورة الفجر الآية : 28 .

(5) — سورة المدثر الآيتان : 27 ، 28 .

(6) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 372 .

(7) — ابن الخطيب الإحاطة ج 3 ، ص : 364

(8) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية ، أدب تيمور رقم 603، ورقة 56 ، و القصيدة غير واردة في النسخة المغربية المحققة .

تختص بها ، و تجعلها ماثلة في الذهن بمجرد قراءة النص الشعري .

مثل هذا قول ابن شلبطور في معرض المدح : { البسيط }

وَحَصَّحَ الْحَقُّ عَن مَلِكٍ شَمَائِلُهُ عَرِضٌ مَّصُونٌ وَ مَالٌ غَيْرٌ مَخْزُونٌ (1)

فعبارة "حصحص الحق" تجعل الآية الكريمة: { قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق... } (2) ماثلة في الذهن .

وأما الإشارات اللغوية المتمثلة في " دكا ، حر ، صعقا " الواردة في بيت الرندي:

{ البسيط }

يَا مَنْ تَجَلَّى إِلَى سِرِّي فَصَيَّرَنِي دَكَاً وَحَرَ فُوَادِي عِنْدَمَا صَعَقَا (3)

فهي تحيل إلى مصدرها القرآني المتجسد في الآية الكريمة { فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكاً وحرّ موسى صعقا } (4)

وأما الإشارات اللغوية المتمثلة في عبارة "على قدر" الواردة في بيت ابن شلبطور: { الخنب }

وَافَى فَكَأَنَّ وَفَادَتَهُ كَأَنَّتْ وَ الْيَمْنَ عَلَى قَدَرٍ (5)

و في بيت أبي عبد الله البرجي : { الكامل }

أَوْحَى إِلِيَّ بِنَظْرَةٍ مِنْ لَحْظِهِ جَاءَتْ عَلَى قَدَرٍ فَأَصَمَّتْ مَقْتَلِي (6)

و في بيت الرندي : { الوافر }

فَنَالَ بِهَا عَلَى قَدَرٍ مُنَاهُ وَ بَيْنَ الْقَبْضِ وَ الْبَسْطِ الْقَوَامُ (7)

فهي تحيل إلى الآية الكريمة: { فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى } (8)

وتجعلها ماثلة في الذهن .

وتقود اللفظتان: " التقي ، زادك " الواردتان في بيت أبي عمرو ابن المرابط: { الكامل }

(1) — مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ، ورقة : 373 .

(2) — سورة يوسف الآية : 51 .

(3) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي _ تح : محمد الخمار القنوني ، ص : 59 .

(4) — سورة الأعراف الآية : 143 .

(5) — مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ، ورقة : 271 .

(6) — المصدر السابق، ورقة : 362 .

(7) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي _ تح : محمد الخمار القنوني ، ص : 107 .

(8) — سورة طه الآية : 40 .

هَذَا الْجِهَادُ رَيْسُ أَعْمَالِ التُّقَى حُذِّ مِنْهُ زَادَكَ لَارْتِحَالِكَ تَسْعَدُ⁽¹⁾

إلى مصدرها القرآني المتمثل في الآية: {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى}⁽²⁾
وأما الإشارات اللغوية المتمثلة في عبارة " أوليت ، من خير ، فقير " الواردة في بيت أبي
عبد الله البرجي: {الوافر}

فَأَمَّا كُنْتَ مُحْسِنَةً فَأِنِّي لِمَا أَوْلَيْتَ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ⁽³⁾
فهي تحيل إلى مصدرها القرآني المتمثل في قوله تعالى: { قال رب إني لما أنزلت إلي من
خير فقير }⁽⁴⁾

وكذلك نجد عبارة (ليوسف التمكين) الواردة في بيت أبي عبد الله البرجي: {الكامل}
وَلْيُؤَسِّفَ التَّمَكِينَ وَ الشَّرْفُ الَّذِي يَرْقَى بِهِ نَحْوَ الْعُلَا وَ يَزِيدُ⁽⁵⁾
تجعل الآية الكريمة: { وكذلك مكنا ليوسف في الأرض }⁽⁶⁾ ماثلة في ذهن المتلقي .
وهكذا أجد أن الأثر القرآني في أشعار الغرناطين لم يكن على مستوى واحد؛ وإنما تنوع
وفق مستويات عديدة وهذا يدل على أن القرآن الكريم كان من بين الروافد الرئيسة التي
غذت لغة الشعر الغرناطي في هذه الحقبة.

ثانيا: الحديث النبوي الشريف: شكل الحديث النبوي رافدا قويا في تشكيل لغة الشاعر
الغرناطي إلا أن نسبة توظيفه جاءت قليلة قياسا برافد القرآن الكريم؛ و انحصرت توظيفه في
مستوى الإشارة اللغوية التي يوظفها الشاعر في بعض الأبيات بحيث تحيل إلى مصدرها
من الحديث النبوي وتجعله ماثلا في الذهن؛ من ذلك الإشارة اللغوية الواردة في قول مالك
ابن المرحل ضمن قصيدة يدعو فيها أهل العدو المغربية للجهاد في الأندلس: {الرجز}

لَاذَتْ بِكُمْ أَنْدُلُسُ نَاشِدَةً بَرِحِمِ الدِّينِ وَ نِعَمِ الرَّحْمِ
وَاسْتَرَحَمْتُكُمْ فَارْحَمُوهَا إِنَّهُ لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ لَا يَرْحَمُ⁽⁷⁾

(1) — ابن خلدون العبر ، ج 7 ، ص : 410 .

(2) — سورة البقرة الآية : 196 .

(3) — مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 355 .

(4) — سورة القصص الآية 24

(5) — مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 361 .

(6) — سورة يوسف الآية : 21 .

(7) — علي ابن أبي زرع — الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية ، ص: 98 — 99 .

وفي قوله أيضاً ضمن قصيدة غزلية: {الكامل}

يَا لَائِمَ الْعُشَّاقِ سَلَّمَ تَسْلَمِ لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْهَوَى بِمُحَرَّمِ
وَارْحَمَ قُلُوبًا قَدْ تَمَلَّكَهَا الْهَوَى لَا يَرْحَمُ الرَّحْمَنُ مَنْ لَمْ يَرْحَمِ (1)

فعبارة (لا يرحم الرحمن من لا يرحم) الواردة ضمن الأبيات السابقة مقتبسة من الحديث النبوي الشريف الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه وجاء فيه أن النبي ﷺ قَبِلَ الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال الأقرع بن حابس: {إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحدا فقال الرسول ﷺ: من لا يرحم لا يرحم} (2)

و من ذلك أيضاً بيت للرندي في آخر قصيدة مدحية: {الطويل}

وَأَسْمَعْتُهُ السَّحَرَ الْحَلَالَ وَرُبَّمَا يُعَدُّ بَدِيعِ النِّظْمِ نَوْعًا مِنَ السَّحْرِ (3)

فالإشارات اللغوية (بديع النظم، نوعاً من السحر)، تحيلنا إلى مصدرها من الحديث النبوي {إن من البيان سحراً ، وإن من الشعر حكماً} (4)

ووظف أبو عمرو ابن المرابط الحديث النبوي: {ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه} (5) وذلك ضمن قصيدته الاستصراخية لملوك بني مرين حيث قال: {الكامل}

فَالْجَارُ كَانَ بِهِ يُوصِي الْمُصْطَفَى جَبْرِيْلُ حَقًّا فِي الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ (6)

ويذكر أبو عبدالله بن الحكيم نص الحديث الشريف محورا إياه في مقطوعة تعتمد على التوصية وذلك في قوله: {البيسيط}

يَقُولُ خَيْرُ الْوَرَى فِي سُنَّةٍ تَبَّتْ أَنْفِقُ وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا (7)

يشير بذلك إلى قول الرسول الكريم ﷺ: {إذا أنفق المسلم نفقة على أهله وهو يحتسبها

(1) — مالك ابن المرحل — الجولات، ص: 125 .

(2) — الإمام النووي — رياض الصالحين من كلام سيّد الأولين ، خرج أحاديثه و علق عليه :عادل عبد المنعم أبو العباس ط3، بيروت ، دار الكتاب الإسلامي ، 2008 م الحديث رقم 898 ، ص : 393 .

(3) — مؤلف مجهول، المنظوم و المنتور ، مخطوط في خزانة خاصة في المغرب ، ورقة : 51 و .

(4) — محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة و شيء من فقهها و فوائدها، مج4 الرياض، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع: 1415هـ-1995، ص: 309.

(5) — الإمام النووي — رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، ، ص: 97.

(6) — ابن خلدون، العبر، ج7، ص: 412

(7) — ابن الخطيب، الإحاطة ، ج2، ص: 463 .

كانت له صدقة {⁽¹⁾

واقتبس أبو حيان الغرناطي الحديث الشريف { الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم

القيامة }⁽²⁾ ضمن قصيدة نبوية؛ قال فيها : { البسيط }

عَلَى نَجَائِبَ تَتْلُوهَا جَنَائِبُهَا خَيْلاً بِهَا الْخَيْرُ مَعْقُودٌ وَمَعْقُولٌ⁽³⁾

الرافد الثالث: الأمثال والأقوال المأثورة : ليس غريباً أن نجد أثر هذا الرافد واضحاً في لغة

الشعر الغرناطي فقد بما عُرّف الشعر بأنه "ما اشتمل على المثل السائر ..."⁽⁴⁾ وقد عمد

الشعراء الغرناطيون إلى توظيف العديد من الأمثال والأقوال المشهورة؛ من ذلك اقتباس ابن

شلبطور القول المشهور "صَدَقَ الْخَيْرُ الْخَيْرَ"⁽⁵⁾ ضمن قصيدة في المدح عدد فيها صفات

الأمير أبي سعيد فرج؛ إذ قال : { الخب }
فَرَوَيْتَاهَا وَرَأَيْتَاهَا فَأَنَافَ الْخُبْرُ عَلَى الْخَبْرِ⁽⁶⁾

وضمن الرندي هذا المثل في معرض التهئة؛ حيث قال : { البسيط }

أَعَادَ مَوْلِدُهُ عِيدِينَ فَاجْتَمَعَا فِي (العروبة) صَدَقَ الْخَيْرُ وَالْخَبْرُ⁽⁷⁾

واقتبس ابن المرحل هذا القول في معرض الغزل؛ حيث قال : { البسيط }

(1) — البخاري ، صحيح البخاري ، ج3، ص80 .

(2) — المصدر السابق ، باب الخيل ج3، ص1047 .

(3) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية ج 3 ، ص:46 . النجائب : كرائم الإبل ، و الجنائب الخيل تقاد في جنب الراكب ليركبها من شاء .

(4) — ابن رشيق القيرواني ، العمدة ج1 ، ص122 .

(5) — الخبُرُ - بِالضَّمِّ - : العلم بالشئ قال تعالى : { وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا } ويقال : صَدَقَ الْخُبْرُ الْخَبْرَ ، ويقال لَأَخْبِرُنَّ خَيْرَكَ أَى لأعلمنَّ علمك . محمد بن يعقوب الفيروزآبادي ، بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز تح : محمد على النجار - ج1 بيروت ، المكتبة العلمية ، (د.ت) ص: 710 وقال الزبيدي في تاج العروس - مادة (خ ب ر) 166/3-167 : (إن أعلام اللغة والاصطلاح قالوا: الخبر -عُرْفًا ولغَةً- ما يُنْقَلُ عن الغير، وزاد فيه أهل العربية: واحتمل الصدق والكذب لذاته ويقال صدقَ الْخُبْرُ الْخَبْرَ) كأنه بمعنى صدق العلم بالشئ -بعد رؤيته المباشرة- ما نُقِلَ عنه من خَبْرٍ؛ وطائفةً، ومن هذا المعنى أخذ الحافظ ابن حجر تسمية كتابه: (مُوافقة الْخُبْرِ الْخَبْرَ في تخريج المنهاج والمختصر) وقد ذكر لسان الدين ابن الخطيب هذا القول ضمن قصيدة قال فيها:

تناقلت الركبان طيب حديثه فلما رأته صدقَ الخبر الخبْرًا

المقري، أزهار الرياض - ج 1 ص197

(6) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ورقة : 370

(7) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح :محمد الحمار القنوني ، ص: 79 . والعروبة : يوم الجمعة.

فَانظُرْ إِلَيَّ وَلَا تَسْمَعْ لِذِي فَئِدٍ فِي الْخُبْرِ عِلْمٌ يَقِينٌ لَيْسَ فِي الْخُبْرِ (1)
 واقتبس أبو عبد الله البرجي المثل القائل " بجيرانها تغلو الديار وترخص (2) " وذلك للتعبير
 عن المكانة التي حظيت بها مدينة المرية بتولي الأمير أبي سعيد رئاستها؛ وذلك ضمن قصيدة قال
 فيها: {الكامل}

أَكْسَبَتْهَا الشَّرْفَ الَّذِي لَا يَنْقُضِي بِالْجَارِ يُعْرِفُ قَدْرُ فَضْلِ الْمَنْزِلِ (3)
 ومن الأمثال التي اقتبسها الغرناطيون المثل القائل " رجع بخفي حنين (4) " وهو مثل يضرب
 في الحديث عن اليأس و الرجوع بعدم الفائدة، حيث ضمنه محمد الفقيه ثاني ملوك بني
 الأحمر حين خاطب أحد وزرائه قائلاً: {المتقارب}

تَذَكَّرْ عَزِيْزُ لِيَالٍ مَضَتْ وَإِعْطَاءَنَا الْمَالَ بِالرَّاحَتَيْنِ
 وَقَدْ قَصَدْتُنَا مُلُوكُ الْجِهَاتِ وَمَأَلُوا إِلَيْنَا مِنَ الْعَدُوَّتَيْنِ
 وَإِذْ سَأَلَ السَّلْمَ مِنَّا اللَّعِينُ فَلَمْ يَحْظَ إِلَّا بِخُفْيِ حُنَيْنٍ (5)

واقتبس ابن رشيق المرسي المثل القائل: "أوضح من مرآة الغريبة" (6) ضمن مراسلة إخوانية
 أرسلها إلى أبي جعفر ابن شلبطور؛ حيث قال فيها يصف قصيدته: {السرير}
 مِنْ صِفَةِ الْأَحْرَارِ فِي مِثْلِهَا أَلَّا يُرَدُّ دُونَهَا خَائِبٌ
 غَرِيبَةٌ بِمِثْلِ مِرَاتِهَا يَضْرِبُ فِيهَا الْمَثَلَ الضَّارِبُ (7)
 وذلك لأن الغريبة تنفق من وجهها ما لا يتفقد غيرها فمرآتها دائماً مجلوة .

(1) — مالك ابن المرحل، الجوال، ص: 91

(2) — هذا المثل يروى ضمن باب سوء الجوار وما فيه من المذمة وهو مقتبس من قول الشاعر:

يَلُومُونَنِي أَنْ بَعْتُ بِالرَّخْصِ مَنزِلِي وَلَمْ يَعْلَمُوا جَاراً هُنَاكَ يُنْعَصُ
 فَقُلْتُ لَهُمْ: بَعْضَ الْمَسْلَمِ فَإِنَّمَا بِجِيرَانِهَا تَغْلُو الدِّيَارُ وَتَرْخُصُ

وينظر: أبو عبيد البكري، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، تح: إحسان عباس - ج 1، ط1 بيروت، مؤسسة الرسالة، 1971م،
 ص: 392. أبو الحسن البوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، تح: محمد حجي، ج1، ط1، المغرب، الدار البيضاء سنة
 1401هـ 1981م، ص: 169.

(3) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 364.

(4) — الميداني، جمع الأمثال، ج1 ص: 296.

(5) — ابن الخطيب، اللوحة البدرية ص: 51.

(6) — الميداني، جمع الأمثال ج 2 ص: 381.

(7) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره، ص: 161.

واقتبس ابن رشيق المرسى المثل القائل "أطول من ظلّ الرمح" ⁽¹⁾ وذلك في قوله: {مخلع البسيط}

وظُلُّهَا لِلصَّدِيقِ ظِلٌّ تَحْسُدُهَا طُورَهُ الْقَنَاءُ ⁽²⁾

وابن رشيق المرسى من أكثر الشعراء اقتباساً للأمثال والأقوال المأثورة من ذلك اقتباسه قول متمم بن نويرة حين قُتِلَ أخوه مالك في حرب الردة "فتى ولا كمالك" ⁽³⁾

فقد ضمّن ابن رشيق هذا القول ضمن قصيدة قال فيها: {مجزوء الكامل}

فَالِإِكْهَاءَ مَمْلُوكَةً تَمْتَازُ مِنْكَ بِخَيْرِ مَالِكٍ

وَتَرْفُ مِنْكَ إِلَيَّ فَتَى فِيهِ يُقَالُ: وَلَا كَمَالِكٍ ⁽⁴⁾

كذلك اقتبس المثل القائل: "حذه ولو بقرطي مارية" ⁽⁵⁾ وهو مثل قيل في مارية بنت ظالم ابن وهب الكندية ويضرب للترغيب في الشيء وإيجاب الحرص عليه؛ وقد ضمّنه ابن رشيق المرسى في قصيدة إخوانية وصف فيها قصيدة لأديب غرناطيّ كان قد أرسلها إليه من قبل؛ حيث يقول ابن رشيق: {المقارب}

أَتَنِّي وَأَكْرَمُ بِهَا آتِيَهُ هَدِيَّ إِفَادَتِكَ الْهَادِيَهُ

تُقَرِّطُ سَمْعِي فَلَا مَرِيَةً لَدَى الْقَوْمِ فِي أَتْهَا مَارِيَهُ ⁽⁶⁾

ومن القصائد التي تضمنت الأمثال العربية قصيدة الأديب أبي الحسن علي بن عمر

القيحاطي المولود سنة 650 هـ والمتوفى سنة 730 هـ؛ وذلك في قوله: {الكامل}

وَلَكُمْ أَصْرٌ عَلَى التَّدَابِيرِ مُدْبِرٌ أَفْضَى إِلَى نَدَمٍ بِهِ إِصْرَارُهُ

فَأَقَامَ كَالْكُسْعِيِّ بَانَ نَهَارُهُ أَوْ كَالْفَرَزْدَقِ فَارَقَتْهُ نَوَارُهُ ⁽⁷⁾

(1) — رياض عبد الحميد مراد، مجمع الأمثال العربية، ج3 ط1، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1407 هـ — 1986م، ص: 78.

(2) — ابن رشيق المرسى — حياته و آثاره، ص: 180.

(3) — عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب العرب، تح: عبدالسلام هارون، ج2، ط4، مكتبة الخانجي: 1420 هـ — 2000م، ص: 24.

(4) — ابن رشيق المرسى — حياته و آثاره، ص: 180.

(5) — عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ج4، ص: 386.

(6) — ابن رشيق المرسى — حياته و آثاره، ص: 177.

(7) — ابن الخطيب الإحاطة، ج4، ص: 106.

فهو يشير إلى المثل القائل " أندم من الكُسعي " ⁽¹⁾ وهو محارب بن قيس من كسع ، صنع قوساً وأسهماً من نَبَعَةٍ فدهنها وخطها ، ورمى بها قطعاً من حمير الوحش فظن أنه أخطأه ، ورمى قطعاً آخر فظن أنه أخطأه ، ورمى الثالثة فظن أنه أخطأه فكسر قوسه ورمى أسهمه ، ثم نظر فرأى أنه أصابها كلها ، فندم على كسر قوسه ، ⁽²⁾ وقد تمثل الفرزدق بهذا المثل حين ندم على طلاق زوجته "نوار" وأنشد: {الوافر}

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الكسعي لَمَّا غَدَت مِنِّي مُطَلَّقةً نُوراً

وكانت جنيتي فخرجتُ منها كآدم حين لَجَّ به الضرارُ ⁽³⁾

ويريد الشاعر بذلك أن الذي يصبر على التباعد لا بد أن يندم على إصراره كما ندم الكُسعي والفرزدق .

رابعاً : الشعر العربي .

يعد الشعر العربي من أكثر الروافد التي أسهمت في تشكيل لغة الشاعر الغرناطي بعد القرآن الكريم ويلاحظ أن اقتباس الشاعر الغرناطي من الشعر العربي لم يقف عند حدود المشرقي منه فحسب وإنما امتدَّ ليشمل الأندلسي أيضاً بل وسع من دائرة اقتباسه ليشمل شعراء معاصرين له ومن شعراء العربية الذين أفاد من نصوصهم الشعرية : امرؤ القيس، و النابغة الذبياني، و زهير بن أبي سلمى ، و أبو تمام ، و ابن الرومي ، و عدي بن زيد و أبو العلاء المعري ، و ابن زيدون ، و المتني ،..... إلخ.

وقد سار الشعراء الغرناطيون في اقتباسهم من هذا الرافد وفق العديد من المستويات من هذه المستويات: الاحتفاظ بالنص المقتبس أو بجزء منه دون تغيير ، و منها محاولة الاحتفاظ بالبعد الدلالي للنص المقتبس مع إجراء بعض التغيير أو التعديل ، و منها محاولة استيحاء النص المقتبس من خلال إشارات لغوية تحيل إلى مصدرها الأصلي في الشعر العربي و تجعله ماثلاً في الذهن وفيما يلي عرض لأمثلة هذه المستويات من الشعر الغرناطي .

(1) — الميداني : مجمع الأمثال ، ج3، ص: 398 .

(2) — ينظر : أبو منصور عبد الملك الثعالبي ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار تحفة مصر ، 1965 ، ص: 133 .

(3) — شرح ديوان الفرزدق . تح: عبد الله إسماعيل الصاوي ط 1 ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1936 ، ص: 336 .

المستوى الأول: من أمثله اقتباس ابن رشيق المرسى بيت عدي بن زيد الذي خاطب فيه النعمان بن المنذر عندما حبسه فقال: {الرملى}

أَبْلِغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مَأْلُكاً أَنِّي قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتِظَارِي ⁽¹⁾

وذلك ضمن قصيدة قالها في مدح الرئيس أبي الحسن علي بن نصر قال فيها: {الرملى}
العَلِيُّ اسْمًا وَوَصْفًا فِيهِمْ الوَلِيُّ الْمُسْتَحَبُّ الْمُسْتَشَارِ
فَالثَّمِي ذَاكَ الْبِسَاطَ وَالزَّمِي وَأَدِيرِي الْقَوْلَ مَا اسْطَعْتَ وَدَارِي
ثُمَّ قَوْلِي ذَلِكَ الْعَبْدُ الَّذِي قَدْ نَسَيْتُمْ مُوَلِّعٌ بِالْإِدْكَارِ
حَبْسَتُهُ عَنكُمْ مَعْدِرَةٌ عَلَّمْتُهُ فَيْكُمْ خَلْعَ الْعِذَارِ
وَ تَفَانِي صَبْرُهُ مُنْتَظِرًا مِنْكُمْ عَوْدَ هَلَالٍ عَن سِرَارِ
فَتَرَاهُ كَلَّمَا هَبَّتْ صَبَا نَحْوَكُمْ طَارَ لَهَا كُلُّ مَطَارِ
وَ انْبَرَى يَشْدُو وَ قَدْ أَلْجَأَهُ فَاضِحُ الْوَجْدِ بَيْتِ مُسْتَعَارِ:
" أَبْلِغِ النُّعْمَانَ عَنِّي مَأْلُكاً أَنِّي قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتِظَارِي " ⁽²⁾

فالشاعر الطامح يأمل في نيل حظوة أكبر داخل بلاط بني الأحمر فعبر من خلال هذا الاقتباس عن الإهمال الذي وجده من قبل ممدوحه.

ومن أمثلة هذا المستوى تضمين الرندي لأشطر أبيات من قصيدة لامرئ القيس محاولاً توفير الانسجام الإيقاعي بين أشطره و الأعجاز المقتبسة حيث قال: {المديد}

رُبَّ شَيْخٍ قَدْ مَرَرْتُ بِهِ "تَقَشَّعَ النَّفْسُ مِنْ حَبْرَةٍ"
وَ هُوَ بِالْحَمَامِ مُنْبَطِحٌ "بِإِزَاءِ الْحَوْضِ أَوْعُقْرُهُ"
يَبْتَغِي الْفَيْشَاتِ لَيْسَ لَهُ "غَيْرَهَا كَسْبٌ عَلَى كِبْرِهِ"
فَأَتَى مِنْ حَاكٍ إِلَيْتَهُ "ثُمَّ أَمَّهَاهُ عَلَى حَجْرِهِ"
وَ انْتَحَى عَنْهُ إِلَى هَدْفٍ "فَتَنَحَّى النَّزْعَ فِي يَسْرِهِ"
ثُمَّ وَلَّى عَنْهُ قَبْلَ يَرَى "صَفْوَ مَاءِ الْحَوْضِ مِنْ كَدْرِهِ"
فَأَنْشَى يَبْكِي قُلْتُ لَهُ "مَالَهُ لَا عُدَّ مِنْ نَفْرِهِ"

(1) — عبد القادر البغدادي، خزنة الأدب ولب لباب العرب ج8، ص513.

(2) — ابن رشيق المرسى — حياته و آثاره، ص: 174

فَشَدَا شَوْقًا وَأَظْعَنَهُ "كَتَلَّطِي الْجَمْرَ فِي شَرَرِهِ"
 مِثْلُ هَذَا الْأَيْرِ يُفْلِتُنِي " ثُمَّ لَا أَبْكِي عَلَى أَثَرِهِ" (1)
 فأعجاز هذه الأبيات مقتبسة من قصيدة لامرئ القيس قال في أولها: {المديد}
 رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ مُتَلِجٍ كَفَيْهِ فِي قُتْرِهِ (2)
 ومن نحو هذا المستوى اقتباس الرندي شطرا من بيت لامرئ القيس قاله الرندي في وصف
 حبّ القرنفل: {الطويل}

وَ ذِي ظَمًا لَوْ كَانَ يُسْقَى لِدَمَّةٍ لَسَقَيْتُهُ رَعِيًّا وَلَكِنْ بِسَلْسَلِ
 إِذَا هَبَّ رِيَاهُ وَجَدَتْ حَقِيقَةً " نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيَا الْقَرْنَفْلِ " (3)
 فالشطر الأخير في البيت الثاني مقتبس من بيت لامرئ القيس ضمن قصيدة قال فيه: {الطويل}
 إِذَا التَّفَتُّ نَحْوِي تَضَوَّعَ رِيحُهَا نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيَا الْقَرْنَفْلِ (4)
 ما أمثلة المستوى الثاني المتمثل في اقتباس النص الشعري مع إدخال التعديل والتغيير فهي
 في الشعر الغرناطي كثيرة؛ من ذلك الشطر الثاني من بيت أبي عبد الله البرجي ضمن قصيدة
 مدحية: {الكامل}

وَ إِذَا نَسَبْتَ لَهُ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا فَإِلَى مُعِمٍ فِي الْعَشِيرَةِ مُخْوَلٍ (5)
 فقد أخذ الشاعر ألفاظ الشطر الثاني من بيت امرئ القيس ضمن معلقته الشهيرة التي قال فيها
 : {الطويل}
 فَأَذْبِرْنَ كَالْجَزَعِ الْمَفْصَلِ بَيْنَهُ بِجِيْدٍ مُعِمٍ فِي الْعَشِيرَةِ مُخْوَلٍ (6)
 و من ذلك قول الرندي في وصف الرمح: {البسيط}

وَأَسْمَرَ ظَنَّ مَاءً كُلَّ سَابِغَةٍ فَخَاضَ كَالْأَيْمِ يَسْتَسْقِي مِنَ النَّهْلِ (7)

-
- (1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح، محمد الحمّار القنوبي، ص: 175، 176 .
 (2) — امرؤ القيس، ديوانه، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3 القاهرة دار المعارف، (د، ت) ص: 17 .
 (3) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح، محمد الحمّار القنوبي، ص: 113 .
 (4) — امرؤ القيس، ديوانه — ص: 15 .
 (5) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، ورقة: 364 .
 (6) — امرؤ القيس، ديوانه، ص: 22 .
 (7) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح، محمد الحمّار القنوبي، ص: 70 .

فألغظ الشطر الثاني من هذا البيت مقتبسة من قول أبي العلاء المعري ضمن قصيدة في المدح قال فيها: {الوافر}

وَ ذِي ظَمًا وَ لَيْسَ بِهِ حَيَاةٌ تَيَقَّنَ طُولَ حَامِلِهِ فَطَالَا
تَوَهَّمَ كُلَّ سَابِعَةٍ غَدِيرًا فَرَتَّقَ يَشْرَبُ الحَلَقَ الدَّخَالَا (1)

كذلك اقتبس ابن رشيق المرسى بعض الألفاظ من بيت للمتنبي في المدح قال فيه {الطويل}

أَغْلِبُ فِيكَ الشُّوقَ وَ الشُّوقُ أَغْلَبُ وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الهَجْرِ وَ الوَصْلُ أَعْجَبُ (2)
حيث وظف ابن رشيق المرسى ألفاظ هذا البيت في مطلع قصيدة قالها في رثاء والده: {البيسط}

غَالَبْتُ فِيكَ الهَوَى لَوْ فُزْتُ بِالْغَلَبِ هَيْهَاتَ صَرَفٌ لِصَرْفِ الدَّهْرِ وَ النَّوَبِ (3)
واقتبس أبو الحسن سهل بن مالك الغرناطي قول ابن الرومي: {السريع}

طَعَامُهُ النَّجْمُ لَمَنْ رَامَهُ لَا تَقْدِرُ الجِنُّ عَلَى لَمْسِهِ
كَأَنَّهُ فِي جَوْفِ مِرَاتِهِ يُرَى وَلَا يُطْمَعُ فِي لَمْسِهِ (4)

وذلك ضمن أبيات قالها في الشوق و الحنين إلى وطنه: {الكامل}

لَمَّا حَطَطْتُ بِسَبْتَةِ قَتَبِ النَّوَى وَالْقَلْبُ يَرْجُو أَنْ يَحْوَلَ حَالُهُ
وَالجَوُّ مَصْقُولُ الأَدِيمِ كَأَتَمَا يُبْذِي الخَفِيَّ مِنَ الأُمُورِ صِقَالُهُ
عَايَنْتُ مِنْ بَلَدِ الجزيرةِ مَكْنَسًا وَالبَحْرُ يَمْنَعُ أَنْ يُصَادَ غَزَالُهُ
كَالشَّكْلِ فِي المِرَاةِ تُبْصِرُهُ وَ قَدْ قَرُبْتُ مَسَافَتَهُ وَ عَزَّ مَنَالُهُ (5)

(1) — أبو العلاء المعري، سقط الزند، شرح ن رضا، بيروت دار مكتبة الحياة، 1965، ص: 14

(2) — المتنبي — ديوانه، تح، عبد المنعم خفاجي و آخرون، القاهرة، مكتبة مصر، د، ت، ص: 71.

(3) — ابن رشيق المرسى — حياته و آثاره، ص: 202.

(4) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح، محمد الحمار القنوني، ص: 239. حيث نسب البيتان إلى ابن الرومي بيد أبي لم أجدهما ضمن ديوان ابن الرومي المطبوع، بيد أبي وحدثهما في بعض المصادر غير منسويين مع بعض الاختلاف إذ جاءت روايتهما على هذا النحو: " قال آخر :

طعامه النجم لمن رامه وخيره أبعد من أمسه

كأنه في جوف مرآته يرى ولا يطمع في لمسه"

ينظر: ابن عبد البر القرطبي، مهجة المجالس وأنس المجالس تح: محمد مرسي الخولي ج1، القاهرة، د ن 1981م، ص: 138.

(5) — المقرئ، نفع الطيب ج 5، ص: 155. وكذلك ابن سعيد اختصار القدرح المعلى ص: 62: ابن عبد الملك المراكشي — الذيل

فاليبت الأخير مقتبس مع إجراء بعض التغيير أو التعديل من القول السابق لابن الرومي .

وأما بيت ابن المرحل الذي قاله في وصف خاتم سقط في نهر وجاء فيه: {البيسط}

كَالشَّكْلِ يَقْرَبُ فِي الْمِرْآةِ مِنْكَ وَقَدْ نَأَتْ مَسَافَتُهُ إِلَّا عَلَى الْبَصْرِ (1)

فهو إما أن يكون مقتبساً من أبيات سهل بن مالك السابقة وهذا هو المرجح؛ وذلك لأنه من طبقة شيوخ ابن المرحل، وإما أن يكون مأخوذاً من قول ابن الرومي المتقدم .

المستوى الثالث ويتمثل في استدعاء أو محاكاة بعض النماذج الشعرية من خلال إشارات لغوية تحيل إلى المصدر الأصلي، ومن أمثله بيت الرندي الذي قاله ضمن قصيدة في المدح وجاء فيه: {الكامل}

يَتَهَلَّلُونَ إِلَى الْعُقَاةِ تَكْرَمًا حَتَّى تَخَالَ السَّائِلَ الْمَسْئُولَ (2)

فالإشارات اللغوية "يتهللون، نخال، السائل، المسؤول" تحيلنا إلى المصدر التراثي لهذا البيت

وهو يتمثل في قول زهير بن أبي سلمى ضمن قصيدة مدحية: {الطويل}

تَرَاهُ إِذَا مَاجَتْهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ (3)

و تحيلنا الإشارات اللغوية "يشدوك طائر غريد" الواردة في بيت أبي عبد الله البرجي ضمن قصيدة مدحية: {الكامل}

وَإِلَيْكَ أَسْجَاعُ الشَّنَاءِ فَإِنَّمَا يَشْدُوكَ مِنِّي طَائِرٌ غَرِيدٌ (4)

إلى المصدر التراثي المتجسد في بيت المتنبي: {الطويل}

وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الطَّائِرُ الْحَكِيُّ وَالْآخِرُ الصَّدَى (5)

والتكملة، ق4 ص: 106، والبيت الثاني غير وارد في هذين المصدرين الأخيرين.

(1) — مالك ابن المرحل — الجوالات، ص: 88 .

(2) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره، ص: 287، 288. هذا البيت ورد ضمن قصيدة للرندي قال عن مصدرها الدكتور محمد بن شريفة "وردت ضمن مجموع مخطوط فيه أشعار لأبي الطيب الرندي" . ينظر المصدر السابق والموضع نفسه.

وهذا المجموع المخطوط الذي ذكره الدكتور محمد بن شريفة هو نفسه المخطوط المجموع الموجود في خزانة خاصة في المغرب بعنوان المنظوم والمنثور الذي حوى أشعاراً لأبي الطيب الرندي، أخبرني بهذا الأستاذ عبد العزيز الساوري.

(3) — زهير ابن أبي سلمى — ديوانه، تح، كرم البستاني بيروت دار صادر: 1379 هـ — 1960 ص: 68 .

(4) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: د، 3835 ورقة: 361 .

(5) — المتنبي — ديوانه، ص: 101 .

و مثل هذا أيضا بيت البرجي في معرض الغزل : {الكامل}

وَإِذَا خَصَمْتُكَ فِي الْغَرَامِ فَأَنْتَ لِي مَوْلَىٰ وَفِيكَ مَحَبَّتِي وَخِصَامِي
فَاحْكُمْ لِيَّيَّ وَاحْتَكِمْ فِي قِصَّتِي وَانظُرْ فَإِنَّكَ أَعْدَلُ الْحَكَامِ (1)
فالإشارات اللغوية "خصمتك ، أنت محبتي وخصامي ، أعدل الحكام" تحيلنا إلى مصدر هذين
البيتين الذي يتمثل في قول المتنبي : {البيسط}

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخِصَمُ وَالْحَكَمُ (2)
ومن أمثلة هذا الاقتباس بيت ابن رشيقي المرسي الذي قاله ضمن قصيدة مدحية :
{الكامل}

وَكَفَاكَ سِرَّ الْعَيْنِ عَيْبٌ وَاحِدٌ لَا عَيْبَ فِيكَ سِوَىٰ فُلُولِ نِصَالِكَ (3)
فالإشارات اللغوية "لا عيب ، فلول ، نصالكا" تقودنا إلى المصدر التراثي لهذا البيت المتمثل
في قول النابغة الذبياني : {الطويل}

و لَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ (4)
و أما الإشارات اللغوية "اهلك ، أسى ، لا تتجلد" الواردة في بيت أبي عمرو ابن المرابط :
{الكامل}

كَمْ جَامِعٍ فِيهَا أُعِيدَ كَنَيْسَةً فَاهْلَكَ عَلَيْهِ أَسَىٰ فَلَا تَتَجَلَّدِ (5)
فيمكن أن نردها إلى مصدرها التراثي المتمثل في قول امرئ القيس : {الطويل}
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَىٰ وَتَجَمَّلِ (6)
أو في قول طرفة بن العبد ضمن معلقته الشهيرة : {الطويل}

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَىٰ وَتَجَلَّدِ (7)

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : د، 3835 ورقة : 369 .

(2) — المتنبي — ديوانه ، ص : 325 .

(3) — ابن رشيقي المرسي — حياته و آثاره ، ص : 169 .

(4) — عبد القادر البغدادي ، خزانة الأدب و لب لباب العرب ج2، ص : 323 .

(5) — ابن خلدون — العبر ، خ7 ، ص : 411 .

(6) — امرؤ القيس — ديوانه ، ، ص : 9 .

(7) — طرفة بن العبد — ديوانه ، تح : كرم البستاني ، بيروت دار صادر : 1961 ، ص : 5 .

و أما عبارة "خطية المتعمد" الواردة في بيت أبي عمرو ابن المرابط: {الكامل}
 و امحُ الخطايا بالدموع فربما مَحَتِ الدَّمُوعُ خَطِيئَةَ الْمُتَعَمِّدِ (1)
 فهي مأخوذة من بيت عاتكة بنت زيد ضمن قصيدة في رثاء زوجها الزبير قالت فيها:
 {الكامل}

شَلَّتْ يَمِينُكَ إِنْ قَتَلْتَ لِمُسْلِمًا حَلَّتْ عَلَيْكَ عُقُوبَةُ الْمُتَعَمِّدِ (2)
 و أما بيت ابن شلبطور الذي قاله ضمن قصيدة في مدح الأمير أبي سعيد، وجاء فيه
 {البيسط}:

فَاقَ الْوَرَى فَكَأَنَّ اللَّهَ صَوَّرَهُ طَبِيباً وَ صَوَّرَ كُلَّ النَّاسِ مِنْ طِينِ (3)
 فهو يحاكي بيتاً لابن زيدون قال فيه: {البيسط}
 رَبِيبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ مِسْكَاً وَ قَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِيناً (4)

ثمة اتجاه آخر من الاقتباس يرصده دارس الشعر الغرناطي في هذه الحقبة، ويتمثل هذا الاتجاه في صياغة قصائد تقود قراءتها إلى استدعاء نص شعري آخر مواز لها في التجربة وفي الأسلوب، ويمكن أن يسمى هذا الاتجاه بالمعارضة أو المحاكاة، وأما أكثر المعارضات الغرناطية فقد كانت في شعر المتنبي، وهو أمر ليس جديداً في الشعر الأندلسي إذ عرفت هذه الظاهرة منذ وقت مبكر في الشعر الأندلسي وقد نبه إلى ذلك عدد من الدارسين حيث لاحظ ذلك الدكتور إحسان عباس وقال "وقد أصبحت معارضة المتنبي محكماً للحدوة عند الأندلسيين منذ أيام ابن شهيد وظلت كذلك حتى عهد متأخرة" (5) والرندي هو من أشد الشعراء الغرناطيين إعجاباً بنسج شعره على طريقة المتنبي في السياق والبناء مع استقلال غير ضعيف في العناصر الذاتية، ومن قصائده التي نسجها على طريقة المتنبي قصيدته اللامية التي قال في مطلعها: {البيسط}

(1) — ابن خلدون — العبر، خ، 7، ص: 410 .

(2) — البغدادي — خزنة الأدب، ولب لباب العرب، ج 10، ص: 378 .

(3) — مؤلف مجهول، بمجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، د، ورقة: 375 .

(4) — ابن زيدون، ديوانه، تح: علي عبد العظيم، القاهرة، مكتبة هضبة مصر، 1957م، ص: 144 .

(5) — إحسان عباس تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين — ج 1، ص: 110 .

- مِنَ الطَّبَّاءِ تَرُوغُ الأُسْدَ بِالمَقْلِ وَمَا رَمَتْهَا بِعَيْرِ العُنَجِ وَالكَحْلِ (1)
 فهي تحاكي قصيدة المتنبي التي قالها أيضا في المدح وجاء في مطلعها: {البيسيط}
- أَحَابَ دَمْعِي وَمَا الدَّاعِي سِوَى طَلَلِ دَعَا فَلْبَاهُ قَبْلَ الرِّكْبِ وَ الإِبْلِ (2)
 ومن أمثلة هذا الاتجاه قصيدة أبي حيان الغرناطي النبوية التي قال في مطلعها: {البيسيط}
- لا تَعْدِلَاهُ فَمَا ذُو الحُبِّ مَعْدُولُ العَقْلُ مُخْتَبِلٌ وَ القَلْبُ مَتَّبُولُ
 جَمِيلَةٌ فَصَلَّ الحُسْنَ البَدِيعُ لَهَا فَمَا انْتَنَى الصَّبُّ إِلا وَهُوَ مَقْتُولُ (3)
 فقارئ القصيدة يستحضر ذهنه قصيدة كعب بن زهير التي قال في مطلعها: {البيسيط}
- بَانتَ سَعَادٌ فَقَلْبِي اليَوْمَ مَتَّبُولُ مُتَيْمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولُ (4)
 ومن ذلك أيضا قصيدة الرندي التي قال في مطلعها: {الطويل}
- أَوَاصِلَتِي يَوْمًا وَهَاجِرَتِي أَلْفًا وَصَالِكِ مَا أَحَلَى وَهَجْرِكِ مَا أَجْفَا (5)
 فهي تحاكي قصيدة ابن هاني الأندلسي التي قال في مطلعها: {الطويل}
- أَلَيْلَتَنَا إِذْ أَرْسَلَتْ وَارِدًا وَحَفَا وَبِتْنَا نَرَى الجُوزَاءَ فِي أُذُنِهَا شَنْفَا (6)
 ثمّة اتجاه آخر من المحاكاة سلكه الشعراء الغرناطيون في هذه الحقبة ؛ ألا وهو محاكاةهم
 لنصوص شعرية لشعراء معاصرين لهم أو قريبي العهد منهم؛ مثال ذلك التشابه الواضح بين
 قصيدة ابن رشيق المرسي في رثاء أبيه وقصيدة أبي الطيب الرندي التي قالها أيضا في رثاء
 أبيه ،فبالرغم من أن الشاعرين متعاصران إلا أن التشابه وقع بين القصيدتين مما يعني أن
 أحدهما قد حاكى الآخر في قصيدته؛ فقد قال ابن رشيق في قصيدته: {البيسيط}
- أَبِي وَ أَبِي لَمْ يَشْفِ قَوْلُ أَبِي فَإِنْ أَرَدْتُ بِهَا صَوْتِي فَعَنْ سَبَبِ (7)
 وهو قريب من قول الرندي في رثاء أبيه : {البيسيط}
- مَوْلَايَ مَوْلَايَ آلافاً مَكْرَرَةً لَوْ أَنَّهَا دَعْوَةٌ تَشْفِي مِنَ الكَرْبِ (1)

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي، تح ،محمد الخمار القنوني ،ص:68 .

(2) — المتنبي _ ديوانه، ص:258

(3) — أبو حيان الغرناطي،ديوانه، تح:أحمد عبد المطلوب،وحديجة الحديثي،ط1،بغداد،مكتبة العاني،1388 هـ 1969 م ص:45.

(4) — كعب بن زهير،ديوانه، بشرح أبي سعيد السكري ،القاهرة،الدار القومية للطباعة والنشر 1965م. ص: 6 .

(5) — ابن الخطيب ،الإحاطة،ج3 ص: 364 .

(6) — ابن هاني الأندلسي ،ديوانه ،ص:207 .

(7) — ابن رشيق المرسي _ حياته و آثاره ، ص: 203

وأما بيت ابن رشيق المرسى ضمن قصيدته المذكورة : {البيسط}

فَكُلُّ عَيْشِي مُذْفَارَقْتُهُ نَكِيدُ وَكُلُّ بَاقِيهِ لَعْوٌ غَيْرُ مُحْتَسَبٍ (2)

فهو مأخوذ من بيت الرندي : {البيسط}

لَمْ يَبْقَ بَعْدَكَ لِي شَيْءٌ أُسْرِبُهُ فَكَيْفَ بَعْدَكَ لِي فِي الْعَيْشِ مِنْ أَرْبٍ؟ (3)

ومن المرجح أن تكون قصيدة الرندي من محفوظات ابن رشيق و ذلك لأن "مرثية الرندي هي أسبق من مرثية ابن رشيق (4) ومثل هذا أيضا التقارب الذي أحده بين أبيات أبي عبد

الله بن الحكيم التي قالها في الشوق إلى أهله وجاء فيها : {الخفيف}

بِي شَوْقٌ إِلَيْهِمْ لَيْسَ يُعْزَى لِعَجْمِيلٍ وَ لَا لِسُكَّانِ نَجْدٍ

يَا نَسِيمَ الصَّبَا إِذَا جِئْتَ قَوْمًا مُلِئْتَ أَرْضَهُمْ بِشَيْحٍ وَ رَنْدٍ

فَتَلَطَّفْ عِنْدَ الْمُرُورِ عَلَيْهِمْ وَحُقُوقًا لَهُمْ عَلَيَّ فَادِّ

قُلْ لَهُمْ قَدْ غَدَوْتُ مِنْ وَجْهِهِمْ فِي حَالِ شَوْقٍ لِكُلِّ رُنْدٍ وَوَرْدٍ

وَإِنْ اسْتَفْسَرُوا حَدِيثِي فَأْتِي بِاعْتِنَاءِ الْإِلَهِ بُلُغْتُ قَصْدِي

فَلَهُ الْحَمْدُ إِذْ حَبَانِي بِلُطْفِ عِنْدَهُ قَلَّ كُلُّ شُكْرِ وَ حَمْدٍ (5)

وأبيات ابن رشيق المرسى التي قالها في الموضوع نفسه وصور فيها حينه إلى أصدقائه في

مدينة رندة ، وجاء فيها : {الخفيف}

يَا نَسِيمًا وَ أَنْتَ أَضْوَعُ مُهْدَى وَ حَمَامًا وَ أَنْتَ أَطْوَعُ مُهْدِي

هَلْ لِقَصْدِي إِلَيْكُمَا بَعْضُ حَقٍّ أَوْ لِحَقِّي لَدَيْكُمَا بَعْضُ قَصْدٍ

بِي شَوْقٍ نَجْدِي وَصَفٍ وَلَكِنْ لَا لِنَجْدٍ وَ لَا لِسُكَّانِ نَجْدٍ

.....

.....

وَإِنْ اسْتَفْسَرُوا الْحَدِيثَ فَقُولَا فِي جَوَارٍ مِنَ الْفَقِيهِ وَ رِفْدٍ

أَوْزَعَ اللَّهُ شُكْرَهُ وَ رِضَاَهُ وَحَبَاهُ بِكُلِّ مَدْحٍ وَ حَمْدٍ (4)

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح ، محمد الخمار القنوني ، ص: 89 .

(2) — ابن رشيق المرسى — حياته و آثاره ، ص: 203 .

(3) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح ، محمد الخمار القنوني ، ص: 89 .

(4) — ذكر هذا الدكتور محمد بن شريفة ، ينظر : ابن رشيق المرسى حياته و آثاره ، ص: 205 .

(5) — ابن الخطيب — الإحاطة ، ج 2 ، ص: 460 .

ومن المرجح أن تكون أبيات ابن رشيق المرسي هي من محفوظات أبي عبد الله بن الحكيم خاصة أنها في الشوق و الحنين إلى أصدقائه في مدينة رندة وبالتالي لا بد أن يكون ابن الحكيم قد سمعها و حفظها عن أبيه عبد الرحمن بن الحكيم .

ومن أمثلة هذا التقارب في الشعر الغرناطي قول أبي جعفر ابن شلبطور ضمن قصيدة مدحية : {البيسط}

وَ حَصَّصَ الْحَقُّ عَن مَلِكٍ شَمَائِلُهُ عَرَضُ مَصُونٌ وَ مَالٌ غَيْرُ مَخْزُونٍ⁽²⁾

فهو قريب في ألفاظه وأسلوبه من بيت أبي عبد الله البرجي من قصيدة في المدح أيضاً قال فيها : {السريع}

وَأَسْبَغَ النَّعْمَى هُمَامٌ لَهُ عَرَضُ مَصُونٌ وَ نَوَالٌ مُبَاخٌ⁽³⁾

فالبيتان على نحو ما ترى يشتركان في الأسلوب والألفاظ وفي الموضوع أيضاً، ولكنهما يختلفان في الوزن ولا يمكننا الجزم بأي الشاعرين قد أخذ عن الآخر لأتهما متعاصران.

يمكن القول إن هذا التقارب بين النصوص الشعرية الغرناطية لم يقتصر على عرض

دون آخر .

وإذا كان الدكتور عبدالله الزيات قد لاحظ مثل هذا التقارب ضمن بحثه القيم في شعر رثاء المدن الأندلسية⁽⁴⁾، فإن الشواهد التي ذكرتها سابقا تؤكد على وجود هذه الظاهرة في شعر الحنين والمدح أيضاً، وهذا يدفعني لطرح السؤال التالي:

هل هذا التقارب بين النصوص الشعرية يسمح لنا بالقول: إن الشعراء الغرناطيين قد استنفدوا كل المعاني الشعرية وصاروا يرددون في قصائدهم المعاني نفسها؟ أم أن هذا يدل على نوع من الإعجاب بمعان بعينها؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل ستكون أكثر جدوى وأهمية إن حظيت هذه الظاهرة

(1) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص : 245، 246. والشاعر بشير في البيت الثالث إلى شوق الشعراء إلى صبا نجد ونغنيهم بما كقول أحد الشعراء :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجدا على وجد

أبو الحسن اليوسي ، زهر الأكم في الأمثال والحكم ج 1 ، ص : 212 .

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 374 .

(3) — المصدر السابق ، ورقة : 353 .

(4) — ينظر عبد الله الزيات — رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص : 584 ، 585 .

بيحث مستقل لمعرفة مدى التقارب بين الشعر الأندلسي؛ أعني الشعر الذي يقال في فنّ بعينه وفي فترة زمنية محددة .

خامساً: الأعلام و الأماكن ذات الصبغة التاريخية :

وظف الشعراء الغرناطيون العديد من أسماء الأماكن والأعلام ذات الصبغة التاريخية و من أبرز هذه الأسماء التاريخية التي وظفت في الشعر الغرناطي : حاتم الطائي، و سحبان ، و قس بن ساعدة، والأحنف بن قيس ، والإسكندر المقدوني ، وكعب بن مامة.... الخ ولم يقتصر استدعاء هذه الأسماء على غرض بعينه ولكنه شمل معظم الأغراض الشعرية فمن أمثلة توظيفها في غرض المدح قول الرندي مستدعياً شخصية حاتم الطائي مستفيداً مما ذكر عنه من كرم لا يعرف حدوداً تفانياً منه في إرضاء الآخرين لكنّ الرندي يجعل ممدوحه أكثر عطاءً وبذلاً حتى إنه أنسى بكرمه ذكر حاتم {الطويل} :

وَيَا شَيْمًا كَالْوَرْدِ يَنْدَى لَهُ ثَرَى فَتُهْدِي الصَّبَا مِسْكَاً وَ نَدّاً لِنَاسِمِ
يُرِيكَ ارْتِيَاخَ الْقُضْبِ وَ هِيَ نَوَاعِمٌ إِلَى فِضَّةٍ يُنْسَى بِهَا ذِكْرُ "حَاتِمِ" (1)
ولا يكفي أبو عبد الله الرجعي بذكر شخصية تاريخية واحدة، وإنما يستدعي شخصيتين تاريخيتين عرفنا بالجود و الكرم هما : شخصية حاتم الطائي، وشخصية كعب بن مامة، و يجعل ممدوحه محمد ابن الأحمر أكثر عطاءً من هاتين الشخصيتين، حيث يقول: {الكامل}

سَمَّحٌ فَلَا الطَّائِيَّ مُحْتَسَبٌ وَلَا كَعْبُ بْنُ مَامَةَ عِنْدَهُ مَعْدُودٌ (2)

ويستدعي ابن رشيق المرسي في معرض مدحه لقاضي مدينة برجة : أبي عبد الله بن بكر عدة شخصيات تاريخية كشخصية حاتم الطائي المعروفة بالكرم، و شخصية قيس بن عاصم المنقري المعروفة بالحلم و العفو، وشخصية سالم بن عمر المعروفة بالورع ، و التقوى ، و شخصية الإمام علي كرم الله وجهه المشهورة بالعلم ، وذلك في قوله : {الخفيف}

جَمَعَ اللَّهُ فِيهِ مَا أَقْتَسَمْتُهُ شَيْمُ الْفَضْلِ فِي النَّفْسِ الْعِظَامِ

فَنَدَى حَاتِمٍ إِلَى حِلْمِ قَيْسٍ وَ تُقَى سَالِمٍ وَ عِلْمِ الْإِمَامِ (1)

(1) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي، تح ، محمد الخمار القنوي ، ص: 209 .

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 360 .

وأما أبو جعفر ابن شلبطور فنجده يوظف في معرض مدحه للأمير أبي سعيد فرج بعض الشخصيات التاريخية كشخصية الأحنف بن قيس المعروفة بالحلم، و شخصية الإسكندر المقدوني المشهورة بالشجاعة، وشخصية الخضر المعروفة بالعلم؛ وذلك للكشف عن صفاته، ويرى أنها فاقت الحصر حتى إنَّ سبحان بن وائل الذي يضرب به المثل المشهور:

"أفصح من سبحان" ⁽²⁾ لو حاول حصرها لتلثم؛ وذلك في قوله: {الخبب}

وَوَقَّارِ الْأَحْنَفِ فِي بَأْسِ الْإِسْكَانْدَرِ فِي عِلْمِ الْخَضِرِ
لَوْ حَاوَلَ حَصْرَ مَآثِرِهِ سَحْبَانُ تَلْعَثُ عَنْ حَصْرِ ⁽³⁾

ومن أمثلة توظيف الأسماء التاريخية في شعر الرثاء قول الرندي في معرض رثائه لابنه

مستدعيا شخصية الخنساء وأخاها صخرًا و بعض الأسماء التاريخية الأخرى: {الطويل}

وَمَالَوْعَةُ الْخَنْسَاءِ شَقَّتْ صِرَارَهَا وَقَدَّتْ جُيُوبَ الصَّبْرِ حُزْنًا عَلَى "صَخْرٍ"
وَلَا وَجَدَ "هِنْدٍ" وَالْأَسَى قَدْ أَذَابَهَا فَمَاتَتْ كَمَا يُرَوَى نَدْمًا عَلَى "بِشْرِ"
بِأَعْظَمَ مِنْ وَجْدِي عَلَيْهِ وَإِنَّمَا رَجَعْتُ عَلَى حُكْمِ الضَّرُورَةِ لِلصَّبْرِ ⁽⁴⁾

ومن أمثلة توظيف الأسماء التاريخية في شعر الغزل استدعاء ابن المرحل شخصية قس بن ساعدة الأيادي أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية، وشخصية باقل الذي يضرب به المثل في البلاهة والعجز حتى قالت فيه العرب: "أعبي من باقل" ⁽⁵⁾، وذلك في

قوله: {الرملة}

ظالمُ اللَّحْظِ وَ لَكِنْ خَدُّهُ اشْتَكَى الظُّلْمَ وَ دَمَّى بِالْحَجَلِ
كُنْتُ قُسًا فَعَدَوْتُ بِأَقْلًا حِينَ أَعْيَانِي بِخَدِّ قَدْ بَقَلَ ⁽⁶⁾

وكقوله مستدعيا شخصية ربيعة بن مكرم في معرض الغزل واصفا لوعة الفراق

{الكامل}:

(1) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص : 155

(2) — الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص: 155.

(3) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 370 .

(4) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية، أدب تيمور رقم 603، ورقة: 57. والقصيدة غير واردة في النسخة المغربية المحققة .

(5) — الميداني، مجمع الأمثال ج 1، ص: 115 .

(6) — مالك ابن المرحل، الجوالات، ص: 117 .

وَوَقَّفْتُ مِنْ هَوْلِ الْفِرَاقِ مَوَاقِفًا يَبْكِي لَهْنٍ رَبِيعَةً بِنُ مُكْدَمٍ (1)

إن توظيف مثل هذه الأسماء التاريخية يكشف عن الثقافة التاريخية الواسعة لدى الشعراء الغرناطيين، ومما يعضد هذا أنهم لم يقفوا عند حدود توظيف الأسماء التاريخية العربية فحسب؛ بل راحوا يوظفون أسماء الشخصيات التاريخية من الأمم الأخرى، وهو دليل على اتساع ثقافة الشاعر الغرناطي وراثتها، ومن الأمثلة الدالة على هذا المنحى توظيف ابن المرحل لشخصية بديع الزمان الهمداني في معرض الغزل؛ وذلك في قوله: {الطويل}

بَدِيعٌ تَعَلَّمْتُ الْبَدِيعَ بِحُبِّهِ فَمِنْهُ وَمِنْ نَظْمِي بَدِيعُ زَمَانِي (2)

وأبو الطيب الرندي هو من أكثر الشعراء الغرناطيين احتفاء بالأسماء و الأماكن ذات الصبغة التاريخية سواء منها العربية أو غيرها وتعد قصيدته الرثائية النونية، خير مثال على براعته في التوظيف الفني للأعلام والمعالم التاريخية؛ فهو يقول في معرض تقريره لقاعدة كونية مفادها أن كمال أي شيء بداية لنهايته مستدلا على هذا ببعض الحضارات التي ازدهرت، ووصلت إلى مراتب عليا من الرقي و التقدم، ثم ما لبثت أن انحسرت، وسقطت مؤذنة بالانهيار: {البسيط}

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ	فَلَا يُغَرِّ بِطَيْبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدَتْهَا دُؤْلُ	مَنْ سَرَّهُ زَمَنْ سَاءَتْهُ أَرْزَمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَيَّ أَحَدٍ	وَلَا يَدُومُ عَلَيَّ حَالٌ لَهَا شَانُ
يُمَزَّقُ الدَّهْرُ حَتْمًا كُلَّ سَابِعَةٍ	إِذَا نَبَتْ مَشْرِفِيَّاتٌ وَ حَرْصَانُ
وَيَنْتَضِي كُلَّ سَيْفٍ لِلْفَنَاءِ وَكَو	كَانَ ابْنُ ذِي يَزِينِ وَ الْعِمْدُ غِمْدَانُ
أَيُّنَ الْمَلُوكِ ذُؤُوقُ التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ	وَ أَيُّنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَ تَيْجَانُ
وَ أَيُّنَ مَا شَادَهُ شَدَادٌ فِي إِرْمٍ	وَ أَيُّنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ
وَ أَيُّنَ مَا حَازَهُ قَارُونٌ مِنْ ذَهَبٍ	وَ أَيُّنَ عَادَ وَ شَدَادٌ وَ قَحْطَانُ
أَتَى عَلَيَّ الْكُلُّ أَمْرًا لَا مَرَدَّ لَهُ	حَتَّى قَضُوا فَكَانَ الْقَوْمَ مَا كَانُوا
وَ صَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ	كَمَا حَكَى عَنِ خَيْالِ الطَّيْفِ وَ سَنَانُ

(1) — مالك ابن المرحل، الجوالات، ص: 126

(2) — المصدر السابق، ص: 135

دَارَ الزَّمَانِ عَلَى دَارًا وَقَاتِلِهِ وَ أُمَّ كِسْرَى فَمَا آوَاهُ إِيْوَانُ
كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهَلْ لَهُ سَبَبُ يَوْمًا وَلَا مَلَكَ الدُّنْيَا سُلَيْمَانُ
فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ وَ لِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَ أَحْزَانُ (1)

ومن الشعراء من زاوج بين توظيف الشخصيات التاريخية و بين الأماكن ذات الصبغة التراثية؛ مثال ذلك قول أبي عبد الله البرجي في معرض المدح مستدعيًا شخصية هارون الرشيد أحد ملوك العباسيين وعاصمته بغداد: {الكامل}

بُشْرَى الْمَرْيَةَ إِذْ غَدَتْ لَكَ حَضْرَةً تَسْمُو عَلَى ذَاتِ الْعِمَادِ وَ تَعْتَلِي
فَكَأَنَّمَا أَنْتَ الرَّشِيدُ جَلَالَةً وَ كَأَنَّهَا بَعْدَادُ إِنْ لَمْ تَفْضُلِ (2)

و يستدعي ابن المرحل هذه الشخصية في معرض الغزل؛ فيقول: {الكامل}

أَنَا فِي هَوَاكَ أَنَا الرَّشِيدُ فَلَيْسَ لِي مُلْكُ الْعِرَاقِ وَلَا أَنَا هَارُونُ (3)

سادسا : المفردات والمصطلحات العلمية .

وقف النقاد حول قضية توظيف المفردات العلمية في المعجم الشعري ثلاثة مواقف متباينة، فمنهم من رأى أن للغة الشعرية خصوصية وتفردا يجعلانها بمنأى عن احتضان مفردات أو مصطلحات تنتمي إلى مستويات علمية ومن أصحاب هذا الاتجاه ابن سنان الخفاجي الذي قال: " وَمِنْ وَضْعِ الْأَفَافِ مَوْضِعَهَا أَلَا تَسْتَعْمَلُ فِي الشَّعْرِ الْمَنْظُومِ وَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ... أَلَفَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَ النَّحْوِيِّينَ وَ الْمُهَنْدِسِينَ وَ مَعَانِيهِمْ وَ الْأَلَفَافِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِهَا أَهْلُ الْمِهْنِ وَ الْعُلُومِ.." (4)

ومن النقاد من رأى أن الشعر موضوع على الخوض في كل معنى وهذا لا ضابط يضبطه ولا حاصر يحصره؛ ومن ثم فإن الشاعر وفق هذا الرأي ينبغي أن "يتعلق بكل علم" (5) ومن أصحاب هذا الاتجاه ابن الأثير الذي صرح بأن "صاحب هذه الصناعة (يعني المنظوم) يحتاج إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادرة بين النساء، والماشطة عند جلوة العروس، وإلى ما يقوله المناادي في السوق على السلعة، فما ظنك بما فوق هذا؟" (6)

(1) — المقرئ — نفع الطيب، ج6، ص: 232، 233 .

(2) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 364 .

(3) — مالك ابن المرحل — الجولات، ص: 129 .

(4) — ابن سنان الخفاجي — سر الفصاحة، تح عبد المتعال الصعيدي، القاهرة مكتبة صبيح: 1969، ص: 241 .

(5) — ابن الأثير — الملل السائر في، ج1، ص: 38 .

(6) — المصدر السابق، ج1، ص62 .

ومثل ابن رشيقي القيرواني اتجاهاً ثالثاً في هذه القضية وحاول التوفيق بين الاتجاهين السابقين حيث ذهب إلى القول : " وللشعراء ألفاظ معروفة وأمثلة مألوفة، لا ينبغي أن يتعدوها، ولا أن يستعملوا غيرها... إلا أن يريد الشاعر أن يتظرف باستعمال لفظ أعجمي فيستعمله في الندرة و على سبيل الخطرة " (1)

فابن رشيقي القيرواني يرى حق الشاعر في تضمين بعض الألفاظ و المصطلحات في شعره مشروطاً أن يكون ذلك عفو الخاطر وألا يسرف في استخدامها فتصبح "متكأ واستراحة" (2) على حد تعبيره.

والدارس للشعر الغرناطي في هذه المرحلة يجد أن توظيف الشعراء للمصطلحات العلمية بدا عفو الخاطر، دون إسراف، أو تكلف .

أما أبرز مصطلحات العلوم التي وظفها الشعراء الغرناطيون في شعرهم، فهي على النحو التالي :

1_ مفردات النحو و مصطلحاته: ومن أمثلة ذلك مصطلحات : " الحال ، الماضي ، المستقبل " في بيت البرجي في معرض المدح: {الكامل}

وَاشْتَدُّ يَدَيْكَ بِخَادِمٍ لَكَ نَاصِحٍ فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ (3)

ومن ذلك مصطلح : "الإلغاء" وهو مصطلح نحوي في بيت ابن رشيقي في معرض المدح:

{الكامل}

فَعَلُ النَّوَى مُلغَى لِبَعْضِ نَوَالِكَا فَاشْفِ الْحَبَالَ وَكَلِّ بِطَيْفِ خِيَالِكَا (4)

ومثل هذا مصطلحات : " الإضمار، النعت ، العطف ، التوكيد ، البدل " وهي

(1) — ابن رشيقي القيرواني — العمدة ، ج1 ، ص : 128 .

(2) — المصدر السابق، ج1 ، ص : 128 ..

(3) — مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 366 .

(4) — ابن رشيقي المرسي — حياته و آثاره ، ص : 169 . ومن شواهد الإلغاء في علم النحو قول زهير بن أبي سلمى :

وما أذري وسوف إخال أذري ... أقوم آل حصن أم نساء؟

الشاهد فيه : (سوف إخال أذري) : فقد فصلت (سوف) عن الفعل بفعل ملغى وهو : (إخال) وسبب إلغائه هو وقوعه بين (سوف)

والفعل عن مصطلح الإلغاء . ينظر : جلال الدين السيوطي : همع الهوامع في شرح جمع الجوامع . تح : أحمد شمس الدين ، ج1 ، ط 1

بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1998م ، ص: 489 وما بعدها .

مصطلحات نحوية وظَّفها الرندي في معرض العزاء و التهنة حيث قال مخاطباً محمداً الفقيه
ثاني ملوك بني الأحمر: {البيسط}

وَإِنْ غَدَا مُضْمَرًا عَنَّا فَأَنْتَ لَهُ كَالنَّعْتِ كَالعَطْفِ كَالتَّوَكُّيدِ كَالبَدَلِ (1)

2 _ مصطلحات الصرف: من أمثلة ذلك مصطلح الإدغام في قول الرندي في معرض
الغزل: {السريع}

وليلةٍ قَصَّرَ مِنْ طُولِهَا بِزَوْرَةٍ مِنْ رَشَاءٍ نَاطِرٍ
اسْتَوَفَرَ الدَّهْرُ بِهَا غَالِطًا "فَأُدْغِمَ" الْأَوَّلُ فِي الْآخِرِ (2)

ومن هذا مصطلح الاشتقاق في قول الرندي : {البيسط}

وَلَكِنَّ الصَّبَّ مَغْلُوبٌ بِلَوْعَتِهِ وَالصَّبْرُ لَا شَكَّ مُشْتَقٌّ "مِنَ الصَّبْرِ" (3)

3 _ مصطلحات علم العروض والقافية: مثال هذا مصطلح "الروي" في بيت أبي
عبد الله البرجي في معرض الغزل : {الكامل}

يَا مُنْتَهَى أَمَلِي وَ غَايَةَ مَطْلَبِي
يَا أَمَّنَ رَوْعِي أَوْ "رَوِي" أَوْ أَمِي (4)

و في بيت ابن المرحل : {الكامل}

يَشْدُو بِشِعْرٍ لَا يَقُومُ بِنَاؤُهُ عِنْدَ السَّمَاعِ وَلَا يَصِحُّ "رَوِيَهُ" (5)

فقد وظف كلا الشاعرين مصطلح "الروي" وهو في علم العروض الحرف الذي تبني عليه
القصيدة و إليه تنسب .

ومن أمثلة هذا مصطلحا "التقطيع ، الخفيف" في بيت ابن المرحل : {الكامل}

أَضْحَى يُقَطِّعُ لَفْظُهُ وَيَقُولُ لِي بَيْتِ الخَفِيفِ هُوَ الَّذِي قَطَّعْتَهُ (6)

4 _ مصطلحات الفقه والحديث الشريف من هذا مصطلحات " الرواية ، الحمل
، الصحيح" في بيت أبي عبد الله البرجي: {الكامل}

-
- (1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح محمد الخمار القنوني، ص: 88 .
 - (2) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج3، ص366 .
 - (3) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي ، مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور رقم 603 ، ورقة : 56. والقصيدة غير واردة في النسخة المغربية المحققة .
 - (4) — مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 368
 - (5) — مالك ابن المرحل، الجوالات ، ص : 149.
 - (6) — مالك ابن المرحل، الجوالات ، ص : 70 .

يَا سَعْدُ أَنْتَ عَلَى الْغَرَامِ مُسَاعِدِي فَأَرَوْا الْهَوَىٰ عَنِي صَحِيحًا وَ أَحْمِلِ (1)
 و كمصطلح " التلقين " ، وهو أحد طرق حمل الحديث الشريف حيث وظّفه ابن شلبطور
 في قوله في معرض المدح : { البسيط }

أَجَلٌ وَ كُلِّ الَّذِي أَنَّنِي عَلَيْهِ بِهِ أَخَذْتُهُ عَنْ عَلَاهُ أَخَذَ تَلْقِينِ (2)
 و من ذلك مصطلح " المرسل " وهو من ألقاب الحديث الشريف حيث وظّفه أبو عبد الله
 البرجي في قوله : { الكامل }

وَ الْعَيْنُ تُرْسِلُ دَمْعَهَا فَكَأَنَّهَا كَفَّ ابْنُ نَصْرٍ فِي نَدَاهَا الْمُرْسَلِ (3)
 و من المصطلحات الفقهية الشائعة في القرن السابع الهجري مصطلح " الإمام " ؛ و هي صفة
 دينية كثر ترديدها في مدح ملوك الموحدين، و امتد استخدام هذا المصطلح إلى العصر
 الغرناطي حيث وظّفه أبو عبد الله البرجي في مدح الأمير أبي سعيد ابن الأحمر وذلك في
 قوله : { الكامل }

فَهُوَ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ وَ حَسْبُنَا حَسْبُ تَطَاوُلَ فِي الزَّمَانِ الْأَطْوَلِ (4)
 و كذلك وظّف هذا المصطلح ضمن قصيدة غزلية حيث قال : { الكامل }
 وَ إِذَا أَرَدْتَ إِمَامًا حُسْنٍ أَوْ عَلَا فَالْكُلُّ فِيهِ إِمَامٌ كُلُّ إِمَامِ (5)
 و من المصطلحات الفقهية التي وظّفها الشاعر الغرناطي مصطلح (القياس) كما في قول
 الرندي: { الوافر }

وَ قَدْ تَجَرَّي الْأُمُورُ عَلَى قِيَا وَ لَوْ تَجَرَّي لَعَاشَ بِهَا اللَّيْبُ (6)
 و كما في قول ابن المرحل : { الكامل }
 يَا عَاذِلِي أَكْثَرْتَ مِنْ ذَمِّ الْهَوَى وَأَرَاكَ تَضْرِبُ فِي حَدِيدٍ بَارِدِ
 لَزَمْتَنِي أَنِّي ذَلَّلْتُ وَ إِنَّمَا هَذِي النَّتِيجَةُ عَنْ قِيَا فَايِدِ (1)

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 362 .

(2) — المصدر السابق ، ورقة : 372 .

(3) — المصدر نفسه ، ورقة : 363 .

(4) — المصدر نفسه ، ورقة : 363 .

(5) — المصدر نفسه ، ورقة : 368 .

(6) — ابن الخطيب — الإحاطة ، ج 3 ، ص : 371

ومن المصطلحات الفقهية (المفصل والمحمل) كما في بيت أبي عبد الله البرجي في معرض المدح : {الكامل}

حَازَ الْعُلَا وَحَوَى حُلَى لَمْ أَحْصِهَا بِمُفْصَلٍ مِنْ وَصْفِهَا أَوْ مُجْمَلٍ (2)

5 _ مصطلحات علوم الهندسة و الحساب. مثال ذلك مصطلح (الصفر) كما في بيت

ابن المرحل: {الكامل}

أَصْبَحْتُ بَيْنَ الطَّاعِنِينَ بِمَنْزِلٍ " صَفْرٍ " يَقُومُ بِيَ الْغَرَامِ وَ يَقْعُدُ (3) وكما في قول الرندي : {البيسط}

وَيَا هَيْلَالاً تَخَلَّتْ عَنْهُ هَالَتُهُ فَصَارَ مَوْضِعُهُ كَ " الصَّفْرِ " فِي الْعَدَدِ (4)

وكما في قول أبي عبد الله البرجي في معرض الغزل : {الكامل}

وَبِمُهْجَتِي مِنْهَا رَيْبٌ أَحْوَرٌ مُتْرَجِرُجُ الْأَرْدَافِ " صَفْرٌ " الْأَيْطَلِ (5)

ومن المصطلحات الهندسية مصطلحا" مثلث ، زاوية" في قول ابن عسكر المالقي : {السرّيع}

وَ أَحَدَبٌ تَحْسَبُ فِي ظَهْرِهِ حَبَابَةٌ فِي نَهْرٍ عَائِمَةٍ

مُثَلَّثٌ الْخِلْقَةَ لَكِنَّهَا فِي ظَهْرِهِ زَاوِيَةٌ قَائِمَةٌ (6)

وكذلك وظف بعض الشعراء مصطلحات علم الفلك، مستفيدا مما تحمله من إيجاءات و

دلالات ؛مثال ذلك قول ابن المرحل: {الكامل}

كَمْ بَعْتُ نَوْمِي لِلشَّهَادَةِ لِلنَّدى وَالنَّاسُ تَطْرَحُ لِي شُعَاعَ الْمَشْتَرِي

فِي لَيْلَةٍ قَابَلْتُ زَهْرَ نُجُومِهَا بِدَوَاهِرِ تَحْدِيدِي بِصَوْتِ الْمَزْهِرِ (7)

وللرندي قصيدة وظف في مقدمتها العديد من المفردات المرتبطة بالفلك والنجوم (8)

نخلص مما سبق إلى أن توظيف المصطلحات العلمية جاء في معظمه عفوا الخاطر دون

(1) — مالك ابن المرحل ، الجوالا ، ص : 78 .

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 364 .

(3) — مالك ابن المرحل ، الجوالا ، ص : 77 .

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، تح محمد الخمار القنوني ، ص : 92 .

(5) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 362 .

(6) — ابن عسكر المالقي _ أعلام مالقة ، ص : 184 .

(7) — مالك ابن المرحل ، الجوالا ، ص : 86 .

(8) — ينظر: ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص : 362 .

إسراف أو تكلف، ولم يقتصر توظيفها على غرض بعينه؛ بل شمل ذلك معظم أغراض الشعر، وتمّ بطريقة خدمت أسلوب الشاعر وتجربته الشعرية.

ويمكن القول إن الروافد التي تم عرضها سابقا كانت على صلة قوية بالتكوين الثقافي والمعرفي لدى الشعراء الغرناطيين، ومن ثم كان استدعاؤها تلبية لحاجة فنية يتطلبها النص الشعري ولم يكن استرفادها لسد مكان شاغر في النص الشعري.

وبعد ؛ فإن هذه الروافد الستة التي عرضت لها في الصفحات الماضية كانت من بين الروابط الوثيقة بين الشعر العربي المشرقي، والشعر العربي الغرناطي، والسؤال الذي سأحاول الإجابة عنه الآن هو: أين يمكن أن نلمس الطابع الأندلسي الخالص في اللغة الشعرية الغرناطية؟ وهل تأثرت هذه اللغة بالبيئة المسيحية المجاورة؟

يمكن أن أجب عن هذا السؤال من خلال تناول محورين رئيسين متعلقين بلغة الشعر

الغرناطي في هذه الحقبة :

المحور الأول: يتمثل في توظيف مفردات لها معان خاصة في اصطلاح الأندلسيين ؛ مثال ذلك لفظة " الظهير " التي تعني في عرف الأندلسيين الأمر الصادر عن السلطان لتلبية حاجة مطلوبة ؛ أي المرسوم السلطاني في اصطلاح أهل الأندلس و المغرب. (1)

وقد وردت هذه اللفظة بالمعنى المذكور ضمن أبيات لابن رشيق المرسي قال فيها

{الكامل}:

حَكَمْتَنِي فَرَأَيْتُ ذَاكَ وَلايَةً خَلَعْتُ عَلَيَّ مِنَ الْجَمِيلِ جَمِيلاً
وَفَضَضْتُ خَتَمَ الطَّرْسِ عَن أُكْرُومَةٍ تَهَبُ الْجَزِيلَ وَ لا تَرَاهُ جَزِيلاً
وَوَقَفْتُ آخِرَهَا عَلَى تَوْقِيعةٍ أَضَحْتُ "ظَهيراً" بِالظُهُورِ كَفِيلاً (2)

ومن ذلك لفظة "الطالب" وهي في استعمال الأندلسيين المتأخرين مرادفة لكلمة "فقيه". (3)

بمعنى أن مدلول هذه الكلمة في الأندلس يختلف عن مدلولها في المشرق " فالمراد بالطلبة

شيوخ العلم والمعرفة على اعتبار أن العالم طالب للعلم مدى حياته وكان رئيس الطلبة من

(1) — ينظر: عبد الكريم القيسي، ديوانه، تجمعة شيخة، و محمد الطرابلسي، تونس، بيت الحكمة: 1988، ص: 189. هامش رقم: 1

(2) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص: 291 .

(3) — ينظر : عبد الكريم القيسي ، ديوانه ، ص: 233 ، هامش : 2 .

المناصب الكبرى في الدولة ويسند إلى شخصية علمية مرموقة وبظهير سلطاني"1، وقد جاءت هذه اللفظة بالمعنى المذكور ضمن أبيات لأبي جعفر ابن شلبطور قال فيها:
{السريع}

أَنْشَأَهَا مَنْ لُعْزُهُ غَامِضٌ خَافٍ وَ مَعْنَى حَاضِرٌ غَائِبٌ
تَحْتَ صِوَانِ الرِّصْدِ مَحْجُوبَةٌ أَبْدَعَ فِي إِضْمَارِهَا الْحَاجِبُ
فَكَلَّمَا أَرَادَهَا طَالِبٌ أَخْفَقَ فِيمَا رَامَهُ الطَّالِبُ (2)

ومن أمثلة هذه الألفاظ لفظة "البهار" المعروف عند المشاركة بالترجس وقد وردت هذه اللفظة في قول الرندي: {السريع}

ذُو وَجَنَةٍ كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ قَدْ بُهَرَ الْوَرْدُ بِهَا وَالْبَهَارُ (3)
وكذلك في قوله: {الخفيف}

وَبَهَارٍ حَكَى كُؤُوسَ لُجَيْنٍ حَمَلَتْهَا أَنَامِلٌ مِنْ زَبْرَجَدٍ (4)

ومن ذلك لفظة (حب الملوك) وهي لا تزال مستعملة بهذا الاسم في المغرب إلى اليوم، بينما يعرف في المشرق بـ "الكرز" وقد وردت في قول الرندي: {الخفيف}

فَتَحَ الْحَبُّ نَوْرَهُ فَحَسِبْنَا أَنْ فِي الرُّوضِ قُبَّةً مِنْ شَقِيقِ
ثُمَّ أَجْرَى نُورَهُ عَنْ سُلُوكِ مِنْ حَرِيرٍ فِيهَا فُصُوصٌ عَقِيقِ (5)

ومن ذلك لفظة "النواعير" جمع ناعورة بلسان المغاربة والأندلسيين وهي تعني دولاب الماء وقد ذكرها ابن سعيد الغرناطي في قوله: {الرملة}

وَلَكُمْ بِالْمَرْجِ لِي مِنْ لَذَّةٍ بَعْدَهَا مَا الْعَيْشُ عِنْدِي يَعْدُبُ
وَالنَّوَاعِيرُ الَّتِي تَذَكَّارُهَا بِالتَّوَى عَنْ مُهَجَّتِي لَا تُسَلِّبُ (6)

المحور الثاني : يتمثل في توظيف مجموعة من الألفاظ ذات الارتباط بالبيئة المسيحية وهي

(1) — أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، ص: 302 .

(2) — ابن رشيق المرسي — حياته وآثاره ، ص : 165 .

(3) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج6 ، ص: 235 .

(4) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي ،تح محمد الخمار القنوبي ، ص : 113 .

(5) — المصدر السابق ، ص114 .

(6) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج3، ص : 48 ، 49 .

ليست كثيرة إذ تكاد تنحصر في كلمات محدودة مثل ألفاظ: (الصليب ، كنيسة، قس ، ناقوس، دير، رهبان، محاريب ، صوامع ، زنار... الخ)

وقد اقتصر الشعراء في توظيف هذه الألفاظ على غرضي: الغزل ، والرثاء ؛ مثال ذلك قول أبي عمرو ابن المرباط في معرض رثاء الأندلس : {الكامل}

كَمْ جَامِعٍ فِيهَا أُعِيدَ كَنِيسَةً فَاهْلَكَ عَلَيْهِ أَسَى فَلَ تَتَجَلَّدِ
الْقِسُّ وَ النَّاقُوسُ فَوْقَ مَنَارِهِ وَالْحَمْرُ وَ الْحِنْزِيرُ وَسَطَ الْمَسْجِدِ (1)

ومن نحو هذا قول الرندي في معرض رثاء المدن الأندلسية مصورا الحالة التي وصلت إليها العالم الإسلامية بسبب الحرب الصليبية ضد المسلمين : {البيسط}

حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسُ وَ صُلْبَانُ
حَتَّى الْمَحَارِيبُ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْتِي وَهِيَ عَيْدَانُ (2)

ويمكن أن أعدّ مالك ابن المرحل — بحسب ما وصلنا من شعره الغزلي — من أكثر الشعراء الغرناطين توظيفا للألفاظ ذات الارتباط بالبيئة المسيحية في شعره الغزلي؛ مثال

ذلك توظيفه للفظ (الحواريون، الإنجيل) في قوله : {الكامل}

أَنْصَارُ عَيْسَى كُلُّ طَرْفٍ أَحْوَرُ لَيْسَ الْخَوَارِيُونَ مِنْ أَنْصَارِهِ
يَا مَنْ يُكْرَرُ ذِكْرِي عَيْسَى إِنَّمَا تَتْلُو لَنَا "الْإِنْجِيلَ" مِنْ أَحْبَارِهِ (3)

وتوظيفه لمصطلح (الثالوث) في قوله : {الكامل}

قَالَ الْعَذُولُ ثَلَاثَةٌ فِي وَاحِدٍ سَأَقُولُ بِالثَّلَاثِ فِيهِ وَصَلِّبَا (4)

وتوظيفه مصطلحات (الرهبان، الناقوس، الزنار) في قوله : {الطويل}

وَلَوْ أَبْصَرَ الرَّهْبَانُ عَيْسَى لَأَمَّنُوا فَكُسِّرَ نَاقُوسٌ وَقُطِعَ زِنَارٌ (5)

ويبدو أن السرّ في شيوع مثل هذه المفردات ذات الطابع المسيحي في غزل ابن المرحل؛ هو أن جل غزله الغلماي كان في فتى يسمى: عيسى، وقد منحه هذا مساحة كافية لكي

(1) — ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص : 411 .

(2) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 6 ص : 233 .

(3) — مالك ابن المرحل ، الجوالات ، ص : 90 .

(4) — المصدر السابق ، ص : 67 .

(5) — مالك ابن المرحل ، الجوالات ، ص : 94 .

يتوسّع في استخدام المفردات المسيحية في غزله الغلماي، وبالرغم من هذا هي قليلة جداً قياساً بالألفاظ ذات الطابع الإسلامي الموظفة في شعره الغزلي .

ومهما يكن الأمر فإن هذه الألفاظ ذات أصول عربية واردة في المعاجم العربية. وبالجملة؛ فإن انحصار استخدام المفردات المسيحية في موضوعي: رثاء المدن، والغزل الغلماي هو دليل على أن الشاعر الغرناطي كان يوظف مثل هذه الألفاظ بشكل مقصود، وبوعي تام منه بطريقة تخدم نضج الشعر فنياً هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذا يدل على مرونة العقلية الغرناطية وقدرتها على استيعاب الثقافات المجاورة والإفادة منها في فنون القول .

وفي كل الأحوال؛ فإن توظيف مثل هذه الألفاظ لا يدفع إلى القول بأن ثقافة الشاعر الغرناطي كانت مسيحية، أو أن شيوع مثل هذه الألفاظ كان نتيجة سيطرة الثقافة المسيحية على الغرناطيين، بل إن توظيف هذه الألفاظ في الشعر الغرناطي هو دليل على القدرة العقلية للشاعر الغرناطي على الفهم والاستيعاب والبراعة في الاستخدام الفني لمفردات الثقافات المجاورة بعيداً عن أي تعصب عقيدي .

● ملحوظات حول لغة الشعر الغرناطي :

1 — بالرغم من أن الشعراء الغرناطيين عاشوا في فترة مد وجز عنيفة بين الإسلام

والمسيحية في شبه الجزيرة الأندلسية، وكان هناك بينهما تجاذب تجاوز الحرب إلى الاجتماع والاقتصاد والثقافة على السواء؛ فإنه يمكن القول إنه لا يوجد في كل ما وصلنا من الشعر الغرناطي لفظ غير عربي وليس ثمة لفظ رومانتي واحد .

2 — مما يلفت نظر دارس الشعر الغرناطي في هذه الحقبة ميل بعض الشعراء الغرناطيين

إلى الألفاظ الدارجة الجارية على ألسنة الناس دون أثار الجزالة، فقد جاءت لغتهم سهلة بسيطة تكاد تكون مما يجري على ألسنة الناس عادةً، وتتضح هذه الظاهرة في شعر أبي الطيب الرندي، الذي وصفه ابن الخطيب بأنه " سهّل المأخذ، عذب اللفظ، رائق المعنى، غير مؤثر للجزالة " (1)، فشعر الرندي تشيع فيه الألفاظ الجارية التي يؤثرها الشاعر على غيرها من الألفاظ وإن كانت اللفظة الدارجة التي أتى بها الشاعر لها لفظة نظيرة تؤدي

(1) — ابن الخطيب، الإحاطة، ج 3، ص: 361 .

المعنى نفسه، وتحمل الإيقاع عينه؛ فالرندي يستخدم مثلاً لفظة: (بخت) بدلاً من لفظة

(حظ)، ومعناها واحد، ووزنهما العروضي واحد، حيث يقول: { الوافر }

إِذَا لَمْ يُرْزَقِ الْإِنْسَانُ بَخْتًا فَمَا حَسَنَاتُهُ إِلَّا ذُنُوبٌ⁽¹⁾

وقد يجيء شطر البيت كله من هذا الكلام الدارج مثل قوله: { مجزوء الرجز }

وَلَا تَسْلُ عَنْ جَلْدِي وَاللَّهِ مَالِي جَلْدٌ⁽²⁾

فهذه السهولة والبساطة في اللغة لم تكن نتيجة عجز أو تقصير من قبل الشاعر الغرناطي؛ ذلك لأن هناك قصائد ومقطوعات لشعراء غرناطين حفلت بالعديد من الألفاظ المعجمية،

مثال ذلك قصيدة الرندي التي عارض فيها قصيدة ابن هاني وجاء في مطلعها: { الطويل }

أَوْاصِلَتِي يَوْمًا وَهَاجِرَتِي أَلْفًا وَصَالِكِي مَا أَحَلَّى وَهَجْرُكَ مَا أَحْفَا⁽³⁾

وكذلك قصيدته التي عارض بها قصيدة المتنبي وقال في مطلعها: { البسيط }

مِنَ الطَّبَّاءِ تَرُوعُ الْأَسَدَ بِالْمَقْلِ وَمَا رَمَّتْهَا بَعِيرِ الْعُنْجِ وَالْكُحْلِ⁽⁴⁾

فقد حوت القصيدتان الكثير من الألفاظ المعجمية التي تدل على جانب الصنعة، ومن قصائد الرندي التي بان فيها جانب الصنعة تلك القصيدة التي قالها في مدح محمد ابن الأحمر وسار فيها على نهج جديد في نظمها، ووصفها ابن الخطيب عند التقديم لها "ومن نزعاته العجبية قوله وقد سبق إلى غرضه غيره"⁽⁵⁾، ويبدو أن الجديد في هذه القصيدة يقوم على أن الشطر الثاني من كل بيت في القصيدة كلها ما عدا المطلع يتكون من جملة اسمية، الخبر فيها شبه جملة مقدم، والمبتدأ مثنى مؤخر، أو يتكون من جملة فعلية، فاعلها مثنى، وفي كلا الحالين يبادل من المبتدأ أو الفاعل مضمونه مفردين، معطوفا أحدهما على الآخر، ولا يشذ في كل القصيدة، ولا مرة واحدة، وهذه الظاهرة لا تدل على التمكن والمقدرة فحسب؛ بل تدل أيضاً على أن الصنعة في شعره بلغت عنده غايتها وعلى درجة عالية؛ يقول في هذه القصيدة: { البسيط }

(1) — المصدر السابق ج 3 ص: 371 .

(2) — المصدر نفسه ج 3، ص: 366 .

(3) — المصدر نفسه ، ج 3 ، ص: 364 .

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي، تح ، محمد الحمّار القنوني، ص: 68 .

(5) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 3 ، ص: 364 .

يَا طَلْعَةَ الشَّمْسِ إِلَّا أَنَّهُ قَمَرٌ أَمَّا هَوَاكَ فَلَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ
كَيْفَ التَّخَلُّصُ مِنْ عَيْنِكَ لِي وَمَتَى وَفِيهِمَا الْقَاتِلَانِ : الغُنْجُ والحَوْرُ
وَكَيْفَ يَسْلِي فَوَادَ عَنْ صَبَابَتِهِ وَلَوْ نَهَى النَّاهِيَانِ : الشَّيْبُ والكِبَرُ
أَنْتَ الْمَنَى وَالْمَنَايَا فِيكَ قَدْ جَمَعْتَ وَعِنْدَكَ الْحَالَتَانِ : النَّفْعُ والضَّرَرُ⁽¹⁾

3 — ثمة ملحوظة أخيرة يمكن تدوينها حول لغة الشعر الغرناطي تتمثل في استعمال بعض الشعراء ألفاظاً من شأنها أن تثير القلق أو الاضطراب النفسي في الصورة الشعرية؛ فالرندي مثلاً أراه يستخدم لفظة (غراب) ، في أثناء وصف الماء ، وهو يقطر من ذوائب شعر أسود جميل لجارية خارجة من الحمام ، فصار كالطل يسقط من جناح غراب بجامع السواد والاسترسال في شعر الجارية ، وفي ريش الغراب ؛ يقول : {الكامل}

بَرَزَتْ مِنَ الْحَمَامِ تَمْسَحُ وَجْهَهَا عَنْ مِثْلِ مَاءِ الْوَرْدِ بِالْعُنَابِ
وَالْمَاءُ يَقْطِرُ مِنْ ذَوَائِبِ شَعْرِهَا كَالطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ غُرَابٍ⁽²⁾

فالشاعر — في نظري — لم يوفق في استخدام كلمة غراب ؛ لأن مثل هذه اللفظة لا تثير في نفس السامع سوى التشاؤم والقلق وتوقع الشرّ. هذه هي أهم الملاحظات التي يمكنني أن أدونها حول لغة الشعر الغرناطي؛ وسأنتقل للحديث عن قضية أخرى من قضايا الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري ؛ هي قضية الصورة الفنية.

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ، ص:364 .

(2) — المصدر السابق، ج3 ، ص:371 .

المبحث الثاني: الصورة الفنية

المبحث الثاني

الصورة الفنية: مفهومها، وسائل تشكيلها، أنواعها.

أولاً — مفهوم الصورة :

الصورة في اللغة تعني الشكل، والتمثال المجسم، وترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء، وعلى معنى صفاته، ومعنى قولهم صورة الفعل كذا و كذا أي صفاته⁽¹⁾

ومن مشتقات اللفظة: التصوّر وهو التوهم فيقال تصوّرت الشيء أي توهمت صورته فتصور لي، وكذلك التصاوير وهي التماثيل⁽²⁾. فالصورة هي الشكل والهيئة والحقيقة والصنعة وكذلك النوع .

أما مفهوم الصورة في الاصطلاح؛ فإنه واسع فهو يشمل ما يتميز به الشيء مطلقاً من غيره، سواء أكان في الخارج، ويسمى صورة خارجية، أم كان في الذهن، ويسمى صورة ذهنية، فهي تعني أيضاً " ما يرسمه المصور بالقلم و آلة التصوير، أو خيال الشيء في المرأة، أو في الذهن، أو ذكر الشيء المحسوس الغائب عن الحس"⁽³⁾

وقد حظيت الصورة في الدراسات الأدبية والنقدية باهتمام النقاد القدامى والمحدثين سعياً منهم إلى توضيح هذه اللفظة .

ومن المحاولات الأولى في هذا المجال ما ذكره الجاحظ في تعريف الشعر حيث قال:

" فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"⁽⁴⁾

فالشعر وفقاً لهذا التعريف ليس تصويراً، بل هو جنس وهذا يعني أن الجاحظ أدرك

بقوة حسه ما بين الشعر و التصوير من المفارقات المميزة بينهما⁽⁵⁾

ويشير قدامة بن جعفر إلى مفهوم الصورة حين يعرف الوصف بأنه " ذكر الشيء بما

(1) — المعجم الوسيط ج 1، ص: 528 .

(2) — المصدر السابق، الموضع نفسه .

(3) — محمد بن علي الفاروقي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تح لطفی عبد البديع، ج 3، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة 1963م، ص 830 .

(4) — أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تح عبد السلام هارون، ج3، ط 2 مصر، مكتبة الخانجي: 1965، ص: 132.

(5) — ينظر: محمد شهاب العاني، أثر القرآن الكريم في الشعر العربي، ط 1، الأردن، دار دجلة، 2008، ص: 154 .

فيه من الأحوال والهيئات " (1) .

أمّا عبد القاهر الجرجاني فقد عرّف الصورة بأنها " تمثيلٌ وقياسٌ لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا فلما رأينا البيئونة بين آحاد الأجناس تكون من جهة الصورة ، فكان تبيين إنسانٍ من إنسانٍ وفرسٍ من فرسٍ بخصوصيةٍ تكون في صورةٍ هذا لا تكون في صورةٍ ذاك وكذلك الأمر في المصنوعات ... " (2) .

وتكمن أهمية الصورة عند ابن الأثير في تأثيرها النفسي لدى المتلقي وهذا ما يفهم من قوله "أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به، أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه أو التنفير عنه " (3) .

وأما مفهوم الصورة عند حازم القرطاجني فهو مرحلة تأتي بعد التخيل للشيء يقول: " و التخيل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه أو نظامه ،وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخيلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية إلى جهة من الانبساط أو الانقباض " (4) ، ويذهب إلى القول إن " محصول الأقاويل الشعرية تصوير الأشياء الحاصلة في الوجود وتمثيلها في الأذهان على ما هي عليه خارج الأذهان من حسن أو قبح حقيقة ،أو على غير ما هي عليه تمويها وإيهاما " (5) .

وللصورة في النقد الحديث تعريفات كثيرة أذكر بعضها ،كتعريف الدكتور جابر عصفور الذي يرى أنّ الصورة " أداة الخيال ووسيلته و مادته المهمة التي تمارس فيها و من خلالها فاعليته و نشاطه " (6) .

وقد عرفها الدكتور عبد القادر الرباعي بأنها " الأداة التي تتوسط دائما بين الروح والمعرفة أو بين الداخل والخارج " (7) ، وتعريف الدكتور روز غريب بأنها " في أبسط وصف

(1) — قدامة ابن جعفر ،نقد الشعر ، ص 118 .

(2) — عبد القاهر الجرجاني — دلائل الإعجاز ، ص: 508 .

(3) — ابن الأثير — المثل السائر ج2 ، ص 123 .

(4) — أبو الحسن حازم القرطاجني — منهج البلغاء و سراج الأدباء ، تح : محمد الحبيب ابن الخوجة ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، (د،ت)، ص: 89 .

(5) — المصدر السابق ،ص: 120 .

(6) — جابر أحمد عصفور — قضية الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي ،القاهرة دار الثقافة للطباعة و النشر: 1974، ص: 19

(7) — عبد القادر الرباعي — الصورة في شعر زهير ابن أبي سلمى ، الرياض دار العلوم للطباعة والنشر: 1984 ، ص: 150 .

لها تعبير عن حالة أو حدث بأجزائهما أو مظاهريهما المحسوسة ،وهي لوحة مؤلفة من كلمات أو مقطوعة وصفية في الظاهر لكنها في التعبير الشعري توحى بأكثر من الظاهر،وقيمتها تركز على طاقتها الإيحائيةفهي ذات قوة إيحائية تفوق قوة الإيقاع؛ لأنها توحى بالفكرة كما توحى بالجو والعاطفة " ⁽¹⁾

ويرى الدكتور يوسف خليف " أن الصورة عنصر أساسي من عناصر التعبير الفني، ووسيلة لنقل الإحساس إلى العمل الفني؛ وبالتالي فإن الصورة معيار نقدي مهم في الحكم على أصالة التجربة، وقدرة الشاعر على تشكيلها في نسق يحقق المتعة والخبرة لمن يتلقاها" ⁽²⁾

ثانياً : وسائل تشكيل الصور في الشعر الغرناطي :

يمكن أن أحصر أبرز وسائل الشعراء في تشكيل صورهم الفنية في الوسائل التالية :

1_ التشبيه : يعد التشبيه في الشعر العربي " أساساً من أسس التخيل الشعري، وجزءاً من فنية العمل الشعري " وقد حظي بعناية النقاد القدامى والمحدثين ،حيث عرفه ابن رشيق القيرواني بأنه " التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، أو من جهات كثيرة لا من جميع جهاته؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه" ⁽³⁾، ويرى قدامة بن جعفر أن " أحسن التشبيه ما وقع بين الشئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يذني بهما إلى حال الاتحاد" ⁽⁴⁾

وفي العصر الحديث عرف الدكتور جابر عصفور التشبيه بأنه " علاقة مقارنة تجمع بين طرفين لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة أو مجموعة من الصفات والأحوال؛ هذه الحالة قد تستند إلى مشابهة حسية، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المقارنين، دون أن يكون من الضروري أن يشترك الطرفان في الحياة المادية، أو في كثير من الصفات المحسوسة" ⁽⁵⁾

وهذا لا يعني أن هدف التشبيه هو جمع أو تكديس الصفات الحسية المتناثرة؛ بل إن هدفه

(1) — روز غريب — تمهيد في النقد الحديث ، بيروت ، دار المكشوف : 1971 ، ص : 191 .

(2) — يوسف خليف — الشعر الجاهلي :نشأته و تطوره ، الكويت مجلة عالم الفكر ،مج4 ، ع4 سنة 1973 ص: 28 .

(3) — ابن رشيق القيرواني — العمدة ، ج 1 ، ص : 286 .

(4) — قدامة بن جعفر — نقد الشعر، ص : 19 .

(5) — جابر أحمد عصفور — الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي ، ص : 188 .

الحقيقي هو "خلق الشعور الجديد بالأشياء، وتركيبها، وتأليفها، وإنشاء العلاقات بينها، بحث تبدو أمامنا وكأننا نراها لأول مرة؛ وبذلك يضيف التشبيه خبرة جديدة تزيد من وعينا بالواقع"⁽¹⁾

وللتشبيه كما هو مقرر في كتب البلاغة والنقد أنواع وأشكال وأغراض ومقاصد من شأنها أن تحدث أثرا لدى المتلقي، وتمنح الشاعر ثراء في استخدام أسلوب التشبيه، وقد أفاد الشعراء الغرناطيون من أنواع التشبيه فاستخدموا من التصوير التشبيهي أدناه وهو ما توافرت فيه الأركان الأربعة: المشبه، المشبه به، أداة التشبيه، وجه الشبه، مثال ذلك قول ابن المرحل: {الكامل}

مَنْ لِي بِهِ كَالرُّوضِ فِي رِيْعَانِهِ يَجْلُو مِنَ النُّورِ ثَعْرًا أَشْتَبَا⁽²⁾
وقول أبي محمد بن عبد العظيم الوادي آشي في طلب الشفاعة ضمن قصيدة نبوية
{الطويل}:

وَإِنَّ ذُنُوبِي كَالجِبَالِ رَجَاحَةً وَحُبُّكَ يَا مَوْلَايَ يَنْسِفُهَا نَسْفًا⁽³⁾
وكذلك بيت أبي عبد الله البرحي في معرض الغزل: {الكامل}
فَكَأَنَّ نُورَ جَبِينِهِ فِي شَعْرِهِ صُبْحٌ تَجَلَّى تَحْتَ جُنْحِ ظِلَامٍ⁽⁴⁾
وكقول أبي اسحاق ابن عبيدس: {السيط}
يَا مَنْ أَنَامِلُهُ كَالْمَزْنِ هَامِيَةٌ وَجُودُ كَفِّيهِ أَجْرَى مِنْ يَجَارِيهَا⁽⁵⁾

فهذه الأبيات هي من التشبيه التام الذي توافرت فيه الأركان الأربعة، وقد استخدم الشعراء الغرناطيون التشبيه الناقص أيضا؛ وهو ما حذف أحد أركانه نحو قول مالك ابن المرحل: {الكامل}:

جُودًا عَلَى أَرْضِ الْهَوَى بِمَدَامِعٍ كَالْعَيْثِ مِنْ جَفْنٍ كَمِثْلِ سَحَابٍ⁽⁶⁾

(1) — عبد الفتاح عثمان _نظرية الشعر في النقد العربي القديم، القاهرة، مكتبة الشباب: 1998م ص: 173.

(2) — مالك ابن المرحل: الجوالات، ص: 67.

(3) — المجموعة النبهانية في المدائح النبوية، ج2، ص 309.

(4) — مؤلف مجهول، بمجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 367.

(5) — ابن الخطيب، الإحاطة ج1، ص: 371.

(6) — مالك ابن المرحل: الجوالات، ص: 69.

ومن هذا بيت ابن شلبطور في معرض المدح: {البيسط}

لَيْثٌ إِذَا رَهَبُوا غَيْثٌ إِذَا رَغِبُوا حَبْرٌ إِذَا طَلَبُوا عَلِمَ الدَّوَابِينَ⁽¹⁾

وبيت أبي عبد الله البرجي في المدح: {السريع}

غَيْثٌ وَلَيْثٌ كَلَّمَا قَسَّتَهُ بِمُنْتَدَى الْجُودِ وَيَوْمَ النَّطَاحِ⁽²⁾

واستعملوا التشبيه البليغ وهو ما حذف منه الأداة ووجه الشبه كقول أبي جعفر ابن

شلبطور في المدح: {الخبب}

لَمْ أَدْرِ أَسِرْتُ إِلَى لَيْثٍ أَلِى غَيْثٍ أَلِى قَمَرٍ؟⁽³⁾

ونحو هذا بيت ابن المرحل في معرض الغزل: {الخفيف}

يَا حَبِيباً مَرَاهُ صُبْحٌ يَلُوحُ مَا لِقَلْبِي سِوَى هَوَاكَ صَبُوحٍ⁽⁴⁾

وقول أبي عبد الله البرجي في مدح الغالب بالله محمد ابن الأحمر: {الكامل}

غَيْثٌ وَلَيْثٌ لِلْوَلِيِّ وَالْعَدَى فَيَفِيدُ فِي حُكْمِ الْعُلَا وَيُيِيدُ⁽⁵⁾

ومن أنواع التشبيهات المستخدمة في الشعر الغرناطي: التشبيه المعكوس أو المقلوب، كتشبيه

الورد بالحدود، وتشبيه الأقاحي بالثغر، وتشبيه النرجس بالعيون، وتشبيه البان بالقدّ ولهذا

اللون من التشبيهات شواهد كثيرة في الشعر العربي⁽⁶⁾

وفي هذا اللون من التشبيهات يكون المشبه أقوى دلالة و أكثر إيجاء من المشبه به، ويعد

من أكثر أنواع التشبيه تأثيراً لدى المتلقي؛ لأنه "يوقع المبالغة في نفسك من حيث لا تشعر،

و ينفذ لها من غير أن يظهر ادعاؤه لها؛ لأنه وضع كلامه وَضَع من يقيس على أصلٍ متفقٍ

عليه.... والمعاني إذا وردت على النفس هذا المورد، كان لها ضربٌ من السُرور خاصٌّ

وحدث بها نوعٌ من الفرح العجيب" ⁽⁷⁾

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 376.

(2) — المصدر السابق، ورقة: 353.

(3) — المصدر نفسه، ورقة: 370.

(4) — مالك ابن المرحل: الجوالات، ص: 74.

(5) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 360.

(6) — ينظر: عبد القاهر الجرجاني _أسرار البلاغة في علم البيان_، تح: محمد شاکر، ط1 القاهرة دار المدني، 1991م.

ص: 205 وما بعدها.

(7) — المصدر السابق، ص: 223، 224.

ومن أمثلة هذا النوع من التشبيه قول أبي عبد الله البرجي في معرض المدح {السريع}

وَحُضَّتْ فِي جُنْحٍ مِنَ اللَّيْلِ قَدْ أُرْسِلَ فِي الْأَفَاقِ فَضَّلَ الْجَنَاحُ

حَتَّى بَدَأَ نُورُ صَبَاحِ حَكَى وَجْهَ ابْنِ نَصْرِ حَيْنَ لَاحٍ⁽¹⁾

فقد جعل الشاعر وجه الممدوح أكثر إشراقاً من نور الصباح حين شبه الصباح بوجهه بدلاً من أن يفعل العكس وفي هذا مبالغة طريفة .

وأما أكثر أدوات التشبيه استخداماً لدى الشعراء الغرناطين فهما : (الكاف، وكأن) فقد كثر استخدام إحدى هاتين الأداتين في الشعر الغرناطي بشكل واضح، وقد حدث هذا بصورة متلاحقة في بعض الأحيان على النحو الذي نراه في قول ابن سعيد الغرناطي معبراً عن شوقه وحنينه إلى وطنه : {الكامل}

مَعَ كُلِّ مَبْدُولِ الْوَصَالِ مُمَنِّعٍ مِنْ غَيْرِنَا تَسْمُو بِهِ الْخِيَلُ

كَالظِّي كَالشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ كَالْتَقَا كَالْعُصْنِ يَشْنِي مِعْظَفَيْهِ رَخَاءُ

يَسْعَى بِرَاحِ كَالشَّهَابِ بِرَاحَةٍ كَالْبَدْرِ وَالْوَجْهَ الْمُنِيرُ ذُكَاءُ⁽²⁾

فالشاعر أتى بصور تشبيهية متلاحقة مكرراً أداة التشبيه الكاف بيد أن هذا التكرار لم يؤثر في التدفق العاطفي للأبيات فقد دلت على تعمق الحنين عند الشاعر وقوة اشتياقه لوطنه⁽³⁾

ونجد أيضاً مالك ابن المرحل يحافظ على قوة الانفعال الوجداني بالرغم من تكرار أداة التشبيه (الكاف)؛ حيث يقول : {الكامل}

وَ لَقَدْ هَجَرْتُ لِأَرْضِهِ أَرْضِي كَمَا هَجَرَ الْكَرَى جَفْنِي لِبُعْدِ مَزَارِهِ

نَادَيْتُهُ وَ مَدَامِعِي مِنْهُلَّةً كَالْمَزْنِ يَسْقُطُ مَاؤُهُ مِنْ نَارِهِ⁽⁴⁾

فتكرار الشاعر لأداة التشبيه "الكاف" لم يمنع من أن تبلغ الصورة التشبيهية الواردة في البيتين حد التأثير والإعجاب .

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 352 .

(2) — المقرئ _ نفع الطيب ج 2 ، ص : 211. الخيلاء بضم ففتح : مثل المخيلة ، وهو الكبر وإعجاب المرء بنفسه .

(3) — ينظر : محمد أحمد دقالي ، الحنين في الشعر الأندلسي ، ص : 474

(4) — مالك ابن المرحل _ الجولات ، ص 89 .

لكن تكرار أداة التشبيه قد يضعف قوة الانفعال العاطفي ؛ وذلك إذا ما ألح الشاعر في

طلب الصور التشبيهية على النحو الذي نجده في أبيات الرندي التالية : {الوافر}

وَلَيْلِ بُوْثِهِ كَالدَّهْرِ طُوْلًا تَنَكَّرَ لِي وَ عَرَفَهُ التَّمَام
كَأَنَّ سَمَاءَهُ رَوْضٌ تَحَلَّى بَزَهْرِ الزُّهْرِ وَالشَّرْقِ الكِمَام
كَأَنَّ البَدْرَ تَحْتَ العَيْمِ وَجْهٌ عَلَيهِ مِنْ مَلاَحَتِهِ لِثَام
كَأَنَّ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ كَأْسٌ وَقَد رَقَّ الرُّجَاجَةُ وَالْمُدَام
كَأَنَّ سَطُورَ أَفلاكِ الدَّرَارِي قِسِيَّ وَ الرُّجُومُ لَهَا سِهَام
كَأَنَّ مَدَارَ قُطْبِ "بَنَاتِ نَعَشٍ" نَدِيَّ وَ النُّجُومُ بِهِ نَدَام⁽¹⁾

ويبدو أن الرندي كان مغرماً بهذا المنحى حيث إن له أكثر من قصيدة نجده يرصف فيها ضروباً من التشبيه رصفاً متلاحقاً مكرراً أداة تشبيهية بعينها ، قد أدّى هذا الأمر في بعض الأحيان إلى التقليل من قوة الانفعال ، ومن صدق التجربة الوجدانية.⁽²⁾

2 _ الاستعارة : أجمع النقاد على أن الاستعارة بجميع أنواعها أرقى في التصوير والتأثير من التشبيه وأشد منه في المبالغة والدلالة ؛ وذلك لما فيها من تناسي التشبيه وادعاء الاتحاد و الامتزاج بين المشبه و المشبه به وقد عرف عبد القاهر الجرجاني الاستعارة بقوله " اعلم أن الاستعارة يكون للفظ أصلٌ في الوضع اللغوي معروفٌ تدل الشواهد على أنه اختصّ به حين وُضِع ، ثم يستعمله الشاعر ، أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلاً غير لازم ، فيكون هناك كالعاريّة "⁽³⁾

وعرف أسامة بن منقذ الاستعارة بأنها هي " أن يستعار الشيء المحسوس للشيء المعقول "⁽⁴⁾

يذهب النقاد وفي العصر الحديث إلى أن الاستعارة هي " الأساس الحقيقي لدراسة الشعر "⁽⁵⁾ ، وتعد الاستعارة من أكثر الوسائل المستخدمة في تشكيل الصور الفنية في الشعر الغرناطي

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد القنوي، ص: 108 .

(2) — ينظر: محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي ص: 121 .

(3) — عبد القاهر الجرجاني _ أسرار البلاغة في علم البيان ، ص 30 .

(4) — أسامة ابن منقذ _ البديع في نقد الشعر ، تح: أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، القاهرة مطبعة الجبلي 1960م ص: 41

(5) — يوسف خليف _ الشعر الجاهلي: نشأته و تطوره ، الكويت مجلة عالم الفكر ، مج، 4 ، ع 4 سنة 1973 ص : 182 .

وخير دليل على هذا ديوان الجوالات لابن المرحل الذي يعجّ بالعديد من الاستعارات
الجيدة مثل قوله متغزلاً: {الكامل}

وَتُدِيرُ مُقْلَتَهُ كُؤُوساً أَقْسَمَتْ لَا يَشْرَبُ النُّدْمَاءُ حَتَّى أَشْرَبَا⁽¹⁾

وقوله: {الكامل}

وَإِذَا تَوَلَّى سَلًّا مِنْ أَحْفَانِهِ عَضْبًا أَبَى إِلَّا فُؤَادِي مَضْرَبَا⁽²⁾

وكقوله أيضا: {البيسط}

كِتَابُ رَوْضِ تَلْتُهُ طَيْرُهُ فَعَدَتْ مُمِيلَةً أَلْفَاتِ الْقُضْبِ فِي التَّهْرِ
حَرَّ النَّسِيمِ عَلَى أَوْرَاقِهِ يَدُهُ كَأَنَّهُ مُصْحَفٌ فِي حِجْرِ مُدَكَّرِ⁽³⁾

وتدل استعارات ابن المرحل على موهبة شاعرية وخيال خصب وقدرة فذة على التصوير
فمن أجمل ما قاله مستخدماً الاستعارة بيته: {الكامل}

حَتَّى إِذَا رَفَرْتُ قَصَّ قَوَادِمِي وَبَقِيَتْ أُخْبِطُ فِي حَبَالَةِ صَائِدِ⁽⁴⁾

وقوله: {الكامل}

جَعَلَ الضَّنَى طَوْقًا عَلَيَّ وَصَاغَ مِنْ مَاءِ الْجُفُونِ تَمَائِمِي وَقَلَائِدِي⁽⁵⁾

ومن استعاراته قوله: {الكامل}

وَيَهْزُ غُصْنًا قَدْ جَرَى فِي عِطْفِهِ مَاءَ النَّعِيمِ مُصَعَّدًا وَ مُصَوَّبَا⁽⁶⁾

وقوله: {الكامل}

وَلَيْسَتْ أَتْوَابَ الْمَسْرَةِ وَالْأَسَى وَشَرِبْتُ كَأْسَ الْوَصْلِ وَالْهَجْرَانِ⁽⁷⁾

وقد استخدم الشعراء الغرناطيون ألفاظاً بعينها على سبيل الاستعارة مثال هذا لفظة
البحر" التي عبروا بها عن جود الممدوح وكرمه كما في بيت ابن شلبطور: {البيسط}

يَخُوضُ بَحْرَ نَدَاكَ الْعَذْبِ مُرْتَمِيًّا بِلُؤْلُؤٍ مِنْ نَفِيسِ الْحَمْدِ مَكْنُونِ⁽¹⁾

(1) - مالك ابن المرحل - الجوالات، ص: 67.

(2) - المصدر السابق، ص: 67.

(3) - المصدر نفسه، ص: 88.

(4) - المصدر نفسه، ص: 78.

(5) - المصدر نفسه، والموضع نفسه.

(6) - المصدر نفسه، ص: 67.

(7) - المصدر نفسه، ص: 132.

وكما في قوله أيضاً في معرض المدح: {البيسط}

أُنِّي عَلَيْهِ وَإِنِّي بَعْدُ مُعْتَرِفٌ بَأَنَّ أَوْصَافَ ذَاكَ الْبَحْرِ تُعِينِي⁽²⁾

واستخدم أبو عبد الله البرحي هذه اللفظة على سبيل الاستعارة وذلك في قوله: {السريع}

يَا آلَ نَصْرٍ يَا بَنِي يُوسُفٍ يَا أَبْحَرَ الْجُودِ وَأُسْدَ الْكِفَاحِ⁽³⁾

وفي قوله أيضاً: {الوافر}

وَأَقْبَلْنَا فِقْبَلْنَا يَمِينًا تَفِيضُ بِهَا مِنَ النَّعْمَى بِحُورٍ⁽⁴⁾

لفظة (البحر) الواردة في هذه الأبيات جاءت على سبيل الاستعارة للتعبير عن كرم المدوح وبيان صفاته وهي من الألفاظ الشائعة في قصائد المديح .

ومن الألفاظ المستخدمة على سبيل الاستعارة لفظة (العلاج) ولهذه الكلمة معان كثيرة و إيجاعات شتى منها الغلظة، والشدة، والجفاء، والتهور، وتعني أيضاً حمار الوحش السمين القوي⁽⁵⁾ وقد استعارها الشعراء الغرناطيون لتصوير المقاتلين النصاري وبيان ما اقترفته أيديهم من جرائم في حق الإنسان الأندلسي المسلم ؛ يقول الرندي مصورا ما حلّ بالفتيات المسلمات على أيدي

أولئك العلوج: {البيسط}

وَطَفْلَةٌ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاقُوتٌ وَ مَرَجَانٌ
يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً وَ الْعَيْنُ بَأَكِيَّةٍ وَ الْقَلْبُ حَيْرَانٌ⁽⁶⁾

واستعمل ابن المرحل هذه المفردة في معرض التعريض بالجنود الغرناطيين؛ وذلك

ضمن قصيدة أنشأها على لسان ملوك بني مرين قال فيها: {الكامل}

عَهْدِي بِجُنْدِكُمُ الَّذِينَ إِذَا رَأَوْا عِلْجًا تَوَلَّوْا كَالنَّعَامِ الشُّرْدِ⁽⁷⁾

3 _ الكناية : عرّف عبد القاهر الجرجاني الكناية بأنها هي " أن يريد المتكلم إثبات معنى

(1) _ مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ، ورقة : 375 .

(2) _ المصدر السابق ، ورقة : 375 .

(3) _ المصدر نفسه ، ورقة : 353 .

(4) _ المصدر نفسه ، ورقة : 356 .

(5) _ ينظر : المعجم الوسيط ج2، ص: 620 ، 621 .

(6) _ المقرئ _ نفع الطيب ، ج 6 ص: 234 .

(7) _ ابن القاضي ، درة المجال ، ص302 .

من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردُّفه في الوجود فيومئ به إليه، ويجعله دليلاً عليه" (1)

فالكناية وفق هذا التعريف تشي ولا تفضح وهذا يحقق إحساساً بالمتعة لدى المتلقي؛ وذلك لأن "من المركوز في الطبع أن الشيء إذا نبيل بعد الطلب له أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نبيله أحلى، وبالمرزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلاً وألطف" (2)، ولا يقصد بالخفاء هنا ذلك الذي يصل إلى حد التعمية والتعقيد الذي يتعب ثم لا يجدي ويؤرق ثم لا يروق، وإنما المراد ما كان معناه إلى القلب أسبق من لفظه إلى السمع (3) ومن عرف الكناية في العصر الحديث الدكتور عبدالقادر الرباعي الذي يرى أن الكناية هي "عبارة صورية عرضية ومباشرة تشير إلى معنى غير معناها الأصلي" (4) فهي وسيلة لمعنى آخر في عقل الشاعر وقلبه.

ومن الكنايات الجيدة في الشعر الغرناطي قول أبي عمرو ابن المرابط في معرض دعوة ملوك بني مرين إلى الجهاد في الأندلس: {الكامل}

أَنْتُمْ جِيُوشُ اللَّهِ مِلءُ فَضَائِهِ تَأْسُونَ لِلدِّينِ الْعَرِيبِ الْمَفْرَدِ (5)

فقوله (ملء فضائه) هو كناية عن كثرة الجيوش المرينية.

ومن الكنايات الجميلة قول ابن المرحل في معرض الغزل: {الكامل}

ضَاقَتْ خَلَاخِلُهُ وَصَدْرِي بِالذِّي تَجْرِي وَإِنْ فَلَاحَهَا لَفَسِيحُ
لَكِنَّهَا خَرَسَتْ فَلَمْ يُسْمَعْ لَهَا جَرَسٌ وَصَدْرِي بِالْأَنِينِ يَصِيحُ (6)

فضيقُ الخلاخل وكتمُ الصوت كناية عن امتلاء الساقين وهو أحد ملامح الجمال الأنثوية لدى الغرناطيين وكثيراً ما يتردد في أشعارهم هذا الملمح؛ يقول أبو عبد الله البرجي في معرض الغزل: {السريع}

(1) - عبد القاهر الجرجاني - دلائل الإعجاز ، ص : 66

(2) - عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة ، ص 139 .

(3) - ينظر : المصدر السابق ، ص 139 ، 140 .

(4) - عبد القادر الرباعي - الصورة الفنية في شعر أبي تمام ، الأردن، منشورات جامعة اليرموك ، 1980، ص: 162.

(5) - ابن خلدون، العبر، ج 7، ص: 413 .

(6) - مالك ابن المرحل - الجوالات ، ص : 72 ، 73 .

لَمْ يَثْبُتِ الْخَلْخَالُ فِي سَاقِهَا إِلَّا بِخَصْرِ جَالٍ فِيهِ الْوِشَاحُ⁽¹⁾
 فقوله (بخصر جال فيه الوشاح) كناية عن رقة الخصر وهو من أكثر مقاييس جمال الجسد
 الأثوي تداولوا عند الشعراء الغرناطين ويتردد لديهم بكثرة ؛ ونحو هذا قوله أيضاً
 {الوافر}:

وَنَاءَتْ فَأَنْتَنَى رَذْفُ رَدَاخٍ بِخَصْرِ فِيهِ مِنْ هَيْفٍ ضُمُورٌ⁽²⁾

ومن أجمل الكنايات قول أبي عبد الله البرجي في معرض المدح: {الكامل}
 هَذَا دُعَائِي مُخْلِصاً حَدَّثَ بِهِ عَنْ كُلِّ حَافٍ فِي الْأَنَامِ وَمُنْعِلٍ⁽³⁾
 فقوله (كل حاف في الأنام ومنعل) هو كناية عن محبة الناس للممدوح؛ فقرائهم و
 أغنيائهم وفي هذا مبالغة لطيفة من الشاعر.

ومن الكنايات بيت ابن سعيد الغرناطي في معرض المديح النبوي: {الكامل}

مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَصَفْتُ مُحَمَّدًا نَفَدَ الْكَلَامُ وَوَصَفُهُ لَا يَنْفَدُ⁽⁴⁾

فقوله: (نغد الكلام ووصفه لا ينفد) هو كناية عن كثرة الأوصاف العظيمة للرسول
 الكريم صلى الله عليه وسلم .

ومن الكنايات ما جاء في بيت ابن حمدون المالقي ضمن قصيدته النبوية: {الطويل}

وَفَارَقْتُ أَوْطَانِي وَ لَمْ أَبْلُغِ الْمَنَى وَدُونَ مُرَادِي أَبْحُرُّ وَهَضَابُ⁽⁵⁾

فقوله (ودون مرادي أبحر وهضاب) هو كناية عن بعد الأماكن المقدسة عن الأندلس، وما
 يتكبده الحجاج الأندلسيون من هول و أخطار في سبيل الوصول إليها.

ومن التعبيرات الكنائية بيت أبي عبد الله البرجي في معرض المدح: {الكامل}

تَلْقَاهُ يَوْمَ الْحَرْبِ غَيْرَ مُدْرَعٍ وَتَرَاهُ يَوْمَ السَّلْمِ غَيْرَ مُبْخَلٍ⁽⁶⁾

فقوله (غير مدرّع) كناية عن شجاعة الممدوح وشدة بأسه في ساحة المعركة.

(1) _ مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم : 3835 د،ورقة : 351 .

(2) _ المصدر السابق ،ورقة :.

(3) _ المصدر نفسه ، ورقة : 366 .

(4) _ المجموعة النهائية في المدائح النبوية ج2 ص: 45 .

(5) _ المصدر السابق ،ج1 ،ص354.

(6) _ مؤلف مجهول ،مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د،ورقة : 364 .

ومن مثل هذا قول أبي جعفر ابن شلبطور في معرض الإشادة بالأنصار: {البسيط}
 لَهُمْ لَدَى الْحَرْبِ صَوْلَاتُ الْأَسُودِ وَفِي الْـ مِحْرَابِ بِالذِّكْرِ رَنَاتُ الرَّهَائِينِ⁽¹⁾
 فقوله (لهم صولات الأسود) كناية عن شجاعة الأنصار وإقدامهم في نصرته الإسلام، وأما
 قوله (رنات الرهايين) فهو كناية عما عرف به الأنصار من تمسك بمبادئ الإسلام الحنيف.

4 _ المجاز: يعد المجاز بجميع أنواعه من أبرز الوسائل التي أسهمت في تشكيل الصور

الفنية في الشعر الغرناطي والأمثلة على هذا كثيرة منها قول ابن المرحل: {الكامل}
 وَالخَيْلُ تَشْكُونَا وَلَا ذَنْبَ سِوَى أَنَا نَرُوحُ بِهَا وَأَنَا نَعْتَدِي
 لَوْ أَنَّهَا عَلِمَتْ بِنَا فِي قَصْدِنَا كَأَنَّ تَطِيرُ بِنَا وَلَمْ تَتَرَدِّدِ⁽²⁾
 فقد صور الشاعر عن طريق المجاز خيل المجاهدين المغاربة شاكية كثرة عبورها إلى العدو
 الأندلسية إلا أنها تطير طيراناً عندما تعلم بأنها منطلقة من أجل الجهاد وإعلاء راية الإسلام،
 وفي هذا الاستعمال المجازي تصوير لرغبة المغاربة في الجهاد وتلبية نداء الأندلس .

ومن الصور المجازية قول ابن المرحل في معرض الحض على الجهاد: {الكامل}
 فَتَرَامَتِ الخَيْلُ العِطَاشُ لِوَرْدِهِ هَيْهَاتَ مَا المَاءُ الأَجَاجُ بِمَورِدِ⁽³⁾
 فقد صور الشاعر عبور الخيل المتعطشة للجهاد في الأندلس المتدافعة على البحر، وكأنها
 تسير إلى مورد ماء لتروي ظمأها، وهي صورة مجازية تعبر عن كثرة المجاهدين المغاربة وهم
 يعبرون المضيق إلى الأندلس.

ومن ذلك قول أبي عبدالله البرجي في معرض مدحه للأمير أبي سعيد ابن الأحمر: {الوافر}
 إِذَا قُلْنَا الأَمِيرُ أَبُو سَعِيدٍ تَطَاوَلَ مِنْبَرٌ وَسَمَا سَرِيرٌ⁽⁴⁾
 فالشاعر صور المنبر مشرباً في شوق وحنين لرؤية الأمير وصور سريره أيضاً سامياً مرتفعاً
 بجلوسه عليه و لا شك أن في هذا التصوير المجازي شيئاً من المبالغة .

ومن صور المجاز المرسل في الشعر الغرناطي تصوير الرندي لما آلت إليه المساجد الإسلامية

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 375 .

(2) — ابن القاضي، درة المجال، ص: 301.

(3) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(4) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 357 .

بالأندلس فالمحاريب باكية والمنابر راثية فقد ذكر الشاعر حالة المحل وأراد حالة الحالين فيه وما لحقهم من ذلّ وهوان؛ وذلك للتأثير على السامعين واستمالة عواطفهم وقلوبهم لتلبية نداء الجهاد؛ يقول: {البيسط}

حَتَّى الْمَحَارِبُ تَبْكِي وَهِيَ جَامِدَةٌ حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْتِي وَهِيَ عَيْدَانُ⁽¹⁾

ومن الصور المجازية ما نجده في قصيدة ابن المرحل الاستصراخية حيث صور عن طريق المجاز الأماكن المقدسة المتمثلة في: (مكة، والصفاء، و زمزم) باكية متأثرة حزينة لما حلّ بالمدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الصليبيين الحاقدين و ما لحق بها من خراب ودمار في إشارة من الشاعر إلى الرابطة الأخوية الإسلامية المتينة بين المشرق الإسلامي والمغرب؛ وذلك في قوله: {الرجز}

قُرْطُبَةُ هِيَ الَّتِي تَبْكِي لَهَا مَكَّةُ حُزْنًا وَ الصِّفَا وَ زَمَزَمُ
وَحِمَصُ وَهِيَ أُخْتُ بَعْدَادٍ وَمَا أَيَّامُهَا إِلَّا الصَّبَا وَالْحَلْمُ⁽²⁾

ومن صور المجاز المرسل قول ابن المرحل في معرض الغزل: {الطويل}

هُوَ الْحُبُّ يُحْيِي تَارَةً وَ يُمِيتُ نَعِمْتُ بِهِ فِيمَا خَلَا وَ شَقِيتُ⁽³⁾

فقد صور الشاعر الحب يحيي تارة، ويميت تارة أخرى، وهو تعبير مجازي؛ لأن الحب ليس له إرادة لكي يميت أو يحيي، وإنما هو سبب فحسب، والمسبب الحقيقي للموت أو الحياة هو الله وحده عز وجلّ.

5 — المفارقة التصويرية: اعتمد الشعراء الغرناطيون على المفارقة التصويرية

بوصفها إحدى الوسائل في تشكيل الصورة الفنية؛ وبرز هذا في شعر الحنين و الغربة، ويمكن اعتبار شعر ابن سعيد الغرناطي الذي قاله في الحنين إلى وطنه مثالا واضحا في استخدام المفارقة التصويرية للتعبير عن شوقه و حنينه إلى وطنه؛ وقد لاحظ الدكتور فوزي عيسى هذه الظاهرة في شعر ابن سعيد، وذهب إلى القول إن قصائد ابن سعيد التي قالها في الغربة " تقوم على عنصرين متقابلين هما التذكر أو استحضار صورة الماضي الزاهي الذي قضاه في

(1) — المقرئ — نفع الطيب، ج 6 ص: 323.

(2) — علي ابن أبي زرع — الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية، ص: 99 .

(3) — مالك ابن المرحل — الجوالات، ص: 69 .

الأندلس ثم مقابلة هذه الصورة بحاضره المرير في غربته حيث يشعر بالخمول والإهمال ويعاني من العزلة والضياع ، وتطرد هذه الظاهرة في كثير من قصائده"⁽¹⁾

كذلك برزت المفارقة التصويرية في شعر رثاء المدن حيث حاول الشعراء الغرناطيون في رثائهم للمدن الأندلسية تصوير حالتين تقعان على طرفي نقيض: حالة الأمن والطمأنينة التي كان يعيشها الإنسان الأندلسي قبل الحرب وحالة الذعر والخوف وعدم الأمان التي أصبح يعيشها بعد الحرب.

ويصور الرندي في قصيدته النونية عن طريق المفارقة ما آل إليه حال الأندلسيين من ذل نفسيّ وبدنيّ حين سلبت حقوقهم وقيدت حرياتهم وانتهكت حرماهم بعد أن كانوا يعيشون حياة كريمة مطمئنة في ديارهم شبيهة في عزّها وكرامتها بحياة الملوك وهذا ما تعبر عنه الأبيات التالية: {البسيط}

يَا مَنْ لِدَلَّةِ قَوْمٍ بَعَدَ عِزِّهِمْ	أَحَالَ حَالَهُمْ كُفْرًا وَطُغْيَانًا
بِالْأَمْسِ كَانُوا مُلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ	وَالْيَوْمَ هُمْ فِي بِلَادِ الْكُفْرِ عُبْدَانُ
فَلَوْ تَرَاهُمْ حَيَارَى لَا دَلِيلَ لَهُمْ	عَلَيْهِمْ مِنْ تِيَابِ الذَّلِّ أَلْوَانُ
وَكُو رَأَيْتُ بُكَاهِمَ عِنْدَ بَيْعِهِمْ	لَهَالِكِ الْأَمْرِ وَاسْتَهْوَتْكَ أَحْزَانُ ⁽²⁾

ومن المفارقات التصويرية قول أبي عمرو ابن المرابط في معرض رثائه للأندلس: {الكامل}

أَتَعَزُّ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ مَدَائِنُ	وَاللَّهُ فِي أَقْطَارِهَا لَمْ يُعَبِّدِ؟
وَتَذِلُّ أَرْضُ الْمُسْلِمِينَ وَتُبْتَلَى	بِمُتَلِّثِينَ سَطَّوْا بِكُلِّ مُوَحِّدِ؟ ⁽³⁾

ثالثاً: أنواع الصور الفنية المستخدمة في الشعر الغرناطي :

1 – الصورة التشخيصية وهي "تقوم على أساس تشخيص المعاني المجردة ومظاهر الطبيعة الجامدة في صورة كائنات حية تحس و تتحرك و تنبض بالحياة"⁽⁴⁾

وفي الشعر الغرناطي العديد من الصور التشخيصية المرتبطة بالطبيعة النابضة بالحياة؛ فقد

(1) – فوزي عيسى _ الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص : 164 .

(2) – المقرئ _ نوح الطيب ، ج 6 ص : 234.

(3) – ابن خلدون العبر ، ج 7 ، ص : 410 ، 411 .

(4) – يوسف بكار _ قضايا في النقد و الأدب ، بيروت، دار الأندلس: 1984، ص 34 .

صوّر الشاعر الغرناطي الطبيعة ضاحكة حيناً، وباكية متألّمة أحياناً أخرى؛ من ذلك قول ابن شلبطور يرسم صورة تشخيصية للطبيعة التي تبدو فيها الزهور ضاحكة زاهية تطرب لها أوراق الرياحين: {البيسط}

قَد رَقَّتِ الْوُرُقُ فِي قُضْبِ الرِّيحِ
فَأَسْتَهْ بَتَّرَجِيعٍ وَتَلْحِينِ
وَاسْتَقْبَلْتُهُ نُغُورُ الزَّهْرِ ضَاحِكَةً
فَاهْتَزَّ زَهْوًا بِأَزْهَارِ الْبَسَاتِينِ⁽¹⁾

ومن الصور التشخيصية قول ابن المرحّل مصوراً أزهار الحمى ضاحكة تارة، وباكية بقطر الندى تارة أخرى: {الخفيف}

وَحَمَى الْأُنْسِ أَهْلٌ مَا عَدِمْنَا
فِيهِ إِلَّا الرِّقِيبَ دَامَ كَذَاكَ
بَيْنَ أَيْكَ بِزَهْرِهَا يَتَضَاحُكَ
نَ وَطَوْرًا بِقَطْرِهَا يَتَبَاكِي⁽²⁾

ومن الصور التشخيصية المتقنة قول الرندي: {الخفيف}

فِي رِيَاضٍ تَبَسَّمَ الزَّهْرُ فِيهَا
لِعَمَامٍ بَكَتْ دُمُوعَ دَلَالِ
وَجَرَى عَاطِرُ النِّسِيمِ عَلِيلاً
يَتَهَادَى بَيْنَ الصَّبَا وَالشَّمَالِ
فَاكْتَسَى التَّهْرُ لَأَمَةً مِنْهُ لَمَّا
أَنْ رَمَى الْقَطْرُ نَحْوَهُ بِالْبِنَالِ⁽³⁾

حيث صور الشاعر الزهر والغمام والنسيم والنهر في هيئة إنسان، إذ جعل الزهر يتسم لبكاء الغمام الذي يسح دلالة، أما النسيم الموشى بأريج الزهر، فهو يتهادى في تيه ودلال يمنح أريجه ريح الصبا والشمال، وأما النهر فقد أتشح منه بوشاح رقيق .

والبكاء، والغناء، والتقبيل صفات إنسانية تشع بالحياة نجد ابن المرحل يلبسها للطبيعة

مشخصاً إيّاها في صورة كائن حيٍّ؛ وذلك في قوله: {البيسط}

وَيَا حَمَامَ الْحِمَى لَوْ كَانَ ذَلِكَ بُكْيَ
إِذَا جَرَى الدَّمْعُ أَحْوَى مِنْ مَاقِيكََا
هُوَ الْغِنَاءُ وَلَوْلَا أَنَّهُ طَرَبٌ
لَمَا انْتَنَى الْعُصْنُ عَطْفًا عَنْ مَثَانِيكََا
لَوْ اسْتَطَاعَ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ لَهُ
إِلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ الْعُصْنُ فِي فَيْكََا
وَيَا قَضِيبَ التَّقَا مَاذَا السَّرُورُ لَقَدْ
بَلَعْتَ فِيمَا أَرَى أَقْصَى أَمَانِيكََا⁽⁴⁾

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، بالرباط رقم: 3835، ورقة: 376 .

(2) — مالك ابن المرحل — الجوالات، ص: 107 .

(3) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح: محمد الخمار القنوني، ص: 129.

2 — الصورة النفسية: تُعنى بتصوير " حالة من حالات الصراع مع الذات تعبيراً عن

القلق، أو الخوف، أو الصراع الداخلي حول فكرة أو موقف أو حدث أو ظاهرة"⁽²⁾ وللبعد النفسي أهمية كبرى في الصورة الفنية؛ وذلك لأن "الصورة في الشعر ليست إلا تعبيراً عن حالة نفسية معينة يعانيتها الشاعر إزاء موقف معين مع مواقفه في الحياة"⁽³⁾ ومن هذا النوع من الصور في الشعر الغرناطي قول ابن سعيد الغرناطي معبراً عن شوقه وحنينه إلى وطنه مصوراً الأثر النفسي الناتج عن فراقه: {الرملة}

وَ عَلَى مُرْسِيَةِ أَبِكِي دَمًا مَنْزِلَ فِيهِ نَعِيمٌ مُعْشَبٌ⁽⁴⁾

ومن هذا قول الرندي مصوراً الأثر النفسي الناتج عن فقدته لابنه: {الطويل}

وَضَعْتُ عَلَى قَلْبِي يَدَيَّ تَأَلَّمَا فَخِيلَ لِي أَنِّي وَضَعْتُ عَلَى الْجَمْرِ
وَأَجْرِيْتُ دَمْعًا دُونَ عَيْنٍ وَ إِنَّمَا فَجِيعُ فُؤَادِي فِي الدَّمُوعِ الَّتِي أُجْرِي
وَلَوْ أَنِّي أَنْصَفْتُ مِتَّ لِمَوْتِهِ فَكُنَّا بِحُكْمِ الْحَبِّ مَيِّتِينَ فِي قَبْرِ⁽⁵⁾

ومن الصور النفسية قول أبي عبد الله البرجي مصوراً آلام الفراق ومشاعر الوداع في نفس

الحب: {الوافر}

وَلَمَّا أَرَزَمَعْتُ بُعْدِي أَشَارَتْ بَتَوْدِيْعِي فَلَا بَعْدَ الْمَسِيرِ
فَلَا تَسْأَلُ جُفُونِي عَنْ دُمُوعٍ وَلَا تَسْأَلُ فُؤَادِي مَا السَّعِيرُ؟
فَبَعْدَ الْبُعْدِ دَمْعِي فِي انْحِدَارٍ وَ أَنْفَاسِي يُصَعِّدُهَا الزَّفِيرُ⁽⁶⁾

ومن ذلك ما أجده في قصيدة أبي محمد بن عبد العظيم النبوية، حيث يصور فيها المشاعر النفسية الناتجة عن شوقه وحنينه إلى رؤية الديار المقدسة مستخدماً المقابلة بين حالتين نفسييتين: حالة الطيبة التي فقدت ولدها في إحدى سرحاتها، وحالته النفسية، وما ينتابه من

(1) — مالك ابن المرحل — الجولات، ص: 109 .

(2) — فيس كاظم الجنابي — من أنماط الصورة في الشعر العراقي الحديث، الكويت، مجلة البيان، ع273، ديسمبر 1988، ص: 70 .

(3) — محمد زكي العشماوي — قضايا النقد الأدبي بين القدم والحديث، بيروت، دار النهضة العربية: 1979، ص: 108.

(4) — المقرئ — نفع الطيب ج3، ص: 50.

(5) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور، رقم 603، ورقة: 57، 58. والقصيدة غير واردة في النسخة المغربية المحققة،

(6) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 355 .

شعور الشوق والحنين ؛ حيث يقول: {الطويل}

وَمَا ذَاتُ أَشْوَاقٍ أَقَامَتْ بِوَجْرَةٍ
تُجَدِّدُ ذِكْرَهَا فَتَجْرِي دُمُوعُهَا
وَتَسْرِي نُسَيْمَاتُ الصَّبَا فَتَشُوقُهَا
وَتُبْصِرُ نَعْمَانًا وَرَمْلَةَ عَالِجٍ
وَتَسْمَعُ سَجْعًا لِلْحَمَائِمِ بِالضُّحَى
فَأَجْفَانُهَا تَهْمِي وَأَشْجَانُهَا تَرِي
بِأَكْثَرِ وَجْدًا مِنْ مُجِبِّ رَجَاؤُهُ
وَقَدْ فَقَدَتْ فِي ظِلِّ سَرْحَتِهَا حِشْمًا
فَأَوْنَةً سَكْبًا وَأَوْنَةً ذَرْفًا
وَتَذْكُرُ مِنْ دَوْحِ النَّخِيلَةِ مُلْتَقَا
فَتَنْدُبُ مَرَعَى مُخْصَبًا بِالْحِمَى جَفَا
فَتَهْتَفُ فِي أَرْجَاءِ مَكْنَسِهَا هَتَفًا
وَأَحْوَالِهَا أَحْوَالُ مَنْ فَارَقَتْ الْفَا
قَوِيٌّ وَلَكِنْ جِسْمُهُ يَشْتَكِي ضَعْفًا⁽¹⁾

3 — الصورة البرهانية : هي الصورة التي تتضمن تعليلاً طريفاً أو تبريراً منطقياً يأتي به

الشاعر لتأكيد فكرته فتبدو الصورة "وكأنها تشبيه قائم على القياس" ⁽²⁾

ومن أمثلة هذه الصورة في الشعر الغرناطي قول أبي عبد الله الإستيحي الحميري في وصف غلام
فقد عينه اليسرى: {الكامل}

لَمْ تَزُوْا إِحْدَى زَهْرَتَيْهِ وَلَا انْتَنَتْ
عَنْ نُورِهَا وَبَدِيعِ مَا تَحْوِيهِ
لَكِنَّهُ قَدْ رَامَ يُغْلِقُ جَفْنَهُ
لِيُصِيبَ بِالسَّهْمِ الَّذِي يَرْمِيهِ⁽³⁾
فالشاعر جعل — من خلال التصوير البرهاني — هذا العيب الخلقى سمة من سمات جمال الغلام،
وعلل هذا بعللة طريفة ؛ حيث صور حالة عين الغلام بحالة عين القنّاص حين يسدد سهامه نحو
هدفه بشكل دقيق فتراه يفتح عيناً ويغلق أخرى.

ومن الصور البرهانية قول أبي عبد الله البرجي في مدح الأمير أبي سعيد ابن الأحمر
{الكامل}:

أَبْصَرْتُهُ وَالشَّمْسُ فِي إِشْرَاقِهَا
فَشَكَكْتُ فِي الْأَبْهَى بِهَا وَالْأَجْمَلِ
حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ عِنْدَ غُرُوبِهَا
سَجَدَتْ لِنُورِ جَبِينِهِ الْمَتَهَلِّلِ⁽⁴⁾

(1) — المجموعة البهانية في المدائح النبوية، ج2: ص310. والخشف ولد الظبية، تمي تسيل، الأشجان الأخران، تري: تشتعل.

(2) — محمد عبد العزيز موائى، مهدي الجواهري وخصائص فنه، القاهرة، دار العلوم، 1972، ص:327، أطروحة ماجستير غير منشورة.

(3) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 2، ص:327.

(4) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 363.

فقد صور الشاعر إشراق جبين الممدوح بأنه أهبى من شروق الشمس، وبرهن على هذا بظاهرة كونية هي ظاهرة الغروب لكي يعلل ما ادّعه في حق الممدوح؛ حيث بدت الشمس ساعة الغروب وكأنها ساجدة أمام الإشراق الدائم لجبين الممدوح بيد أن الصورة بدت باردة ليس فيها عاطفة قوية أو شعور بالانفعال؛ وذلك بسبب انشغال الشاعر في البحث عن علة منطقية مقنعة لصورته .

ومن الصورة البرهانية قول ابن عسكر المالقي يصف أحدباً: {الطويل}
 وَقَالُوا: أَ تَهْوَى أَحَدَبًا فَأَجَبْتُهُمْ أَرَى حَبَّهُ لِلْقَلْبِ أَسْلَى وَ أَرَوْحَا
 فَقَالُوا: فَصِفْهُ قُلْتُ غُصْنٌ تَحَدَّبَتْ كَمَا مَثُّهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَتَفَتَّحَا (1)

أما مالك ابن المرحل فهو حين أخذ الشيب يظهر على مفرق رأسه أخذ يتمسك بشبابه ويحاول أن يعلل ظهوره عن طريق التصوير البرهاني فقال: {الكامل}

قَالَ الْوُشَاةُ وَقَدْ بَدَتْ فِي مَفْرِقِي لِلشَّيْبِ آيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى الْكِبَرِ
 كَمْ ذَا التَّصَابِي وَالشَّبَابُ قَدْ انْقَضَى وَالشَّيْبُ قَدْ عَمَّ الْمَفَارِقَ وَانْتَشَرَ
 فَأَجَبْتُهُمْ: إِنَّ التَّصَابِي لِلْفَتَى كَالنُّورِ أَخْلَى مَا يَكُونُ مَعَ السَّحَرِ (2)

إن مثل هذه الصور تعتمد على العقل والتعليل أكثر من اعتمادها على الانفعال والعاطفة؛ ذلك لأن الاحتجاج أقرب إلى التجريد من التصوير الحسي الذي هو من طبيعة الشعر ثم إن الاحتجاج تصريح لا إيجاء فيه ، والتصريح يقضي على الإيجاء الذي هو خاصة من خصائص التعبير الفني " (3) وعدم اعتماد هذا النوع من الصور على الأحاسيس والانفعالات بشكل أساسي جعلها محدودة في الشعر الغرناطي الذي هو في معظمه شعر مشاعر وأحاسيس.

4 — الصورة الحركية: يرى الدكتور عبد القادر الرباعي " أن الحركة والفاعلية ميزتان

يمتاز بهما الشعر دون سائر الفنون" (4)؛ وذلك لأن عبقرية الشعر تكمن في إبراز الفاعلية

(1) — ابن عسكر، وابن حميس أعلام مالقة، ص: 185 .

(2) — محمد مسعود جبران، مالك بن المرحل — أديب العدوتين، ص: 305 .

(3) — محمد غنيمي هلال — النقد الأدبي الحديث، القاهرة، دار نمضة مصر للطبع والنشر، (د، ت) ص: 417 .

(4) — عبد القادر الرباعي — الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ص: 154 .

والنشاط الحركي الذي ينساب على سلسلة من لحظات متعاقبة⁽¹⁾، وتعد هذه الصورة من أصعب الصور في الشعر؛ وذلك "لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر، ولا يتوقف على ما يراه بعينه، ويدركه بظاهر حسه"⁽²⁾

ويرى عبد القاهر الجرجاني: " أنّ مما يزداد به التشبيه دقّةً وسحرًا أن يجيء في الهيئات التي تقع عليها الحركات "⁽³⁾

والدارس للشعر الغرناطي يجد أن الطبيعة كان لها دور واضح في انتشار هذا النوع من الصور؛ فقد ألهمت الشعراء الغرناطيين بالعديد من الصور المتحركة؛ حيث استمدوا من الطيور مثلا عنصر الحركة والسرعة في تصوير حركة الخيل وسرعتها على نحو قول الرندي: {البسيط}

يَا رَاكِبِينَ عَتَاكَ الْخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنهَا فِي مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانٌ⁽⁴⁾
كذلك استمدوا من الرياح التي تعدّ من سمات المناخ الأندلسي عنصر الحركة في صورهم من هذا قول ابن سعيد الغرناطي مصورا حركة الأشجار وهي تترنّح بفعل الرياح انثناءً واعتدالاً بأنّها كالعاشق الذي يحذر الرقيب: {الرملي}

خَفَّتِ الْأَشْجَارُ عِشْقًا حَوْلَنَا نَارَةً تَنَّى وَطُورًا تَقْرُبُ
جَاءَتِ الرِّيحُ بِهَا تُمُّ اثْنَتُ أَتْرَاهَا حَذِرَتْ مَنْ تَرْقُبُ؟⁽⁵⁾
ومثل هذا قول ابن المرحل مصورا حركة الأغصان وتلاعب الرياح بها فتبدو كالشباك التي تحيط بالطيور من كلّ جانب حيث صارت تتخبط بسرعة بين الأغصان مثل سرعة خفقان القلوب بين الضلوع دون أن تستطيع التحرر منها: {الخفيف}

وَكَأَنَّ الْأَشْجَارَ مَدَّتْ عَلَى الطَّيِّ رَشِيبًا كَأَنَّ مَا يُطِيقُ أَنْفِكَ كَأَنَّ
فَهِيَ مِثْلُ الْقُلُوبِ يَبْنِ ضُلُوعٍ مِنْ غُصُونٍ قَدْ اشْتَبَكَنَ اشْتِيَاكَ
وَنَسِيمُ الصَّبَا يَهَبُّ وَيَعْصِي فَيُؤَالِي السُّكُونُ ثُمَّ الْحِرَاكَ⁽¹⁾

(1) — ينظر: عبد القادر الرباعي — الصورة الفنية في شعر أبي تمام، ص: 154.

(2) — محمود عباس العقاد — ابن الرومي حياته من شعره، القاهرة، دار الهلال 1969، ص: 293.

(3) — عبد القاهر الجرجاني — أسرار البلاغة في علم البيان، ص: 180.

(4) — المقرئ — نفح الطيب ج 6، ص: 233.

(5) — المصدر السابق، ج 3، ص: 50.

وأفادوا أيضا من البرق في رسم صورهم الحركية من هذا قول الرندي يصف سرعة الخيول الغرناطية: {الكامل}

مِنْ كُلِّ لَيْثٍ فَوْقَ بَرْقٍ خَاطِفٍ بِيَمِينِهِ قَدْرٌ مِنَ الْأَقْدَارِ⁽²⁾

ومثل هذا قول أبي عبدالله البرجي مصورا ما يعانيه من برح العشق حتى صارت أنفاسه المتلاحقة ودموعه المنحدرة كالبرق الساطع وسط الغيوم الكثيفة: {الكامل}

فَكَأَنَّ أَنْفَاسِي وَبِيضَ مَدَامِعِي بَرْقٌ تَأَلَّقَ فِي مُتُونِ غَمَامِ⁽³⁾

وأفادوا أيضا من النواعير (الدواليب) في رسم بعض الصور الحركية مثل تصوير ابن عسكر المالقي الحركة البطيئة للدولاب عند هبوطه أو صعوده بخفة السارق وبحركة الكواكب الدائرة حول الفلك بجامع الانتظام ودقة الحركة في كل منهما؛ وذلك في قوله: {السريع}

وَدَائِرٍ يَسْرِقُ مِنْ مَائِهِ كَوَاكِبًا فَهَوَّ بِهَا صَاعِدُ
حَتَّى إِذَا قَامَ بِهَا وَاسْتَوَى وَقُلْتُ: هَذَا فَلَكَ زَائِدُ
أَهْوَتْ إِلَى الْأَرْضِ كَمَا قَدْ جَرَتْ نَيْزِكٌ لَاحَ لَهَا مَارِدُ
فَعَادَ مِنْ جَلِيَّتِهَا عَاطِلًا وَهُوَ إِلَى حَالَتِهِ عَائِدُ⁽⁴⁾

ومثل هذا قوله أيضا في تصوير حركة دولاب مشبها إياها بحركة السابح في الماء: {السريع}:

وَسَابِحٍ فِي الْمَاءِ أَعْجَبَ بِهِ لَمْ يَعْرِفِ السَّبْحَ وَلَا أَنْكَرَا
يَجْرِي مَدَى الدَّهْرِ وَمَا زَالَ عَنْ مَوْضِعِهِ يَوْمًا وَلَا قَصْرًا⁽⁵⁾

5 – الصورة الواقعية: هي صورة يستمدّها الشاعر من الواقع المحيط به دون الاتكاء على المجاز بشكل أساسي، ومع ذلك تكون الصورة الشعرية بكل المقاييس إيجابية كأغني

(1) — مالك ابن المرحل — الجوالات، ص: 107 .

(2) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 368 .

(3) — مؤلف مجهول، بمجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، ورقة: 368.

(4) — ابن عسكر، وابن حميس — أعلام مالقة، ص: 184 .

(5) — المصدر السابق ص، والموضع نفسه.

ما تكون الصورة بالإيحاء⁽¹⁾ وربما تكون عباراتها "حقيقية ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب"⁽²⁾

ومن أمثلة هذه الصورة في الشعر الغرناطي قول أبي القاسم ابن خلدون مصورا مواقف الوداع والفرق عند العشاق، وما يراودهم من أحاسيس ومشاعر في تلك اللحظات {الكامل}:

هلْ تَعْلَمُونَ مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ	عند الوداعِ بلوعةِ الأشواقِ؟
والبينُ يكتبُ من نَجِيعِ دمائهم	إنَّ الشهيدَ لمن يمْتُ بفرق
لو كنتَ شاهدًا حالهم يومَ النوى	لرأيتَ ما يَلْقَوْنَ غيرَ مُطَاقِ
منهم كئيبٌ لا يَمَلُّ بُكَاءَه	قد أَعْرِفْتُهُ مَدَامِعُ الآمَاقِ
ومُحَرَّقٌ الأحشاءِ أشعلَ نارَه	طُولُ الوجيبِ بقلْبِه الخفَاقِ
وموئلُه لا يَسْتَطِيعُ كَلامَه	مَمَّا يُقَاسِي في الهوى ويُلاقِي
خَرسَ اللسانِ فَمَا يُطِيقُ عِبَارَةً	ألمَ المرورِ ومَا لَهُ مِن رَاقِ
مَا لِلْمُحِبِّ مِنَ المنونِ وقاية	إنْ لم يُغِثْهُ حَبِيبُهُ بِتَلَاقِ ⁽³⁾

فالأبيات ترسم صورا واقعية لأحوال العشاق وما يعترهم من مشاعر لحظة الفرق والوداع فالأنفاس حرى وخفقات القلوب متلاحقة والدموع غزيرة إنها صور واقعية مستمدة من محيط الشاعر ولكنها بالرغم من ذلك؛ فهي معبرة وإيحائية.

ومن الصور الواقعية في الشعر الغرناطي صور المناسبات والاحتفالات الرسمية داخل الإمارة النصرية؛ من ذلك أبيات الرندي ضمن قصيدة في المديح صور فيها مراسم الاحتفال وفرح الغرناطيين بمناسبة تعيين محمد الثاني (الملقب بالفقيه) وليا للعهد، وقد تزامنت هذه المناسبة مع مولد الأمير محمد الثالث الملقب بالمخلوع، وهو ولد محمد الفقيه: {البسيط}

يَا يَوْمَ سَعَدٍ كَأَنَّ الْعَيْدَ عَادَ بِهِ	فَالنَّاسُ فِي مَرَحٍ وَالذَّهْرُ فِي جَذَلٍ
شَهِدْتُهُ فَرَأَيْنَا الْأَرْضَ قَدْ بَهَرَتْ	وَالشَّمْسُ قَدْ سَتَرَتْ وَجْهًا مِنَ الخَجَلِ

(1) — ينظر: علي عشري زايد — بناء القصيدة العربية الحديثة، القاهرة، مكتبة دار العلوم 1978 ص: 91.

(2) — علي البطل — الصورة في الشعر العربي: دراسة في أصولها وتطورها، بيروت، دار الأندلس 1980 ص: 25.

(3) — بن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 258.

وَلِلطُّبُولِ بِهِ خَفَقُ يُسَاجِلُهُ خَفَقُ الْبُنُودِ عَلَى الْخَطِيئَةِ الذُّبُلِ
 وَكُلُّ أَشْوَسَ سَاجِي الطَّرْفِ مِنْ أَدَبٍ يَهْوَى لِثَمِّ يَدِ أَشْهَى مِنْ الْأَسَلِ⁽¹⁾

فالشاعر يورد في هذه الأبيات "وصفا تفصيلا يبين فيه كيف احتفلت الدولة رسميا بتولية الأمير لولاية العهد بين أصوات الطبول المجلجلة وخفق الرايات بين أيدي حاملها في عرض بديع" (2)

ويرسم أبو عبدالله البرجي صورة واقعية أخرى لاحتفال أهل المرية وابتهاجهم بقدم الأمير أبي سعيد ابن الأحمر وتوليه على مدينتهم: {الكامل}

يَا يَوْمَ مَقْدَمِكَ السَّعِيدِ عَلَيْهِمْ اللَّهُ مِنْ يَوْمِ أَغْرَ مُحَجَّلِ
 بَرَزُوا إِلَيْكَ يَقُودُهُمْ حَادِي الْمُنَى فَالْكُلُّ يَبْنُ مَكْبَرٍ وَ مَهَلِّ
 يَضْعُونَ عَنْ مَنْ وَفَرَطٍ مَحَبَّةٍ حَرًّا الْخُدُودِ مَوَاطِنًا لِلْأَرْجُلِ⁽³⁾

من الصور التي التفت إليها الشاعر الغرناطي صورة الطبيعة الجميلة من حوله فالرندي

نراه يرسم صورة واقعية لحركة البحر؛ وذلك في قوله: {البيسط}

الْبَحْرُ أَعْظَمُ مِمَّا أَنْتَ تَحْسَبُهُ مَنْ لَمْ يَرِ الْبَحْرَ يَوْمًا مَا رَأَى الْعَجَبَا
 طَامٍ لَهُ حَبَبٌ طَافٍ عَلَى زَرْقٍ مِثْلَ السَّمَاءِ إِذَا مَا مُلَّتْ شُهْبَا⁽⁴⁾

فقد كان الرندي بارعاً في تصوير هذه الحركة، وذلك بالرغم من استعانتة بالتشبيه لتقريب الصورة، وقد علق الرندي نفسه على هذين البيتين بقوله إلهما: "من أحسن ما قيل فيه (يعني البحر)" (5).

ومن أشد الصور الواقعية تأثيراً في نفس المتلقي صورة الأطفال الأندلسيين، وما حلّ بهم من عذاب وتشريد، وما لحق بأهلهم من ذلّ وهوان بسبب الحرب الصليبية التي شنتها النصارى على المسلمين في الأندلس؛ من هذا ما نجد في قصيدة الرندي الرثائية حيث

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور، رقم 603. ورقة: 57، 58. والأبيات غير واردة في النسخة المغربية المحققة.

(2) — محمد رضوان الداية — أبو البقاء الرندي، ص: 127.

(3) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835 د، ورقة: 365.

(4) — المقرئ، نفع الطيب ج 4، ص: 321.

(5) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

صور تصويراً واقعياً ما حلّ بالأطفال والنساء والشيوخ من قبل العدو الحاقداً؛ وذلك في قوله: {البيسط}

يَا رَبُّ أُمَّ وَطِفْلٍ حَيْلَ بَيْنَهُمَا كَمَا تَفَرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ
وَطَفْلَةٍ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَأْقُوتٌ وَمَرَجَانُ
يَقُودُهَا الْعِلْجُ لِلْمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً وَالْعَيْنُ بَاكِيَةٌ وَالْقَلْبُ حَيْرَانُ
لِمِثْلِ هَذَا يَذُوبُ الْقَلْبُ مِنْ كَمَدٍ إِنْ كَانَ فِي الْقَلْبِ إِسْلَامٌ وَإِيمَانُ⁽¹⁾

ويصور مالك ابن المرحل الأطفال الأندلسيين، وحال آبائهم الذين راحوا ينظرون إليهم وهم يذرفون الدموع على المصير الذي ينتظرهم من العدو الصليبي؛ وذلك في قوله: {الرجز}:

إِنَّ أَمَامَ الْبَحْرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ خَلَقًا لَهُمْ تَلَفَتْ إِلَيْكُمْ
وَنَحْوَكُمْ عِيُونُهُمْ نَاطِرَةٌ لَا تَطْعَمُ النَّوْمَ وَكَيْفَ تَطْعَمُ؟!
وَالرُّومُ قَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَمَا لَهُمْ سِوَاكُمْ رَدًّا فَأَيُّنَ الْهَمَمُ؟
كُلُّهُمْ يَنْظُرُ فِي أَطْفَالِهِ وَدَمْعُهُ مِنْ الْحِذَارِ يَسْجُمُ⁽²⁾

وتتكرر الصورة الواقعية للأطفال الأندلسيين في القصائد الرثائية؛ فأبو عمرو ابن المرابط خلال تصويره لبعض النماذج الإنسانية الأندلسية التي عانت ويلات الحرب الصليبية يعرض لموقف الخوف الذي ينتاب الأندلسيين وهم يترقبون مصير أطفالهم لأن عدوهم لا يفرق بين صغير أو كبير أو بين شيخ وامرأة يقول: {الكامل}

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ عِنْدَهُمْ وَ أَسِيرَةٍ فَكِلَاهُمَا يَبْغِي الْفِدَاءَ فَمَا فُدي !
كَمْ مِنْ عَقِيلَةٍ مَعْشَرٍ مَعْقُولَةٍ فِيهِمْ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي مَلْحَدِ !
كَمْ مِنْ وُلْدٍ بَيْنَهُمْ قَدْ وَدَّ مَنْ وَلَدَاهُ وَدًّا أَنَّهُ لَمْ يُوَلِدِ !
كَمْ مِنْ تَقِيٍّ فِي السَّلَاسِلِ مُوثِقٍ يَبْكِي لِآخِرِ فِي الْكُبُولِ مُقَيَّدِ !
وَشَهِيدٍ مُعْتَرِكٍ تَوَزَّعَهُ الرَّدَى مَا بَيْنَ حَدِّي ذَابِلٍ وَ مُهْتَدِ !
ضَجَّتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِحَالِهِمْ وَرثَى لَهُمْ مَنْ قَلْبُهُ كَالْجُلْمَدِ !⁽¹⁾

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج 6 ، ص : 234 .

(2) — علي ابن أبي زرع — الذخيرة السننية في تاريخ الدولة المرينية ، ص : 100 .

ويضعنا أبو عمرو ابن المرابط أمام صورة واقعية أخرى ارتبطت بما حلّ بالمساجد من خراب ودمار وما أصابها من تغيير لمعاملها الإسلامية من قبل العدو الحاقد حتى تصيح مسيحية لا تمت للإسلام بصلة؛ وذلك في إشارة إلى أن الحرب في الأندلس كانت في المقام الأول ضد الدين الإسلامي ؛ يقول: {الكامل}

كَمْ جَامِعٍ فِيهَا أُعِيدَ كَنِيسَةً فَاهْلَكَ عَلَيْهِ أَسَى فَلَ تَتَجَدَّدِ
الْقِسُّ وَالنَّاقُوسُ فَوْقَ مَنَارِهِ وَالخَمْرُ وَالخِنْزِيرُ وَسَطَ الْمَسْجِدِ
أَسْفًا عَلَيْهَا أَقْفَرَتْ صَلَوَاتُهَا مِنْ قَانَتَيْنِ وَرَاكِعِينَ وَ سُجَّدِ
وَعَوَّضَتْ مِنْهُمْ بِكُلِّ مُعَانِدٍ مُسْتَكْبِرٍ مُذْ كَانَ لَمْ يَتَشَهَّدِ⁽²⁾

إن هذه الصور الواقعية التي عرضناها فيما مضى تشهد بأن الشعراء الغرناطيين كانوا دقيقين وواقعيين في تصوير مأساة الأندلس؛ مما جعل صورهم ذات تأثير وجدوى في تخفيف الهمم لاسيما في العدو المغربية؛ حيث هبّ ملوك بني مرين للجهاد ونصرة إخوانهم المسلمين في الأندلس، وبذلك ساعدوا في إطالة عمر الدولة الإسلامية في الأندلس إلى نحو قرنين من الزمن بعد القرن السابع الهجري .

6 — الصورة التجسيدية : هي صورة يعبر الشاعر من خلالها عن المعنويات في قالب مادي محسوس، بحيث تكون قريبة إلى ذهن القارئ، فالشيء المحسوس يكون في الغالب أقرب إلى الفهم من الشيء المعنوي؛ وذلك حين تتجسد الفكرة المجردة في هيئة مادية محسوسة، تبصر، أو تسمع، أو تذاق، أو تشم⁽³⁾

وثمة فرق كبير بين التجسيد والتشخيص؛ فـ "الأول ينقل المعنويات إلى جسم لا حياة فيه في حين أن التشخيص ينقلها إلى مشخّصات حيّة"⁽⁴⁾
فالتجسيد إذاً هو " إعطاء المعاني المجردة صفات مادية، وتحويلها من أصلها إلى وضع حسي ملموس في صورة شعرية معقولة، وقد تكون مخالفة للواقع"⁽⁵⁾

(1) — ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص : 411 ، 412 .

(2) — المصدر السابق ، ج 7 ص : 411 .

(3) — ينظر: أيمن ميدان _ الصورة الفنية في الشعر الغرناطي ، القاهرة، منشورات كلية دار العلوم، (د،ت)، ص: 80.

(4) — محمد عبد العزيز الكفراوي _ تاريخ الشعر العربي، ج2، القاهرة، دار الرسالة، د،ت، ص: 219.

(5) — أحمد هيكل_ تطور الأدب الحديث في مصر، القاهرة، دار المعارف: 1971، ص: 332.

ومن أمثلة هذا النوع من الصور في الشعر الغرناطي ما نجده في بيت أبي عبد الله البرجي حيث صور فيه عزّ المدوح وهو أمر معنوي بالحدائق التي تغصّ بالرياض النضرة {الوافر}:

وَ حُلْنَا فِي جَنَابِ الْعِزِّ نَرَعَى حَدَائِقَ كُلِّهَا رَوْضٌ نَضِيرٌ⁽¹⁾

ومن هذا تصوير أبي جعفر ابن شلبطور برح شوقه وهو مدرك معنوي بسيف المدوح وهو مدرك حسي؛ وذلك في قوله: {البسيط}

و بَرَحُ شَوْقٍ بَرَتْ قَلْبِي لَوَاعِجُهُ فَلَمْ أَجِدْ مَلَجًا مِنْهُنَّ يُبْرِينِي
حَتَّى تَخَيَّلْتُ أَنَّ الشَّوْقَ فِي خَلْدِي سَيْفُ الْأَمِيرِ ابْنِ نَصْرِ فِي الْمِيَادِينِ⁽²⁾

ومن الصور التجسيدية تصوير الرندي خلق المدوح، وهو أمر معنوي بالغيث في النفع، و بالبحر في الكثرة، وهما أمران محسوسان: {البسيط}

وَ خُلِقُ مَنْ خُلِقَتْ لِلْسَعْدِ غُرَّتُهُ وَلِلْعَلَا يَدُهُ وَ الْجُودِ وَ الْقَبْلِ
كَالْغَيْثِ لَكِنَّهَا نَفْعٌ بِلَا ضَرَرٍ كَالْبَحْرِ لَكِنَّهَا أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ⁽³⁾

ومن التصوير التجسيدي بيت ابن المرحل الذي صور فيه الوصل، وهو مدرك معنوي بالماء، وهو مدرك حسي؛ وذلك حيث يقول: {الرملي}

إِنَّمَا الْوَصْلُ كَمِثْلِ الْمَاءِ لَا يُسْتَطَابُ الْمَاءُ إِلَّا فِي الْقُلْلِ⁽⁴⁾

وكذلك بيته الذي جسّد فيه الهجر، وهو مدرك معنوي بالنار، وهي مدرك حسي، حيث قال: {الكامل}

اعْطِفْ عَلَى الْمُضْنَى الَّذِي أَحْرَقْتَهُ فِي نَارِ هَجْرِكَ لَوْعَةً وَ غَلِيلاً⁽⁵⁾

إن الصور التجسيدية كثيرة في الشعر الغرناطي ولن يتسع المجال لإيرادها كلها لذا أكتفي بهذا القدر من الشواهد، وإليك أبرز الملاحظات حول الصورة الفنية في الشعر الغرناطي .

(1) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 356 .

(2) — المصدر السابق، ورقة : 376 .

(3) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح، محمد الخمار القنوني، ص: 70 .

(4) — مالك ابن المرحل — الجوالات، ص : 116 .

(5) — المصدر السابق، ص: 146 .

• أبرز الملاحظات حول الصورة الفنية في الشعر الغرناطي :

1 — أكثر الشعراء الغرناطيون في أشعارهم من استخدام التشبيه، بيد أن بعض الشعراء لم يوفق في استخدام التشبيه فجاء لديه مشوباً بالقلق ؛ ومن الشعراء الذين وقعوا في هذا الأمر أبو الطيب الرندي ففي بيت من قصيدة له أراه يستخدم التشبيه قلقاً يصطدم أوله بآخره ، ذلك حين صورّ الجنود المسلمين ذاهبين إلى القتال متهللين فرحين بلقاء العدو لكنك إذا ذهبت مع الصورة إلى نهايتها وجدته يشبه هذه الوجوه بالقمر ؛ حيث يقول: {الكامل}

مُتَهَلِّلِينَ لَدَى الْهِيَاجِ كَأَنَّمَا خُلِقَتْ وَجُوهُهُمْ مِنَ الْأَقْمَارِ⁽¹⁾

ومن المعروف أن القمر يرتبط في أذهاننا خاصة حين نقرأ الشعر أو الأدب بجمال وجه المرأة و به يشبه ، وبين جماله وجمال وجهها يوازن النقاد، بيد أن وصف الجنود الذاهبين إلى لقاء العدو بأنهم كالأقمار في بيت الرندي السابق يثير السخرية والقلق فهو إذاً تشبيه مضطرب .

ومن أمثلة هذا التشبيه بيت آخر للرندي يصف فيه من أصابته طعنة بالسيف فأرغفته ، وأسالت دمه بأنه كالعاشق الذي يبكي على طلل والصورة وفقاً لهذا التشبيه لا تستقيم، وشتان ما بين صريع الحرب أو التزال يفيض داخله بالقهر والذل والهزيمة ، وبين عاشق بفيض صباية ووله يقف على ربع حبيبه ، يسترجع ذكريات جميلة مضت نشوى بالسعادة والرضا ؛ يقول: {السيط}

إِذَا الطَّعِينُ تَلَقَّاهُ وَأَرَعَفَهُ حَسْبَتْهُ عَاشِقًا يَبْكِي عَلَى طَلَلٍ⁽²⁾

سأكتفي بهذه الملحوظة لأنتقل إلى الحديث عن قضية فنية أخرى؛ إنها قضية الموسيقى في الشعر الغرناطي .

(1) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي، تح ،محمد الحمار القنوني ، ص : 117 .

(2) — المصدر السابق ، ص : 70 .

المبحث الثالث
موسيقى الشعر الغرناطي

المبحث الثالث

موسيقى الشعر الغرناطي

تعدّ الموسيقى "جوهر الشعر وأقوى عناصر الإيحاء فيه" ⁽¹⁾، وهي من أهم العناصر الأساسية في بناء النص الشعري، وهناك من النقاد من يرى أن الموسيقى هي التي تميز التعبير الشعري عن غيره من صنوف التعبيرات اللغوية الأخرى؛ فالدكتور إبراهيم أنيس يذهب إلى أن الشعر "ليس إلا كلاماً موسيقياً تنفعل بموسيقاه النفوس، وتتأثر بها القلوب" ⁽²⁾ فالتأثير إذاً هو من أبرز مهام الموسيقى الشعرية وذلك لقدرتها على "أن تقيم بناء متكاملًا يجمع بين التأليف القائم في أعماق الفنان و الثائر في نفسه و بين غيره من المتلقين في قدرة فنية تجعل إيقاعات النفس تجذب الآخرين" ⁽³⁾ يمكن أن أتبع موسيقى الشعر الغرناطي من ناحيتين:

الناحية الأولى من حيث الموسيقى الخارجية أو ما يعرف بموسيقى الإطار و تتمثل في كل من الوزن و القافية .
أما الناحية الأخرى فهي من حيث الموسيقى الداخلية أي موسيقى المحتوى وهذه الناحية تنشأ عن استخدام بعض أنواع البديع كالجناس مثلاً .

أولاً - الموسيقى الخارجية: الوزن، القافية.

1 - الوزن .

للوزن في الشعر أهمية كبيرة أشاد بها النقاد القدامى والمحدثون، فقد جعله ابن رشيق القيرواني أحد الأركان الأربعة في حد الشعر ⁽⁴⁾، وتحدث ابن طباطبا العلوي عن أهمية الوزن في الشعر حيث قال " للشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه، وما يرد عليه من حسن تركيبه واعتدال أجزائه؛ فإذا اجتمع للفهم مع صحة وزن الشعر صحة المعنى

(1) - محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث، ص: 445.

(2) - إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر ط، 6 القاهرة مكتبة الأنجلو، 1988، ص: 17.

(3) - رجاء عيد - التجديد الموسيقي في الشعر العربي، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1987، ص: 12.

(4) - ينظر: ابن رشيق القيرواني - العمدة، ج 1، ص: 119.

وعذوبة اللفظ فصفا مسموعه ومعقوله من الكدر تم قبوله له، واشتماله عليه، وإن نقص جزء من أجزائه التي يعمل بها وهي: اعتدال الوزن، وصواب المعنى، وحسن الألفاظ، كان إنكار الفهم إياه على قدر نقصان أجزائه" ⁽¹⁾

وفي العصر الحديث يرى أحد الباحثين أن الوزن هو "الهيكل الأساسي لبناء الموسيقى" ⁽²⁾ ويذهب الدكتور فوزي عيسى إلى أن الوزن "يزيد من انتباه القارئ، ومن قدرته على الاستجابة والتأثير و يخلق فيه إحساسا بالحوية و المتعة" ⁽³⁾ وقد عد بعض النقاد الغربيين " أن المبدأين الرئيسين للشعر هما الوزن و المجاز (أي الخيال)" ⁽⁴⁾

إن من يتتبع الأوزان التي استعملها الشعراء الغرناطيون في هذه الفترة يجد أنها جاءت متنوعة ما بين البحور الطويلة، والبحور القصيرة، وبنسب متفاوتة من حيث تفضيل الشعراء لهذا الوزن أو ذاك، فمن البحور الطويلة التي استعملوها: الطويل، البسيط، الكامل، الرمل، الرجز، السريع، الخفيف، الوافر، المتقارب، المنسرح، الهزج.... ومن البحور القصيرة التي استعملوها: مجزوء الكامل، ومجزوء الرمل، ومجزوء الرجز، و مجزوء المنسرح، و مخلع البسيط.... الخ ويمكن الوقوف على البحور التي استخدمها الشعراء الغرناطيون، وذلك وفق طريقة عملية تطبيقية من خلال إجراء بعض الإحصائيات لنتاج خمسة شعراء غرناطيين يمثلون الحقبة الزمنية التي تغطيها هذه الدراسة .

(1) - ابن طباطبا - عيار الشعر ، : ص21 .

(2) - رجاء عيد - التحديد الموسيقي في الشعر العربي ، ص: 9 .

(3) - فوزي عيسى - الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص: 251.

(4) - إليزابيث دور : الشعر كيف نفهمه و نتذوقه ، ترجمة ، محمد إبراهيم الشوسي ، ص: 60.

الجدول التالي يبين البحور الشعرية التي استخدمها ابن عسكر المالقي في شعره :

عدد الأبيات المجزوءة	عدد الأبيات التامة	البحر الشعري	
—	91	الطويل	1
6	143	البيسط	2
—	33	السريع	3
—	26	المتقارب	4
6	18	الكامل	5
—	9	الوافر	6
12	320	المجموع	

و الجدول التالي يوضح البحور الشعرية التي استخدمها أبو عبد الله البرجي في شعره:

عدد الأبيات المجزوءة	عدد الأبيات التامة	البحر الشعري	
—	195	الكامل	1
—	55	السريع	2
—	54	الوافر	3
—	304	المجموع	

والجدول التالي يبين البحور الشعرية التي استخدمها أبو جعفر أحمد ابن شلبطور في

شعره:

عدد الأبيات المجزوءة	عدد الأبيات التامة	البحر الشعري	
—	63	البيسط	1
—	50	الخبب	2
—	18	السريع	3
—	131	المجموع	

و الجدول التالي يبين البحور الشعرية التي استخدمها ابن رشيق المرسي في شعره :

عدد الأبيات المجزوءة	عدد الأبيات التامة	البحر الشعري	
5	222	البسيط	1
14	168	الكامل	2
—	157	المتقارب	3
—	79	الخفيف	4
—	62	الخبب	5
—	52	الطويل	6
—	48	المنسرح	7
—	46	المديد	8
—	32	السريع	9
—	22	الوافر	10
—	19	الرمل	11
—	15	الرجز	12
—	5	المجتث	13
19	927	المجموع	

و الجدول التالي يبين البحور الشعرية التي استخدمها أبو الطيب الرندي في شعره :

عدد الأبيات المجزوءة	عدد الأبيات التامة	البحر الشعري	
9	235	البسيط	1
—	106	الطويل	2
—	102	الكامل	3
—	95	السريع	4
2	76	الوافر	5
—	50	المديد	6
—	50	الخفيف	7
1	39	الرمل	8
—	15	المتقارب	9
10	9	الرجز	10
—	2	المنسرح	11
—	1	المجثث	12
—	1	الهزج	13
21	771	المجموع	

و الجدول التالي يبين البحور الشعرية التي استخدمها مالك ابن المرحل في شعره المدون في ديوان الجوالات :

عدد الأبيات المجزوءة	عدد الأبيات التامة	البحر الشعري	
—	514	الكامل	1
—	304	الطويل	2
16	221	البسيط	3
—	65	الرمل	4
—	56	الوافر	5
—	41	الخفيف	6
—	26	المتقارب	7
16	1268	المجموع	

من خلال الجداول الإحصائية السابقة يمكنني أن أدون جملة من الملاحظات وهي:

1 _ سجّلت البحور الطوال: البسيط، الكامل، السريع، الطويل أعلى نسبة استخدام لدى الشعراء موطن الإحصاء، وكان لها شيوع واضح في أشعارهم، وهذه الملحوظة تتفق مع ما استخلصه أحد الدارسين في " أن طول الوزن ووفرة مقاطعه يمنحان الشاعر مزيداً من المرونة في التحرك عبر المسافة الموسيقية في البيت الشعري"⁽¹⁾.

2 _ يلاحظ من خلال الجداول السابقة التباين الواضح في كثرة أو قلة استخدام أربعة بحور شعرية هي البسيط، الكامل، السريع، الطويل، واختلفت نسبة ورود هذه البحور من شاعر لآخر، فمالك ابن المرحل استخدم في ديوان الجوالات البحر الكامل في

(1) — محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1978 ص: 135، وينظر أيضاً: عبدالله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج1، ط2، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع: 1970م، ص: 20.

نحو 499 بيتاً، يليه في الكثرة البحر الطويل في نحو 230 أبيات، ثم البسيط في نحو 221 بيتاً.

أمّا أبو الطيب الرندي فيعدّ البحر البسيط من أكثر البحور الشعرية استخداماً في شعره الذي وصلنا؛ حيث بلغت نسبة استخدامه لهذا البحر نحو 235 بيتاً يليه الطويل في نحو 106 أبيات ثم الكامل في نحو 102 من الأبيات.

وأمّا ابن رشيق المرسي فقد كان البحر البسيط من أكثر البحور استخداماً في شعره حيث بلغت نسبة وروده نحو 222 بيتاً، يليه البحر الكامل في نحو 168 بيتاً، ثم المتقارب في نحو 157 بيتاً، أمّا البحر الطويل فلم يأت في شعره إلا في نحو 52 بيتاً.

ونجد أن البحر الكامل هو من أكثر البحور استخداماً في ما وصلنا من شعر أبي عبد الله البرجي، حيث بلغت نسبة استخدامه نحو 195 بيتاً، يليه البحر السريع في نحو 55 بيتاً.

ونجد أيضاً أن البحر البسيط في ما وصلنا من شعر أبي جعفر أحمد ابن شلبطور من أكثر البحور استخداماً، حيث بلغت نسبة وروده نحو 63 بيتاً، يليه بحر الخبب، ثم السريع.

ونجد أن البحر البسيط في شعر ابن عسكر المالقي هو من أكثر البحور استخداماً، إذ بلغت نسبة وروده 143 بيتاً، يليه الطويل في نحو 91 بيتاً، ثم السريع في نحو 33 بيتاً.

إن هذا التباين الواضح من حيث نسب استخدام البحور المذكورة يتفق مع ملاحظة أحد الدارسين في " أن الكثرة والقلة دليل إثبات أو عدمه من الشاعر لبحر دون بحر، وذلك شيء معروف لدى الشعراء فبعضهم يستهويه بحر معين، ويظل يترنم به كثيراً في حين أن بعضهم الآخر لا يكاد يطيق هذا البحر نفسه، ولا تهتمز له قريحته، ولا تنشط له دواعي روحه" (1).

ومما يؤكد هذه الملاحظة أن هناك عدداً من البحور الشعرية لم تستخدم من قبل الشعراء الغرناطين، كالمضارع، والمقتضب، بينما سجلت أوزان أخرى نسبة ضئيلة جداً في استخدامها، كالمجتث، والهزج، والمنسرح.

3 — يستطيع المطلع على الجداول السابقة أن يلاحظ عدم رغبة الشعراء موطن

(1) — عبد اللطيف عبد الحليم، المازني شاعراً، القاهرة، دار الثقافة العربية: 1985، ص: 207، 208.

الإحصاء في صياغة أشعارهم على صور البحور المخزوءة حيث جاءت نسبة الاعتماد عليها محدودة وانحصرت في البحور التالية: مملح البسيط، مجزوء الكامل، مجزوء الوافر، مجزوء الرجز.

4 _ ثمة ملحوظة مهمة أسجلها حول الأوزان المستخدمة في الشعر الغرناطي في هذه الحقة، وهي تتعلق باستخدام وزن (الخب) .

لقد كان هذا الوزن من البحور المهملة عند الخليل بن أحمد الفراهدي؛ وذلك لقلة وروده في الشعر القديم، بيد أن من جاء بعد الخليل من العروضيين عدّوه من الأوزان المستعملة، وأطلقوا عليه العديد من الأسماء والألقاب، كالغريب، والمتدارك، والمترادف، وقطر الميزاب، والمتداني، والمخترع، وسمّاه أبو العلاء المعرّي بركض الخيل، لما فيه من سرعة وخفة فكانه يحاكي وقع حافر الفرس على الأرض، أو ضرب النواقيس، بينما سمّاه الأندلسيون بـ (مشي البريد)، و أمّا أشهر أسمائه فهو (الخب)⁽¹⁾.

ومن المعروف أن استخدام هذا الوزن كان شائعاً خلال عهد الموحّدين، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي في كتابه (المعجب) العديد من النماذج الشعرية التي بنيت على هذا الوزن لاسيما قصائد المدح السياسي؛ من ذلك قصيدة علي بن حزمون (ت 614 هـ)⁽²⁾ التي أنشدها لأبي يوسف يعقوب الموحدي، وجاء في مطلعها: {الخب}

حَيْتِكَ مُعْطَرَةُ النَّفْسِ نَفَحَاتُ الْفَتْحِ بِأَنْدَلُسِ⁽³⁾

وكذلك قصيدة ابن الأبار القضاعي (ت 658 هـ) التي قالها في مدح أحد أمراء الموحدين، وجاء في مطلعها: {الخب}

قَامَتْ بِالْحَقِّ خِلَافَتُهُ يَتَقَلَّدُهُ وَيُقَلِّدُهُ⁽⁴⁾

إن شيوع استخدام هذا الوزن في قصائد المديح إبان عهد الموحّدين دفع الدكتور محمد

(1) — ينظر — أبو بكر القلوسى، الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض، تح: مزوار الإدريسي، تطوان، جامعة عبد المالك

السعدي، كلية الآداب و العلوم الإنسانية: 2003م — ص: 264 وما بعدها، رسالة دكتوراه غير منشورة. وينظر أيضا

أحمد الهاشمي — ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، ط15، القاهرة، دن: 1965، ص: 98.

(2) — ترجمته في، الأعلام ج 4 ص: 213.

(3) — عبد الواحد المراكشي — المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: صلاح الدين الهواري، ص: 213.

(4) — ابن الأبار القضاعي — المتقضب من كتاب تحفة القادم، تح: إبراهيم الأبياري، ص: 100، 99.

مجيد السعيد إلى الزعم بأن شعراء الموحدين هم أول من استعمل عروض الخبب في المدح الأندلسي، فذهب إلى أن الشعراء السابقين لم يستسيغوه، ولم يبنوا عليه مدائحهم⁽¹⁾، وقد تكفل الدكتور فوزي سعد عيسى بإبطال هذا الزعم، مستشهدا على بطلانه بقصيدتين في غرض المدح على وزن الخبب لابن حمديس، الذي هو من شعراء القرن الخامس الهجري⁽²⁾.
 وأستطيع أن أؤكد في هذه الدراسة أن استخدام هذا الوزن في قصائد المدح استمر إلى العهد الأول من حكم بني الأحمر، ومن النماذج الشعرية التي تؤكد هذه الحقيقة قصيدة الشاعر الغرناطي أبي جعفر أحمد ابن شلبطور في مدح الأمير النصري الشاب أبي سعيد فرج، ولد محمد ابن الأحمر الغالب بالله، وقد جاء في مطلعها: {الخبب}

سَفَرَتْ غَرَاءُ عَنِ السَّفَرِ بُشْرَى عَمَّتْ كُلَّ الْبَشَرِ⁽³⁾

وفيها يقول :

مَنْ أَعْوَزَهُ فَرَجٌ فَرَجًا	فَرَجًا قَدْ أَيَقَنَ بِالظَّفَرِ
وَأَفَى فَكَأَنَّ وَفَادَتَهُ	كَأَنَّتْ وَالْيَمْنَ عَلَى قَدَرِ
قَدْ بَانَ الرَّشْدُ لِمُلْتَمَحِ	وَامْتَاَزَ الصَّفْوُ مِنَ الْكَدَرِ
وَتَبَدَّى الْحَقُّ لِمُرْتَقِبٍ	وَ تَجَلَّى الثُّورُ لِمُنْتَظِرِ
إِنْ بَاتَ الدِّينُ عَلَى حَذَرٍ	سَيَبِيْتُ الْكُفْرَ عَلَى غَرَرٍ ⁽⁴⁾

وهناك سؤال مهم مرتبط بوزن الخبب، أحسب أنه لم يطرح من قِبل الباحثين الذين تعرضوا لهذا الوزن في الشعر الأندلسي، وهو: هل عرف الشعر الأندلسي استعمال هذا الوزن في أغراض شعرية أخرى غير غرض المدح؟

يمكن أن أجيب عن هذا السؤال بالإيجاب؛ وذلك من خلال نص شعري مهم قيل في القرن السابع الهجري، وهو يتمثل في قصيدة لابن رشيق المرسي بناها على وزن الخبب في رثاء أحد أمراء بني هود بمدينة مرسية، وجاء في مطلعها: {الخبب}

(1) — ينظر: محمد مجيد السعيد _ الشعر في عهد المرابطيين و الموحدين بالأندلس، ص: 115، 114.

(2) — ينظر: فوزي سعد عيسى _ الشعر الأندلسي في عصر الموحدين، ص: 103، 102.

(3) — مؤلف مجهول، مجموع خطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط، رقم: 3835، ورقة: 370.

(4) — المصدر السابق، ورقة: 370.

عَجَبًا لِلدَّهْرِ وَ مَا فَعَلَا وَ لِحُكْمِ الْقَهْرِ لَقَدْ شَمَلَا
 عَجَبًا لِقَضِيَّةِ عَدْلِهِمَا فِيمَنْ قَدْ جَارَ وَمَنْ عَدَلَا
 سَبَقًا بِفَنَاءِ الْكُلِّ فَلَا عَدْلٌ سَبَقَ الْقَدْرَ الْعَدَلَا
 وَ الْأَعْجَبُ مِنْ عَجَبِي بِهِمَا أَنْ تُشْعَلَ عَنْهُ فَتَشْتَعِلَا⁽¹⁾

فالقصيدة على نحو ما ترى مبنية على وزن الخبب؛ وهذا الأمر يدفعني لطرح سؤال آخر، وهو: هل تكون هذه القصيدة هي الأولى التي بنيت على عروض الخبب في الرثاء الأندلسي عامة؟ أم أن هناك قصائد رثائية أخرى سبقت هذه القصيدة في بنائها على وزن الخبب؟

حقاً أنني لا أستطيع الحصول على إجابة شافية عن هذا التساؤل، ولا يمكنني الجزم القاطع بأسبقية هذه القصيدة على الرغم من أنني لم أجد فيما اطلعت عليه من مصادر أندلسية⁽²⁾ ما هو على هذا الوزن خاصة في شعر الرثاء؛ وهذا يشجعني على القول إن قصيدة ابن رشيقي المرسي هي القصيدة الوحيدة التي وصلتنا في الرثاء على عروض الخبب على الأقل في الوقت الحالي حتى تبدي لي الأيام ما كنت جاهلاً.

2 _ القافية :

عدها النقاد " شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر، ولا يسمى شعرا حتى يكون له وزن وقافية"⁽³⁾، لكنهم اختلفوا في تحديدها، ولعل أشهر ما وصلنا في تعريفها هو تعريف الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي قال: " إن القافية من آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه من قبله، مع حركة الحرف الذي قبل الساكن، والقافية على هذا المذهب، وهو الصحيح تكون مرة بعض كلمة، ومرة كلمة، ومرة كلمتين"⁽⁴⁾ كقول امرئ القيس:

كجلمود صخر حطه السيل من عل .

فالقافية من الياء التي بعد حرف الروي في اللفظ إلى نون (من) مع حركة الميم .

(1) — ابن رشيقي المرسي — حياته و آثاره ، ص : 198 و .

(2) — من المصادر التي بحثت فيها : كتاب نفع الطيب للمقري الذي يعد من أكثر المصادر الأندلسية اهتماما بالشعر الأندلسي عامة بيد

أني لم أظفر من هذا المصدر ولو ببيت واحد في عروض الخبب.

(3) — ابن رشيقي القيرواني، العمدة، ج 1 ، ص : 151.

(4) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

وفي العصر الحديث يرى الدكتور إبراهيم أنيس أن القافية اسم يطلق على مجموعة من الأحرف تلتزم آخر القصيدة أو المقطوعة تعطي أصواتا تتكرر خلال " لحظات زمنية منتظمة"⁽¹⁾

وقد حاول النقاد تحديد مجموعة من الشروط للقافية الجيدة منها " أن تكون متمكنة في مكانها من البيت ،ومعنى تمكن القافية أن يكون معنى البيت يتطلبها ،وأنها جاءت طيبة غير مغتصبة ولا مستكرهة ؛لتكتمل هذا المعنى ، وهي لذلك مرتبطة بما قبلها ارتباطا وثيقا"⁽²⁾ ومنها " أن تكون عذبة سلسلة المخرج موسيقية لا تحتّم بما يدل على رقة في مقام القوة و الفحولة " ⁽³⁾،ومنها " أن تكون كالموعود المنتظر يتشوقها المعنى ..."⁽⁴⁾

• الروي

وهو أحد الحروف الخمسة اللازمة في القافية؛وهي:التأسيس،والردف،والروي، والوصل ، والخروج ،⁽⁵⁾ ويعد الروي أهم حروف القافية،وهو الحرف الذي تبني عليه القصيدة ،وتنسب إليه فيقال :قصيدة رائية أو دالية ويلتزم به في آخر كل بيت منها ،ولا بد لكل شعر قل أو كثر من روي ⁽⁶⁾

فالروي إذا من أبرز ما يجب أن يلتزم به الشاعر في قصيدته دون غيره من حروف القافية ؛ذلك لأن " في الروي من التمكن ما ليس في غيره من الحروف اللازمة لأننا قد نجد تارة شعراً خالياً من التأسيس، وتارة شعراً خالياً من الردف. ويوجد ما هو خال من الصلة والخروج. ولا يوجد شعر يخلو من الروي " ⁽⁷⁾.

(1) — إبراهيم أنيس — موسيقى الشعر، ص: 237

(2) — أحمد أحمد بدوي — أسس النقد الأدبي عند العرب، ط2 ، القاهرة مكتبة هضبة مصر : 1960، ص: 346.

(3) — المرجع السابق والموضع نفسه .

(4) — أبو علي الحسن المرزوقي — شرح ديوان الحماسة ،تح أحمد أمين و عبد السلام هارون، ج1 ط1، القاهرة ،لجنة التأليف و الترجمة و النشر: 1951 ، ص : 11.

(5) — ينظر : أبو يعلى عبد الباقي التنوخي — القوافي، تح: عوني عبد الرؤوف ، ط2 ، القاهرة ،مكتبة الخانجي 1978 ، ص : 95.

(6) — ينظر: عدنان حقي — المفصل في العروض و القافية و فنون الشعر ، ط2 ، دمشق، دار الرشيد : 2000، ص: 149

(7) — أبو يعلى التنوخي — القوافي، ص : 95.

• حرف الروي و حركته في الشعر الغرناطي :

حاول الشعراء الغرناطيون أن تكون حروف رويهم موافقة لما اشترطه النقاد، ولذلك خلا معظم شعرهم من الحروف المستكرهة في الروي كـ "الثاء، والحاء، والذال، والشين، والطاء والغين، وهي حروف تنضوي تحت ما يسمى بـ " القوافي الحوش"⁽¹⁾، كذلك خلا جل شعرهم من حروف مثل :الزاي،والصاد،والضاد،والطاء والهاء الأصلية، والواو" وهي حروف تنضوي تحت ما يسمى بـ " القوافي النفر"⁽²⁾

وقد أطلق ابن الأثير على بعض هذه الحروف "مقاتل الفصاحة"⁽³⁾، وقال " اعلم أنه يجب على الناظم والناثر أن يتجنبوا ما يضيق به مجال الكلام في بعض الحروف كالثاء، والذال، والحاء، والشين، والصاد، والطاء، والطاء، والغين؛ فإنّ في الحروف الباقية مندوحة عن استعمال ما لا يحسن من هذه الأحرف المشار إليها "⁽⁴⁾ وقال أيضا " فإن كلفت آيها الشاعر أن تنظم شيئا على هذه الحروف، فقل هذه الحروف هي مقاتل الفصاحة "⁽⁵⁾ وأردف معللا عدم استخدام مثل هذه الحروف رويًا بقوله: "وعذري واضح في تركها فإنّ واضع اللغة لم يضع عليها ألفاظا تعذب في الفم ولا تلذّ في السمع، والذي هو بهذه الصفة منها فإنما هو قليل جدا ولا يصاغ منه إلا مقاطيع أبيات من الشعر، وأمّا القصائد المقصّدة فلا تصاغ منه، و إن صيغت جاء أكثرها بشعاً كريهاً "⁽⁶⁾

لكن ابن الأثير لم يجعل هذه الحروف على مستوى واحد من حيث كراهة الاستعمال، فهو يقول "على أن هذه الحروف متفاوتة في كراهة الاستعمال، وأشدّها كراهية أربعة أحرف هي: الحاء، والصاد، والطاء، والغين، وأما الثاء، والذال، والشين، والطاء، فإن الأمر فيهن أقرب حالا "⁽⁷⁾

(1) — ينظر: عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج1، ص: 63 .

(2) — ينظر : المرجع السابق، ج1 ص : 59.

(3) — ابن الأثير — المثل السائر ج1، ص: 196

(4) — المصدر السابق ج1، ص: 195.

(5) — المصدر نفسه ج1، ص : 196

(6) — المصدر نفسه، والموضع نفسه.

(7) — المصدر نفسه، والموضع نفسه.

ويذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى أن العلة في كثرة أو قلة مجيء هذا الحرف أو ذاك رويًا لا ينبغي أن تعزى إلى ثقل في الأصوات أو خفة بقدر ما تعزى إلى نسبة ورودها في أواخر كلمات اللغة⁽¹⁾

إن الدارس للشعر الغرناطي في هذه الحقبة يجد أن الشعراء الغرناطين حققوا نجاحاً في اختيار حروف رويهم، ولم تسجل إخفاقات في اختيار الروي إلا في حالات قليلة، ولم يتعد هذا بعض المقطوعات مثل مقطوعة من ثمانية أبيات لابن عسكر المالقي جعل رويها حرف (الغين)، أو مقطوعة أخرى له قالها في الوصف، واستخدم فيها حرف (الصاد) رويًا، جاء فيها: {السريع}

يَا أَوْقَصَ الْخِلْقَةَ بَعْدًا فَقَدُ	شَوَّهَكَ اللَّهُ بِهَذَا الْوَقَصُ
وَزَادَكَ اللَّهُ وَلَكِنَّهَا	زِيَادَةٌ أَكْثَرُ مِنْهَا نَقْصُ
كَأَنَّهُ فِي حَمْلِهَا صَائِدٌ	يَحْمِلُ مِنْ دُونِ طُيُورٍ قَفْصُ ⁽²⁾

فالمتمم في موسيقى هذه الأبيات يستشعر أنها مشوبة بالنقص الموسيقي؛ وذلك بسبب استخدام الشاعر حرف (الصاد) رويًا مقيداً بالسكون مما جعل المقطوعة تنتهي بنبرة عالية، وحادة قد لا تناسب وغرض الوصف التهكمي الساخر .

ونحو هذا ما نجده في ديوان الجوالات لابن المرحل؛ حيث استخدم الشاعر حروفا للروي مثل: الشاء، والحاء، والزاي، والشين، والصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والغين، والواو، وهي

حروف مستكرهة في الروي بيد أن نسبة ورودها رويًا في ديوان ابن المرحل كانت قليلة قياساً بغيرها من الحروف، ولم يتجاوز استخدامها المقطوعات إلى القصائد، لكن ما دفع ابن المرحل لاستخدام مثل هذه الحروف رويًا هو أنه كان يتبع في عرض قوافيه تياراً شعرياً معروفاً لدى المشاركة والأندلسيين أعني تيار (الإعانات)⁽³⁾، أو ما يسمى لزوم ما لا يلزم، وما من ريب في أن هذا المذهب وإن كان دالاً على انفساح الذرع في اللغة والبراعة في استعمالها الفني إلا أنه لا يمكن إنكار ما تجلبه هذه الحروف من قتامة الغرابة وجهامة

(1) — ينظر: إبراهيم أنيس — موسيقى الشعر، ص: 248 .

(2) — ابن عسكر المالقي وابن حميس — أعلام مالقة، ص: 185 .

(3) — الإعانات - ويقال له التضييق والتشديد ما لا يلزم - فهو أن يعنت نفسه في التزام ردف أو دخيل أو حرف مخصوص قبل حرف

حرف الروي، أو حركة مخصوصة، ينظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب - ج 2 ص 300

الحوشية في موسيقى الشعر، فضلاً عن التعمّل الذي يجافي الفن الجميل⁽¹⁾ ويستطيع القارئ أن يلمس هذا في بعض النصوص التي سار فيها ابن المرحل على نهج الزوميات مثال ذلك قوله في روي (الذال): {الكامل}

نَشْوَانُ مِنْ خَمْرِ الشَّبَابِ كَأَنَّمَا
عُصِرَتْ لَهُ الصَّهْبَاءُ فِي كَلْوَاذَا
وَكَأَنَّمَا قَدْ نَصَّ لِي مِنْ جِيدِهِ
جَاماً وَمِنْ أَجْفَانِهِ خَرْدَاذَا
إِنْ لَمْ يَكُنْ رِيحاً فَإِنَّ قَوَامَهُ
لَدُنَّ وَإِنْ بَطْرَفَهُ فَوَلَاذَا
لَاذَ الْأَنَامِ مِنَ الزَّمَانِ وَ لَيْتَ لِي
مِنْ ذَلِكَ اللَّحْظِ الظُّلُومِ لِوَاذَا⁽²⁾

ويمكن للدارس أن يصنّف الحروف التي استخدمها الشعراء الغرناطيون رويّاً في أشعارهم وفق أربعة أقسام :

- 1 _ حروف كثيرة الاستخدام هي : الباء، الراء، الدال، اللام، الميم، النون،.
 - 2 _ حروف متوسطة الاستخدام هي : التاء ، الفاء، القاف ،الكاف ، الهاء.
 - 3 _ حروف قليلة الاستخدام هي: الحاء، السين ، العين.
 - 4 _ حروف نادرة الاستخدام هي: الجيم، الحاء، الزاي الشين، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين ، الواو . الذال
- وللوقوف على صحة هذا التقسيم؛ يمكن النظر في الجداول الإحصائية التالية لنتاج عدد من الشعراء الغرناطيين، وإليك هذه الجداول .

الجدول الأول يبين حروف الروي وحركته في شعر أبي الطيب الرندي :

(1) — ينظر مالك ابن المرحل _ الجوالات ، ص: 48 . (بتصرف)

(2) — المصدر السابق، ص: 80، وينظر : ص 48 .

إجمالي كل روي	مقيد	مطلق			حركته الروي	
		الكسر	الضم	الفتح		
236	40	168	28	—	ر	1
198	3	75	118	2	ب	2
180	3	66	5	106	ل	3
90	46	16	22	6	م	4
76	9	67	—	—	د	5
55	—	2	51	2	ن	6
28	—	2	2	24	ع	7
21	9	6	—	6	ق	8
9	—	2	—	7	ف	9
2	—	—	2	—	س	10
2	—	—	2	—	ت	11
1	—	—	1	—	ح	12
898	110	404	231	153	المجموع	

يتضح من خلال الجدول أن ما وصلنا من شعر الرندي يخلو من حروف جاءت رويًا، وهي: الثاء، الجيم، الحاء، الزاي، الدال، الشين، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، الواو.

الجدول الثاني يوضح حروف وحركات الروي في شعر ابن رشيق المرسي:

إجمالي كل روي	مقيد	مطلق			حركته الروي	
		الكسر	الضم	الفتح		
237	64	44	129	—	ب	1
153	—	143	—	10	د	2
141	—	5	—	136	ل	3
110	—	35	—	75	ر	4
64	14	—	35	15	ك	5
62	—	62	—	—	ف	6
54	—	33	20	1	م	7
37	—	—	—	37	ي	8
26	—	9	17	—	ء	9
18	5	—	13	—	ها	10
17	—	—	17	—	ع	11
10	—	10	—	—	س	12
10	—	—	10	—	ت	13
8	—	8	—	—	ن	14
947	83	349	241	274	المجموع	

يظهر من الجدول أن ما وصلنا من شعر ابن رشيق المرسي يخلو من حروف أتت رويًا، وهي: الثاء، الجيم، الخاء، الزاي، الذال، الشين، الصاد، الضاد، الطاء، الظاء، الغين، الواو.

الجدول الثالث يوضح حروف وحركات الروي في شعر أبي عبد الله بن بكر البرجي :

إجمالي كل روي	مقيد	مطلق			حركته الروي	
		الكسر	الضم	الفتح		
87	—	87	—	—	ل	1
65	—	—	65	—	و	2
55	55	—	—	—	ح	3
54	—	—	54	—	ر	4
43	—	43	—	—	م	5
304	55	130	119	—	المجموع	

يتبين من خلال الجدول أن ما وصلنا من شعر البرجي يخلو من حروف أتت رويًا، وهي:
الثاء، الجيم، الخاء، الزاي، الشين، الصاد، الضاد، الظاء، الغين، الواو.

الجدول الرابع يوضح حروف وحركات الروي في شعر ابن عسكر المالقي:

إجمالي كل روي	مقيد	مطلق			حركته الروي	
		الكسر	الضم	الفتح		
146	12	33	98	3	ر	1
40	—	—	4	36	ل	2
36	4	24	3	5	م	3
31	—	28	—	3	ق	4
15	—	15	—	—	ن	5
14	6	4	4	—	د	6
8	—	8	—	—	س	7
8	—	—	—	8	ع	8
7	—	—	7	—	غ	9
5	5	—	—	—	ب	10
4	—	—	4	—	هـ	11
3	3	—	—	—	ص	12
2	—	—	—	2	ح	13
319	30	112	120	57	المجموع	

يتضح من خلال هذا الجدول أن ما وصلنا من شعر ابن عسكر يخلو من حروف جاءت رويًا، وهي: الثاء، الجيم، الخاء، الزاي، الشين، الطاء، الظاء.

الجدول الخامس يوضح حروف وحركات الروي التي استعملها ابن المرحل في ديوان

الجوات:

إجمالي كل روي	مفيد	مطلق			حركته الروي	
		الكسر	الضم	الفتح		
280	—	94	74	112	ر	1
167	48	73	14	32	ل	2
126	—	48	49	29	م	3
107	—	74	33	—	ن	4
74	—	—	43	31	ك	5
47	—	12	—	35	ب	6
42	—	—	27	15	ح	7
39	—	9	24	6	ر	8
31	—	11	20	—	ء	9
28	—	—	16	12	ي	10
24	—	—	—	24	ف	11
21	—	9	—	12	ق	12
16	—	—	—	16	ذ	13
15	—	—	—	15	هـ	14
15	—	—	15	—	ت	15
12	—	—	—	12	س	16
12	—	12	—	—	ض	17
12	—	—	—	12	ط	18
11	—	—	10	—	ع	19
10	—	—	11	—	ث	20
90	—	9	—	—	ص	21
90	—	—	—	9	و	22
90	—	—	9	—	ظ	23
8	—	—	8	—	ز	24
7	—	7	—	—	غ	25
6	—	—	—	6	ش	26
3	—	—	—	3	خ	27
1140	48	385	353	381	المجموع	

يتضح من خلال هذا الجدول أن ابن المرحل استخدم كل الحروف رويًا غير أن نسب استخدام هذا الحرف أو ذاك كانت على أنصبة متفاوتة.

حركة الروي : يمكن القول إن الشعراء الغرناطيين فضلوا الروي المكسور؛ حيث جاءت معظم أشعارهم على الروي المكسور؛ وفي الجدول التالي مزيد توضيح .

عدد أبيات كل روي	حركة الروي	عدد الأبيات	الشاعر
404	الكسرة	898	أبو الطيب الرندي
231	الضمة		
153	الفتحة		
110	السكون		
130	الكسرة	304	أبو عبد الله البرجي
119	الضمة		
—	الفتحة		
55	السكون		
349	الكسرة	947	ابن رشيق المرسي
241	الضمة		
274	الفتحة		
83	السكون		
385	الكسرة	1140	مالك ابن المرحل
353	الضمة		
381	الفتحة		
48	السكون		
120	الكسرة	319	ابن عسكر المالقي
112	الضمة		
57	الفتحة		
30	السكون		

يتضح من خلال هذا الجدول أن أكثر شعر **أبي الطيب الرندي** جاء على الروي المكسور يليه المضموم ثم المفتوح فالساكن، وجاء أكثر شعر **ابن عسكر المالقي** على الروي المكسور يليه المضموم، ثم المفتوح فالساكن، وكذلك الأمر بالنسبة لشعر **أبي عبد الله البرجي**، بينما جاء معظم شعر **ابن رشيق المرسي** على الروي المكسور يليه المفتوح، ثم المضموم فالساكن، أما **ابن المرحل**؛ فقد جاء أكثر شعره على الروي المكسور يليه المفتوح

ثم المضموم؛ فالساكن؛ وبالجملة فإن مجيء معظم الشعر الغرناطي على الروي المكسور يدل على رقة هذا الشعر وفخامته؛ وذلك لأن الكسرة تشعر بالرقة واللين ومن يتأمل الشعر العربي، يجد " أن أرقّ قصائده مكسورات الروي في الغالب، وأفخمها مضموماته في الغالب، ووجد أن شعراء الرقة يميلون إلى استعمال الكسر، وشعراء الفخامة يميلون إلى الضم... والشعراء المعاصرون يكثرون من الكسر، لما يشعرون به فيه من لين وانكسار يلائمان العواطف الرقيقة المنكسرة التي يريدون أن يعبروا عنها" (1)

القافية بين الإطلاق والتقييد : تنقسم القافية إلى مطلقة ومقيدة، وتعرّف القافية المطلقة بأنها " التي يكون رويها متحركا " (2)

ويعد هذا النوع من القوافي أكثر شيوعاً في الشعر الغرناطي وهذا يرجع إلى أن " القافية المطلقة أوضح في السمع، وأشدّ أسرا للأذن؛ لأنّ الروي فيها يعتمد على حركة بعده قد تستطيل في الإنشاد و تشبه حينئذ حرف مد... " (3)

إن إيثار الشعراء الغرناطين للقافية المطلقة دون غيرها أمر يتفق مع ما رصده الدكتور إبراهيم أنيس لدى شعراء العربية، حيث وجد أنهم آثروا استخدام هذا النمط من القافية بنسبة وصلت إلى نحو 90% (4)

أما القافية المقيدة فتعرّف بأنها " التي يكون فيها الروي ساكناً " (5)، وقد جاءت نسبة ورودها في الشعر الغرناطي محدودة قياساً بالقافية المطلقة، وهو أمر يتفق أيضاً مع ما رصده الدكتور إبراهيم أنيس لدى معظم شعراء العربية؛ وذلك من حيث قلة استخدام القوافي المقيدة في الشعر العربي القديم، وكذلك الحديث إذ لم تتجاوز نسبة استخدامها 1% (6)

ومن أمثلة مجيء القافية مقيدة في الشعر الغرناطي قصيدة ابن سعيد الغرناطي التي قال

(1) — عبد الله الطيب، المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ج1، ص: 69، 70 .

(2) — إبراهيم أنيس — موسيقى الشعر، ص: 260.

(3) — المرجع السابق، ص: 218.

(4) — ينظر: المرجع نفسه، ص: 260 .

(5) — المرجع نفسه، الموضوع نفسه .

(6) — ينظر: المرجع نفسه، الموضوع نفسه

في مطلعها: {الخفيف}

يَا نَسِيمًا مِنْ نَحْوِ تِلْكَ النَّوَّاحِ كَيْفَ بِاللَّهِ نُورُ تِلْكَ الْبَطَّاحِ⁽¹⁾
وقصيدة أبي عبد الله البرجي التي قال في مطلعها: {السريع}

شَدَّ حَشَاهُ بِيَدَيْهِ وَصَاحَ سَكَرَانَ مِنْ خَمْرِ الْهَوَى غَيْرَ صَاحِ⁽²⁾

وقد يبدو لكثير من الناظرين في القافية، أن يكون تقييدها سدا لباب شر عظيم يفتحه على الشاعر إطلاقها، فجرى لديهم هنا أيضا قول بعضهم (سَكَّنَ تَسْلَمَ)، وكأن الشاعر المطلق القافية وحده يعاني اصطياذ الكلمة الملائمة، لأنه وحده يراعي أن تكون مفتوحة كالمفتوحة آخر البيت السابق، أو مضمومة كالمضمومة، أو مكسورة كالمكسورة، فأما الشاعر المقيّد ففي راحة ودعة وسعة، يجمع المفتوحة إلى المضمومة إلى المكسورة، والمنونة إلى الغير المنونة، والمعربة إلى المبنية، ما دام آخر كل منها الحرف المختار رويًا؛ وبهذا يظهر الفرق بين من يقيد والإعراب صحيح لا يعتل وبين من يقيد ليهرب من الإقواء؛ ومن أمثلة هذا النوع الأخير قول الرندي في مطلع قصيدة في مدح أبي عبد الله بن الحكيم {السريع} :

سَلَّمَ عَلَى الْحَيِّ بِذَاتِ الْعَرَّارِ وَحَيٍّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الدِّيَارِ
وَحَلٌّ مَنْ لَمْ عَلَى حُبِّهِمْ فَمَا عَلَى الْعُشَّاقِ فِي الدُّلِّ عَارُ⁽³⁾

فقد أتى الشاعر بالقافية مقيدة لكي لا يقع في الإقواء، لكن هذا الأمر هو قليل في الشعر الغرناطي والغالب على هذا الشعر مجيء قوافيه مطلقة؛ وفي الجدول التالي مزيد من الإيضاح في حقيقة شيوع القوافي المطلقة أكثر من القوافي المقيدة في الشعر الغرناطي:

(1) - المقرئ - نفع الطيب ، ج 3 ص 73.

(2) - مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 351.

(3) - المقرئ - نفع الطيب ، ج 6 ص 235.

عدد الأبيات	نوع القافية	مجموع أبياته	الشاعر
788	مطلقة	898	أبو الطيب الرندي
110	مقيدة		
864	مطلقة	947	ابن رشيقي المرسي
83	مقيدة		
1092	مطلقة	1140	مالك ابن المرحل
48	مقيدة		
249	مطلقة	304	أبو عبد الله البرجي
55	مقيدة		
289	مطلقة	319	ابن عسكر المالقي
30	مقيدة		

وسائل إثراء القافية: تنوعت وسائل إثراء القافية في الشعر الغرناطي ما بين جلب قوافي

داخلية تدعم القافية المستخدمة، والالتزام بما لا يلزم، أو التنويع في حروف الروي .

1 - القوافي الداخلية : "وعادةً ما تكون مقصورة على بيت واحد أو على عدد محدود

من أبيات القصيدة"⁽¹⁾ مثال ذلك قول الرندي ضمن قصيدة في المدح : {السرير}

مُدَامَةٌ مُدْنِيَةٌ لِلْمُنَى فِي رِقَّةِ الدَّمْعِ وَ لَوْنِ النَّضَارِ⁽²⁾

فقد اتخذ الشاعر من التاء قافية داخلية مغايرة لروي البيت وهو حرف الراء مما أعطى نوعاً من الأصداء و التنغيمات المتنوعة للبيت .

و كقول ابن شلبطور ضمن قصيدة في المدح : {الخب}

كُنْ فِي سِعَةٍ مِنْ أَرْبَعَةٍ شَرَفٍ تَرَفٍ مُلْكٍ عُمَرِ⁽³⁾

حيث أضفى حرف التاء تنغيماً موسيقياً مسانداً لصوت الروي وهو الراء .

2 - لزوم ما لا يلزم: وهو أن يلتزم الشاعر حروفاً، وحركات في قافية قصيدته لا تتطلبها

قواعد علم القافية، وإنما يفعل ذلك زيادة في الإيقاع الموسيقي للقافية ويفضل أن يكون

(1) - إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر ، ص: 47.

(2) - المقرئ - نفع الطيب ج 6 ، ص: 235. النضار - بضم النون - الذهب .

(3) - مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم: 3835 ، ورقة : 373.

الإتيان به عفو الخاطر دون تكلف أو تصنع؛ وذلك لأن "التكلف يذهب برونق الصنعة، و يضعف هشاشة النفس له، وحينئذ يكون تركه أجود من ذكره"⁽¹⁾ و من حروف القافية التي التزمها الشعراء الغرناطيون في قوافيهم: الروي، الوصل، الخروج الردف، التأسيس. وأما الحركات المرتبطة بالقافية فقد التزموا أربعاً منها: المجرى، التوجيه، الحدو، الإشباع. و من النماذج الشعرية التي التزم فيها الشعراء هذه الحروف والحركات في القافية قصيدة ابن رشيق المرسي في مدح الرئيس النصري أبي الحسن علي بن نصر وجاء فيها {الكامل}:

فَعَلُ التَّوَى مُلْعَى لِبَعْضِ نَوَالِكَا فَاشْفِ الحَبَالَ وَلَوْ بِطَيْفِ خَيْالِكَا
مَا ضَرَّ لَوْ سَامَحْتَ مِنْهُ بِزَوْرَةٍ أَرِدُ السَّرَابَ بِهَا مَكَانَ زُلَالِكَا
مَا زَوْرَةَ الطَيْفِ المُرَادُ وَإِنَّمَا صِدْقُ الهَوَى يُرْضِيهِ زَوْرٌ وَصَالِكَا⁽²⁾

فالروي المستخدم في هذه القصيدة هو حرف الكاف وحركته الفتح تسمى (مجرى)، و الألف بعده يسمى (وصلا)، أما اللام التي قبل الروي فتسمى (دخيلا)، وحركته الكسر تسمى (إشباعا)، والألف التي قبل اللام تسمى (تأسيساً)، و حركة الفتح على الحرف الذي قبل اللام تسمى (رساً).

ونجد أن الشاعر التزم هذه الحروف و الحركات في كل أبيات قصيدته، ولا شك في أن مثل هذا الالتزام فيه صعوبة و تكلف، فقد وصف الصفدي صاحب الوافي بالوفيات هذه القصيدة بأنها: " ذات قافية صعبة "⁽³⁾

وبالرغم من هذا التكلف الواضح في قصيدة ابن رشيق فإنها لقيت استحساناً كبيراً لدى بعض الأدباء الغرناطيين حتى إن أحدهم طلبها من ابن رشيق ومدحها ضمن قصيدة قال فيها {المتقارب}:

فَيَا رَبَّ قَافِيَةٍ صُعَّتْهَا فَلَمْ تَكُ تُشْبِهُهَا قَافِيَهُ
وَكَافِيَةٍ حِينَ حَبَّرْتَهَا لَقَدْ أَجْمَعُوا أَنَّهَا الكَافِيَهُ⁽⁴⁾

(1) — صفاء خلوصي — فن التقطيع الشعري، بغداد — منشورات مكتبة المتنبئ، 1977، ص: 98.

(2) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره، ص: 169.

(3) — صلاح الدين الصفدي — الوافي بالوفيات، ج2، ص: 371.

(4) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره، ص: 176.

ويرى الباحث أن صعوبة القافية في قصيدة ابن رشيق؛ إنما تكمن في أن الشاعر ألزم نفسه بالحرف الواقع بين ألف التأسيس و بين الروي وهو ما يسمى في اصطلاح العروضيين بـ (الدخيل) فضلاً على أنه التزم حركته أيضاً؛ وهي الكسر، ويسمى هذا (إشباعاً)؛ و ذلك بالرغم من أن النقاد لا يشترطون أن يكون (الدخيل) حرفاً بعينه يتكرر في قافية القصيدة "بل ينوب الحرف عن الحرف في هذا الموقع من مواقع القافية"⁽¹⁾ و يستحسنون أن يكون الحرف الواقع بين ألف التأسيس وبين الروي مشكلاً بالكسر⁽²⁾ نقول بالرغم من هذه الفسحة إلا أن ابن رشيق المرسي التزم حرفاً دخيلاً بعينه وهو حرف (اللام) محرّكاً بالكسر في كل أبيات قصيدته ؛ وذلك إمعاناً منه في الصعوبة و التكلف .

و من هذا أيضاً قصيدة مالك ابن المرحل التي قال فيها: {الطويل}

أعيذُ فُوادي أَنْ يطيعَ اللوائِمَا وَأَنْ يَعْصِيَ البِيضَ الحِسانَ التَّواعمَا
يُصدِّقُ سمعاً للملامَةِ عارضاً و يكذبُ لمخاً في الملاحَةِ لازماً⁽³⁾

فقد التزم الشاعر في قصيدته هذه حرف الميم رويّاً و حركته الفتح و التزم أيضاً حرف الألف بعد الروي وصلاً ، كذلك التزم ألف التأسيس و الحركة التي بينه و بين الروي وهي الكسر (إشباع) و التزم كذلك حركة الحرف الذي قبل ألف التأسيس وهي الفتح (الرس) لكن ابن المرحل لم يلتزم الحرف الواقع بين ألف التأسيس و بين الروي وهو ليس من شروط العروضيين كما ذكرت سابقاً.

3 — الردف و التأسيس للقافية: يرى أحد الدارسين أن "ردف القافية يعين على إثراء القصيدة بنوع من الموسيقى و الترم الذي يأتي من خلال مدّ الصوت بحروف اللين الألف، أو الواو، أو الياء"⁽⁴⁾؛ وذلك لأنه يساعد على إعطاء الشاعر نوعاً من الارتياح في التعبير عن تجربته الشعرية.

(1) — د. عمر خليفة بن إدريس — في العروض والقافية دراسة حول الشعر العمودي وشعر التفعيلة، ط1، بنغازي ، منشورات جامعة قاروننس: 2003 ، ص: 190.

(2) — ينظر: إبراهيم أنيس — موسيقى الشعر، ص: 274 .

(3) — مالك ابن المرحل — الجوالات ، ص : 119 .

(4) — محمد الدقالي — الحنين في الشعر الأندلسي ، ص: 538.

ومن يتتبع نتاج الشعراء الغرناطيين يجد أن القوافي المردفة المجردة من التأسيس كانت أكثر شيوعاً لديهم من القوافي المؤسسة المجردة من الردف .

مثال الردف بالألف قصيدة أبي عبد الله البرجي التي قال في مطلعها: {الكامل}

أَمِنَ الْعَرَامِ بِرَامَةِ الْآرَامِ رُمْتَ السَّلَامَةَ لَاتَ حِينَ مَرَامِ⁽¹⁾

فالشاعر استخدم حرف الميم رويماً وقبله ألف لينة لا يفصل بينها وبين حرف الروي فاصل وهذه الألف تسمى ردفاً. ومن أمثلة الردف بحرف الياء قصيدة أبي جعفر ابن شلبطور التي

قال في مطلعها: {البسيط}

قَدْ رَقَّتِ الْوُرُقُ فِي قُضْبِ الرِّيَاحِينَ فَأَنَسْتُهُ بِتَرْجِيْعٍ وَ تَلْحِيْنِ⁽²⁾

ومن أمثلة الردف بالواو قصيدة أبي عبد الله البرجي التي جاء في مطلعها: {الوافر}

شُمُوسٌ مَا نُعَايِنُ أُمَّ بُدُورٌ أَمَّ الظُّبْيَاتُ تُبْدِيهَا الخُدُورُ؟⁽³⁾

ولبيان ما قررته بشأن استخدام القوافي المؤسسة المجردة من الردف لدى الشعراء الغرناطيين، أكثر من القوافي المردفة المجردة من التأسيس ؛ يمكن أن ننظر في الجدول التالي:

الشاعر	عدد أبيات القوافي المؤسسة المجردة من الردف	عدد أبيات القوافي المردفة المجردة من التأسيس
مالك ابن المرحل	124	527
ابن رشيق المرسي	244	421
أبو الطيب الرندي	33	242
ابن عسكر المالقي	40	137
أبو عبد الله البرجي	—	217

يتضح من خلال هذا الجدول أن الشعراء الغرناطيين آثروا استخدام القوافي المردفة المجردة من التأسيس على القوافي المؤسسة المجردة من الردف وهي نتيجة تسري على نتاج شعراء آخرين لم نذكرهم ضمن الإحصاء السابق كابن سعيد الغرناطي الذي استخدم القوافي

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 366 .

(2) — المصدر السابق ، ورقة : 374 .

(3) — المصدر نفسه ، ورقة : 354 .

المردفة المجردة من التأسيس في نحو ثمانية عشر نصاً شعرياً ما بين قصيدة و مقطوعة⁽¹⁾.

4 — الحشد الترادفي للقافية: و يقصد به أن يكون للبيت أو القصيدة أكثر من روي واحد، وقد سماه أبو الطيب الرندي في كتابه: الوافي في نظم القوافي بـ "التبديل"؛ وهو نوعان تبديل الترتيب و تبديل القافية والروي⁽²⁾، وهذا الأخير هو ما يهمنا الآن؛ فقد أغرم به عدد من الشعراء الغرناطين كأبي الطيب الرندي، و مالك ابن المرحل، وابن رشيق المرسي أنشأوا قصائد ومقطوعات تقرأ بعدة قواف.

فمما ينشد بقافيتين مقطوعة للرندي قال فيها: {البيسط}

قَالَ الْخَلِيُّ بَرَاكَ الْحُبُّ قُلْتُ بَلَى وَ كَمْ أَحَبْتُ خَلِيًّا عِنْدَمَا عَدَلَا / عَدْرَا
أَرَيْتُهُ فِي الْهَوَى مِنْ قِصَّتِي عَجَبًا دَمْعًا إِذَا اشْتَعَلَتْ نَارُ الْحَشَا أَنَّهُمْ لَا / أَنَّهُمْ لَا
وَ رَبِّ جَامِدٍ دَمْعٍ لَمْ يُرْعَ بِنَوَى حَتَّى إِذَا ذُكِرَ الْبَيْنُ أَنَّهُمْ يَ / وَجَلَا / جَرَى⁽³⁾

ومثل هذا مقطوعة لابن المرحل تقرأ برويين قالها على لسان ألتغ ينطق السين ثاء:

{مخلع البيسط}

عَمَّرَتْ رَبْعَ الْهَوَى بِقَلْبٍ لِقُوَّةِ الْحُبِّ غَيْرِ نَاكِسٍ / ث
لَبِثْتُ فِيهِ أَجْرٌ ذِيلِ النَّبِ نَحُولِ أَحِبِّ بِهِ لِللَّابِسِ / ث
إِنْ مِتُّ شَوْقًا فَلِي غَرَامٌ نَبَاتُهُ بِالسَّقَامِ وَادِسِ / ث
أَمَّا حَدِيثُ الْهَوَى فَحَقٌّ يَعْرِفُ بَلَوَاهُ كُلُّ حَادِسِ / ث
تَعَبْتُ بِالشَّوْقِ فِي حَيْبٍ أَنَا بِهِ مَا حَيْثُ يَأْتِسِ / ث
يَجْتَالُ كَالْغُصْنِ مَا سَ فِيهِ طَرَفٌ فَأَزْرَى بِكُلِّ مَائِسِ / ث⁽⁴⁾

ولابن رشيق المرسي مقطوعة غزلية تقرأ برويين هما: (الباء، و الميم). قال فيها: {البيسط}

أَبَتْهُ سِرٌّ وَجَدِي أَمْ أَكَاتِبُهُ فَالْوَجْدُ قَدْ لَزِمَ الْأَحْشَاءَ لِأَزْبُهُ
وَالصَّبْرُ دَائِبِي وَلَكِنْ دَامَ بِي كَلْفٌ يَفْنَى بِهِ مِنْ جَمِيلِ الصَّبْرِ دَائِبُهُ
إِذَا انْتَضَى سَيْفَ سِحْرِ لَحْظٍ مُقْلَتِهِ فَلَمَحَ طَرْفِي بِالْأَكْبَادِ شَائِبُهُ

(1) — ينظر: محمد الدقالي — الحنين في الشعر الأندلسي، ص: 538.

(2) — ينظر: أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تج: محمد الخمار القنوني ص: 170.

(3) — المصدر السابق ص: 172.

(4) — ابن الخطيب — الإحاطة ج 3، ص: 312، 313.

أهَابُهُ ضِعْفَ مَا هَامَ الْفُؤَادُ بِهِ فَهَلْ يَفُوزُ بِقُرْبٍ مِنْهُ هَائِبُهُ
 كَمْ لَيْلَةٍ بَتُّ اسْتَقْضِي الصَّبَاحَ بِهَا نَجْمُهَا بَطْلُوعِ الْفَجْرِ غَائِبُهُ
 مَا شَابَ مَفْرَقَهَا إِلَّا بَبْرَقِ سُرَى تَلَاهَا سُورَ التَّذْكَارِ شَائِبُهُ
 يَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمَعْدُورُ رَاقِبُهُ وَ لَيْسَ يُعْذِرُ فِي الْإِخْلَافِ عَائِبُهُ
 إِنْ تَسْلُبِ الرُّوحَ لَمْ يَمُرَّ سُدَى مَا أَنْتَ يَا رَاحَةَ الْأَرْوَاحِ سَالِبُهُ
 وَمَا وَهَبْتِكَ نَفْسِي وَاهِمًا وَلَقَدْ أَرْضَى مِنَ الْوَصْلِ وَهَمًّا أَنْتَ وَاهِبُهُ⁽¹⁾

ومثال ما ينشد بثلاث قوافٍ مقطوعة للرندي قال فيها: {الكامل}

دَعْنِي وَ إِنْ قِيلَ الْجُنُونُ فُنُونُ فَالْصَبُّ مِثْلِي بِالْهَوَى مَفْتُونُ / معمود
 بِأَبِي الَّذِي أَشْكُو هَوَاهُ وَ صَدَّهُ وَالصَّدُّ صَعْبٌ وَالْهَوَى تَهْوِينُ / تعذيب / تنكيد
 كَتَبَ الْجَمَالَ بِلَحْظِهِ فِي خَدِّهِ وَالخَطُّ فِي حُسْنِ الخُدُودِ يَزِينُ / عجيب / يزيد⁽²⁾

وبقدر ما تدل هذه الظاهرة الفنية على تكلف الشعراء إلا أنها تشهد بجلاء على امتلاكهم لخاصية اللغة، وما التوسع في الروي أو الحشد الترادفي للقافية إلا دليل على ذلك .

بقي أن أشير هنا إلى أمر مهم يتعلق بهذه القضية، وهو أن هذه الظاهرة ليست كما زعم أحد الدارسين " أندلسية النشأة"⁽³⁾، بل هي مشرقية النشأة إذ اشتهر بهذا النمط من الأدبيات عدد من الأدباء المشاركة، كان من أبرزهم أبو القاسم علي بن منجب المعروف بابن الصيرفي (ت 550 هـ) (4) أحد كتاب الدولة العلوية المصرية، وهو صاحب جملة من الرسائل الأدبية، منها رسالة سماها (منائح القرائح)، ومن شعره الذي ينشد بقافيتين، ويدل على أسبقيته في هذا المجال قوله: {البسيط}

مَنْ شَاءَ جَمَعَ مَعَالٍ قَدْ خُصِّصَتْ بِهَا وَ جَاوَزَتْ كُلَّ حَدٍّ لَمْ يَنْلِ وَطَرًا / و طغا
 وَ كَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْصِيَ فَضَائِلَهَا وَ زَنْدُكَ الْغُرْمَ مَهْمَا تَقْتَدِحُهُ وَرَى / و غا⁽⁵⁾

(1) — ابن رشيق المرسي؛ حياته و آثاره، ص: 281، 280.

(2) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح: محمد الخمار القنوني ص: 172.

(3) — ينظر: أمين ميدان، اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة، ص: 324.

(4) — ينظر: ترجمته لدى خير الدين الزركلي، الأعلام، ج5، ص: 24.

(5) — ينظر: ابن الصيرفي منائح القرائح، تح، وليد قصاب، عبد العزيز المانع، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق: 1994. ص: 497، 192.

عيوب القافية في الشعر الغرناطي : لم يخجل الشعر الغرناطي من بعض عيوب القافية،

و إن كان هذا جاء بشكل محدود يمكن حصره في ثلاثة عيوب هي :

1 _ عيب (الإيطاء) وهو "إعادة القافية لفظاً ومعنى دون فاصل يعتدّ به كسبعة

أبيات على الأقل" ⁽¹⁾

ومن وقع في هذا العيب ابن سعيد الغرناطي؛ وذلك ضمن قصيدته النبوية حيث قال :

{الكامل}

يَا لَهْفَ مَنْ وَافَى هُنَاكَ وَ مَا لَهُ مِنْ حُبِّهِ ذُخْرٌ بِهِ يَتَزَوَّدُ ⁽²⁾

ثم قال مباشرة :

مَا أَرْتَجِي عَمَلًا وَلَكِنْ أَرْتَجِي ثِقَتِي بِهِ وَالْحَسْبُ مَنْ يَتَزَوَّدُ ⁽³⁾

فقد كرر الشاعر القافية (يتزود) بلفظها ومعناها دون أن يفصل بين البيتين بفاصل يعتدّ به

ومثل هذا قوله أيضا ضمن قصيدة له في الشوق والحنين إلى مدينة غرناطة : {الطويل}

نَعْمَنَا بِهَا وَالْيَوْمُ قَدْ رَقَّ بَرْدُهُ إِلَى أَنْ رَأَيْنَا الشَّمْسَ عَنَّا تُعْرَبُ ⁽⁴⁾

ثم قال مكررا القافية (تغرب) بلفظها ومعناها بعد بين واحد : {الطويل}

كَوَأَكْبُ أُمَسْتُ بَيْنَ شَرْبٍ وَ لَمْ نَحْلُ بِأَنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ تَدْنُو وَ تَعْرَبُ ⁽⁵⁾

ومن وقع في هذا العيب أبو بكر عتيق ابن الفراء الغساني ؛ وذلك ضمن قصيدته النبوية

حيث قال : {الكامل}

عَرَّجَ بِطَبِيبَةٍ مَرَّةً لِتَرَى بِهَا عَلَمِي قَبُولِ رَحْمَةٍ وَ تَعَطُّفًا ⁽⁶⁾

ثم قال مباشرة مكررا القافية :

(1) — عدنان حقي — المفصل في العروض والقافية و فنون الشعر، ص: 208. وكذلك: أحمد بدوي أسس النقد الأدبي عند العرب، ص: 353 .

(2) — المقرئ، نفع طيب، ج 3 ص: 80 .

(3) — المصدر السابق، والموضع نفسه.

(4) — المصدر نفسه ج 3، ص: 52.

(5) — المصدر نفسه ، الموضع نفسه .

(6) — المجموعة النبهاانية في المدائح النبوية ج2، ص: 311.

وَأَذْكَرُ ذُنُوبَكَ وَاعْتَرِفَ بِعَظِيمِهَا فَعَسَى الَّذِي تَرْجُوهُ أَنْ يَتَّعِظَ⁽¹⁾

ومن الشعراء الغرناطيين الذين وقعوا في هذا العيب أبو الطيب الرندي ؛ وذلك ضمن قصيدة في رثاء ابنه حيث قال: {البيسط}

أَوَدَعْتُهُ وَكَوَأَنَّ الْحَالَ تُسْعِدُنِي لَمَّا جَعَلْتُ لَهُ قَبْرًا سِوَى كَبِدِي⁽²⁾

ثم قال مباشرة مكررا القافية بلفظها و معناها :

بُنِيَّ لَمْ يُبْقِ فِيكَ الدَّهْرُ لِي طَمَعًا يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ أَوْ يَا قِطْعَةَ الْكَبِدِ⁽³⁾

2 _ عيب (الإقواء) ، ويعرف بأنه " تحريك المجرى بحركتين مختلفتين غير متباعدتين"⁽⁴⁾

متباعدتين"⁽⁴⁾ والمجرى هو حركة الروي أي هو اختلاف حركة الروي⁽⁵⁾

وممن وقع في هذا العيب مالك ابن المرحل مثال ذلك قوله: {الكامل}

عَرَضْتُ بِأَمْلَحَ عَارِضٍ وَ تَلِيلٍ أَوْوَرِدِ بِدَمِ الْمُحِبِّ صَقِيلٍ

وَرَنْتُ بِالْحَاطِظِ الْغَزَالِ وَأَقْبَلْتُ تَخْطُو بِعُصْنِ الْبَانَةِ الْمَطْلُولِ

وَبَسَّمَتْ عَنْ عَقْدِهَا وَتَكَلَّمَتْ بِجُفُونِهَا فَسَكِرَتْ دُونَ شَمُولِ

.....

.....

هِيَ كَلَفْتَنِي مَا تَكَلَّفَ خَصْرُهَا مِنْ حَمَلٍ مَا لَا يُسْتَطَاعُ تَقِيلُ⁽⁶⁾

فقد جاء البيت الأخير مضموم الروي بينما جاءت أبيات القصيدة كلها مكسورة الروي. ومن ذلك قول ابن المرحل في مطلع قصيدته الاستصراخية لأهل العدو المغربية: {الرجز}

اسْتَنْصِرِ الدِّينَ بِكُمْ فَأَقْدُمُوا فَإِنَّهُ إِنْ تُسَلِّمُوهُ يُسَلِّمِ

لَا تُسَلِّمُوا الْإِسْلَامَ يَا إِخْوَانَنَا وَأَسْرِجُوا لِنَصْرِهِ وَأَلْجُمُوا⁽⁷⁾

فيمكن قراءة البيت الأول مكسور الروي في حين أن القصيدة كلها مضمومة الروي

(1) — المصدر السابق ج2، ص: 311. .

(2) — أبو الطيب الرندي، الوائي في نظم القوافي تح: محمد الخمار القنوبي ص: 92.

(3) — المصدر السابق، الموضع نفسه. و للوقوف على أمثلة أخرى لعيب الإيطاء ينظر: عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة ج1، ص: 333. وفيها ذكر لوقوع مالك ابن المرحل في هذا العيب ضمن إحدى قصائده النبوية.

(4) — السيد أحمد الهاشمي، ميزان الذهب في صناعة شعر العرب، ص123.

(5) — ينظر: أحمد أحمد بدوي أسس النقد الأدبي عند العرب، ص352.

(6) — ابن المرحل، الجوالات، ص: 112، 113.

(7) — علي ابن أبي زرع، الذخيرة السننية، ص: 98.

فالبيت إذن، يشتمل على عيب الإقواء، أو يشتمل على خطأ نحوي، ويبدو أن هذا الأخير هو المرجح؛ فالدكتور إبراهيم أنيس يذهب إلى أن الإقواء من قبيل الخطأ في قواعد النحو لا من قبيل الخطأ في موسيقى الشعر حيث يقول "وعندي أنه لو صحّت مثل هذه الروايات يجب أن يعدّ خطأ نحويّاً لا خطأ شعرياً، فالشاعر صاحب الأذن الموسيقية والحريص على موسيقى القافية لا يعقل أن يزلّ في مثل هذا الخطأ الواضح الذي يدركه حتى المبتدئون في قول الشعر"⁽¹⁾، ومما يعضّد هذا الرأي قلة وروده في الشعر الغرناطي .

3 _ عيب الاستدعاء وهو أن تكون القافية لا فائدة منها سوى كونها قافية فحسب⁽²⁾، وممن وقع في هذا العيب أبو عمرو ابن المرباط؛ وذلك ضمن قصيدته الاستصراخية حيث قال: {الكامل}

هَذِي الثَغُورُ بِكُمْ إِلَيْكُمْ تَشْتَكِي شَكْوَى الْعَدِيمِ إِلَى الْغَنِيِّ الْأَوْجَدِ⁽³⁾
فكلمة (الأوجد) لا تفيد معنى جديدا ؛ وذلك لأنها بمعنى كلمة (الغني) الواردة في البيت . إذاً فالكلمة حشو زائد ليس له أي قيمة، ولما كان هذا الحشو في القافية فهو يسمى بعيب (الاستدعاء)⁽⁴⁾.

ثانياً — الموسيقى الداخلية، ووسائل تشكيلها

وأعني بها ما تحدّثه الألفاظ والعبارات التي يختارها الشاعر داخل النص الشعري من إيقاع موسيقي يؤثر في المتلقي إلى جانب ما يحدّثه الوزن والقافية وقد ألمح بعض النقاد القدامى إلى هذا النوع من الموسيقى؛ يقول حازم القرطاجني " وبقوة التهديّ إلى العبارات الحسنة يجتمع في العبارات أن تكون مستعذبة جزلة ذات طلاوة فالاستعذاب فيها بحسن المواد والصيغ والائتلاف والاستعمال المتوسط، والطلاوة تكون بائتلاف الكلم من حروف صقيلة و تشاكل يقع في التأليف ربما خفي سببه وقصرت العبارة عنه .."⁽⁵⁾

وفي اعتقادي أن هذا النوع من الموسيقى يحدث من خلال استخدام بعض الحسّنات

(1) — إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 261، 262.

(2) — ينظر : أحمد أحمد بدوي أسس النقد الأدبي عند العرب، ص: 351 .

(3) — ابن خلدون ، العبر ، ج 7 ، ص: 413.

(4) — ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج2، ص: 69.

(5) — أبو الحسن حازم القرطاجني منهج البلغاء و سراج الأدباء، ص: 225 .

البدعية التي تسهم في إثراء الموسيقى الداخلية للنص الشعري؛ بما تضيفه من إيقاعات موسيقية تدعم الوزن والقافية في إظهار الموسيقى الكلية للبيت أو القصيدة .

ومن بين المحسنات البدعية التي أحسب أنها أثرت الموسيقى الداخلية في الشعر الغرناطي: التقسيم الموسيقي، والتكرار، وورد الأعجاز على الصدور، والتصريع .

1_ التقسيم الموسيقي: وهو " تجزئة الوزن إلى مواقف يسكت عندها المرء في أثناء التأدية للفظ البيت أو يستريح قليلاً كأنه يومئ إلى السكت "⁽¹⁾؛ بحيث يشعر القارئ أنّ للكلمات أو للعبارات تناغماً موسيقياً يوافق معنى البيت يسير به في هبوط أو صعود في سرعة أو بطء؛ وذلك لأنّ الأصوات التي تتكرر في حشو البيت مضافة إلى ما يتكرر في القافية أشبه بفاصلة موسيقية متعددة النغم مختلفة الألوان يستمتع بها من له دراية بهذا الفن، ويرى فيها المهارة و المقدرة الفنية "⁽²⁾ مثال ذلك قول مالك ابن المرحل: {الطويل}

أَدْمَعُكْ أَمْ سِمَطٌ وَقَلْبُكَ أَمْ قِرْطٌ وَشَوْفُكَ أَمْ سَقَطٌ وَجِسْمُكَ أَمْ حَطٌ⁽³⁾

ومن التقسيم الموسيقي قول أبي حيان الغرناطي: {الكامل}

نُورٌ بِخَدِّكَ أَمْ تَوَقَّدُ نَارِ وَضَنْيٌ بِجَفْنِكَ أَمْ فُتُورٌ عُقَارِ؟
وَشَدَاً بِرَيْفِكَ أَمْ تَأْرُجُ مَسَكَةٍ وَسَنَاً بِتَعْرُكَ أَمْ شُعَاعُ دَرَارِي⁽⁴⁾

ومن أمثلة التقسيم الموسيقي في الشعر الغرناطي قول أبي الحسن علي بن عمر القيحاوي

(650 هـ - 730 هـ) في معرض لوم النفس و قد تافت لأيام الشباب و ذكرياته : {الكامل}

رَوْضُ الْمَشِيبِ / تَفْتَحَتْ أَرْهَارُهُ حَتَّى اسْتَبَانَ / تَعَامُهُ وَبَهَارُهُ
وَدَجَى الشَّبَابِ / قَدْ اسْتَبَانَ صَبَاحُهُ وَظِلَامُهُ قَدْ لَاحَ فِيهِ نَهَارُهُ
فَأَتَى حَمَامٌ لَا يُعَافُ / وَقُوعُهُ وَمَضَى غُرَابٌ لَا يُخَافُ / مَطَارُهُ
مَا لِلْإِخَاءِ / تَقَلَّصَتْ أَفْيَاؤُهُ مَا لِلصَّفَاءِ / تَكَدَّرَتْ آثَارُهُ
وَالْحُرُّ يَصْفَحُ / إِنْ أَخَلَّ خَلِيلُهُ وَالْبُرُّ يَسْمَحُ / إِنْ تَجَرَّأَ جَارُهُ

(1) — عبد الله الطيب ، المرشد إلى فهم أشعار العرب و صناعتها، ج2، ص: 702 ، وكذلك ص: 696.

(2) — إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 45 .

(3) — محمد مسعود جبران، مالك ابن المرحل أديب العدوتين، ص 255.

(4) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3، ص: 57 .

فَتَرَاهُ يَدْفَعُ / إِنْ تَمَكَّنَ جَاهُهُ وَ تَرَاهُ يَنْفَعُ / إِنْ عَلا مِقْدَارُهُ⁽¹⁾
 فقارئ هذه الأبيات يستشعر فيها تناغماً مسانداً للوزن والقافية ، وهو تناغم ناتج عن
 التقسيم الموسيقي المتمثل في وجود عدة وقفات سريعة وبطيئة منسجمة مع التعبير الدلالي
 عن المضمون .

و من أمثلة التقسيم الموسيقي قول ابن رشيق المرسى في معرض المدح : {المتقارب}

مَرِيْعُ الْمَزَارِ / مَنِيْعُ الْجَوَارِ رَضِيْعُ الْفَخَارِ / رَفِيْعُ النَّصَابِ
 حَديْدُ الْجَنَانِ / رَطِيْبُ اللِّسَانِ فَقَيْسُ اخْتِطَارِ / وَقُسُّ اخْتِطَابِ⁽²⁾

و كذلك قول أبي عبدالله البرجي في معرض الغزل : {الكامل}

يَا شَمْسَ أَنْسِي / يَا صَبَاحَ بَشَارَتِي يَا طِيْبَ عَيْشِي / يَا شِفَاءَ سِقَامِي
 يَا مُنْتَهَى أَمَلِي / وَغَايَةَ مَطْلَبِي يَا أَمْنَ رَوْعِي / أَوْ رَوِيَّ أَوْامِي⁽³⁾

و قول ابن شلبطور في معرض الإشادة بالأنصار : {البسيط}

الْمُوَثَّرُونَ نَدَى / وَالسَّابِقُونَ مَدَى وَالتَّابِعُونَ هُدَى / خَيْرَ النَّبِيِّينَ⁽⁴⁾

فهذه الوقفات التي تشبه الفواصل من شأنها أن تحدث تناغماً موسيقياً داخلياً يساعد في
 التعبير عن المضمون، وهي من ناحية أخرى تنسجم إيقاعياً مع الوزن والقافية .

2 _ التكرار: هو من الظواهر الصوتية التي نبه إليها النقاد القدامى ؛ فقد خصص له
 ابن رشيق القيرواني باباً خاصاً في كتابه "العمدة" و ذهب إلى أن أكثر التكرار في الشعر
 يقع في الألفاظ دون المعاني وأنه يحسن في مواضع ويقبح في مواضع أخرى⁽⁵⁾ ، ورأى أن
 أولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء؛ وذلك " لمكان الفجيجة ، وشدة القرحة التي يجدها
 المتفجع"⁽⁶⁾ ، وهذا يعني أن التكرار أكثر ما يكون ذا أثر موسيقي ناجح في الموضوعات
 التي تعبر عن تجارب إنسانية تنطوي على حزن أو ألم شديد، وقد دلت النصوص الشعرية

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 4 ، ص : 105 ، 106 .

(2) — ابن رشيق المرسى — حياته و آثاره ، ص : 234 .

(3) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د ، ورقة : 368 .

(4) — المصدر السابق ، ورقة : 373 .

(5) — ينظر : ابن رشيق القيرواني — العمدة ، ج 2 ، ص : 73 .

(6) — ابن رشيق القيرواني — العمدة ، ج 2 ، ص : 76 .

على وجود هذه الظاهرة بكثرة في شعر الرثاء والحنين والغربة، فالتكرار في مثل هذه المواقف يساعد على خلق نوع من الإيقاع الدلالي المعبر عن المضمون .
وللتكرار في الشعر الغرناطي صور عديدة منها ما يكون على سبيل تكرار حرف أو مجموعة حروف ، ومنها ما يكون على سبيل تكرار كلمة أو عبارة.

فمن أمثلة تكرار الحرف قول أبي جعفر ابن شلبطور مكرراً حرف (السين) : {البسيط}

تَوَقَّدَتْ فِي نَوَاحِي كَأْسِهَا فَبَسًا	يُضِيءُ لِي كُلَّ مَا حَوْلِي وَيَهْدِينِي
وَكَلَّمَا جَاشَ جَيْشُ الْهَمِّ فِي خَلْدِي	حَامَتْ عَلَيَّ حَمِيَّا الْكَأْسِ تَحْمِينِي
يُدِيرُهَا أَوْطَفُ الْأَلْحَاطِ سَاحِرِهَا	يُمَيِّتِي فِي الْهَوَى طَوْرًا وَيَحْمِينِي
إِذَا رَمَانِي بِطَرْفٍ مِنْهُ أُسْكِرَنِي	كَأَنَّهُ مِنْ مُدَامِ اللَّحْظِ يَسْقِينِي
لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ كَأْسٍ مُشْعَشَعَةٍ	تُدَارُ مَا بَيْنَ فَتَانٍ وَمَفْتُونٍ
حِينَ أُفْدِيهَا بِالنَّفْسِ الَّتِي ذَهَبَتْ	شَوْقًا إِلَيْهِ وَأَحْيَانًا يُفْدِينِي ⁽¹⁾

فقارئ هذه الأبيات يشعر بأن تكرار السين أكسبها جرسا موسيقيا إضافيا ، وذلك لأن حرف (السين) من الحروف الصغيرية ذات الأثر الصوتي .

والحقيقة أن تكرار الحرف لا يمكن أن يخضع لقواعد نقدية ثابتة يمكن تعميمها على النصوص الشعرية للشاعر وذلك لاختلاف طبيعة الأسلوب والدلالة التي يحدثها كل حرف ضمن السياق في النص الواحد، وإن كان تأثير الحرف الموسيقي لا يرقى في قوته إلى تأثير الكلمة ولكن مع هذا فإن لتكرار الحرف أثراً واضحاً وبيناً في ذهن المتلقي يجعله متهيئاً للدخول إلى عمق النص الشعري.

ومن أمثلة التكرار في موضوع الرثاء تكرار اسم الاستفهام (أين) في أبيات الرندي

في معرض رثائه للأندلس : {البسيط}

وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلُ وَتِيحَانُ؟	أَيْنَ الْمُلُوكُ ذُووِ التِيحَانِ مِنْ يَمَنِ؟
وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفُرْسِ سَاسَانُ؟	وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدَادُ فِي إِرْمِ؟

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 ، ورقة : 373 .

وَأَيْنَ عَاذٌ، وَشَدَّادٌ، وَقِحطَانٌ؟

وَأَيْنَ مَا حَاذَهُ قَارُونٌ مِنْ ذَهَبٍ؟

وَأَيْنَ شَاطِئَةٌ؟ أَمْ أَيْنَ حَيَّانٌ؟

فَأَسْأَلُ بَلَنْسِيَّةً مَا شَأْنُ مُرْسِيَّةٍ؟

مِنْ عَالَمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَأْنٌ؟!

وَأَيْنَ قُرْطُبَةُ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ

وَنَهَرُهَا الْعَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلَانٌ؟⁽¹⁾

وَأَيْنَ حِمَصٌ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزِهِ؟

ومن أمثلة التكرار قول أبي عمرو ابن المرابط في معرض الرثاء مكرراً الاستفهام بـ (من)

{الكامل}:

أَوْ يَفْتَدِي بِنَيْبِهِ أَوْ يَهْتَدِي؟

مَنْ ذَا يُتُوبُ لِرَبِّهِ مِنْ ذَنْبِهِ

مَشْحُودَةٌ فِي نَصْرِ دِينَ مُحَمَّدٍ؟⁽²⁾

مَنْ ذَا يُطَهِّرُ نَفْسَهُ بِعَزِيمَةٍ

فتكرار اسم الاستفهام (من) في هذه الأبيات أعطى — من ناحية — تناغماً موسيقياً مسانداً للوزن والقافية في التعبير الدلالي عن المضمون، وكشف — من ناحية أخرى — عن حالة الحيرة والدهشة التي أصابت الشاعر الغرناطي نتيجة لما حل في بلاده من خراب و دمار بعد أن كانت عمراناً وازدهاراً.

ومن أمثلة التكرار في الرثاء الغرناطي تكرار (كم) الدال على التكثر على نحو ما نجده في أبيات أبي عمرو ابن المرابط في معرض الرثاء وهو يعدد صور المآسي التي أصابت الإنسان

الأندلسي بسبب الحرب الصليبية : {الكامل}

فَكِلَاهُمَا يَبْغِي الْفِدَاءَ فَمَا فُدِي

كَمْ مِنْ أَسِيرٍ عِنْدَهُمْ وَ أَسِيرَةٍ

فِيهِمْ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي مَلْحَدٍ!

كَمْ مِنْ عَقِيلَةٍ مَعْشَرٍ مَعْقُولَةٍ

وَلَدَاهُ وَدَا أَنَّهُ لَمْ يُوَلَّدِ!

كَمْ مِنْ وُلْدٍ بَيْنَهُمْ قَدْ وَدَّ مَنْ

يَبْكِي لِآخِرِ فِي الْكَبُولِ مُقَيَّدٍ!⁽³⁾

كَمْ مِنْ تَقِيٍّ فِي السَّلَاسِلِ مُوثَّقٍ

فقد أضفى تكرار الحرف (كم) إيقاعاً موسيقياً مسانداً للوزن والقافية في التعبير عن المضمون.

(1) — المقرئ ، نفع الطيب ، ج6، ص:232 ، 233 .

(2) — ابن خلدون العبر ، ج 7 ، ص : 410 .

(3) — المصدر السابق ، ج 7 ، ص:411.

ومن أمثلة هذا التكرار ما نجده في أبيات ابن سعيد الغرناطي ضمن قصيدة قالها في الشوق والحنين لوطنه ؛ حيث كرر الشاعر فيها صيغة (كم) الخيرية ؛ وذلك في معرض تذكره

لأيام النعيم و المتعة التي قضاها بين ربوع وطنه : {الرملة}

كَمْ تَقْضَى لِي بِهَا مِنْ لَذَّةٍ حَيْثُ لِلنَّهْرِ خَرِيرٌ مُطْرَبٌ
وَلَكُمْ بِالْمَرْجِ لِي مِنْ لَذَّةٍ بَعْدَهَا مَا الْعَيْشُ عِنْدِي يَعْذِبُ
وَلَكُمْ فِي شَنْتُبُوسٍ مِنْ مُنَى قَدْ قَضَيْنَاهُ وَ لَا مَنْ يَعْتَبُ
حَيْثُ هَاتِيكَ الشَّرَاجِبِ الَّتِي كَمْ بِهَا مِنْ حُسْنِ بَدْرِ مُعْصَبُ
كَمْ بِهِ مِنْ زَوْرِقٍ قَدْ حَلَّهُ قَمَرٌ سَاقٍ وَعُودٌ يُطْرَبُ
كَمْ رَكِبْنَاهَا فَلَمْ تَجْمَحْ بِنَا وَلكُمْ مِنْ جَامِحٍ إِذْ يَرْكَبُ
كَمْ قَطَعْنَا اللَّيْلَ فِيهَا مُشْرِقًا بِحَبِيبٍ وَمُدَامٍ يُسْكَبُ⁽¹⁾

فتكرار صيغة كم في هذه الأبيات أحدث أثراً صوتياً معبراً عن المضمون من حيث تنوع موسيقى الأبيات ؛ وكشف أيضاً عن معاناة الشاعر في غربته عن وطنه .

ولم يقف التكرار في الشعر الغرناطي عند تكرار بعض الحروف أو الصيغ ؛ بل تعدى ذلك إلى الأسماء أيضاً وارتبط هذا بموضوع الرثاء ؛ فالرندي مثلاً نجده يردد اسم ابنه

(محمد) في معرض رثائه إياه؛ وذلك في قوله: {الطويل}

مُحَمَّدُ مَا أَشْجَى فِرَاقِكَ لَوْعَةً مُحَمَّدٌ مَا أَذْهَى مُصَابِكَ مِنْ أَمْرٍ
مُحَمَّدُ فِي قَلْبِي مُحَمَّدٌ فِي فَمِي لَيْنٌ غَابَ عَن عَيْنِي فَمَا غَابَ عَن فِكْرِي⁽²⁾
فتكرار الشاعر لاسم ابنه في هذين البيتين أحدث أثراً موسيقياً داخلياً معبراً عن شدة تعلقه به وما يعانیه من ألمٍ وحزنٍ .

ونحو هذا ما نلمسه في أبيات ابن رشيق المرسي في معرض رثائه لوالده مكرراً لفظة

(أبي)؛ وذلك في قوله: {البيسط}

أَبِي وَيَا طَيْبَ نَفْسِي حِينَ قُلْتُ أَبِي حَتَّى إِذَا لَمْ يُجِبْ وَاللَّهِ لَمْ تَطْبِ

(1) — المقرئ — نفع الطيب ، ج 3 ، ص: 49.

(2) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي ، مخطوط دار الكتب المصرية ، أدب تيمور ، 603 ورقة : 57. والقصيدة غير واردة في النسخة المغربية المحققة.

أبي ولا عَجَبُ أَنِّي دَعَوْتُ أَبِي لَكِنْ تَشَاغُلُهُ عَنِّي مِنَ الْعَجَبِ
أبي وأبي لَمْ يَشْفِ قَوْلُ أَبِي فَإِنْ أُرِدَّ بِهَا صَوْتِي فَعَنْ سَبَبٍ⁽¹⁾

فمثل هذا التكرار لا بد أن يحدث أثراً إيقاعياً في الموسيقى الداخلية بحيث يكون منسجماً مع الموسيقى الخارجية في التعبير عن المضمون .

3_ الجناس: يرى الدكتور إبراهيم أنيس أن الجناس اللفظي وثيق الصلة بموسيقى الألفاظ فهو ليس في الحقيقة إلا تفنناً في طرق ترديد الأصوات في الكلام حتى يكون له نغم و موسيقى ، وحتى يسترعي الأذان بألفاظه كما يسترعي القلوب والعقول بمعانيه "فهو مهارة في نظم الكلمات وبراعة في ترتيبها و تنسيقها ومهما اختلفت أصنافه و تعددت طرقه يجمعها جميعاً أمر واحد هو العناية بحسن الجرس ووقع الألفاظ في الأسماع"⁽²⁾

وهذا لا يعني أن الجناس هو نوع من التلاعب بالألفاظ، أو هو مهارة في صناعة الجمل ؛ وإنما "هو تعبير فني يكسب الكلام قيمةً جماليةً بما يضيفه إلى النسق اللغوي من انسجام وتناسب و تألف في البناء الصوتي بحث يثري المعنى و يغني الصياغة اللغوية"⁽³⁾

أنواع الجناس المستخدمة في الشعر الغرناطي:

أ_ الجناس التام: ومن النقاد من يسميه بالجناس الموهم التام التشابه في الحركات والسكنات⁽⁴⁾، ويعرف بأنه "ما اتفق ركناه لفظاً واحتلفا معنىً بلا تفاوت في تركيبهما و لا اختلاف في حركاتهما"⁽⁵⁾، مثال ذلك قول ابن رشيق المرسي: {الطويل}
فَوَاتِحُ حَمْدٍ لَا تَنَاهَتْ خَوَاتِمُهُ عَلَى الْمَلِكِ مِنْهَا تَاجُهُ وَ خَوَاتِمُهُ⁽⁶⁾

حيث جانس بين لفظة "خواتمه" الأولى جمع خاتمة وهي تعني النهاية، و بين لفظة "خواتمه" الثانية وهي جمع خاتم ، بيد أن القارئ قد يتوهم أن الشاعر كرر كلمة واحدة .

(1) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص : 203.

(2) — إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، ص: 44، 45.

(3) — عبد الفتاح عثمان_ في علم المعاني و البديع، القاهرة مكتبة الشباب 1990: ص: 173، 174.

(4) — عبد الله الطيب ، المرشد إلى فهم أشعار العرب و صناعتها، ج 2، ص: 586.

(5) — علي الجندي _ فن الجناس، القاهرة دار الفكر العربي: 1954، ص : 62. نقلا عن أيمن ميدان، اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة

ص، 322

(6) — ابن رشيق المرسي حياته و آثاره ، ص: 209.

ومن هذا الجنس قول أبي عبد الله البرجي {السريع}

شَدَّ حِشَاهُ بِيَدَيْهِ وَصَاحَ سَكْرَانٍ مِنْ حَمْرِ الْهَوَى غَيْرَ صَاحٍ
لَا حَ لَهُ الْحُسْنُ فَلَمْ يَلْتَفِتْ فِي طَاعَةِ الْحُسْنِ إِلَى قَوْلٍ لَاحٍ⁽¹⁾

فقد يتوهم القارئ أن الشاعر كرر لفظة صاح في البيت الأول، ولفظة لاح في البيت الثاني وهذا غير صحيح؛ لأن الشاعر جانس في البيت الأول بين لفظة "صاح" الأولى وهي بمعنى الصياح ولفظة "صاح" الثانية وهي بمعنى الصحو، كذلك جانس في البيت الثاني بين لفظة "لاح" الأولى وهي بمعنى ظهر أو بان، وبين لفظة "لاح" الثانية وهي من اللوم بمعنى "لام".

ومثل هذا قول أبي جعفر ابن شلبطور {الخبب}

أَيْدٍ تَنْهَلُ نَدَى وَرَدَى وَكَفَّتْ وَكَفَّتْ عَدْوَى الضَّرِّ⁽²⁾

حيث جانس الشاعر بين لفظة "كفت" الأولى وهي بمعنى سال وانبسط، ولفظة "كفت" الثانية وهي بمعنى القبض و الضمّ . ومن ذلك قول ابن سعيد :

فَإِنْ كُنْتُ فِي أَرْضِ التَّغْرُبِ غَارِبًا فَسَوْفَ تَرَانِي طَالِعًا فَوْقَ غَارِبِ⁽³⁾

فكلمة غارب الأولى اسم الفاعل من قولهم (غربت الشمس)، وكلمة غارب الثانية اسم لسنام البعير، وما يليه، ويراد في ذروة الشيء.

ب_ الجنس المحرف: وهو أن تختلف اللفظتان المتجانستان في الهياة من حيث الحركات

و السكنات كلفظتي "الفَجْرُ، فَجْرٌ" في بيت الرندي: {السريع}

وَلَيْلَةٍ نَبَّهْتُ أَحْفَانَهَا وَالْفَجْرُ قَدْ فَجَّرَ ضَوْءَ التَّهَارِ⁽⁴⁾

وكلفظتي "السَّحَرِ، السَّحَرِ" في بيت أبي جعفر ابن شلبطور: {الخبب}

كَمَنْتَ تُبَدِي رَهْبًا حَتَّى نَفَثْتُ بِالسَّحَرِ مَعَ السَّحَرِ⁽⁵⁾

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 351.

(2) — المصدر السابق، ورقة: 370 .

(3) — المقرئ، نفح الطيب، ج3، ص: 34 . وينظر: ابن منظور، لسان العرب ج 1، ص: 644.

(4) — المقرئ، نفح الطيب ج6 ص: 236 .

(5) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 369.

و كلفظي "حَصْرَ، حَصَرَ" في قول ابن شلبطور : {الخبب}

لَوْ حَاوَلَ حَصْرَ مَا تَرَاهُ سَحْبَانُ تَلْعَثُ عَنْ حَصْرِ⁽¹⁾

ج _ جناس الاشتقاق : ويتمثل في اختلاف اللفظتين المتجانستين في البناء كلفظي:

"قَدَر، الأَقْدَار" في بيت الرندي : {الكامل}

مِنْ كُلِّ لَيْثٍ فَوْقَ بَرَقٍ خَاطِفٍ بِيَمِينِهِ قَدْرٌ مِنَ الأَقْدَارِ⁽²⁾

و كلفظي "وَجُود، مَوْجُود" في بيت أبي عبد الله البرجي : {الكامل}

فَأَبُو سَعِيدٍ لِلْسُّعُودِ مُصَاحِبٌ بِوَجُودِهِ إِسْعَادُهَا مَوْجُودٌ⁽³⁾

و كلفظي "خَبَرَ ، الأَخْبَار" في بيت الرندي : {الكامل}

ثُمَّ انْتَشَوْا عَنْهُ وَعَنْ عِبَادِهِ قَدْ أَصْبَحُوا خَبْرًا مِنَ الأَخْبَارِ⁽⁴⁾

فالجناس المستشهد به في هذه الأبيات وقع بين لفظتين مختلفتين في البناء لا في المعنى و

يطلق على هذا جناس الاشتقاق، ومن هذا الجناس ما يكون الاختلاف فيه بين اللفظتين

في البناء و المعنى معاً كلفظي "قدحي، اقتداح" في بيت أبي عبد الله البرجي : {السريع}

فَإِنْ تُصْبِحُ سَمْعًا لِإِنْشَادِهَا فَازَ بِهَا قِدْحِي وَأُورَى اقْتِدَاخٌ⁽⁵⁾

و كلفظي "سَيِّد ، مَسُود" في قول البرجي أيضاً : {الكامل}

دَامَتْ لِعِزَّتِكَ الرِّبِيَّةُ كُلُّهَا سَيِّانٍ مِنْهُمْ سَيِّدٌ وَمَسُودٌ⁽⁶⁾

4 _ رد الأعجاز على الصدور: وهو من المحسنات البديعية المتصلة بموسيقى الشعر

اتصالاً وثيقاً، وهو في أبسط تعريف له كل كلام منثور أو منظوم يلاقي في آخره أوله

بوجه من الوجوه ويرى أبو هلال العسكري " أن لرد الأعجاز على الصدور موقعا جليلا

من البلاغة، وله في المنظوم خاصة محلا خطيرا"⁽⁷⁾ ويرى ابن رشيق القيرواني أن ذلك

(1) — المصدر السابق، ورقة : 371.

(2) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح : محمد الخمار القنوبي ص: 117 .

(3) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 361.

(4) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح : محمد الخمار القنوبي ص: 117 .

(5) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم : 3835 د، ورقة : 354.

(6) — المصدر السابق، ورقة : 360.

(7) — أبو هلال العسكري _ كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر، تح: علي محمد الجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط1 ، د ب ، دار

يضي على البيت الذي يرد فيه "أهمة ، و يكسوه جمالا ويهبه رونقا و دياحة ، و يزيده مائة وطلاوة"⁽¹⁾

وقد ذكر البلاغيون لهذا اللون البديعي أنواعاً ثلاثة⁽²⁾. :يتمثل النوع الأول في أن توافق آخر كلمة من عجز البيت آخر كلمة في صدره ،ومثاله في الشعر الغرناطي قول أبي عبد الله البرجي: {الكامل}

وَلَوْ أَنَّهُ أَرْضَاكَ وَطَاءَ خُدُودِنَا بُسِطَتْ لِخَيْلِكَ أَعْيُنٌ وَ خُدُودٌ⁽³⁾

و قول الرندي : {السيط}

أَبِي ذَهَبَتْ وَلَمْ تَرْجِعْ فَيَا عَجَبِي لِلْعَيْشِ بَعْدَكَ حَتَّى قُلْتُ: يَا عَجَبِي⁽⁴⁾

و قوله أيضا: {الطويل}

إِذَا كَانَ أَمْرُ اللَّهِ لِلْمَرْءِ طَالِبًا فَقَدْ هَانَ مَطْلُوبٌ وَقَدْ عَزَّ طَالِبٌ⁽⁵⁾

ونحو هذا قول ابن المرحل : {الوافر}

تَمَنَّى الْوَرْدُ يَلْتُمُ وَحَنَّتَيْهَا فَلَمْ تَسْمَحْ بِذَلِكَ وَحَنَّتَاها⁽⁶⁾

وقوله أيضا : {الكامل}

أَمَّا الْحَمَامُ عَلَى الْعَوِيلِ فَمُسْعِدِي لَوْ كَانَ فِي فَيْضِ الْمَدَامِعِ يُسْعِدُ⁽⁷⁾

أما النوع الثاني فيتمثل في أن توافق آخر كلمة من البيت أول كلمة منه وهو أكثر الأنواع الثلاثة شيوعاً في الشعر الغرناطي ومن أمثله قول أبي عمرو ابن المرباط : {الكامل}

سَوَّدَتْ وَجْهَكَ بِالْمَعَاصِي فَالْتَمِسْ وَجْهًا لِلْقِيَا لِلَّهِ غَيْرَ مُسَوِّدٍ⁽¹⁾

إحياء الكتب العربية 1952. ص385 .

(1) — ابن رشيق القيرواني ،العمدة ج2 ص5.

(2) — أبو هلال العسكري _ كتاب الصناعتين ،الكتابة والشعر، ص385. وما بعدها.

(3) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم :3835 د،ورقة : 359.

(4) — أبو الطيب الرندي ، الوافي في نظم القوافي تح :محمد الخمار القنوني ص :88،89 .

(5) — أبو الطيب الرندي الوافي في نظم القوافي، مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور ،رقم :603 ،ورقة :51.والقصيدة غير

واردة في النسخة المغربية المحققة.

(6) — مالك ابن المرحل _ الجولات ،ص :144.

(7) — المصدر السابق ،ص:77.

- ونحو هذا قول أبي عبد الله البرجي {الكامل} :
 حَكَمْتَ مَلَا حَتُّهُ الْقُلُوبَ بِأَسْرِهَا
 وَقَوْلُهُ أَيْضًا: {الكامل}
- فَلِذَلِكَ مَا نَسَبُوهُ لِلْأَحْكَامِ ⁽²⁾
 وَمَقَاصِدُ ضَمِنَ إِلَاهِ نَجَاحَهَا
 وَمِنْ أَمْثَلَةِ هَذَا النُّوعِ قَوْلُ ابْنِ رَشِيقِ الْمَرْسِيِّ: {المتقارب}
- وَقَوْلُ أَبِي جَعْفَرِ ابْنِ شَلْبُطُورٍ: {البيسيط}
- فَإِنِّي تَعَبُ الْأَشْجَانِ يَهْنِينِي ⁽⁵⁾
 وَكَذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ الْمَرْحَلِ: {الكامل}
- أَزْهَارُهُ تَزُورُ عَنْ أَغْصَانِهِ ⁽⁶⁾
 وَغُصْنُهُ إِذَا مَا زَارَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ
 وَقَوْلُهُ أَيْضًا: {الوافر}
- فَيَا لَلَّهِ مَا أَحَلَّى حُلَاهَا
 حُلَاهَا عَلَّمْتَنِي الْحُبَّ كَهَلَا
-
- فَأَبْدَعَ خَلَقَهَا لَمَّا بَرَاهَا ⁽⁷⁾
 وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ قَوْلُ الرَّنْدِيِّ: {المتقارب}
- وَلَكِنَّ صَبْرِي لَهُ أَعْجَبُ ⁽⁸⁾
 عَجِيبٌ لَعَمْرِكَ شَأْنُ الْهَمْوَى

ويتمثل النوع الثالث من رد الأعجاز على الصدور في أن توافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه. مثال هذا قول أبي عبد الله البرجي: {الكامل}

- (1) — ابن خلدون، العبر — ج 7، ص: 410.
- (2) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 367.
- (3) — المصدر السابق، ورقة: 358.
- (4) — ابن رشيقي المرسي — حياته و آثاره، ص: 236.
- (5) — مؤلف مجهول، مجموع مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط رقم: 3835، ورقة: 372.
- (6) — مالك ابن المرهل — الجوالات، ص: 130.
- (7) — المصدر السابق، ص: 143، 144.
- (8) — أبو الطيب الرندي، الوافي في نظم القوافي تح: محمد الخمار القنوني ص: 59.

وَاضْرِبْ بِهِ فِي فَصْلِ كُلِّ مَقَالَةٍ وَاضْرِبْ بِمَشْحُودِ الْمَضَارِبِ فَيَصِلُ⁽¹⁾
 و قوله أيضا: {الوافر}

وَأَبَدَتْ نَعْرَهَا فَشَهَدَتْ قَطْعاً بَأَنَّ الدُّرَّ مَنَّبَتْهُ الثُّعُورُ⁽²⁾
 ومن نحو هذا قول أبي عمرو ابن المرابط: {الكامل}

يَا مَنْ يَقُولُ غَدًا أَتُوبُ وَلَا غَدًا أَلَدَيْكَ عِلْمٌ أَنْ تَعِيشَ إِلَى غَدٍ؟!⁽³⁾
 وقوله أيضا: {الكامل}

هَذِي سَبِيلُ الرُّشْدِ قَدْ وَضَحَتْ فَهَلْ بِالْعُدِّ وَتَيْنٍ مِنْ أَمْرِي مُسْتَرَشِدٍ⁽⁴⁾
 و من أمثله أيضاً قول مالك ابن المرسل: {البسيط}

شَبَّتْ وَ شَابَ عَذَارِي فِي مَحَبَّتِهَا وَكَانَ ذَلِكَ لَوْ أَقْصَرْتُ إِعْذَارًا⁽⁵⁾
 و قول الرندي في معرض الرثاء: {البسيط}

فَإِنْ تَكُنْ زَهْرَةً مِنْ رَوْضِهَا قُطِفَتْ فَقَلَّمَا تُمْتِعُ الْأَيَّامُ بِالزَّهْرِ
 وَإِنْ تَكُنْ دُرَّةً مِنْ سِلْكِهَا خُطِفَتْ فَالذَّهْرُ أَدْرَى بِمَا يَسِي مِنَ الدُّرِّ⁽⁶⁾

يمكن القول من خلال هذه الأمثلة أن لرد الأعجاز على الصدور أثراً بالغاً في إثراء الموسيقى الداخلية في الشعر الغرناطي فهو يكسب البيت الذي يرد في تضاعفه لوناً موسيقياً هادئاً مثل الأصداء الخافتة التي تحدث أثراً إيجابياً في نفس السامع؛ ولهذا فإن لرد الأعجاز على الصدور قيمةً "إيقاعية من ناحية الموسيقى" ⁽⁷⁾

5_ التصريح: عرفه ابن رشيق القيرواني بأنه "ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه، تنقص بنقصه وتزيد بزيادته" ⁽⁸⁾ وعرفه ابن حجة الحموي بأنه "عبارة عن استواء آخر

(1) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم :3835، ورقة :366.

(2) — المصدر السابق، ورقة:355.

(3) — ابن خلدون العبر، ج 7، ص: 409.

(4) — المصدر السابق، و الموضع نفسه.

(5) — مالك ابن المرسل — الجوالات، ص: 84.

(6) — أبو الطيب الرندي الوائي في نظم القوافي مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور، رقم: 603، ورقة: 56. والقصيدا غير واردة في النسخة المغربية المحققة.

(7) — ماهر حسن فهمي — الصوت و الصدر في دراسة فنية في شعر المتنبي ، قطر، دار المتنبي، 1991، ص: 100.

(8) — ابن رشيق القيرواني — العمدة، ج 1، ص : 173.

جزء في صدر البيت وآخر جزء في عجزه في الوزن، والروى، والإعراب "1". مثال هذا

قول أبي عبد الله البرجي في مطلع قصيدة في المدح : {الكامل}

بُشْرَاكَ مَلِكٌ مُقْبِلٌ وَسُعُودٌ تَأْتِي عَلَى وَفْقِ الْمُنَى وَتَعُودُ⁽²⁾

ومن أمثله بيت ابن شلبطور في مطلع قصيدة في المدح أيضاً : {الخبب}

سَفَرَتْ غَرَاءً عَنِ السَّفْرِ بُشْرَى عَمَّتْ كُلَّ الْبَشْرِ⁽³⁾

وكقول ابن رشيق المرسي في مطلع قصيدة مدحية : {الرمل}

نَسَمَتْ مَا يَبِينُ وَرَدٍ وَعَرَارٍ وَعَلَى اللَّيْلِ تَبَاشِيرُ النَّهَارِ⁽⁴⁾

و قوله في مطلع مدحية أخرى : {الطويل}

أَلَا رَدًّا ذِكْرَ الْحَبِيبِ عَلَى الْبُعْدِ فَذَاكَ حَدِيثٌ لَا يَمَلُّ عَلَى الرَّدِّ⁽⁵⁾

فالتصريح في هذه الأبيات أضفى إيقاعاً موسيقياً داخلياً يتذوقه السامع أو القارئ و يعد هذا اللون البديعي أعني التصريح ظاهرة بارزة في الشعر الغرناطي فمن خلال ستة وستين نصاً شعرياً ما بين قصيدة و مقطوعة في ديوان الجولات لابن المرحل نجد أن القصائد و المقطعات التي جاءت مصرّعة المطالع بلغت نحو تسعة وخمسين نصاً شعرياً بينما جاءت سبعة نصوص فقط غير مصرّعة وهذا دليل على أن الشاعر الغرناطي استعان بالتصريح ليثري النغم الداخلي في مطالع نصوصه الشعرية ؛ وذلك لأن التصريح يتولّد عنه "جرس رخيّم الطرب" ⁽⁶⁾

وإذا كان ابن رشيق القرواني يرى أن التصريح يقع في أول الشعر أي مطلع الأبيات و"ربما صرع الشاعر في غير الابتداء وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة ، أو من وصف شيء إلى وصف شيء آخر فيأتي حينئذ بالتصريح إخباراً بذلك و تنبيهاً عليه" ⁽⁷⁾ ؛ فإن من النقاد

(1) — ابن حجة الحموي — خزانة الأدب و غاية الأرب — تح : عصام شعيتو ج 2 ، ط 1 - بيروت ، دار ومكتبة الهلال ، 1987م ص: 278.

(2) — مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط رقم: 3835 د، ورقة: 358.

(3) — المصدر السابق ، ورقة: 369.

(4) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص : 173.

(5) — المصدر السابق ، ص: 170.

(6) — علي الجندي — فن الجناس ، ص : 79. نقلا عن أيمن ميدان، اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة، ص: 345.

(7) — ابن رشيق القرواني — العمدة ، ج 1 ، ص : 174.

من رأى خلاف ذلك، فابن حجة الحموي يذهب إلى أن التصريح " أليق ما يكون بمطالع القصائد و في وسطها ربما تمجّه الأذواق و الأسماع " ⁽¹⁾

ومهما يكن الأمر فإنّ الشعراء الغرناطين التزموا التصريح في مطالع قصائدهم وأما في غير هذا الموضوع فقد كان نادرا يأتي عفواً الخاطر، مثال هذا قول ابن شلبطور في مطلع قصيدة

أرسلها لابن رشيق المرسي: {السريع}

وَبَكَرَ فِكْرٌ زَفَّهَا صَاحِبٌ سَحَّارٌ لَفَظٍ بِالنُّهَى لَاعِبٌ ⁽²⁾

ثم قال بعد تسعة أبيات :

فَكُلَّمَا أَرَادَهَا طَالِبٌ أَخْفَقَ فِيمَا رَامَهُ الطَّالِبُ ⁽³⁾

فالتصريح في هذا البيت الأخير جاء عفواً الخاطر دون أن يكون فاتحة لقصة جديدة أو وصفاً لشيء أو ما شابه ذلك .

وبهذا البسط في تتبع موسيقى الشعر الغرناطي يكون البحث قد وصل إلى النهاية، وفيما يلي خاتمة موجزة بأهم النتائج والتوصيات التي يمكن استخلاصها من هذه الدراسة، ونسأل الله التوفيق والسداد.

(1) — ابن حجة الحموي — خزانة الأدب وغاية الأرب ج 2 ص 278

(2) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص :164.

(3) — المصدر السابق ، و الموضوع نفسه.

النتائج والتوصيات

النتائج والتوصيات

أود أن أذكر في هذا التعليق الختامي أني لن أعرض لكل النتائج التي انتهى إليها البحث؛ ذلك لأن هناك العديد من النتائج التي قد ذكرت تباعاً ضمن الملاحظات التي كنت أسجلها في ختام كل مبحث من مباحث الدراسة؛ وهي نتائج كثيرة ومتنوعة؛ وسأكتفي فيما يلي بذكر بعض النتائج التي أحسب أنها ذات قدر من الأهمية، وإليك هذه النتائج .

1 — كشفت الدراسة عن أحداث مهمة وحقائق تاريخية متعلقة بتاريخ الدولة النصرية في عهدها الأول وقد وردت تلك الحقائق ضمن الشعر الذي وصلنا عن هذه الحقبة ، ومن أبرز الحقائق التاريخية التي توصلت إليها الدراسة معرفة العدد الحقيقي لأبناء محمد ابن الأحمر مؤسس مملكة غرناطة وهو ثلاثة أولاد، لا أربعة، وقد استعنت في الوصول إلى هذه الحقيقة ببعض النصوص التاريخية وكذلك الشعرية ، فمن النصوص التاريخية كتاب (الإكليل في تفضيل النخيل) لأبي الحسن البُناهي حيث خصص في هذا الكتاب فصلاً خاصاً بالأسرة النصرية تضمن معلومات قيمة عن أمرائها وأبنائها، ومن المعلومات الواردة في هذا الكتاب التنبيه على أن أولاد الغالب بالله هم فرج ويوسف ومحمد أي هم ثلاثة أولاد.

ومن بين النصوص الشعرية الغرناطية التي ساعدت في إثبات هذه الحقيقة قصيدة لأبي عبدالله البرجي مدح بها محمد ابن الأحمر وأثنى فيها على أبنائه الثلاثة ، ويمكن الرجوع إلى الفصل الأول من هذه الدراسة للوقوف على أبيات هذه القصيدة ولمعرفة المزيد من التفاصيل حيث يوجد عرض كامل للقضية.¹

2 — كشفت الدراسة عن حقيقة تاريخية مهمة تتعلق بمشراكة الأمير أبي سعيد فرج في الصلح الذي عقده والده محمد ابن الأحمر الغالب بالله مع ملك قشتالة سنة 643هـ— والذي امتد نحو عشرين عاماً، وقد وردت هذه الحقيقة ضمن قصيدة قالها أبو عبد الله

(1) — ينظر: هذا البحث ص: 27 .

البرجي في مدح الأمير أبي سعيد فرج وأشار فيها إلى دور هذا الأمير في عقد الصلح المذكور حيث قال فيها: {السريع }

يَا فَرَّاجَ الْعَمْرَاتِ يَا مَنْ لَهُ بِيضُ الْأَيْدِيِ وَالْمَعَانِيِ الْفِسَاحِ
خَاطَرْتُ بِالْمَجْدِ وَلَمْ تَدْرِغْ إِلَّا تُقَى اللَّهِ وَنِعْمَ السَّلَاحِ
وَرُمْتُ أَمْرًا فِيهِ حِفْظُ الْوَرَى فَالَاحِ فِيمَا رُمْتَ وَجْهَ الْفَلَاحِ
فَاهُنَّا ثَوَابَ اللَّهِ وَانْعَمَ فَمَا سَأَلْتُهُ عَمَّ جَمِيعِ النَّوَاخِ
فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنْكَ بُشْرَى كَمَا فِي كُلِّ صَدْرٍ فَرَحَةٌ وَأَنْشِرَاحٌ⁽¹⁾

فقد دلت هذه الأبيات بجلاء على دور الأمير أبي سعيد في عقد الصلح مع ملك قشتاله؛ وبالرغم من أهمية هذا الخبر إلا أننا لا نجد له ذكر في جل المدونات العربية التي تعرضت لتاريخ مملكة غرناطة في هذه الحقبة — خاصة مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب، وهذا الأمر يعطي لقصيدة المديح الغرناطية في هذه المرحلة قيمةً تاريخيةً مهمةً إلى جانب قيمتها الأدبية.

3 — نوهت الدراسة بمشاركة الأندلسيين المهاجرين — وجلهم كان من العلماء والأدباء — في ازدهار الحياة الثقافية الغرناطية خاصة في مجال الشعر، وأشادت أيضا بدور الحكّام النصرين في استقطاب بعض الشعراء إلى غرناطة؛ وذلك عن طريق تقليدهم مناصب إدارية داخل إمارة بني الأحمر.

4 — سجلت الدراسة بعض الظواهر الثقافية، كظاهرة هجرة العلماء والشعراء الغرناطيين خارج الأندلس بحثاً عن الأمن أو السعي في الرزق أو طلباً للعلم. وقد نشأ عن هذه الظاهرة رواج شعر الحنين والغربة بين الشعراء المهاجرين .

(1) — مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم: 3835 د ورقة : 353، 354.

5 — نوهت الدراسة إلى ازدهار الحركة الثقافية في إقليم غرناطة من حكم بني نصر، حيث تنوعت مراكز الثقافة على عهدهم الأول في مدن ثلاثة هي: غرناطة و مالقة و ألمرية، واتضح أن الحكام النصريين كانوا على وعي تام بأهمية الثقافة، فكانوا يهتمون بالشعر تذوقاً وإنشاداً، ورعايةً للشعراء، وتبين أيضاً أن الإمارة الغرناطية في القرن السابع كانت عامرة بالشعراء والأدباء .

6 — أسهمت هذه الدراسة في بروز عدد من الشعراء الغرناطيين الذين كانوا مغمورين أو في عداد المجهولين، إذ لم ينالوا الاهتمام المطلوب في معظم الدراسات السابقة، وكان من بين الشعراء الذين أسهمت الدراسة في إبرازهم: أبو جعفر ابن شلبطور، وأبو عبد الله البرجي، كذلك كشفت عن شخصية الشاعر الغرناطي أبي عمرو ابن المرباط الذي لم يكن يُعرف عنه — قبل هذه الدراسة — سوى كنيته، أو لقبه فحسب، لكن هذه الدراسة استطاعت أن تكشف عن اسمه وأسرته ونسبه وبعض أصدقائه و شيء من شعره، ولم يعد هذا الشاعر مجهولاً أو شبه مجهول.

7 — أسهمت الدراسة في الكشف عن قصائد شعرية نفيسة، أحسب أنها تدرس للمرة الأولى، كقصائد أبي جعفر ابن شلبطور، وقصائد أبي عبد الله البرجي، وعدد من قصائد أبي الطيب الرندي، كذلك أضافت قصائد جديدة الى دواوين بعض الشعراء الغرناطيين كقصيدة أبي حيان الغرناطي في رثاء ابنته نضار التي لم أجد لها ذكراً ضمن ديوانه المطبوع، وكقصيدة ابن الجياب الغرناطي التي قالها في تهنئة محمد ابن الأحمر الملقب بالفقيه بمناسبة انتصاره على النصارى وجاء في مطلعها :

نَلِّ مِنَ اللَّهِ (كَلِّ) ⁽¹⁾ مَا أَنْتَ آمِلٌ وَامْحُ آثَارَ كُلِّ شِرْكٍ وَبَاطِلٍ
وَتَقَلِّبْ فِي خَيْرٍ عِزٍّ وَنَصْرٍ وَتَرَقِّبْ أَسْنَى الْفُتُوحِ الْجَلَالِ ⁽²⁾

(1) — هذه الكلمة ساقطة في الأصل ولا يستقيم الوزن إلا بها.

(2) — ابن الجياب، ديوانه، مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور، د 2678، ورقة: 168. والقصيد غير واردة ضمن شعر ابن الجياب الذي نشره الباحث

علي النقرات في كتابه: ابن الجياب حياته وشعره.

حيث لم أجد لها ذكراً ضمن أشعاره التي جمعها الباحث علي النقراط ، وكذلك الشأن بالنسبة لقصيدته التي قالها في فتح مدينة قيجاطة ، وجاء في مطلعها: {الطويل}

عَدُوُّكَ مَقْهُورٌ وَحِزْبُكَ غَالِبٌ وَأَمْرُكَ مَنْصُورٌ وَسَهْمُكَ صَائِبٌ
وَشَخْصُكَ مَهْمًا لَاحَ لِلْخَلْقِ أَذْعَنْتَ لِهَيْبَتِهِ عَجْمُ الْوَرَى وَ الْأَعَارِبُ ⁽¹⁾

هذا ، وقد استعانت الدراسة في الكشف عن معظم هذه الأشعار بالرجوع إلى المصادر المخطوطات ، ويمكن القول إن هذه القصائد نبهت بقوة على وجود شعر كثير لم يصلنا إلى الآن عن هذه الحقبة ، وهو أمر مهم يستلزم البحث ، وإعادة النظر من قبل الباحثين الذين أطلقوا أحكاماً على شعراء هذه الحقبة ووصفوهم بأنهم قليلو الإنتاج الشعري . ⁽²⁾

8 — قامت الدراسة بالتحقيق والتدقيق في بعض المعلومات الواردة في دراسات وأبحاث كثير حول بعض القصائد الغرناطية ، من ذلك المعلومات التي وردت عن قصيدة أبي الطيب الرندي التي قال في مطلعها:

سَلَّمَ عَلَى الْحَيِّ بِذَاتِ الْعَرَارِ وَحَيٍّ مِنْ أَجْلِ الْحَيِّبِ الدِّيَارِ ⁽³⁾

فقد ذهب معظم الباحثين إلى أن القصيدة في مدح محمد ابن الأحمر ، وهو أمر غير دقيق ألبتة ، لأن القصيدة نفسها ترشدنا إلى المقصود الحقيقي بالمدح وهو أبو عبد الله محمد بن الحكيم وزير بني الأحمر ، يدل على ذلك قول الرندي في القصيدة مصرحاً باسم المدوح ، وبكنيته:

كَأَنَّما الشَّمْسُ وَقَدْ أَشْرَقَتْ وَجَهْ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ اسْتَنَارَ
مَحَمَّدٌ مَحَمَّدٌ كَاسِمِهِ شَخْصٌ لَهُ فِي كُلِّ مَعْنَى يُشَارُ

(1) — ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج 1 ، 562.

(2) — ينظر: المقدمة في هذه الدراسة ص: 5 .

(3) — المقرئ ، نفح الطيب ، ج 6 ، ص: 236 .

وهكذا ، فاسم الممدوح محمد، وكنيته أبو عبد الله، وهو أمر يتطابق تماماً مع اسم ابن الأحمر وكنيته، ويبدو أن هذا التطابق أو التشابه في اسم الرجلين وكنيتهما هو ما دفع كثيراً من الباحثين إلى الاعتقاد بأن القصيدة في مدح محمد ابن الأحمر، وهو اعتقاد خاطئ، يشهد على خطئه قول الرندي في القصيدة عقب البيت السابق مباشرة مصرحاً بنسب الممدوح الذي يعود إلى قبيلة (لخم) :

تَزَهَى بِه لَخْمٌ وَسَادَاتُهَا وَتَنْتَمِي قَيْسٌ لَهُ فِي الْفَخَارِ⁽¹⁾

فهذا البيت ينفي بشكل قاطع أن يكون المقصود بالمدح في القصيدة هو محمد ابن الأحمر؛ وذلك لأن بني الأحمر ينتسبون إلى الخزرجيين الأزديين، إذن، فالقصيدة في مدح محمد بن الحكيم الذي ينتسب إلى اللخميّين، وهذا البيت الأخير دلّ بوضوح على أن الممدوح من (لخم).

ويوجد دليل آخر يمكن أن أضيفه إلى هذا الدليل الواضح وهو ذو أهمية كبيرة، ويكمن هذا الدليل في النهج الذي اتبعه الرندي في هذه القصيدة، فهو نهج مختلف تماماً عن النهج الذي كان يتبعه الرندي وغيره من الشعراء الغرناطيين في بناء قصائدهم التي بمدحون فيها بني الأحمر؛ فقد عهدنا في تلك القصائد أن نجد أكثر من بيت واحد يشاد فيه بالأنصار أجداد بني الأحمر، وكذلك الإشادة بمواقف الأنصار مع الرسول صلى الله عليه وسلم، أما هذه القصيدة التي بصدد الحديث عنها والتي ظنَّ أنَّها في مدح محمد ابن الأحمر فليس فيها أي إشارة إلى الأنصار ألبتة، وهذا يرجح أنها لم تكن في مدح محمد ابن الأحمر بل كانت في مدح محمد بن الحكيم.

(1) — المقري ، نفح الطيب ، ج6 ص: 236 . ينظر: الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، ص53. والطاهر أحمد مكسي ، دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط 3 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1987 ص: 299 ، 300 . وكذلك دراسة الدكتور أيمن ميدان " اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة " ص: 322 . إلى غير ذلك من الدراسات التي أشرت إليها ضمن هذا البحث . ينظر هذا البحث ص: 463 .

9 — كشفت الدراسة عن المعاني التي تناولها الشعراء في قصائد المدح السياسي، وكذلك المنهج الذي ساروا عليه في بناء قصائدهم، واتضح أن قصيدة المدح الغرناطي في هذه الآونة لم تخرج في جُلّ مضمونها، ومنهج بنائها عما تناوله الشعراء السابقون في مدائحهم؛ وهو المنهج الذي قرره النقاد القدامى لقصيدة المدح ؛ وذلك من حيث التقديم لها بالغزل أو النسيب، ومن حيث الخاتمة الدعائية للممدوح.

10 — كشفت الدراسة عن ازدهار شعر المديح النبوي في مدن إقليم غرناطة كمدينة وادي آش التي احتضنت عددا من المتصوفين الذين كانوا يحتفلون بالمولد النبوي، وقد برز في هذا المجال عدد من الشعراء من أمثال أبي بكر عتيق بن الفراء الغرناطي، وأبي محمد بن عبد العظيم .

أما عن مضمون قصيدة المدح النبوي، والمنهج الذي اتبعه الشعراء الغرناطيون في بنائها؛ فإن معظم الشعراء ركزوا على معاني بعينها ترددت في جُلّ قصائدهم، كالإشادة بالصفات المعنوية والحسية للرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان معجزاته والشواهد الدالة على نبوته قبل البعثة وبعدها، ولأن أكثر شعراء المدح النبوي كانوا من المتصوفين فإن قصيدة المدح النبوي تأثرت ببعض الأفكار الصوفية، كفكرة النور المحمدي، وهي فكرة صوفية بدت واضحة في هذه المدائح، وكاستهلال بعض المدائح بالمقدمات الغزلية أو الخمرية وهو نهج معروف لدى المتصوفين.

11 — سجلت الدراسة جملة من الملاحظات حول شعر الغزل، وكان من أهمها اقتباس الشعراء المعاني الدينية وكذلك الألفاظ خاصة في الغزل الغلماي؛ وبرزت هذه الظاهرة بشكل جلي في غزل مالك ابن المرحل .

ومن بين تلك الملاحظات أيضا تأثر الغزل الغرناطي بالأجواء العسكرية والحربية القائمة آنذاك، إلى غير ذلك من الملحوظات المهمة المدونة في مكانها من هذا المبحث.¹

(1) — ينظر: هذا البحث ص: 210، وما بعدها.

12 — وقفت الدراسة عند الرثاء الغرناطي، وتتبع بعض أنواعه كـ "رثاء الأشخاص؛ الذي كان من أهم أقسامه رثاء الحسين بن علي رضي الله عنهما، حيث ازدهر التأليف حوله في هذا القرن، واهتمّ عدد من الشعراء الغرناطيين برثائه منهم: أبو الطيب الرندي الذي نظم مَحْمَسَة في رثاء الحسين، ومنهم: ابن ناهض بن إدريس الوادي آشي، ومن خلال دراسة ما وصلنا في رثاء الحسين خلص البحث إلى أن هذه المراثي كانت تعبيراً عن حبّ الغرناطيين للحسين ولآلي بيت الرسول صلى الله عليه وسلّم، وقد خلى رثاء الحسين من أيّ أفكار شيعية تدلّ على تشيع الشعراء الغرناطيين بالمعنى المذهبي.

كذلك عرف الشعر الغرناطي نوعاً آخر من الرثاء؛ هو رثاء المدن الأندلسية التي سقطت بأيدي النصارى نتيجة الحملة الصليبية التي كانت تشنّ على الأندلس من قبل النصارى في ذلك الوقت.

وقد كان هذا النوع الأخير من الرثاء أعني رثاء المدن من أبرز خصائص الشعر الأندلسي عامة والغرناطي خاصة في القرن السابع الهجري؛ وكان هناك بعض الموضوعات التي تناولها شعر رثاء المدن لعل من أهمها الدعوة إلى الوحدة والجهاد وتحفيز همم المسلمين لإنقاذ ما تبقى من الأندلس، كما كشف رثاء المدن عن بعض الأسباب التي أدت إلى السقوط السريع للمدن الأندلسية، كالفتنة التي نشبت بين المسلمين، وعدم وحدتهم في مواجهة العدو، فضلاً عن دور اليهود في عملية سقوط المدن الأندلسية.

13 — دوّنت الدراسة جملة من الملاحظات المهمة حول وصف الطبيعة الغرناطية في هذه الحقبة، وقد كان من أهمّ هذه الملاحظات تأثر وصف الطبيعة الغرناطية بأجواء الحرب آنذاك؛ حيث استطاع بعض الشعراء تصوير الطبيعة وكأنها تقاتل بجانب الغرناطيين ضد العدو الغازي من أجل البقاء، وذلك في مشهد تبدو فيه الحرب الدائرة في الأندلس وكأنه ليست ضد الإنسان الأندلسي المسلم فحسب، بل هي ضدّ الطبيعة أيضاً، ويمكن الرجوع إلى هذه الملاحظات في مكانها من هذه الدراسة.¹

(1) — ينظر هذا البحث ص: 294، وما بعدها.

14 — من خصائص الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري شعر الحنين والغربة، حيث تناول الشعراء الغرناطيون في قصائدهم التي حبروها خارج الوطن هذا الموضوع، وتضمنت تلك القصائد عدة محاور وموضوعات، كالحنين إلى (الأندلس) الوطن الأم، والحنين إلى الطبيعة الأندلسية، والحنين إلى الأهل والأصدقاء، والحنين إلى أيام الصبا و الشباب، وانتهت الدراسة إلى أن حنين الغرناطيين كان يصدر عن نفوس معذبة تجرعت مرارة البعد وآلام الفراق عن الوطن والأهل، وسجلت الدراسة العديد من الملحوظات التي يمكن الرجوع إليها في مكانها من هذا المبحث⁽¹⁾.

15 — تتبعت الدراسة الشعر الغرناطي من حيث الروافد والمقومات التي غذت لغته، وحددت ستة روافد رئيسة كان لها دور كبير في تشكيل لغة الشعراء، هي: القرآن الكريم، والحديث النبوي، والأمثال والأقوال المشهورة، والشعر العربي القديم، والأماكن والشخصيات ذات الصبغة التاريخية، ومصطلحات العلوم .

وبينت الدراسة طريقة توظيف هذه الروافد داخل النص الشعري الغرناطي، واتضح أن توظيفها كان وفق مستويات متنوعة، منها ما كان على سبيل الإشارة، ومن هذه المستويات ما كان على سبيل الاقتباس الحرفي دون أي تغيير أو تبديل، ومنها ما كان على سبيل الاقتباس مع إجراء بعض التغيير النحوي أو الصرفي أو بالتقديم أو التأخير .

وقد اتضح أن توظيف هذه الوافد لم يكن لأجل سد فراغ شاغر داخل النص الشعري؛ وإنما كان تلبية لحاجة فنية يتطلبها النص.

كذلك خصصت الدراسة جانباً من دراسة اللغة للتعرف على الألفاظ الأندلسية التي استعملها الشعراء الغرناطيون، وكان لها معانٍ تختلف عنها لدى المشاركة .

وكشفت الدراسة أيضاً عن أبرز الألفاظ التي استقاها الشعراء الغرناطيون من البيئة المسيحية المجاورة، ووظفوها في أشعارهم، وخلصت إلى أن استخدام هذه الألفاظ كان محدوداً ومنحصرًا في ألفاظ معينة استخدمت في موضوعين اثنين هما: رثاء المدن الأندلسية

(1) — ينظر هذا البحث ص: 269، وما بعدها.

، وفي الغزل الغلماي، وقد دلّ انحصار استخدام هذه الألفاظ من قبل الشعراء الغرناطين في هذين الموضوعين على أهمّ كانوا على وعي تام بتوظيفها، كذلك دلّ على أن مجيء هذه الألفاظ داخل النص الشعري كان لخدمته فنياً، ولم يكن ذلك نتيجة تأثير الثقافة المسيحية أو سيطرتها على عقول الشعراء الغرناطين كما زعم بعض الباحثين، ويمكن للقارئ الاطلاع على الألفاظ المستخدمة ضمن المبحث الخاص بدراسة اللغة⁽¹⁾.

16 — كشفت الدراسة عن الوسائل التي أسهمت في تشكيل الصورة في الشعر الغرناطي، وقد انحصرت في خمس وسائل رئيسة هي: التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والكناية، والمفارقة التصويرية.

وأما أنواع الصور المستخدمة في الشعر الغرناطي، فقد وجدت أن من أبرزها: الصورة التشخيصية، والصورة النفسية، والصورة الحركية، والصورة الواقعية، والصورة البرهانية، والصورة التجسيدية.

17 — اتضح من خلال جداول إحصائية لنتائج عدد من الشعراء الغرناطين يمثلون الحقة المعنية بالدراسة، أن البحور الشعرية التي سجّلت أعلى نسبة استخدام في الشعر الغرناطي هي البحور الطويلة المتمثلة في: البسيط، والكامل، والسريع، والطويل، واتضح أيضاً عدم رغبة الشعراء الذين شملهم الإحصاء في صياغة شعرهم على صور الأبحر المجزوءة؛ فقد جاءت نسبة الاعتماد عليها محدودة، وانحصر استخدامها في الأبحر التالية: مخلّع البسيط، مجزوء الكامل، مجزوء الوافر، مجزوء الرجز.

18 — كان من جملة الملاحظات التي سجلتها الدراسة حول الأوزان المستخدمة في الشعر الغرناطي في هذه الحقة استعمال وزن الخبب الذي كان شائعاً في عهد الموحدين، خاصة في القصائد التي مدح بها ملوك الموحدين، وقد أثبتت الدراسة أن هذا الوزن العروضي أي وزن الخبب استمر استعماله في قصائد مدح بها بنو الأحمر إلى القرن السابع

(1) — ينظر هذا البحث ص: 337، وما بعدها.

المجري ؛ حيث استخدمه الشاعر الغرناطي أبو جعفر ابن شلبطور في قصيدة مدح بها الأمير أبا سعيد (653 هـ) ولد الغالب بالله محمد ابن الأحمر قال في مطلعها :

سفرت سفراء عن السفر بشرى عمت كل البشر

بيد أن الجدير بالذكر في هذا المجال هو استعمال وزن الخنب في شعر الرثاء ، وهو أمر ربما لم يكن معهوداً من قبل في الشعر الأندلسي ؛ ومن أمثلة استعماله في الرثاء قصيدة الشاعر ابن رشيق المرسي التي صاغها على هذا الوزن في رثاء أحد أمراء بني هود وقال في مطلعها :

عَجِباً لِلدَّهْرِ وَمَا فَعَلَا وَ لِحُكْمِ الْقَهْرِ لَقَدْ شَمَلَا
عَجَباً لِقَضِيَّةِ عَدْلِهِمَا فِيمَنْ قَدْ جَارَ وَمَنْ عَدَلَا
سَبَقاً بِنَفَاءِ الْكُلِّ فَلا عَدْلٌ سَبَقَ الْقَدْرُ الْعَدَلَا
وَ الْأَعْجَبُ مِنْ عَجَبِي بِهِمَا أَنْ نُشْعَلَ عَنْهُ فَنَشْتَعِلَا
وَ يَحُلُّ الْأَمْرُ فَنَرْهَبُهُ وَيَجِيءُ الصَّبْرُ مُحْتَمَلَا¹

ومن المهم أن أذكر أنني لم أجد في شعر الرثاء الأندلسي — بحسب المصادر التي اطلعت عليها — قصيدة بنيت على وزن الخنب سوى قصيدة ابن رشيق وهذا يدفع الدراسة إلى طرح التساؤل التالي : هل يكون ابن رشيق المرسي أول شاعر أندلسي يستعمل هذا الوزن في شعر الرثاء عامة؟ أم أنه ثمة شاعر أندلسي آخر قد سبقه إلى استخدام هذا الوزن في شعر الرثاء ؟ .

19 — من خلال تتبع الدراسة للقوافي والحروف المستعملة رويماً في الشعر الغرناطي ، اتضح أن الشعراء الغرناطيين حاولوا أن تكون حروف رويهم موافقة لما اشترطه النقاد والعروضيون ، فقد خلا شعرهم من حروف عدها النقاد مستكرهة ، كـ (الشاء ، والجيم ، والحاء ، والذال ، والزاي ، والشين ، والصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والغين ، والواو) ، فبعض هذه الحروف ينضوي تحت ما يسمى بـ (القوافي الحوش) بينما يسمى بعضها

1) — ابن رشيق المرسي — حياته و آثاره ، ص : 198 وما بعدها . و من المصادر التي بحث فيها كتاب : (نفع الطيب) للمقري الذي يعد من أكبر المصادر الأندلسية اهتماماً بالشعر الأندلسي

الآخر بـ (القوافي النفر) ، وقد حقق الشعراء الغرناطيون نجاحاً في اختيار حروف رويهم ، ولم تُسجّل إلا بعض الإخفاقات القليلة ، ولم يتجاوز استخدام الحروف المستكرهة في القافية المقطوعات إلى القصائد ، ومن خلال عملية إحصائية لنتاج عدد من الشعراء الغرناطيين اتضح أن الحروف التي استخدمها الشعراء رويّاً يمكن تصنيفها ضمن أربعة مسارات هي:

- 1 _ حروف كثيرة الاستخدام هي : الباء ، الراء ، الدال ، اللام ، الميم ، النون .
- 2 _ حروف متوسطة الاستخدام هي : التاء ، الفاء ، القاف ، الكاف ، الهاء .
- 3 _ حروف قليلة الاستخدام هي : الحاء ، السين ، العين .
- 4 _ حروف نادرة الاستخدام هي : الجيم ، الحاء ، الزاي الشين ، الصاد ، الضاد ، الطاء ، الظاء ، الغين ، الواو .

20 _ كذلك اتضح من خلال بعض الإحصائيات أن الشعراء الغرناطيين آثروا استعمال الروي المكسور ، يليه المضموم ، فالمفتوح ، ثم الساكن . واتضح أيضاً أن القوافي المطلقة التي يكون رويها متحركاً كانت أكثر شيوعاً في الشعر الغرناطي من القوافي المقيدة التي يكون فيها الروي ساكناً ، حيث جاءت نسبة ورود هذا النوع الأخير قليلة في الشعر الغرناطي قياساً بالنوع الأول ، وهي نتيجة تتفق مع ما رصده دارسو الشعر العربي ، حيث وجدوا أن القوافي المطلقة هي أكثر استخداماً من القوافي المقيدة في الشعر العربي القديم .

21 _ كشفت الدراسة عن بعض الوسائل التي استخدمها الشعراء الغرناطيون في إثراء القافية ، كجلب قوافي داخلية تدعم القافية المستخدمة ، ومثل الإتيان بلزوم ما لا يلزم ، ومنها الردف ، والتأسيس للقافية ، ومنها الحشد الترادفي للقافية .

22 _ ردّت الدراسة على المزاعم الواردة حول ظاهرة فنية تخص موسيقى الشعر الغرناطي ، هي ظاهرة الحشد الترادفي للقافية ، أي أن يكون للبيت أو القصيدة أكثر من روي واحد ، وسمّى أبو الطيب الرندي هذه الظاهرة بـ "التبديل" ، وقد زعم الدكتور أيمن ميدان أن هذه الظاهرة " أندلسية النشأة " ⁽¹⁾ وهو زعم يخالف الحقيقة ؛ ذلك لأن هذه

(1) - ينظر: أيمن ميدان ، اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة ، ص: 324. رسالة دكتوراه غير منشورة.

الظاهرة هي مشرقية النشأة، فقد اشتهر بهذا النمط من الأدبيات عدد من الأدباء والكتّاب المشاركة كالحريري، وأبي القاسم علي ابن منجب المعروف بابن الصيرفي أحد كتاب الدولة العلوية المصرية، ولهذا الأخير شعر ينشد بقافيتين، وهذا يدل على أسبقيته في هذا المجال؛ يقول: {البسيط}

مَنْ شَاءَ جَمَعَ مَعَالٍ قَدْ خُصِّصَتْ بِهَا وَ جَاوَزَتْ كُلَّ حَدٍّ لَمْ يَنْلُ وَطَرًا / وَ طغَا
وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْصِيَ فَضَائِلَهَا وَ زَنْدُكَ الْغُرُّ مَهْمَا تَقْتَدِحُهُ وَرَى / وَ غَا¹

23 — كشفت الدراسة عن أبرز عيوب القافية في الشعر الغرناطي، وتوقفت عند ثلاثة عيوب هي: عيب (الإيطاء)، و عيب (الإقواء)، و عيب (الاستدعاء).

24 — بينت الدراسة دور بعض المحسنات البديعية في إثراء الموسيقى الداخلية، حيث أضفي استخدامها إيقاعاً موسيقياً داخلياً يدعم النغم الناتج عن الوزن والقافية في إظهار الموسيقى الكلية للبيت أو القصيدة. ومن أبرز هذه المحسنات البديعية: التقسيم الموسيقي، والتكرار، ورد الأعجاز على الصدور، والتصريع.

25 — يمكن القول من خلال النصوص الشعرية التي وصلتنا إن دراسة الشعر الغرناطي في هذه الحقبة لها أهمية كبيرة؛ ذلك لأن الدراسة كشفت عن معلومات وحقائق مهمة، سواء فيما يتعلق بالشعراء أنفسهم، أو فيما يخص الحقبة التي عاشوا فيها، أو فيما يتعلق بنتائجهم الشعري. ويستطيع القارئ أن يستشعر هذه الأهمية من خلال المعلومات التي أثيرت في هذه الدراسة.

وخلاصة القول إن الشعر الغرناطي في القرن السابع الهجري كان امتداداً لحركة الشعر الأندلسي خلال عصوره السابقة فقد طرق الشعراء الغرناطيون معظم فنون القول التي طرقتها الشعراء السابقون، كالمدح، والغزل، والرثاء، والوصف، وشعر الحنين والغربة الذي

1) — ينظر: ابن الصيرفي مناجح القرائح، تح، و ليد قصاب، عبد العزيز المانع، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق: 1994 ص:

ازدهر بشكل واسع بسبب هجرة العديد من الشعراء خارج الوطن، بينما حققت بعض الفنون الشعرية الأخرى كالمهجاء مثلاً تراجعاً واضحاً خلا بعض النصوص القليلة التي هي أقرب إلى الوصف منها إلى المهجاء، وربما يقصد بها الظرف والتفكه .

وأما أكثر الفنون الشعرية ازدهاراً في هذه الحقبة فهو فن المديح ؛حيث ازدهر المدح السياسي خاصة في ظل دولة بني الأحمر، وقد دل على هذا الازدهار تلك القصائد المطولة التي صاغها الشعراء الغرناطيون في مدح السلاطين النصريين في القرن السابع الهجري ، وإليك هذه القصائد وغيرها من خلال الملاحق التالية .

ملاحق الدراسة

الملحق الأول: ويضم قصائد لأبي عبد الله بن بكر البرجي.

القصيد الأولى: وهي في مدح الأمير أبي سعيد فرج ولد الغالب بالله قال

فيها. [السريع]

شَدَّ حِشَاهُ بِيَدَيْهِ وَصَاحَ
 لَاحَ لَهُ الْحُسْنَ فَلَمْ يَلْتَفِتْ
 يَا لَهْفَهُ مِنْ مُسْتَهَامٍ بَرَتْ
 أَصْبَحَ لِلْوَجْدِ وَفَرَطِ الضَّنَا
 عَتَتْ لَهُ بِالسَّقَطِ سَقَطِ اللُّوَى
 خُمُصَانَةٌ تَحْسَبُ أَجْفَانَهَا
 إِذَا تَوَلَّتْ قُلْتَ حِقْفُ النَّقَا
 وَإِنْ تَنْتَ أَعْطَافَهَا حِلْتَهَا
 يُوَاصِلُ الضَّدُّ بِهَا ضِدَّهُ
 لَمْ يَنْبِتِ الخُلْخَالَ فِي سَاقِهَا
 تَفْتَحَتْ وَجَنَّتْهَا وَرَدَةٌ
 وَابْتَسَمَتْ عَنْ شَنْبِ عَاطِرٍ
 أَقْسَمْتُ مُذْ دَنْتَ عَلَيَّ أَنَّهُ
 حَلَّتْ مِنَ الْحُسْنِ حِمَى عِزَّةٍ
 دَنُوتُ مِنْهَا فَنَضَّتْ صَارِمًا
 وَاشْرَعَتْ نَهْدَيْنِ مِنْ صَدْرِهَا
 وَأَقْدَمَتْ قَائِلَةً يَا فَتَى
 فَقُلْتُ لَا أَبْرَحُ عَنْ مَأْزِقٍ
 فَاسْتَبَقْنِي إِتْيِي مَشُوقٌ وَأَرَى
 صَحَّتْ لَدَيْهَا عِزْمَتِي فَاثْنَتْ
 وَاسْتَوْتَقَتْ مِنِّي بَعْهَدِ الهَوَى
 سَكْرَانٌ مِنْ خَمْرِ الهَوَى غَيْرَ صَاحٍ
 فِي طَاعَةِ الْحُسْنِ إِلَى قَوْلٍ لَاحٍ
 فُوَادُهُ الْأَشْوَاقُ بَرِي الْقِدَاحِ
 حَبِيسَ شَوْقٍ لَا يُطِيقُ السَّرَاحِ
 عِنْدَ أُثْيَلَاتِ النَّقَا فَالْبِطَاحِ
 مَرَضَى مِنَ السَّحْرِ وَهَنَّ الصَّحَاحِ
 وَإِنْ تَجَلَّتْ قُلْتَ بَدْرُ لِيَاخِ
 غُصْنَاً مِنَ الْبَانِ نَنْتَهُ الرِّيَاخِ
 خَصْرٌ رَقِيقٌ فَوْقَ رِذْفٍ رَدَاخِ
 إِلَّا بِخَصْرٍ جَالٍ فِيهِ الْوِشَاخِ
 وَافْتَرَّ فِيهَا تُعْرُهَا عَنْ أَقَاخِ
 أَدَكَى وَأَشْهَى مِنْ سُلَافَاتِ رَاخِ
 أَسْنَى مُرَادِي وَ أَجَلُّ اقْتِرَاخِ
 أَصْبَحَ قَلْبِي عِنْدَهَا مُسْتَبَاخِ
 مِنْ لَحْظِهَا أَتَخَنَ قَلْبِي جِرَاخِ
 أَنْضَى وَأَمْضَى مِنْ صُدُورِ الرَّمَاخِ
 أَذْهَبَ فَهَدْيِي فَتَكَاتُ الْمِلاخِ
 لَيْسَ عَلَيَّ مَنْ مَاتَ فِيهِ جُنَاخِ
 غَيْبِي رَشَادًا وَفَسَادِي صَلاخِ
 تَمْسَحُ عِطْفِي بَيْنَانٍ وَرَاخِ
 أَلَا أَرَى فِي حُبِّهَا ذَا افْتِصَاخِ

مَن ضَاقَ ذَرْعاً بِهَوَاهُ فَبَاحَ
 وَفَارَقْتَنِي لَا لِطَوْلِ انْتِزَاحِ
 وَكُلُّ هَيْمَانٍ إِذَا حَارَ رَاحُ
 فَصَحْتُ بِالْأَمَالِ (1) فِسَاخُ
 أَرْسَلَ فِي الْآفَاقِ فَضَّلَ الْجَنَاحُ
 وَجَهَ ابْنُ نَصْرِ حِينَ لَا حَ
 أَبُو سَعِيدِ ذُو الْعُلَى وَالسَّمَاحُ
 فَفَزْتُ مِنْ عَلَيَّهِ بِالتَّجَاحِ
 لِمُقْبِلِ الرِّزْقِ لَدَيْهَا انْفِتَاحُ
 بَشْرٌ حَكَى شَمْسَ الضُّحَى فِي انْتِزَاحِ
 عَرَضُ مَصُونٌ وَنَوَالٌ مُبَاحُ
 مِنْ كَرَمِ مَحْضٍ وَبِحَدِّ صِرَاحِ
 بِمُتَدَى الْجُودِ وَيَوْمَ التَّطَاحِ
 لَدَى غُبُوقِ وَكَذَاكَ اصْطِطَاحُ
 وَاحْذَرُهُ فِي الْعَارَةِ عِنْدَ الصَّبَاحِ
 وَكُلُّ مَنْ لَاقَاهُ فِي الْحَرْبِ طَاحُ
 يَا أَبْحَرَ الْجُودِ وَأَسَدَ الْكِفَاحِ
 وَقُدْتُمْ الصَّعْبَ بَعْدَ الْجِمَاحِ
 رَأْيِي أَصِيلٌ وَعُقُولُ رِجَاحِ
 أَيْدٍ بِسَاطٍ وَوَجُوهٌ صِبَاحِ
 فِي مَنَعَةٍ مِنْ عِزِّكُمْ لَا تُبَاحِ
 طَوْرًا وَطَوْرًا بِصُدُورِ الرَّمَّاحِ
 يُوجِبُهُ الرُّشْدُ وَيَقْضِي الصَّلَاحِ
 كَفَيْتُمُوهُ جُهْدَهُ فَاسْتَرَاحِ

وَ قَالَتْ: اعْلَمُ أَنَّ شَرَّ الْوَرَى
 وَوَدَعْتَنِي غَيْرَ مَقْلِيَةِ
 وَ رُحْتُ أَطْوِي مِنْ عُرُوضِ الْفَلَا
 وَ أَوْمَأْتُ نَحْوَ الْعُلَى بِالْمُنَى
 وَخُضْتُ فِي جُنْحٍ مِنَ اللَّيْلِ قَدْ
 حَتَّى بَدَأَ نُورُ صَبَاحِ حَكَى
 قَضَى بِسَعْدِي حِينَ يَمُمُّهُ
 جَنَحْتُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ رَضَى
 قَبَلْتُ مِنْ يَمَنَاهُ كَفًّا غَدَا
 وَرَاقِنِي مِنْهُ مُحْيَا لَهُ
 وَأَسْبَغَ التُّعْمَى هُمَامَ لَهُ
 لَدِيهِ مَا شِئْتُ وَمَا تَبْتَغِي
 غَيْثٌ وَ لَيْثٌ كُلَّمَا قَسَّتَهُ
 يُعْنِي وَ يُفْنِي مُنْعَمًا مُقَدِّمًا
 يَمُّ عَشِيًّا دَارَهُ لِلْغِنَى
 مَنْ جَاءَ فِي السَّلْمِ نَالَ الْمُنَى
 يَا آلَ نَصْرِ يَا بَنِي يُوسُفِ
 أَنْتُمْ فَتَحْتُمْ كُلَّ مُسْتَعْلِقِ
 هُدَاكُمْ عِنْدَ ضَلَالِ الْوَرَى
 لَكُمْ دَلِيلَانِ عَلَى سُرُوكُمْ
 حَمِيَّتُمْ الدِّينَ فَأَضْحَى بِكُمْ
 دَفَعْتُمْ بِالصَّلْحِ أَعْدَاءَهُ
 أَعْمَلْتُمْ فِي الْحَالَتَيْنِ الَّذِي
 وَكُلُّ مَنْ كَابَدَ جُهْدًا فَقَدْ

(1) — كلمة غير واضحة في أصل المخطوط.

يَا فَرَّاجَ الْعَمْرَاتِ يَا مَنْ لَهُ
خَاطَرَتْ بِالْمَجْدِ وَلَمْ تَدْرِغْ
وَرُمْتَ أَمْرًا فِيهِ حِفْظُ الْوَرَى
فَاهْتَأْ ثَوَابَ اللَّهِ وَانْعَمْ فَمَا
فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنْكَ بُشْرَى كَمَا
زَارَتْكَ مِنِّي كَاعِبٌ حِلْيَهَا
كَأَنَّمَا ذَكَرْتُكَ أَتْنَاءَهَا
فَإِنْ تُصِخْ سَمْعًا لِإِنْشَادِهَا
وَدُمَّ مَلِيكًا فِي ذُرَى عِرْزَةٍ
وَاخْلُدْ لِحِفْظِ الدِّينِ فِي امْرَةٍ

بيضُ الأيادي والمعاني الفساح
إلا تُقَى اللهُ وَنِعْمَ السَّلَاحُ
فَلَا حَ فِيمَا رُمْتَ وَجْهَ الْفَلَاخِ
سَأَلْتُهُ عَمَّ جَمِيعَ النَّوَاخِ
فِي كُلِّ صَدْرٍ فَرَحَةٌ وَأَنْشِرَاخُ
مَعْنَى جَلَّتْهُ كَلِمَاتُ فَصَاخِ
رَوْضِ الرَّبِّيِّ نَمَّ أَوْ الْمَسْكُ فَاحُ
فَازَ بِهَا قِدْحِي وَأَوْرَى اقْتِدَاخِ
غُدُوها مَعْتَضِدٌ بِالصَّبَاخِ
يَخْدُمُهَا بِالتَّصْرِ سَعْدٌ مُتَمَاحُ (1)

القصيدة الثانية: وهي أيضا في مدح الأمير أبي سعيد فرج ولد الغالب بالله وجاء

فيها: [الوافر]

شُمُوسٌ مَا تُعَايِنُ أُمَّ بُدُورُ
أَرَانَا كُلَّمَا زِدْنَا التَّفَاتَا
وَتَارَتْ فِي جَوَانِحِنَا قُلُوبُ
قَفُوهَا إِنَّهَا تَلْعَاتُ نَجْدِ
وَمِيلُوا بِي إِلَى الْأَثَلَاثِ تُحِيُوا
وَحِيُوا بِالسَّلَامِ بَنِي سُلَيْمِ
عَسَى وَ لَعَلَّ مَنْ سَلَبَتْ فُؤَادِي
وَإِنْ سَأَلُوا فَقُلْ صَيْفٌ مُلِمٌ
وَإِنْ هُمْ أَنْكَرُوا مِنِّي ازْدِيَارًا
وَإِنْ قَالُوا: الصَّدُورَ فَقَدْ وَرَدْتُمْ
فَقَلْبِي عِنْدَهُمْ رَهْنٌ لِحَبِّي

أَمِ الطَّبِيَّاتُ تُبْدِيهَا الْخُدُورُ؟
أَضَاءَ لَنَا مِنَ الْخِيَمَاتِ نُورُ
فَكَادَتْ أَنْ تُشَقَّ لَهَا الصَّدُورُ
وَمَا لِلْعَيْسِ عَنِ نَجْدِ مَسِيرُ
فُؤَادًا كَادَ مِنْ شَوْقٍ يَطِيرُ
فَقَلْبِي فِي فَنَائِهِمْ أُسِيرُ
سُتُومِي بِالتَّحِيَّةِ أَوْ تُشِيرُ
وَإِنْ بَحَثُوا فَقُلْ صَبُّ يَزُورُ
فَمَا فِي زُورٍ مُشْتَقٍ نَكِيرُ
فَقُولُوا مَا لَنَا عَنْكُمْ صُدُورُ
وَ جِسْمِي دُونَ قَلْبِي لَا يَسِيرُ

(1) — التخریج: مؤلف مجهول ، مجموع في مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية بالرباط رقم 3835 وورقات: 351، 352،

وإن كانت على ضعفي تجور
عليه من حلى صوني ستور
ووجدني عن ضميري لا يحور
وغيرهما يناجيه ضمير
فينجد في هواها أو يغير
بطرف في لوحظه فتور
كما يتلفت الظبي الثفور
فخلنا أنها العنن التضير
بخصر فيه من هيف ضمور
فقلت الشوق غادرني أدور
لما أوليت من خير فقير
قضى أن الحدود هي البدور
بأن الدر منبته الثغور
كما تقع الصدى الماء النمير
فأعقبنا من الأنس الثفور
بتوديعي فلا بعد المسير
ولا تسأل فؤادي ما السعير
وأنفاسي يصعدها الزفير
رؤيدكما أنا رام غرير
ويا ميت الوداع متى الثشور؟
فما لي غير لوعاتي سمير
فحق لنا إلى الجد المصير
حدانا للتجاح بها المسير؟

وفي أبياتهم من لست أشكو
كتمت حديثها كرمًا فأضحى
فأنسب بالعقيق وأرض نجد
وأذعو زنبًا وأقول سعدى
ومالي من مراد في سواها
بنفسي يوم رامة إذ رمتني
وريعت فأنثت ترثو حذاراً
وهزت معطفها في اعتدال
وناءت فأنثني ردف رداح
وقالت ما أدراك⁽¹⁾ في حمانا؟
فإما كنت محسنة فإني
فمال بها الهوى فنضت نقاباً
وأبدت نعرها فشهدت قطعاً
وأودعت الحشا مني حديثاً
وخافت أن يطالعنا رقيب
ولما أزمعت بعدي أشارت
فلا تسأل جفوني عن دموع
فبعد البعد دمعني في انجدار
فيا قلبي الصديق ويا جفوني
ويا ليل المشوق ألا صباح
ويا أخوي بالسمرات هبا
قضينا في الفكاهة كل فن
نشدتكما ألم⁽²⁾ نسلك⁽²⁾ سبيلاً

(1) - يوجد في هذا الشطر اضطراب في الوزن ولم اهتمد إلى تصويبه.

(2) - في الأصل: تسلكا. ويكون الوزن مكسورا.

وَقَدْنَاهَا ضَوَامِرَ سَاهِمَاتٍ
 بَرَاهُنَّ الذَّمِيلُ فَلَسْتَ تَدْرِي
 وَجَبْنَاهَا ضَحَاضِحَ مُوحِشَاتٍ
 نَمْرٌ بِهَا مُرُورَ السَّهْمِ قَصْدًا
 وَنَقَطْعُهَا وَجُنْحُ اللَّيْلِ قَرًّا
 كَذَلِكَ دَأْبُنَا حَتَّى حَلَلْنَا
 وَطَالَعْنَا الْأَمِيرُ أَبُو سَعِيدٍ
 وَأَقْبَلْنَا فَقَبَلْنَا يَمِينًا
 وَجَلْنَا فِي جَنَابِ الْعِزِّ نَرَعَى
 وَنَلْنَا كُلَّ مَا شِئْنَاهُ يُسْرًا
 وَأَسْتَدْنَا إِلَى ظِلِّ ظَلِيلٍ
 أَمِنْتُ فَلَمْ أَخْفَ صَرْفَ اللَّيَالِي
 غَدَا فَرَجٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ مَوْلَى
 حَمَى وَأَجَارَ عِزًّا وَاقْتِدَارًا
 كَفَى الْأَزْمَاتِ مِنْ فَرَجِ بْنِ نَصْرِ
 صَفُوحٌ لِلْجِنَاةِ إِذَا أَنْابُوا
 مَتَى جَاذَى عَدُوًّا أَوْ وَلِيًّا
 مِنْ التَّفْرِ الْأَلَى طَلَعُوا شُمُوسًا
 لَنَا مِنْهُمْ هُدَاةٌ أَوْ كُفَاةٌ

ومنها:

إِذَا قُلْنَا الْأَمِيرُ أَبُو سَعِيدٍ
 تَطَاوَلَ مِنْبِرٌ وَسَمَا سَرِيرٌ (1)

(1) — التخریج: مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، وورقات: 354، 355، 356، 357. ويبدو أن هذه القصيدة كانت طويلة غير أن الناسخ اختصرها و اقتصر على هذه الأبيات وذلك ما يدل عليه البيت الأخير.

القصيدة الثالثة: وهي في مدح محمد ابن الأحمر الغالب بالله مؤسس مملكة غرناطة
[الكامل].

بُشْرَاكَ مُلْكٌ مُقْبَلٌ وَسُعُودٌ
وَسَلَامَةٌ يَلْقَاكَ مِنْ تَسْلِيمِهَا
يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي سُلْطَانُهُ
لِلَّهِ مِنْكَ إِذَا الْأُمُورُ تَعَارَضَتْ
وَعَزَائِمٌ تَدْعُ الْقُلُوبَ رَوَاجِفَا
وَمَهَامَةٌ أَجْهَدَتْ خَيْلَكَ عِنْدَهَا
وَمَقَاصِدٌ ضَمِنَ الْإِلَٰهَ نَجَاحَهَا
أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ تَبْتَعِي رَاحَاتِنَا
خُضَّتْ الْخِطَارَ عَلَى الْغِمَارِ مُصَمَّمًا
وَعَدَوْتَ بِالشَّرَفِ الْمُؤْتَلِ مَجْدُهُ
وَوَهَبْتَ نَفْسَكَ فِي أَمَانٍ نُفُوسِنَا
وَإِذَا الْمَلِيكُ وَقَى الْعَبِيدَ بِنَفْسِهِ
تَا لِلَّهِ لَوْ جَاَزَ السَّجُودَ لِغَيْرِهِ
وَلَوْ أَنَّهُ أَرْضَاكَ وَطَأَ خُدُودِنَا
يَا غَالِبًا بِاللَّهِ دَعْوَةَ خَادِمٍ
رَفِقًا بِنَفْسِكَ فَهِيَ أَنْفَسُ جَوْهَرٍ
كَمْ ذَا تَلِينُ عَلَى عَبِيدِكَ رَحْمَةً
وَمِنْ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبِ جَمَّةٌ
لَوْلَا دِفَاعُكَ يَا ابْنَ نَصْرٍ لَمْ يَكُنْ
أَلْفَتْ شَمَلَ الْمُسْلِمِينَ وَطَالَ مَا
وَنَهَضَتْ بِالْأَعْبَاءِ وَهِيَ أَمَانَةٌ
وَرَأَيْتَ خَطْبًا لَا يُطَاقُ فَسُسْتُهُ
لَمْ تَلْتَمِسْ دُنْيَا إِلَيْكَ تَسُوقُهَا

تَأْتِي عَلَيَّ وَفَقِ الْمَنَى وَتَعُودُ
وَجَهَّ أَغْرُ وَطَالَعُ مَسْعُودُ
ظَلُّ عَلَيَّ هَذَا الْوَرَى مَمْدُودُ
فَكَرُّ تَضِيءُ بِهِ الْخَطُوبُ السَّوْدُ
وَتَكَادُ مِنْهُنَّ الْجِبَالُ تَمِيدُ
جَهْدًا فَصَحَّ لَنَا بِهِ التَّمْهِيدُ
فَدَنَا الْمَرَادُ وَأَدْرِكُ الْمَقْصُودُ
مَا بَعْدَ رَفِقِكَ بِالْعَبِيدِ مَزِيدُ
كَالسَّهْمِ يَأْتِي الْقَصْدَ وَهُوَ سَدِيدُ
كَرَمًا عَلَيَّ هَذَا الْوَجُودِ تَجُودُ
مَا بَعْدَ جُودِكَ يَا ابْنَ نَصْرِ جُودُ
فَمَتَى يُوفِيهِ الْجَزَاءَ عَبِيدُ
لَأَتَاكَ مِنْ رُكْعٍ وَسُجُودِ
بُسْطَتْ لِخَيْلِكَ أَعْيُنُ وَخُدُودُ
إِشْفَاقُهُ لِيُخْلُوصَهُ تَوَكِيدُ
إِنَّ الْجَوَاهِرَ حَفْظُهَا مَعْهُودُ
وَيَكُونُ مِنْكَ لِنَفْسِكَ التَّشْدِيدُ
عَبْدٌ يُرَاحُ وَسَيِّدٌ مَجْهُودُ
لِلْأَمْنِ فِي هَذَا الْوَجُودِ وَجُودُ
أَوْدَى بِهِ التَّشْتِيْتُ وَالتَّبْدِيدُ
خَفَّتْ عَلَيْكَ وَإِنَّهَا لَتَرُودُ
حَتَّى أَلَنْتَ الْخَطْبَ وَهُوَ شَدِيدُ
وَسِوَاكَ يَطْلُبُ لِلدُّنَا وَيَزِيدُ

فَتَوَى طَرِيدٌ وَاسْتَقَرَّ شَرِيدٌ
 طَلَعَ الْأَمَانِي عِنْدَهَا مَنْضُودٌ
 وَاخْضَرَ فِي جَنَابَتِهَا الْجَلْمُودُ
 وَالْعَيْشُ وَصَلَّ لَمْ يَشْبَهُ صُدُودُ
 وَدَنَتْ بِكَ الْأَمَالُ وَهِيَ بَعِيدُ
 فَجَلَا دُجَاهَا مِنْ هَذَاكَ وَقُودُ
 وَحَذَاكَ رَأْيِي لِلصَّوَابِ رَشِيدُ
 تُبْدِيهِ مَهْمَا مَا تَشَأْ وَتُعِيدُ
 فَهَذَا لِكَ التَّوْفِيقُ وَالتَّسْدِيدُ
 وَبَيْنُ فِي أَغْرَاضِكَ التَّأْيِيدُ
 وَعَلَا بَعِزَّةٍ مُلْكِهِ التَّوْحِيدُ
 سَيَانٍ مِنْهُمْ سَيِّدٌ وَمَسُودُ
 وَاللَّهُ وَالْأَمْلَاكُ فِيكَ شُهُودُ
 سَاعٍ لِحِفْظِ الْمُسْلِمِينَ مُرِيدُ
 كَعْبُ بْنُ مَامَةَ عِنْدَهُ مَعْدُودُ
 لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الرَّجَالَ أُسُودُ
 فَيُفِيدُ فِي حُكْمِ الْعُلَى وَيُيِيدُ
 كَالسَّيْفِ يُعْطِي الْمَرْ وَهُوَ حَدِيدُ
 وَأَعَزُّ مَنْ طُوِيَتْ إِلَيْهِ الْبِيدُ
 لَعَلِمْتَ أَنَّكَ سَيِّدُ مَوْدُودُ
 لَعَرَفْتَ أَنَّكَ مُرْتَضَى مَحْمُودُ
 أَرْضَاكَ عَقْدُ وَفَائِهَا الْمَشْدُودُ
 وَمَوَاتِنُ مَحْفُوظَةٌ وَعُهُودُ
 أَنْتَ الْمَرَادُ وَمَنْ سِوَاكَ مُرِيدُ
 فَتَحْ لِهَذَا الدِّينِ مِنْكَ جَدِيدُ

مَهَّدْتَ أَقْطَارَ الْجَزِيرَةِ كُلِّهَا
 فَغَدَتْنَا لَنَا أَرْجَاؤُهَا بِكَ جَنَّةٌ
 قَدْ أُيِّنَعَتْ بِالْأَمْنِ رَوْضَاتُ الْمَنَى
 فَالْدَهْرُ طَلَّقَ لَمْ يَشْبَهُ تَجَهَّمُ
 صَلَحَتْ بِكَ الْأَحْوَالُ بَعْدَ فَسَادِهَا
 وَنَظَرْتَ وَ الشُّبُهَاتُ يُظْلِمُ أَفْقَهَا
 فَهَذَاكَ لِلْخَيْرَاتِ سَعْيُ صَالِحُ
 لَكَ نِيَّةٌ حَسَنَةٌ وَعَزْمٌ صَادِقُ
 فَإِذَا نَظَرْتَ الْمَشْكَالَاتِ بِنَظَرَةٍ
 تَبْدُو الْبَشَائِرُ فِي شُؤُونِكَ كُلِّهَا
 يَا وَاحِدًا حَفِظَ الْجَمِيعَ بِرَأْيِهِ
 دَانَتْ لِعِزَّتِكَ الْبَرِيَّةُ كُلِّهَا
 شَهَدُوا حَمِيعًا أَنَّكَ الْمَلِكُ الرِّضَى
 حَانَ عَلَى مُهَجِّ الرِّعَايَا مُشْفِقُ
 سَمَحُ فَلَا الطَّائِي مُحْتَسِبُ وَلَا
 شَهْمُ فَلَوْلَا بَأْسُهُ يَوْمَ الْوَعَى
 غَيْثٌ وَلَيْثٌ لِلْوَلِيِّ وَلِلْعَدِي
 يَحْنُو وَيَقْسُو رَحْمَةً وَبَسَالَةً
 يَا خَيْرَ مَنْ وَسِعَ الْبَرَائِيَا فَضْلُهُ
 لَوْ كُنْتَ تَشْهَدُ بَعْدَ بُعْدِكَ شَوْقَنَا
 أَوْ كُنْتَ تَسْمَعُ حَمْدَنَا وَدُعَاءَنَا
 وَلَوْ اِطَّلَعْتَ عَلَى غُيُوبِ قُلُوبِنَا
 مَا طِيَّهَا إِلَّا وَدَادٌ خَالِصُ
 وَعَلِمْتَ أَنَّكَ لَاخْتِصَابِكُ بِالْهُدَى
 بُشْرَى لِمَقْدَمِكَ السَّعِيدِ فَإِنَّهُ

وَأَنْعَمَ بِعِيدٍ مُقْبَلٍ وَ مُبَشَّرٍ
 وَاعْلَمَ بِأَنَّكَ عِيدُنَا وَعَمِيدُنَا
 وَاهْنَأُ بِمَا حَوَّلْتَ أُمَّةَ أَحْمَدٍ
 وَإِذَا الْمُلُوكُ تَفَاخَرُوا مَا بَيْنَهُمْ
 فَأَبُو سَعِيدٍ لِلسُّعُودِ مُصَاحِبٌ
 فَارْجُ إِذَا نَادَيْتَهُ لَبَّى الْهُدَى
 مَلِكٌ يَفْتَحُ الْإِلَامَ إِنْ أَمَلْتَهُ
 إِجْمَالُهُ بِجَمَالِهِ مُتَّيِّدٌ
 وَشَقِيْقُهُ الْمَلِكُ الْعَلِيُّ مُحَمَّدٌ
 حَازَ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا فَكَأَنَّهُ
 وَ لِيُوسُفَ التَّمَكِينُ وَ الشَّرْفُ الَّذِي
 وَ لَهُ مَآثِرٌ بِأَهْرَاتٍ لَمْ يُحِطْ
 فَبَقُوا مُلُوكًا يَسْتَهْلُ لَدَيْهِمْ
 حَتَّى يَعْيشَ وَ لِيَهُمْ فِي غِبْطَةٍ
 وَإِلَيْكَ أَسْجَاعُ الثَّنَاءِ فَإِنَّمَا
 اهْنَأُ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ بِبَهْجَةٍ
 وَانْعَمَ هَنِئًا فِي ظِلَالِ سَعَادَةٍ

بِسَعَادَةٍ يَأْتِي بِهَا وَ يَعُودُ
 مَا إِنْ لَنَا إِلَّا لِقَاءُكَ عَتِيدُ
 فَتَوَائِبُهُ عِنْدَ الْإِلَهِ عَتِيدُ
 فَبُنُوكَ بَيْنَهُمُ الْمُلُوكُ الصَّيْدُ
 بِوَجُودِهِ إِسْعَادُهَا مَوْجُودُ
 وَسَمَّا لِذِكْرَاهُ الْعُلَى وَالْجُودُ
 فَالْبَابُ لَا غَلَقُ وَلَا مَسْدُودُ
 وَسَخَاؤُهُ بِعَلَائِهِ مَعْضُودُ
 نَعَمُ الْهَمَامُ السَّيِّدُ الصَّنْدِيدُ
 مَا حَازَهَا مِنْ قَبْلِهِ مَوْلُودُ
 يَرْقَى بِهِ نَحْوَ الْعُلَا وَ يَزِيدُ
 بِصِفَاتِهِنَّ الْحَصْرُ وَ التَّعْدِيدُ
 نَصْرُ الْإِلَهِ وَفَتْحُهُ الْمَوْعُودُ
 وَ يَمُوتُ غَمًّا كَاشِحٌ وَ حَسُودُ
 يَشْدُوكَ مِنْ يَ طَائِرٌ غَرِيدُ
 يَبْقَى لَهَا بَعْدَ الزَّمَانِ خُلُودُ
 غَمَرُ الْبَسِيطَةِ سَعِيْهَا الْمَحْمُودُ⁽¹⁾

القصيدة الرابعة: قالها في مدح الأمير أبي سعيد فرج: [الكامل]

هَذَا الْكَثِيبُ وَ تِلْكَ حَوْمَةُ جَنْدَلٍ
 عَرَسَ عَلَى حُكْمِ اقْتِرَاحِكَ وَ انْزَلِ
 فَعَلَى الْحَبِيبِ الْمُرْتَضَى وَ الْمَنْزَلِ
 مَسْتَسْلِمًا فَعَلَّ الشَّحِي الْمْتَذَلِّ
 لِلَّهِ دَرُّ مُتِيْمٍ لَمْ يَجْهَلِ

أَصْبَحْتَ مَحْمُودَ الشُّرَى فَتَأَمَّلِ
 يَا سَارِيًّا بُشْرَاكَ أَدْرَكْتَ الْمَنَى
 أَهْلًا وَ سَهْلًا إِنْ أَنْخَتَ وَ مَرْحَبًا
 هُنَّ الْقِبَابُ اعْطِفْ بِهِنَّ مُسَلِّمًا
 وَاعْرِفْ لِمَنْ بَدَأَ الْهُوَى حَقَّ الْهُوَى

(1) — التخریج: مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، وورقات: 358، 359،

أَفْلَاكَ أَقْمَارِ الْجَمَالِ الْكَمَلِ
يَعْشَى سَنَاهَا نَاطِرَ الْمَتَامَلِ
مُتْرَجِرُجُ الْأَرْدَافِ صِفْرُ الْأَيْطَلِ
جَاءَتْ عَلَيَّ قَدَرٍ فَأَصَمْتُ مَقْتَلِي
مَنْ سَاخِرِ بِي هَازِي مُتَهَزِّلِ
أَوْ قُلْتُ أَشْكُو بُخْلَهُ لَمْ يَجْهَلِ
وَلِي بِخَجَلَةٍ شَاهِدٍ لَمْ يُقْبَلِ
فِي الْحَبِّ أَوْ أَصْعَى لِلْوَمِ الْعُدْلِ
فَارَوْهُ الْهَوَى عَنِّي صَحِيحًا وَاحْمِلِ
يَوْمَ الْكُتَيْبِ وَ يَوْمَ دَارَةِ الْجُلْحَلِ
عِنْدَ الْأَرَاكَةِ فِي الْكُتَيْبِ الْأَهْيَلِ
مَسْتَطْرِدٌ بِتَدَلُّلٍ وَتَدَلُّلِ
وَرَضِيئُهُ حَكَمًا وَإِنْ لَمْ يَعْدِلِ
فَعَسَاكَ تَمْنُحُهَا بِضَمِّ الْأَوَّلِ
إِنَّ الرَّقِيبَ عَلَيْكَ غَيْرُ مُغْفَلِ
فِيحَلِّ حُكْمًا لَمْ يَكُنْ بِمُحَلَّلِ
مَا لِلرَّقِيبِ وَلِلْهَزْبِ الْمَشْبَلِ؟
أَحْسِنِ بِحَقِّي فِي هَوَاكَ وَ أَجْمَلِ
لَوْ غَيْرُ حُبِّكَ أَمْرِي لَمْ أَفْعَلِ
وَأَبَاحَنِي رَشْفَ الرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
وَالْقَلْبُ فِي نَارِ الصَّبَابَةِ يَصْطَلِي
كَفُّ ابْنِ نَصْرِ فِي نَدَاهَا الْمُرْسَلِ
كَرَمًا وَ تُلْفِي الْجَارَ غَيْرَ مَذَلِّ
فَرَجًا يُفْرَجُ كُلَّ خَطْبٍ مُعْضَلِ
جَازَتْ بِهِ فَوْقَ السَّمَاءِ الْأَعَزَلِ

يَا حَبْدًا تِلْكَ الْقِبَابُ فَيَاتُهَا
سَرْحٌ جُفُونِكَ هَلْ تَرَى إِلَّا دَمِي
وَبِمُهْجَتِي مِنْهَا رَيْبٌ أَحُورٌ
أَوْحَى إِلَيَّ بِنَظْرَةٍ مِنْ لَحْظِهِ
مَنْ عَاذِرِي وَ الْأَمْرُ جَدُّ فِي الْهَوَى
إِنْ رَمْتُ أَسْلُو حُبَّهُ لَمْ أَسْتَطِعْ
وَإِذَا الْعَدُولُ سَعَى لِيُفْسِدَ بَيْنَنَا
خَابَتْ مَقَاصِدُ مَنْ أَطَاعَ وَشَانَهُ
يَا سَعْدُ أَنْتَ عَلَيَّ الْغَرَامِ مُسَاعِدِي
وَإِذْ كُرَّ عَشِيَّاتِ الْبَطَاحِ وَعَدَّ عَنْ
لِلَّهِ مَوْقِفٌ مِنْ أَحَبُّ وَمَوْقِفِي
أَدْنُو وَيَعْدُ وَالْهَوَى مَا بَيْنَنَا
نَادَيْتُهُ يَا مَنْ كَلَفْتُ بِحُبِّهِ
إِنِّي جَعَلْتُ جَمَالَ وَجْهَكَ قِبْلَةً
فَأَجَابَنِي خَجَلًا وَقَالَ مُحَدَّرًا
أَخْشَى يَحُلُّ بِنَا وَيَعْلَمُ حَالَنَا
قُلْتُ انْتَظِرْ أَوْ بِالرَّقِيبِ تُخِيفُنِي
أَبْدُو إِلَيَّ الرَّقِيبَاءَ طَرًّا قَالَ لَا
بِحَيَاةِ حُبِّي كَفَّ قُلْتُ لَهُ نَعَمْ
فَنَأَى وَأَوْمَأَ بِالسَّلَامِ مُودِّعًا
أَوْلَى جَمِيلًا ثُمَّ وَلَّى مُعْرِضًا
وَ الْعَيْنُ تُرْسِلُ دَمْعَهَا فَكَأَنَّهَا
فَهَنَّاكَ تُلْفِي الْمَالَ غَيْرَ مُوقِرٍ
فَرَجٌ غَدَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ كَاسِمِهِ
لِأَبِي سَعِيدٍ فِي الْمَكَارِمِ هَبَّةٌ

فَهُوَ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ وَحَسْبُنَا
 فَخْرٌ سَمَا بِنْيَانُهُ وَسَمَا بِهِ
 فِإِلَى عُلَاهُ صَرَفْتُ وَجْهَ عَزِيمَتِي
 أَبْصَرْتُهُ وَالشَّمْسُ فِي إِشْرَاقِهَا
 حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ عِنْدَ غُرُوبِهَا
 مَلِكٌ تَقَسَّمَ فِي الْهِيَاجِ وَفِي النَّدَى
 تَلْقَاهُ يَوْمَ الْحَرْبِ غَيْرَ مُدْرِعٍ
 لَا يَرَهُبُ الْجَيْشَ اللَّهُامَ وَلَا يَرَى
 أَغْنَى وَأَقْتَى مَا يَلِيهِ فَعِنْدَمَا
 وَأَعَدَّ لِلْأَعْدَاءِ أَيْبُضَ صَارِمًا
 يَمِّمُهُ فِي النَّادِي تَنْلُ مَا تَشْتَهِي
 حَازَ الْعُلَى وَحَوَى حُلَى لَمْ أُحْصِهَا
 فَإِذَا تَلَبَّسَتِ الْأُمُورُ رَمَى بِهَا
 وَلَهُ اعْتِرَازٌ فِي الْخُطُوبِ يُمَدِّدُهُ
 فَالْمَاضِيَانِ حُسَامُهُ أَوْ رَأْيُهُ
 إِنْ كُنْتَ تَرْجُو الْفَوْزَ فَاجْعَلْ حُبَّهُ
 أَوْ كُنْتَ تُهْدِي الْحَمْدَ وَهُوَ مَنْظُمٌ
 وَإِذَا نَسَبْتَ لَهُ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا
 يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي فِي ذِكْرِهِ
 بُشْرَى الْمَرِيَّةِ إِذْ غَدَتْ لَكَ حَضْرَةٌ
 أَكْسَبَتْهَا الشَّرْفَ الَّذِي لَا يَنْقُضِي
 فَكَأَنَّمَا أَنْتَ الرَّشِيدُ جَلَالَةٌ
 وَلَا أَهْلُهَا الْبُشْرَى وَعِنْدِي أَنِّي
 يَا يَوْمَ مَقْدَمِكَ السَّعِيدِ عَلَيْهِمْ
 بَرَزُوا إِلَيْكَ يَقُودُهُمْ حَادِي الْمُنَى
 حَسَبٌ تَطَاوَلَ فِي الزَّمَانِ الْأَطْوَلِ
 شَرَفٌ أَنْفَ عَلَى الْكَوَاكِبِ مِنْ عَلِ
 وَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ الْمُلُوكِ مُعَوْلِي
 فَشَكَكْتُ فِي الْأَبْهَى بِهَا وَالْأَحْمَلِ
 سَجَدَتْ لِنُورِ جَبِينِهِ الْمَتَهَلَّلِ
 مَا بَيْنَ ضِرْعَامٍ وَغَيْثِ مُسْبِلِ
 وَتَرَاهُ يَوْمَ السَّلْمِ غَيْرَ مُبْخَلِ
 بَدَلَ اللَّهِى كَرَمًا إِذَا لَمْ يُحْزَلِ
 نَالُوا الْغِنَى أُعْطِيَ لِمَنْ لَمْ يَسْأَلِ
 فَهَدَى بِحَدِّ طِبَاهُ كُلِّ مُضَلَّلِ
 وَحَذَارِ أَنْ تَلْقَاهُ وَ سَطَّ الْجَحْفَلِ
 بِمُفْصَلِ مِنْ وَصَفِهَا أَوْ مُجْمَلِ
 فِكْرًا يُبَيِّنُ كُلَّ أَمْرٍ مُشْكَلِ
 رَأْيِي يُفْتِّحُ كُلَّ بَابٍ مُقْفَلِ
 وَالرَّأْيُ أَقْطَعُ مِنْ غِرَارِ الْمُنْصَلِ
 وَنَاءَهُ كَفَرِيضَةٍ وَتَنْقَلِ
 فِإِلَى ابْنِ نَصْرِ ذِي الْمَقَامِ الْمُعْتَلِي
 فِإِلَى مُعَمِّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخْوَلِ
 فَرَجُّ الْقُلُوبِ وَرَاحَةَ الْمُتَعَلَّلِ
 تَسْمُو عَلَى ذَاتِ الْعِمَادِ وَتَعْتَلِي
 بِالْجَارِ يُعْرِفُ قَدْرُ فَضْلِ الْمَنْزَلِ
 وَكَأَنَّهَا بَعْدَادُ إِنْ لَمْ تَفْضَلِ
 مِنْهُمْ بِوَصْلِ مَوَدَّةٍ لَمْ تُفْصَلِ
 اللَّهُ مِنْ يَوْمٍ أَغْرَ مُحَجَّلِ
 فَالْكُلُّ بَيْنَ مُكْكِيرٍ وَمُهَلَّلِ

فَهُوَ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ وَحَسْبُنَا
 فَخْرٌ سَمَا بِنْيَانُهُ وَسَمَا بِهِ
 فِإِلَى عُلَاهُ صَرَفْتُ وَجْهَ عَزِيمَتِي
 أَبْصَرْتُهُ وَالشَّمْسُ فِي إِشْرَاقِهَا
 حَتَّى رَأَيْتُ الشَّمْسَ عِنْدَ غُرُوبِهَا
 مَلِكٌ تَقَسَّمَ فِي الْهِيَاجِ وَفِي النَّدَى
 تَلْقَاهُ يَوْمَ الْحَرْبِ غَيْرَ مُدْرِعٍ
 لَا يَرَهُبُ الْجَيْشَ اللَّهُامَ وَلَا يَرَى
 أَغْنَى وَأَقْتَى مَا يَلِيهِ فَعِنْدَمَا
 وَأَعَدَّ لِلْأَعْدَاءِ أَيْبُضَ صَارِمًا
 يَمِّمُهُ فِي النَّادِي تَنْلُ مَا تَشْتَهِي
 حَازَ الْعُلَى وَحَوَى حُلَى لَمْ أُحْصِهَا
 فَإِذَا تَلَبَّسَتِ الْأُمُورُ رَمَى بِهَا
 وَلَهُ اعْتِرَازٌ فِي الْخُطُوبِ يُمَدِّدُهُ
 فَالْمَاضِيَانِ حُسَامُهُ أَوْ رَأْيُهُ
 إِنْ كُنْتَ تَرْجُو الْفَوْزَ فَاجْعَلْ حُبَّهُ
 أَوْ كُنْتَ تُهْدِي الْحَمْدَ وَهُوَ مَنْظُمٌ
 وَإِذَا نَسَبْتَ لَهُ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا
 يَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي فِي ذِكْرِهِ
 بُشْرَى الْمَرِيَّةِ إِذْ غَدَتْ لَكَ حَضْرَةٌ
 أَكْسَبَتْهَا الشَّرْفَ الَّذِي لَا يَنْقُضِي
 فَكَأَنَّمَا أَنْتَ الرَّشِيدُ جَلَالَةٌ
 وَلَا أَهْلُهَا الْبُشْرَى وَعِنْدِي أَنِّي
 يَا يَوْمَ مَقْدَمِكَ السَّعِيدِ عَلَيْهِمْ
 بَرَزُوا إِلَيْكَ يَقُودُهُمْ حَادِي الْمُنَى

حُرَّ الحُدُودِ مَوَاطِنًا لِلأَرَجْلِ
 كَفَّ المَلِيكَ المُنْعِمِ المَتَطَوَّلِ
 بَدَلَ الرِّضَى فِعْلَ الجَوَادِ المُفْضِلِ
 مِنْ غِبْطَةٍ وَكَرَامَةٍ وَتَفَضُّلِ
 وَالسَّالِكُونَ عَلَى الطَّرِيقِ الأَمَثَلِ
 حَوْلَ لَدَيْكَ وَأَنْتَ خَيْرُ مُخَوَّلِ
 وَامْنٌ عَلَيْهِمِ بِالرِّضَى وَتَفَضُّلِ
 فِي نَظْمِ دُرٍّ بِالبَيَانِ مُفْصَّلِ
 فِي الشَّعْرِ للشُّعْرَاءِ لَمْ تَتَبَدَّلِ
 وَجَرَيْتُ فِي مَضْمَارِهِمْ لَمْ أَعْدِلِ
 لَكِنَّ عِنْدِي عَفَاةُ المَتَبَدَّلِ
 لَوْلَاكَ لَمْ أَمْدَحْ وَلَمْ أَتَعَزَّلِ
 وَأَطَلْتُ فِي شَأْوِ البَلَاغَةِ مَقُولِي
 مَهْمَا تَقُلُّ مِنْ صَالِحٍ أَوْ تَفْعَلِ
 فِي وَصْفِ فَخْرِكَ بِالبَيَانِ المُنزَلِ
 جُمِعَتْ لَدَيْكَ مَعَ الشَّبَابِ المُقْبَلِ
 رَأْيِ المُسِنَّ وَحِنَاكَ المَتَكَهَّلِ
 وَالفَضْلُ يَأْتِي لِلأَعَزِّ الأَفْضَلِ
 فِي الحَالِ وَالمَاضِي وَفِي المَسْتَقْبَلِ
 هَزَّ المَهْنَدِ فِي يَمِينِ الصَّيْقَلِ
 تَضْرِبُ بِمَشْحُودِ المَضَارِبِ فَيُفْصَلِ
 وَلَدَيْكَ تُحْفَظُ حُرْمَةُ المَتَوَسَّلِ
 مُتَفَيِّئًا فِي ظِلِّ سَعْدِ مُخْضَلِ
 مَلِكِ المَلُوكِ وَخَيْرِ كَلِّ مُؤَمَّلِ
 يَرْمِي بِعِزِّهِ الخُطُوبَ فَتَنْجَلِي

يَضْعُونَ عَنْ مَنْ وَفَرَطٍ مَحَبَّةٍ
 حَتَّى إِذَا مَا اسْتَقْبَلُوكَ وَقَبَّلُوا
 أَوْسَعَتْهُمْ فَضْلَ القَبُولِ وَزِدَّتْهُمْ
 فَهَنَاهُمْ الرَّحْمَنُ مَا أَعْطَاهُمْ
 فَهْمُ الخِيَارِ المُرْتَضُونَ حَقِيقَةً
 وَالكُلُّ مِنَّا بِالحَبَّةِ وَالرِّضَى
 فَارْحَمَ عَيْدِكَ فِي التَّقَرُّبِ وَالنَّوَى
 وَإِيكَهَا بِكَرًّا عَلَيْكَ جَلَوْتُهَا
 أَمْتِكَ يَقْدُمُهَا التَّسْيِبُ شَرِيعَةً
 بِهِمْ اقْتَدَيْتُ تَأَدَّبًا وَنَظْرَفًا
 وَلَقَدْ أَمِيلُ إِلَى المَحَاسِنِ رِقَّةً
 وَاعْلَمْ وَلَا أَمْرٌ عَلَيْكَ بِأَنِّي
 أَنْتَ الذِّي نَوَّرْتَ ذَهْنِي فِطْنَةً
 لَا فَخْرَ لِي إِلَّا بِأَنِّي كَاتِبٌ
 وَاسْمَعْ بِهَا سِوَرًا تَفْصَلُ آيَهَا
 وَهِنَا بِمَلِكِ فِي يَدَيْكَ وَحِكْمَةٍ
 فَغَدَوْتُ فِي شَرِّخِ الشَّبِيهِ حَائِزًا
 فَضْلُ أَتَاكَ مِنَ الإِلَهِ عِنَايَةً
 وَاشْتَدُّ يَدَيْكَ بِخَادِمٍ لَكَ نَاصِحٍ
 وَإِذَا أَرَدْتَ الحَمْدَ غَضًّا هَزَّهُ
 وَاضْرِبْ بِهِ فِي فَصْلِ كُلِّ مَقَالَةٍ
 مَالِي سِوَى مَدْحِي إِلَيْكَ وَ سَيْلَةٍ
 فَبَقِيَتْ رُكْنًا لِلْمَكَارِمِ وَ العُلَا
 وَأَتَتْكَ بُشْرَى الخَيْرِ مِنْ مَوْلَى الوَرَى
 مَنْ صَارَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ مُشَمَّرًا

مَنْ أَنْتَ حَافِظُ عَهْدِهِ وَوَلِيِّهُ
 أَيُّ الْفَضَائِلِ عِنْدَهُ لَمْ تَجْتَمِعْ
 سِرَّ الْإِلَهِ حَمِيعًا بِقُدُومِهِ
 وَوَقَاكُمَا عَيْنَ الزَّمَانِ فَأَنْتُمَا
 هَذَا دُعَائِي مُخْلِصًا حَدَّثَ بِهِ
 وَاللَّهِ أَرْجُو فِي الْقَبُولِ فَإِنَّهُ
 وَعَلَى الْمَقَامِ مِنَ الْعَبِيدِ تَحِيَّةٌ

وَسَلِيلُهُ فِي مَجْدِهِ الْمُتَأْتِلِ
 أَوْ أَيُّمَا شَرَفٍ لَهُ لَمْ يَكْمُلِ
 وَجَزَاهُ عَنَّا بِالثَوَابِ الْأَجْزَلِ
 أَهْلُ الْكَمَالِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ
 عَنْ كُلِّ حَافٍ فِي الْأَنَامِ وَمُنْعِلِ
 مَهْمَا دَعَوْتَاهُ بِصِدْقٍ يَقْبَلِ
 تَسْرِي فِيْزْرِي عَرَفُهَا بِالْمَنْدَلِ⁽¹⁾

القصيدة الخامسة: وهي قصيدة غزلية قال فيها: [الكامل]

أَمِنَ الْغَرَامِ بِرَامَةِ الْأَرَامِ
 دَارُ الْهُوَى مَا دَارَ إِنْسَانٌ بِهَا
 فَإِذَا مَرَرْتَ عَلَى الْخِيَامِ بِرَامَةٍ
 وَبِمُنْحَى الْوَادِي لَدَى سَمْرَاتِهِ
 مَا كُنْتُ أَذْرِي قَبْلَ فَتْكَةِ لَحْظِهِ
 بِدَمِي لَوْحَظَهُ الْمَرِاضِ فَإِنَّهَا
 رَشَاءٌ تَقْتَعُ بِالْدُحَى عَنْ لِمَّةٍ
 جَمَعَتْ مَحَاسِنُهُ عَلَى ضِدِّيهِمَا
 فَكَأَنَّ نُورَ جَبِينِهِ فِي شَعْرِهِ
 وَكَأَنَّهُ غُصْنُ النَّقَا مَهْمَا انْتَشَى
 وَإِذَا تَبَسَّمَ ثَغْرُهُ تَاهَ الْوَرَى
 وَإِذَا يَجُولُ بِنَائِهِ فِي مُهْرَقٍ
 يَجْلُو ظِلَامَ الْمَشْكِلَاتِ بِخَاطِرٍ
 وَيُجِيلُ فِكْرَتَهُ فَيُدْرِكُ كُلَّ مَا
 حَكَمْتَ مَلَاحِظَتُهُ الْقُلُوبَ بِأَسْرِهَا

رُمْتَ السَّلَامَةَ لَاتَ حِينَ مَرَامِ
 إِلَّا انْتَشَى بِصِبَابَةٍ وَعَ غَرَامِ
 فَاتْرُكْ فُوَادَكَ وَارْتَجِلْ بِسَلَامِ
 ظَنِّي يُصِيدُ الْأُسْدَ فِي الْأَجَامِ
 أَنَّ الْغَزَالَ سَطَا عَلَى الضَّرْغَامِ
 فِي قَلْبِي الْمَصْدُورِ رِيشُ سِيَهَامِ
 وَنَضَا اللَّثَامَ فَلَاحَ بَدْرَ تَمَامِ
 فَلَقَ الصَّبَاحَ وَ سُدْفَةَ الْإِظْلَامِ
 صُبْحٌ تَجَلَّى تَحْتَ جُنْحِ ظَلَامِ
 فِي لَيْلٍ عَطْفٍ وَاعْتَدَالِ قَوَامِ
 فِي حُسْنِ لَوْلُو ثَغْرِهِ الْبَسَامِ
 فَدَعِ الرِّيَاضَ لِزَهْرَةِ الْأَقْلَامِ
 مُتَأَلِّئِي بِلَوَائِحِ الْإِلْهَامِ
 أَعَيْتَ مَدَارِكُهُ عَلَى الْأَفْهَامِ
 فَلِذَاكَ مَا نَسَبُوهُ لِلْأَحْكَامِ

(1) — التخریج: مؤلف مجهول، مجموع مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، وورقات: 362، 363، 364،

مَنْ لَمْ يُعَايِنِ حُسْنَهِ وَجَمَالَهُ
 لَاحَ الْجَمَالِ بِخَدِّهِ كَافُورَةً
 لَمَّا انْتَضَى مِنْ مُقَلَّتَيْهِ صَارِمًا
 كَتَبَ الْجَمَالَ بِخَدِّهِ لِمُحِبِّهِ
 فَالْسَّيْنُ مَا أَبَدَتْهُ طُرَّةُ شَعْرِهِ
 فَاقْرَأْ وَسَلِّ بَرًّا وَفِيًّا كَامِلًا
 يَسْمُو وَيَنْمُو هَمَّةً أَوْ أُمَّةً
 فَإِذَا أَرَدْتَ إِمَامَ حُسْنٍ أَوْ عَلًا
 أُمَحَمَّدٌ يَا خَيْرَ مَوْلَى يُرْتَجَى
 يَا شَمْسَ أَنْسِي يَا صَبَاحَ بَشَارَتِي
 يَا مُنْتَهَى أَمَلِي وَغَايَةَ مَطْلَبِي
 هَبْ لِي رِضَاكَ فَإِنَّهُ أَسْنَى الْمَنَى
 وَاَعْطِفْ عَلَيَّ وَلَهِي وَفَرَطِ صَبَابَتِي
 فَأَنَا غَلَامُكَ سَيِّدِي مَهْمَا أَضِفُ
 وَلِعَبْدِكَ الشَّرْفُ الْمُؤْتَلُ وَالْعُلَا
 مُرْنِي فَدَيْتُكَ يَا مُحَمَّدُ أَمْتِثِلْ
 قَدْ ذُقْتُ حُلُوقَ الْحُبِّ فِيكَ وَمُرَّهُ
 وَأَشَدُّ مَا أَلْقَاهُ شَوْقٌ مُنْجِدٌ
 وَحُشَاشَةٌ قَدْ أَصْبَحَتْ مَقْسُومَةً
 فَكَأَنَّ أَنْفَاسِي وَبَيْضَ مَدَامِعِي
 فَمَتَى دَنَا شَوْقِي فَصَبْرِي نَارِخُ
 وَالصَّبْرُ يَدْعُو بِالْفِرَارِ غَنِيمَةً
 وَالْحُسْنَ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ وَالْهُوَى
 وَإِذَا خَصَمْتُكَ فِي الْعَرَامِ فَأَنْتَ لِي

لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَحْيِرُ الْأَوْهَامِ
 وَبَدَا الْعِذَارُ فَكَانَ مِسْكَ حِتَامِ
 حَسَنَ الْعِذَارِ حَمَائِلًا لِحُسَامِ
 (وَاسْأَلْ فِيهَا إِكْرَامُ نَجْلُ كِرَامِ) (1)
 نَسَقًا وَفِي صُدُغَيْهِ عَطْفَةٌ لَامِ
 مُتَقَابِلَ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ
 حَسْبِي بِسَامٍ فِي الْبَرِيَّةِ نَامِ
 فَالْكَلُّ فِيهِ إِمَامٌ كُلُّ إِمَامِ
 رُحْمَاكَ فِي وَصْبِي وَبَرَحِ هِيَامِي
 يَا طَيْبَ عَيْشِي يَا شِفَاءَ سِقَامِي
 يَا أَمْنَ رَوْعِي أَوْ رَوْيَ أَوْامِي
 وَارْحَمْ بَعْزَ الْحُسْنِ ذُلَّ مَقَامِي
 وَوَجُودِ وَجْدِي وَانْعِدَامِ مَنَامِي
 لِعَلَّاكَ حَزْتُ تُعْرِفُ الْأَعْلَامِ
 مَا دُمْتَ تَدْعُوهُ بِلَفْظِ غَلَامِي
 أَمْرِي لَدَيْكَ وَفِي يَدَيْكَ زِمَامِي
 وَحَظِيْتُ مِنْهُ بِغَيْطَةٍ وَسَلَامِ
 وَتَجَلَّدُ قَدْ جَدَّ فِي الْإِثْهَامِ
 مَا بَيْنَ مَاءِ فِي الْهُوَى وَضِرَامِ
 بَرَقٌ تَأَلَّقَ فِي مُتُونِ غَمَامِ
 وَإِذَا ارْتَوَى جَفْنِي فَقَلْبِي ظَامِي
 وَالشَّوْقُ يَبْعَثُنِي عَلَى الْإِقْدَامِ
 عِنْدِي انْتَهَى وَالْعَدْلُ فِي الْأَقْسَامِ
 مَوْلَى وَفِيكَ مَحَبَّتِي وَخِصَامِي

فَاحْكُمْ لِبَنِي وَاحْتَكِمْ فِي قِصَّتِي
 وَأَنْظِرْ فَإِنَّكَ أَعْدَلُ الْحُكَّامِ
 أَحْسِنِ وَأَسِرْ كُلُّومَ قَلْبِ هَائِمِ
 بِقَبُولِ إِخْلَاصٍ وَطِيبِ كَلَامِ
 وَاسْمَعْ صِفَاتِكَ مِنْ مُحِبِّ مُخْلِصِ
 بِأَرْقَ لَفْظٍ فِي أَتَمِّ نِظَامِ
 وَاسْلَمْ جَمَالاً لِلْجَمَالِ وَبَهْجَةً
 وَانْعَمْ بِطِيبِ مَحَبَّتِي وَسَلَامِي⁽¹⁾

الملحق الثاني: ويشتمل على ما تبقى من شعر أبي جعفر أحمد ابن شلبطور.

القصيدة الأولى: قالها في مدح الأمير أبي سعيد فرج، ولد الغالب بالله. [الخب]]

سَفَرَتْ غَرَاءَ عَنِ السَّفَرِ
 وَبُشْرَى عَمَّتْ كُلَّ الْبَشَرِ
 وَمَنْى تَتَطَّلَعُ مُؤَذِّنَةً
 بِالْيُمْنِ وَإِدْرَاكِ الْوَطْرِ
 كَسَتْ الْأَكْنَافَ بِشَارَتِهَا
 شَارَاتٍ مُعْلَمَةِ الطُّرِّ
 وَأَصَابَ الْمَزْنَ رِيَاضَ الْحُزْرِ
 نِ فَعَادَرَهُ مِثْلَ الْعُرِّ
 فَلَقَدْ سَرَّحَتْ عَلَى عَجَبِ
 مِنْ سُنْدِسٍ سَرَّحَتْهَا نَظْرِي
 وَلَقَدْ كُسِيتُ مِنْ تَحْتِ حَلِي
 حُلَاً حُلَيْتُ وَشَيْيَ الْحَبْرِ
 وَصَبَاً تَخْتَالُ خَلَالَ رَبِي
 قَدْ دَبَّجَهَا صَوْبُ الْمَطْرِ
 كَمَنْتُ تُبْدِي رَهْباً حَتَّى
 نَفَثْتُ بِالسَّحْرِ مَعَ السَّحْرِ
 وَتَنَّتْ أَفْنَانَ مُكَلَّلَةً
 تُرْهِى بِأَفَانِينَ الزَّهْرِ
 أَحَذْتُ لِقْدُومِكَ زُخْرُفَهَا
 مِنْ مُنْتَظِمٍ أَوْ مُنْتَشِرِ
 فَلَوْ فِدَاكَ تَحْتَفِلُ الدُّنْيَا
 نَاهِيكَ بِوَآكِفَةِ الدُّرِّ
 مَلِكُ إِنْ حَلَّ حِمَى أَرْضِ
 خُصِّتْ بِمَزَايَاهُ الْأَثْرِ
 فَالِرِّيَاهُ وَمُحَيَّاهُ
 مَا رَاقَكَ مِنْ حَسَنِ عَطْرِ
 وَلِذِكْرَاهُ صَبِيْتُ أَمْسَى
 مَيْدَانَ أَحَادِيثِ السَّمْرِ
 فَمَزْنُ الْوَدْقِ بِهَا بَائِتُ
 يَصِلُ الْآصَالَ مَعَ الْبُكْرِ
 هَدِجاً لَهْجاً يَتَفَنَّيْ فِي
 أَعْلَى فَنَنْ حَضِلٍ خَضِرِ

(1) —. التخریج: مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم: 3835، ورقات: 366، 367،

مَنْ أَعْوَزَهُ فَرَجٌ فَرَجًا
 وَأَفَى فَكَأَنَّ وَفَادَتَهُ
 قَدْ بَانَ الرَّشْدُ لِمُلْتَمِحٍ
 وَتَبَدَّى الْحَقُّ لِمُرْتَقِبٍ
 إِنَّ بَاتَ الدِّينُ عَلَى حَذَرٍ
 وَسِيرَمَى الرُّومِ بِدَاهِيَةٍ
 فَبِعِزِّ مُلُوكِ بَنِي نَصْرٍ
 وَاعْتِزَّ بِسَطْوَةِ مُتَّصِفٍ
 طَلَبُوا الْعَلِيَاءَ مُنَافَسَةً
 فَإِذَا اقْتَصَدُوا وَإِذَا اعْتَمَدُوا
 فَاقْفُوا هِمَمًا رَاقِفًا شِيمًا
 أَيَدٍ تَنْهَلُ نَدَى وَرَدَى
 فَيَفِيدُ الْبَأْسَ وَيُتْلِفُهُ
 مَنْ دَانَ بِيَذَلِ الْفَضْلِ غَدَا
 عَرَضَتْ حَاجَاتُ... (1)

فَأَرَانِي الدَّهْرُ بِحَضْرَتِهِ
 وَعَبَّرْتُ الْآلَ لِآلِ نَدَى
 لَمْ أَدْرِ أَسِرْتُ إِلَى لَيْثٍ
 بَأْسٌ يُفْنِي وَنَدَى يُعْنِي
 فِي خَلْقَتِهِ وَخَلِيقَتِهِ
 أَعْطَى وَسَطًا وَحَمَى وَهَمَى
 بَطْشٌ فِي لَيْنٍ تُقَى كُنُفُو
 وَوَقَارُ الْأَحْنَفِ فِي بَأْسِ الْيَاسِ

فَرَجًا قَدْ أَيَقَنَ بِالظَّفَرِ
 كَانَتْ وَ الْيَمْنَ عَلَى قَدَرٍ
 وَأَمْتَاَزَ الصَّفْوُ مِنَ الْكَدَرِ
 وَتَجَلَّى الثُّورُ لِمُنْتَظِرِ
 سَيَّبَتُ الْكُفْرُ عَلَى غَرَرٍ
 فَتَحَلُّ بِهَمِّ إِحْدَى الْكُبَرِ
 أَمِنَ الْإِيمَانَ مِنَ الْغَيْرِ
 لِلَّهِ وَسَوْرَةَ مُتَّصِرِ
 فَفَدُوا بِالْأَنْفُسِ وَالْبَدْرِ
 أَحْذَرُ فِي الْأَمْنِ وَ فِي الْحَذَرِ
 تَتَرَفَّقُ كَالْعَذْبِ الْخَصِرِ
 وَكَفَتْ وَكَفَتْ عَدْوَى الضَّرِّ
 كَرَمٌ لَمْ يُيَقِ وَلَمْ يَدْرِ
 بِاسْتِعْبَادِ الْأَحْرَارِ حَرِي
 حَجِّي لِعُلَاهُ وَ مُعْتَمَرِي
 شَتَّى الْآيَاتِ لِمُعْتَبِرِ
 فَرَأَيْتُ أَفَانِينَ الْعَبْرِ
 أِ إِلَى غَيْثٍ أِ إِلَى قَمَرٍ؟
 وَسَنَى يُعْشِي نُورَ الْبَصْرِ
 شُعْلٌ لِلْأَعْيُنِ وَ الْفِكْرِ
 فَجَلَا فِي الْوَرْدِ وَ فِي الصَّدْرِ
 ذِ اللَّهْذَمِ لَيْنِ السَّمْرِ (2)

كَنَدَرِ فِي عِلْمِ الْخَضِرِ

(1) — كلمة غير واضحة في الأصل .

(2) — الهذام : السيف القاطع الحاد.

لَوْ حَاوَلَ حَصَرَ مَاثِرِهِ سَحْبَانُ تَلَعَّمَتْ عَيْنَ حَصَرِ
 إِنَّ شَدَّ أَبْوَهُ بِهِ أَزْرًا وَكَلَّ التَّدْيِيرَ إِلَى وَزِرِ
 يُصْمِي أَغْرَاضَ إِشَارَتِهِ كَمَرُوقِ السَّهْمِ عَنِ الْوَتْرِ
 تَمْضِي فِي الْأَزْمَةِ عَزْمَتُهُ كَمَضَاءِ طُبَا الْعَضْبِ الذَّكْرِ
 عَزَمَاتٌ لَا يَتَقَلَّدُهَا إِلَّا شَيْلُ اللَّيْثِ الْهَيْصَرِ
 إِنَّ شِعَاعَ حَدِيثِ عُلَاهُ فَقَدْ أَغْنَانَا الْعَيْنُ عَنِ الْأَثْرِ
 لَمْ تَأَلُ بِهِ الذِّكْرَى تَثْرَى بِيَدَائِعِ آيِ كَالسُّورِ
 فَرَوَيْنَاهَا وَرَأَيْنَاهَا فَأَنَافَ الْخَبْرُ عَلَيَّ الْخَبْرِ
 فَلَيْلِي الدَّهْرُ بِدَوْلَتِهِ لَيْسَتْ كَلَيْالِيهِ الْأَخْرِ
 فَسَبَّغِي سِيرَتَهُ الْمُثَلَى تَسْرِي مَثَلًا بَيْنَ السَّيْرِ
 كُنْ فِي سِعَةٍ مِنْ أَرْبَعَةٍ شَرَفٍ تَرَفٍ مُلْكٍ عُمَرِ (1)

القصيدة الثانية: وهي أيضاً في مدح الأمير أبي سعيد فرج: [البسيط]

قَدْ رَقَّتِ الْوُرُقُ فِي فُضْبِ الرِّيَاحِينَ فَانَسَّتْهُ بِتَرْجِيْعٍ وَتَلْحِينِ
 وَاسْتَقْبَلَتْهُ نُعُورُ الزَّهْرِ ضَاحِكَةً فَاهْتَرَّتْ زَهْوًا بِأَزْهَارِ الْبَسَاتِينِ
 طَوْرًا يَقْرَأُ عِتْدَالًا مُشْبِهًا أَلْفًا وَتَارَةً يَنْتَنِي كَعُطْفَةِ النَّوْنِ
 وَأَنْشَقَّتْهُ الصَّبَا لَمَّا رَأَتْهُ صَبَا عَرَفَا يُقْصِرُ عَنْهُ مِسْكُ دَارِيْنِ
 وَالْوَرْدُ يَخْتَالُ فِي أَبْرَادِ سُنْدُسِيهِ وَالزَّهْرُ مَا بَيْنَ مَنْضُودٍ وَمَوْضُونِ
 فَبَاحَ مِنْ عَجَبٍ بَلْ صَاحَ مِنْ طَرْبٍ مَالِي وَلِلرَّوْضِ يَسِينِي وَيُصْبِنِي
 يَا صَاحَ لَا صَحْوَ بَعْدَ الْيَوْمِ يَصْحَبُنِي قُمْ فَاسْتَقْنِيهَا بُنْيَاتِ الزَّرَاجِينِ
 هَاتِ الْمُدَامَ نَدِيمِي مِنْ مُعْتَقَةٍ كَالْمِسْكِ كَالْتَّبْرِ فِي طِيبٍ وَتَلْوِينِ
 صَفْرَاءَ رَقَّتْ فَلَا أَدْرِي أَمْ أَنْحَلَهَا فَقَدْ الدَّنَانِ أَمْ التَّحْرِيمِ فِي الدِّينِ؟
 كَأَنَّمَا وَصَفُهَا إِنْ رُمْتَهُ صِفَةً نَارٌ وَنُورٌ فَتُصَلِّينِي وَتُسَلِّينِي
 تَوَقَّدَتْ فِي نَوَاحِي كَأَسْهَاءِ قَبَسًا يُضِيءُ لِي كُلَّ مَا حَوْلِي فَيَهْدِينِي

(1) — التخريج: مؤلف مجهول ، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم: 3835، وورقات: 369—370

حَامَتْ عَلَيَّ حُمَيَّا الكَاسِ تَحْمِينِي
 يُمَيِّتِي فِي الهَوَى طَوْرًا وَ يُحْيِينِي
 كَأَنَّهُ مِنْ مُدَامِ اللِّحْظِ يَسْتَقِينِي
 تُدَارُ مَا بَيْنَ فَتَانٍ وَ مَفْتُونٍ
 شَوْقًا إِلَيْهِ وَ أَحْيَانًا يُفَدِّينِي
 وَلَوْ تَهَوَّرَ لَمْ أَنَبِسْ مِنَ الهُونِ
 إِلَّا الَّذِي جَاءَهُ فِي زِيِّ مُسْكِينِ
 وَخَلْيَانِي فَمَا شَيْءٌ يُسَلِّينِي
 فَإِنِّي تَعَبَ الأَشْجَانِ يَهْنِينِي
 مَوْلَى وَلَوْ شَاءَ قَتَلِي كَانَ يُرْضِينِي
 بَاتَتْ لَهَا أَنجُمُ الظُّلَمَاءِ تَبْكِينِي
 سَكَنتَهَا وَإِنْ كَانَتْ لَتُرْدِينِي
 فَلَمْ أَجِدْ مُلْجَأً مِنْهِنَّ يُبْرِينِي
 سَيْفُ الأَمِيرِ ابْنِ نَصْرِ فِي المِيَادِينِ
 أَبُو سَعِيدٍ نَظَامِ المُلُوكِ وَ الدِّينِ
 فَخْرُ الإِمَارَةِ زَيْنُ السَّلَاطِينِ
 حَازَتْ لَهُ السَّبْقَ بَيْنَ الكَافِ وَ التَّوْنِ
 حَبْرٌ إِذَا طَلَّبُوا عِلْمَ الدَّوَاوِينِ
 طَيِّبًا وَصَوْرَ كُلِّ النَّاسِ مِنْ طِينِ
 تَبَّتْ عَلَيَّ أَمَلٍ مَا عِشْتَ مَضْمُونِ
 يُسِرُّ المَقْلَّ وَ سَلَوَى كُلَّ مَحْزُونِ
 عَنْ حَصْرِهِنَّ بِتَقْدِيرٍ وَ تَحْيِينِ
 فَسَدَّ مِنْهُ بِتَشْيِيدٍ وَ تَحْصِينِ
 فَضْلًا وَفَكَ احْتِسَابًا كُلَّ مَرْهُونِ
 بِأَسِ الوَصِيِّ عَلَيَّ يَوْمَ صَفِينِ

وَكَلَّمَا جَاشَ جَيْشُ الهَمِّ فِي خَلْدِي
 يُدِيرُهَا أَوْطَفُ الأَلْحَاطِ سَاحِرُهَا
 إِذَا رَمَانِي بِطَرْفٍ مِنْهُ أُسْكِرْنِي
 لَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْ كَاسٍ مُشْعَشَعَةٍ
 حِينًا أُفَدِّيهِ بِالنَّفْسِ التِّي ذَهَبَتْ
 وَ لَوْ جَفَانِي لِمَ أَتْرُكُ مَبْرَتَهُ
 عَزَّ الجَمَالُ فَلَمْ يَمْلِكْ مَقَادَتَهُ
 يَا لَأَيْمِي اسْأَلُوا عَنْهُ بِعَيْشِكُمْ
 هُنْتُمَا رَاحَةَ السَّلْوَانِ فَكَتَفِيَا
 وَكَيْفَ اسْأَلُو حَبِيبًا قَدْ رَضِيَتْ بِهِ
 كَمْ عَبْرَةٍ لِي كَالعَفِيقِ مُرْسَلَةٍ
 وَزَفْرَةٍ بَيْنَ أَضْلَاعِي لَهَا لَهَبٌ
 وَبَرَحُ شَوْقٍ بَرَتْ قَلْبِي لَوَاعِجُهُ
 حَتَّى تَخَيَّلْتُ أَنَّ الشُّوقَ فِي خَلْدِي
 قَدْ أَسْعَدَ اللهُ دَهْرًا سَاسَ أُمَّتَهُ
 مَا زِينَةُ الدِّينِ وَ الدُّنْيَا سِوَى فَرَجِ
 خَلْقِ جَمِيلٍ وَ أَخْلَاقٍ مُقَدَّسَةٍ
 لَيْثٌ إِذَا رَهَبُوا غَيْثٌ إِذَا رَغِبُوا
 فَاقَ الوَرَى فَكَأَنَّ اللهُ صَوْرَهُ
 أُمَّ ابْنِ نَصْرِ وَ أَمَلٌ فَضْلٌ نَائِلُهُ
 وَادَّكَّرُهُ فِي كُلِّ حَالٍ إِنَّ ذِكْرَهُ
 هُوَ الأَمِيرُ الَّذِي جَلَّتْ فَضَائِلُهُ
 سَلِيلٌ مَنْ أَبْصَرَ الإِسْلَامَ مُثْمَلِمًا
 وَابْنُ الَّذِي أَعْتَقَ الأَقْوَامَ كُلَّهُمْ
 لَيْثٌ إِذَا كَرَّ فِي الهَيْجَاءِ أَذْكَرْنَا

إِلَّا بِنَصْرِ وَتَأْيِيدٍ وَتَمَكِينٍ
 إِلَّا وَعَادَ بِتَسْكِينٍ وَتَهْدِينٍ
 وَبَدَّلُوا شِدَّةَ الْأَيَّامِ بِاللَّيْنِ
 مِنْ التَّبَاعَةِ الشُّمِّ الْعَرَانِينَ
 فَلَمْ يَرَوْحُوا إِلَى بَيْعَاتِ مَعْبُونٍ
 وَالتَّابِعُونَ هُدَى خَيْرِ النَّبِيِّينَ
 مِحْرَابِ بِالذِّكْرِ رَتَاتِ الرَّهَائِينَ
 فَاتْلُ الْكِتَابَ بِتَرْتِيبٍ وَتَبْيِينِ
 بَيْنَ اهْتِبَالٍ وَأَفْضَالٍ وَتَأْمِينِ
 فَأَشْرَقَتْ فِي لَيْالِي دَهْرِنَا الْجُونِ
 عَرِضُ مَصُونٍ وَمَالٌ غَيْرُ مَخْزُونِ
 بَأَنَّ أَوْصَافَ ذَاكَ الْبَحْرِ تُعِينِنِي
 أَحَدْتُهُ عَنْ عُلَاهُ أَخَذَ تَلْقِينِ
 أَتْبَتْهَا بَيْنَ مَثُورٍ وَمَوْزُونِ
 نَفْسِي لَمَا كَانَ بَدَلُ النَّفْسِ يَكْفِينِي
 وَلَا اسْتَقَلَّ بِأَوْصَافِ الْعُلَا دُونِي
 فُلُكُ بَدْرٍ مِنَ الْأَفْلَاكِ مَشْحُونِ
 بِلَوْلُؤٍ مِنْ نَفِيسِ الْحَمْدِ مَكْنُونِ
 بِهِ اللَّيَالِي فَمِنْ حِينٍ إِلَى حِينِ
 مِنْ شَمِّ رَاحَتِكَ الْعَلِيَاءِ يُدْنِينِي
 كِلَاهُمَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِي فَيُعِينِنِي
 وَلَا انْتَهَيْتُ إِلَى الصَّهْبَاءِ تُعْوِينِي
 إِلَى تَنَائِكَ فِي أَثْنَاءِ تَضْمِينِ
 وَوَجْهَكَ الطَّلُقُ بِالْحُسْنَى يُرَجِّئِنِي
 نَصْرًا وَ يُسْرًا عَطَاءً غَيْرَ مَمْنُونِ

بِاللَّهِ مَا خَفَقَتْ فِي الْجَوِّ رَأْيَتُهُ
 وَلَا تَحَرَّكَ فِي جَيْشٍ لَهُ لَجْبُ
 كَقَوْمِهِ الزَّهْرِ هُمْ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا
 مِنْ الْيَمَانِينَ مِنْ قَحْطَانَ مَنْ سَبَا
 مِنْ الْأُلَى بَايَعُوا الْإِسْلَامَ نُصْرَتُهُ
 الْمَوْتُرُونَ نَدَى وَالسَّابِقُونَ مَدَى
 لَهُمْ لَدَى الْحَرْبِ صَوْلَاتُ الْأُسُودِ وَفِي الْـ
 إِنْ شِئْتَ تَسْمَعُ فِي الْقُرْآنِ وَصَفَهُمْ
 وَحَسْبُنَا أَنْتَا فِي عِزِّ دَوْلَتِهِ
 وَقَدْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
 وَحَصَّحَصَ الْحَقُّ عَنْ مَلِكٍ شَمَائِلُهُ
 أَنْبِي عَلَيْهِ وَإِنِّي بَعْدُ مُعْتَرِفٌ
 أَحَلُّ وَكُلُّ الَّذِي أَنْبِي عَلَيْهِ بِهِ
 أَمَلْتُ عَلَيَّ عُلاَهُ كُلُّ مَكْرَمَةٍ
 مَوْلَايَ مَدْحِكَ لَوْ أَنِّي بَدَلْتُ لَهُ
 مَا ضَمَّ غَيْرُكَ أَشْتَاتِ الْعُلَا أَحَدٌ
 هَذِي الْمَحَامِدُ مُذْ حَمَلْتُهُنَّ عَلَيَّ
 يَخْوَضُ بَحْرَ نَدَاكَ الْعَذْبِ مُرْتَمِيًّا
 وَلِي اشْتِيَاقٌ إِلَى عَلِيَاكَ تَمَطِّلِنِي
 وَاللَّهِ أَدْعُو وَ أَرْجُو فِي اللَّقَاءِ عَسَى
 وَأَسْأَلُ الصَّفْحَ فِي كَأْسٍ وَفِي رَشَا
 فَلَا وَ حَقِّكَ مَا قَادَ الْهَوَى رَسْنِي
 لَكِنَّهُ أَدَبٌ أَجْرِيَّتُهُ سَبَبًا
 وَخُلُقُكَ السَّمْحُ بِالْإِرْضَاءِ يُطْمَعِنِي
 أَعْطَاكَ رَبُّكَ تَمْلِيكًا وَ أَصْحَبَهُ

وَاسْتَقْبَلْتِكَ الْمَعَانِي بِالْهَنَا أَبَدًا فِي طَالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ الْمِيَامِينِ⁽¹⁾
ولأبي جعفر ابن شلبطور بيتان ذكرهما له الصفدي صاحب الوافي بالوفيات قال
فيهما: [البيسط]

مملعب الحي من أكناف ييرين مصارع لم تكن في حرب صفين⁽²⁾
تؤتي المنى سؤلها فيه فتسهده فيثني بين مسلوب ومطعون⁽³⁾

الملحق الثالث: يضم قصائد جديدة لأبي الطيب الرندي .

القصيدة الأولى: جاء في تقديمها "وقال يهنئ بعيد كبير، ويمدح الرئيس أبا الحسن ابن

الرئيس الجليل أبي جعفر ابن نصر رحمهم الله": [الكامل]

عِيدٌ كَبِيرٌ غَيْرَ أَنَّكَ أَكْبَرُ وَحَيًّا وَلَكِنْ جَوْدُ كَفِّكَ أَكْثَرُ!
حَسَدَ الزَّمَانُ نَدَاكَ فِي تَسْكَابِهِ وَلِذَلِكَ مَا سَكَبَ الْغَمَامُ الْمَطْرُ
وَتَوَارَتِ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ حَجَلَةً مِنْ غُرَّةٍ مَيْمُونَةٍ هِيَ أَنْوَرُ
لَا حَتَّ عَلَيْهَا بِالرِّيَاسَةِ آيَةٌ يُطَوِّى لَهَا ذِكْرُ الْمُلُوكِ وَ يُنْشَرُ
نَصْرِيَّةُ اللَّمَحَاتِ إِلَّا أَنَّهَا أَبْهَى مِنَ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ وَأَبْهَرُ
سِمَةُ الْأَلَى حَازُوا الْمَكَارِمَ وَالْعُلَا وَزَكَتْ أَوَاصِرُهُمْ وَطَابَ الْعُنْصُرُ
مِنْ مَعْشَرٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ الْمُصْطَفَى نَعْمَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى وَالْمَعْشَرُ
أَبْنَاءُ قَبِيلَةٍ لَا يُجَارَى مَجْدُهُمْ نَعْمَ النَّبِيِّ وَالْمَنْبَرُ
قَوْمٌ لَهُمْ طِيبُ الْحَيَاةِ بِطَيِّبَةٍ هُمْ مَزَقُوا كِسْرَى وَلَوْ لَا دَعْوَةٌ
سَلُّ تَبْعًا عَنْ بَأْسِهِمْ وَنَدَاهُمْ سَبَقَتْ لِقَيْصَرَ كَمْ يَفْتُهُمْ قَيْصَرُ
إِنَّ النَّدَى وَالْبَأْسَ نَعْمَ الْمَفْخَرُ

(1) — التخریج: مؤلف مجهول، مجموع مخطوط في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، الرباط، رقم: 3835، وورقات: 372، 373، 374، 375 .

(2) — صفين: موضع بالعراق معروف على الفرات، ويقال فيه أيضا صفون، وهي صحراء ذات كدي وأكمت، وبها كانت الواقعة العظيمة بين علي ومعاوية، وأهل العراق وأهل الشام، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة 37 هـ . ينظر: الحميري: الروض المعطار ص: 363 .

(3) — التخریج: صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، اعتناء: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، ج 7، ص: 91، ترجمة رقم: 721 .

يَا بَنَ الرِّيَاسَةِ وَالرِّيَاسَةِ هَالَةً
عَجَبًا لِسَيْفِكَ فِي يَمِينِكَ يَلْتَطِي
عَجَبًا لِطَرْفِكَ لَا يَطِيشُ وَنَارُهُ
قَدْ عَادَكَ الْعِيدُ السَّعِيدُ مُهَنَّأً
وَارْقُبْ بَشَائِرَ يُرْتَجَى إِقْبَالُهَا
وَاهنأُ بِهِ نَظْمًا تُرَانُ بِهِ الْعُلَا
دَارَتْ عَلَيْكَ وَأَنْتَ بَدْرٌ مُنِيرٌ
نَارًا وَأَنْتَى وَالْأَنْامِلُ أَبْحُرُ
مِنْ هَيْبَةٍ وَعَلَيْهِ مِنْكَ غَضَنْفَرُ
فَأَنْعَمَ بِهِ عِيدًا بِمِثْلِكَ يَفْخَرُ
إِنَّ الْجَرِيرَةَ بَابُنَ نَصْرٍ تُنْصَرُ
إِنَّ النِّظَامَ بِهِ يُزَانُ الْجَوْهَرُ⁽¹⁾

القصيدة الثانية جاء في تقديمها "ومن قصيدة له رحمه الله يمدح بها الوزبر الجليل

أبا محمد عبد الرحمن بن الحكيم رحمه الله " : [الخفيف]

يَا حُدَاةَ الْمَطِيِّ بِاللَّهِ إِلَّا
حَمَلُوا أَنْفُسًا وَخَلَّوْا جُسُومًا
يَا أَهْيَلِ الْعَذِيبِ هَلَّا ذَكَرْتُمْ
لَكُمْ بِالْفُؤَادِ سِرٌّ مَصُونٌ
بِأَبِي مَنْ وَدَعْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ
نَاطِرًا مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ إِلَيْهِ
لَيْتَ هَزَلَ الْعَرَامِ مَا عَادَ جَدًّا
وَقُدُودًا لِلْبَيْضِ لَمْ تَكُ سُمْرًا
آهٍ مِنْ لَوْعَةٍ بِقَلْبٍ قَرِيحٍ
وَمَعَانٍ مِنَ الْأَمَانِيِّ تُعَانِي
مَنْ إِذَا مَا سَتَرْتُهُ كَانَ شَمْسًا
حَلَّ فِي السَّرِّ مِنْ دُؤَابَةٍ لَخْمٍ
فَعَلَى هَامَةِ الْعُلَا مِنْهُ تَاجٌ
قُلْ لِمَاءِ السَّمَاءِ إِنْ كَانَ طَلًّا
أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي جَلَّ قَدْرًا
خَبَّرُونَا بِالرَّكْبِ أَيْنَ اسْتَقَلَّا؟
تَرْتَمِي لَوْعَةً لَهُمْ لَوْ تُخَلَّى
بِالْهُوَى عَهْدُهُ الْقَدِيمَ وَهَلَّا
لَيْسَ يُبْلَى إِذَا السَّرَائِرُ تُبْلَى
وَاهِبًا مِنْ دَمِي لَهُ مَا اسْتَحَلَّا
أَذْرَفَ الدَّمْعَ وَالْجَوَانِحَ نُصَلَّا
وَكَلَامَ الْفِرَاقِ مَا صَارَ فِعْلًا
وَلِحَاطًا لِلْغَيْدِ لَمْ تَكُ نَبْلًا
كَأَدَّ يَفْنَى لَوْلَا عَسَى وَلَعَلَّا
بِمَعَالٍ مِنَ الْوَزِيرِ الْمُعَلَّى
وَإِذَا مَا اعْتَمَدْتُهُ كَانَ ظِلًّا
شَرَفًا مَا انْتَهَى السُّهُى حَيْثُ حَلَّا
وَيَكْفُ الْفَخَارَ سَيْفٌ مُحَلَّى
جُودُهُ أَوْلَا فَقَدْ عَادَ وَبَلَّا
فَإِذَا مَا وَصَفْتُهُ كَانَ أَجَلَى

(1) — التخریج: المنظوم والمنثور، مخطوط في خزنة خاصة في المغرب، ورقة: 59، ط، 60 و.

هَذِهِ مِدْحَتِي لِمَجْدِكَ تَتْلُو مِدْحًا لَمْ تَزَلْ بِنَادِيكَ تُتْلَى (1)

القصيدة الثالثة: وهي في مدح الأمير محمد بن الأحمر الملقب بالفقيه. [المديد]

كَذَبَ الْوَأَشِي الَّذِي نَقَلَا	أَنَّ قَلْبِي عَنْكُمْ انْتَقَلَا
وَادَّعَى فِي حُبِّ غَيْرِكُمْ	لَا وَحَقَّ الْحَبِّ مَا فَعَلَا
كَيْفَ وَالْإِحْسَانَ يَمْنَعُهُ	أَنْ يَرَى مِنْ حُسْنِكُمْ بَدَلَا
أَنْتُمْ وَاللَّهِ فِي خَلْدِي	حَيْثُ مَا وَجَّهْتُ مُرْتَجِلَا
كَانَ بُعْدِي عَنْكُمْ قَدْرًا	لَمْ يَكُنْ صَدًّا وَلَا مَلَلَا
فَقِفُوا عَنِّي بِرَبِّعِكُمْ	وَاذْكُرُوا أَيَّامَنَا الْأَوْلَا
فَلَكُمْ بِنْتًا يُضِيءُ بِنَا	مِنْ ظَلَامِ اللَّيْلِ مَا انْسَدَلَا
وَنَعِمْنَا بِالْمَنَى زَمَنًا	وَرَقِيبُ الدَّهْرِ قَدْ غَفَلَا
أَيْنَ ذَاكَ الْعَيْشُ يَا حَرْبَا	أَيُّ عَيْشٍ كَانَ لَوْ كَمَلَا
وَرَشَا كَالْبَدْرِ مُطْلِعَا	وَقَضِيبُ الْبَانِ مُعْتَدِلَا
أَنْكَرْتَ عَيْنَاهُ سَفْكَ دَمِي	وَبَدَا فِي خَدِّهِ خَجَلَا
صَدَّ عَنِّي بَعْدَ وَصَلْتِهِ	لَيْتَهُ إِذْ صَدَّ مَا وَصَلَا
قَاتَلَ اللَّهُ الْفِرَاقَ فَكَمْ	مِنْ مُحِبٍّ فِي الْهَوَى قَتَلَا
رَحَلَ الْمُحِبُّوبُ وَاسْفَا	وَبَقِيَتْ أُنْدُبُ الطَّلَلَا
كَانَ لِي مِنْ وَجْهِهِ قَمَرٌ	أَفَلَا أَبْكِي وَقَدْ أَفَلَا؟
لَيْتَ قَاضِي الْحُبِّ حِينَ قَضَى	كَمَلِ الْمَشْتَاقَ مَا احْتَمَلَا
رَبِّ خُذْ لِي الْحَقَّ مِنْ زَمَنِ	جَارَ فِي حُبِّي وَمَا عَدَلَا
أَيُّهَا اللُّوَامُ وَيَحْكُمُ	لَسْتُ مِمَّنْ يَقْبَلُ الْعَدَلَا
أَتْرُكُونِي لَا أَبَا لَكُمْ	قَدْ تَرَكْتُ اللَّهْوَ وَالْعَدَلَا
وَدَعُونِي مِنْ عِتَابِكُمْ	كُلُّ شَيْءٍ بَالِغٌ أَجَلَا
لَا تَقُولُوا الْمَعْلُوتُ مَضَتْ	وَزَمَانُ الْمَكْرُمَاتُ خَلَا

(1) — التخریج: المنظوم والمشور مخطوط في خزانة خاصة في المغرب ورقة: 62، ط، 63، و.

فَأَبُو عَبْدِ إِلَهِ لَهُ
إِنَّهُ وَاللَّهِ يَكْلُؤُهُ
كَفَّهُ بِالْجُودِ وَكَفَّهُ
تَبْلُغُ السُّؤَالَ الْعُقَاةُ بِهَا
سَيِّدُ مَا مِثْلُهُ أَحَدٌ
فَاضِلٌ بِالطَّبَعِ مُحْتَمِلٌ
فَعَلَ الْفِعْلَ الَّذِي عَجَزَتْ
وَجَلَا الْخَطْبَ الَّذِي وَجَلَتْ
يَزَعُ الْأَسَادُ مُعْضَبَةً
وَيُرِيكَ الْمَوْتَ يَحْمِلُهُ
فَتَرَى الْأَبْطَالَ بَاهِتَةً
يَا فَتَى الْحُسْنِ تَحْسِبُهُ
يَنْتَضِي السُّلْطَانَ عَزَمَتُهُ
وَيَقِي أَكْنَافَ دَوْلَتِهِ
كَمْ رَأَيْنَاهُ بِحَضْرَتِهِ
وَنَظَرْنَا حُسْنَ عُرَّتِهِ
وَبَلَوْنَا جُودَ رَاحَتِهِ
يَا أَمِيرَ الْمَجْدِ خُذْ حَلَالًا
زُهَيْتَ عُجْبًا وَحَقَّ لَهَا
لَمْ يَضِرْهَا أَنْ ضَرَبَتْهَا

مَكْرُمَاتُ جَمَّةٍ وَعُلَا
يَهَبُ الدُّنْيَا إِذَا سُئِلَا
تَزْدَرِي بِالْغَيْثِ مِنْهُمْ مَلَا
كُلُّ إِنْسَانٍ وَمَا سُئِلَا
إِنْ أَرَدْتَ الْقَوْلَ وَالْعَمَلَا
وَالْفَتَى مَنْ كَانَ مُحْتَمِلَا
عَنْهُ أَرْبَابُ الْعُلَا فَعَلَا
مِنْهُ آسَادُ الشَّرَى وَجَلَا
وَيَرُدُّ الْجَيْشَ مُحْتَفِلَا
بَيْنَ عَيْنَيْهِ إِذَا حَمَلَا
حَقَّهَا فِي الْحَرْبِ قَدْ بَطَلَا
فِي الْحِجَا وَالرَّأْيِ مَكْتَهَلَا
فِيحَلِّي الْحَادِثَ الْجَلَلَا
بِحُسَامٍ يَحْسِمُ الْعُلَا
فَرَأَيْنَا الشَّمْسَ وَالْحَمَلَا
فَرَأَيْنَا الْبَدْرَ مُكْتَمِلَا
فَنَسِينَا الْوَاكِفَ الْهَطَلَا
لَا تَرَى فِي حُسْنِهِ خَلَلَا
بِحُلَاكِ الزَّهْوِ وَالْخِيَلَا
أَتْرَاهُ يَتْرُكُ الْعَدَلَا (1)

القصيدة الرابعة: وهي في المدح والاعتذار وجاء في تقديمها قال: بلغني أن الأمير أبا سعيد رحمه الله استحسّن قصيدة غزلية من كلامي، فطرزتها بأبيات في مدحه، وأنشدته إياها بالحضرة، ولم أكن قبل لقيته، وقدّرت أن ذلك يذكر باسمي، وإذا به قد ألهته الأيام عن التذكرة، وأحالت معرفتها لديه نظره، فرأى إنشادي لما كان يذكره، وعجب من أمر كان ينكره، وربما وجد بعضهم لذلك

مقالا، ووعدها إغارة مني وانتحالا، فكتبت إليه بما شفى النفس، وأزال اللبس، حيث قلت: [البسيط]

مَا عُمْدَةُ الْمَلِكِ إِلَّا السَّيْفُ وَالْقَلَمُ
وَمَا السِّيَادَةُ إِلَّا الْبَأْسُ وَالْكَرْمُ
وَلَا سِيَاسَةَ حَتَّى تُرْتَجَى نِعَمٌ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْعُلَا دَعْوَى مُجَرَّدَةً
يَرَى الْعَجَائِبَ فِي الدُّنْيَا مُجَرَّبَهَا
حَتَّى يَرَى الْعَيْشَ فِيهَا أَنَّهُ حُلْمٌ
مَا لِلْهَمَامِ الَّذِي هَامَتْ عَلَيْهِ بِهِ
فَبَلَّغْتَهُ الَّذِي لَا تَبْلُغُ الْهَمَمُ
تَنَى عِنَانَ تَنَائِي عَنْ عِنَائِيهِ
كَأَنَّهُ لَوْ لَوْمٌ لَوْمٍ رَدَّهُ كَرَمٌ
لَيْتَ الْقَرِيضَ الَّذِي خُصَّ الْحُسْنُ بِهِ
يَكُونُ مَوْلَايَ فِيهِ بَيْنَنَا حَكَمٌ
(يَا أَعْدَلُ النَّاسِ وَأَجْمَعَ الْعُلَى بَصْرًا)⁽¹⁾
فَلَيْسَ مِثْلَكَ مَنْ يُشَقَى بِخِدْمَتِهِ
كَمَا يُعْنَى الَّذِي مَعْبُودُهُ الصَّنَمُ
يَا مَنْ فَضَى السَّعْدُ أَنْ قَبِلْتُ رَاحَتَهُ
وَيَالَهَا لَدَّةَ مَا بَعْدَهَا نَدَمٌ
مِنْكَ الْقَبُولُ وَمِنِّي الْيَوْمَ مَعْدِرَةٌ
إِلَى غُلَاكَ وَلَا ذَنْبٌ وَلَا لَمَمٌ
أَنَا أَبُو الطَّيِّبِ الثَّانِي لِمُنْتَقِدِ
وَأَنْتَ سَيْفُ الْمَعَالِي الْأَوْحَدِ الْعَلَمُ
فَصَدْتُ فِي غَزَلِي تَشْرِيفَهُ بِكُمْ
وَهَكَذَا فِي بَنَاتِ الْفِكْرِ يُحْتَكَمُ
الصِّدْقُ مِنْ شَيْمِي وَالْفَضْلُ مِنْ خُلُقِي
وَاللَّفْظُ لِي وَالْمَعَانِي كُلُّهَا لَكُمْ
لِي الْقَوَافِي الَّتِي مَنْظُومُهَا دُرٌّ
فِيهَا الْمَعَانِي الَّتِي مَنْشُورُهَا حِكَمٌ
يَا مَنْ لَهُ تَعْتَرِي الْعَلِيَا إِذَا افْتَحَرَتْ
وَمَنْ بِهِ تَزْدَهِي الدُّنْيَا وَتَبْتَسِمُ
تَاللَّهِ مَا جُرْتُ عَنْ قَصْدٍ بِقَصْدِكُمْ
وَلَا رَضِيْتُ بِغَيْرِ الْمَجْدِ اعْتَصِمُ
هَذَا الدَّلِيلُ فَخُذْ حَرْفًا مِنْ أَوَّلِ مَا
فِي كُلِّ بَيْتٍ حَوْتَهُ هَذِهِ الْكَلِمُ
مِنْ أَحْرَفِ كَنْفِيسِ الدُّرِّ يَنْظِمُهَا
مَوْلَايَ مِثْلِي فِيمَا قَالَ يُتَّهَمُ⁽²⁾

القصيدة الخامسة: وهي في مدح أبي عمرو بن خالد وجاء في تقديمها: "وقال أيضا رحمه

الله يمدح الوزير أبا عمرو بن خالد وزير شريش: [السريع]

يَا كَوْكَبًا كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ
أَطْلَعَهُ السَّعْدُ فَمَا يَعْرُبُ
كَأَنَّهَا صُورٌ مِنْ فِضَّةٍ
لَكِنَّهُ بِحُسْنِهِ مُذْهَبٌ

(1) — هذا الشطر مضطرب الوزن ولم اهتد إلى تصويبه.

(2) — التخريج: المنظوم والمنثور مخطوط في خزانة خاصة في المغرب ورقة: 47، و47، ظ.

فِي الْأَرْضِ مِنْهَا مَثَلٌ يُضْرَبُ
 يَنْسَابُ كَالْأَيْمِ بِهَا مُذْنَبُ
 مَسْرَحٌ يَرُوقُ مِنْهُ مَنْظَرٌ مُعْجَبُ
 كَأَنَّهَا صَوَافِنُ تَلْعَبُ
 كَأَنَّ صُبْحًا تَحْتَهُ غَيْهَبُ
 فَلَا حَقٌّ لِعَيْتِقِهِ يُنْسَبُ
 وَأَيْنَ مِنْهُ الْعَنْبَرُ الْأَشْهَبُ
 يَنْعِقُ بِالْبَيْنِ وَلَا يَنْعَبُ
 فَأَلْعَسُ يَلْتَمُهُ أَشْنَبُ
 نَوَاعِمُ الْقَضْبِ لَهَا تَطْرَبُ
 فَهَبَّ مِنْهَا نَفْسٌ طَيِّبُ
 بِهِمْ يُزَانُ الْجَهْلُ (1) وَالْمَرْكَبُ
 يَنْقُضُ فِي الْحَرْبِ بِهِ كَوَكَبُ
 ضَاقَ عَلَى الْقَرْنِ بِهِ الْمَذْهَبُ
 مَاءٌ حُسَامٍ غَمْدُهُ الطَّحْلَبُ
 يُزْهَى بِهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
 كِلَاهُمَا فِي الدَّهْرِ مُسْتَعْرَبُ
 يَنْهَلُ مِنْهَا الْمَطَرُ الصَّيْبُ
 فَقُلْتُ إِنَّ الْبَحْرَ لَا يَنْضَبُ
 يَعْتَدِرُ الذَّنْبُ إِذَا يُذْنَبُ
 إِذَا ابْتَغَى الْإِنْصَافَ مَنْ يَطْلُبُ
 التَّجْمُ مِنْ هِمَّتِهِ أَقْرَبُ
 أَلَا بِنَفْسِي الْمُحْسِنِ الْمُحْسَبُ
 زَيْدُ بْنُ كَهْلَانَ لَهُ مَنْسَبُ

سَمَتْ لَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ قَبَّةُ
 وَزُخْرِفَتْ مِنْ حَوْلِهِ رَوْضَةٌ
 حَيْثُ يَجُولُ الطَّرْفُ فِي
 سَفَائِنُ تَسْبِحُ فِي لُجَّةِ
 مِنْ أَدْهَمٍ يَهْفُو شِرَاعُ بِهِ
 إِذَا جَرَى مِنْ خَلْفِهِ مُلْجَمًا
 وَأَشْهَبُ صُورَ مَنْ عَنَبِرُ
 وَأَسْحَمُ يُدْعَى غُرَابًا وَمَا
 وَالرَّوْضُ قَدْ رَوْضُهُ صَيْبُ
 وَلِلصَّبَا عَلَى الرَّبَا هَبَّةُ
 سُرَّتْ بِمَسْرَتِهَا رِيَّاحُ الْمُنَى
 وَلِلْوَعَى مَا شِئْتَ مِنْ فِتْيَةِ
 مِنْ كُلِّ بَدْرٍ أَفْقَهُ سَرْجُهُ
 إِذَا انْتَحَى يَوْمَ الْوَعَى مُقْدِمًا
 يُطْفِئُ نَارَ الْحَرْبِ مِنْ كَفِّهِ
 ضَخَامَةٌ خُصَّ بِهَا سَيْدُ
 وَعِزُّ مَجْدٍ شَادَهُ أَوْحَدُ
 كَأَنَّمَا رَاحَهُ دِيْمَةٌ
 تَعَجَّبُوا إِنْ دَامَ إِحْسَانُهُ
 أَمَّا أَبُو عَمْرٍو فَشَخْصٌ بِهِ
 مَلِكٌ وَفَتْحُ اللَّامِ أَوْلَى بِهِ
 لِلَّهِ مِنْ آلِ عَلِيٍّ فَتَى
 وَمُحْسِنٌ يَوْمَ النَّدَى بِحَسَبِ
 مُؤْتَلُ الْمَجْدِ صَرِيحُ الْعَلَا

سُلَالَةُ الْأَمْلاكِ مِنْ يَعْرُبٍ اللَّهُ مَا جَاءَ بِهِ يُعْرَبُ
وَعُرَّةٌ أَطْلَعَهَا سَعْدُهُ كَالشَّمْسِ إِلَّا أَنَّهَا تُحْجَبُ
عَقِيلَةٌ حَبُّ بِهَا إِخْوَةٌ تُنْسَى لَهَا الْأَقْمَارُ أَوْ تُنْسَبُ
لِلَّهِ مِنْ دَوْحَةِ مُلْكٍ لَهَا فُرُوعٌ مَجْدٍ أَصْلُهَا طَيِّبُ
يَا سَيِّدًا مَا زِلْتُ مِنْ حُبِّهِ عُلَاهُ تُمْلِي وَأَنَا أَكْتُبُ
أَهْنَا بِمَا حَوَّلْتَ مِنْ أَنْعَمٍ قَدْ يَذْهَبُ الدَّهْرُ وَلَا تَذْهَبُ
وَتَقُ بِنَصْرِ اللَّهِ عَنِ عَاجِلٍ فَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ لَا يُغْلَبُ (1)

القصيدة السادسة: جاء في تقديمها " وقال أيضا رحمه الله: [الطويل]

سَلِ الرُّوضِ مَنْ حَلَّاهُ بِالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ وَجَرَ لَهُ ذَيْلَ المَجْرَةِ بِالنَّهْرِ
أَحَلَّ الحَيَا أَهْدَى لَهُ زِينَةَ السَّمَا فَأَصْبَحَ فِي زِيِّ الهُدَى وَلَا يَدْرِي
وإِلَّا فَمَا لِلْقَضْبِ قَدْ وُشِّحَتْ بِهِ بَدَائِعُ حَلِيٍّ مِنْ لُحَيْنٍ وَ مِنْ تَبْرِ
وَشَفَّ لِثَامَ الوَرْدِ عَنْ وَجَنَاتِهِ فَقَبَّلَ فِيهَا لَوْعَةً مَبْسَمَ الزُّهْرِ
وَفِي القُبَّةِ البَيْضَاءِ بَيْضَاءُ مِثْلِهَا مُورَدَةٌ تَخْتَالُ فِي حُلَلِ حُمَرِ
مَهَاءَةٌ كَأَنَّ الحُسْنَ هَامَ بِوَجْهِهَا فَأَطْلَعَ فِيهِ طَلْعَةَ الشَّمْسِ وَالبَدْرِ
تَقَاسَمَنِي مَابِي لَهَا مِنْ صَبَابَةٍ وَكَمْ لِلهَوَى بَيْنَ الحَبِينِ مِنْ سِرِّ
فَعَيْشُ بِلَا طَيْشٍ وَأُنْسٌ بِلَا أَسَى وَحُبٌّ بِلَا لَوْمٍ وَوَصْلٌ بِلَا هَجْرِ
وَأَعْدَبُ مَا يُفْنِي بِهِ المرءُ دَهْرَهُ مُسَاعِدَةٌ اللذاتِ فِي غُلْبَةِ الدَّهْرِ
وَأَكْثَرُ مِنْ أَسْبَابِ مَا تُبْلِغُ المَنَى مَدَائِحُ تُتْلَى فِي الوَازِرِ أَبِي عَمْرٍو
وَزَيْرٌ تَحْتَهُ لِلْمَكَارِمِ وَالعُلا صُدُورٌ مِنَ الأَعْيَانِ كَالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ
وَأَرْوَعُ بَسَامٍ إِذَا مَا رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ اعْتِدَالَ العُصْنِ فِي بَهْجَةِ الزُّهْرِ
وَتَلْقَاهُ مَهْمًا تَلْقَاهُ مُتَهَلِّلًا بِمَا شِئْتَ مِنْ بَشْرِي وَمَا شِئْتَ مِنْ بَشْرِ
كَأَنَّ المَعَالِي صَوَّرَتْهُ كَمَا اشْتَهَى فَلَيْمَنْ يُمْنَاهُ وَيُسْرَاهُ لِلْيُسْرِ
تَذَلُّ لَهُ بِيضُ الكُمَاةِ وَسُمْرُهَا إِذَا قِيلَ إِنَّ العِزَّ فِي البَيْضِ وَالسُّمْرِ

(1) — التخریج: الأبيات {1-33} المنظوم والمنثور مخطوط في خزنة خاصة في المغرب ورقة: 51 ط، 52. والأبيات {6-10} في روضة الأنس ونزهة النفس (مخطوط في خزنة الفقيه محمد المنوني) ورقة: 27.

هُوَ الدَّهْرُ لَوْلَا أَنَّ لِلدَّهْرِ قَسْوَةً
يَقُومُ مَقَامَ الغَيْثِ إِنْ بَخِلَ الحَيَا
فَللهِ صَدْرٌ فِي المَكَارِمِ وَ العُلَا
وَ صَفَتْ حُلَاهُ العَالِيَاتِ بِمِثْلِهَا
وَ أَسْمَعْتُهُ السَّحْرَ الحَلَالَ وَ رَبَّمَا
هُوَ البَحْرُ لَوْ أَنَّ العُدُوبَةَ فِي البَحْرِ
وَ يُعْنِي غَنَاءَ اللِّيثِ إِنْ لُجَّ فِي الدُّعْرِ
كَمَا حُطَّ بِاسْمِ اللهِ فِي أَوَّلِ السَّطْرِ
وَ مَا تُوصَفُ العُلْيَا بِأَعْلَى مِنَ الشَّعْرِ
يُعَدُّ بَدِيعُ النِّظْمِ نَوْعًا مِنَ السَّحْرِ (1)

هُوَ الدَّهْرُ لَوْلَا أَنَّ لِلدَّهْرِ قَسْوَةً
يَقُومُ مَقَامَ الغَيْثِ إِنْ بَخِلَ الحَيَا
فَللهِ صَدْرٌ فِي المَكَارِمِ وَ العُلَا
وَ صَفَتْ حُلَاهُ العَالِيَاتِ بِمِثْلِهَا
وَ أَسْمَعْتُهُ السَّحْرَ الحَلَالَ وَ رَبَّمَا

القصيدة السابعة: هي في مدح وزير الدولة النصرية أبي عبدالله محمد بن الحكيم. [السريع]

وَ حَيٍّ مِنْ أَجْلِ الحَبِيبِ الدِّيَارِ
فَمَا عَلَى العُشَّاقِ فِي الذَّلِّ عَارُ
فَمَا لِيَالِي الأُنْسِ إِلا قِصَارُ
نَفْسٌ تُدَارِي وَ كَوْؤُوسٌ تُدَارُ
فِي طَيْبِهِ بِالْوَصْلِ أَوْ بِالعُقَارِ
وَ الخَمْرُ وَ الهَمُّ كَمَاءِ وَ نَارُ
فِي رِقَّةِ الدَّمْعِ وَ كَوْنِ التَّنْصَارِ
تَنَافَسَتْ فِيهَا النَفُوسُ الكِبَارُ
مَا أَطِيبَ الخَمْرَةَ لَوْلا الخُمَارُ
كَالمَاءِ لَوْ كَفَّ شِرَارُ الشَّرَارِ
بِبعْدِهِ عَلَى اقْتِرَابِ المِزَارِ
وَ لا أَذُوقُ التَّوْمَ إِلا غِرَارُ
قَدْ بَهَرَ الوَرْدُ بِهَا وَ البَهَارُ
وَ طَاعَةَ اللّهُوَ وَ خَلَعَ العِذَارُ
أَهْكَذَا يَفْعَلُ حُبُّ الصَّغَارِ؟
وَ الفَجْرُ قَدْ فَجَّرَ نَهْرَ النَّهَارِ
وَ الشَّهْبُ مِثْلُ الشَّهْبِ عِنْدَ الفِرَارِ

سَلَّمَ عَلَى الحَيِّ بِذَاتِ العِرَارِ
وَ خَلَّ مَنْ لَمْ عَلَى حُبِّهِمْ
وَ لا تُقْصِرْ فِي اغْتِنَامِ المُنَى
وَ إِنَّمَا العِيشُ لِمَنْ رَامَهُ
وَ رُوْحُهُ الرَّاحُ وَ رِيْحَانُهُ
وَ لا صَبْرَ لِلشَّيْءِ عَلَى ضِدِّهِ
مُدَامَةَ مُدْنِيَّةٍ لِلْمُنَى
مِمَّا أَبُو رِيْقٍ أَبَارِقْهَا
مُعَلَّتِي وَ البِرِّ مَنْ عَلَّتِي
مَا أَحْسَنَ النَّارَ الَّتِي شَكَلَهَا
وَ بِي وَ إِنْ عُدْبَتْ فِي حُبِّهِ
طَبِي غَرِيرٌ نَامَ عَنِ لَوْعَتِي
ذُو وَجْنَةٍ كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ
رَجَعْتُ لِلصَّبُوةِ فِي حُبِّهِ
يَا قَوْمُ قُولُوا - بِذِمَامِ الهَوَى -
وَ لَيْلَةَ نَبَهَتْ أَجْفَانَهَا
وَ اللَّيْلُ كالمَهْزُومِ يَوْمَ الوَعَى

(1) - التخریج: مخطوط المنظوم والمثور في خزنة خاصة في المغرب ورقة 51، و 51 ظ، ويبدو من خلال البيت العاشر أنها في مدح صاحب مدينة شريش الوزير أبي عمرو بن خالد .

كَأَنَّمَا اسْتَحْفَى السُّهَى حَيْفَةً وَطُولِبَ النَّجْمُ بِثَأْرِ فَنَارٍ
 لِذَلِكَ مَا شَابَتْ نَوَاصِي الدُّجَى وَطَارَحَ النَّسْرُ أَخَاهُ فَطَارٍ
 وَفِي الثَّرِيَا قَمَرٌ سَافِرٌ عَن غُرَّةٍ غَيْرَ مِنْهَا السَّفَارِ
 كَانَ عُنُقُودًا تَنْسَى بِهِ إِذْ صَارَ كَالْعُرْجُونِ عِنْدَ السَّرَارِ
 كَأَنَّمَا تَسْبِكُ دِينَارَهُ وَكَفَهَا يَفْتَلُ مِنْهُ السَّوَارِ
 كَأَنَّمَا الظُّلْمَاءُ مَظْلُومَةٌ تَحْكَمُ الفَجْرُ عَلَيْهَا فَجَارِ
 كَأَنَّمَا الصَّبْحُ لِمُشْتَاقِهِ عِزُّ غَيْبٍ مِّنْ بَعْدِ ذُلِّ افْتِقَارِ
 كَأَنَّمَا الشَّمْسُ وَقَدْ أَشْرَقَتْ وَجْهَ أَبِي عَبْدِ الإِلَهِ اسْتِنَارِ
 مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ كَأَسْمِهِ شَخْصٌ لَهُ فِي كُلِّ مَعْنَى يُشَارِ
 أَمَّا المعَالِي فَهَوَ قُطْبٌ لَهَا وَالقُطْبُ لَا شَكَّ عَلَيْهِ المَدَارِ
 مُؤْتَلُّ المَجْدِ صَرِيحُ العُلَا مُهْدَبُ الطَّبَعِ كَرِيمُ التَّجَارِ
 تُزْهِى بِهِ لَحْمٌ وَسَادَاتُهَا وَتَنْتَمِي قَيْسٌ لَهُ فِي الفَخَارِ
 يَفِيضُ مِنْ جُودِ يَدَيْهِ عَلَى عَافِيهِ مَا مِنْهُ تَحَارُ البِحَارِ
 اليُمْنُ مِنْ يَمِينَاهُ حُكْمٌ جَرَى وَاليُسْرُ مِنْ شِيْمَةِ تِلْكَ اليَسَارِ
 أَخٌ صَفَا مِنْهُ لَنَا وَاحِدٌ فَالِدَهْرُ مِمَّا قَدْ جَنَى فِي اعْتِدَارِ
 فَإِنْ شَكَرْنَا فَضْلَهُ مَرَّةً فَقَدْ سَكِرْنَا مِنْ نَدَاهُ مِرَارِ
 وَنَحْنُ مِنْهُ فِي جِوَارِ العُلَا تَدورُ لِلسَّعْدِ بِنَا مِنْهُ دَارِ
 الحَافِظُ اللهُ وَاسْمَاؤُهُ لِذَلِكَ الجَارِ وَذَلِكَ الجِوَارِ⁽¹⁾

(1) — التخریج: المقرئ، نفع الطیب، ج6 ص235، 236. وورد منها البيت {16} فقط في الوافي في نظم القوافي تح محمد الخمار القنوني. وورد منها الأبيات {16، 17، 20، 19، 18، 21، 22، 23} فقط في الوافي في نظم القوافي مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور رقم: 603 ورقة: 75.

وإذ أضع هذه القصيدة ضمن قصائد الرندي غير المنشورة فليس لأنها غير معروفة من قبل؛ وإنما أتيت بها هنا لتصحيح الخطأ الذي تكرر في عدد من الدراسات والأبحاث فيما يتعلق بالمعنى بالمدح في هذه القصيدة؛ فقد جاء — وهما — في معظم الدراسات التي تعرضت لهذه القصيدة أما في مدح محمد ابن الأحمر؛ وذلك بالرغم من أن الأبيات {25، 26، 27، 28، 29، 30} تدل بوضوح على أن القصيدة في مدح أبي عبدالله بن الحكيم وزير الدولة النصرية فهي تذكر اسمه ونسبه إلى (لحم) ومن المعروف أن ابن الأحمر ينسب إلى الأنصار الخزرجيين الأزديين.

هذا وقد تكرر هذا الخلط في العديد من الدراسات منها: دراسة الدكتور الطاهر أحمد مكي، دراسات أندلسية ص: 299، 300. ودراسة الدكتور محمد رضوان الداية في كتابه (أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس) ص: 119 وما بعدها، ودراسة

الملحق الرابع: ويشتمل على ما تبقى من قصائد أبي محمد عبدالله بن عبد العظيم الوادي آشي (كان حياً سنة 700 هـ) وهي في المدح النبوي .

القصيدة الأولى: قال في أولها : [الطويل]

هُدَاكَ فِي صُحْفِ التَّوْحِيدِ مَشْرُوحٌ لَمْ يَدْرِ مَعْنَاهُ إِلَّا الْقَلْبُ وَ الرُّوحُ⁽¹⁾

القصيدة الثانية: قال في أولها : [الطويل]

سَلِ الْبَانَ هَلْ فِي ظِلِّهِ عَقَلُوا الرَّكْبَا
وفيها قال :

هُوَ الرَّحْمَةُ الْمُهْدَاةُ لِلنَّاسِ رَحْمَةً
وقال في آخرها :

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ مُحِبِّ مُتَيْمٍ
وهي واحد وخمسون بيتاً⁽²⁾

القصيدة الثالثة: قال في أولها : [الطويل]

دَعَا لِلْهَوَى وَ الْقَلْبُ أَوْلُ مَنْ لَبَّى
حَبِيبُ أَنْارِ الْفِكْرِ إِذْ نَوَّرَ الْقَلْبَا
سَقَانِي شَرَابَ الْحُبِّ فِي أَرْضِ أَنْسِهِ
فَمَتَّعَنِي أَنْسًا وَ أَسْكَرَنِي حُبَّا
و فيها يقول :

وَقَوْلُ سَطِيحٍ فِي التَّبُوعَةِ صَادِقٌ
وَمَا جَاءَ شِقُّ فِي مَقَالَتِهِ كَذْبَا
وهي تسعة و أربعون بيتاً⁽³⁾.

القصيدة الرابعة : قال في أولها : [البيسيط]

الدكتور عبدالله الزيات في بحثه القيم ، رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص: 370. ودراسة الدكتور أيمن ميدان في بحثه : (البحايات الشعر في مملكة غرناطة) ص 322 . ودراسة الدكتور أحمد حاتم الربيعي في كتابه: فوات المحققين دراسة تطبيقية في فوات تحقيق الإحاطة في أخبار غرناطة ص: 103, 104 ، وبالرغم من أن هذه الدراسة الأخيرة تتبع فوات المحققين إلا أن صاحبها جعل القصيدة — وهما — في مدح محمد ابن الأحمر .

(1) — التخریج: أبو زيد عبدالرحمن الجادري الفاسي ، ت 818 ، شرح البردة، مخطوط المكتبة الوطنية ، الرباط، ميكروفيلم رقم: 1375 ، ورقة :23.

(2) — التخریج: المصدر السابق ورقة:24.

(3) — التخریج: المصدر نفسه والموضع نفسه.

لَمَّا اسْتَقَلَّتْ غَدَاةَ الْبَيْنِ أَطْعَانُ
شَمْسٌ وَلَا أَشْرَقَتْ بِالنُّورِ أَكْوَانُ
يَحْظَى بِهَا فِي جَنَانِ الْخُلْدِ هَيْمَانُ

نَمَتْ بِسَرِّ غَرَامِ الْقَلْبِ أَجْفَانُ
لَوْلَا أَبُو الْقَاسِمِ الْمُخْتَارُ مَا طَلَعَتْ
مِنِّي عَلَيْكَ تَحِيَّاتُ مُعْطَرَّةُ

وهي اثنان و خمسون بيتا (1) .

القصيدة الخامسة قال في أولها : [البيط]

وَ جِئْتُ بِالْفَقْرِ لَا بِالْمَالِ وَالْعَيْنِ

نَزَّهْتَ نَفْسَكَ عَنْ كَيْفٍ وَعَنْ أَيْنِ

وآخرها :

بَدْرُ الدُّجَى وَالنَّهْرُ بَيْنَ الضَّجِيعِينَ

مِنِّي الصَّلَاةُ حَيَاتِي وَالسَّلَامُ عَلَيَّ

وهي تسعة وثلاثون بيتا. (2)

القصيدة السادسة قال في أولها : [البيط]

وَ نَاطِرِي بِاتِّصَالِ الدَّمْعِ مَجْرُوحُ
رَفَقًا فَإِنَّ أَيْنَ الْحُبِّ تَسْبِيحُ⁽³⁾

قَلْبِي لِأَجْلِ انْقِطَاعِ الْوَصْلِ مَقْرُوحُ
يَا لَأَيْبِي فِي أَيْنِ لِي بِهِ فَرَجُ

(1) — التخریج: أبو زید عبدالرحمن الجادري الفاسي، ت 818 (شرح البردة) مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، ميكروفيلم رقم: 1375، ورقة: 24.

(2) — التخریج: المصدر السابق والموضع نفسه.

(3) — التخریج: المصدر نفسه ورقة: 25 .

(4) — التخریج: المصدر نفسه والموضع نفسه.

الملحق الخامس: يجوي رسماً بياناً لشجرة نسب بني الأحمر وفقاً لما توصلت إليه
هذه الدراسة .

الملحق السادس: يحوي صور للمخطوطات المستخدمة في هذه الدراسة

فهرس
المصادر والمراجع

فهرس المصادر والمراجع

أولاً- القرآن الكريم.

ثانياً — المصادر:

أ - المخطوطة

- البتاهي: أبو الحسن علي بن عبدالله الجذامي
الإكليل في تفضيل النخيل / مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم 198 ق نسخة مصورة على الميكروفيلم.
- ابن الجياب: أبو الحسن الغرناطي
ديوانه/ مخطوط دار الكتب المصرية أدب تيمور، د 2678 .
- الجادري الفاسي: أبو زيد عبدالرحمن (ت 818)
شرح البردة/ مخطوط المكتبة الوطنية ،الرباط، ميكروفيلم رقم: 1375 .
- أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي ا
ديوانه /مخطوط بالمكتبة الوطنية للمملكة المغربية الرباط رقم ق 69.
- أبو الطيب الرندي: صالح بن شريف
الواقي في نظم القوافي / مخطوط دار الكتب المصرية ، القاهرة، رقم: 603، أدب تيمور.
روضة الأنس ونزهة النفس /مخطوط مكتبة العالم محمد المنوني نسخة مصور على ميكروفيلم.
- مؤلف مجهول:
مجموع مخطوط دون عنوان يوجد في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية ، الرباط ، رقم : 3835 د ،وهو يضم قصائد لأبي عبدالله البرجي ،وأبي جعفر ابن شلبطور ، تبدأ من الورقة 350 إلى الورقة:374 .
مجموع مخطوط عنوانه :المنظوم والمنثور، يوجد في خزانة خاصة بالمغرب يحوي قصائد لأبي الطيب الرندي.

ب - المطبوعة

- ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي
المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط3 القاهرة، دار الكتاب
المصري: 1410هـ، 1989م.
- ابن أبي زرع: علي الفارسي
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ، ط2 ، الرباط — دار المنصور للطباعة والوراقة ،
1972م
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، راجعه :
عبد الوهاب بن منصور ، ط2 ، الرباط ، المطبعة الملكية ، 1420هـ — 1999م
- ابن أبي سلمى: زهير
ديوانه ، تحقيق ، كرم البستاني بيروت دار صادر : 1379 هـ 1960 .
- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم
المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة، ط2 ، مصر
، دار النهضة (د . ت) .
- ابن الأحمر: أبو الوليد إسماعيل
نثر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان تحقيق: محمد رضوان الداية بيروت، دار الثقافة،
1967 .
- الإدريسي: محمد بن عبدالعزيز الشريف
(وصف المغرب والأندلس) ، من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، تحقيق :
دوزي ، ودي غويه ، طبعة ليدن ، 1966م
- البغدادي: صفي الدين عبدالمؤمن
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد الجاوي ، القاهرة ،
د.ن ، 1373هـ 1954م .

- **البغدادي: عبد القادر**
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط4 ، مكتبة الخانجي :
1420 / هـ 2000 م.
- **البكري: أبو عبيد**
فصل المقال في شرح كتاب الأمثال ، تحقيق : إحسان عباس ، ط1 بيروت ، مؤسسة
الرسالة ، 1971م.
- **البناهي: أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي**
المراقبة العليا في القضاء والفتيا ، تحقيق : ليفي بروفنسال، بيروت، المكتب التجاري، (د.ت).
- **أبو تمام**
ديوانه ضبط و شرح إيليا حاوي ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني، 1981
- **التنوخني: أبو يعلى عبد الباقي**
القوافي، تحقيق: عوني عبد الرؤوف ، ط2 ، القاهرة، مكتبة الخانجي: 1978م
- **الثعالبي: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري.**
ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ، دار نهضة
مصر ، 1965م.
- **الحموي: ابن حجة**
خزانة الأدب وغاية الأرب - تحقيق : عصام شعيتو ج 2 ، ط1 - بيروت ، دار ومكتبة
الهلال ، 1987م
- **الحموي: ياقوت**
معجم البلدان تحقيق: إحسان عباس ، بيروت ، دار صادر . 1965م.
- **الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم**
الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، القاهرة ، 1937م
- **أبو حيان: محمد بن يوسف الغرناطي**
ديوانه ، تحقيق ، أحمد عبد المطلب ، و خديجة الحديثي ، ط1 بغداد ، مكتبة العاني
1388 هـ 1969 م.

- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر
الحيوان ، تحقيق: عبد السلام هارون ، ط ، 2 ، مصر ، مكتبة الخانجي ، 1965م.
- الجرجاني: عبد القاهر
دلائل الإعجاز في علم المعاني. تحقيق : محمود محمد شاكر ، ط1 القاهرة ، دار المدني
1991م.
- أسرار البلاغة في علم البيان ، تحقيق، محمود شاكر ، ط1 القاهرة دار المدني، 1991م.
- ابن جعفر: قدامة
نقد الشعر ، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجة، بيروت دار الكتب العلمية، (د ، ت)
- ابن خفاجة الأندلسي
ديوانه ، تحقيق : السيد مصطفى غازي ط1 ، الإسكندرية ، 1960م.
- الخفاجي: ابن سنان
سر الفصاحة، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، القاهرة ، مكتبة صبيح، 1969م.
- ابن خطّاب: أبو بكر
فصل الخطاب في ترسيل أبي بكر بن خطاب ، تحقيق ودراسة : أحمد عزّاوي ، ط1 ،
المغرب ، مطبعة ربانيت ، 1429 هـ — 2008م.
- ابن الخطيب: لسان الدين
الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق : محمد عبدالله عنان ، ط4 ، القاهرة — مكتبة
الخانجي ، 1393هـ — 1973م
الإحاطة ، "نصوص جديدة لم تنشر" تحقيق : عبدالسلام شقّور ، ط1 ، المغرب،
مؤسسة التغليف للطباعة، 1988م.
- اللحمة البدرية في أخبار الدولة النصرية ، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، ط3، بيروت
دار الآفاق الجديدة ، 1400هـ — 1980م ، وكذلك تحقيق محمد مسعود جبران، ط1
، بيروت ، دار المدار الإسلامي سنة 2009.
- مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس ، تحقيق: أحمد مختار العبادي،
القاهرة ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع ، 1967م

تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، تحقيق: ليفي بروفنسال، القاهرة — مكتبة الثقافة الدينية، 1426هـ — 2006م

● ابن خلدون: عبد الرحمن محمد

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط2، بيروت — دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر. 1960م.

● بن خلف: أبو مروان حيان

المقتبس في أخبار الأندلس، تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، بيروت، دار الثقافة 1983م

● ابن الدلائي: أحمد بن عمر العذري

ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، تح: عبد العزيز الأهواني مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية — 1965 م

● ابن رشيق القيرواني

العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط3، مصر، مطبعة السعادة، 1963م

● ابن رشيق المرسي

حياته وآثاره تحقيق و دراسة: محمد بن شريفة، ط1، المغرب، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1429هـ — 2008م.

● ابن الزبير: أبو جعفر أحمد

"تعيين الأوان والمكان للنصر الموعود به آخر الزمان مستقراً من صحيح السنة ومحكم القرآن"، تحقيق: محمد بن شريفة ط2، تونس، دار الغرب الإسلامي، 2008 م
صلة الصلاة، ج 3، 2، 1 تحقيق: عبد السلام الهراس وسعيد أعراب، المغرب، وزارة الأوقاف، 1414هـ — 1994م.

● ابن زيدون: أبو الوليد أحمد بن عبد الله

ديوانه، تحقيق: علي عبد العظيم، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، 1957م.

- ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى
المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، ط4، القاهرة — دار المعارف
1964م
- اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة — وزارة
الثقافة والإرشاد القومي، 1378هـ — 1959م
- السلوي: أحمد بن خالد الناصري
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار
البيضاء، دار الكتاب، 1954 — 1955م
- ابن سهل: إبراهيم بن سهل الإشبيلي
ديوانه، تحقيق: د. محمد فرج دغيم، ط1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998م
- السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر
بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة
موسى البابلي الحلبي، 1965م.
ذيل طبقات الحفاظ للذهبي، دار الفكر العربي، (د — ت).
- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع. تحقيق: أحمد شمس الدين، ج1، ط1 بيروت، دار
الكتب العلمية، 1998م.
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك
الوافي بالوفيات تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ج7، ط1، بيروت. دار إحياء التراث العربي
1420 هـ — 2000م
- ابن الصيرفي: أبو القاسم علي بن منجب
منايح القرائح، تحقيق: وليد قصاب، عبد العزيز المانع، دمشق مطبوعات مجمع اللغة العربية
بدمشق، 1994م
- الضبي: أحمد بن عميرة
بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط1 القاهرة، دار
الكتاب المصري 1989م.

- ابن طباطبا: محمد بن احمد
عيار الشعر ، تحقيق: طه الحاجري ، ومحمد زغلول سلام ، القاهرة ، المكتبة التجارية
1956م.
- ابن العبد: طرفة
ديوانه ، تحقيق: كرم البستاني ، بيروت دار صادر : 1961 م
- ابن عربي: محيي الدين
ذخائر الأعلاق — شرح ترجمان الأشواق ، بيروت ، المطبعة الأنسية ، 1312هـ —
- العسقلاني: ابن حجر
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ط1 الهند ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية
الكائنة في الهند ، 1350هـ .
- العسكري: أبو هلال
كتاب الصناعتين : الكتابة و الشعر ، تحقيق: محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم،
بيروت ، المكتبة العصرية : 1986م.
- ابن عسكر وابن خميس
أعلام مالقة ، تحقيق : عبدالله المرابط الترغي ، ط1 ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ،
1420هـ — 1999م
- العمري: ابن فضل الله
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق : محمود محمد المغربي ، الإمارات ، مركز
زايد للتراث والتاريخ ، 1429 هـ — 2008 م.
- ابن فرحون : إبراهيم بن علي بن محمد
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق: علي عمر ، ط1، القاهرة ، مكتبة
الثقافة الدينية ، 1423هـ — 2004م.
- ابن الفراء: أبو بكر عتيق الغساني الواديآشي
نزهة الأبصار في فضائل الأنصار، تحقيق: عبد الرزاق بن محمد مرزوق ، ط1،
الرياض، مكتبة أضواء السلف ، 1425 هـ — 2004 م.

- **الفرزدق**
شرح ديوان الفرزدق. تحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي ط 1 ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى، 1936م.
- **الفيروزآبادي: محمد بن يعقوب**
بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق :محمد على النجّار - بيروت ، المكتبة العلمية، (د.ت)
- **ابن القاضي الكناسي: أحمد بن محمد بن أبي العافية**
جذوة الاقتباس فى ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، ج 1 تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط 2، الرباط - دار المنصور للطباعة والوراقة، 1973م.
درة الحجال فى غرة أسماء الرجال، ط 1 ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، بيروت، دار الكتب العلمية ، 1423 هـ 2002م.
- **القشتالي: أحمد بن إبراهيم**
تحفة المغرب ببلاد المغرب، تحقيق: فرناندو دي لاجرانخا، مدريد، 1974م
- **القرطاجني: أبو الحسن حازم**
منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي (د ، ت).
- **القلقشندي أبو العباس أحمد**
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، نسخة مصوّرة عن المطبعة الأميرية ، القاهرة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، (د.ت)
- **القيسي: عبد الكريم**
ديوانه، تحقيق جمعة شيخة، و محمد الطرابلسي، تونس، بيت الحكمة: 1988م
- **مؤلف مجهول**
بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته فى الدولة المرينية من مدرّس وأستاذ وطبيب، تحقيق : عبد الوهاب بن منصور ، ط 1 المغرب ، المطبعة الملكية ، 1404م.
1984م.

- مؤلف مجهول
رسائل أندلسية تحقيق فوزي سعد عيسى ط 1 الإسكندرية منشأة المعارف 1989م.
- المتنبّي
ديوانه، تحقيق ، عبد المنعم خفاجي وآخرين ، القاهرة ، مكتبة مصر، د ، ت ، وتحقيق :
محمد مصطفى السقا ، مصر ، مطبعة البابلي الحلبي ، 1355هـ — 1936م.
- امرؤ القيس:أوس بن حجر.
ديوانه ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 4 ، القاهرة ، دار المعارف ، 1984م
- ابن المرابط :أبو العلاء
زواهر الفكر وجواهر الفقر ، السفر الثالث ، تحقيق ودراسة : حسن محمود إفليفل ،
ط 1 الرياض، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، 1418هـ .
- ابن المرحل : مالك
الجوالات ، تحقيق : محمد مسعود جبران ، ط 1 ، بيروت ، دار المدار الإسلامي
2004م
- المراكشي: أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، السفر الرابع والخامس تحقيق : إحسان عباس
، بيروت، دار الثقافة ، 1964م ، 1965م.
- المراكشي: ابن عذارى
البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، القسم الثالث تحقيق :
أمبروسو هويسى ميراندا ، مع مساهمة : محمد بن تاويت ، ومحمد الكتّاني ، ، تطوان
، 1960م
- المراكشي : أبو محمد عبد الواحد بن علي
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق: صلاح الدين الهواري ط 1 بيروت ، المكتبة
العصرية: 2006م. وكذلك تحقيق: محمد زينهم ، ومحمد عزب، القاهرة ، دار الفرجاني (د
ت).

- المرزوقي: أبو علي الحسن
شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين و عبد السلام هارون ط1، القاهرة، لجنة التأليف
و الترجمة و النشر: 1951 .
- المزني: كعب بن زهير بن أبي سلمى
ديوانه، بشرح أبي سعيد السكري، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965 م
- المعري: أبو العلاء أحمد بن عبدالله
شرح سقط الزند ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط1 ، بيروت، دار مكتبة
الحياة، 1965م.
- المقدسي: أبو عبدالله محمد بن أحمد
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم بيروت ، دار إحياء التراث العربي
1987 م
- المقري: أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق
:محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط1 ، مصر، مطبعة السعادة ، 1367هـ — 1949م.
أزهار الرياض في أخبار عياض ، تحقيق: لجنة مشتركة ط2، الرباط، صندوق إحياء التراث
الإسلامي، 1398هـ — 1978م
- ابن منظور: محمد بن مكرم
لسان العرب ، ط3 ، بيروت ، دار صادر ، 1994 م
- ابن منقذ: أسامة
البديع في نقد الشعر، تحقيق أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد، القاهرة مطبعة الحلبي 1960م
- الميداني: أبو الفضل أحمد بن محمد
مجمع الأمثال تحقيق : أبو الفضل إبراهيم ، ط ، بيروت ، دار الجبل ، 1987م.
- النابغة الذبياني
ديوانه، تحقيق: ناصف سليمان عواد ، ط، بغداد ، وزارة الثقافة والفنون، 1979م.

- **النسائي: الإمام أحمد بن شعيب**
السنن الكبير، تح: فاروق حمادة، ط1 الولايات المتحدة الأمريكية ، فيرجينيا المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1993م.
- **التميري: إبراهيم بن الحاج**
مذكرات ابن الحاج التميري، تحقيق: بريمير نسخة مصورة على قرص DVD .
- **النوي**
رياض الصالحين من كلام سيّد الأولين ، ط3 ، بيروت ، دار الكتاب الإسلامي
1986م
- **ابن هانئ الأندلسي**
ديوانه، تحقيق: كرم البستاني، بيروت، مكتبة صادر، 1952 م .
- **ابن هذيل: أبو الحسن علي بن عبدالرحمن**
فكاهات الأسماء ومذهبات الأخبار والأشعار ، تحقيق: عبدالله حمّادي ط1 ، الكويت ،
2004م.
- **الونشريسي: أبو العباس أحمد.**
المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرّجه جماعة
من الفقهاء بإشراف: محمد حجّي، ج11، ط1، الرباط ، وزارة الأوقاف والشؤون
الإسلامية للمملكة المغربية، 1401 ، 1981م.
- **اليوسي: أبو الحسن**
زهر الأكم في الأمثال والحكم ، تحقيق: محمد حجّي ، ومحمد الأخضر ، ط1، المغرب
،الدار البيضاء، دار الثقافة ، 1401هـ 1981م.

ثالثاً - المراجع:

أ - العربية .

● أحمد: محمد فتوح

الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، ط2، القاهرة، دار المعارف، 1978م.

● ابن إدريس: عمر خليفة

في العروض و القافية دراسة حول الشعر العمودي و شعر التفعيلة ط1، بنغازي، منشورات جامعة قار يونس: 2003م.

● الألباني: محمد ناصر الدين

سلسلة الأحاديث الصحيحة و شيء من فقهها و فوائدها، مج4 الرياض، مكتبة المعارف للنشر و التوزيع: 1415هـ - 1995م.

● أنيس: إبراهيم

موسيقى الشعر ط، 6 القاهرة مكتبة الأنجلو، 1988م.

● الأوسي: حكمة علي

فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، بغداد — مكتبة النهضة، 1971م.

● بدوي: أحمد أحمد

أسس النقد الأدبي عند العرب، ط2 القاهرة، مكتبة نهضة مصر 1960م.

● البطل: علي

الصورة في الشعر العربي: دراسة في أصولها وتطورها، بيروت، دار الأندلس، 1985م.

● بكّار: يوسف

قضايا في النقد و الأدب، بيروت، دار الأندلس: 1984م.

● ابن تاويت: محمد

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى، ط1، المغرب، دار الثقافة، 1402هـ

1982م.

التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، القاهرة ، 1951م.

● **التهانوي: محمد بن علي الفاروقي.**

كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق: لطفي عبد البديع ، ج 3 ، القاهرة/ المؤسسة المصرية العامة ، 1963م.

● **توني: يوسف**

معجم المصطلحات الجغرافية ، دار الفكر العربي ، (د، ت).

● **جبران: محمد مسعود**

مالك بن المرحل أديب العدوتين ، دراسة تحليلية في أخباره وتحقيق نصوصه الأدبية الباقية ط1 ، بيروت ، دار المدار الإسلامي ، 2004م .

● **حدّادي: أحمد**

رحلة ابن رشيد السبتي أبي عبدالله محمد بن عمر، دراسة وتحليل ، ج2 المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1424هـ — 2003م.

● **حقي: عدنان**

المفصل في العروض و القافية و فنون الشعر ، ط2 ، دمشق، دار الرشيد ، 2000م

● **خلوصي: صفاء**

فن التقطيع الشعري والقافية ، ط5 ، بغداد منشورات مكتبة المتنبي : 1977م.

● **الداية: محمد رضوان .**

أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، ط1 ، بيروت — مكتبة سعد الدين ، 1976م.

● **الدقالي: محمد أحمد**

الحنين في الشعر الأندلسي في القرن السابع الهجري ، ط1 ، الإسكندرية ، دار الوفاء ، 2008م

● **الدوسري: أحمد ثاني**

الحياة الاجتماعية في عصر بني الأحمر ، أبو ظبي — إصدارات المجمع الثقافي ، 1425هـ — 2004م

● الرباعي: عبد القادر

الصورة الفنية في شعر أبي تمام، الأردن منشورات جامعة اليرموك، 1980م.
الصورة في شعر زهير بن أبي سلمى، الرياض دار العلوم للطباعة والنشر: 1984م.

● الربيعي: أحمد حاجم

فوات المحققين: دراسة تطبيقية في فوات تحقيق الإحاطة في أخبار غرناطة ط 1، دمشق، دار ومؤسسة رسلان، 2009م.

● رحيم: مقداد

اتجاهات نقد الشعر في الأندلس في عصر بني الأحمر، الإمارات العربية، المجمع الثقافي
— أبوظبي، 1420هـ — 2000م.

النوريات في الشعر الأندلسي، ط 1، بيروت، عالم الكتب، 1986م.

● زايد: علي عشري

بناء القصيدة العربية الحديثة، القاهرة، مكتبة دار العلوم 1978م.

● الزركلي: خير الدين

الأعلام، ط 15 بيروت، دار العلم للملايين، 2002م

● الزيات: عبدالله

رثاء المدن في الشعر الأندلسي، ط 1، ليبيا، منشورات جامعة قاريونس، 1990م.

● السعيد: محمد مجيد

الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، بيروت، الدار العربية للموسوعات
1985م.

● شبانة: محمد كمال

يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة، ط 1، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية،
1423هـ — 2004م.

● الشكعة: مصطفى

الأدب الأندلسي — موضوعاته وفنونه، ط 1، بيروت، دار العلم للملايين، 1974م.

- شكيب: أرسلان
الجلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، بيروت — منشورات دار مكتبة الحياة ،
(د.ت).
- الشوكاني: محمد بن علي اليمني
البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ط1 ، القاهرة ، مطبعة السعادة .
- الطيب: عبد الله
المرشد إلى فهم أشعار العرب ، ط2 بيروت، دار الفكر للطباعة و النشر
والتوزيع: 1970م.
- ضيف: شوق
تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول والإمارات ، ط1 ، مصر ، دار المعارف ، د.ت.
الفن و مذهب في الشعر العربي، ط11، القاهرة، دار المعارف، (د. ت).
في النقد الأدبي ، القاهرة ، دار المعارف 1976م.
- فرحات: يوسف شكري
غرناطة في ظل بني الأحمر دراسة حضارية ، ط1 ، بيروت — المؤسسة الجامعية
للدراستات والنشر والتوزيع ، 1402هـ — 1982م.
- فهمي: ماهر حسن
الصوت و الصدى دراسة فنية في شعر المتنبي، قطر، دار المتنبي، 1991م.
- العاني: محمد شهاب
أثر القرآن الكريم في الشعر العربي ، ط1 ، الأردن ، دار دجلة، 2008م
- عباس: إحسان
تاريخ الأدب الأندلسي — عصر الطوائف والمرابطين ، ط5 ، بيروت، دار صادر
1978م.
- العبادي: أحمد مختار
في تاريخ المغرب والأندلس ، الإسكندرية — دار المعرفة الجامعية للطبع والنشر والتوزيع ،

1425هـ — 2005م.

● **عبد المطلبوب :أحمد**

قراءة أسلوبية في الشعر الحديث ، القاهرة ، دار المعارف 1994م.

● **عبد اللطيف: عبد الحلیم**

المازني شاعرا ،القاهرة ،دار الثقافة العربية :1985م.

● **عثمان :عبد الفتاح**

نظرية الشعر في النقد العربي القديم ، القاهرة ، مكتبة الشباب :1998م.

في علم المعاني و البديع ،القاهرة مكتبة الشباب :1990م.

● **العشماوي :محمد زكي.**

قضايا النقد الأدبي و البلاغة، الإسكندرية ،منشأة المعارف:1987م.

● **عصفور: جابر أحمد**

الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي ،القاهرة دار الثقافة للطباعة و النشر

:1974م.

● **العقاد: عباس محمود**

ابن الرومي حياته من شعره،القاهرة ،دار الهلال 1969م.

● **العكش: إبراهيم علي**

التربية و التعليم في الأندلس ، عمّان ، دار الفيحاء :1986م.

● **عنان :محمد عبدالله**

الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال ، ج8 ، القاهرة ، مكتبة الأسرة ، 2001م

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ، ج7 ، ط3، القاهرة — مكتبة الأسرة 2001م.

● **عيد :رجاء**

التجديد الموسيقي في الشعر العربي،الإسكندرية منشأة المعارف،1987م.

● **غريب: روز**

تمهيد في النقد الحديث ، بيروت ،دار المكشوف : 1971م.

- الكفراوي: محمد عبد العزيز
تاريخ الشعر العربي، القاهرة، دار الرسالة، (د،ت)
- كنون: عبدالله
ذكريات مشاهير رجال المغرب، بيروت، دن، د.ت
- مؤنس: حسين
أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب، بيروت، مؤسسة التراث العربي، 1986م.
- مبارك: زكي
التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، القاهرة، مطبعة الرسالة، 1983م.
المدائح النبوية في الأدب العربي، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1949م.
- محمد سعيد محمد
الشعر في قرطبة من منتصف القرن الهجري الرابع إلى منتصف القرن الخامس، ط1،
الإمارات العربية، المجمع الثقافي — أبو ظبي، 1424 — 2003 م.
- مراد: رياض عبد الحميد
مجمع الأمثال العربية، ط1، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1407
، 1986م.
- مسعد: سامية مصطفى محمد
الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصر المرابطين والموحدين، ط1،
القاهرة — مكتبة الثقافة الدينية، 1423هـ — 2003م
- مكّي: محمود علي
المدائح النبوية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1990م.
- مكّي: الطاهر أحمد
دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، ط3، القاهرة، دار المعارف، 1987م.
ملحمة السيد، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1970م.
- ميدان: أيمن
الصورة الفنية في الشعر الغرناطي، القاهرة، منشورات كلية دار العلوم، د،ت.

- **النبهاني: يوسف بن إسماعيل**
المجموعة النبّهانية في المدائح النبوية ، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1417هـ -
1996م .
- **نجا: أشرف محمود**
قصيدة المديح في الأندلس، ط1، الإسكندرية ، دار الوفاء للنشر والطباعة 2003م .
- **النقراط: علي.**
ابن الجياب الغرناطي حياته وشعره: تحقيق ودراسة: ط1 ليبيا ، دار الكتب الوطنية
2002م.
- **الهراًمة: عبد الحميد عبد الله**
القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري ، ط1 ، ليبيا ، كلية الدعوة الإسلامية ،
1996م.
- **الهاشمي: أحمد**
ميزان الذهب في صناعة شعر العرب ، القاهرة نشر مؤسسة خليفة للطباعة ، بولفار
الدورة ، 1965م.
- **هلال: محمد غنيمي**
النقد الأدبي الحديث ، القاهرة دار نهضة مصر (د،ت)
- **الهيقي: عبدالقادر رحيم**
خصائص مذهب الأندلس النحوي في القرن السابع الهجري ، ط2 ، ليبيا ، جامعة
قاريونس ، 1993م
- **هيكل: أحمد**
تطور الأدب الحديث في مصر ، القاهرة ، دار المعارف: 1971م.
- **وجدي: محمد فريد**
المصحف المفسر ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، 1988م.

- ابن ياسين: يوسف أحمد

بلدان الأندلس في أعمال ياقوت الحموي الجغرافية، دراسة مقارنة ط1، الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، 1425 هـ 2004 م.

ب - المراجع الأجنبية المترجمة

- إليزابيث دور.

الشعر كيف نفهمه ونتذوقه؟، ترجمة، إبراهيم الشوس، بيروت، مطبعة المنيمة، 1961م.

- بالثيا: آنخل جنثالث.

تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 1427 هـ 2006 م

- بروفنسال: ليفي

حضارة العرب في الأندلس ترجمة: دوقان قرقوط، بيروت، منشورات مكتبة دار الحياة (د، ت)

محاضرات في الأدب الأندلسي، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، القاهرة، دار المعارف، 1979م.

- بورا: موريس

الخيال الرومانسي، ترجمة إبراهيم الصيرفي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1977م

- بيرس: هنري

الشعر الأندلسي في عصر الطوائف ملامحه العامة وموضوعاته الرئيسة وقيمته التوثيقية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1990م

- فون شاك

الفن العربي في إسبانيا وصقلية، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، القاهرة — دار المعارف، 1980م.

● غومث :إميلو غارثيا

الشعر الأندلسي بحث في تطوره وخصائصه ،ترجمة :حسين مؤنس، ط2 ، القاهرة ،دار
الرشاد:1425هـ

مع شعراء الأندلس والمنتبي ، ترجمة الطاهر أحمد مكّي ، ط1 ، القاهرة ، دار المعارف
1978م.

ج - المراجع الأجنبية غير المترجمة :

- F.CORRIENTE:
DICCIONARIO ESPANOL ARABE , MADRID
, INSTITUTO HISPANO , ARABE DE CULTURA
.1970
- OLA ABDEL HAMID SOLMAN:
DICCIONARIO ESPANOL _ ARABE , IMPRESO
EN LIBANO, 2000.
- SERGIO REMEDIOS SANCHEZ:
LA RENDICION DE GRANADA , SEGUNDA
EDICION , ESPANA , MADRID, 2007.

● أحمد: عبدالرحيم يوسف

(النثر الفني في مملكة غرناطة) ، — جامعة القاهرة — دار العلوم ، 1991م ، رسالة
دكتوراه غير منشورة .

● خريوش: حسين .

"الثناء في الأدب الأندلسي" ، القاهرة ، جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، 1970 ، أطروحة
ماجستير ، غير منشورة .

● عبدالرازق: سعاد علي

(التصوف عند ابن قيم الجوزية) ، جامعة عين شمس ، كلية الآداب ، 1975م ، رسالة
دكتوراه غير منشورة.

● القلوسى: أبو بكر

"الختام المفوض عن خلاصة علم العروض" ، تحقيق: مزوار الإدريسي ، تطوان ، جامعة
عبد المالك السعدي ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، :2003م رسالة دكتوراه غير
منشورة.

● موافى: محمد عبد العزيز

(مهدي الجواهري وخصائص فنه)، القاهرة، دار العلوم: 1972 ، أطروحة ماجستير غير
منشورة.

● ميدان: أيمن

"اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة" ، القاهرة ، جامعة القاهرة ، كلية دار العلوم ، 1996م
، رسالة دكتوراه غير منشورة.

● نجلاء يونس

(اتجاهات الشعر الديني في مملكة غرناطة) ، القاهرة — دار العلوم ، رسالة ماجستير غير
منشورة.

● التازي : عبد الهادي.

(لماذا عيد المولد في الغرب الإسلامي؟)، مجلة دعوة الحق ، ع277 ، السنة 1410هـ —
1989م

● الجنابي : قيس كاظم

(من أنماط الصورة في الشعر العراقي الحديث)، مجلة البيان، ع273 ، ديسمبر 1988 م
الكويت.

● خليف : يوسف

(الشعر الجاهلي : نشأته و تطوره)، مجلة عالم الفكر ، مج4 ، ع4 سنة 1973م
الكويت.

● زمامة : عبدالقادر.

(نص أندلسي لم يُنشر — قصيدة ابن عبيديس يستنجد فيها بابن الأحمر لإنقاذ مدينة
جيان)، مجلة المناهل ، ع26 ، س10، جمادى الأولى/1403 ، مارس/1983 ، المغرب.
(بنو الأحمر في غرناطة)، إصدارات جامعة محمد الخامس ، ع26 ، السنة 13 ،
1396هـ — 1976م ، المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط.

● بن شريفة : محمد

(من أعلام التصوف بالأندلس في القرن السابع : ابن عبيديس النفزي)، مساهمة في
النهضة والتراكم — دراسات في تاريخ المغرب والنهضة العربية ، ط1 ، دار توبقال،
1986م. المغرب.

● المنوني : محمد

(ملاحم ودواوين في السيرة والمديح النبوي) ، دعوة الحق ، ع9 ، س9 ، 1960م.
المغرب.

فهرس المحتويات

العنوان:	الصفحة
المقدمة	1
التمهيد.....	12
الفصل الأول : (الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في إقليم غرناطة) .	
المبحث الأول : الحياة السياسية	18
المبحث الثاني : الحياة الاجتماعية	38
المبحث الثالث : الحياة الثقافية.....	56
المبحث الرابع : شعراء إقليم غرناطة	77
الفصل الثاني : أغراض الشعر في إقليم الغرناطي.....	131
2المبحث الأول: المدح.....	132
أ – المدح السياسي	133
ب – المدح النبوي.....	154
المبحث الثاني: الغزل.....	181
أ – الغزل الأنثوي.....	182
ب – الغزل الغلماي.....	201
المبحث الثالث :الرثاء.....	218
أ – رثاء الأشخاص	219
ب – رثاء المدن.....	235
المبحث الرابع :الحنين	254
أ – الحنين إلى الوطن	255
ب – الحنين إلى الطبيعة الأندلسية	261
ج – الحنين إلى الأهل والأصدقاء	266

272 د - الحنين إلى أيام الشباب
279 المبحث الخامس: الوصف
279 أ - وصف الطبيعة
294 ب - وصف المظاهر الحياة العامة
310 الفصل الثالث: القضايا الفنية في الشعر الغرناطي
312 المبحث الأول: اللغة الروافد والمقومات
351 المبحث الثاني: الصورة الفنية
352 أ - مفهوماها
354 ب - وسائل تشكيلها
365 ج - أنواعها
378 المبحث الثالث: الموسيقى
379 أ - الموسيقى الخارجية
409 ب - الموسيقى الداخلية
423 النتائج والتوصيات
436 الملاحق
437 الملحق الأول: شعر أبي عبد الله البرجي
450 الملحق الثاني: شعر أبي جعفر ابن شلبطور
455 الملحق الثالث: شعر أبي الطيب الرندي
464 الملحق الرابع: شعر أبي محمد ابن عبد العظيم
466 الملحق الخامس: رسم بياني لشجرة عائلة ابن الأحمر
468 فهرس المصادر والمراجع
491 فهرس المحتويات